وزارة المعارف العمومية

مهذب رحلة ابن بطوطة

المسماة

تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار

وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه

أحمد العوامرى بك و محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف — المفتش بوزارة المعارف

(حقوق هذه الطبعة محفوظة للوزارة)

الجزء الأول

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٣٣

فهـــرس
كتاب مهذب رحلة ابن بطوطة

العنوان	رقم الصفحة
مقدمة	ح
ترجمة ابن بطوطة	ر
مقدمة ابن جُزَىّ كاتب السلطان	١
وفود ابن بطوطة على الخليفة	٣
ابتداء الرحلة من بلاد المغرب	٥
وصوله مدينة الجزائر	٧
ذكر سلطان تونس	٩
وصف مدينة قابس	١١
وصف مدينة الإسكندرية وأبوابها ومرساها	١٢
ذكر منار الإسكندرية وعمود السوارى	١٣
ذكر بعض علماء الإسكندرية	١٥
وصف مدينة دمياط	٢٣
وصف مصر	٢٥
ذكر مسجد عمرو بن العاص	٢٧
ذكر قرافة مصر ومزاراتها	٢٨
ذكر نيل مصر	٢٩
ذكر الأهرام والبرابى ، وصف الأهرام	٣١
ذكر سلطان مصر	٣٢
ذكر بعض أمراء مصر	٣٣
ذكر القضاة بمصر	٣٤
ذكر بعض علماء مصر وأعيانها	٣٥
ذكر يوم المحمل بمصر وسفره إلى الصعيد	٣٦
حكاية خصيب	٣٧
عودة ابن بطوطة إلى شمالى مصر	٤٣
دخول الشام ووصف مدنه	٤٤
ذكر المسجد المقدس وقبة الصخرة	٤٧

رقم الصفحة	العنوان
٤٨	ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف ، وذكر بعض فضلاء القدس... ...
٥٠	وصف مدينة صور ... ...
٥٢	وصف مدينة طرابلس الشام ... ...
٥٥	وصف مدينة حلب ... ...
٦٣	حكاية أدهم ... ...
٦٨	وصف دمشق ... ...
٧١	ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية ... ...
٧٦	ذكر المدرسين والمعلمين به ... ...
٧٨	ذكر مدارس دمشق وأبوابها ومشاهدها ومزاراتها ... ...
٨٠	ذكر أرباض دمشق وقاسيون ومشاهده المباركة ... ...
٨١	ذكر الربوة والقرى التي تواليها ... ...
٨٣	ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعاداتهم ... ...
٨٧	ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها ... ...
٨٨	وصف تبوك ... ...
٩٠	طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده وروضته الشريفة ... ...
٩١	ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم ... ...
٩٤	ذكر المنبر الكريم ... ...
٩٥	ذكر الخطيب والإمام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ...
٩٥	ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به ... ...
٩٦	ذكر أمير المدينة الشريفة ... ...
٩٦	ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة ... ...
١٠٠	وصف الطريق إلى مكة ... ...
١٠٣	ذكر مكة المعظمة ... ...
١٠٤	وصف المسجد الحرام شرفه الله وكرمه ... ...
١٠٥	ذكر الكعبة المعظمة ... ...
١٠٧	ذكر الميزاب المبارك والحجر الأسود ... ...
١٠٨	ذكر المقام الكريم ... ...
١٠٩	ذكر الحجر والمطاف وزمزم المباركة... ... ...

العنوان	رقم الصفحة
ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة...	١١٠
ذكر الصفا والمروة	١١٣
ذكر الجبانة المباركة	١١٤
ذكر بعض المشاهد خارج مكة	١١٤
ذكر الجبال المطيفة بمكة	١١٦
ذكر أميرى مكة وأهلها وفضائلهم	١١٩
ذكر عادة أهل مكة فى صلواتهم...	١٢٠
ذكر عادتهم فى الخطبة وصلاة الجمعة	١٢١
ذكر عادتهم فى استهلال الشهور	١٢٢
ذكر عادتهم فى شهر رجب وعمرة رجب	١٢٣
ذكر عادتهم فى ليلة النصف من شعبان...	١٢٦
ذكر عادتهم فى شهر رمضان	١٢٦
ذكر عادتهم فى شوال	١٢٨
ذكر إحرام الكعبة	١٢٨
ذكر شعائر الحج وأعماله	١٢٩
ذكر كسوة الكعبة	١٣١
ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله	١٣١
ذكر الروضة والقبور التى بها	١٣٦
ذكر نقيب الأشراف...	١٣٧
ذكر مدينة واسط	١٣٨
ذكر مدينة البصرة	١٣٩
حكاية اعتبار	١٤٠
ذكر المشاهد المباركة بالبصرة	١٤١
وصف مدينة تُسْتَر	١٤٥
ذكر ملك إيذج وتستر...	١٤٧
وصف شيراز	١٥٥
حكاية فى سبب تعظيمه قاضى شيراز	١٥٦
ذكر سلطان شيراز	١٥٩

العنوان	رقم الصفحة
ذكر بعض المشاهد بشيراز	١٦٣
مدينة الكوفة	١٧٠
مدينة بغداد	١٧٢
ذكر الجانب الغربي من بغداد	١٧٥
ذكر الجانب الشرقي منها	١٧٥
قبور بعض الخلفاء ببغداد	١٧٦
ترتيب ملك العراق في رحيله	١٧٧
العودة إلى بغداد	١٧٩
مدينة الموصل	١٨٠
سلطان ماردين	١٨٣
الرجوع إلى بغداد	١٨٣
سلطان جزيرة سواكن	١٨٨
سلطان حلي	١٩٠
كرامة لأحمد بن العجيل	١٩١
سلطان اليمن	١٩٢
مدينة صنعاء ، ومدينة عدن	١٩٤
مدينة زيلع	١٩٥
سلطان مقدشو	١٩٦
سلطان كلوا	٢٠١
حكاية من مكارم سلطان كلوا	٢٠١
التانبول	٢٠٥
سلطان ظفار	٢٠٨
سلطان عمان	٢١٤
السفر إلى هرمز	٢١٥
سلطان هرمز	٢١٦
سلطان لار	٢١٩
مغاص الجوهر	٢٢٠
العودة إلى الحجاز	٢٢١
العودة إلى صعيد مصر	٢٢٣

العنوان	رقم الصفحة
سلطان العلايا	٢٢٤
(الأخيّة) الفتيان	٢٢٥
وصف الضيافة	٢٢٧
سلطان أنطاكية	٢٢٨
سلطان أكريدور	٢٢٩
سلطان قُل حِصار	٢٣٠
سلطان لاذق	٢٣١
سلطان ميلاس	٢٣٣
مدينة قونية	٢٣٤
سلطان اللارندة	٢٣٥
مدينة سيواس	٢٣٧
مدينة بِرْكى	٢٣٩
سلطان بِركى	٢٤١
مدينة تيرة	٢٤٤
مدينة أياسُلُوق	٢٤٤
يزمير	٢٤٥
سلطان مَغْنيسيّة	٢٤٦
سلطان بَرْغمة	٢٤٧
سلطان بَلِى كَسْرى	٢٤٨
سلطان بُرْصَا	٢٤٩
سلطان كُرْدِى بُولِى	٢٥٥
السفر إلى قصطَمونية	٢٥٦
سلطان قصطمونية	٢٥٧
عجلات مدينة السَّرا	٢٦٣
مدينة أزاق	٢٦٦
السلطان أوزبك خان وترتيبه فى سفره	٢٧١
الخواتين وترتيبهن	٢٧٣
الخاتون الكبرى والثانية	٢٧٤
الخاتون الثالثة والرابعة	٢٧٥
بنت السلطان أوزبك وولداه	٢٧٦

رقم الصفحة	العنوان
٢٧٧	السفر إلى مدينة بلغار وأرض الظلمة ... ...
٢٧٩	ترتيبهم في العيد ... ...
٢٨٣	السفر إلى القسطنطينية ... ...
٢٨٨	سلطان القسطنطينية ... ...
٢٩٠	وصف القسطنطينية ... ...
٢٩١	وصف الكنيسة العظمى ... ...
٢٩٢	الملك جرجيس ... ...
٢٩٣	قاضي القسطنطينية ... ...
٢٩٤	الانصراف عن القسطنطينية ... ...
٢٩٥	مدينة السَّرا ... ...
٢٩٧	مدينة خُوارَزْم ... ...
٢٩٩	أمير خُوارَزْم ... ...
٣٠٢	بطيخ خُوارَزْم ... ...
٣٠٢	مدينة ألكات ... ...
٣٠٣	التتر وتخريبهم بخارى ... ...
٣٠٦	سلطان ما وراء النهر ... ...
٣٠٧	السلطان طَرْمَشِيرين ... ...
٣١٠	كتاب تنكيز خان ... ...
٣١٢	بوزن ومعاملته للمسلمين ... ...
٣١٤	سَمَرْقَنْد وقبر قُثَم بن العباس ... ...
٣١٦	مدينة ترمذ ... ...
٣١٧	مدينة بَلْخ ... ...
٣١٨	قبر عكاشة ... ...
٣١٩	سلطان هَرَاة والرافضة ... ...
٣٢١	قتل الفقيه نظام الدين ... ...
٣٢٣	مدينة طوس ... ...
٣٢٤	مدينة نَيْسابور ... ...
٣٢٥	مدينة بِسْطام ... ...
٣٢٧	أبو الأولياء وقرية الجَرْخ ... ...
٣٢٨	غَزْنة وكابُل ... ...
٣٢٩	بَنْج آب ... ...

مقـــدّمة

لما كلفتنا وزارة المعارف تهذيب رحلة ابن بطوطة ، ليقرأها طلبة السنة الرابعة من المدارس الثانوية ، وجدنا أنفسنا أمام عمل خطير ، لما يقتضيه من بحث وتنقيب ومراجعة ، لكثرة ما وقع فى النسخ المطبوعة فى مصر من تحريف وتغيير وتبديل ، مما اجترحه جهلة النساخ فى خلال تلك الأحقاب المتطاولة .

ولقد كنا نطالع بعض الفِقَر فلا نجد لها معنى يساغ ، فنتلمس ما قد يقع بأيدينا من مختلف الطبعات ، علّنا نصيب جادّة الصواب . ولكنا كثيرا ما كنا نخطئها ، فنفضل أن نمحو تلك الفقر ، ضَنَانة بوقت الطالب أن يذهب فى غير جدْوى ، كما محونا ما أسهب فيه المؤلف مما يُمِلُّ المطالع ويضجره .

ولا نكتم القارئ أن ابن بطوطة لم يكن ليتحرز أحيانا من أن يجمح قلمه بألفاظ وعبارات يأباها الحياء . فعمدنا إلى مثل هذا فمحوناه، توقيا وتحرُّزا ، وتنزيها للطالب أن يقع بصره أو يطرق سمعه ما يُستحيا منه .

ولم نبال أيضا أن نغير بعض العبارات والألفاظ ونهذبها طبقا لأصول اللغة ، لما ذكرنا آنفا من عَبَث النساخ وتحريفهم الكلم عن مواضعه .

على أن لابن بطوطة نفسه تعبيرات غريبة ، وأساليب قد تخالف ما نعهده للفصحاء وأئمة القول . فما وجدنا له منها مسوغا أبقيناه ، وإلا أصلحناه ، أو استبدلنا به مرادفا ، أو شرحنا مراده منه فى الحاشية ، إن لم يكن عنه مُنْتَدَح . ورجل حِلف أسفار وجوّاب آفاق كابن بطوطة ، لم يكن لديه من الوقت ما يتسع للتحرى والتأنق فى العبارة : وإنما كانت تقييدات عاجلة ، وملحوظات خاطفة ، لخصها فيما بعد ابن جُزَىّ كاتب السلطان ، كما يرى فى مفتتح الكتاب وخاتمته .

وله أيضا أساليب وألوان مختلفة من التعبير ، وضروب متغايرة من الإنشاء : فمن الجزل الرائق العذب ، إلى المضطرب المعقد . وبينما تجده آونة يعنى بالتافه من الشيء يصفه ويطنب فى وصفه ، إذ هو صامت أمام ما تشتاق فيه النفس الشرح الشافى والإيضاح المستوعب : ذلك بأنه كان يعتلج فى نفسه إذ يكتب من نوازع اليأس والرجاء ، والخوف والأمن ، والحزن والجذل ، ما نلمسه فى تضاعيف الكتاب جميعا .

وبعد فإن الطالب سيجد فى هذه (الرحلة) متعة لنفسه ، ونزهة لخاطره ؛ وأنسا لوحدته ، وشحذا لقريحته ، لما فيها من فنون الوصف البديع لحوادث وبلاد وأصقاع ، ونبات وحيوان ومعادن ، وهياكل وقصور ومصانع ؛ وملوك ورجال ، وأخلاق وعادات ، وحضارات بَذَخت ثم اندكت ؛ ومدنيات بزغت ثم أَفَلَت .

وسيعلم الطالب أيضا بمُسايرته لهذا الرحالة الفذ فى جولانه واضطرابه ، أنه دقيق الملاحظة ، نافذ البصر ، مرّ النقد ، كَلِف بدراسة الطبائع الإنسانية ، حريص على أن يُودِع كتابه من تجاريبه وملاحظاته كل مفيد نافع . فهو بحق إمام علماء تقويم البلدان السابقين الأولين الذين ساروا فى الأرض فنظروا ، واخترقوا الآفاق فكشفوا .

ثم إنا تركنا للرجل جلّ آرائه وعقائده ، وإن كان بعضها من الخرافة والسُّخْف بمكان ، حرصا منا على أن يبرز للقارئ على حقيقته ، وإبقاء على عصر وبيئة من الحق أن يمثلا للعيان غير منقوصيْن .

وقد عُنينا أن نشرح فى الحاشية ما قد يعتاص على الطالب . ولم نكن فى ذلك بمستوعبين ، بل تركنا للمدرس إكمال النقص ، وشرح الموجز . ولو أن الوقت انفسح أمامنا لحققنا فى هذه السبيل ما نبتغيه من كمال .

ولم نأل جهدا أن نراجع المصادر الموثوق بها لضبط أسماء الرجال أو الأمكنة ، أو غير ذلك مما لم يتعرض المؤلف لضبطه . وانتفعنا فى هذا الباب وغيره من وجوه التمحيص والتحقيق بالنسخة المطبوعة فى باريس سنة ١٨٥٨ م مع ترجمتها الفرنسية ، للمستشرقين س . دِ فْرِمَرِى والدكتور ب . ر . سَانْجِونِتى. فقد بذل هذان الفاضلان فى تحرى الصحة فى طبع الأصل العربى ما ليس وراءه غاية لمستزيد ، و إن كان لا يخلو من هفوات وزلات. وجاءت الترجمة الفرنسية ، فأوضحت ما خفى ، وأبانت ما استغلق . وهكذا يفعل هؤلاء المستشرقون فيما يتناولون من آثار العرب بالدراسة . فهناك التحقيق والتدقيق والعلم الغزير . وما توفيقنا إلا بالله . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

محمد أحمد جاد المولى . أحمد العوامرى

ترجمة ابن بطوطة

الجوابون من العرب قبل ابن بطوطة وآثارهم

أسباب الرحلات :

اقتضت أحوال البلاد الإسلامية أن تكثر الرحلات حين اتسعت رقعة الاسلام ، وانشعبت سلطة الخلافة بين الملوك والأمراء ، حتى استقل بعضهم بحكم ما ولى من البلاد ، إذ كانت عناية الخلفاء حينئذ منصرفة إلى توثيق عرا المودة بين أولئك الأمراء ، ليقووا على صد غارات من يناوئهم من الأعداء ، وقمع ما يحدث من الفتن فى داخل البلاد .

فجابوا البلاد لدراسة أحوالها ومعرفة سهلها ووعرها ، وجبالها وأوديتها ، وطرقها البرية والبحرية ، وما تنتجه أرضها من أنواع الغلات ، حتى يجبى الخراج بنسبة ذلك . ونظموا البريد وقاسوا الأبعاد بين البلاد .

ومن أولئك الجوابين الذين ساحوا فى القرن العاشر الميلادى ابن خرداذبة سنة ٩١٢ ، واليعقوبى وقدامة سنة ٩٢٢ ، والبلخى سنة ٩٣٤ ، وابن حوقل سنة ٩٨١ . وقد كتبوا فيما شاهدوه من أحوال البلاد التى زاروها كتبا قيمة .

وقد كانت الرحلات فى أول أمرها رسمية لإيجاد الصلة والتعاون بين أمراء البلاد وحكامها . لهذا لم يتجاوز الجوابون حدود البلاد الإسلامية إلى غيرها ، فكانوا فى كل ما كتبوه لا يعدون وصف ما شاهدوه فى بلاد المسلمين . وهذا ما جعل رحلاتهم ضيقة النطاق ، ذات فائدة محدودة .

ولكن التجار من المسلمين وغير المسلمين اجتازوا حدود البلاد الإسلامية إلى ما تاخمها من الممالك الأجنبية ، يطلبون ما فيها من عروض التجارة ، وابتغاء للرزق بالضرب فى الأرض ، فجابوا أقطار الأرض شمالا إلى بلاد الفِرَاء . وطلبوا المعادن فى الجنوب حتى مقاطعات النُّوبة ، وفى الغرب وصلوا إلى جبل طارق . وفى الشرق إلى بلاد الحرير والعاج والأفاويه المختلفة .

وبالرحلات الرسمية والتجارية دُرست أحوال البلاد الإسلامية ومايجاورها من الممالك . ولكن التجار لم يكونوا ليتحروا الصدق فيما ينقلون من الأخبار ، ومايشاهدون من أحوال الأمم التى خالطوها ، فألبسوا جل حكاياتهم وأخبارهم ثوبا من الخيال ، جعلها سائغة مقبولة ، وإن بعدت عن الحقيقة . وفيما ذكر فى سفرات السندباد البحرى ، على ما فيها من الخيال ، مايدلنا على ما كان يقاسيه تجار ذلك العهد من مشاق السفر وويلاته .

وهناك عدا ما تقدم من الأسباب السياسية والتجارية سبب مهم يدعو إلى الرحلة وهو أداء فريضة الحج ، فقد أتاحت هذه الأسفار لكثير من قصَّاد بيت الله الحرام أن يصفوا مايشاهدون فى طريقهم للحج . ومن هؤلاء ابن جبير الأندلسى ، وابن سعيد المغربى .

آثارهم :

معجم البلدان — وهو لياقوت الرومى . كتبه بعد أن رحل للتجارة ثلاث مرات ، وطوّف ما طوّف . ثم أتبعها سفرات أخرى لم تنقطع إلا قبل وفاته بسنتين فقط ، من ١١٧٩ الى ١٢٢٩ من الميلاد . وقد كان لكتابه هذا أثر عظيم فى علم الجغرافية . ويعد " معجم البلدان " من الكتب النادرة التى لا يستغنى عنها عالم أو متعلم .

عجائب البلدان — وهو لأبى دلف بن مهلهل الشاعر، وهو من أقدم جوابى العرب وسياحهم . خرج من بلاده سائحا ، تشوقه غرائب الشعوب ، وتدفع به عجائب المخلوقات ، فسافر إلى بلاد الهند مع أحد أمرائها ، فزار بلاد الهند وكشمير وأفغانستان . ثم كتب كتابه هذا . وقد استعان به كثيرا ياقوت والقزوينى .

مروج الذهب — للمسعودى ، كتبه بعد أن سافر إلى بلاد الفرس سنة ٩١٥ م والهند والخزر والتبت وجزيرة سرنديب ، ومنها عاد عن طريق عُمان ، وقصد شاطئ بحر الخزر ، فزار بلاد الروم وسوريا وفلسطين ومصر والسودان . ولشدة وَلُوعه بجوب الآفاق ورغبته فى الوقوف على أحوال العالم ، خرج للسياحة ولم يسلخ العشرين من سنى حياته .

تاريخ الهنـــد — لأبى الريحان محمد البيرونى ، الفيلسوف الرياضى الفلكى الجوّاب ، وقد كان مُولَعا بالأسفار ، محبا للانتجاع والغربة ، فسافر إلى بلاد الهند وجاب آفاقها ودرس أخلاق أهلها دراســة علميــة صحيحة ، أساسها النظر والاعتبار . فجاء كتابه من أوفى الكتب تعريفا بأحوال الهند .

المسالك والممـالك — لأبى عبيد البكرى الأندلسى ، ألفه بعد سياحة طويلة المدى فى بلاد الشرق والغرب .

رحلة ابن جبير — ألفها بعد أن جاب بلاد الشرق مرتيـــن ، وقد كتبها بعبـارة مونقة ، إلا أنه يغلب فيها السجع المتكلف . وهى كتاب جزيل الفائدة جليل النفع . وتمتاز هذه الرحلة عن رحلة ابن بطوطة بصدق الوصف ودقة الرواية وحسن العبارة .

المُغْرب — وهو للكاتب الأديب ابن سعيد المغربى ، وقد أودعه كثيرا من أخبار أسفاره إلى بلاد المشرق ، بعد أن رحل إلى بغداد وحلب وبلاد الشام وبلاد أرمينية ، وما زال كَلِفا بالأسفار والتنقل بين الأقطار حتى مات فى دمشق وهو راجع إلى بلاد المغرب سنة ١٢٧٤ م .

ابن بطوطة ورحلته

١٣٠٤ — ١٣٧٧ م

نشأته — نشأ ابن بطوطة فى طنجة وأقام بها حتى ١٣٢٥ م واسمه محمد ابن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطَّنجى ، وكنيته أبو عبد الله ، ولقبه شمس الدين ، و يعرف بابن بطوطة . وكان مولده فى طنجة فى ١٧ من رجب سنة ٧٠٣ هـ . وقد أقام بها حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره . وقد نشأ بين أهله وذويه فى بسطة من العيش وطمأنينة بال ، فلم يكن يخطر له أن يزايل أهله ، ويهجر وطنه ويسافر إلى غير بلاده ، حتى دعاه داعى الحج ، فخرج ملبيا داعى الله .

أخلاقه وصفاته — إن المطلع على رحلة ابن بطوطة يستشف من خلال كلامه عن نفسه أنه كان شديد التأثر ، يقظ الوجدان ، رقيق العاطفة ، تقيا محبا لوالديه ، معظما للأتقياء والصالحين ، يزور قبورهم للتبرك بهم ، و يروى كثيرا من كراماتهم وما ينسب إليهم من أعمال البر ، كإقامة الزوايا والتكايا ، وحبس الأوقاف الكثيرة عليها . ومما يدل على شدة ورعه وتقواه أنه كان لا يفتأ يذكر أن ما مُتِّع به فى حياته من نعمة وجاه إنما كان لأنه حج أربع حجات .

أما حبه لوالديه فقد أفصح عنه أيَّما إفصاح ، حيث يقول فى مقدمة رحلته : إنه تركهما (فتحمل لبعدهما وصبا ، كما لقى من الفراق نصبا) . و إنه لما عاد من رحلته الأولى و بلغه موت أمه حزن حزنا شديدا قطعه عن كل شىء ، حتى صلته بحاشية الملك أبى عنان فى فاس — وهى مصدر ما لقيه من تكريم ونعمة — وسافر لزيارة قبر والدته .

وأما سرعة تأثره فإنا نسوق إليك قوله وقد وصل إلى تونس : (فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبدالله الزبيدى، ولقاء أبي الطيب ابن القاضي أبي عبدالله النفزاوى . فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلم علىَّ أحد لعدم معرفتي بهم . فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة . واشتد بكائى ، فشعر بحالى بعض الحجاج ، فأقبل علىَّ بالسلام والإيناس . وما زال يؤانسني بحديثه ، حتى دخلت المدينة ونزلت فيها بمدرسة الكتبيين).

وما ظنك برجل يعد من أفضل أصدقائه وأوفاهم له من يقدم عليه فيلقاه بالبشر والإيناس ، ويكرمه ولو مرة واحدة . ولعمرى تلك سجية إن دلت على شيء فإنما تدل على ما في الرجل من صفاء النفس وطهارة القلب ونقاء السريرة ، وإن لم يكن فيها الاعتداد بالأخذ بالحذر والحيطة في اصطفاء الإخوان والأصدقاء ، ولا سيما من كان مثله غريبا نائيا عن أهله وبلاده .

رحلاته : ١٣٢٥ — ١٣٥٤ م .

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات واسعة النطاق ، جاب فيها أكثر ما عرف في زمانه من البلاد .

الرحلة الأولى : ١٣٢٥ — ١٣٤٩ م .

قضى ابن بطوطة في رحلته الأولى ٢٤ سنة : فخرج من طنجة في سنة ١٣٢٥م للحج ، فمر بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر . ثم قصد إلى عيذاب على البحر مارا ببلاد الصعيد ليجتاز البحر الأحمر ، فلم يتهيأ له ذلك ، للحرب التي كانت قائمة بين المماليك والبجاة ، فعاد إلى الفسطاط . ثم رحل عنها إلى فلسطين ولبنان وسوريا والحجاز ، فحج حجته الأولى . ومن مكة سافر

إلى بلاد العراق والعجم و بلاد الأناضول. ثم عاد إلى مكة، فحج حجته الثانية، وأقام بها سنتين . ثم غادرها إلى اليمن واجتاز البحر إلى إفريقية الشرقية . ثم عاد منها مارا بجنوبى جزيرة العرب حتى الخليج الفارسى ، فزار عمان والبحرين والأحساء. ثم رجع إلى مكة، فحج حجته الثالثة . ثم خرج من مكة إلى بلاد الهند، فمر بخوارزم وخراسان وتركستان وأفغانستان وكابول والسند. وتولى القضاء فى دهلى على المذهب المالكى للسلطان محمد شاه . ولما أراد السلطان محمد أن يرسل وفدا إلى ملك الصين ، خرج ابن بطوطة فيه . وفى عودته مر بجزيرة سرنديب وجزائر الهند والصين . ومن ثم عاد إلى بلاد العرب عن طريق سومطرة سنة ١٣٤٧ م، فزار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين . ومنها إلى مكة ، فحج حجته الرابعة .

و بعد هذا رأى أن يعود إلى وطنه، فمر بمصروتونس والجزائرومراكش، فوصل فاس سنة ١٣٤٩ م .

الرحلة الثانية :

لم يقم ابن بطوطة فى فاس طويلا ، حتى وجد فى نفسه نزوعا إلى السفر إلى بلاد الأندلس ، فمر فى طريقه بطنجة وجبل طارق وغَرناطة . ثم عاد إلى فاس .

الرحلة الثالثة : ١٣٥٢ — ١٣٥٤ م .

كانت رحلته الثالثة إلى بلاد السودان مبتدئة بسجلماسة ، ثم تغازا ومالِّى وزاغَرِى وكارسخو وتمبكتو وتكدًّا وهكَّار، ومن هناك رجع إلى فاس . ويعد ابن بطوطة أول سائح كتب عن مجاهل إفريقية المتوسطة .

إملاؤه الرحلة :

اتصل ابن بطوطة بالسلطان أبى عنان من بنى مرين ، وأقام فى حاشيته يحدث الناس بما رآه من عجائب الأسفار ، وهم يستغربون ذلك . فلقى من لدن السلطان من جميل الرعاية ما حبب إليه البقاء فى حاشيته ، حتى مات فى بلاد فاس سنة ١٣٧٧ م . ولما علم السلطان بأمره وما ينقله من طرائف الأخبار عن البلاد التى زارها أمر كاتبه الأديب محمد بن جُزَىّ الكلبى أن يكتب ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة ، فانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٦ م ، وسماها (تحفة النظار ، فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار) .

صدقه وأمانته فى النقل :

قد كان ابن بطوطة يحدّث الناس بما رأى من عجيب صنع الله فى خلق الحيوان والنبات ، وما شاهده من أخلاق الأمم وعاداتهم وأحوالهم ، مما يعد غريبا عند من لم يره أو يقع مثله له . فانبرى له جماعة من معانديه وحساده ، ممن نفسوا عليه منزلته لدى السلطان ، يكذبونه ويسفهون رأيه ، ويعدون ما أتى به حديث خرافة وافتراء . ولكنه كان يلقى من بعض المنصفين تأييدا وإنصاتا لما يرويه ، ما دام فى حيز الممكن المعقول ، وما دام لم يقم على نفيه دليل من السماع أو الرؤية .

وقد نبه ابن بطوطة برحلته الأفكار ، وأيقظها بعد طول سباتها ، ووجه الأنظار إليه ، فكان الناس فيما قال بين مصدق ومكذب . وقد أتى ابن خلدون فى مقدمته بما يكشف لنا عن حال ابن بطوطة فى أهل زمانه حيث يقول :

(ورد بالمغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل مدينة دهلى حاضرة

ملك الهند ، وهو السلطان محمد شاه . وكان له منه مكان . واستعمله فى خطة القضاء بمذهب المالكية فى عمله . ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان . وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض . وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ، ويأتى من أحواله بما يستغرب به السامعون : مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان ، وفرض لهم رزق ستة أشهر تعطى لهم من عطائه ، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ، ويطوفون به ، وينصب أمامه فى ذلك الحفل منجنيقات ، ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه . وأمثال هذه الحكايات . فتناجى الناس بتكذيبه) .

وليس ابن خلدون أول من شك فيما قاله ابن بطوطة ، فقد أبدى كاتب الرحلة ابن جزى الشك فى بعض ما نقله الرحالة فقال :

(وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار) .

وقد عنى كثير من علماء المستشرقين بمقابلة أقوال ابن بطوطة بأقوال غيره من جوابيهم فى عصره ، أو فى عصر يقرب من عصره ، فبدا لهم صدق قوله ، وخلوه من الغلو . ولو ظهر لهم كذب روايته أو غلوه فيما نقله من الأخبار لنشروه وحرصوا على إذاعته ، وهم على ما نعلم من وفور العلم وصدق البحث وقوة الاستنباط ، والقدرة على تمحيص الحقائق ، والتمييز بين غث القول وسمينه .

وإنه لمن الصعب على الناقد العدل أن يقول عن ابن بطوطة : إنه كذب متعمدا فيما رواه ، فإن أقواله تنم على سذاجة فى الطبع . والمتصف بهذا يبعد عليه أن يتعمد الكذب ، أو يحاول الغش فيما يقول : فقد كان يسوق

الحكاية ، فإذا نسى اسم صاحبها قال : قد أنسيته . وقد كانت له مندوحة عن أن يصف نفســه بالنسيان باختراع اسم لصاحب الحكاية ، كما يفعل بعض الذين يسوقون الحكايات تسلية للسامعين . وكثيرا ما كان يصنع مثل هذا فى أسمـاء الأماكن والبلاد .

ومن هذا نعلم أن رحالتنا كان يجتهد فى تحرى الحقيقة، ويشعر بأنه مأخوذ بمـا يقول. وحسبه أن العلامة دوزى سماه (الرحالة الأمين) .

ابن بطوطة بين الجوابين :

ونحن إذ ننصف الرجل ونقول فيه ما قلنا ، لا نقصد بهذا أن ننزله منزلة الجوابين فى العصر الحاضر من العلماء والمفكرين ، الذين يخرجون زرافات ووحدانا ، لجوّب البلاد ودراسة أحوالها دراسة علمية صحيحة، قائمة على العلم وصدق الاستنباط ، و يتعرفون أخلاق الأمم وأحوالهم ، فى معاشهم وطرق كسب العيش عندهم ، ومبلغ رقيهم وتقدمهــم فى الحضارة والعلم ، وحالتهم السياسية والاجتماعية . فإن ابن بطوطة فى رحلته لم يكن إلا وصافا لمشاهد رآها ، سَرَّه بعضها وأحزنه بعضها ، فذكرها على حالها بعبارة مقبولة ساذجة . وقد يعقب ذلك بملاحظة لا تخلو من دقة نظر . وهو بهــذا قد أفاد علم الجغرافية ، وصرفه إلى ما يتعلق بالحياة العملية ، فصار سهلا مقبولا ، بعد أن كان صعبا مرذولا .

أسلوب الرحلة :

إن الذى يقرأ الكتاب من أوله إلى آخره ، يرى أن مقدمتــه وخاتمته كتبتا بعبارة فيها شىء من التنميق والسجع المتكلف ، وكذلك كل مقدمة

لوصف مدينة عظيمة . ويغلب على الظن أن هذا كتب بقلم ابن جزى ، لأنه هو الذى تولى تلخيص الرحلة والنظر فى أبوابها وأقسامها . وفيما له من سعة الوقت وانفساح المجال ، للظهور بمظهر الكاتب الأديب فى حاشية السلطان ، ما يحمله على التأنق فى عبارة الكتاب وتحسينها جهد المستطاع . ولا سيما إذا أضفنا إلى هذا أن ابن جزى كان يستعين فى كتابة بعض الموضوعات برحلة ابن جبير ، وهى كثيرة التنميق والسجع .

وفى غير ما تقدم نجد عبارة الكتاب سهلة لا تأنق فيها ولا تكلف ، حتى إنها لتبدو فى بعض الموضوعات خالية من الترتيب والتأليف ، على نسق يقرب من إنشاء العامة .

عناية الإفرنج بالرحلة :

جد كثير من المستشرقين فى البحث عن نسخ الرحلة الأصلية زمنا طويلا ، فعثر السائح "يوركنهاردت" على مختصر لها ، فظهرت به قيمة هذا المؤلف العظيم .

ثم جاء بعده "كوسفارتن" فبحث حتى عثر على نسخة أخرى ، فترجم عنها إلى اللاتينية أسفار ابن بطوطة إلى بلاد إفريقية وفارس وبلاد التتر والجزائر ونشرها سنة ١٨٨١ م .

وفى سنة ١٨٢٩ م ترجم القس "صموئيل لى" قسما كبيرا منها إلى اللغة الإنجليزية وطبعه فى لندن .

وبعد ذلك قام العالمان الفرنسيان "دى سلان" و"ادوارد ديلوريه" فترجم كل منهما قسما من الرحلة نشر فى المجلة الأسيوية سنة ١٨٤٣ و ١٨٤٧ م .

وما زال أولئك العلماء ينقبون و يبحثون، حتى عثروا على نسخ من الكتاب كاملة ، فقو بل بعضها ببعض ، وطبعت مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسية فى باريس سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٩ م فى مجلدات أربعة ، بتحقيق العالمين المستشرقين " دفريمرى " و " سانجونتى " .

و بعد هذا طبعت الرحلة فى القاهرة طبعتين عربيتين عن الطبعة الباريسية فى مجلدين ، الأولى سنة ١٨٧١ — ١٨٧٥ م والثانية سنة ١٩٠٤ م .

ثم طبعت فى هامبورغ مترجمة إلى اللغة الألمانية سنة ١٩١١ — ١٩١٢م طبعها المستشرق " مزيك " .

وللرحلة ترجمة تركية اسمها (تقويم وقائع) .

قيمة الرحلة :

تحوى الرحلة كثيرا من طريف الأخبار ، ونادر الحكايات ، وعجائب المخلوقات ، فى الحيوان والنبات ، فكان لذلك أثر ظاهر فى تقدم علم الجغرافية ونمو الثروة الأدبية لدى المتأدبين .

وحسب الكتاب أن يشهد بفضله على العلم والأدب الرحالة الشهير والعالم الكبير " سيترن " فيقول ما معناه : (أى سائح أور بى يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة فى البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة ، وتحمل من مشاق الأسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة ؟ بل أى أمة أور بية كان يمكنها منذ خمسة قرون

أن تجد من أبنائها من يجوب البلاد الأجنبية، وفيه من الاستقلال بالحكم ، والقدرة على الملاحظة، والدقة فى الكتابة، ما لهذا الرحالة العظيم ؟ إن ما جاء به من المعلومات الصحيحة عن جهات إفريقية المجهولة لا يقل فى فائدته عن معلومات " لاون " الإفريقى .

أما جغرافية بلاد العرب و بخارى وكابول وقندهار ، فقد استفادت من الرحلة كثيرا . وفيما كتبه عن الهند و جزيرة سرنديب من المعلومات المفيدة ما يدعو انجليز الهند إلى قراءته ، فإن فيه ما يفيدهم فى سياستهم) اهـ .

أحمد العوامرى　　　　محمد أحمد جاد المولى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة ابن جُزَىّ كاتب السلطان

قال الشيخ الفقيه ، العالم الثقة النبيه ، الناسك الأبرّ ، وفد الله المعتمر ، شرف الدين ، المعتمد فى سياحته على رب العالمين ، أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللَّوَاتِى[1] ثم الطَّنْجى ، المعروف بابن بطوطة ، رحمه الله ورضى عنه بمنه وكرمه آمين .

الحمد لله الذى ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا ، وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاثَ نباتا وإعادة وإخراجا ، دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد ، وأرساها بالأعلام الراسيات والأطواد ، ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد ، وأطلع الكواكب هداية فى ظلمات البر والبحر ، وجعل القمر نورا والشمس سراجا ، ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد الممات ، وأنبت فيها من كل الثمرات ، وفطر أقطارها بصنوف النبات ، وفجر البحرين عذبا فراتا ، وملحا أُجاجا ، وأكمل على خلقه الإنعام ، بتذليل مطايا الأَنعام ، وتسخير المنشآت كالأعلام ، ليمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر أَثْباجا[2] ؛ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذى أوضح للخلق منهاجا ، وطلع نور هدايته وهاجا ؛ بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، واختاره خاتما للنبيين ، وأمكن صوارمه من رقاب المشركين ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأيده بالمعجزات الباهرات ، وأنطق بتصديقه

---

(١) اللَّوَاتى : نسبة للَوَاتَة كسَحَابة وهى قبيلة بالبربر .

(٢) الأثباج : جمع ثَبَج ما بين الكاهل إلى الظهر . ومن المجاز : (ركب ثَبَجَ البحر) .

الجمادات ، وأحيا بدعوته الرمم الباليات ، وبجر من بين أنامله ماء ثجّاجا ، ورضى الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء إليه أصحابا وآلا وأزواجا ، المقيمين قناة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا ، فهم الذين آزروه على جهاد الأعداء ، وظاهروه على إظهار الملة البيضاء ، وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصر والإيواء ، واقتحموا دونه نار البأس حامية ، وخاضوا بحر الموت عجّاجا ؛ ونستوهب الله تعالى لمولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين ، المتوكل على رب العالمين ، المجاهد فى سبيل الله ، المؤيد بنصر الله ، أبى عنان[1] فارس ، ابن موالينا الأئمة المهتدين ، الخلفاء الراشدين ، نصرا يُوسِعُ الدنيا وأهلها ابتهاجا ، وسعدا يكون لزمانة الزمان علاجا ، كما وهبه الله بأسا وجودا لم يدع طاغيا ولا محتاجا ، وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا .

(وبعد) فقد قضت العقول ، وحكم المعقول والمنقول ، بأن هذه الخلافة العلية ، المجاهدة المتوكلية الفارسية ، هى ظل الله الممدود على الأنام ، وحبله الذى به الاعتصام ، وفى سلك طاعته يجب الانتظام ، فهى التى أبرأت الدين عند اعتلاله ، وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله ، وأصلحت الأيام بعد فسادها ، ونَفَّقَتْ سوق العلم بعد كسادها ، وأوضحت طرق البر عند إنهاجها ، وسَكَّنَتْ أقطار الأرض عند ارتجاجها ، وأحيت سنن المكارم بعد مماتها ، وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها ، وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ، ونقَضت أحكام البغى عند استقلالها ، وشادت مبانىَ الحق على عماد التقوى ، واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الأقوى ، فلها العز الذى عقد تاجه على مفرق الجوزاء ، والمجد الذى جر أذياله على مَجَرَّةِ السماء ، والسعد الذى رد على الزمان غض شبابه ، والعدل

---

(١) هو أحد أمراء بنى مرين الذين حكموا مراكش بعد أن طردوا أمراء الموحدين من سنة ٩٦٩ — ١٣٦٩ — ١٥٥١ م

الذى مد على أهل الإيمان مديد أطنابه ، والجود الذى قطر سحابه اللجين والنضار، والبأس الذى فيضُ غمامه الدم المَوَّار، والنصر الذى تفُضُّ كتائبُه الأجل ، والتأييد الذى بعض غنائمه الدول ، والبطش الذى سبق سيفه العذل ، والأناة التى لا يُمَلُّ عندها الأمل ؛ والحزم الذى يسد على الأعداء وجوه المسارب، والعزم الذى يَفُل جموعها قبل قِراع الكتائب؛ والحلم الذى يجنى العفو من ثمر الذنوب ، والرفق الذى جمع على محبته بنات القلوب ؛ والعلم الذى يجلو نوره دياجىَ المشكلات ، والعمل المقيد بالإخلاص (والأعمال بالنيات) .

ولما كانت حضرته العلية مطمح الآمال ، ومسرح همم الرجال ، ومحط رحال الفضائل ، ومثابة أمن الخائف ومُنية السائل ؛ توخى الزمان خدمتها ببدائع تحفه ، وروائع طرفه ، فانثال[1] عليها العلماء انثيال جَوْدها[2] على الصفاة[3] ، وتسابق إليها الأدباء تسابق عزماتها إلى العُداة ، وحج العارفون حرمها الشريف ، وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ، ولجأ الخائفون إلى الامتناع بعز جنابها ، واستجارت الملوك بخدمة أبوابها ، فهى القطب الذى عليه مدار العالم ، وفى القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم ، وعن مآثرها الفائقة يُسنِد صحاحَ الآثار كلُّ مسلم ، وبإكمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلَّم .

وفود ابن بطوطة على الخليفة

وكان ممن وفد على بابها السامى، وتعدى أوشالَ البلاد إلى بحرها الطامى، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق، جوَّال الأرض ، ومخترق الأقاليم بالطول

---

(١) انثال عليها العلماء : انصبوا .

(٢) الجَوْدُ : المطر الغزير

(٣) الصفاة : الصخرة الصماء الملساء .

والعرض ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة ، المعروف فى البلاد الشرقية بشمس الدين ، وهو الذى طاف الأرض معتبرا ، وطوى الأمصار مختبرا ، وباحث فرق الأمم ، وسَبَرَ سِيَرَ العرب والعجم ، ثم ألقى عصا التَّسيار بهذه الحضرة العليا ، لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثُنْيا[1] ، وطوى المشارق إلى مطلع بدرها بالغرب ، وآثرها على الأقطار إيثار التبر على الترب ، اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ، ورغبة فى اللحاق بالطائفة التى لا تزال على الحق ؛ فغمره من إحسانه الجزيل ، وامتنانه الحفيّ[2] الحفيل[3] ، ما أنساه الماضى بالحال ، وأغناه عن طول الترحال ، وحقّر عنده ما كان من سواه يستعظمه ، وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه ، فنسى ما كان ألِفَه من جولان البلاد ، وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد ، ونفذت الإشارة الكريمة بأن يُملى ما شاهده فى رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر مَن لقيه من ملوك الأقطار ، وعلمائها الأخيار ، وأوليائها الأبرار ، فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، من كل غريبة أفاد باجتلائها ، وعجيبة أطرف بانتحائها .

أمر ابن جزىّ بكتابة الرحلة

وصدر الأمر العالى لعبد مقامهم ، الكريم عليهم ، المنقطع إلى بابهم ، المتشرف بخدمة جنابهم ، محمد بن محمد بن جُزَىّ الكلبىّ ، أعانه الله على خدمتهم ، وأوزعه[4] شكر نعمتهم — أن يَضُم أطراف ما أملاه (الشيخ أبو عبد الله)

(١) ثُنْيَا : استثناء .
(٢) الحفىّ : المُبالَغ فيه .
(٣) الحفيل : الكثير .
(٤) أوزَعه : ألهمه .

من ذلك ، فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا ، ولنيل مقاصده مكملا ، متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه ، معتمدا إيضاحه وتقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف . فامتثل ما أمر به مبادرا ، وشرع فى منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا . ونقلت معانى كلام الشيخ أبى عبد الله ، بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها ، موضحة للمناحى التى اعتمدها ، وربما أوردت لفظه على وضعه ، فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ؛ على أنه سلك فى إسناد صحاحها أقوم المسالك ، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك ، وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أنفع فى التصحيح والضبط . وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء العجمية ، لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ، ويخطئ فى فك مُعَمَّاها معهود القياس . وأنا أرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلى (أيده الله) بمحل القبول ، وأبلغ من الإغضاء عن تَقْصيرى المأمول ؛ فعوائدهم فى السماح جميلة ، ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة . والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين .

ابتداء الرحلة من بلاد المغرب

قال الشيخ أبو عبد الله : كان خروجى من طنجة مسقط رأسى ، فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد ، عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، معتمدا حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، منفردا عن رفيق آنس بصحبته ، وركب أكون فى جملته ، لباعث على

النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم[١] ؛ فجزمت أمرى على هجر الأحباب من الإناث والذكور ، وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور ؛ وكان والداى بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا[٢] ، ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا ؛ وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة . (قال ابن جزى : أخبرنى أبو عبد الله بمدينة غرناطة : أن مولده بطنجة ، فى يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد ، سنة ثلاث وسبعمائة) .

(رجع) وكان ارتحالى فى أيام أمير المؤمنين ، وناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، الذى رويت أخبار جوده موصولة الأسناد بالإسناد ، وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الأشهاد ، وتحلت الأيام بحلى فضله ، ورتع الأنام فى ظل رفقه وعدله : الإمام المقدس أبو سعيد ، ابن مولانا أمير المؤمنين ، وناصر الدين ، الذى فل حد الشرك صدق عزائمه ، وأطفأت نار الكفر جداول صوارمه : الإمام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق ؛ جدد الله عليهم رضوانه ، وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طله[٣] وتهتانه[٤] ، وجزاهم أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين ، وأبقى الملك فى عقبهم إلى يوم الدين . فوصلت مدينة تلمسان ، وسلطانها يومئذ أبو تاشفين ، عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان . ووافقت بها رسولى ملك إفريقية ، السلطان أبى يحيى (رحمه الله) وهما : قاضى الزواج بمدينة تونس ، أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن على بن إبراهيم النفزاوى ، والشيخ

---

(١) الحيازم : جمع حيزوم : الصدور .

(٢) الوصب : المرض .

(٣) الطل : المطر الضعيف .

(٤) تهتانه صوابها (تهتانه) مصححة من نسخة طبع أوربة وهو المطر المنصب .

الصالح ، أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزُبيدى — بضم الزاى نسبة إلى قرية بساحل المهدية — (وهو أحد الفضلاء ، وفاته عام أربعين(١))، وفي يوم وصولى إلى تِلِمْسان، خرج عنها الرسولان المذكوران ، فأشار علىّ بعض الإخوان بمرافقتهما ، فاستخرت الله عز وجل فى ذلك ، وأقمت بتِلِمْسان ثلاثا فى قضاء مآربى ، وخرجت أجدّ السير فى آثارهما ، فوصلت مدينة مِلْيانة وأدركتهما بها ، وذلك فى إبان القيظ ، فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا ، ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضى منهما ، فأقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة أميال من مِلْيانة ثلاثا ، وقضى القاضى نحبه ضُحًا اليوم الرابع ، فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزُّبَيدىّ إلى مليانة فقبروه بها ، وتركتهم هنالك ، وارتحلت مع رُفقة من تجار تونس ، منهم الحاج مسعود بن المنتصر ، والحاج العُدُولىّ ومحمد بن الحجر .

وصوله مدينة الجزائر

فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما ، إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضى ، فتوجهنا جميعا على مَتّيجة إلى جبل الزان ، ثم وصلنا إلى مدينة بِجاية ، فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها : أبى عبد الله الزَّوَاوِىّ ، ونزل أبو الطيب ابن القاضى بدار الفقيه أبى عبد الله المفسر ، وكان أمير بِجاية إذ ذاك أبا عبد الله بن محمد بن سيد الناس الحاجب . وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتهم من مِلْيانة : محمد بن الحجر (الذى تقدّم ذكره) وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب ، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر ، يعرف بابن حديدة ، ليوصلها إلى ورثته بتونس ، فانتهى خبره لابن سيد الناس ، فانتزعها من يده ؛ وهذا أول ما شهدته من ظلم عمال

(١) أى سبعمائة وأربعين .

الموحدين[١] وولاتهم . ولما وصلنا إلى بجاية (كما ذكرته) أصابتنى الحمى ، فأشار على أبو عبد الله الزُّبَيدِى بالإقامة فيها حتى يتمكن البرء منى ، فأبيت وقلت : إن قضى الله عز وجل بالموت ، تكن وفاتى بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز . فقال لى : أما إن عزمت ، فبع دابتك وثِقْل المتاع ، وأنا أعيرك دابة وخباء ، وتصحبنا خفيفا ، فإننا نجد السير خوف غارة العرب فى الطريق . ففعلت هذا ، وأعارنى ما وعد به (جزاه الله خيرا) وكان ذلك أول ما ظهر لى من الألطاف الإلهية ، فى تلك الوجهة الحجازية . وسرنا إلى أن وصلنا إلى مدينة قُسَنْطِينَةَ فنزلنا خارجها ، وأصابنا مطر جَوْد ، اضطررنا إلى الخروج عن الأخبية ليلا إلى دُور هنالك . فلما كان من الغد ، تلقانا حاكم المدينة (وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبى الحسن) ، فنظر إلى ثيابى — وقد لوثها المطر — فأمر بغسلها فى داره وكان الإحرام[٢] منها خلقا ، فبعث مكانه إحراما بعلبكيا ، وصرَّ فى أحد طرفيه دينارين من الذهب ، فكان ذلك أول ما فتح به علىّ فى وجهتى . ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بُونَةَ ، ونزلنا بداخلها ، وأقمنا بها أياما ، ثم تركنا بها من كان فى صحبتنا من التجار ، لأجل الخوف فى الطريق ، وتجردنا للسير ، وواصلنا الجد ، وأصابتنى الحمى ، فكنت أشد نفسى بعمامة فوق السرج ، خوف السقوط بسبب الضعف ، ولا يمكننى النزول من الخوف ، إلى أن وصلنا مدينة تونس ، فبرز أهلها للقاء الشيخ أبى عبد الله الزُّبيدى ، ولقاء أبى الطيب ابن القاضى أبى عبد الله النَّفْزاوى ، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام

---

(١) الموحدون : اسم دولة من أمراء البربر حكمت كل إفريقية الشمالية ونصف أسبانيا تقريبا (١١٣٠ — ١٢٦٩ م) وكان بينهم وبين المرينيين أصحاب مراكش مناوشات حتى فاز المرينيون وطردوهم سنة ١٢٦٩ م

(٢) الإحرام : نوع من لباس الرأس كان يستعمله عرب الأندلس والمغرب

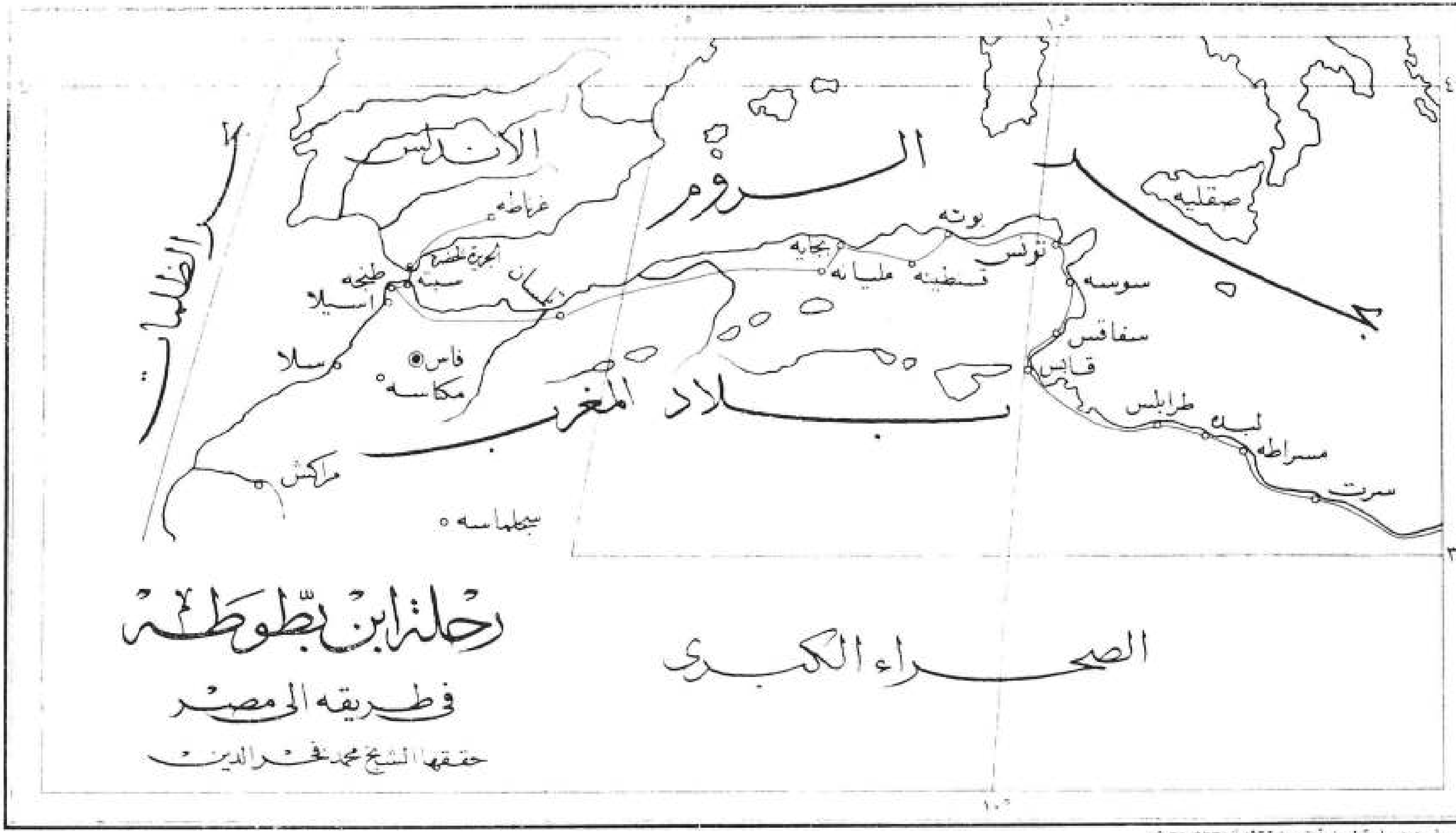

رحلة ابن بطوطة في طريقه إلى مصر

حققها الشيخ محمد فخر الدين

والسؤال، ولم يسلم عليّ أحد لعدم معرفتي بهم، فوجدت من ذلك في النفس مالم أملك معه سوابق العَبرة، واشتد بكائي، فشعر بحالي بعض الحجاج، فأقبل عليّ بالسلام والإيناس، وما زال يؤنسني بحديثه، حتى دخلت المدينة، ونزلت منها بمدرسة الكتبيين.

ذكر سلطان تونس

وكان سلطان تونس — عند دخولي إليها — السلطان أبا يحيى، ابن السلطان أبي زكريا يحيى، ابن السلطان أبي إسحق إبراهيم، ابن السلطان أبي زكريا يحيى، بن عبد الواحد، بن أبي حفص[1] (رحمه الله). وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء، منهم قاضي الجماعة بها أبو عبد الله محمد، ابن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الأنصاريّ الخزرجي البَلَنْسيّ الأصل، ثم التونسيّ، هو ابن الغماز. ومنهم الخطيب أبو إسحق إبراهيم بن حسين بن علي بن عبد الرفيع الرَّبَعيّ، وولي أيضا قضاء الجماعة في خمس دول. ومنهم الفقيه أبو علي عمر بن علي بن قدّاح الهوّاريّ، وولي أيضا قضاءها، وكان من أعلام العلماء، ومن عاداته أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها، إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة، ويستفتيه الناس في المسائل. فلما أفتى في أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك.

وأظلني بتونس عيد الفطر، فحضرت المصلى، وقد احتفل الناس لشهود عيدهم، وبرزوا في أجمل هيئة وأكمل شارة، ووافى السلطان أبو يحيى راكبا، وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة

(١) هو من أمراء بني حفص، وهي دولة أسسها أبو حفص قائد أحد أمراء الموحّدين سنة ١٢٢٨ م وكانوا في أول أمرهم عمال تونس للموحدين ثم صاروا سلاطينها بعد سقوطهم سنة ١٢٦٩ وأشهر أمراء بني حفص المستنصر وهو الذي قاوم لويس ملك فرنسة.

على أقدامهم فى ترتيب عجيب . وصليت الصلاة ، وانقضت الخطبة ، وانصرف الناس إلى منازلهم . وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخ يعرف بأبى يعقوب السُّوسى ، من أهل أَقْلِى[1] من بلاد إفريقية ، فقدمونى قاضيا بينهم . وخرجنا من تونس فى أواخر شهر ذى القعدة ، سالكين طريق الساحل ، فوصلنا إلى بلدة سُوسة ، وهى صغيرة حسنة ، مبنية على شاطئ البحر ، بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا . ثم وصلنا إلى مدينة صَفَاقُس (وبخارج هذه البلدة قبر الإمام أبى الحسن اللَّخْمِى المالكى ، مؤلف كتاب التبصرة فى الفقه) . قال ابن جُزَىّ : فى بلدة صَفَاقُس يقول علىّ بن حبيب التنوخى :

سقيًا لأرض صَفَاقُس ... ذات المصانع والمصلَّى !
بلد يكاد يقول حيـ ... ـن تزوره : أهلا وسهلا !
وكأنه — والبحر يحـ ... ـسر تارة عنه ويملا —
صَبٌّ يريد زيارة ... فإذا رأى الرقباء ولَّى

وفى عكس ذلك يقول الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبى تميم (وكان من المجيدين المكثرين) :

صَفَاقُس لا صفا عيش لساكنها ، ... ولا سقى أرضها غيث إذا انسكبا !
ناهيك[2] من بلدة من حَلَّ ساحتها ... عانى بها العادِيَين : الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبًا بضاعته ، ... وبات فى البحر يشكو الأسر والعطبا
قد عاين البحرُ من لؤم لقاطنها ، ... فكلما هم أن يدنو لها هربا

---

(١) (أقلى) صححت من نسخة طبع أوربة .

(٢) ناهيك : حَسْبُك .

وصف مدينة قابس

(رجع) ثم وصلنا إلى مدينة قابس ونزلنا بداخلها ، وأقمنا بها عشرا ، لتوالى نزول الأمطار . قال ابن جزى : فى ذكر قابس يقول بعضهم :

لهفى على طيب ليال خلت بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبي عند تذكارها جذوة نار بيد القابس [1]

(رجع) ثم خرجنا من مدينة قابس ، قاصدين طرابُلُس ، وصحبنا فى بعض المراحل إليها نحو مائة فارس أو يزيدون ، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب ، وتحامت مكانهم ، وعصمنا الله منهم ، وأظلنا عيد الأضحى فى بعض تلك المراحل ، وفى الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابُلُس ، فأقمنا بها مدة ، وكنت عقدت بصفاقُس على بنت لبعض أمناء تونس ، فبنيت عليها بطرابُلُس ، ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم ، من عام ستة وعشرين ، ومعى أهلى ، وفى صحبتى جماعة من المصامدة . وقد رفعت العَلم وتقدمت عليهم ، وأقام الركب فى طرابلس خوفا من البرد والمطر ، وتجاوزنا (مِسْلاتة ومِسْراتة وقصور سُرْت) ، وهنالك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا ، ثم صرفتهم القدرة ، وحالت دون ما راموه من أذيتنا ، ثم توسطنا الغابة ، وتجاوزناها إلى قصر بَرْصيص العابد ، إلى قبة سلّام ، وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ، ووقع بيني وبين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته ، وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس ، وبنيت بها بقصر الزَعافية ، وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم.

---

(١) القابس : الآخذ من النار .

وصف مدينة الإسكندرية

ثم وصلنا فى أول جمادى الأولى إلى مدينة الاسكندرية (حرسها الله)، وهى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ؛ بها ما شئت من تحسين وتحصين ؛ ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها ؛ فهى الفريدة تجَلَّى سناها ، والخريدة تُجْلَى فى حلاها ، الزاهية بجمالها المُغْرِب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ؛ فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فإليها انتهاؤها ؛ وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا ؛ وحسب المشرف إلى ذلك ، ما سطره أبو عُبَيْد فى كتاب المسالك[١] .

ذكر أبوابها ومرساها

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب : باب السِّدرة — وإليه يشرع[٢] طريق المغرب — وباب رشيد ، وباب البحر ، والباب الأخضر ؛ (وليس يفتح إلا يوم الجمعة فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور) . ولها المرسى العظيم الشأن ، ولم أر فى مراسى الدنيا مثله ، إلا ما كان من مرسى كُولَم وقاليقوط ببلاد الهند ، ومرسى الكفار بسُوداق ببلاد الأتراك[٣] ، ومرسى الزيتون[٤] ببلاد الصين ؛ وسيقع ذكرها .

---

(١) هو كتاب "المسالك والممالك" لأبى عُبَيْد البكرى الأندلسى (١٠٤٠ — ١٠٩٤م)

(٢) يَشْرَع : يتَّصِل .

(٣) بلاد الأتراك : بلاد القِرِم .

(٤) تعرف هذه المدينة الآن باسم تشيُّون .

ذكر المنار

قصدت المنار فى هذه الوِجهة ، فرأيت أحد جوانبه متهدما ، وصفته أنه بناء مربع ذاهب فى الهواء ، وبابه مرتفع على الأرض ، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه ، وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه ، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل ، وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار ، وداخل المنار بيوت كثيرة ، وعرض الممر بداخله تسعة أشبار ، وعرض الحائط عشرة أشبار ، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرا . وهو على تل مرتفع ، ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد ، فى بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد ، فلا يمكن التوصل إلى المنار فى البر إلا من المدينة . وفى هذا البر المتصل بالمنار مقبَرة الإسكندرية . وقصدت المنار عند عودتى إلى بلادالمغرب عام خمسين وسبعمائة ، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه ، وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع فى بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن إتمامه .

ذكر عمود السوارى

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرُّخام الهائل الذى بخارجها المسمى عندهم بعمود السوارى ، وهو متوسط فى غابة نخل ، وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا ، وهو قطعة واحدة محكمة النحت ، وقد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين[1] العظيمة ، ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ، ولا يتحقق مَن وضعه . قال ابن جُزَىّ : أخبرنى بعض أشياخى الرحالين

---

(١) الدكاكين : جمع دكان وهو بناء يسطح أعلاه كالمصطبة ويجلس عليه ، أما الدكان بمعنى الحانوت فمعرب عن الفارسية .

أن أحد الرماة بالإسكندرية ، صعد إلى أعلى ذلك العمود ، ومعه قوسه وكنانته ، واستقر هنالك ، وشاع خبره ، فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته ، وطال العجب منه ، وخفي على الناس وجه احتياله ، وأظنه كان خائفا أو طالبَ حاجة ، فأنتج له فعله الوصولَ إلى قصده ، لغرابة ما أتى به . وكيفيةُ احتياله في صعوده ، أنه رمى بنُشابة قد عقد بفُوقها خيطا طويلا ، وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا ، فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ، ووقعت من الجهة المؤازية للرامي ، فصار الخيط معترضا على أعلى العمود ، فجذبه ، حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط ، فأوثقه من إحدى الجهتين في الأرض ، وتعلق به صاعدا من الجهة الأخرى ، واستقر بأعلاه ، وجذب الحبل ، واستصحب من احتمله ، فلم يهتد الناس لحيلته ، وعجبوا من شأنه .

(رجع) وكان أمير الإسكندرية في عهد وصولي إليها ، يسمى بصلاح الدين ، وكان فيها أيضا في ذلك العهد سلطان[1] إفريقيّة المخلوع ، وهو زكريا أبو يحيي بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللّحياني ، وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من إسكندرية ، وأجرى له مائة درهم في كل يوم ، وكان معه أولاده عبدالواحد ، ومصريّ ، وإسكندري ، وحاجبه أبو زكريا ابن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين . وبالإسكندرية توفي اللحياني وولده الإسكندري ، وبقي المصري بها إلى اليوم . قال ابن جزى : من الغريب ما اتفق من صدق الزَّجْر في اسمَيْ ولدي اللّحياني : الاسكندري والمصري ، فمات الإسكندري بها ، وعاش المصري دهرا طويلا بها ، وهي من بلاد مصر ، وتحول عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وإفريقية وتوفي هنالك بجزيرة جَرْبة .

(١) هو من أمراء بني حفص الذين حكموا تونس بعد سقوط دولة الموحدين .

ذكر بعض علماء الإسكندرية

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندى إمام من أئمة علم اللسان ، وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ، لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها . رأيته يوما قاعدا فى صدر محراب ، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب . ومنهم فخر الدين بن الرِّيغى ، وهو أيضا من القضاة بالإسكندرية ، فاضل من أهل العلم .

حكاية

يذكر أن جد القاضى فخر الدين الرِّيغى كان من أهل رِيغة ، واشتغل بطلب العلم ، ثم رحل إلى الحجاز ، فوصل إلى الإسكندرية بالعشىّ ، وهو قليل ذات اليد ، فأحب ألا يدخلها حتى يسمع فألا حسنا ؛ فقعد قريبا من بابها ، إلى أن دخل جميع الناس ، وجاء وقت سد الباب ، فاغتاظ الموكل بالباب من إبطائه ، وقال متهكما : ادخل يا قاضى ! فقال : قاض إن شاء الله ؛ ودخل إلى بعض المدارس ، ولازم القراءة ، وسلك طريق الفضلاء ، فعظم صيته وشهر اسمه ، وعرف بالزهد والورع ، واتصلت أخباره بملك مصر . واتفق أن توفى قاضى الإسكندرية ، وبها إذ ذاك الجم الغَفير من الفقهاء والعلماء ، وكلهم متشوف[1] للولاية ، وهو من بينهم لا يتشوف لذلك ؛ فبعث إليه السلطان بالتقليد[2] ، وأتاه البريد بذلك ، فأمر خادمه أن ينادى فى الناس : من كانت له خصومة فليحضر لها ، وقعد للفصل بين الناس ، فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم ، كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه ، وتفاوضوا فى مراجعة السلطان فى أمره ، ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه ؛ وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين ، فقال لهم : لا تفعلوا

---

(١) متطلّع . (٢) يقابل (المرسوم) فى أيامنا .

ذلك ، فإنى عدلت طالع ولايته وحققته ، فظهر لى أنه يحكم أربعين سنة ، فأضربوا عما همّوا به من المراجعة فى شأنه ، وكان أمره على ما ظهر للنجم ؛ وعرف فى ولايته بالعدل والنزاهة . ومنهم وجيه الدين الصِنْهاجى من قضاتها ، مشتهر بالعلم والفضل . ومنهم شمس الدين ابن بنت التِّنِّيسىّ ، فاضل شهير الذكر . ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسى ، من كبار أولياء الله تعالى ؛ يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته . ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع (خليفة) .

كرامة له : أخبرنى بعض الثقات من أصحابه قال : رأى الشيخُ خليفةُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقال : يا خليفة زرنا : فرحل إلى المدينة الشريفة ، وأتى المسجد الكريم ، فدخل من باب السلام ، وحيا المسجد وسلم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقعد مستندا إلى بعض سوارى المسجد ، ووضع رأسه على ركبتيه ، (وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق) ؛ فلما رفع رأسه ، وجد أربعة أرغفة ، وآنية فيها لبن ، وطبقا فيه تمر ، فأكل هو وأصحابه ، وانصرف عائدا إلى الإسكندرية ، ولم يحج تلك السنة [1] .

ومنهم الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع ، برهانُ الدين الأعرج من كبار الزهاد ، وأفراد العباد ، لقيته أيام مقامى بالإسكندرية ، وأقمت فى ضيافته ثلاثا .

ذكر كرامة له

دخلت عليه يوما ، فقال لى : أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد ، فقلت له : نعم إنى أحب ذلك . ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين ؛ فقال : لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد

(١) هذه الحكاية وأمثالها مما جاء فى هذا الكتاب مما دخله الغلو والمبالغة من النقلة والرواة . وقد نبهنا على ذلك فيما يلى من الحواشى .

الدين بالهند، وأخى ركن الدين زكرياء بالسند، وأخى برهان الدين بالصين . فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام . فعجبت من قوله ، وألقى فى رُوعى التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه . ولما ودعته زودنى دراهم لم تزل عندى محوطة ، ولم أحتج بعد إلى إنفاقها ، إلى أن سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر .

ومنهم الشيخ ياقوت الحبشى من أفراد الرجال ، وهو تلميذ أبى العباس المرسى ، وأبو العباس المُرسى تلميذ ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى الشهير ، ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية .

كرامة لأبى الحسن الشاذلى — أخبرنى الشيخ ياقوت عن شيخه أبى العباس المُرسى : أن أبا الحسن كان يحج فى كل سنة ، ويجعل طريقه على صعيد مصر ، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحج ، ويزور القبر الشريف ، ويعود على الدرب الكبير إلى بلده ؛ فلما كان فى بعض السنين (وهى آخر سنة خرج فيها) قال لخادمه : استصحب فأسا وقفة وحنوطا[1] وما يجهز به الميت ، فقال له الخادم : ولماذا يا سيدى؟ فقال له : فى حُمَيْثَرا سوف ترى ؛ وحميثرا فى صعيد مصر فى صحراء عَيْذاب ، وبها عين ماء زُعاق[2] وهى كثيرة الضباع . فلما بلغا حميثرا ، اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين ، وقبضه الله عز وجل فى آخر سجدة من صلاته ، ودفن هناك . وقد زرت قبره ، رضى الله عنه .

---

(١) الحَنُوطُ : طِيبٌ يخلط للميّت خاصة .

(٢) الزُّعاق : الماء المر الغليظ لا يطاق شربه .

حكاية

ومما جرى بمدينة الإسكندرية سنة سبع وعشرين ، و بلغنا خبر ذلك بمكة (شرفها الله) : أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة ، وكان والى الاسكندرية رجلا يعرف بالكُركى ، فذهب إلى حماية الروم ، وأمر بالمسلمين فحصروا بين فصيلى[1] باب المدينة ، وأغلق دونهم الأبواب نكالا لهم ، فأنكر الناس ذلك وأعظموه ، وكسروا الباب ، وثاروا إلى منزل الوالى ، فتحصن منهم ، وقاتلهم من أعلاه ، وطير الحمام بالخبر إلى الملك الناصر ، فبعث أميرا يعرف بالجمالى ، ثم أتبعه أميرا يعرف بطُوغان ، جبار قاسى القلب متّهم فى دينه ، يقال إنه كان يعبد الشمس ؛ فدخلا إسكندرية ، وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها ، كأولاد الكويك وسواهم ، وأخذا منهم الأموال الطائلة ، وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد . ثم إن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا ، وجعلوا كل رجل قطعتين ، وصلّبوهم صفين ، وذلك فى يوم جمعة ، وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور ، وشاهدوا مصارع القوم ، فعظمت حسرتهم ، وتضاعفت أحزانهم ؛ وكان فى جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر ، يعرف بابن رَواحة ، وكان له قاعة معدة للسلاح ، فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة ، و بالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها ؛ فزل لسانه وقال للأميرين : أنا أضمن هذه المدينة ، وكل ما يحدث فيها أطالَب به ، وأكْفِى السلطان مرتبات العساكر والرجال ، فأنكر الأميران قوله ، وقالا : إنما تريد الثورة على السلطان ، وقتلاه ؛ وإنما كان قصده (رحمه الله) إظهارَ النصح ، والخدمةَ للسلطان ، فكان فيه حتفه .

---

[1] الفَصِيل حائط قصير دون سور البلد .

وكنت سمعت أيام إقامتى بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع ، أبى عبدالله المرشدى ، وهو من كبار الأولياء : أنه منقطع بمُنية بنى مرشد، له هنالك زاوية هو منفرد فيها ، لا خادم له ولا صاحب ، ويقصده الأمراء والوزراء ، وتأتيه الوفود من طوائف الناس فى كل يوم، فيطعمهم الطعام . وكل واحد منهم ينوى أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوى . فيأتى لكل واحد بما نواه ، وربما كان ذلك فى غير إبّانه . وذلك كله من أمره مستفيض متواتر ؛ وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه . فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصدا هذا الشيخ (نفعنا الله به) . ووصلت قرية تَرَوْجَة وهى على مسيرة نصف يوم من مدينة الإسكندرية ، قرية كبيرة ، بها قاض ووال وناظر ، ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة ؛ صحبت قاضيها صفىّ الدين ، وخطيبها فخرَ الدين ، وفاضلا من أهلها يسمى بمبارك وينعت بزين الدين ، ونزلت بها على رجل من العبّاد الفضلاء كبير القدر ، يسمى عبدالوهاب ، وأضافنى ناظرها زينُ الدين ، وسألنى عن بلدى وعن مجباه ، فأخبرته أن مجباه نحو اثنى عشر ألفًا من دينار الذهب ، فعجب وقال لى : رأيت هذه القرية ؟ فإن مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهبا ، وإنما عظمت مجابى ديار مصر ، لأن جميع أملاكها لبيت المال .

ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دَمَنْهُورَ، وهى مدينة كبيرة ، جبايتها كثيرة ، ومحاسنها أثيرة ، أم مدن البحيرة بأسرها ، وقطبها الذى عليه مدار أمرها . وكان قاضيها فى ذلك العهد فخرَ الدين بنَ مسكين من فقهاء الشافعية ، وتولى قضاء الإسكندرية ، لما عزل عنها عماد الدين الكِنْدىّ ، بسبب الواقعة التى قصصناها . وأخبرنى الثقة أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم ، وصَرْفُها من دنانير الذهب ألفُ دِينار ، على ولاية القضاء بالاسكندرية .

ثم رحلنا إلى مدينة فَوَّا[1] ، وهذه المدينة عجيبة المنظر ، حسنة المخبر ، بها البساتين الكثيرة ، والفوائد الخطيرة الأثيرة ، و بها قبر الشيخ الولى أبى النجاة الشهير الاسم ، خبير تلك البلاد . و زاوية الشيخ أبى عبد الله المرشدىّ ، الذى قصدته بمقربة من المدينة ، يفصل بينهما خليج هنالك ؛ فلما وصلت المدينة ، تعديتها ووصلت إلى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر ، وسلمت عليه ، ووجدت عنده الأمير سيف الدين يَلْمَلَك وهو من الخاصكية ، ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية . ولما دخلت على الشيخ (رحمه الله) قام إلىّ وعانقنى ، وأحضر طعاما فواكلنى[2] ، وكانت عليه جبة صوف سوداء ، فلما حضرت صلاة العصر قدمنى للصلاة إماما . ولما أردت النوم قال لى : اصعد إلى سطح الزاوية فنم هنالك (وذلك أوان القيظ) فقلت للأمير : باسم الله ؛ فقال لى : وما منا إلا له مقام معلوم ، فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونطعًا وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب ، فنمت هنالك .

كرامة لهذا الشيخ — رأيت ليلتى تلك (وأنا نائم بسطح الزاوية) كأنى على جناح طائر عظيم يطير بى فى سَمْت القبلة ، يتيامن ، ثم يُشَرِّق ، ثم يذهب فى ناحية الجنوب ، ثم يُبعد الطيران فى ناحية الشرق ، وينزل فى أرض مظلمة خضراء ، ويتركنى بها ؛ فعجبت من هذه الرؤيا ، وقلت فى نفسى : إن كاشفنى الشيخ برؤياى ، فهو كما يحكى عنه . فلما غدوت لصلاة الصبح قدمنى إماما لها ، ثم أتاه الأمير يَلْمَلَك فودّعه وانصرف ، وودّعه من كان هنالك من الزوار ، وانصرفوا أجمعين بعد أن زودهم كُعيكاتٍ صغارا ؛ ثم سبَّحت سُبحة الضحا ، ودعانى وكاشفنى برؤياى ، فقصصتها عليه ، فقال :

---

(١) وضبطها فى معجم البلدان والقاموس "فُوَّة" .

(٢) أكل معى .

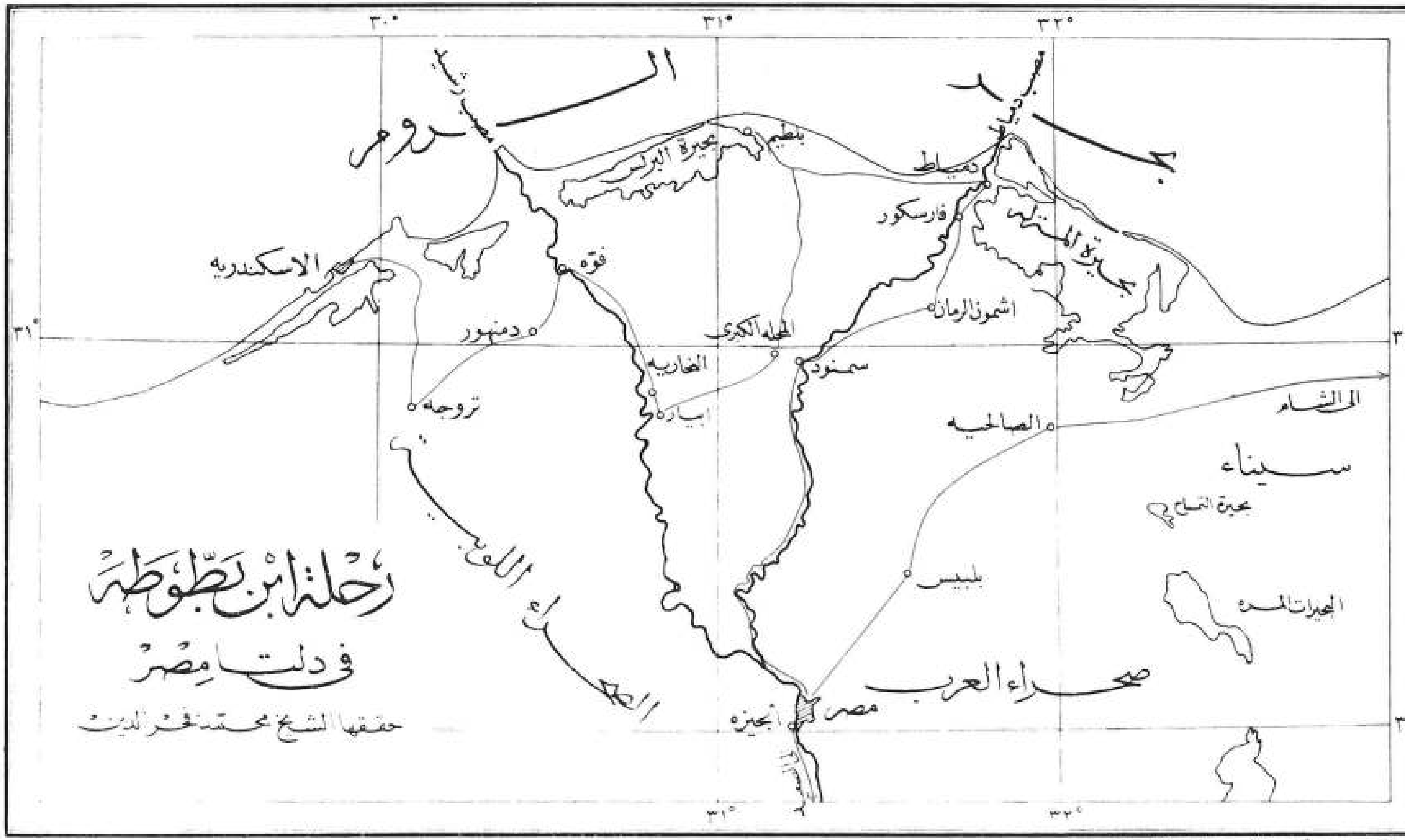

طبع بمصلحة المساحة المصرية

سوف تحج وتزور النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند ، وتبقى بها مدة طويلة ، وستلقى بها أخى دِلْشَاد الهندى ، ويخلصك من شدة تقع فيها ، ثم زودنى كعيكاتٍ ودراهم ، وودعته وانصرفت . ومنذ فارقته لم ألق فى أسفارى إلا خيرا ، وظهرت علىّ بركاته ، ثم لم ألق فيمن لقيته مثله إلا الولى سيدى محمدا المولّه ، بأرض الهند .

ثم رحلنا إلى مدينة النَّحْرَارِيَّة ، وهى رحبة الفِناء حديثة البناء ، أسواقها حسنة الرواء ، وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى ، وولده فى خدمة ملك الهند (وسنذكره) ، وقاضيها صدر الدين سليمان المالكى من كبار المالكية ، سَفَرَ عن الملك الناصر إلى العراق وولى قضاء البلاد الغربية ، وله هيئة جميلة وصورة حسنة . وخطيبها شرف الدين السخاوى من الصالحين . ورحلت منها إلى مدينة أَبْيَار ، وهى قديمة البناء ، أرجة الأرجاء ، كثيرة المساجد ، ذات حسن زائد . وهى بمقربة من النَّحْرَارِيَّة ، ويفصل بينهما النيل . وتصنع بأَبْيَار ثياب حسان ، تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها . ومن الغريب قُرْبُ النحرارية منها ، والثياب التى تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها . ولقيت بأَبْيَار قاضيها عز الدين المَلِيجىّ الشافعى ، وهو كريم الشمائل كبير القدر ، حضرت عنده مرة يوم الرُّكْبَة (وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان) . وعادتهم فيه : أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ، ويقف على الباب نقيب المتعممين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة ، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك النقيب ، ومشى بين يديه قائلا : باسم الله ، سيدنا فلان الدين ! فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له ، ويُجلسه النقيب فى موضع يليق به . فإذا تكاملوا هنالك ركب القاضى وركب من معه أجمعون ، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان ، وينتهون

إلى موضع مرتفع خارج المدينة ، وهو مرتقب الهلال عندهم ، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش ، فينزل فيه القاضي ومن معه ، فيرتقبون الهلال ، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب ، وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس . ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ، ويصل الناس مع القاضي إلى داره ، ثم ينصرفون . هكذا فعلهم في كل سنة . ثم توجهت إلى مدينة المَحَلَّة الكبيرة . وهي جليلة المقدار، حسنة الآثار ، كثيرأهلها ، جامع بالمحاسن شملها . ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالي الولاة ، وكان قاضي قضاتها أيام وصولي إليها في فراش المرض ، ببستان له على مسافة فرسخين من البلد ، وهو عز الدين بن الأشْمَرِين ، فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بَنُّون المالكي التونسي ، وشرف الدين الدَّميرى قاضي مَحَلة مَنوف . وأقمنا عنده يوما ، وسمعت منه (وقد جرى ذكر الصالحين) : أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلادَ البُرُلُّس ونَسْتَرَوْ ، وهي بلاد الصالحين ، وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات ، فقصدت تلك البلاد ، ونزلت بزاوية الشيخ المذكور . وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار ، والطير البحريّ ، والحوت المعروف بالبوريّ . ومدينتهم تسمى مَلْطين ، وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر ، المعروفة ببحيرة تِنِّيس ، ونستروبمقربة منها . نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوى من الصالحين . وكانت تِنِّيس بلدا عظيما شهيرا ، وهي الآن خراب . قال ابن جُزَيّ : (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهمل) وإليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع ، وهو القائل في خليجها :

قم فاسقني والخليج مضطرب ... والريح تثنى ذوائب القصب
والجو في حلة ممسّكة ... قد طرزتها البروق بالذهب

وصف مدينة دمياط

ثم سافرت إلى مدينة دمياط وهى مدينة فسيحة الأقطار، متنوعة الثمار، عجيبة الترتيب، آخذة من كل حسن بنصيب.

ومدينة دمياط على شاطئ النيل، وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل. وشجر الموز بها كثير، يحمل ثمره إلى مصر فى المراكب، وغنمها سائمة همَلا بالليل والنهار، ولهذا يقال فى دمياط: سورها حَلْوَى وكلابها غنم. وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بِطَابَع الوالى: فمن كان من الناس معتبرا طبع له فى قطعة كاغَد[1] يستظهر به لحراس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به. والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن. وبها الألبان الجاموسية التى لا مثيل لها فى عذوبة الطعم وطيب المذاق. وبها الحوت البورى[2] يحمل منها إلى الشام وبلاد[3] الروم ومصر. وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ، بها مسجد وزاوية، لقيت بها شيخها المعروف بابن قُفْل، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء[4] الفضلاء المتعبدين الأخيار، قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا. ودمياط هذه حديثة البناء، والمدينة[5] القديمة هى التى خربها

(١) الكاغد: فارسى محض بمعنى القرطاس.

(٢) البُورى: نسبة الى بلدة بُورَة بمصر. وهذا النوع من السمك يكثر فى بحر الروم والمحيط الأطلنطى.

(٣) بلاد الروم — آسيا الصغرى.

(٤) هم قوم متعبدون يعيشون من حسنات المؤمنين. ويطلق لفظ الفقير فى الهند على المتعبد الناسك من جميع الأديان.

(٥) لم يخرب الفرنجة دمياط وإن كانوا دخلوها مرتين فى سنتى ١٢١٩، ١٢٤٩م وإنما الذين خربوها هم أمراء مصر فى ذلك الوقت سنة ١٢٥٠ م بعد خروج الفرنجة منها خوفا من عودتهم إليها.

الإفرنج على عهـد الملك الصالح ؛ وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى ، قدوة الطائفة المعروفة بالقَرَنْدَرية ، وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم. ويسكن الزاوية فى هذا العهد الشيخ فتح التَّكرورى .

كرامة لهذا الشيخ — يذكر أنه لما قصـد مدينة دمياط لزم مقبرتها ، وكان بها قاض يعرف بابن العميد ، فخرج يوما إلى جنازة بعض الأعيان ، فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة ، فقال له : أنت الشيخ المبتدِع ! فقال له : وأنت القاضى الجاهل ! تمر بدابتك بين القبور ، وتعلم أن حرمة الإنسان ميتا كحرمته حيا . فقال له القاضى : وأعظم من ذلك حلقك لحيتك ! فقال له : إياى تعنى ؟ وزعق الشيخ ثم رفع رأسه ، فإذا هو ذو لحية سوداءَ عظيمة ؛ فعجب القاضى ومن معه ، ونزل إليه عن بغلته ؛ ثم زعق ثانية فإذا هو ذو لحيـة بيضاء حسنة ، ثم زعق ثالثة ورفع رأسـه فإذا هو بلا لحية كهيئته الأولى . فقبل القاضى يده ، وتتلمذ له ، وبنى له زاوية حسنة ، وصحبه أيام حياته ؛ ثم مات الشيخ فدفن بزاويته[1] . ولما حضرت القاضىَ وفاتُه أوصى أن يدفن بباب الزاوية ، حتى يكون كل داخل إلى زيارة الشيخ يطأ قبره .

وبخارج دمياط المزار المعروف بشَطا ، وهو ظاهر البركة ، يقصـده أهل الديار المصرية ، وله أيام فى السنة معلومة لذلك . وبخارجها أيضا بين بساتينها موضع يعرف بالمُنْية ، فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان ، قصدت زاويته وبت عنده . وكان بدمياط ، أيام إقامتى بها وال يعرف بالمحسنى ، من ذوى الإحسان والفضل ، بنى مدرسة على شاطئ النيل ، بها كان نزولى فى تلك الايام ، وتأكدت بينى وبينه مودة . ثم سافرت إلى مدينة فارَسْكُور ، وهى مدينة على ساحل النيل ؛ ونزلت بخارجها ، ولحقنى هنالك

---

(١) هذه الحكاية من مبالغات القُصَّاص كغيرها فى هذا الكتاب .

فارس وجّهه إلىّ الأمير المحسنى ، فقال لى : إن الأمير سأل عنك وعرف بسيرتك ، فبعث إليك بهذه النفقة ، ودفع إلىّ جملة دراهم (جزاه الله خيرا).
ثم سافرت إلى مدينة أشْمون الرمان ، ونسبت إلى الرمان لكثرته بها ، ومنها يحمل إلى مصر ، وهى مدينة عتيقة كبيرة ، على خليج من خُلُج النيل ، ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها ، فإذا كان العصر رفعت تلك الخشُب ، وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة . وبهذه البلدة قاضى القضاة ووالى الولاة.
ثم سافرت عنها الى مدينة سَمَنُّود ، وهى على شاطئ النيل ، كثيرة المراكب ، حسنة الأسواق ، وبينها و بين المحلة الكبرى ثلاثة فراسخ ، ومن هذه المدينة ركبت النيل مُصْعِدا إلى مصر ، ما بين مدائن وقرى منتظمة ، متصلٍ بعضها ببعض . ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد ، لأنه مهما أراد النزول للشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك . والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد.
ثم وصلت إلى مدينة مصر .

وصف مصر

وهى أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى[1] الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة[2] ، المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها ، شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها

(١) ذى الأوتاد : سمى بذلك لكثرة جنده وخيامهم وأوتادهم ، أو لأنه كان يَدُقّ لمن يريد تعذيبه أربعة أوتاداً يربطه فيها ثم يعذبه بما يشاء (الألوسى) .

(٢) أريضة : زَكِيَّة مُعْجِبَة خليقة لخير .

لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الأمم ، وتملكت ملوكها نواصى العرب والعجم ، ولها خصوصية النيل التى جل خطرها ، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير ، كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة . قال ابن جزى : وفيها يقول الشاعر :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما ... هى الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها ... وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطئ مصر جنة ... ما مثلها من بلد
لا سيما مذ زخرفت ... بنيلها المطرد
وللرياح فوقه ... سوابغ من زرد
مسرودة[1] ماسنها ... داود ها بمبرد
والفلك كالأفلاك بيـ ... ـن حادر ومصعد

(رجع) ويقال إن بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء ، وإن بها ثلاثين ألف مكار ، وإن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق . وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة . وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو ، شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده ، فزين كل أهل سوق سوقهم ، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير ، وبقوا على ذلك أياما .

(١) مسرودة : منسوجة أو مخيطة .

ذكر مسجد عمرو بن العاص
والمدارس والمارستانات والزوايا

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر، شهير الذكر، تقام فيه الجمعة، والطريق يعترضه من شرق إلى غرب، وبشرقه الزاوية، حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعي. وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها. وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر أن مجباه(١) ألف دينار كل يوم. وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق(٢) واحدتها خانقة. والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف. ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب، ومن عاداتهم فى الطعام أنه يأتى خادم الزاوية إلى الفقراء صباحا، فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل، جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه فى إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد. وطعامهم مرتان فى اليوم. ولهم كسوة الشتاء، وكسوة الصيف، ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر إلى عشرين. ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام، والزيت للاستصباح. وهم أعزاب، وللمتزوجين زوايا على حدة. ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية. واجتماعهم بقبة داخل الزاوية. ومن عاداتهم

---

(١) مجباه — جبايته.

(٢) أمكنة يتعبد بها الصوفيون.

أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به . وإذا صلوا صلاة الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة ، فيأخذ كل فقير جزءا ويختمون القرآن ويذكرون . ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر . ومن عاداتهم مع القادم أنه يأتى باب الزاوية ، فيقف به مشدود الوسط ، وعلى كاهله سجادة ، وبيمناه العكاز ، وبيسراه الإبريق ، فيعلم البواب خادم الزاوية بمكانه ، فيخرج إليه ويسأله من أى البلاد أتى ؟ وبأى الزوايا نزل فى طريقه ؟ ومَنْ شيخه ؟ فإذا عرف صحة قوله ، أدخله الزاوية وفرش له سجادته فى موضع يليق به ، وأراه موضع الطهارة ، فيجدد الوضوء ، ويأتى إلى سجادته فيحل وسطه ويصلى ركعتين ، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم . ومن عاداتهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم ، فيذهب بها إلى المسجد ، ويفرشها لهم هنالك ، ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم ، فيأتون المسجد ، ويصلى كل واحد على سجادته ، فإذا فرغوا من الصلاة قرءوا القرآن على عادتهم ، ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

ذكر قرافة مصر ومزاراتها

ولمصر القرافة العظيمة الشأن . وهم يبنون بها القباب الحسنة ، ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ، ويبنون بها البيوت ، ويرتبون القراء يقرءون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان . ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة ، ويخرجون فى كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ، ويطوفون على المزارات الشهيرة ، ويخرجون أيضا للمبيت بها ليلة النصف من شعبان ، ويخرج أهل الأسواق بصنوف المآكل .

ومن المزارات الشريفة ، المشهد المقدس العظيم الشأن ، حيث رأس الحسين بن علىّ عليهما السلام ، وعليه رِباط ضخم عجيب البناء ، على أبوابه حَلَق الفضة وصفائحها ، وهو موفَّى الحق من الإجلال والتعظيم . ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد بن على بن الحسين بن على ، عليهم السلام . وكانت مجابة الدعوة ، مجتهدة فى العبادة . وهذه التربة أنيقة البناء ، مشرقة الضياء ، عليها رِباط مقصود . ومنها تربة الإمام أبى عبد الله محمد ابن ادريس الشافعى (رضى الله عنه) وعليها رِباط كبير ، ولها جراية ضخمة ، وبها القبة الشهيرة البديعة الإتقان ، العجيبة البنيان ، المتناهية الإحكام ، المفرطة السمو ، وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا .

وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين ما لا يضبطه الحصر ، وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف (رضى الله تعالى عنهم) : مثل عبد الرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبد العزيز ، وأصبغ بن الفرج ، وابنى عبد الحكم ، وأبى القاسم ابن شعبان ، وأبى محمد عبد الوهاب . لكن ليس لهم بها اشتهار ، ولا يعرفهم إلا من له بهم عناية . والشافعى (رضى الله عنه) ساعده الجد فى نفسه وأتباعه وأصحابه فى حياته ومماته ، فظهر من أمره مصداق قوله :

الجَدُّ يدنى كل أمر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق

ذكر نيل مصر

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، والمدن والقرى بِضفتيه منتظمة ، ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يُزْدَرَعُ عليه ما يُزْدَرَعُ على النيل ، وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره .

قال الله تعالى : (فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم) فسماه يما وهو البحر . ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال ، خلافا لجميع الأنهار . ومن عجائبه أن ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها ، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها . ونهر السند مثله فى ذلك (وسيأتى ذكره) وأول ابتداء زيادته فى حزيران وهو يونيه ؛ فإذا بلغت زيادته ست عشرة ذراعا تم خراج السلطان ؛ فإن زاد ذراعا كان الخصب فى العام ، والصلاح التام ؛ فإن بلغ ثمانى عشرة ذراعا أضر بالضياع ، وأعقب الوباء ؛ وإن نقص ذراعا عن ست عشرة نقص خراج السلطان . وإن نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد .

والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهى : النيل ، والفرات ، والدجلة ، وسيحون ، وجيحون . وتماثلها أنهار خمسة أيضا : نهر السند ويسمى بنج آب [1] ؛ ونهر الهند ويسمى الكنك ؛ وإليه تحج الهنود . وإذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه . ويقولون : هو من الجنة ؛ ونهر الجون بالهند أيضا ؛ ونهر إتل بصحراء قفجق ؛ وعلى ساحله مدينة السرا ؛ ونهر السرو [2] بأرض الخطا [3] ، وعلى ضفته مدينة خان بالق [4] ، ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا [5] ، ثم إلى مدينة الزيتون [6] بأرض الصين . (وسيذكر ذلك كله فى مواضعه إن شاء الله) . والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ، ولا يعبر نهر منها إلا فى السفن شتاء وصيفا ؛ وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل ؛ فإذا أمد ترعها فاضت على المزارع .

---

(١) معناه الأنهر الخمسة .
(٢) هو النهر الأصفر .
(٣) الصين الشمالية .
(٤) مدينة بكين .
(٥) مدينة هانغ .
(٦) مدينة قشيو .

ذكر الأهرام والبرابى[١]

وهى من العجائب المذكورة على مر الدهور ، وللناس فيها كلام كثير ، وخوض فى شأنها وأولية بنائها . ويزعمون[٢] أن جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هِرْمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، ويسمى أَخْنُوخ ، وهو إدريس عليه السلام ، وأنه أول من تكلم فى الحركات الفلكية ، والجواهر العلوية ، وأول من بنى الهياكل ومجَّد الله تعالى فيها ، وأنه أنذر الناس بالطوفان ، وخاف ذهاب العلم ودروس الصناعات ، فبنى الأهرام والبرابى ، وصور فيها جميع الصناعات والآلات ، ورسم العلوم فيها ، لتبقى مخلدة . ويقال إن دار العلم والملك بمصر مدينة مَنْف ، وهى على بَرِيد من الفُسْطاط ، فلما بنيت الإسكندرية انتقل الناس إليها ، وصارت دار العلم والملك ، إلى أن أتى الاسلام ، فاختط عمرو بن العاص (رضى الله عنه) مدينة الفسطاط . فهى قاعدة مصر إلى هذا العهد .

وصف الأهرام

والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت ، متناهى السمو ، مستدير ، متسع الأسفل ، ضيق الأعلى ، كالشكل المخروط ، ولا أبواب لها ، ولا تعلم كيفية بنائها . ومما يذكر[٣] فى شأنها أن ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان ، رأى رؤيا هالته ، وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربى من النيل ، لتكون مستودعا للعلوم ولجثث الملوك ، وأنه سأل المنجمين : هل يفتح منها موضع ؟ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالى ، وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ، ومبلغ الإنفاق فى فتحه ، فأمر أن يجعل بذلك

---

(١) لفظة قبطية أصلها (پير پ) ومعناها الهيكل أو المعبد .

(٢) قد دل الكشف الحديث على بطلان جميع هذه المزاعم .

(٣) حديث خرافة .

الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق فى فتحه . واشتد فى البناء فأتمه فى ستين سنة ، وكتب عليها : بنينا هذه الأهرام فى ستين سنة ، فليهدمها من يريد ذلك فى ستمائة سنة ، فإن الهدم أيسر من البناء .

فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون ، أراد هدمها ، فأشار عليه بعض مشايخ مصر ألا يفعل ، فلجّ فى ذلك ، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى ، فكانوا يوقدون عليها النار ، ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمَنْجنيق ، حتى فتحت الثُّلمة التى بها إلى اليوم ؛ ووجدوا بإزاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه ، فحصر ما أنفق فى النقب فوجدهما سواء ، فطال عجبه من ذلك ، ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا .

ذكر سلطان مصر

وكان سلطان مصر على عهد دخولى إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى . وكان قلاوون يعرف بالألفى لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهبا ، وأصله من قِفْجَق . وللملك الناصر (رحمه الله) السيرة الكريمة ، والفضائل العظيمة ، وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين ، وما يفعله فى كل سنة من أفعال البر التى تعين الحجاج ، من الجمال التى تحمل الزاد والماء ، للمنقطعين والضعفاء ، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى فى الدربين : المصرى والشامى . وبنى زاوية عظيمة بِسَرْياقُص خارج القاهرة . لكن الزاوية التى بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، وكهف الفقراء والمساكين ، خليفة الله فى أرضه ، القائم من الجهاد بنفله وفرضه ، أبو عنان (أيد الله أمره وأظهره ، وسنّى له الفتح المبين ويسره) بخارج حضرته العلية ، المدينة البيضاء (حرسها الله) ، لا نظير لها فى المعمور ، فى إتقان الوضع ، وحسن البناء والنقش فى الجص ، بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله . وسيأتى ذكر ما عمره (أيده الله) من المدارس والمارَسْتانات والزوايا ببلاده ، (حرسها الله وحفظها بدوام ملكه) .

ذكر بعض أمراء مصر

منهم ساقى الملك الناصر ، وهو الأمير بُكْتُمور ، وهو الذى قتله الملك الناصر بالسم (وسيذكر ذلك) ؛ ومنهم نائب الملك الناصر أَرْغُون الدَّوادار ، وهو الذى يلى بكتمور فى المنزلة . ومنهم طُشْط المعروف بحمص أخضر ، وكان من خيار الأمراء ، وله الصدقات الكثيرة على الأيتام ، من كُسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن . وله الإحسان العظيم (للحرافيش)، وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وُجُوه ودعارة . وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من (الحرافيش) آلاف ، ووقفوا بأسفل القلعة ، ونادوا بلسان واحد : يا أعرج النحس ! (يعنون الملك الناصر) أخرجه ؛ فأخرجه من محبسه ؛ وسجنه مرة أخرى ، ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه . ومنهم وزير الملك الناصر ، يعرف بالجَمَالى . ومنهم بدر الدين بن البَابَه . ومنهم جمال الدين نائب الكَرَك . ومنهم تُقُزْدُمُور . ومنهم بهادُر الحجازى . ومنهم قَوْصُون . ومنهم بَشْتَك . وكل هؤلاء يتنافسون فى أفعال الخيرات ، وبناء المساجد والزوايا . ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه ، القاضى فخر الدين القبطى ، وكان نصرانيا من القبط ، فأسلم وحسن إسلامه . وله المكارم العظيمة ، والفضائل التامة ، ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر ، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل .

ومن عادته أن يجلس عشىّ النهار فى مجلس له بأسطوان[1] داره على النيل ، ويليه المسجد ، فإذا حضر المغرب صلّى فى المسجد ، وعاد إلى مجلسه ، وأتى بالطعام ، ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان ؛ فمن كان

---

(١) يريد به البهو . وليس بهذا المعنى عربيا .

ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ، ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين ، واسمه لؤلؤ ، بأن يصحبه إلى خارج الدار ، وهنالك خازنه ومعه صرر الدراهم ، فيعطيه ماقدر له ؛ ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفقهاء ، ويُقرأ بين يديه كتاب البخارى ، فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه.

ذكر القضاة بمصر فى عهد دخولى إليها

فمنهم قاضى القضاة الشافعية ، وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا ، وإليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم ، وهو القاضى الإمام العالم بدر الدين بن جماعة . وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك . ومنهم قاضى القضاة المالكية الإمام الصالح تقى الدين الأخنائى . ومنهم قاضى القضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريرى ، وكان شديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكانت الأمراء تخافه . ولقد ذكر لى أن الملك الناصر قال يوما لجلسائه : إنى لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريرى . ومنهم قاضى القضاة الحنبلية . ولا أعرفه الآن ، إلا أنه كان يدعى بعز الدين .

حكاية

كان الملك الناصر ، رحمه الله ، يقعد للنظر فى المظالم ، ورفع قصص المشتكين ، كل يوم اثنين وخميس ، ويقعد القضاة الأربعة عن يساره ، وتقرأ القصص بين يديه ، ويعين من يسأل صاحب القصة عنها . وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة فى الجلوس قاضى الشافعية ، ثم قاضى الحنفية ، ثم قاضى المالكية ، ثم قاضى الحنبلية . فلما توفى شمس الدين الحريرى وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفى ، أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فوقه ؛ وذكروا أن العادة جرت

بذلك قديما، إذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضى الشافعية تقى الدين بن دقيق العيد. فأمر الملك الناصر بذلك. فلما علم به قاضى الحنفية غاب عن شهود المجلس أَنَفَةً من ذلك . فأنكر الملك الناصر مغيبه ، وعلم ماقصده، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه، أخذ الحاجب بيده وأقعده، حيث نفذ أمر السلطان، مما يلى قاضى المالكية، واستمر حاله على ذلك .

ذكر بعض علماء مصر وأعيانها

فمنهم شمس الدين الأصْبَهانىّ ، إمام الدنيا فى المعقولات . ومنهم شرف الدين الزواوِى المالكى. ومنهم برهان الدين ابن بنت الشاذلى ، نائب قاضى القضاة بجامع الصالح . ومنهم ركن الدين بن القَوْبَع التونسى ، من الأئمة فى المعقولات . ومنهم شمس الدين بن عدلان ، كبير الشافعية . ومنهم بهاء الدين بن عقيل ، فقيه كبير . ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغَرناطى ، وهو أعلمهم بالنحو. ومنهم الشيخ صالح بدر الدين عبدالله المَنُوفى . ومنهم برهان الدين الصَفَاقُسى. ومنهم قوام الدين الكِرْمانى ، وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الأزهر ، وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه، ويدرس فنون العلم، ويفتى فى المذاهب ، ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ، ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى مواضع الفُرَج والنُّزْهات منفردا عن أصحابه . ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حِنَّاء . ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر ، مجد الدين الأقْصَرَائى (نسبة إلى أَقْصَرَا من بلاد الروم) ومسكنه سَرْياقُص. ومنهم الشيخ جمال الدين الحُوَيْزائى ، (والحُوَيْزَةُ على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة) ومنهم نقيب الأشراف بديار مصر ، السيد الشريف المعظم ، بدر الدين الحسينى ، من كبار الصالحين . ومنهم وكيل بيت المال ، المدرس بقبة الإمام الشافعى ، مجد الدين بن حَرَمِىّ. ومنهم المحتسب بمصر ، نجم الدين السَّهْرَتِى ، من كبار الفقهاء ، وله بمصر رياسة عظيمة وجاه .

ذكر يوم المحمل بمصر

وهو يوم دوران الجمل ، يوم مشهود . وكيفية ترتيبهم فيه : أنه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت المال ، والمحتسب ، وقد ذكرنا جميعهم . ويركب معهم أعلام الفقهاء ، وأمناء الرؤساء ، وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم المحمل على جمل ، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاءون على جمالهم . ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل (وجميع من ذكرنا معه) بمدينتي القاهرة ومصر ، والحُداة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك في رجب . فعند ذلك تهيج العزمات ، وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث ، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد .

سفره إلى الصعيد

ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد ، برسم الحجاز الشريف ، فبت ليلة خروجي بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حِنَّاء بدَيْر الطين ، وهو رباط عظيم ، بناه على مفاخر عظيمة ، وآثار كريمة ، أودعها فيه : وهى قطعة من قصعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والميل الذى كان يكتحل به ، والإشْفى الذى كان يخصف به نعله ، ومصحف أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بخط يده (رضى الله عنه) ، ويقال : إن الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية ، بمائة ألف درهم . وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر ، والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة (نفعه الله تعالى بقصده المبارك) . ثم خرجت من الرباط المذكور ، ومررت بمنية القائد ، وهى بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثم سرت منها الى مدينة بُوش . وهذه

المدينـة أكثر بلاد مصر كتّانا ، ومنها يجاب إلى سائر الديار المصرية و إلى إفريقية . ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة ، دَلَاص وهذه المدينة كثيرة الكتّان أيضا ، كمثل التى ذكرنا قبلها ، ويحمل أيضا منها إلى ديار مصر و إفريقية . ثم سافرت منها إلى مدينة بِبا . ثم سافرت منها إلى مدينة البَهْنَسا . وهى مدينـة كبيرة ، و بساتينها كثيرة ، وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة . وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين ، وهو كريم النفس فاضل ، ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمى ، ونزلت عنده وأضافنى . ثم سافرت منها إلى مدينة مُنْية ابن خَصيب وهى مدينة كبيرة الساحة ، متسعة المساحة ، مبنية على شاطئ النيل ، وحق لها على بلاد الصعيد التفضيل ؛ بها المدارس والمشاهد ، والزوايا والمساجد ، وكانت فى القديم منية عامل مصر الخصيب .

حكاية خصيب[1]

يذكر أن أحد الخلفاء من بنى العباس رضى الله عنهم غضب على أهل مصر ، فآلى أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا ، قصدا لإذلالهم والتنكيل بهم ؛ وكان خُصَيب أحقرهم ، إذْ كان يتولى تسخين الحمـام ؛ فخلع عليه وأمره على مصر ، وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ، ويقصدهم بالأذية لمـا هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز ؛ فلما استقر خصيب بمصر ، سار فى أهلها أحسن سيرة ، وشهر بالكرم والإيثار ، فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ، ويعودون إلى بغداد شاكرين لمـا أولاهم . و إن الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه ، فسأله عن مغيبه ، فأخبره أنه قصد خصيبا ، وذكر له ما أعطاه خصيب (وكان عطاء جزيلا) فغضب الخليفة وأمر بِسَمْلِ عينى خصيب و إخراجه من مصر إلى بغداد ،

(١) فى هذه الحكاية غرابة وتلفيق من القصاص .

وأن يطرح فى أسواقها ؛ فلما ورد الأمر بالقبض عليه ، حيل بينه وبين دخول منزله ، وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن ، فخبأها عنده ، وخاطها فى ثوب له ليلا ، وسُملت عيناه وطرح فى أسواق بغداد ؛ فمر به بعض الشعراء ، فقال له : ياخصيب ، إنى كنت قصدتك من بغداد إلى مصر مادحا لك بقصيدة ، فوافقت انصرافك عنها ، وأحب أن تسمعها ، فقال : كيف بسماعها وأنا على ما تراه ؟ فقال إنما قصدى سماعك لها ، وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت ، جزاك الله خيرا . قال فافعل فأنشده :

أنت الخصيب وهذه مصر ٭ فتدفقا فكلاكما بحر

فلما أتى على آخرها قال له : افتق هذه الخياطة ! ففعل ذلك ؛ فقال له : خذ الياقوتة ! فأبى ، فأقسم عليه أن يأخذها ، فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهريين ، فلما عرضها عليهم قالوا له : إن هذه لاتصلح إلا للخليفة ؛ فرفعوا أمرها إلى الخليفة ، فأمر الخليفة بإحضار الشاعر ، واستفهمه عن شأن الياقوتة ، فأخبره بخبرها ، فتأسف على مافعله بخصيب ، وأمر بمثوله بين يديه ، وأجزل له العطاء ، وحكمه فيما يريد ، فرغب أن يعطيه هذه المنية ، ففعل ذلك ، وسكنها خصيب إلى أن توفى وأورثها عقبه إلى أن انقرضوا . وكان قاضى هذه المنية أيام دخولى إليها فخر الدين النُّوَيْرِىّ المالكى ، وواليها شمس الدين ، أمير خيِّر كريم . دخلت يوما الحمام بهذه البلدة ، فرأيت الناس بها لا يستترون ؛ فعظم ذلك علىّ ، وأتيته فأعلمته بذلك ، فأمرنى ألا أبرح ؛ وأمر بإحضار المكترين للحمامات ، وكتبت عليهم العقود : أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر ، فإنهم يؤاخذون على ذلك ، واشتد عليهم أعظم الاشتداد .

ثم انصرفت عنه وسافرت من منية بن خصيب إلى مدينة مَنْلوى ، وهى صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل ؛ وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميرى الشافعى . وكبارها قوم يعرفون ببنى فُضَيْل ؛ بنى أحدهم جامعا أنفق فيه صميم ماله . وبهذه المدينة إحدى عشرة مَعصرة للسكر . ومن عاداتهم أنهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها ؛ فيأتى الفقير بالخبزة الحارة ، فيطرحها فى القدر التى يطبخ السكر فيها ، ثم يخرجها (وقد امتلأت سكرا) ، فينصرف بها . وسافرت من منلوى إلى مدينة مَنْفَلُوط ، وهى مدينة حسن رواؤها ، مُونِق بناؤها على ضفة النيل ، شهيرة البركة .

حكاية(١)

أخبرنى أهل هذه المدينة : أن الملك الناصر (رحمه الله) أمر بعمل منبر عظيم ، محكم الصنعة ، بديع الإنشاء ، برسم المسجد الحرام (زاده الله شرفا وتعظيما). فلما تم عمله ، أمر أن يصعد به فى النيل ، ليجاز إلى بحر جُدة ، ثم إلى مكة (شرفها الله) . فلما وصل المركب الذى احتمله إلى منفلوط ، وحاذى مسجدها الجامع ، وقف وامتنع من الجرى ، مع مساعدة الريح ؛ فعجب الناس من شأنه أشد العجب ، وأقاموا أياما لا ينهض بهم المركب ؛ فكتبوا بخبره إلى الملك الناصر (رحمه الله) ، فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ، ففعل ذلك ؛ وقد عاينته بها .

ويصنع بهذه المدينة شبه العسل ، يستخرجونه من القمح ، ويسمونه النِّيدا ، يباع بأسواق مصر . وسافرت من هذه المدينة إلى مدينة أسيوط ، وهى مدينة رفيعة ، أسواقها بديعة . وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ما ثَمَّ) — لقب شهر به — وأصله أن القضاة بديار

(١) خرافة .

مصر والشام ، بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل ؛ فإذا أتى فقير لمدينة من المدن ، قصد القاضي بها ، فيعطيه ما قدر له ؛ فكان هذا القاضي إذا أتاه الفقير ، يقول له : حاصل ما ثم ! (أى لم يبق من المال الحاصل شيء) فلقب بذلك ولزمه . وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين ابن الصباغ ؛ أضافني بزاويته .

وسافرت منها إلى مدينة إخْميم ، وهي مدينة عظيمة أصيلة البنيان ، عجيبة الشأن ، بها (البربى) المعروف باسمها ؛ وهو مبنى بالحجارة ، في داخله نقوش وكتابة للأوائل ، لا تفهم في هذا العهد ، وصور الأفلاك والكواكب ، ويزعمون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب ، وبها صور الحيوانات وسواها ، وعند الناس في الصور أكاذيب لا يعرج عليها . وكان بإخميم رجل يعرف بالخطيب ، أمر بهدم هذه البرابي ، وابتنى بحجارتها مدرسة ، وهو رجل موسر معروف باليسار ، ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابي . ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر ، وبها تربة جده عبد الظاهر . وله من الإخوة ناصر الدين ، ومجد الدين ، وواحد الدين . ومن عاداتهم أن يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ، ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده ، وقاضي المدينة الفقيه مخلص وسائر وجوه أهلها ، فيجتمعون للقرآن ، ويذكرون الله ، إلى صلاة العصر ، فإذا صلوها قرءوا سورة الكهف ثم انصرفوا . وسافرت من إخميم الى مدينة (هو) مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) . نزلت منها بمدرسة تقي الدين بن السراج ، ورأيتهم يقرءون بها في كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ، ثم يقرءون أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، وحزب البحر . وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسني ، من كبار الصالحين .

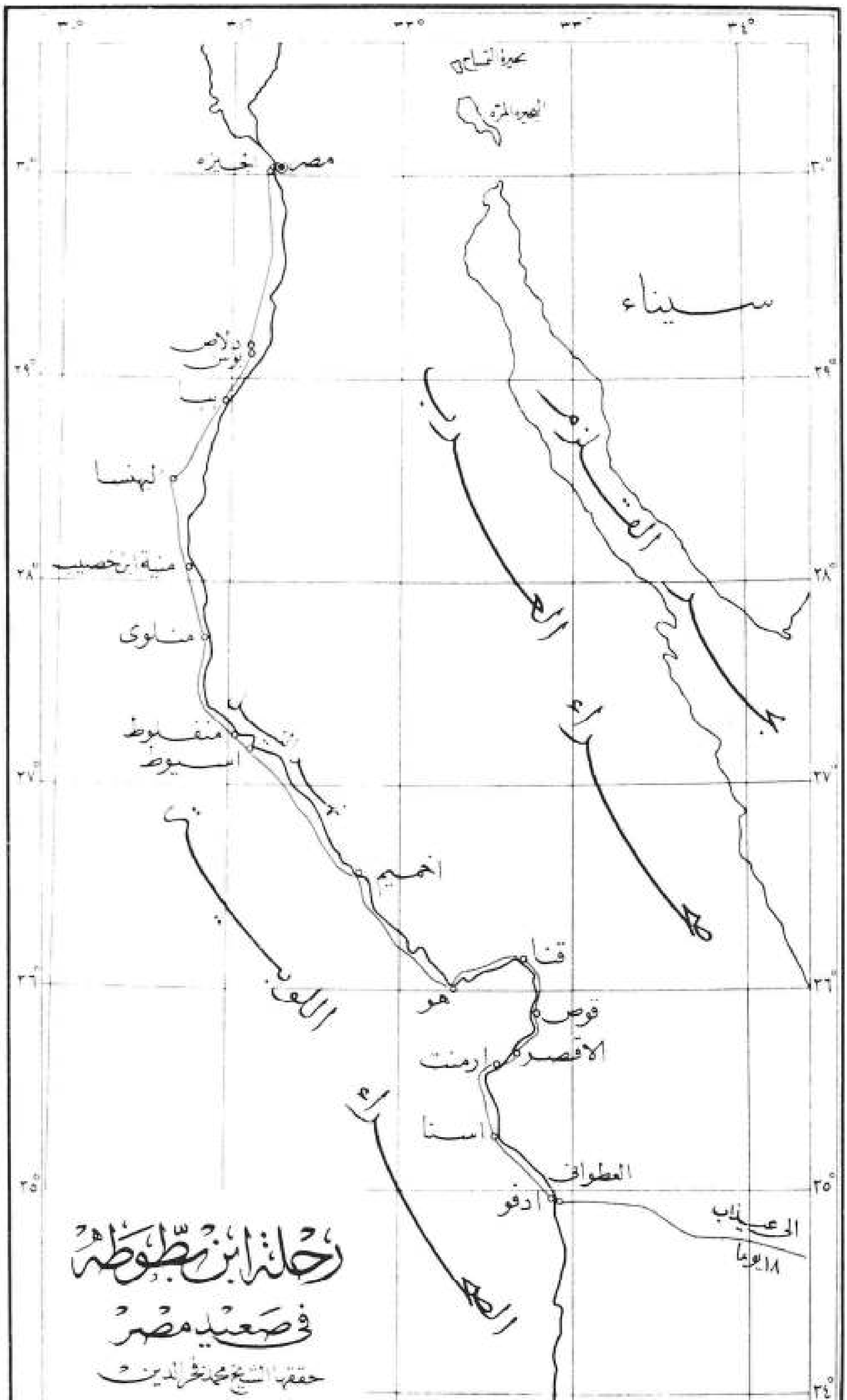

طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٢ (G. ٣٢,٩٣١)

كرامة له : دخلت إلى هذا الشريف متبركا برؤيتـه والسلام عليه ، فسألنى عن قصدى ، فأخبرته أنى أريد حج البيت الحرام على طريق جُدّة ، فقال لى : لا يحصل لك هذا فى هذا الوقت ، فارجع وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامى . فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ، ومضيت فى طريق حتى وصلت عَيْذَاب ، فلم يمكن السفر ، فعدت راجعا إلى مصر ، ثم إلى الشام ، وكان طريق فى أول حجاتى على الدرب الشامى ، على ما أخبرنى الشريف (نفع الله به) .

ثم سافرت إلى مدينة قنا ، وهى صغيرة حسنة الأسواق وبها قبر الشريف الصالح الولى ، صاحب البراهين العجيبة ، والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوى (رحمة الله عليه) . ورأيت بالمدرسة السيفية منها حفيـده شهاب الدين أحمد .

وسافرت من هذا البلد إلى مدينة قُوص ، مدينة عظيمة ، لها خيرات عميمـة ، بساتينها مورقة ، وأسـواقها مُونِقة ، ولها المساجد الكثيرة ، والمدارس الأثيرة ، وهى منزل ولاة الصعيد ، وبخارجها زاوية الشـيخ شهاب الدين بن عبد الغفار ، وبها اجتماع الفقراء المتجردين فى شهر رمضان من كل سنة . ومن علمائها القاضى جمـال الدين بن السديد ، والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد ، أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق فى ذلك ، لم أر من يمـاثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى ، وخطيب مدينة خُوارِزم حسام الدين الشاطبى (وسيقع ذكرهما) . ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز ، المدرس بمدرسة المـالكية ، ومنهم الفقيه برهان الدين إبراهيم الأندلسى ، له زاوية عالية .

ثم سافرت إلى مدينة الأقْصُر وهى صغيرة حسنة ، وبها قبر الصالح العابد أبى الحجاج الأقصرى ، وعليه زاوية . وسافرت منها إلى مدينة أرمَنْت ، وهى صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل ، أضافنى قاضيها (وأنسيت اسمه) . ثم سافرت منها إلى مدينة أَسْنَا ، مدينة عظيمة ، متسعة الشوارع ، ضخمة المنافع ، كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع ، لها أسواق حسان ، وبساتين ذات أفنان ، قاضيها قاضى القضاة شهاب الدين بن مسكين ، أضافنى وأكرمنى وكتب إلى نوابه بإكرامى . وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين على ، والشيخ الصالح عبد الواحد المِكْناسى ، وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص . ثم سافرت منها إلى مدينة أَدْفو ، وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة فى صحراء . ثم جزنا النيل من مدينة أدفو إلى مدينة العَطْوَانِى ، ومنها اكترينا الجمال ، وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدُغَيْم ، فى صحراء لا عمارة بها ، إلا أنها آمنة السبل . وفى بعض منازلها نزلنا حُمَيْثَرا حيث قبر ولى الله أبى الحسن الشاذلى ، وقد ذكرنا كرامته فى إخباره أنه يموت بها . وأرضها كثيرة الضباع ، ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ، ولقد قصدت رحلى ضبع منها فمزقت عِدْلا كان به ، واجترت منه جراب تمر ، وذهبت به ، فوجدناه لما أصبحنا ممزقا ، مأكولا معظم ما كان فيه .

ثم لما سرنا خمسة عشر يوما ، وصلنا إلى مدينة عِيذاب[1] ، وهى مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ، ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر ، وأهلها البُجَاةُ ، وهم سود الألوان يلتحفون ملاحف صفرا ، ويشدون على رءوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها إصبعا ، وهم لا يورثون

(١) يقال : عَيْذاب وعِيذاب .

البنات ، وطعامهم ألبان الإبل ، و يركبون المهارِى[١] ويسمونها الصُّهْب . وثلث المدينة للملك الناصر ، وثلثاها لملك البجاة وهو يعرف بالحَدْرَبى . و بمدينة عيذاب مسجد ينسب للقَسْطَلَّانِى ، شهير البركة ، رأيته وتبركت به . و بها الشيخ الصالح موسى ، والشيخ المسن محمد المرَّاكُشى ، زعم أنه ابن المرتضى ملك مراكش ، وأن سنه خمس وتسعون سنة .

ولما وصلنا إلى عيذاب ، وجدنا الحدربى سلطان البجاة يحارب الأتراك[٢] ، وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه . فتعذر سفرنا فى البحر ، فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد ، وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر ، فوصلنا إلى مدينة قوص التى تقدم ذكرها .

عودته إلى شمال مصر

وانحدرنا منها فى النيل ، وكان أوان مده ، فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر ، فبت بمصر ليلة واحدة ، وقصدت بلاد الشام ، وذلك فى منتصف شعبان سنة ست وعشرين ، فوصلت إلى مدينة بَلْبِيْس[٣] وهى مدينة كبيرة ، ذات بساتين كثيرة ، ولم ألق بها من يجب ذكره . ثم وصلت إلى الصالِحية ، ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها ، و بكل منزل منها فُنْدُق ، وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابهم ، و بخارج كل خان ساقية للسبيل ، وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته . ومن منازلها قَطْيَا المشهورة ، والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث ، وبها تؤخذ الزكاة من التجار ، وتفتش أمتعتهم ، و يبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال ،

---

(١) نسبة إلى مَهْرة ، حىّ من العرب ، الواحدة مَهْرِيَّة .

(٢) المماليك .

(٣) و يقال أيضا : بُلْبَيْس . قاموس .

والكتّاب والشهود ، ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب . ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطا على أموال النـاس ، وتوقيا من الجواسيس العراقيين . وطريقها فى ضمان العرب ، وقد وكلوا بحفظه ، فإذا كان الليـل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ، ثم يأتى الأمـير صباحا فينظر إلى الرمل ، فإن وجد به أثرا طالب العرب بإحضار مؤثره ، فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير فيعاقبه بمـا شاء . وكان بها فى عهد وصولى إليها عز الدين أستاذ الدار أقـارِى ، من خيار الأمراء ، أضافنى وأكرمنى ، وأباح الجواز لمن كان معى .

دخول الشام ووصف مدنه

ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر، متسعة الأقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، بها المساجد الكثيرة ، والأسوار عليها ، وكان بها مسجد جامع حسن . والمسجد الذى تقام الآن به الجمعة فيها ، بناه الأمير المعظم الجاوِلىّ ، وهو أنيق البناء ، محكم الصنعة ، ومنبره من الرُّخام الأبيض . وقاضى غزة بدر الدين السَّلْخَتِى الحَوْرَانى ، ومدرِّسها علم الدين بن سالم . وبنو سالم كبراء هذه المدينة . ومنهم شمس الدين قاضى القدس . ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل (صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما) . وهى مدينة صغيرة الساحة ، كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار، حسنة المنظر ، عجيبة المخبر ، فى بطن واد ، ومسجدها أنيق الصنعة، محكم العمل، بديع الحسن ، سامى الارتفاع ، مبنى بالصخر المنحوت ، فى أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرا . ويقال : إن سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه . وفى داخل المسجد الغار المكرم المقدس ، فيه قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ،

(صلوات الله على نبينا وعليهم). ويقابلها قبور ثلاثة، هى قبور أزواجهم. وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل، إلى مسلك ضيق، يفضى إلى ساحة مفروشة بالرخام، فيها صور القبور الثلاثة، ويقال إنها محاذية لها، وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك وهو الآن مسدود. وقد نزلت بهذا الموضع مرات. ومما ذكره أهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك، ما نقلته من كتاب على ابن جعفر الرازى، الذى سماه (المسفر للقلوب، عن صحة قبر إبراهيم و إسحاق و يعقوب)، أسند فيه إلى أبى هريرة. قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): لما أسرى بى إلى بيت المقدس، مر بى جبريل على قبر إبراهيم. فقال: انزل فصل ركعتين، فإن هنا قبر أبيك إبراهيم، ثم مر بى على بيت لحم وقال: انزل فصل ركعتين، فإن هنا ولد أخوك عيسى (عليه السلام). ثم أتى بى إلى الصخرة (وذكر بقية الحديث). ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المُعَمَّر الإمام الخطيب برهان الدين الجَعْبَرى، أحد الصلحاء المرضيين، والأئمة المشهورين، سألته عن صحة كون قبر الخليل (عليه السلام) هنالك، فقال لى: كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور إبراهيم و إسحاق و يعقوب (على نبينا وعليهم السلام)، وقبور زوجاتهم. ولا يطعن فى ذلك إلا أهل البدع، وهو نقل الخلف عن السلف، لا يشك فيه. ويذكر أن بعض الأئمة دخل إلى هذا الغار ووقف عند قبر سارة، فدخل شيخ فقال له: أىُّ هذه القبور هو قبر إبراهيم؟ فأشار له إلى قبره المعروف، ثم دخل شاب فسأله كذلك، فأشار له إليه، ثم دخل صبى فسأله أيضا، فأشار له إليه، فقال الفقيه: أشهد أن هذا قبر ابراهيم (عليه السلام) لا شك، ثم دخل إلى المسجد فصلى به، وارتحل من الغد. وبداخل هذا المسجد أيضا قبر يوسف (عليه السلام). وبشرقىّ حرم

الخليل تربة لوط (عليه السلام) ، وهى على تل مرتفع يشرف منه على غور الشام ، وعلى قبره أبنية حسنة ، وهو فى بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه. وهنالك بحيرة لوط ، وهى أُجَاج ، يقال إنها موضع ديار قوم لوط . وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين ؛ وهو على تل مرتفع ، له نور وإشراق ليس لسواه ، ولا يجاوره إلا دار واحدة ، يسكنها قَيِّمُه . وفى المسجد بمقربة من بابه ، موضع منخفض ، فى حجر صلد ، قد هيئ فيه صورة محراب ، لا يسع إلا مصليا واحدا . ويقال إن إبراهيم سجد فى ذلك الموضع شكرا لله تعالى عند هلاك قوم لوط . وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن على (عليهما السلام) . وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام ، فى أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع : بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء ، وله ما ذرأ وبرأ ، وعلى خلقه كتب الفناء ، وفى رسول الله أسوة . هذا قبر أمّ سلمة فاطمة بنت الحسين (رضى الله عنه) . وفى اللوح الآخر منقوش : صنعه محمد بن أبى سهل النقاش بمصر ؛ وتحت ذلك هذه الأبيات :

أسكنتُ من كان فى الأحشاء مسكنه　　بالرغم منى بين الترب والحجر
ياقبر فاطمَة ، بنت ابن فاطمة　　بنت الأئمة ، بنت الأنجم الزُّهُر
ياقبر ، ما فيك من دين ومن ورع　　ومن عفاف ومن صون ومن خفَرَ؟

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس ، فزرت فى طريق إليه تربة يونس (عليه السلام) ، وعليها بُنْيَة كبيرة ومسجد . وزرت أيضا بيت لحم ، موضع ميلاد عيسى (عليه السلام) ، وبه أثر جذع النخلة ، وعليه عمارة كثيرة ، والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ، ويضيفون من نزل به .

ثم وصلنا إلى بيت المقدس (شرفه الله)، ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل، ومصعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم تسليما) ومَعْرَجِه إلى السماء. والبلدة كبيرة مُنيفة، مبنية بالصخر المنحوت. وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب (جزاه الله عن الإسلام خيرا) لما فتح هذه المدينة، هدم بعض سورها، ثم أتمّ الملك الظاهر هدمه، خوفا أن يقصدها الروم فيتمنعوا بها. ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم. وجاب لها الماء فى هذا العهد الأمير سيف الدين تَنْكِيز أمير دمشق.

ذكر المسجد المقدس

وهو من المساجد العجيبة الرائقة، الفائقة الحسن؛ يقال: إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه، وإن طوله من الشرق إلى الغرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية[١]، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا؛ وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث. وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا بابا واحدا، وهو الذى يدخل منه الإمام. والمسجد كله فضاء غير مَسْقُوف، إلا المسجد الأقصى فهو مسقوف، فى النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة؛ وفى المسجد مواضع سواه مسقوفة.

ذكر قبة الصخرة

وهى من أعجب المبانى وأتقنها وأغربها شكلا؛ قد توافر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف. وهى قائمة على نَشْز فى وسط المسجد، يصعد إليها فى درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش

(١) الذراع المالكية: طولها ٣٢ إصبعا.

بالرخام أيضا ، محكم الصنعة ، وكذلك داخلها . وفى ظاهرها و باطنها من أنواع التزو يق ، ورائق الصنعة ما يعجز الواصف ، وأكثر ذلك مغشى بالذهب . فهى تتلألأ نورا ، وتلمع لمعان البرق ، يحار بصر متأملها فى محاسنها ، و يقصر لسان رائيها عن تمثيلها . وفى وسط القبة الصخرة الكريمة ، التى جاء ذكرها فى الآثار ، فإن النبى (صلى الله عليه وسلم) عرج منها إلى السماء . وهى صخرة صماء ، ارتفاعها نحو قامة ، وتحتها مغارة فى مقدار بيت صغير ، ارتفاعها نحو قامة أيضا ، ينزل إليها على درج . وهنالك شكل محراب . وعلى الصخرة شبا كان اثنان محكما العمل ، يغلقان عليها ، أحدهما (وهو الذى يلى الصخرة) من حديد بديع الصنعة ، والثانى من خشب ، وفى القبة دَرَقَة كبيرة من حديد معلقة هنالك ، والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب (رضى الله عنه) .

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

فمنها بِعُدْوة الوادى المعروف بوادى جهنم ، فى شرقى البلد ، على تل مرتفع هنالك ، بُنْية يقال : إنها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء . ومنها أيضا قبر رابعة البدوية (منسوبة إلى البادية) ، وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة . وفى بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصارى ، و يقولون : إن قبر مريم (عليها السلام) بها . وهنالك ايضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى ، و يعتقدون أن قبر عيسى (عليه السلام) بها . وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للسلمين . وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به .

ذكر بعض فضلاء القدس

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغَزّى ، وهو من أهل غزة وكبرائها . ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابُلُسى . ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى . ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانِقَاه الكريمة ، أبو عبد الله محمد بن مُثْبِت الغَرناطى ، نزيل القدس . ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالمحجوب ، من كبار الصالحين . ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغى . ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبدالرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أَرْز الروم ، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى ، صحبته ولبست منه خرقة التصوف .

ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عَسْقَلان . وهو خراب قد عاد رسوما طامسة ، وأطلالا دارسة . وقلّ بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان : إتقانا وحسن وضع وأصالة مكان ، وجمعا بين مرافق البر والبحر . وبها المشهد الشهير ، حيث كان رأس الحسين بن على (عليه السلام) قبل أن ينقل إلى القاهرة . وهو مسجد عظيم سامى العلو ، فيه جب للماء ، أمر ببنائه بعض العُبَيْدِيين (وكتب ذلك على بابه) . وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر ، لم يبق منه إلا حِيطانه ، وفيه أساطين رخام لا مثل لها فى الحسن ، وهى ما بين قائم وحصيد . ومن جملتها أسطوانة حمراء عجيبة ، يزعم الناس أن النصارى احتملوها إلى بلادهم ثم فقدوها ، فوجدت فى موضعها بعسقلان . وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر إبراهيم (عليه السلام) ينزل إليها فى درج متسعة ، ويدخل منها إلى بيوت ، وفى كل جهة من جهاتها الأربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة ، وماؤها عذب وليس بالغزير . ويذكر الناس من فضائلها كثيرا . وبظاهر عسقلان

وادى النمل ، ويقال : إنه المذكور فى الكتاب العزيز . وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يحصر لكثرته ؛ أوقفنا عليهم قيّم المزار المذكور ، وله جِراية يجريها له ملك مصر ، مع ما يصل إليه من صدقات الزوار .

ثم سافرت منها إلى مدينة الرَّملة (وهى فِلَسْطِين) مدينة كبيرة ، كثيرة الخيرات . حسنة الأسواق ؛ وبها الجامع الأبيض ، ويقال إن فى قبلته ثلثمائة من الأنبياء مدفونين (عليهم السلام) . وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسى . ثم خرجت منها إلى مدينة نَابُلُس ، وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار ، مطردة الأنهار ، من أكثر بلاد الشام زيتونا ؛ ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق . وبها تصنع حلواء الخروب ، وتجاب إلى دمشق وغيرها . (وكيفية عملها) : أن يطبخ الخروب ، ثم يعصر ، ويؤخذ ما يخرج منه من الرُّبّ فتصنع منه الحلواء . ويجاب ذلك الرب أيضا إلى مصر والشام . وبها البطيخ المنسوب إليها ، وهو طيب عجيب . والمسجد الجامع فى نهاية من الإتقان والحسن ؛ وفى وسطه بركة ماء عذب .

ثم سافرت منها إلى مدينـة عَجْلُون ، وهى مدينة حسنة ، لها أسواق كثيرة ، وقلعة خطـيرة ، ويشقها نهر ماؤه عذب . ثم سافرت منها بقصد اللاذقية . فمررت بالغَوْر ، وهو واد بين تلال ، به قبر أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة (رضى الله عنه) . زرناه ، وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل . وبتنا هنالك ليلة ، ثم وصلنا إلى القُصَيْر ، وبه قبر مُعَاذ بن جَبَل (رضى الله عنه) ، تبركت أيضا بزيارته . ثم سافرت على الساحل ، فوصلت إلى مدينـة عَكَّة وهى خراب . وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشـام ، ومرسى سفنهم . وتشـبه قُسطنطينية العظمى . وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر ، يقال : إن الله تعالى أخرج منها البقر لآدم (عليه السلام)[1] ، وينزل إليها فى درج ؛ وكان عليها مسجد بقى منه محرابه . وبهذه المدينة قبر صالح (عليه السلام) .

(١) لا يعرف هذا فى الآثار الصحيحة .

وصف مدينة صُور

ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهى خراب، وبخارجها قرية معمورة . وأكثر أهلها أرفاض[١]؛ ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء، فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ، فبدأ بغسل رجليه، ثم غسل وجهه، ولم يتمضمض، ولا استنشق، ثم مسح بعض رأسه. فأخذت عليه فى فعله، فقال لى : إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس . ومدينة صور هى التى يضرب بها المثل فى الحصانة والمَنَعَة؛ لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها؛ ولها بابان : أحدهما للبر، والثانى للبحر . ولبابها الذى يشرع للبر أربع فُصَلات، كلها فى ستائر محيطة بالباب . وأما الباب الذى للبحر فهو بين برجين عظيمين. وبناؤها ليس فى بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأنا منه؛ لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، وعلى الجهة الرابعة سور . تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك. وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة، لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج، إلا بعد حطها . وكان عليها الحراس والأمناء، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا على علم منهم . وكان لعكة أيضا ميناء مثلها، ولكنه لم يكن يحمل إلا السفن الصغار .

ثم سافرت منها الى مدينة صَيْدَاء، وهى على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه، يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر . نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشمونى المصرى، وهو حسن الأخلاق كريم النفس . ثم سافرت منها إلى مدينة طَبَرِيَّة، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة، ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها وعظم شأنها، وبها الحمامات

---

(١) أرفاض : فرقة من الشيعة .

العجيبة : لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء ، وماؤها شديد الحرارة. ولها البحيرة الشهيرة ، طولها نحو ستة فراسخ ، وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ. وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء ، فيه قبر شعيب (عليه السلام) وبنته زوج موسى الكليم (عليه السلام) ، وقبر سليمان (عليه السلام) ، وقبر يهوذا ، وقبر رُوبِيل ، (صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم). وقصدنا منها زيارة الجُب الذى أُلقِى فيه يوسف (عليه السلام) ، وهو فى صحن مسجد صغير ، وعليه زاوية . والجب كبير عميق ، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر ، وأخبرنا قَيِّمه أن الماء ينبع منه أيضا .

ثم سرنا إلى مدينة بَيْرُوت ، وهى صغيرة حسنة الأسواق ، وجامعها بديع الحسن ، وتجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد . وقصدنا منها زيارة أبى يعقوب يوسف ، الذى يزعمون أنه من ملوك المغرب . وهو بموضع يعرف بكَرَك نوح ، من بقاع العزيز . وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ؛ ويقال إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف . وقيل السلطان نور الدين ، وكان من الصالحين ، ويذكر أنه كان ينسج الحُصُر ويقتات بثمنها .

وصف مدينة طَرَابُلُس الشام

ثم وصلت إلى مدينة طرابلس ، وهى إحدى قواعد الشام ، وبلدانها الضخام ، تخترقها الأنهار ، وتَحُفّ بها البساتين والأشجار ، ويكنفها البحر بمرافقه العميمة ، والبر بخيراته المقيمة ، ولها الأسواق العجيبة ، والمسارح الخصيبة ، والبحر على ميلين منها ، وهى حديثة البناء . وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زمنا ، فلما استرجعها الملك الظاهر خربت ، واتخذت هذه الحديثة . وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك . واميرها طَيْلان الحاجب المعروف بملك الأمراء ، ومسكنه

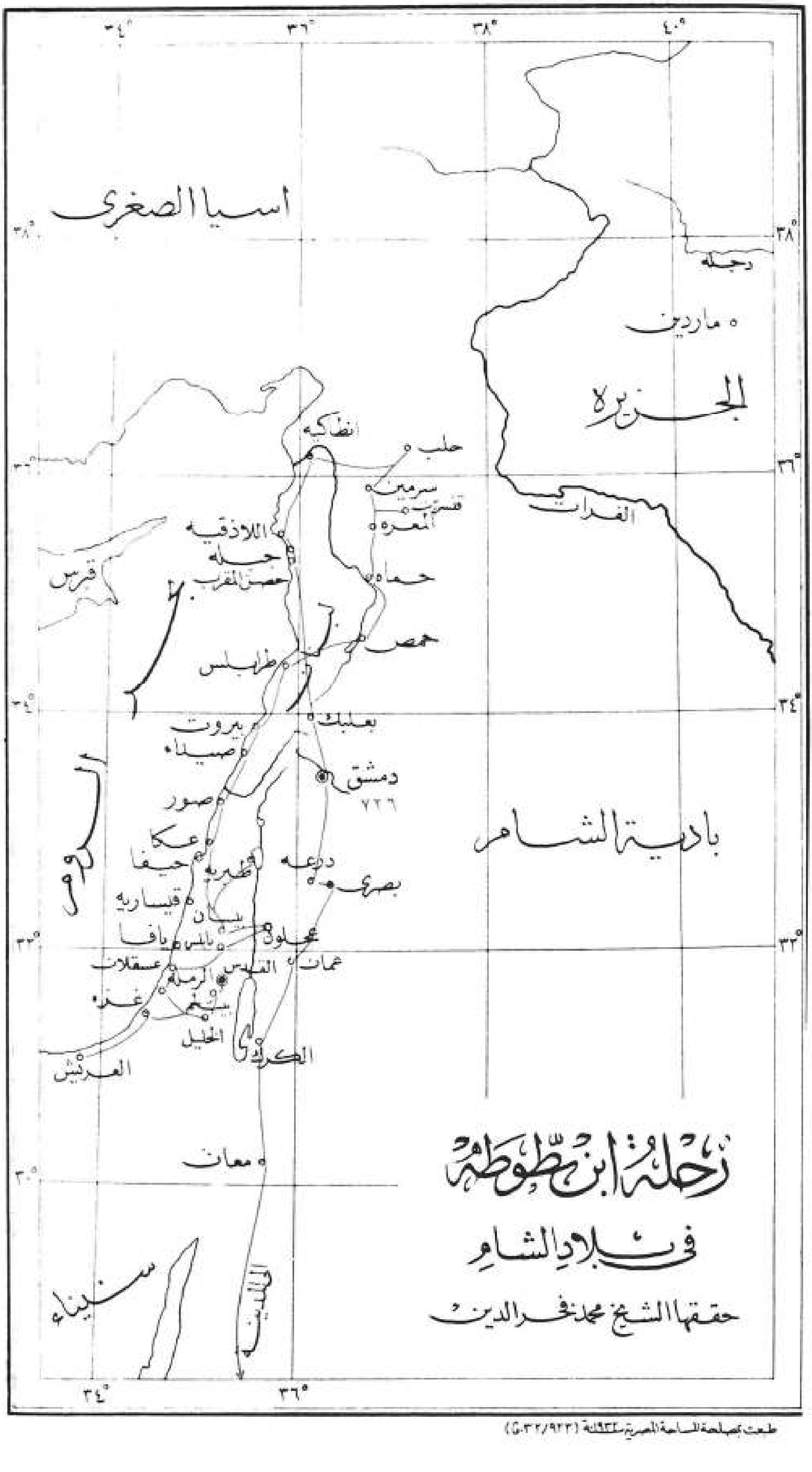

طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٤ (G.٣٢/٩٢٣)

بالدار المعروفة بدار السعادة . ومن عاداته أن يركب فى كل يوم اثنين وخميس . ويركب معه الأمراء والعساكر ، ويخرج إلى ظاهر المدينـة ، فإذا عاد إليها وقارب الوصول إلى منزله ، ترجل الأمراء ونزلوا عن دوابهم ، ومشوا بين يديه ، حتى يدخل منزله ، وينصرفون ، وتضرب الطَّبْلَخانة (١) عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم ، وتوقد المشاعل . وممن كان بها من الأعلام كاتب السر بهاء الدين بن غانم أحد الفضلاء الحُسَباء ، معروف بالسخاء والكرم ، وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف . وقد ذكرناه ، وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق . ومنهم وكيل بيت المـال قِوام الدين بن مكين ، من أكابر الرجال . ومنهـم قاضى قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام . وبهذه المدينة حمامات حسان ، منها حمام القاضى القِرَمى ، وحمام سَنْدَمور . وكان سندمور أمير هذه المدينة . ويذكر عنه أخبار كثيرة فى الشدة على أهل الجنايات : منها أن امرأة شكت إليه أن أحد مماليكه الخواص ، تعدى عليها فى لبن كانت تبيعه فشربه ، ولم تكن لها بينة ، فأمر به فَوُسِّط (٢) فخرج اللبن من مُصْرانه . وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس ، أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عيذاب ، واتفق مثلها للملك كِبَك سلطان تُرْكُسْتَان .

ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الأكراد ، وهو بلد صغير كثير الأشجار والأنهار بأعلى تل ، وبه زاوية تعرف بزاوية الإبراهيمى ، نسـبة إلى بعض كبراء الأمراء ، ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه . ثم سافرت إلى مدينة حِمْص ، وهى مدينة مليحة ، أرجاؤها مُونِقَة ، وأشجارها مورقة ، وأنهارها متدفقـة ، وأسواقها فسيحة الشوارع ، وجامعها متميز بالحسن الجامع ، وفى وسـطه بركة ماء . وأهل حمص عرب لهم فضـل وكرم .

---

(١) الموسيقا العسكرية .

(٢) قطع نصفين .

وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله، وعليه زاوية ومسجد، وعلى القبر كسوة سوداء. وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشَّرِيشِيّ، من أجمل الناس صورة، وأحسنهم سيرة. ثم سافرت منها إلى مدينة حَمَاه، إحدى أمهات الشام الرفيعة، ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق، والجمال الفائق، تَحُفُّ بها البساتين والجنات، عليها النواعير كالأفلاك الدائرات، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي. ولها رَبَض سمى بالمنصورية، أعظم من المدينة، فيه الأسواق الحافلة والحمامات الحسان. وبحماة الفواكه الكثيرة، ومنها المِشْمِش اللوزى، إذا كسرت نواته وجدت فى داخلها لوزة حلوة. قال ابن جزى: وفى هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الأديب الرحال، نور الدين أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العَنْسِيّ العَمَّارى الغَرْناطى، نسبة لعمار بن ياسر، رضى الله عنه:

حمى الله من شطّى حماة مناظرا ... وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغنى حمام أو تميل خمائل ... وتَزْهى مبان تمنع الواصف الوصفا
يلوموننى أن أعصى الصون والنُّهى ... وأنى أطيع الكأس واللهو والقَصْفا
وأشدو لدى تلك النواعر شَدْوَها ... وأغلبها رقصا وأشبهها غرفا
تئن وتُذرى دمعها فكأنها ... تهيم بمرآها وتسألها العطفا

ولبعضهم فى نواعيرها ذاهبا مذهب التورية:

وناعورة رقت لِعُظْمِ خطيئتى ... وقد عاينت قصدى من المنزل القاصى
بكت رحمة لى ثم باحت بِشَجْوها ... وحسبك أن الخشب تبكى على العاصى

ولبعض المتأخرين فيها أيضا، من التورية:

يا سادة سكنوا حماة وحقكم ... ما حلت عن تقوى وعن إخلاص
والطرف بعدكم إذا ذكر اللقا ... يُجرى المدامع طائعا كالعاصى

(رجع) ثم سافرت إلى مدينـة المعَرَّة التى ينسب إليهـا الشاعر أبو العلاء المعرى وكثير سواه من الشعراء . قال ابن جزى : وإنمـا سميت بمعرة النعمان لأن النعمان بن بشـير الأنصارى ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توفى له ولد أيام إمارته على حمص ، فدفنه بالمعرة ، فعرفت به ، وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور . وقيل إن النعمان جبـل مُطلٌّ عليها سميت به .

(رجع) والمعرة مدينة كبيرة حسنة ، أكثر شجرها التين والفستق ، ومنها يحمل إلى مصر والشام . وبخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ولا زاوية عليـه ولا خادم له . وسبب ذلك أنه وقع فى بلاد صـنف من الرافضـة أرجاس ، يبغضون العَشَرَة من الصحابة رضى الله عنهـم ، ولَعَنَ مبغضهم . ويبغضون كل من اسمه عمر ، وخصوصا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، لمـا كان من فعله فى تعظيم علىّ ، رضى الله عنه .

ثم سرنا منها إلى مدينة سَرْمين ، وهى حسنة كثيرة البساتين. وأكثر شجرها الزيتون . وبها يصـنع الصابون الآجُرِّى ، ويجلب إلى مصر والشـام . ويصنع بها أيضا الصابون المطيّب ، لغسـل الأيدى ، ويصبغونه بالحمرة والصفرة . ويصـنع بها ثياب قطن حسان ، تنسب إليها . وأهلها سبابون يبغضون العَشَرة[1] . ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة . وينادى سماسرتهم بالأسواق على السلع ، فإذا بلغوا إلى العشرة ، قالوا : تسعة وواحد . وحضر بها بعض الأتراك يوما فسمع سمسارا ينادى : تسعة وواحد ، فضرب بالدبوس[2] على رأسه وقال : قل عشرة بالدبوس . وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ، ولم يجعلوها عشراً قياما بمذهبهم القبيح .

(١) هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) الدبوس كتنور واحد الدبابيس للمقامع ، كأنه معرب . قاموس .

وصف مدينة حلب

ثم سرنا إلى مدينة حلب ، المدينة الكبرى ، والقاعدة العظمى . قال أبو الحسين ابن جُبَيْر فى وصفها : قدرها خطير، وذكرها فى كل زمان يطير. خُطَّابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح ، وسل عليها من بيض الصفاح . لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، قد طاولت الأيام والأعوام ، وشيعت الخواص والعوام . أين أمراؤها الحَمْدَانيون وشعراؤها ؟ فنى جميعهم ولم يبق إلا بناؤها . فيا عجبا لبلاد تبقى ويذهب أملاكها ، ويهلكون ولا يقضى هلاكها ، وتخطب بعدهم فلا يتعذر إملاكها ، وترام فيتيسر بأهون شىء إدراكها ! هذه حلب كم أدخلت ملوكها فى خبر كان ، ونسخت ظرف الزمان بالمكان ، أنث اسمها فتحلت بحلية الغوان ، وانجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان . هيهات هيهات سَيَهْرَم شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها .

وقلعة حلب تسمى الشهباء . وبداخلها جُبَّان ينبع منهما الماء ، فلا تخاف الظمأ . ويُطيف بها سوران ، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء . وسورها متدانى الأبراج ، وقد انتظمت بها العلالى العجيبة المفتحة الطيقان ، وكل برج منها مسكون . والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد . وبها مشهد يقصده بعض الناس ، يقال : إن الخليل عليه السلام كان يتعبد به . وهذه القلعة تشبه قلعة رَحْبة مالك بن طوق التى على الفرات ،

بين الشام والعراق . ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب ، حاصر هذه القلعة أياما ، ونكص عنها خائبا . قال ابن جزى : وفى هذه القلعة يقول الخالدىّ شاعر سيف الدولة :

وخرقاء قد قامت على من يرومها ... بمرقبها العالى وجانبها الصعب
يجر عليها الجو جيب غمامه ... ويلبسها عقدا بأنجمه الشهب
إذا ما سرى برق بدت من خلاله ... كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد أماتت بغصة ... وذى سطوات قد أبانت على عقب

وفيها يقول أيضا وهو من بديع النظم :

وقلعة عانق العنقاء سافلها ... وجاز مِنْطَقَة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر إذ كان الغمام لها ... أرضا تَوَطَّأُ قطريه مواشيها
يعد من أنجم الأفلاك مَرْقَبُها ... لو أنه كان يجرى فى مجاريها

(رجع) ويقال فى مدينة حلب : حلب إبراهيم ، لأن الخليل (صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه) كان يسكنها ، وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من ألبانها ، فكانوا يجتمعون ويسألون حلب إبراهيم ، فسميت بذلك . وهى من أعز البلاد التى لا نظير لها فى حسن الوضع ، وإتقان الترتيب واتساع الأسواق ، وانتظام بعضها ببعض . وأسواقها مسقوفة بالخشب ، فأهلها دائما فى ظل ممدود . ومسجدها الجامع من أجمل المساجد ، فى صحنه بركة ماء ، ويطيف به بلاط عظيم الاتساع ، ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والأَبْنُوس . وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له فى حسن الوضع ، وإتقان الصنعة ، تنسب لأمراء بنى حمدان[1] ، وبالبلد سواها ثلاث مدارس ، وبها مارَسْتان . وأما خارج المدينة فهو

(١) هم أمراء من أصل عربى حكموا مقاطعة حلب وما بين النهرين فى العصر العباسى الثالث من سنة ٩٢٩ الى سنة ١٠٠٣ م وأشهرهم سيف الدولة ممدوح المتنبى .

بسيط أفيح (١) ، عريض ، به المزارع العظيمة ، وشجرات الأعناب منتظمة به ، والبساتين على شاطئ نهرها ، وهو النهر الذى يمر بحماة ، ويسمى العاصى (٢) ، وقيل إنه سمى بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو . والنفس تجد فى خارج مدينة حلب انشراحا وسرورا ونشاطا لا يكون فى سواها ، وهى من المدن التى تصلح للخلافة .

وبحلب ملك الأمراء أرغون الدوادار ، أكبر أمراء الملك الناصر . وهو من الفقهاء ، موصوف بالعدل لكنه بخيل . والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الأربعة : فمنهم القاضى كمال الدين بن الزَّمْلَكانى ، شافعى المذهب ، عالى الهمة ، كبير القدر ، كريم النفس ، حسن الأخلاق ، متفنن بالعلوم . وكان الملك الناصر قد بعث إليه ليوليه قضاء القضاة بحاضرة ملكه ، فلم يقض له ذلك ، وتوفى بِبُلْبَيْس وهو متوجه إليها . ولما ولى قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها ، وكان فيمن قصده شاعر الشام جمال الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين أبى عبد الله ، محمد بن نباتة القرشى الأموى الفاروقى ، فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة ، أولها :

أسفت لفقدك جِلَّقٌ (٣) الفيحاء ... وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلا دمشق ، وقد رحلت ، كآبة ... وعلا ربا حلب سنا وسناء
قد أشرقت دار سكنت فناءها ... حتى غدت ولنورها لألاء
ياسائلا سَوْقَ المكارم والعلا ... ممن يُخَصُّ عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه ... تنعم ، فثم الفضل والنعماء

---

(١) أفيح منسع .

(٢) خطأ ظاهر لأن العاصى لا يمر فى حلب . والنهر الذى يمر فيها اسمه : "القويق" .

(٣) جِلَّق : دِمَشْق .

قاض زكا أصلا وفرعا فاعتلى | شرفت به الآباء والأبناء
منّ الإله على بنى حلب به | لله وضْعُ الفضل حيث يشاء
كشف المعمَّى فهمه وبيانه | فكأنما ذاك الذكاء ذُكاء
ياحاكم الحكام قدرك سابق | عن أن تسرك رتبة شماء
إن المناصب دون همتك التى | فى الفضل دون محلها الجوزاء
لك فى العلوم فضائل مشهورة | كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها | والفضل ماشهدت به الأعداء

وهى أزيد من خمسين بيتا ، وأجازه عليها بكسوة ودراهم . وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت ، قال ابن جزى : وليس كلامه فى هذه القصيدة بذاك ، وهو فى المقطعات أجود منه فى القصائد ، وإليه انتهت الرياسة فى الشعر على هذا العهد فى جميع بلاد الشرق . وهو من ذرية الخطيب أبى يحيى عبد الرحيم بن نباتة ، منشئ الخطب الصغيرة . ومن بديع مقطعاته فى التورية قوله :

عُلقتُها غيداء حالية العلا | تجنى على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم | فغدت مطوقة بما بخلت به

ثم سافرت منها إلى مدينة تِيزين وهى على طريق قِنَّسرين ، وهى حديثة اتخذها التُّركمان . وأسواقها حسان ومساجدها فى نهاية من الإتقان ، وقاضيها بدر الدين العسقلانى . وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة ، ثم خربت ولم يبق إلا رسومها . ثم سافرت إلى مدينة أَنْطاكِيَة وهى مدينة عظيمة ، وكان عليها سور محكم لا نظير له فى أسوار بلاد الشام . فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها . وأَنْطاكِيَة كثيرة العمارة ، ودورها حسنة البناء كثيرة الأشجار والمياه . وبخارجها نهر العاصى . وبها قبر حبيب النجار رضى

الله عنه ، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، شيخها الصالح المعمر محمد بن علي ، سنه تُنَيِّف على المائة ، وهو ممتع بقوته ، دخلت عليه مرة في بستان له وقد جمع حطبا ورفعه على كاهله ليأتي به منزله بالمدينة . ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين ، إلا أنه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض ، ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا . ثم سافرت إلى حصن بُغْراس ، وهو حصن منيع لا يرام ، عليه البساتين والمزارع ، ومنه يدخل الى بلاد سيس ، وهي بلاد كفار الأرمن ، وهم رعية للملك الناصر ، يؤدون إليه مالا ، ودراهمهم فضة خالصة . وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيباني ، وله ولد فاضل اسمه علاء الدين ، وابن أخ اسمه حسام الدين ، فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرُّصُص ، ويحفظ الطريق إلى بلاد الأرمن .

حكاية

شكا الأرمن مرة إلى الملك الناصر من الأمير حسام الدين ، وزوّروا عليه أمورا لا تليق ، فنفذ أمره لأمير الأمراء بحلب ان يُخَنِّقَه . فلما توجه الأمير ، بلغ ذلك صديقا له من كبار الأمراء فدخل على الملك الناصر وقال : يا خُوند[1] إن الأمير حسام الدين هو من خيار الأمراء ، ينصح للمسلمين ويحفظ الطريق ، وهو من الشجعان ، والأرمن يريدون الفساد في بلاد المسلمين ، فيمنعهم ويقهرهم ، وإنما أرادوا إضعاف شوكة المسلمين بقتله . ولم يزل به حتى أنفذ أمرا ثانيا بسراحه ، والخلع عليه ورده لموضعه . ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالأَقُوش ، وكان لا يبعث إلا في مهم ، أمره بالإسراع والجد في السير ، فسار من مصر إلى حلب في خمس ، وهي مسيرة شهر ، فوجد أمير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه إلى الموضع الذي يخنق به الناس ، فخلصه الله تعالى ، وعاد إلى موضعه .

---

(١) يا سيدي .

ثم سافرت إلى حصن القُصَير، تصغير قصر، وهو حصن حسن، أميره علاء الدين الكردى، وقاضيه شهاب الدين الأَرْمَنْتى، من أهل الديار المصرية. ثم سافرت إلى حصن الشُّغْرُبُكاس، وهو منيع فى رأس شاهق، أميره سيف الدين الطُّنْطَاش، فاضل، وقاضيه جمال الدين بن شجرة، من أصحاب ابن تَيْمِيَّة. ثم سافرت إلى مدينة صِهيون، وهى مدينة حسنة، بها الأنهار المطردة، والأشجار المورقة، ولها قلعة جيدة، وأميرها يعرف بالإبراهيمى، وقاضيها مُحيُّ الدين الحِمْصى، وبخارجها زاوية فى وسط بستان، فيها الطعام للوارد والصادر، وهى على قبر الصالح العابد عيسى البدوى رحمه الله، وقد زرت قبره. ثم سافرت منها فمررت بحصن القَدْمُوس، ثم بحصن المَيْنَقَة، ثم بحصن العُلَيْقَة، واسمه على لفظ واحدة العليق، ثم بحصن مِصْيَاف، ثم بحصن الكهف. وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الإسماعيلية، ويقال لهم الفداوية، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم، وهم سهام الملك الناصر، بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه بالعراق وغيرها، ولهم المرتبات. وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدوّ له أعطاه ديته، فإن سلم بعد تأتِّى ما يراد منه، فهى له، وإن أصيب فهى لولده. ولهم سكاكين مسمومة، يضربون بها من بعثوا إلى قتله. وربما لم تصح حيلهم فقتلوا، كما جرى لهم مع الأمير قَرَاسَنْقُور، فإنه لما هرب إلى العراق بعث إليه الملك الناصر جملة منهم، فقتلوا ولم يقدروا عليه لأخذه بالحزم.

حكاية

كان قَراسُنْقُور من كبار الأمراء، وممن حضر قتل الملك الأشرف أخى الملك الناصر، وشارك فيه . ولما تمهد الملك للملك الناصر، وقربه القرار، واشتدت أواخى(١) سلطانه، جعل يتتبع قتلة أخيه فيقتلهم واحدا واحدا إظهارا للأخذ بثار أخيه، وخوفا أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه . وكان قراسنقور أمير الأمراء بحلب، فكتب الملك الناصر إلى جميع الأمراء أن ينفروا بعساكرهم، وجعل لهم ميعادا يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها، حتى يقبضوا عليه. فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه، وكان له ثمانمائة مملوك، فركب فيهم وخرج على العساكر صباحا فاخترقهم وأعجزهم سبقا، وكانوا فى عشرين ألفا، وقصد منزل أمير العرب مَهْنا بن عيسى، وهو على مسيرة يومين من حلب . وكان مهنا فى قنص له، فقصد بيته ونزل عن فرسه وألقى العمامة فى عنق نفسه، ونادى: الجوار يا أمير العرب . وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه، فقالت له: "قد أجرناك وأجرنا من معك" فقال: "إنما أطلب أولادى ومالى" فقالت له: "لك ما تحب فانزل فى جوارنا" ففعل ذلك. وأتى مهنا فأحسن نُزُله وحكمه فى ماله فقال: "إنما أحب أهلى ومالى الذى تركته بحلب". فدعا مهنا بإخوته وبنى عمه فشاورهم فى أمره، فمنهم من أجابه إلى ما أراد، ومنهم من قال له: كيف نحارب الملك الناصر، ونحن فى بلاده بالشام؟ فقال لهم مهنا: أما أنا فأفعل لهذا الرجل ما يريده، وأذهب معه إلى سلطان العراق. وفى أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسنقور سُيِّروا على البريد إلى مصر، فقال مهنا لقراسنقور: "أما أولادك فلا حيلة فيهم وأما مالك فنجتهد فى خلاصه"

(١) الأواخى: مفرده أخِيَّة، عود فى حائط أو فى حبل يدفن طرفاه فى الأرض ويبرز طرفه كالحلقة تشد فيها الدابة . والكلام على التشبيه .

فركب فيمن أطاعه من أهله ، واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا ، وقصدوا حلب ، فأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها ، واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من أهله ، ولم يتعدوا إلى سوى ذلك . وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حمص الأفرم ، ووصلوا إلى الملك محمد خُدَا بَنْدَه سلطان العراق ، وهو بموضع مصيفه المسمى قراباغ ، وهو ما بين السلطانية وتبْريز . فأكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب ، وأعطى قراسنقور مدينة مَرَاغة من عراق العجم ، وتسمى دمشق الصغيرة ، وأعطى الأفرم هَمْـدَان . وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفرم ، وعاد مهنا إلى الملك الناصر ، بعد مواثيق وعهود أخذها منه ، وبقى قراسنقور على حاله . وكان الملك الناصر يبعث له الفـدَاوية مرة بعد مرة . فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ، ومنهم من يرمى بنفسه عليه وهو راكب فيضربه . وقتل بسببه من الفداوية جماعة . وكان لا يفارق الدرع أبدا . فلما مات السلطان محمد وولى ابنه أبو سعيد ، وقع ما سنذكره من أمر الجُوبان ، كبير أمرائه وفرار ولده الدَّمُرْطاش إلى الملك الناصر . ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبى سعيد واتفقا على أن يبعث أبو سعيد إلى الملك الناصر برأس قراسنقور ، ويبعث إليه الملك الناصر برأس الدمرطاش . فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش إلى أبى سعيد . فلما وصله أمر بحمل قراسنقور إليه . فلما عرف قراسنقور ذلك أخذ خاتما كان له مجوفا فى داخله سم ناقع ، فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه . فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه .

ثم سافرت من حصون الفداوية إلى مدينة جَبَلة ، وهى ذات أنهار مطردة وأشجار ، والبحر على نحو ميل منها ، وبها قبر الولى الصالح الشهير إبراهيم ابن أدهم رضى الله عنه ، وهو الذى نبذ الملك ، وانقطع إلى الله تعالى كما شهر ذلك . ولم يكن إبراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس ، إنما ورث الملك عن جده أبى أمه ، وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين .

حكاية أدهم (١)

يذكر أنه مر ذات يوم ببساتين مدينـة بخارى وتوضأ من بعض الأنهار التى تتخللها ، فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر ، فقال : هذه لا خطر لها ، فأكلها ، ثم وقع فى خاطره من ذلك وَسْـواس ، فعزم على أن يستحل من صاحب البستان ، فقرع باب البستان فخرجت إليه جارية فقال لها : ادعى لى صاحب المنزل ، فقالت : إنه لامرأة ، فقال : استأذنى لى عليها ، ففعلت ، فأخبر المرأة بخبر التفاحة ، فقالت له : إن هذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان . والسلطان يومئذ ببَلْخ ، وهى مسيرة عشرة من بخارى ، وأحلته المرأة من نصفها . وذهب إلى بلخ فاعترض السلطان فى مَوْكبه ، فأخبره الخبر واستحله ، فأمره أن يعود إليه من الغد . وكان للسلطان بنت بارعة الجمـال ، قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت ، وحببت إليها العبادة وحب الصالحين ، وهى تحب أن تتزوج من ورع زاهد فى الدنيا . فلما عاد السلطان إلى منزله ، أخبر بنته بخبر أدهم ، وقال : ما رأيت أورع من هذا ، يأتى من بخارى إلى بلخ لأجل نصف تفاحة ! فرغبت فى تزوجه ، فلما أتاه من الغد قال : لا أحلك إلا أن تتزوج بنتى ، فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع ، فتزوج منها ، فولدت إبراهيم . ولم يكن لجده ولد ، فأسند الملك إليه ، وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر .

وعلى قبر إبراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء ، وبها الطعام للصادر والوارد ، وخادمها إبراهيم الجُمْحى من كبار الصالحين . والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ، ويقيمون بها ثلاثا . ويقوم بها خارج المدينـة سوق عظيم فيه من كل شىء . ويَقْـدَمُ الفقراء المتجردون من الآفاق لحضور هـذا الموسم ، وكل من يأتى من الزوار لهذه

(١) تكاد تكون غير معقولة .

التربة يعطى خادمها شمعة ، فيجتمع من ذلك قناطيركثيرة . وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النُّصَيْرِية ، الذين يعتقدون أن علىّ بن أبى طالب إله . وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون . وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم ، فبنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العمارة ، ولا يدخلونه ، ولا يعمرونه ، وربما أوت إليه مواشيهم ودوابهم ، وربما وصل الغريب إليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له : لا تَنْهَقْ . علفك يأتيك . وعددهم كثير .

حكاية

ذكر لى أن رجلا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة ، فادعى الهداية ، وتكاثروا عليه ، فوعدهم بتملك البلاد ، وقسم بينهم بلاد الشام . وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج إليها ، ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم : "استظهروا بها فإنها كالأوامر لكم" ، فإذا خرج أحدهم إلى بلد أحضره أميرها ، فيقول له : "إن الإمام المهدى أعطانى هذا البلد" فيقول له : أين الأمر؟ فيخرج ورق الزيتون ، فيضرب ويحبس . ثم إنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين ، وأن يبدءوا بمدينة جَبَلة ، وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ، ووعدهم أنها تصير فى أيديهم سيوفا عند القتال . فغدروا مدينة جبلة وأهلها فى صلاة الجمعة ، فدخلوا الدور وهتكوا الحريم ، وثار المسلمون من مسجدهم ، فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا . واتصل الخبر باللاذقية ، فأقبل أميرها بَهادِر عبدالله بعسكره ، وطيرت الحمام إلى طرابلس ، فأتى أمير الأمراء بعساكره ، وأتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفا ، وتحصن الباقون بالجبال . وراسلوا ملك الأمراء ، والتزموا أن يعطوه دينارا عن كل رأس إن هو حاول إبقاءهم . وكان الخبر قد طير به الحمام

إلى الملك الناصر ، وصدر جوابه أن يحمل عليهم السيف ، فراجعه ملك الأمراء ، وأتى له أنهم عمال المسلمين فى حراثة الأرض ، وأنهم إن قتلوا ضعف المسلمون لذلك ، فأمر بالإبقاء عليهم .

ثم سافرت إلى مدينة اللاذقية وهى مدينة عتيقة على ساحل البحر، يزعمون أنها مدينة الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا . وكنت إنما قصدتها لزيارة الولى الصالح عبد المحسن الإسكندرى . فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف ، فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيدا البِجائى ويحيى السَلاَوى، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء ، أحد فضلاء الشام وكبرائها ، صاحب الصدقات والمكارم. وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر . وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصرى المالكى. فاضل كريم ، تعلق بِطَيْلان ملك الأمراء فولاه قضاءها .

وبخارج اللاذقية الدَّيْر المعروف بدير الفاروص ، وهو أعظم دير بالشام ومصر، يسكنه الرهبان، ويقصده النصارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه ، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكَبَر. وميناء هذه المدينة عليه سلسلة بين برجين، لا يدخله أحد ولا يخرج منه حتى تحط له السلسلة ، وهو من أحسن المراسى بالشام .

ثم سافرت إلى حصن المرقب وهو من الحصون العظيمة، يماثل حصن الكَرَك ، ومبناه على جبل شامخ، وخارجه ربض ينزله الغرباء ، ولا يدخلون قلعته . وافتتحه من أيدى الروم الملك المنصور قلاوون . وعليه ولد ابنه الملك الناصر . وكان قاضيه برهان الدين المصرى، من أفاضل القضاة وكرمائهم .
ثم سافرت إلى الجبل الأقرع، وهو أعلى جبل بالشام، وأول ما يظهر منها من البحر. وسكانه التُركمان، وفيه العيون والأنهار. وسافرت منه إلى جبل لُبْنَان، وهو من أخصب جبال الدنيا، فيه أصناف الفواكه وعيون الماء، والظلال الوافرة ، ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين ، وهو شهير بذلك . ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

حكاية

أخبرنى بعض الصالحين الذين لقيتهم به ، قال : كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد ، فأوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها ، فقال بعض الحاضرين : يصلح لهذه النار ما يشوى فيها . فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الأعين ولا يعبأ به : " إنى كنت عند صلاة العصر بمتعبد إبراهيم ابن أدهم ، فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب ، وأظنه لا يقدر على الحراك . فلو ذهبتم إليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه فى هذه النار ، قال : فقمنا إليه فى خمسة رجال ، فلقيناه كما وصف لنا ، فقبضناه وأتينا به أصحابنا ، وذبحناه وشوينا لحمه فى تلك النار . وطلبنا الفقير الذى نبه عليه فلم نجده ، ولا وقعنا له على أثر ، فطال عجبنا منه .

ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بَعْلَبَك ، وهى حسنة قديمة من أطيب مدن الشام ، تحدق بها البساتين الشريفة ، والجنات المنيفة ، وتخترق أرضها الأنهار الجارية ، وتضاهى دمشق فى خيراتها المتناهية ، ، وبها يصنع الدبس المنسوب إليها ، وهو نوع من الرُّبّ يصنعونه من العنب ، ولهم تربة يضعونها فيه ، فيجمد ، وتكسر القلة التى يكون بها فيبقى قطعة واحدة . وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالمُلَبَّن ، ويسمونها أيضا بجلد الفرس . وهى كثيرة الألبان وتجلب منها إلى دمشق ، وبينهما مسيرة يوم للجد ، وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزَّبَدَانِى ، كثيرة الفواكه ، ويغدون منها إلى دمشق . ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة إليها من الإحرام وغيره . ويصنع بها أوانى الخشب وملاعقه التى لا نظير لها فى البلاد ، وهم يسمون الصحاف بالدسوت ، وربما صنعوا

الصَّحْفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها أخرى إلى أن يبلغوا العشر، يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة . وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرا واحدة في جوف واحدة، ويصنعون لها غشاء من جلد ، ويمسكها الرجل في حزامه . وإذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه أنها مِلْعقة واحدة . ثم يخرج من جوفها تسعا . وكان دخولي لبعلبك عشية النهار، وخرجت منها بالغُدُوّ لفرط اشتياقي إلى دمشق .

وصف دِمَشْق

ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم، عام ستة وعشرين إلى مدينة دمشق الشام ، فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية . ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا . وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها، ولا أبدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير رحمه الله تعالى في ذكرها . قال : وأما دمشق فهي جنة المشرق ، ومطلع نورها المشرق ، وخاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحلت موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى المسيح عليه السلام وأمه منها إلى رَبْوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل ، وماء سلسبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمُجْتَلًى صقيل، وتناديهم : هلموا إلى مُعرَّس للحسن ومَقيل . وقد سئمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت إلى الظَّماء، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب : أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . وقد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، والأكمام بالثمر ،

وامتدت بشرقيها غُوطَتُها الخضراء امتداد البصر ، ولله صدق القائلين عنها : إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها ، و إن كانت فى السماء فهى تساميها وتحاذيها . قال ابن جزى : وقد نظم بعض شعرائها فى هذا المعنى فقال :

إن تكن جنة الخلود بأرض　　　فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن فى السماء فهى عليها　　　قد أبَدَّتْ(١) هواءها وهواها
بـلد طيب ورب غفور　　　فاغتنمها عشـية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبدالله محمد بن جابر بن حسان القَيْسى الوادى آشى ، نزيل تونس . ونَصَّ كلام ابن جبير ، ثم قال : ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد ، وتَوَّقَ الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد . قال ابن جزى : والذى قالته الشعراء فى وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة . وكان والدى رحمه الله كثيرا ما ينشد فى وصفها هـذه الأبيات ، وهى لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى :

دمشق بنا شـوق إليها مُبَرِّحٌ　　　و إن لَجَّ واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها　　　عبير وأنفاس الشمال شَمُـول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق　　　وصحّ نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالى من الشعر . وقال فيها عرقلة الدمشقى الكلبى :

الشام شـامة وجنة الدنيا كما　　　إنسان مقلتها الغضيضة جِلَّق
من آسها لك جنة لا تنقضى　　　ومن الشـقيق جهنم لا تحرق

(١) يقال : أبَدَّ العطاء بين الناس أعطى كلا بُدَّته أى حاجته .

وقال أيضا فيها :

أما دمشق بجنات معجلة ... للطالبين بها الولدان والحور
ما صاح فيها على أوتاره قمر ... إلا يغنيه قُمْرِىٌّ وشُحْرُور
ياحبذا ودروع الماء تنسجها ... أنامل الريح إلا أنها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك .

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى بن سعد العَنْسى الغَرْناطى ، المدعو نور الدين :

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا ... مكملا وهو فى الآفاق مختصر
القُضْبُ راقصة والطير صادحة ... والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات أوجهها ... لكنها بظلال الدَّوْح تستتر
وكل واد به موسى يفجِّره ... وكل روض على حَافَاته الخَضِرُ

وقال فيها أيضا :

أما دمشق بجنة ... ينسى بها الوطنَ الغريب
لله أيام السبو ... ت بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى ... إلا محبا أو حبيب
فى موطن غنى الحما ... م به على رقص القضيب
وغدت أزاهر روضه ... تختال فى فرح وطيب

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا ، إنما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الأنهار ، ودَوْحات الأشجار، بين البساتين النَّضْرة، والمياه الجارية، فيكونون بها يومهم إلى الليل . وقد طال بنا الكلام فى محاسن دمشق ، فلنرجع إلى كلام الشيخ أبى عبد الله .

ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالا ، وأتقنها صناعة ، وأبدعها حسنا وبهجة وكمالا ، ولا يعلم له نظير ، ولا يوجد له شبيه . وكان الذى تولى بناءه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ووجّه إلى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث إليه الصناع ، فبعث إليه اثنى عشر ألف صانع . وكان موضع المسجد كنيسة ، فلما افتتح المسلمون دمشق ، دخل خالد بن الوليد رضى الله عنه من إحدى جهاتها بالسيف ، فانتهى إلى نصف الكنيسة ، ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه من الجهة الغربية صلحا ، فانتهى إلى نصف الكنيسة ، فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذى دخلوه عَنْوة مسجدا ، وبقى النصف الذى صالحوا عليه كنيسة . فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة فى المسجد ، طلب من الروم أن يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاءوا من عوض ، فأبوا عليه ، فانتزعها من أيديهم . وكانوا يزعمون أن الذى يهدمها يجن ، فذكروا ذلك للوليد ، فقال : أنا أول من يجن فى سبيل الله ، وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه . فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم ، وأكذب الله زعم الروم . وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفُسَيْفِساء ، تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن .

وذَرْع المسجد فى الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة ، وهى ثلاثمائة ذراع ، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة ، وهى مائتا ذراع[1] ، وعدد شمسات الزجاج الملونة التى فيه أربع وسبعون ، وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب ، سعة كل بلاط منها ثمانى عشرة خطوة ، وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثمانى أرجل جِصّية تتخللها ،

(١) الأصح : مائتا ذراع وذراعان ونصف ذراع .

وست أرجل مرخمة مرصعة بالرُّخام الملون ، قد صور فيها أشكال محاريب وسواها ، وهي تُقِلّ قبة الرَّصاص التي أمام المحراب المسماة بقبة النَّسْر ، كأنهم شبهوا المسجد نسرا طائرا ، والقبة رأسه . وهي من أعجب مباني الدنيا ، ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة في الهواء ، مُنيفة على جميع مباني البلد ، وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية ، سعة كل بلاط منها عشر خُطا . وبها من السواري ثلاث وثلاثون ، ومن الأرجل أربع عشرة ، وسعة الصحن مائة ذراع ، وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا . وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا ، فمن قارئ ومحدث ، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة . وإذا لقي أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبا له أسرع كل منهما نحو صاحبه وحطّ رأسه . وفي هذا الصحن ثلاث من القباب ، إحداها في غربيّه وهي أكبرها ، وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين ، وهي قائمة على ثماني سوار من الرخام ، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة مَسْقُوفة بالرصاص ، يقال إن مال الجامع كان يُختزن بها . وذكر لي أن فوائد مُسْتَغَلّات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهبا في كل سنة . والقبة الثانية من شرق الصحن على هيئة الأخرى إلا أنها أصغر منها ، قائمة على ثمان من سواري الرخام ، وتسمى قبة زين العابدين . والقبة الثالثة في وسط الصحن وهي صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الإلصاق ، قائمة على أربع سوار من الرخام الناصع ، وتحتها شُبّاك حديد في وسطه أنبوب نحاس ، يمج الماء إلى عُلُوّ فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين ، وهم يسمونه قفص الماء ، ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب . وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي إلى مسجد بديع الوضع ، يسمى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها إمام الشافعية . وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة

كبيرة فيها المصحف الكريم الذى وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى الشام . وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة ، فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم . وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئا . وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ، ويذكر أهل التاريخ أنه أول محراب وضع فى الإسلام ، وفيه يؤم إمام المالكية ، وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم إمامهم ، ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم إمامهم .

ولهـذا المسجد ثلاث صوامع ، إحداها بشرقيه وهى من بناء الروم ، وبابها داخل المسجد ، وبأسفلها مَطْهَرة وبيوت للوضوء ، يغتسل فيها المعتكفون والملازمون للمسجد ويتوضئون . والصومعة الثانية بغربيه ، وهى أيضا من بناء الروم ، والصومعة الثالثة بشماله وهى من بناء المسلمين . وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنا . وفى شرقى المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء ، وهى لطائفة الزيالعة(١) السودان . وفى وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام ، وعليه تابوت معترض بين أسطوانتين ، مكسو بثوب حرير أسود مُعْلَم ، فيه مكتوب بالأبيض (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) . وهذا المسجد شهير الفضل . وقرأت فى فضائل دمشق عن سفيان الثورى أن الصلاة فى مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة . وفى الأثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يُعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة . ويقال إن الجدار القبلى منه وضعه نبى الله هود عليه السلام ، وأن قبره به . وقد رأيت على مقربة من مدينة ظَفَار اليمن ، بموضع يقال له الأحقاف بُنْيَة فيها قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم . ومن فضائل هذا المسجد أنه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة ، إلا قليلا من الزمان ، كما سنذكره . والناس يجتمعون

(١) نسبة إلى زيلع على بحر الحبشة .

به كل يوم إثْر صلاة الصبح ، فيقرءون سُبُعا من القرآن ، ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرءون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن . وللمجتمعين على هـذه القراءة مرتبات تجرى لهم ، وهم نحو ستمائة إنسان ، ويدور عليهم كاتب الغَيْبَة ، فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته .

وفى هـذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه ، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يَفْتُرُون عن ذلك ، ويتوضئون من المطاهر التى بداخل الصـومعة الشرقية التى ذكرناها . وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئا من ذلك . وفى هـذا المسجد أربعـة أبواب : باب قبلى يعرف بباب الزيادة ، وبأعلاه قطعـة من الرمح الذى كانت فيه راية خالد بن الوليد رضى الله عنه . ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين[1] ومنه يذهب إلى دار الخيل . وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين[2] ، وهى سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلى ، من أحسن أسواق دمشق . وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبى سـفيان رضى الله عنه ودور قومه ، وكانت تسـمى الخضراء ، فهـدمها بنو العباس رضى الله عنهم وصار مكانها سوقا ، وباب شرقى وهو أعظم أبواب المسجد ، ويسمى بباب جَيْرُون ، وله دِهْليز عظيم يُخْرج منه إلى بلاط عظيم طويل ، أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال . وفى جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضى الله عنه . وبإزائه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وبه ماء جار . وقد انتظمت أمام البلاط درج يُنْحدر فيها إلى الدهليز ، وهو كالخندق العظيم ، يتصل بباب عظيم الارتفاع ، تحته أعمدة كالجذوع طوال . وبجانبى هذا الدهليز أعمدة قد

---

(١) جمع سقاط وهو بائع السقط وهو ردىء المتاع .

(٢) الصفارون صناع النحاس وهو الصُّفْر .

قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين(١) وغيرهم ، وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أوانى الزجاج العجيبة . وفى الرَّحَبَة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود ، منها دكانان للشافعية ، وسائرها لأصحاب المذاهب ، يكون فى الدكان منها الخمسة والستة من العدول ، والعاقد للزواج من قبل القاضى . وسائر الشهود مفترقون فى المدينة ، وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغَد والأقلام والمداد . وفى وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تُقِلُّها أعمدة رخام . وفى وسط الحوض أنبوب نحاس يمج الماء بقوة ، فيرتفع فى الهواء أزيد من قامة الانسان ، يسمونه الفَوَّارة ، منظره عجيب . وعن يمين الخارج من باب جَيْرُون وهو باب الساعات ، غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة ، لها أبواب على عدد ساعات النهار . والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة ، فإذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهرا والظاهر الأصفر باطنا . ويقال إن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضى الساعات . والباب الغربى يعرف بباب البريد ، وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية ، وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه . وبأعلاه باب يصعد إليه فى درج ، له أعمدة سامية فى الهواء . وتحت الدرج سِقايتان(٢) عن يمين وشمال مستديرتان . وعن يمين الخارج منه خانقاه فى وسطها صِهْريج ماء ، ولها مطاهر يجرى فيها الماء . ويقال إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه . وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة ، دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجرى فيها المياه الكثيرة .

---

(١) بائعو الثياب .

(٢) السِقاية ما يُستقى منه .

ذكر المدرسين والمعلمين به

وهذا المسجد حلقات التدريس فى فنون العلم . والمحدثون يقرءون كتب الحديث على كراسىّ مرتفعة . وقراء القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء . وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد ، يلقن الصبيان ويقرئهم . وهم لا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى ، وإنما يقرءون القرآن تلقينا . ومعلم الخط غير معلم القرآن ، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها ، فينصرف الصبى من التعليم إلى التكتيب ، وبذلك جاد خطه ، لأن المعلم للخط لا يعلم غيره . ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفِرْكَح الشافعىّ ؛ ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ ، من المشتهرين بالفضل والصلاح . ولما ولى القضاء بمصر جلال الدين القَزوينى وجه إلى أبى اليسر الخلعة والأمر بقضاء دمشق ، فامتنع من ذلك . ومنهم الإمام العالم شهاب الدين بن جَهْبَل من كبار العلماء ، هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها ، خوفا من أن يقلد القضاء ، فاتصل ذلك بالملك الناصر ، فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين ، لسان المتكلمين ، علاء الدين القُونَوى ، وهو من كبار الفقهاء . ومنهم الإمام الفاضل بدر الدين على السخاوىّ المالكى ، رحمة الله عليهم أجمعين .

حكاية

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين بن تَيْمِيَّة ، كبير الشام ، يتكلم فى الفنون إلا أن فى عقله شيئا . وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ، ويعظهم على المنبر . وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء ، ورفعوه إلى

الملك الناصر ، فأمر بإشخاصه إلى القاهرة ، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر ، وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال : إن هذا الرجل قال كذا وكذا وعدّد ما أنكر على ابن تيمية ، وأحضر العقود بذلك ، ووضعها بين يدى قاضى القضاة ، وقال قاضى القضاة لابن تيمية : ما تقول؟ قال : لا إله إلا الله ، فأعاد عليه فأجاب بمثل قوله ، فأمر الملك الناصر بسجنه ، فسجن أعواما ، وصنف فى السجن كتابا فى تفسير القرآن ، سماه بالبحر المحيط ، فى نحو أربعين مجلدا . ثم إن أمه تعرضت للملك الناصر وشكت إليه ، فأمر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية . وكنت إذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا . ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء ، وأنكر ما تكلم به . فقامت العامة إلى هذا الفقيه ، وضربوه بالأيدى والنعال ضربا كثيرا ، حتى سقطت عمامته . وظهر على رأسه (شاشيّة) حرير فأنكروا عليه لباسها ، واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضى الحنابلة ، فأمر بسجنه وعزّره بعد ذلك . فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تنْكِيز ، وكان من خيار الأمراء وصلحائهم ، فكتب إلى الملك الناصر بذلك ، وكتب عقدا شرعيا على ابن تيمية بأمور منكرة : منها أن المطلق بالثلاث فى كلمة واحدة لاتلزمه إلا طلقة واحدة ، ومنها أنّ المسافر الذى ينوى بسفره زيارة القبر الشريف (زاده الله طيبا) ، لا يقصر الصلاة ، وسوى ذلك مما يشبهه ، وبعث العقد إلى الملك الناصر ، فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة ، فسجن بها حتى مات فى السجن .

ذكر مدارس دمشق

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس ، أعظمها العادلية ، وبها يحكم قاضي القضاة . وتقابلها المدرسة الظاهرية ، وبها قبر الملك الظاهر ، وبها جلوس نواب القاضي ، ومن نوابه فخر الدين القبطي ، كان والده من كتاب القبط وأسلم ، ومنهم جمال الدين بن جُمْلة ، وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك ، وعزل لأمر أوجب عزله .

ذكر أبواب دمشق

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب : منها باب الفراديس ، ومنها باب الجابية ، ومنها الباب الصغير ، وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم . قال محمد بن جزى : لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق فى قوله :

دمشق فى أوصافها   جنة خلد راضية
أما ترى أبوابها   قد جعلت ثمانية

ذكر بعض المشاهد والمزارات بها

فمنها بالمقبرة التى بين البابين باب الجابية والباب الصغير ، قبر أم حَبِيبَة بنت أبى سفيان أم المؤمنين ، وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية ، وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم أجمعين ، وقبر أُوَيْس القَرَنى ، وقبر كعب الأحبار رضى الله عنهما . ووجدت فى كتاب المُعْلَم فى شرح صحيح مسلم للقرطبى أن جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرنى من المدينة إلى الشام ، فتوفى فى أثناء الطريق فى برية لا عمارة فيها ولا ماء ،

فتحيروا فى أمره . فنزلوا فوجدوا حَنُوطا وكفنا وماء ، فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ، ثم ركبوا . فقال بعضهم : كيف نترك قبره بغير علامة ؟ فعادوا للوضع فلم يجدوا للقبر من أثر . قال ابن جزى : ويقال إن أويسا قتل بِصِفِّين مع علىّ[1] عليه السلام وهو الأصح . ويلى باب الجابية باب شرقى عنده جبانة فيها قبر أُبَىّ بن كعب صاحب رسـول الله صلى الله عليه وسلم .

حكاية

شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق فى أواخر شهر ربيع الثـانى سنة تسع وأربعين ، من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه : وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرْغُون شاه ، أمر مناديا ينادى بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ، ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهـارا . وأكثر الناس بها إنمـا يأكلون الطعام الذى يصنع بالسوق ، فصام الناس ثلاثة أيام متواليـة كان آخرها يوم الخميس — ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها فى الجامع ، حتى غَصَّ بهم ، وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع — ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف ، والأمراء حفاة ، وخرج جميع أهل البلد ذكورا وإناثا صغارا وكبارا ، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ومعهم النساء والولدان ، وجميعهم باكون متضرعون متوسلون إلى الله بكتبه وأنبيائه ، وقصدوا مسجد الأقدام ، وأقاموا به فى تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال ، وعادوا إلى البلد ، فصلوا الجمعة . وخفف الله تعالى عنهم بعد ما انتهى عدد الموتى إلى ألفين فى اليوم الواحد . وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفا فى يوم واحد .

(١) أى أنه كان فى جيش علىّ .

ذكر أرباض دمشق

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات ، دواخلها أملح من داخل دمشق ، لأجل الضيق الذى فى سككها . وبالجهة الشمالية منها رَبَض الصالحية ، وهى مدينة عظيمة ، لها سوق لا نظير لحسنه ، وفيها مسجد جامع ومَارَسْتان ، وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر ، موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول ، وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس . وبداخل البلد أيضا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن مُنَجّى . وأهل الصالحية كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

ذكر قاسِيُون ومشاهده المباركة

وقاسيون جبل فى شمال دمشق ، والصالحية فى سفحه ، وهو شهير البركة لأنه مصعد الأنبياء عليهم السلام . ومن مشاهده الكريمة الغار الذى ولد فيه إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهو غار مستطيل ضيق ، عليه مسجد كبير ، وله صومعة عالية . ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس على ما ورد فى الكتاب العزيز . وفى ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج إليه . وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف بِبُرْص ما بين الحِلّة وبغداد ، يقال : إن مولد إبراهيم عليه السلام كان بها . وهى بمقربة من بلد ذى الكِفْل عليه السلام ، وبها قبره . ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم ، وفوقها بالجبل دم هابيل ابن آدم عليه السلام ، وقد أبقى الله منه فى الحجارة أثرا محمرا ، وهو الموضع الذى قتله أخوه به ، واجتره إلى المغارة (١) . ويذكر أن تلك المغارة صلى

---

(١) هذا إلى الخرافة أقرب .

فيها إبراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء ، يصعد إليه على درج ، وفيه بيوت ومرافق للسكنى ، ويفتح فى كل يوم اثنين وخميس ، والشمع والسرج توقد فى المغارة . ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء ، وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع ، يذكر أنه أوى إليها سبعون من الأنبياء عليهم السلام ، وكان عندهم رغيف ، فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعا ، صلى الله عليهم(١) . وعلى هذه المغارة مسجد مبنى ، والسرج توقد به ليلا ونهارا . ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة . ويذكر أن فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون ، مدفن سبعمائة نبى . وخارج المدينة المقبرة العتيقة ، وهى مدفن الأولياء والصالحين ، وفى طرفها مما يلى البساتين أرض منخفضة ، غلب عليها الماء .

ذكر الرَّبوة والقرى التى تواليها

وفى آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله ، ذات القرار والمَعين ، ومأوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام . وهى من أجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها . وبها القصور المشيدة ، والمبانى الشريفة ، والبساتين البديعة . والمأوى المبارك مغارة صغيرة فى وسطها كالبيت الصغير ، وإزاءها بيت يقال إنه مُصَلَّى الخَضِر عليه السلام ، يبادر الناس إلى الصلاة فيها . وللمأوى باب حديد صغير ، والمسجد يدور به ، وله شوارع دائرة ، وسقاية حسنة ، ينزل لها الماء من علو ، وينْصَبُّ فى شاذَرْوَان(٢) فى الجدار ، يتصل بحوض من رخام ، ويقع فيه الماء ، ولا نظير له فى الحسن وغرابة الشكل . وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجرى فيها الماء . وهذه الربوة المباركة هى رأس بساتين دمشق ، وبها منابع مياهها . وينقسم الماء الخارج منها

---

(١) ذلك أشبه بالأساطير .

(٢) الشاذروان هنا مجرى . وتتضمن هذه الكلمة بالفارسية التغطية والستر . وهو هنا كذلك .

على سبعة أنهار ، كل نهر آخذ فى جهة ، ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم . وأكبر هذه الأنهار، النهر المسمى بِتَوْرَة ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نحت له مجرى فى الحجر الصلد كالغار الكبير ، وربما انغمس ذوالجسارة من العوامين فى النهر من أعلى الربوة ، واندفع فى الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة ، وهى مخاطرة عظيمة . وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ، ولها من الحسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها . وتلك الأنهار السبعة تذهب فى طرق شتى ، فتحار الأعين فى حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها . وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف ، ولها الأوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين ، تقام منها وظائفها للإمام والمؤذن والصادر والوارد . وبأسفل الربوة قرية النَّيْرب ، وقد تكاثرت بساتينها ، وتكاثفت ظلالها ، وتدانت أشجارها ، فلا يظهر من بنائها إلا ما سما ارتفاعه ، ولها حمام مليح ، ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام ، وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومطهرة فيها بيوت عِدَّة يجرى فيها الماء . وفى القبلى من هذه القرية قرية المِزَّة وتعرف بمزة كلب ، نسبة إلى قبيلة كلب ، وكانت إقطاعا لهم . وإليها ينسب الإمام حافظ الدنيا ، جمال الدين يوسف بن الزكى الكلبى المِزِّى ، وكثير سواه من العلماء . وهى من أعظم قرى دمشق ، بها جامع كبير عجيب وسقاية مَعِينة . وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والأسواق ، وسكانها كأهل الحاضرة فى مناحيهم . وفى شرقى البلد قرية تعرف ببيت الآلهة ، وكانت فيها كنيسة يقال إن آزر(١) كان ينحِت فيها الأصنام ، فيكسرها الخليل عليه السلام . وهى الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام وأزين التئام .

---

(١) آزر : هو أبو سيدنا ابراهيم عليه السلام .

ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعاداتهم

والأوقاف بدمشق لاتحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها : فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ، تعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهنّ اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لِفَكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل ، يعطون منها مايأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ، ويمر الركبان بين ذلك . ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير .

حكاية

مررت يوما ببعض أزقة دمشق ، فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صَحْفة من الفَخّار الصينى ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت ، واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : "اجمع شَقَفَها(١) واحملها معك لصاحب أوقاف الأوانى" ، فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الأعمال ، فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره ، وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك . فكان هذا الوقف جبرا للقلوب . جزى الله خيرا من تسامت همته فى الخير إلى مثل هذا .

وأهل دمشق يتنافسون فى عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد ، وهم يحسنون الظن بالمغاربة ، ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد . وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش : من إمامة مسجد ، أو قراءة بمدرسة ، أو ملازمة مسجد يجىء إليه فيه رزقه ، أو قراءة القرآن ، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة ، أو يكون

---

(١) الشَّقَفُ الخَزَف أو مكسره .

بجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة . فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه ، محفوظا عما يزرى بالمروءة ، ومن كان من أهل المَهْنَة والخدمة فله أسباب أُخَر من حراسة بستان ، أو أمانة طاحونة ، أو كَفَالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح . ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك .

ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده البتة : فمن كان من الأمراء والقضاة ، والكبراء ، فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية ، فإنهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ، ويأتى كل أحد بما عنده ، فيفطرون جميعا . ولما وردت دمشق وقعت بينى وبين نور الدين السخاوى مدرس المالكية صحبة ، فرغب منى أن أفطر عنده فى ليالى رمضان فحضرت عنده أربع ليال ، ثم أصابتنى الحمى فغبت عنه ، فبعث فى طلبى فاعتذرت بالمرض فلم يسعنى عذرا ، فرجعت إليه وبت عنده . فلما أردت الانصراف بالغد منعنى من ذلك ، وقال لى : احْسُبْ دارى كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك ، وأمر بإحضار طبيب ، وأن يصنع لى بداره كل مايشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء . وأقمت كذلك عنده إلى يوم العيد ، وحضرت المصلى وشفانى الله تعالى مما أصابنى . وقد كان ماعندى من النفقة نَفِد ، فعلم بذلك ، فاكترى لى جمالا وأعطانى الزاد وسواه ، وزادنى دراهم ، وقال لى : تكون لما عسى أن يعتريك من أمر مُهِم ، (جزاه الله خيرا) . وكان بدمشق فاضل من كتّاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القَيْصَرَانى ، من عادته أنه متى سمع أن مغربيا وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن إليه ، فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته ، وكان يلازمه منهم جماعة . وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر

الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره . وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عزالدين القَلَانِسي ، له مآثر ومكارم وفضائل و إيثار ، وهو ذو مال عريض ؛ وذكروا أن الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام ، فسماه إذ ذاك بالصاحب .

ومما يؤثر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت ، أوصى أن يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره ، وعيّن أوقافا عظيمة لقراء يقرءون سُبُعًا من القرآن الكريم فى كل يوم إثر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم حيث قبره ، فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدا ، و بقى ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا . ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة ، فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس ، وجامع بنى أمية وسواها ، و يقف بهم أئمتهم كاشفى رءوسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة . ويتوخون الساعة التى يقف فيها وفد الله تعالى ، وحجاج بيته بعرفات ، ولا يزالون فى خضوع ودعاء وابتهال وتوسل إلى الله تعالى بحجاج بيته إلى أن تغيب الشمس ، فينفرون كما ينفِر الحاج باكين على ما حُرِموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات ، داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه . ولهم أيضا فى اتباع الجنائز رتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة ، والقراء يقرءون القرآن بالأصوات الحسنة ، والتلاحين المبكية ، التى تكاد النفوس تطير لها رقة[1] . وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع ، قُبَالةَ المقصورة . فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه ، و إن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد ، وأدخلوا الجنازة . و بعضهم يجتمع له بالبلاط الغربى من الصحن

(١) لا يزال فى مصر شىء من ذلك وهو بدعة غير مستحسنة شرعا .

بمقربة من باب البريد ، فيجلسون وأمامهم ربعات القرآن يقرءون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ، ويقولون: باسم الله ، فلان الدين، من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك. فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون : افتكروا واعتبروا ، صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم، ويصفونه بصفات من الخير، ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه .

ولأهل الهند رتبة عجيبة فى الجنائز أيضا ، زائدة على ذلك ، وهى أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه ، وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة، ويكسى القبر بالأكسية الفاخرة ، وتوضع حوله الرياحين من الورد والنِّسْرين[1] والياسمين، وذلك النُّوَّار لا ينقطع عندهم. ويأتون بأشجار الليمون والأُتْرُجّ، ويجعلون فيها حبوبها إن لم تكن فيها، ويجعل سرادق يظلل الناس نحوه، ويأتى القضاة والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء، ويؤتى بالربعات الكرام ، فيأخذ كل واحد منهم جزءا . فإذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضى ويقوم قائما ، ويخطب خطبة معدة لذلك ، ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر، ويذكر أقاربه ويعزيهم عنه ، ويذكر السلطان داعيا له . وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رءوسهم إلى سَمْت الجهة التى بها السلطان. ثم يقعد القاضى، ويأتون بماء الورد ، فيصب على الناس صبا ، يبدأ بالقاضى ثم من يليه كذلك إلى أن يعم الناس أجمعين. ثم يؤتى بأوانى السكر ، وهو الجُلّاب محلولا بالماء فيسقون الناس منه ، ويبدءون بالقاضى ومن يليه ، ثم يؤتى بالتَّانَبُول ، وهو اليقطين الهندى ، وهم يعظمونه ويكرمون من يأتى لهم به . فإذا أعطى السلطان أحدا منه فهو أعظم من إعطاء الذهب والخلع . وإذا مات الميت لم يأكل أهله التانبول إلا فى ذلك اليوم، فيأخذ القاضى أو من يقوم مقامه أوراقا منه ، فيعطيها ولىّ الميت فيأكلها ، وينصرفون حينئذ. وسيأتى ذكر التانبول إن شاء الله تعالى.

(١) ورد أبيض عطرى قوى الرائحة .

ذكر سماعى بدمشق ومن أجازنى من أهلها

ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازى إلى خارج دمشق ، ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة ، فأخذت فى الحركة معهم . وكان أمير الركب سيف الدين الجَوْبان من كبار الأمراء ، وقاضيه شرف الدين الأَذْرَعى الحَوْرانى . وحج فى تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغمارى . وكان سفرى مع طائفة من العرب تدعى العَجَارِمة ، أميرهم محمد بن رافع ، كبير القدر فى الأمراء . وارتحلنا من الكسوة إلى قرية تعرف بالصَّنَمَيْن عظيمة . ثم ارتحلنا منها إلى بلدة زَرْعة ، وهى صغيرة من بلاد حَوْران . نزلنا بالقرب منها . ثم ارتحلنا إلى مدينة بُصْرَى ، وهى صغيرة ، ومن عادة الركب أن يقيم بها أربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه . وإلى بصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث فى تجارة خديجة ، وبها مبرك ناقته ، قد بنى عليه مسجد عظيم . ويجتمع أهل حَوْران لهذه المدينة ، ويتزود الحاج منها ثم يرحلون إلى بركة زِيزَى ، ويقيمون عليها يوما ، ثم يرحلون إلى اللَّجُّون وبها الماء الجارى . ثم يرحلون إلى حصن الكَرَك ، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ، ويسمى بحصن الغراب ، والوادى يطيف به من جميع جهاته . وله باب واحد قد نحت المدخل إليه فى الحجر الصلد ، ومدخل دهليزه كذلك . وبهذا الحصن يتحصن الملوك ، وإليه يلجئون فى النوائب . وله لجأ الملك الناصر ، لأنه ولى الملك وهو صغير السن ، فاستولى على التدبير مملوكه سلّار النائب عنه ، فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج ، ووافقه الأمراء على ذلك . فتوجه إلى الحج ، فلما وصل عقبة أَيْلَة لجأ إلى الحصن وأقام به أعواما ، إلى أن قصده أمراء الشام واجتمعت عليه المماليك . وكان قد ولى الملك فى تلك المدة بيبرس الشَّشْنَكِير ، وهو أمير الطعام . وتسمى بالملك المظفر . وهو الذى بنى الخانقاه البِيبرسيّة بمقربة من خانقاه

سعيد السعداء ، التى بنـاها صلاح الدين بن أيوب . فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس إلى الصحراء . فتبعته العساكر وقبض عليه ، وأتى به إلى الملك الناصر فأمر بقتله فقتل . وقبض على سلّار وحبس فى جب حتى مات جوعا . ويقال إنه أكل جيفة من الجوع ، نعوذ بالله من ذلك .

وأقام الركب بخارج الكَرَك أربعة أيام ، بموضع يقال له الثَّنِيَّة ، وتجهزوا لدخول البرية . ثم ارتحلنا إلى معَاّن وهو آخر بلاد الشام ، ونزلنا من عقبة الصَّوَّان إلى الصحراء التى يقال فيها : داخلها مفقود وخارجها مولود . وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج وهى حِسْيَان[1] لا عمـارة بها ، ثم إلى وادى بَلْدَح ، ولا ماء به .

وصف تَبُوك

ثم إلى تبوك وهو الموضع الذى غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها عين ماء كانت تَبِضُّ[2] بشىء من المـاء ، فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها ، جادت بالمـاء المعين ، ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا منزل تبوك ، أخذوا أسلحتهم ، وجردوا سيوفهم ، وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ، ويقولون : هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وينزل الركب العظيم على هذه العين فيَرْوَى منها جميعهم ، ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال ، واستعداد المـاء للبرية المخوفة التى بين العُلَا وتبوك . ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ، ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام ، يسقون منها الجمال ويملئون الرَّوَايَا والقرب ، ولكل أمير أو كبير حوض يسقى منـه جماله وجمال أصحابه ، ويمـلأ روایاهم .

---

(١) لم نر هذا الجمع . وفى القاموس : الحَسْىُ ويكسر والحِسَى كإلى سهل من الأرض يستنقع فيه المـاء . جمعه أحساء وحِساء . اهـ باختصار .

(٢) تسيل .

وسواهم من الناس من يتفق مع السقائين على سق جمله وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم . ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية ، وفى وسطها الوادى الأُخَيْضر كأنه وادى جهنم ، أعاذنا الله منها . وأصاب الحجاج به فى بعض السنين مشقة بسبب ريح السَّمُوم التى تهب ، فانتشفت المياه ، وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار . ومات مشتريها وبائعها ، وكتب ذلك فى بعض صخر الوادى . ومن هنالك ينزلون بركة المُعَظَّم ، وهى ضخمة ، نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب . ويجتمع بها ماء المطر فى بعض السنين وربما جف فى بعضها .

وفى الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون الى بئر الحِجْر : حجر ثمود ، وهى كثيرة الماء . ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم ، اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها فى غزوة تبوك ، فأسرع براحلته وأمر ألا يسقى منها أحد . وهنالك ديار ثمود فى جبال من الصخر الأحمر منحوتة ، لها عَتَب منقوشة ، يظن رائيها أنها حديثة الصنعة . وعظامهم نخرة فى داخل تلك البيوت ، إن فى ذلك لعبرة . ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك . وبينهما أثر مسجد يصلى الناس فيه . وبين الحجر والعُلا نصف يوم أودونه ، والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المَعينة ، يقيم بها الحجاج أربعا ، يتزودون ويغسلون ثيابهم ويَدَعُون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ، ويستصحبون قدر الكفاية . وأهل هذه القرية أصحاب أمانة ، وإليها ينتهى تجار نصارى الشام لايتعدونها ، ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه . ثم يرحل الركب من العلا فينزلون فى غد رحيلهم الوادى المعروف بالعُطاس ، وهو شديد الحر تَهُبُّ فيه السَّمُوم المهلكة ، هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم إلا اليسير ، وتعرف تلك السنة بسنة الأمير الجالِق . ومنه ينزلون هُدَيَّة ، وهى حِسْيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زُعَاق . وفى اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف .

طَيْبَة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرَّف وكرّم

وفى عشيّ ذلك اليوم، دخلنا الحرم الشريف وانتهينا إلى المسجد الكريم، فوقفنا بباب السلام مسلمين، وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذى حنّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهى ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة . وأدينا حق السلام على سيد الأولين والآخرين، وشفيع العصاة والمذنبين، الرسول النبي الهاشمى الأبطحى، محمد صلى الله عليه وسلم تسليما، وشرف وكرم، وحقّ السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبى بكر الصديق وأبى حفص عمر الفاروق، رضى الله عنهما . وانصرفنا إلى رَحْلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى، مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى، حامدين الله تعالى على البلوغ إلى معاهد رسوله الشريفة، ومشاهده العظيمة المنيفة، داعين ألا يجعل ذلك آخر عهدنا بها، وأن يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت فى سبيل الله سَفْرته .

ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة

المسجد المعظم مستطيل، تَحُفُّ به من جهاته الأربع بلاطات دائرة به، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل . ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت . والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها فى الجهة القبلية مما يلى الشرق من المسجد الكريم . وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله، وهى مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان . وفى الصفحة القبلية منها مسمار فضة، هو قُبَالة الوجه الكريم . وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه

الكريم ، مستدبرين القبلة ، فيسلمون ، وينصرفون يمينا إلى وجه أبى بكر الصديق . ورأس أبى بكر رضى الله عنه عند قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ينصرفون إلى عمر بن الخطاب . ورأس عمر عند كتفى أبى بكر رضى الله عنهما . وفى الجوفى من الروضة المقدسة (زادها الله طيبا) ، حوض صغير مرخَّم فى قبلته شكل محراب ، يقال إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليــه وسلم تسليما ، ويقال أيضا : هو قبرها والله أعلم .

وفى سط المسجد الكريم دَفَّة(١) مُطْبِقة على وجه الأرض مقفلة على سرداب له درج يفضى إلى دار أبى بكر رضى الله عنه خارج المسجد ، وعلى ذلك السرداب كان طريق بنته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إلى داره . ولا شك أنه هو الخَوْخَة التى ورد ذكرها فى الحديث ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم تسليما بإبقائها وسد ما سواها . وبإزاء دار أبى بكر رضى الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . وبشرق المسجد الكريم دار إمام المدينة أبى عبد الله مالك بن أنس رضى الله عنه . وبمقربة من باب السلام سِقَاية ينزل إليها على درج . ماؤها مَعِين وتعرف بالعين الزرقاء .

ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأول ، فنزل على بنى عمرو بن عوف ، وأقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة ، وقيل أربع عشرة ليلة ، وقيل أربع ليال . ثم توجه إلى المدينة فنزل على بنى النجار بدار أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده . وكان موضع المسجد مِرْبَدًا(٢) لسهل وسهيل ابنى رافع بن أبى عمر بن عائد بن ثعلبة بن غانم بن مالك

---

(١) شىء كاللوح .

(٢) المِرْبَدُ : موضع الإبل أو موضع التمر .

ابن النجار ، وهما يتيمان فى حِجْر أسعد بن زُرارة ، رضى الله عنهم أجمعين . وقيل كانا فى حجر أبى أيوب رضى الله عنه . فابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ذلك المربد ، وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه ، وقيل إنهما وهباه لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المسجد ، وعمل فيه مع أصحابه ، وجعل عليه حائطا ، ولم يجعل له سقفا ولا أساطين . وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك ، وقيل إن عرضه كان دون ذلك ، وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة . فلما اشتد الحر تكلم أصحابه فى سَقْفه ، فأقام له أساطين من جذوع النخل ، وجعل سقفه من جريدها . فلما أمطرت السماء وكَفَ(١) المسجد ، فكلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمله بالطين ، فقال : كلا ! عَرِيش كعريش موسى ، أو ظُلة كظُلة موسى ، والأمر أقرب من ذلك ! قيل : وما ظلة موسى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : كان إذا قام أصاب السقف رأسه . وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ثم سدا لجنوبى منها حين حولت القبلة . وبقى المسجد على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وحياة أبى بكر رضى الله عنه . فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه زاد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . ثم زاد فيه عثمان رضى الله عنه ، وبناه بقوة وباشره بنفسه ، فكان يظل فيه نهاره ، وبيّضه وأتقن عمله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته ، إلا جهة الشرق منها ، وجعل له سوارى حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج(٢) ، وصنع له محرابا . وقيل إن مروان هو أول من بنى المحراب ، وقيل عمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد . ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك ، تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه وحسنه وبالغ فى إتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب . وكان الوليد بعث إلى ملك الروم :

(١) وَكَفَ : سَالَ .
(٢) نوع من الشجر .

إنى أريد أن أبنى مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليما فأَعِنِّى فيه . فبعث إليه الفعلة وثمانين ألف مثقال من الذهب . وأمر الوليد بإدخال حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تسليما فيه ، فاشترى عمر من الدور ما زاده فى ثلاث جهات من المسجد . فلما صار إلى القبلة امتنع عبيد الله بن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة ، وطال بينهما الكلام حتى ابتاعها عمر على أن لهم ما بقى منها ، وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقا إلى المسجد ، وهى الخوخة التى فى المسجد . وجعل عمر للمسجد أربع صوامع فى أربعة أركانه ، وكانت إحداها مطلة على دار مروان . فلما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها ، فأطل عليه المؤذن حين الأذان فأمر بهدمها . وجعل عمر للمسجد محرابا ، ويقال : هو أول من أحدث المحراب . ثم زاد فيه المهدى بن أبى جعفر المنصور ، وكان أبوه هَمَّ بذلك ولم يقض له . وكتب إليه الحسن بن زيد يرغبه فى الزيادة فيه من جهة الشرق ، ويقول : إنه إن زيد فى شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم . فاتهمه أبو جعفر بأنه إنما أراد هدم دار عثمان رضى الله عنه ، فكتب إليه : إنى قد عرفت الذى أردت فاكفف عن دار عثمان . وأمر أبو جعفر أن يظلل الصحن أيام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون فى الصحن ، لِتُكِنَّ المصلين من الحر . وكان طول المسجد فى بناء الوليد مائتى ذراع ، فبلّغه المهدى إلى ثلاثمائة ذراع ، وسوّى المقصورة بالأرض ، وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين ، وكتب اسمه على مواضع من المسجد .

ثم أمر الملك المنصور قَلَاوُون ببناء دار للوضوء عند باب السلام ، فتولى بناءها الأمير الصالح علاء الدين المعروف بالأقرع ، وأقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت ، وأجرى إليها الماء . وأراد أن يبنى بمكة ، شرفها الله تعالى ، مثل ذلك فلم يتم له ، فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة ، وسيذكر إن شاء الله .

وقبلة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قبلة قَطْع [١] لأنه صلى الله عليه وسلم تسليما أقامها ، وقيل : أقامها جبريل عليه السلام ، وقيل : كان يشير جبريل له إلى سَمْتها وهو يقيمها . و بكل اعتبار فهي قبلة قطع . وكانت القبلة أول ورود النبي صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة إلى بيت المقدس ، ثم حولت إلى الكعبة بعد ستة عشر شهرا وقيل : بعد سبعة عشر شهرا .

ذكر المنبر الكريم

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كان يخطب إلى جذع نخلة بالمسجد ، فلما صنع له المنبر وتحول إليه حَنَّ الجذع حنين الناقة إلى حُوَارها . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما نزل إليه فالتزمه فسكن . وقال : لو لم ألتزمه لحنّ إلى يوم القيامة [٢] . واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم . فروى أن تميما الدَّارىَّ رضي الله عنه هو الذي صنعه ، وقيل : إن غلاما للعباس رضي الله عنه صنعه ، وقيل : غلام لامرأة من الأنصار . وورد ذلك في الحديث الصحيح . وصنع من طَرْفَاء [٣] الغابة ، وقيل من الأَثْل . وكان له ثلاث درجات ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على عُلياهن ، و يضع رجليه الكريمتين في وُسطاهن . فلما ولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قعد على وسطاهن ووضع رجليه على أولاهن . فلما ولى عمر رضي الله عنه جلس على أولاهن وجعل رجليه على الأرض . وفعل ذلك عثمان رضي الله عنه صَدْرًا من خلافته ، ثم ترقى إلى الثالثة . ولما أن صار الأمر إلى معاوية رضي الله عنه أراد نقل المنبر إلى الشام فضج المسلمون . فلما رأى ذلك معاوية تركه و زاد فيه ست درجات من أسفله ، فبلغ تسع درجات .

---

(١) أي قبلة مقطوع بصحتها .

(٢) لم يثبت حنين الجذع ثبوت قطع .

(٣) الطرفاء والأثل نوعان من الشجر .

ذكر الخطيب والإمام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان الإمام بالمسجد الشريف فى عهد دخولى إلى المدينة ، بهاء الدين ابن سلامة ، من كبار أهل مصر ، وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بقية المشايخ عز الدين الواسطى ، نفع الله به ، وكان يخطب قبله . ويقضى بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصرى .

حكاية

يذكر أن سراج الدين هذا أقام فى خُطَّة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة . ثم إنه أراد الخروج بعد ذلك إلى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ثلاث مرات ، فى كل مرة ينهاه عن الخروج منها ، وأخبره باقتراب أجله ، فلم ينته عن ذلك ، وخرج فمات بموضع يقال له سُوَيْس ، على مسيرة ثلاث من مصر قبل أن يصل إليها . وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون رحمه الله . وابناه الآن بالمدينة الشريفة : أبو محمد عبدالله مدرس المالكية ونائب الحكم ، وأبو عبد الله محمد . وأصلهم من مدينة تونس ، ولهم بها حسب وأصالة . وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الأسيوطى من أهل مصر ، وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكَرَك .

ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به

وخدام هذا المسجد الشريف وسَدَنَته فتيان من الأحابيش وسواهم . وهم على هيئات حسان وصور نظاف وملابس ظراف . وكبيرهم يعرف بشيخ

قبة حجر الزيت بخارج المدينة الشريفة ، يقال إن الزيت رشح من حجر هنالك للنبي صلى الله عليه وسلم تسليما[١] . و إلى جهة الشمال منه بئر بُضاعة . وعلى شفير الخندق الذى حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عند تحزب الأحزاب حصن خرب ، يعرف بحصن العُزّاب ، يقال إن عمر بناه لعزاب المدينة . وأمامه إلى جهة الغرب بئر رُومة التى اشترى أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه نصفها بعشرين ألفا . ومن المشاهد الكريمة أُحُد وهو الجبل المبارك الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما : إن أحدا جبل يحبنا ونحبه . وهو بجوار المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها . وبإزائه الشهداء المكرمون رضى الله عنهم . وهنالك قبر حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى عنه . وحوله الشهداء المُسْتَشْهَدُون فى أحد رضى الله عنهم ، وقبورهم لقبلىّ أحد . وفى طريق أحد مسجد ينسب لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومسجد ينسب إلى سَلْمَان الفارسى رضى الله عنه ، ومسجد الفتح ، حيث أنزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما .

وكانت إقامتنا بالمدينة الشريفة فى هذه الوجهة أربعة أيام ، وفى كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم ، والناس قد حلّقوا فى صحنه حَلَقًا وأوقدوا الشمع الكثير ، و بينهم رَبَعات القرآن الكريم يتلونه ، و بعضهم يذكرون الله ، و بعضهم فى مشاهدة التربة الطاهرة (زادها الله طيبا) ، والحُدَاة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وهكذا دأب الناس فى تلك الليالى المباركة ، و يجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين . وكان فى صحبتى فى هذه الوجهة من الشام إلى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل ، يعرف بمنصور بن شَكْل ، واجتمعنا بعد ذلك بحلب و بخارى . وكان فى صحبتى أيضا قاضى الزَّيْدية شرف الدين قاسم بن سِنَان . وصحبنى أيضا أحد الصلحاء الفقراء من أهل غَرْناطة ، يسمى بعلى بن حجر الأموى .

(١) ليس هذا بثابت ثبوتا قطعيا .

حكاية

لما وصلنا إلى المدينة ، كرمها الله ، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ذكر لى علىّ بن حجر هذا أنه رأى تلك الليلة فى النوم قائلا يقول له : اسمع منى واحفظ عنى :

هنيئا لكم يا زائرين ضريحه   أمِنْتُم به يوم المعاد من الرجس
وصلتم إلى قبر الحبيب بِطَيْبَةٍ   فطوبى لمن يُضْحِى بطيبة أو يُمْسى

وجاور هـذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ، ثم رحل إلى مدينة دِهلى قاعدة بلاد الهند ، فى سنة ثلاث وأربعين ، فنزل فى جوارى . وذكرت حكاية رؤياه بين يدى ملك الهند ، فأمر بإحضاره ، فحضر بين يديه وحكى له ذلك ، فأعجبه واستحسنه ، وقال له كلاما جميلا بالفارسية ، وأمر بإنزاله وأعطاه ثلاثمائة تَنْكة من ذهب ، ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار ، وأعطاه فرسا محلًّى السرج واللجام ، وخِلْعة ، وعين له مرتبا فى كل يوم . وكان هنالك فقيه طيب من أهل غَرْناطة ومولده بِجَاية ، يعرف هنالك بجمال الدين المغربى ، فصحبه علىّ بن حجر وواعده على أن يزوجه بنته ، وأنزله بدويرة خارج داره ، واشترى جارية وغلاما . وكان يترك الدنانير فى مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لأحد . فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب ، وأخذاه وهربا . فلما أتى الدار لم يجد لهما أثرا ، ولا للذهب . فامتنع من الطعام والشراب ، واشتد به المرض أسفا على ما جرى عليه . فعرضت قضيته بين يدى الملك ، فأمر أن يُخْلَفَ له ذلك ، فبعث إليه من يعلمه بذلك ، فوجده قد مات رحمه الله تعالى .

وصف الطريق إلى مكة

وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة (شرفهما الله تعالى) . فنزلنا بقرب مسجد ذى الحُلَيْفَة الذى أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، والمدينة منه على خمسة أميال . وهو منتهى حرم المدينة . وبالقرب منه وادى العقيق . وهنالك تجردت من مَخيط الثياب ، واغتسلت ولبست ثوب إحرامى وصليت ركعتين ، وأحرمت بالحج مفردا . ولم أزل ملبيا فى كل سهل وجبل وصعود وحُدور ، إلى أن أتيت شِعْبَ على عليه السلام ، وبه نزلت تلك الليلة — ثم رحلنا منه ونزلنا بالرَّوْحاء ، وبها بئر تعرف ببئر ذات العَلَم ، ويقال إن عليا عليه السلام قاتل بها الجن — ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء ، وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان ، وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم . وفيها حصن كبير ، وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة — ثم رحلنا منه ونزلنا ببَدْر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وأنجز وعده الكريم ، واستأصل صناديد المشركين . وهى قرية فيها حدائق نخل متصلة ، وبها حصن منيع ، يُدْخل إليه من بطن وادبين جبال . وببدر عين فوارة يجرى ماؤها . وموضع القَليب[1] الذى سُحب به أعداء الله المشركون هو اليوم بستان ، وموضع الشهداء رضى الله عنهم خلفه . وجبل الرحمة الذى نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء . وبإزائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل ممتد . ويزعم أهل تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول فى كل ليلة جمعة . وموضع عَريش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول . وموضع الوقيعة أمامه . وعند نخل القليب مسجد يقال له : مبرك ناقة النبى صلى الله عليه وسلم تسليما . وبين بدر والصفراء نحو بريد[2] فى واد بين جبال تَطَّرد فيه العيون ، وتتصل حدائق النخل .

---

(١) القليب : البئر .

(٢) أربعة فراسخ

ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع البَزْواء ، وهى برية يضل بها الدليل ، ويَذْهَل عن خليله الخليل ، مسيرة ثلاث ، وفى منتهاها وادى رابغ ، يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا ، ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجُحْفة . وسرنا من رابغ ثلاثا إلى خُلَيص ، ومررنا بعقبة السَّويق ، وهى على مسافة نصف يوم من خليص ، كثيرة الرمل ، والحجاج يقصدون شرب السويق بها ، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ، ويسقونه الناس مخلوطا بالسكر . والأمراء يملئون منه الأحواض ويسقونها الناس . ثم نزلنا بركة خُلَيْص وهى فى بسيط من الأرض كثيرة حدائق النخل ، لها حصن مشيد فى قُنَّة جبل . وفى البسيط حصن خرب ، وبها عين فوارة قد صنعت لها أخاديد فى الأرض وسُرِّبَتْ إلى الضياع . وصاحب خليص شريف حسنى النسب . وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقا عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والإدام[١] .

ثم رحلنا إلى عُسْفَان وهى فى بسيط من الأرض بين جبال ، وبها آبار ماء مَعِين ، تنسب إحداها إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه . والمَدْرج المنسوب إلى عثمان أيضا على مسافة نصف يوم من خليص ، وهو مضيق بين جبلين ، وفى موضع منه بلاط على صورة دَرَج ، وأثر عمارة قديمة . وهنالك بئر تنسب إلى على عليه السلام ، ويقال إنه أحدثها . وبعُسْفان حصن عتيق وبرج مشيد ، قد أوهنه الخراب ، وبه من شجر المُقْل كثير . ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مَرّ الظَّهْران ، وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقى تلك الناحية . ومن هذا الوادى تجلب الفواكه والخُضَر إلى مكة

---

(١) ما يؤدم به .

(شرفها الله تعالى) . ثم أدلجنا[١] من هذا الوادى المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها ، مسرورة بحالها ومآلها ، فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة (شرفها الله تعالى) ، فوردنا منها على حرم الله ومُبوَّإ خليله إبراهيم ، ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلم . ودخلنا البيت الحرام الشريف الذى من دخله كان آمنا ، من باب بنى شَيْبة . وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما ، وهى كالعروس تجلى على منصة الجلال ، وترفُل فى برود الجمال ، محفوفة بوفود الرحمن ، موصلة إلى جنة الرضوان . وطفنا بها طواف القدوم ، واستلمنا الحجر الكريم ، وصلينا ركعتين بمقام إبراهيم ، وتعلقنا بأستار الكعبة عند المُلْتَزَم ، بين الباب والحجر الأسود ، حيث يستجاب الدعاء . وشربنا من ماء زمزم وهو لمَا شُرِب له ، على ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم تسليما . ثم سعينا بين الصفا والمروة ، ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب إبراهيم . والحمد لله الذى شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم ، وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ، ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحِجْر الكريم ، وزمزم والحطيم[٢] . ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة ، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة ، وجعل حبها متمكنا فى القلوب ، فلا يَحُلُّ بها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه ، ولا يفارقها إلا أسفا لفراقها متولها لبعاده عنها ، شديد الحنين إليها ، ناويا لتكرار الوفادة عليها . فأرضها المباركة نُصْب الأعين ، ومحبتها حشو القلوب ، حكمة من الله بالغة ، وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام . والشوق يحضرها وهى نائية ، ويمثلها وهى غائبة ، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق ، ويعانيه من العناء . وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها ، ويشاهد التلف فى طريقها .

---

(١) أدلج : سار ليلا .

(٢) الحطيم : حِجْر الكعبة حيث يحطم الناس للدعاء .

فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا ، كأنه لم يذق لها مرارة ، ولا كابد محنة ولا نصبا ! إنه لأمر إلهي وصنع ربانى ، ودلالة لا يشوبها لبس ، ولا تغشاها شبهة ، ولا يطرقها تمويه ، وتعز فى بصيرة المستبشرين ، وتبدو فى فكرة المتفكرين . ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء ، والمثول بذلك الفناء ، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى ، وخوّله خير الدارين : الدنيا والأخرى . فَحَقّ عليه أن يكثر الشكر على ما خوله ، ويديم الحمد على ما أولاه . جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته ، وربحت فى قصدها تجارته ، وكتبت فى سبيل الله آثاره ، ومحيت بالقبول أوزاره ، بمنه وكرمه .

ذكر مدينة مكة المعظمة

وهى مدينة كبيرة متصلة البنيان ، مستطيلة فى بطن واد تَحُفّ به الجبال ، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها . وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ . والأَخْشَبان من جبالها هما : جبل أبى قبيس ، وجبل قُعيقعان[1] . وفى الشمال منها الجبل الأحمر . ومن جهة أبى قبيس أجياد الأكبر وأجياد الأصغر ، وهما شِعْبان ، والخَنْدَمة ، وهى جبل . (والمناسك كلها : مِنًى وعرفة والمُزْدَلِفَة) بشرق مكة شرفها الله .

ولمكة من الأبواب ثلاثة : باب المَعْلَى بأعلاها ، وباب الشُّبَيْكَة من أسفلها ، ويعرف أيضا بباب الزاهر ، وبباب العُمْرة ، وهو إلى جهة المغرب ، وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجُدّة ، ومنه يتوجه إلى التَّنْعيم ، وسيذكر ذلك ، وباب المَسْفَلَة وهو من جهة الجنوب ، ومنه دخل خالد ابن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح . ومكة ، شرفها الله ، كما أخبر الله فى كتابه

---

(١) قُعَيْقِعَانُ : جبل بمكة وجهه إلى أبى قبيس كانت جُرْهُم تصنع أسلحتها فيه فتقعقع اهـ (قاموس) .

العزيز حاكيا عن نبيه الخليل ، بواد غير ذى ذرع ، ولكن سبقت لها الدعوة المباركة ، فكل طُرْفة تجلب إليها ، وثمرات كل شىء تجبى إليها . ولقد أكلت بها من الفواكه : العنب ، والتين ، والخوخ ، والرطب ، ما لا نظير له فى الدنيا . وكذلك البِطّيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة . واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم . وكل مايفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه . وتجلب لها الفواكه والخُضَر من الطائف ، ووادى نخلة ، وبطن مَرّ الظَّهْران ، لطفاً من الله بسكان حرمه الأمين ومجاورى بيته العتيق .

وصف المسجد الحرام شرفه الله وكرمه

والمسجد الحرام فى وسط البلد ، وهو متسع الساحة . طوله من شرق إلى غرب أزيد من أربعمائة ذراع (حكى ذلك الأزرقى) وعرضه يقرب من ذلك ، والكعبة العظمى فى وسطه . ومنظره بديع ، ومرآه جميل . لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ، ولا يحيط الواصف بحسن كماله . وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا ، وسقفه على أعمدة طوال ، مصطفة ثلاثة صفوف ، بأتقن صناعة وأجملها . وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا ، كأنها بلاط واحد . وعدد سواريه الرُخامية أربعمائة وإحدى وتسعون سارية ، ماعدا الجِصّية التى فى دار[1] الندوة المزيدة فى الحرم ، وهى داخلة فى البلاط الآخذ فى الشمال ، ويقابلها المقام مع الركن العراقى ، وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط إليه . ويتصل بجدار هذا البلاط مصاطب تحت قِسِىّ حنايا ، يجلس بها المقرئون والناسخون والخياطون . وفى جدار البلاط الذى يقابله مصاطب تماثلها . وسائر البلاطات تحت جُدُرانها مصاطب بدون حنايا . وعند باب إبراهيم مدخل من البلاط

---

(١) دار النَّدْوَة : بناها قُصَىّ ـ لأنهم كانوا يَنْدُون فيها أى يجتمعون (مصباح) .

الغربى فيه سوارِجصية . وللخليفة المهدى محمد ابن الخليفة أبى جعفر المنصور رضى الله عنهما آثار كريمة فى توسيع المسجد الحرام، وإحكام بنائه . وفى أعلى جدار البلاط الغربى مكتوب : " أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته ، فى سنة سبع وستين ومائة " .

ذكر الكعبة المعظمة الشريفة ، زادها الله تعظيما وتكريما

والكعبة ماثلة فى وسط المسجد وهى بُنْيَة مربعة ارتفاعها فى الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ، ومن الجهة الرابعة التى بين الحجر الأسود والركن اليمانى تسع وعشرون ذراعا ، وعرض صفحتها التى من الركن العراقى إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبرا ، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن اليمانى إلى الركن الشامى . وعرض صفحتها التى من الركن العراقى إلى الركن الشامى من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن الشامى إلى الركن العراقى . وأما خارج الحِجْر فإنه مائة وعشرون شبرا . والطواف إنما هو خارج الحجر . وبناؤها بالحجارة الصُّم السمر ، قد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه وأشَدِّه ، فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان . وباب الكعبة المعظمة فى الصَّفْح(١) الذى بين الحجر الأسود والركن العراقى، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار . وذلك الموضع هو المسمى بالمُلْتَزَم حيث يستجاب الدعاء . وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبرا ونصف شبر، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبرا، وعرض الحائط الذى ينطوى عليه خمسة أشبار . وهو مصفح بصفائح الفضة، بديع الصنعة، وعِضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة . ويفتح الباب الكريم فى كل يوم جمعة بعد الصلاة ، ويفتح فى يوم مولد رسول الله صلى الله عليه

(١) الجهة .

وسلم تسليما . ورسمهم فى فتحه أن يضعوا كرسيا شبه المنبر له دَرَج وقوائم خشب ، لها أربع بكرات يجرى الكرسى عليها ، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة ، فيكون درجه الأعلى متصلا بالعتبة الكريمة ، ثم يصعد كبير الشَّيبيين(١) وبيده المفتاح الكريم ، ومعه السَّدَنة ، فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع ، بخلال مايفتح رئيسهم الباب ، فإذا فتحه قبّل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده ، وسد الباب ، وأقام قدر مايركع ركعتين . ثم يدخل سائر الشيبيين ، ويسدون الباب أيضا ويركعون ، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول . وفى أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة ، وقلوب ضارعة ، وأيد مبسوطة إلى الله تعالى . فإذا فتح كبروا ونادوا : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين . وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزّع وحيطانه كذلك ، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج ، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خُطا . وهى متوسطة فى الفضاء داخل الكعبة الشريفة ، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقى والشامى . وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض ، وهى تتلألأ عليها نورا وإشراقا ، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض . ومن عجائب الآيات فى الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمم لايحصيها إلا الله الذى خلقهم ورزقهم ، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم . ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا ، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف . ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لاينزل عليها ولا يعلوها فى الطيران ، وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله ، فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها(٢) .

---

(١) الشيبيون : بنو شيبة بن عثمان الحجبى ، بيدهم مفاتيح الكعبة ولهم سدانتها .

(٢) كلام فيه نظر .

ذكر الميزاب المبارك

والميزاب فى أعلى الصَّفْح الذى على الحِجْر. وهو من الذهب وسعته شبر واحد، وهو بارز بمقدار ذراعين، والموضع الذى تحت الميزاب مَظِنَّة استجابة الدعاء. وتحت الميزاب فى الحجر قبر إسماعيل عليه السلام، وعليه رُخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب، متصلة برخامة خضراء مستديرة، وكلتاهما سعتها مقدار شبر ونصف شبر، وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر. وإلى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هَاجَر عليها السلام، وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف. وبين القبرين سبعة أشبار.

ذكر الحجر الأسود

وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار، فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله، والصغير يتطاول إليه. وهو ملصق فى الركن الذى إلى جهة المشرق، وسعته ثلثا شبر، وطوله شبر وعقد. ولا يعلم قدر ما دخل منه فى الركن، وفيه أربع قطع ملصقة. وجوانب الحجر مشدودة بصَفيحة من فضة، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم، فتجتلى منه العيون حسنا باهرا. ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم، ويود لاثمه ألا يفارق لثمه، خاصَّةٌ مودعة فيه، وعناية ربانية به. وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه يمين الله فى أرضه. نفعنا الله باستلامه ومصافحته، وأوفد عليه كل شَيِّق إليه. وفى القطعة الصحيحة من الحجر الأسود، مما يلى جانبه الموالى ليمين مستلمه، نقطة بيضاء

صغيرة مشرقة ، كأنها خال فى تلك الصحيفة البهية ؛ وترى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله ، فقلما يتمكن أحد من ذلك إلا بعد المزاحمة الشديدة ، وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم . ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف . وهو أول الأركان التى يلقاها الطائف ، فإذا استلمه تقهقر عنه قليلا ، وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ، ومضى فى طوافه ، ثم يلق بعده الركن العراقى ، وهو إلى جهة الشمال ، ثم يلق الركن الشامى وهو إلى جهة الغرب ، ثم يلق الركن اليمانى وهو إلى جهة الجنوب ، ثم يعود إلى الحجر الأسود وهو إلى جهة الشرق .

ذكر المقام الكريم

اعلم أن بين الكعبة ، (شرفها الله) ، و بين الركن العراقى موضعا طوله اثنا عشر شبرا ، وعرضه نحو النصف من ذلك ، وارتفاعه نحو شبرين ، وهو موضع المقام فى مدة إبراهيم عليه السلام ، ثم صرفه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الموضع الذى هو الآن مصلّى . و بقى ذلك الموضع شبه الحوض ، و إليه ينصب ماء البيت الكريم إذا غسل ، وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه . وموضع المقام الكريم يقابل ما بين الركن العراقى والباب الكريم ، وهو إلى الباب أميل ، وعليه قبة تحتها شُبَّاك حديد متجاف عن المقام الكريم قدر ما تصل أصابع الانسان ، إذا أدخل يده من ذلك الشباك إلى الصندوق . والشباك مقفل ، ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلّى لركعتى الطواف . وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ، ثم أتى المقام فقرأ : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى) ، وركع خلفه ركعتين . وخلف المقام مصلى إمام الشافعية فى الحطيم الذى هنالك .

ذكر الحِجْر والمطاف

ودَوْرُ جدار الحِجْر تسع وعشرون خطوة ، وهى أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة ، وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الإلصاق . وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر ، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر ، وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزَّع المنظم المعجز الصنعة ، البديع الإتقان . وبين جدار الكعبة الشريفة الذى تحت الميزاب ، وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا . وللحجر مدخلان : أحدهما بينه وبين الركن العراق وسعته ستة أذرع . وهذا الموضع هو الذى تركته قريش من البيت حين بنته ، كما جاءت الآثار الصحاح . والمدخل الآخر عند الركن الشامى ، وسعته أيضا ستة أذرع . وبين المدخلين ثمـانية وأربعون شبرا . وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود ، محكمة الإلصاق ، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا ، إلا فى الجهة التى تقابل المقام الكريم ، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به . وسائر الحرم ، مع البلاطات ، مفروش برمل أبيض . وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة .

ذكر زمزم المباركة

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسـود ، وبينهما أربع وعشرون خطوة . والمقام الكريم عن يمين القبة ، ومن ركنها إليه عشر خطا . وداخل القبة مفروش بالرُخام الأبيض . وتَنُّور(١) البئر المباركة فى وسط القبة مائلا إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة ، وهو من الرخام البديع الإلصاق ، مُفْرَغ بالرَّصاص ، ودوْره أربعون شبرا ، وارتفاعه أربعة أشـبار ونصف شبر . وعمق البئر

(١) تَنُّور البئر : مَفجَر الماء أو موضع اجتماعه .

إحدى عشرة قامة. وهم يذكرون أن ماءها يتزايد فى كل ليلة جمعة . وباب القبة إلى جهة الشرق، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك ، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار ، تملأ ماء للوضوء . وحولها مِصْطبة يقعد الناس عليها للوضوء. ويلى قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضى الله عنه ، وبابها إلى جهة الشمال . وهى الآن يجعل بها ماء زمزم فى قِلال يسمونها الدوارق، وكل دَوْرَق له مَقْبِض واحد ، وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشربه الناس. وبها اختزان المصاحف الكريمة، والكتب التى للحرم الشريف . وبها خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضى الله عنه ، منتَسخ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الكريم ، وفتحوا باب الكعبة الشريفة ، ووضعوه على العتبة الشريفة ، ووضعوه فى مقام إبراهيم عليه السلام، واجتمع الناس كاشفين رءوسهم ، داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز ، والمقام الكريم، فلا ينْفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته، وتغمدهم بلطفه.

ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة

وأبواب المسجد الحرام، (شرفه الله تعالى)، تسعة عشر بابا. وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة . فمنها باب الصفا وهو مفتح على خمسة أبواب ، وكان قديما يعرف بباب بنى مخزوم ، وهو أكبر أبواب المسجد ، ومنه يخرج إلى المسعى . ويستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بنى شَيْبة ، ويخرج بعد طوافه من باب الصفا ، جاعلا طريقه بين الأسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدى، رحمه الله، علما على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما إلى الصفا . ومنها باب أجْياد الأصغر

مفتح على بابين ، ومنها باب الحياطين ، مفتَّح على بابين ، ومنها باب العباس رضى الله عنه ، مفتح على ثلاثة أبواب ، ومنها باب النبى صلى الله عليه وسلم تسليما ، مفتح على بابين ، ومنها باب بنى شيبة ، وهو فى ركن الجدار الشرقى من جهة الشمال أمام باب الكعبة الشريفة متياسِرا ، وهو مفتح على ثلاثة أبواب ، وهو باب بنى عبد شمس ، ومنه كان دخول الخلفاء ، ومنها باب صغير إزاء باب بنى شيبة لا اسم له ، ومنها باب النَّدْوة — ويسمى بذلك ثلاثة أبواب : اثنان متظمان ، والثالث فى الركن الغربى من دار الندوة . ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا فى الحرم مضافا إليه ، وهى تقابل الميزاب . ومنها باب صغير لدار العَجَلة ، مُحْدَث ، ومنها باب السِّدْرة ، واحد ، ومنها باب العُمْرة ، واحد ، وهو من أجامل أبواب الحرم ، ومنها باب إبراهيم ، واحد . والناس مختلفون فى نسبته : فبعضهم ينسبه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام . والصحيح أنه منسوب لإبراهيم الخُوزِىّ من الأعاجم . ومنها باب الحَزْوَرة ، مفتح على بابين ، ومنها باب أجياد الأكبر ، مفتح على بابين ، ومنها باب ينسب إلى أجياد أيضا ، مفتح على بابين ، وباب ثالث ينسب إليه ، مفتح على بابين ، ويتصل بباب الصفا . ومن الناس من ينسب البابين ، من هذه الأربعة المنسوبة لأجياد ، إلى الدقاقين .

وصوامع المسجد الحرام خمس : إحداهن على ركن أبى قُبَيْس عند باب الصفا ، والأخرى على ركن باب بنى شيبة ، والثالثة على باب دار الندوة ، والرابعة على ركن باب السِّدرة ، والخامسة على ركن أجياد . وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظَفَّر ، الذى تنسب إليه الدراهم المظفرية باليمن . وكان يكسو الكعبة إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون . وبخارج باب

إبراهيم زاوية كبيرة فيها دار إمام المالكية الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل . وعلى باب إبراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو، قد صنع فى داخلها من غرائب صنع الجص مايعجز عنه الوصف . وبإزاء هذا الباب عن يمين الداخل إليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الأَقْشَهْرى . وخارج باب إبراهيم بئر تنسب كنسبته. وعنده أيضا دار الشيخ الصالح دانيال العجمى ، الذى كانت صدقات العراق فى أيام السلطان أبى سعيد تأتى على يديه . وبمقربة منه رباط المُوَفَّق وهو من أحسن الرباطات ، سكنته أيام مجاورتى بمكة المعظمة . وكان به فى ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبد الله الزواوى المغربى . وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الحَرَّانى ، ودخل يوما إلى بيته بعد صلاة العصر فوُجِد ساجدا مستقبل الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به ، رضى الله عنه . وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامى نحوا من أربعين سنة . وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربى من كبار الصالحين ، دخلت عليه يوما فلم يقع بصرى فى بيته على شىء سوى حصير ، فقلت له فى ذلك ، فقال لى آستر على ما رأيت.

وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم ، وأهلها فى مشاهدة البيت الشريف على الدوام ، ودور لها أبواب تفضى إلى الحرم ، منها دار زُبَيْدة زوج الرشيد أمير المؤمنين . ومنها دار العَجَلة ودار الشرابى وسواها . ومن المشاهد الكريمة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحى ، وهى فى دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ، بمقربة من باب النبى صلى الله عليه وسلم . وفى البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام . وبمقربة منها دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس .

ذكر الصفا والمَرْوَة

ومن باب الصفا الذى هو أحد أبواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة ، وسعة الصفا سبع عشرة خطوة ، وله أربع عشرة درجة ، عُلياهن كأنها مِصطبة . وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة ، منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة ، ومن الميل الأخضر الى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة ، ومن الميلين الأخضرين الى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة . وللمروة خمس درجات ، وهى ذات قوس واحدة كبيرة . وسعة المروة سبع عشرة خطوة . والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم ، عن يسار الساعى إلى المروة . والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان إزاء باب علىّ من أبواب الحرم ، إحداهما فى جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب ، والأخرى تقابلها . وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرَّمَل(١) ذاهبا وعائدا . وبين الصفا والمروة مَسِيل فيه سوق عظيمة ، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه . والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة . وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه ، إلا البزازون والعطارون عند باب بنى شيبة . وبين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه ، وهى الآن رباط يسكنه المجاورون ، عمره الملك الناصر رحمه الله ، وبنى أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين ، وجعل لها بابين أحدهما فى السوق المذكور ، والآخر فى سوق العطارين ، وعليها ربع يسكنه خدامها . وتولى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال . وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عُطَيْفَة بن أبى نُمَىّ . وسنذكره .

(١) الهرولة .

ذكر الجبانة المباركة

وجبانة مكة خارج باب المَعْلَى ، ويعرف ذلك الموضع أيضا بالحَجُون . وإياه عنى الحارث بن مُضَاض الجُرْهُمِى بقوله :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يَسْمُر بمكة سامر
بلى ، نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء ، إلا أن مشاهدهم دَثَرتْ وذهب عن أهل مكة علمها ، فلا يعرف منها إلا القليل . فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خُوَيْلِد ، أم أولاد النبى صلى الله عليه وسلم تسليما كلهم ، ما عدا إبراهيم ، وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وعليهم أجمعين . وبمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور ، وعبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، رضى الله عنهم أجمعين . وفيها الموضع الذى صلب فيه عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما . وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال إنه المسجد الذى بايعت الجن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد إلى عرفات وطريق الذاهب إلى الطائف وإلى العراق .

ذكر بعض المشاهد خارج مكة

فمنها الحَجُون وقد ذكرناه . ويقال أيضا إن الحجون هو الجبل المطل على الجبانة . ومنها المُحَصَّب ، وهو أيضا الأبطح ، وهو يلى الجبانة المذكورة ، وفيه خَيْف بنى كنانة الذى نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، ومنها

ذو طُوى ، وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التى بالحَصْحاص ، دون ثنيـة كَداء ، ويخرج منه إلى الأعلام الموضوعة حَجْزًا بين الحل والحرام . وكان عبدالله بن عمر رضى الله عنه إذا قدم مكة "شرفها الله تعالى" يبيت بذى طوى ثم يغتسل منه ويغدو إلى مكة ، ويَذْكر أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم تسليما فعل ذلك . ومنها ثَنِيَّة كُدَىّ (بضم الكاف) وهى بأعلى مكة ، ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع إلى مكة ، ومنها ثنية كَداء (بفتح الكاف) ، ويقال لها الثنية البيضاء وهى بأسفل مكة ، ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عام الوداع ، وهى بين جبلين ، وفى مَضِيقها كُوم حجارة موضوع على الطريق ، وكل من يمر به يرجمه بحجر . ويقال إنه قبر أبى لهب وزوجه حمالة الحطب . وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب إذا صدروا عن مِنى . وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة "شرفها الله" مسجد بإزائه حَجَر موضوع على الطريق . كأنه مِصْطبة ، يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فَدَثَر رسمه ، يقال إن النبى صلى الله عليه وسـلم تسليما قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عُمْرته ، فيتبرك الناس بتقبيله ، ويستندون إليه . ومنها التنعِيم وهو على فرسخ من مكة ، ومنه يعتمر أهل مكة ، وهو أدنى الحِلّ إلى الحرم . ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسـلم تسليما فى حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضى الله عنه ، وأمره أن يُعَمّرها من التنعيم . وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق ، تنسب كلها إلى عائشة رضى الله عنهـا . وطريق التنعيم طريق فسيح ، والناس يتحرون كنسه فى كل يوم ، رغبة فى الأجر والثواب ، لأن من المعتمرين من يمشى فيه حافيا . وفى هذا الطريق الآبار العذبة التى تسمى الشُّبَيْكة . ومنها الزاهر وهو على

نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم ، وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق . وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأواني الوضوء ، يملؤها خادم ذلك الموضع من آبار الزاهر ، وهي بعيدة القعر جدا . والخادم من الفقراء المجاورين ، وأهل الخير يعينونه على ذلك ، لما فيه من المَرْفَقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء . وذو طوى يتصل بالزاهر .

ذكر الجبال المُطيفة بمكة

فمنها جبل أبي قُبَيْس ، وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة ، حرسها الله ، وهو أحد الأَخْشَبَيْن ، وأدنى الجبال من مكة شرفها الله ، ويقابل ركن الحجر الأسود ، وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة . وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره . وهو مطل على الحرم الشريف وعلى جميع البلد ، ومنه يظهر حسن مكة ، شرفها الله ، وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة . وفي جبل أبي قُبَيْس موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر ، ومنها قُعَيْقِعان وهو أحد الأخشبَيْن[1] . ومنها الجبل الأحمر ، وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله ، ومنها الخَنْدَمة وهو جبل عند الشعبين المعروفين بأجيادٍ الأكبر وأجيادٍ الأصغر ، ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم ، يقال إنها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها ، على ما نص الله في كتابه العزيز ، وعليها أعلام من حجارة . ومنها جبل حِراء وهو في الشمال من مكة شرفها الله تعالى ، على

---

(١) الوارد بالقاموس أن الأخشبين هما أبو قبيس والاحمر .

نحو فرسخ منها ، وهو مشرف على منى ، ذاهب فى الهواء ، عالى القُنَّة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث ، وفيه أتاه الحق من ربه وبدأ الوحى ، وهو الذى اهتز تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اثبت فما عليك إلا نبى وصِدِّيق وشهيد . واختلف فيمن كان معه يومئذ ، وروى أن العشرة كانوا معه . وقد روى أن جبل ثَبِير اهتز تحته أيضا . ومنها جبل ثَوْر ، وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها الله تعالى ، على طريق اليمن ، وفيه الغار الذى أوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ، ومعه الصِّدِّيق رضى الله عنه ، على ما ورد فى الكتاب العزيز . فلما دخل رسول الله واطمأن به ، وصاحبه الصديق معه ، نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار ، وصنعت الحمامة عشا وفَرَّخت[1] فيه بإذن الله تعالى . فانتهى المشركون ومعهم قُصَّاص الأثر إلى الغار ، فقالوا : هاهنا انقطع الأثر ، ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار ، والحمام مُفَرِّخة . فقالوا : مادخل أحدهنا ، وانصرفوا . والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك ، فيرومون دخوله من الباب الذى دخل منه النبى صلى الله عليه وسلم تبركا بذلك .

حكاية

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابى : أحدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الإفريقى التَّوَّزِىّ ، والآخر أبو العباس أحمد الأندلسى الآشى ، أنهما قصدا (الغار) فى حين مجاورتهما بمكة (شرفها الله تعالى) فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلا عارفا بطريقه ، فتاها وضلا طريق الغار ، وسلكا طريقا سواها منقطعة ،

(١) صار لها فرخ .

وذلك فى أوان اشتداد الحر . فلما نَفِد ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا إلى الغار ، أخذا فى الرجوع إلى مكة (شرفها الله تعالى) فوجدا طريقا فاتبعاه ، وكان يفضى إلى جبل آخر ، واشتد بهما الحر وأجهدهما العطش ، وعاينا الهلاك ، وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحان عن المشى جملة ، وألقى بنفسه إلى الأرض ، ونجا الأندلسى بنفسه ، وكان فيه فضل قوة . ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق إلى أَجْياد ، فدخل إلى مكة (شرفها الله تعالى) وقصدنى وأعلمنى بهذه الحادثة ، وبما كان من أمر عبد الله التَّوَّزى وانقطاعه فى الجبل ، وكان ذلك فى آخر النهار . ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن ، وهو من سكان وادى نخلة ، وكان إذ ذاك بمكة . فأعلمته بما جرى على ابن عمه . وقصدت الشيخ الصالح الإمام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل، إمام المالكية (نفع الله به) ، فأعلمته بخبره ، فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب فى طلبه . وكان من أمر عبد الله التَّوَّزى : أنه لما فارقه رفيقه لجأ إلى حجر كبير فاستظل بظله ، وأقام على هذه الحالة من الجُهد والعطش ، والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته ؛ فلما انصرم النهار وأتى الليل، وجد فى نفسه قوة ، وأنعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ، ونزل من الجبل إلى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس، فلم يزل ماشيا إلى أن بدت له دابة فقصد قصدها، فوجد خَيْمة للعرب، فلما رآها وقع إلى الأرض ولم يستطع النهوض ، فرأته صاحبة الخيمة ، وكان زوجها قد ذهب إلى وِرْد الماء، فسقته ما كان عندها من الماء ، فلم يَرْوَ ، وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو ، وأركبه حمارا له وقدم به مكة ، فوصلها عند صلاة العصر من اليوم الثانى متغيرا كأنه قام من قبر .

ذكر أميرى مكة

وكانت إمارة مكة فى عهد دخولى إليها للشريفين الأجلين الاخوين : أسد الدين رُمَيْثة ، وسيف الدين عُطَيْفة ، ابنى الأمير أبى نُمَىّ بن أبى سعد ابن على بن قتادة الحسنيين . ورميثة أكبرهما سنا ، ولكنه كان يقدم اسم عطيفة فى الدعاء له بمكة لعدله . ودار عطيفة عن يمين المروة ، ودار أخيه رميثة برباط الشرابى عند باب بنى شيبة . وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم .

ذكر أهل مكة وفضائلهم

ولأهل مكة الأفعال الجميلة ، والمكارم التامة ، والأخلاق الحسنة ، والإيثار للضعفاء والمنقطعين ، وحسن الجوار للغرباء . ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ، ثم يطعمهم . وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم ، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله يتبعه المساكين ، فيعطى كل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين ، ولو كانت له خبزة واحدة ، فإنه يعطى ثلثها أو نصفها ، طَيِّب النفس بذلك من غير ضجر . ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ، ومع كل واحد منهم قُفَّتان : كبرى وصغرى ، وهم يسمون القفة مِكْتَلا ، فيأتى الرجل من أهل مكة إلى السوق ، فيشترى الحبوب واللحم والخضر ، ويعطى ذلك الصبى ، فيجعل الحبوب فى إحدى قفتيه ، واللحم والخضر فى الأخرى ، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته ، فلا يذكر أن أحدا من الصبيان خان الأمانة فى ذلك قط ، بل يؤدى ما حمل على أتم الوجوه . ولهم على ذلك

أجرة معلومة من فلوس . وأهل مكة لهم ظَرْف ونظافة فى الملابس . وأكثر لباسهم البياض ، فترى ثيابهم أبدا ناصعة ساطعة ، ويستعملون الطيب كثيرا ، و يكتحلون ، و يكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر . ونساء مكة فائقات الحسن ، بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف . وهن يكثرن التطيب ، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا . وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة ، فيأتين فى أحسن زىّ ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا . ولأهل مكة عادات حسنة فى الموسم وغيره .

ذكر عادة أهل مكة فى صلواتهم ومواضع أئمتهم

فمن عادتهم أن يصلى أول الأئمة إمام الشافعية وهو المقدم من قِبل أولى الأمر . وصلاته خلف المقام الكريم مقام إبراهيم الخليل (عليه السلام) ، فى حَطِيم له هنالك بديع . وجمهور الناس بمكة على مذهبه . والحطِيم خشبتان موصول ما بينهما بأذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على صِفتهما ، وقد عقدت على أرجل مجصصة ، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد ، يعلق منها قناديل زجاج . فإذا صلى الإمام الشافعى صلى بعده إمام المالكية فى محراب قُبالة الركن اليمانى ، و يصلى إمام الحنبلية معه فى وقت واحد ، مقابلا ما بين الحجر الأسود والركن اليمانى ، ثم يصلى إمام الحنفية قُبالة المِيزاب المكرم تحت حطيم له هنالك . ويوضع بين أيدى الأئمة فى محاريبهم الشمع ، وترتيبهم هكذا فى الصلوات الأربع . وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها فى وقت واحد ، كل إمام يصلى بطائفته . ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط ، فربما ركع المالكى بركوع الشافعى ، وسجد الحنفى بسجود الحنبلى ، وتراهم مصيخين كل واحد إلى صوت المؤذن الذى يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو .

ذكر عادتهم فى الخطبة وصلاة الجمعة

وعادتهم فى يوم الجمعة أن يلصق المِنبر المبارك إلى صَفْح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقى ، ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم . فإذا خرج الخطيب أقبل لابسا ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان أسود ، كل ذلك من كُسْوة الملك الناصر ، وعليه الوقار والسكينة ، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين ، و بين يديه أحد القَوَمة فى يده الفرقعة ، وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ، ينْفُضه فى الهواء فيسمع له صوت عال ، يسمعه من بداخل الحرم وخارجه ، فيكون إعلاما بخروج الخطيب . ولا يزال كذلك الى أن يقرب من المنبر ، فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده . ثم يقصد المنبر ، والمؤذن الزمزمى ، وهو رئيس المؤذنين ، بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ، ممسكا له بيده ، وتُركز الرايتان عن جانبى المنبر ، فإذا صعد أول درجة من درج المنبر قلده المؤذن السيف ، فيضرب بنصل السيف ضربة فى الدرجة يُسْمِع بها الحاضرين ، ثم يضرب فى الدرجة الثانية ضربة ثم فى الثالثة أخرى . فإذا استوى فى عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ، ووقف داعيا بدعاء خفى مستقبلا الكعبة ، ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ، ويرد عليه الناس ، ثم يقعد . ويؤذن المؤذنون فى أعلى قبة زمزم فى حين واحد ، فإذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ويقول فى أثنائها : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف ، (ويشير بإصبعه إلى البيت الكريم) ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما وقف

بعرفة واقف ، و يترضى عن الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة وعن عمّى النبى (صلى الله عليه وسلم) وسِبْطيه وأمهما وخديجة جدتهما (على جميعهم السلام) . ثم يدعو للملك الناصر ، ثم للسلطان المجاهد نور الدين على ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن على بن رسول . ثم يدعو للسيدين الشريفين الحسنيين أميرى مكة : سيف الدين عُطَيْفة ، وهو أصغر الأخوين و يقدم اسمه لعدله ، وأسد الدين رُمَيْثة ابنى أبى نُمَىّ بن أبى سعد بن على بن قتادة . وقد دعا لسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك . فإذا فرغ من خطبته صلى وانصرف ، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه ، إشعارا بانقضاء الصلاة . ثم يعاد المنبر إلى مكانه إزاء المقام الكريم .

ذكر عادتهم فى استهلال الشهور

وعادتهم فى ذلك أن يأتى أمير مكة فى أول يوم من الشهر وقواده يَحُفُّون به وهو لابس البياض ، معتم متقلد سيفا ، وعليه السكينة والوقار ، فيصلى عند المقام الكريم ركعتين ، ثم يقبل الحجر ، ويشرع فى طواف أسبوع ، ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم . فعند ما يكمل الأمير شوطا واحدا و يقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته . ثم يذكر شعرا فى مدحه ومدح سلفه الكريم ، ويفعل به هكذا فى السبعة الأشواط . فإذا فرغ منها ركع عند المُلْتَزَم ركعتين ، ثم ركع خلف المقام أيضا ركعتين ، ثم انصرف . ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفرا وإذا قدم من سفر أيضا .

ذكر عادتهم فى شهر رجب

وإذا هلّ هلال رجب ، أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات إشعارا بدخول الشهر ، ثم يخرج فى أول يوم منه راكبا ، ومعه أهل مكة فُرسانا ورجالا على ترتيب عجيب ، وكلهم بالأسلحة يلعبون بين يديه ، والفرسان يجولون ويجرون ، والرجّالة يتواثبون ويرمون بحرابهم إلى الهواء ويَتَلقّفُونها ، والأمير رُمَيْثة والأمير عُطَيْفة معهما أولادهما وقوادهما مثل محمد بن إبراهيم ، وعلى وأحمد ابنى صبيح ، وعلى بن يوسف ، وشداد بن عمر ، وغيرهم من كبار أولاد الحسن ، ووجوه القواد ، وبين أيديهم الرايات والطبول ، وعليهم السكينة والوقار ، ويسيرون حتى ينتهوا إلى الميقات . ثم يأخذون فى الرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام ، فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن الزمزمى بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط ، على ما ذكرناه من عادته . فإذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم ، وصلى عند المقام وتمسّح به ، وخرج إلى المَسْعَى فسعى راكبا ، والقواد يَحُفّون به ، ثم يسير إلى منزله . وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد ، ويلبسون فيه أحسن الثياب ، ويتنافسون فى ذلك .

ذكر عُمْرة رجب

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذى لا يعهد مثله . وهى متصلة ليلا ونهارا ، وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة ، وخصوصا أول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين ، فإنهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام : شاهدتهم فى ليلة السابع والعشرين منه ، وشوارع مكة قد غَصّت بالهوادج عليها أكْسِيَة الحرير والكتّان الرفيع ، كل أحد يفعل بقدر استطاعته ،

والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير ، وأستار الهوادج ضافية ، تكاد تمس الأرض ، فهى كالقباب المضروبة . ويخرجون إلى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج ، والنيران مشعلة بجنبتى الطريق ، والشمع والمشاعل أمام الهوادج . والجبال تجيب بصداها إهلال المهللين ، فترق النفوس ، وتنهمل الدموع . فإذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا إلى السعى بين الصفا والمروة ، بعد مضى شىء من الليل ، والمسعى متقد السُّرُج ، غاص بالناس . والساعيات فى هوادجهن . والمسجد الحرام يتلألأ نورا . وهم يسمون هذه العُمْرة بالعمرة الأَكَمية ، لأنهم يحرمون بها من أَكَمة أمام مسجد عائشة (رضى الله عنها) ، على مقربة من المسجد المنسوب إلى على (رضى الله عنه) . والأصل فى هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير (رضى الله عنهما) لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة ، خرج ماشيا حافيا مُعْتَمِرا ومعه أهل مكة ، وذلك فى اليوم السابع والعشرين من رجب ، وانتهى إلى الأكمة فأحرم منها ، وجعل طريقه على ثَنِيَّة الحَجُون إلى المَعْلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح ، فبقيت تلك العمرة سُنَّة عند أهل مكة إلى هذا العهد . وكان يوم عبد الله مذكورا أهدى فيه بُدْنًا كثيرة ، وأهدى أشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم ، وأقاموا أياما يَطْعَمُون ويُطْعِمُون ، شكرا لله تعالى على ما وهبهم من التيسير والمعونة فى بناء بيته الكريم على الصفة التى كان عليها فى أيام الخليل (صلوات الله عليه) . ثم لما قُتل ابن الزبير ، نقض الحَجّاج الكعبة وردها إلى بنائها فى عهد قريش ، وكانوا قد اقتصروا فى بنائها . وأبقاها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على ذلك لِحِدْثان عهدهم بالكفر . ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعيدها إلى بناء ابن الزبير ، فنهاه مالك (رحمه الله) عن ذلك ، وقال : ياأمير المؤمنين لا تجعل البيت مَلْعَبة

للملوك ، متى أراد أحدهم أن يغيره فعل . فتركه على حاله سَدًّا للذَّرِيعة . وأهل الجهات الموالية لمكة ، يبادرون لحضور عمرة رجب ، ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز ، فترخُص الأسعار بمكة ويَرْغَد عيش أهلها وتعمهم المرافق . ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة فى شَظَف[1] من العيش . ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم ووقع الموت فى مواشيهم ، ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم . فهم إذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها ، اجتمعت نساؤهم فأَخْرَجْنَهم . وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين . وبلاد السَّرْو[2] مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات ، وأهلها فصحاء الألسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد . وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها ، متعلقين بأستارها ، داعين بأدعية تتصدع لرقتها القلوب ، وتدمع العيون الجامدة ، فترى الناس حولهم باسطى أيديهم ، مؤمنين على أدعيتهم ، ولا يمكن غيرهم الطواف معهم ، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك . وهم شجعان أنجاد ، ولباسهم الجلود ، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مَقْدَمهم ، وتجنبوا اعتراضهم ، ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم . وذكر أن النبى (صلى الله عليه وسلم) ذكرهم وأثنى عليهم خيرا وقال : علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء . وكفاهم شرفا دخولهم فى عموم قوله (صلى الله عليه وسلم) : الإيمان يمانٍ والحكمة يمانيّة . وذكر أن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل فى جملتهم تبركا بدعائهم . وشأنهم عجيب كله . وقد جاء فى أثر : زاحموهم فى الطواف فإن الرحمة تنصب عليهم صبا .

---

(١) الشظف : الضيق والشدة . (٢) مَحَـلَّة حِمْيَر . قاموس .

ذكر عادتهم فى ليلة النصف من شعبان

وهذه الليلة من الليالى المعظمة عند أهل مكة ، يبادرون فيها إلى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفذاذا والاعتمار ، ويجتمعون فى المسجد الحرام جماعات . لكل جماعة إمام ، ويوقدون السُّرُج والمصابيح والمشاعل . ويقابل ذلك ضوء القمر ، فتتلألأ الأرض والسماء نورا . ويصلون مائة ركعة ، يقرءون فى كل ركعة بأم القرآن وسورة الإخلاص يكررونهما عشرا . وبعض الناس يصلون فى الحِجْر منفردين ، وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف ، وبعضهم قد خرجوا للاعتمار .

ذكر عادتهم فى شهر رمضان المعظم

وإذا هل هلال رمضان تضرب الطبول عند أمير مكة ، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام ، من تجديد الحُصُر وتكثير الشمع والمشاعل ، حتى يتلألأ الحرم نورا ، ويسطع بهجة وإشراقا . وتتفرق الأئمة فرقا : وهم الشافعية ، والحنفية ، والحنبلية ، والزَّيْدية . وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع . ولا تبقى فى الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلى بجماعته ، فيرتج المسجد لأصوات القراء ، وترق النفوس ، وتحضر القلوب ، وتَهْمُل الأعين . ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة فى الحِجر منفردا . والشافعية أكثر الأئمة اجتهادا . وعاداتهم أنهم إذا أكملوا التراويح المعتادة (وهى عشرون ركعة) يطوف إمامهم وجماعته ، فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقعة التى ذكرنا أنها تكون بين يدى الخطيب يوم الجمعة ، وكان ذلك إعلاما بالعودة إلى الصلاة ، ثم يصلى ركعتين ، ثم يطوف أسبوعا ، هكذا إلى أن يتم عشرين ركعة أخرى . ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون . وسائر الأئمة لا يزيدون عن العادة شيئا . وإذا كان وقت السحور

يتولى المؤذن الزمزمى التسحير فى الصومعة التى بالركن الشرقى من الحرم ، فيقوم داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور ، والمؤذنون فى سائر الصوامع ، فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه . وقد نصبت فى أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان . فإذا قرب الفجر ، حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالأذان ، وأجاب بعضهم بعضا .

ولديار مكة (شرفها الله) سطوح ، فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر ، حتى إذا لم يبصرهما أقلع عن الأكل . وفى كل ليلة وتر من ليالى العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن ، ويحضر الختم القاضى والفقهاء الكبراء ، ويكون الذى يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة . فإذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير ، وأوقد الشمع ، وخطب . فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله ، فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات . وكذلك يصنعون فى جميع ليالى الوتر . وأعظم تلك الليالى عندهم ليلة سبع وعشرين ، واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالى ، ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم . وتقام إزاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم ، وتعرض بينها ألواح طوال ، وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج ، فيكاد يُغْشِى الأبصار شعاع الأنوار . ويتقدم الإمام فيصلى فريضة العشاء الآخرة ، ثم يبتدئ بقراءة سورة القدر ، وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمة فى الليلة التى قبلها . وفى تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيما لختمة المقام ، ويحضرونها متبركين ، فيختم الإمام فى تسليمتين ، ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام ، فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم ، وانفض الجمع . ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين فى المقام المالكى فى منظر مختصر ، وعن المباهاة منزه موقر .

ذكر عادتهم فى شوّال

وعادتهم فى شوال (وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات) أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ، ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم فى ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وتوقد السرُج فى الصوامع من جميع جهاتها ، ويوقد سطح المسجد الذى بأعلى أبى قُبَيْس ، ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك فى تهليل وتكبير وتسبيح ، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء . فإذا صلوا صلاة الصبح أخذوا فى أهبة العيد ، ولبسوا أحسن ثيابهم ، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف ، به يصلون صلاة العيد ، لأنه لا موضع أفضل منه . ويكون أول من يبكر إلى المسجد الشَّيْبيون ، فيفتحون باب الكعبة المقدسة ، ويقعد كبيرهم فى عتبتها وسائرهم بين يديه ، إلى أن يأتى أمير مكة فيتلقونه . ويطوف بالبيت أسبوعا ، والمؤذن الزمزمى فوق سطح قبة زمزم على العادة ، رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر . ثم يأتى الخطيب بين الرايتين السوداوين ، والفرقعة أمامه وهو لابس السواد ، فيصلى خلف المقام الكريم ، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة . ثم إذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار . ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ، ثم يخرجون إلى مقبرة باب المَعْلى ، تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ، ثم ينصرفون .

ذكر إحرام الكعبة

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ذى القَعْدَة تشمر أستار الكعبة الشريفة (زادها الله تعظيما) إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع ، صونا لها من الأيدى أن تنتهبها . ويسمون ذلك إحرام الكعبة ، وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ، ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضى الوقفة بعرفة .

ذكر شعائر الحج وأعماله

وإذا كان أول يوم من شهر ذى الحجة تضرب الطبول فى أوقات الصلوات بكرة وعشية ، إشعارا بالموسم المبارك ، ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات . فإذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة ، يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم بيوم الوقفة . فإذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود إلى مِنى . وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى . وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق فى إيقاد الشمع ، ولكن الفضل فى ذلك لأهل الشام دائما . فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة ، فيمرون فى طريقهم بوادى مُحَسِّر ويهرولون ، (وذلك سنة) . ووادى محسر هو الحد ما بين مُزْدَلِفَة ومنى ؛ ومُزدَلِفَة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين ، وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبى جعفر المنصور ، زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد . وبين منى وعرفة خمسة أميال ، وكذلك بين منى ومكة أيضا خمسة أميال . ولعرفة ثلاثة أسماء وهى عرفة وجَمْع والمشعر الحرام . وعرفات بسيط من الأرض فسيح أَفْيَح تُحْدق به جبال كثيرة . وفى آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف ، وفيما حوله . والعَلَمان قبله بنحو ميل ، وهما الحد ما بين الحِلّ والحرم . وبمقربة منهما مما يلى عرفة عُرَنَة(١) . وجبل الرحمة الذى ذكرناه قائم فى وسط بسيط جَمْع ، منقطع عن بطن الجبال ، وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض . وفى أعلاه قبة تنسب إلى أم سَلَمة (رضى الله عنها) ، وفى وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه ، وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات ، وفى قبليّه جدار فيه محاريب منصوبة يصلى فيها الناس . وعن يسار العلمين للمستقبل أيضا وادى الأراك ،

(١) بطن بعرفات .

وبه أراك أخضر يمتد فى الأرض امتدادا طويلا . وإذا حان وقت النَّفْر أشار الإمام المالكى بيده ونزل عن موقفه ، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال . فياله موقفا كريما ومشهدا عظيما ترجو النفوس حسن عقباه ، وتطمح الآمال إلى نفحات رُحْماه . جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه .

وكانت وقفتى الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين ، وأمير الركب المصرى يومئذ أَرْغُون الدَّوادار نائب الملك الناصر . وحجت فى تلك السنة ابنة الملك الناصر ، وهى زوجة أبى بكر بن أرغون هذا . وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخُونْدَة ، وهى بنت السلطان المعظم محمد أُوزْبَك ملك السَّرَاوخُوَارَزم . وأمير الركب الشامىّ سيف الدين الجُوبان . ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة ، فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما ، على ما جرت سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى مِنًى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام . ومزدلفة كلها موقف إلا وادى مُحَسِّر، ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه . ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حَصَيَات الجمار ، وذلك مستحب . ومنهم من يَلْقُطها حول مسجد الخَيْف ، والأمر فى ذلك واسع . ولما انتهى الناس إلى منى بادروا لرمى جَمْرة العقبة ، ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شىء إلا النساء والطيب ، حتى يطوفوا طواف الإفاضة . ورَمْىُ هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر . ولما رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا إلى طواف الإفاضة ، ومنهم من أقام إلى اليوم الثانى . وفى اليوم الثانى رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات ، وبالوسطى كذلك ، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين ، اقتداء بفعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار إلى مكة (شرفها الله) ، بعد أن كمل لهم رمى تسع وأربعين حصاة . وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة .

ذكر كُسْوة الكعبة

وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى إلى البيت الكريم فوضعت فى سطحه . فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشَّيْبيون فى إسبالها على الكعبة الشريفة . وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكَتّان ، وفى أعلاها طِراز مكتوب فيه بالبياض (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما) الآية . وفى سائر جهاتها طُرُز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائح مشرق من سوادها . ولما كسيت شُمِّرت أذيالها صونا من أيدى الناس . والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة . ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقَوَمَة ، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة . وفى هذه الأيام تفتح الكعبة الشريفة فى كل يوم للعراقيين والخُراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقى . وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامى والمصرى أربعة أيام ، فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم . ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا ، فمن لقوه فى الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب . وربما وجدوا إنسانا نائما فجعلوا فى فيه الذهب والفضة حتى يفيق . ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا . وفى هذه السنة ذكر اسم السلطان أبى سعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم .

ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى

وفى الموفى عشرين لذى الحجة خرجت من مكة فى صحبة أمير ركب العراق البَهْلَوان (١) محمد الحُوَيْج ، وهو من أهل الموصل ، وكان يلى إمارة الحاج بعد

---

(١) البُهْلُول الضحاك والسيد الجامع لكل خير ، تعريب بَهْلَوان . و يظهر أن هذا لقبه أو لقب أسرته .

موت الشيخ شهاب الدين قَلَنْدَر . وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عند سلطانه ، يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية . وخرجت من مكة (شرفها الله تعالى) فى صحبة الأمير البهلوان بعد طواف الوداع إلى بطن مَرّ ، فى جمع من العراقيين والخُراسانيين والفارسيين والأعاجم لا يحصى عديدهم ، تموج بهم الأرض موجا ، ويسيرون سير السحاب المتراكم . فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس . وفى هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء ، وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض . وإذا نزل الركب طبخ الطعام فى قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت ، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه . وفى الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشى ، كل ذلك من صدقات السلطان أبى سعيد ومكارمه . قال ابن جُزَىّ : كرم الله هذه الكُنْية الشريفة ، فما أعجب أمرها فى الكرم ، وحسبك بمولانا بحر المكارم ، ورافع رايات الجود ، الذى هو آية فى الندى والفضل ، امير المؤمنين أبى سعيد ابن مولانا قامع الكفار ، والاخذ للاسلام بالثار ، أمير المسلمين أبى يوسف ، قدس الله أرواحهم الكريمة ، وأبقى الملك فى عقبهم الطاهر إلى يوم الدين .

(رجع) وفى هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الأطعمة والفواكه . وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل ، فترى الأرض تتلألأ أنوارا ، والليل قد عاد نهارا ساطعا . ثم رحلنا من بطن مَرّ إلى عُسْفان ثم إلى خُلَيْص . ثم رحلنا أربع مراحل ، ونزلنا وادى السمك ، ثم رحلنا خمسا ونزلنا فى بَدْر . وهذه المراحل ثنتان فى اليوم : إحداهما بعد الصبح والأخرى بالعشىّ . ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها يوما مستريحين ، ومنها إلى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث . ثم رحلنا فوصلنا إلى طَيْبَة مدينة رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) ، وحصلت لنا زيارة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثانيا ، وأقمنا بالمدينة (كرمها الله تعالى) ستة أيام ، واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث . ورحلنا عنها فنزلنا فى الثالثة بوادى العَرُوس ، فتزودنا منه الماء من(١) حِسْيَان يحفرون عليها فى الأرض فيَنْبُطون ماء عذبا مَعينا . ثم رحلنا من وادى العروس ودخلنا أرض نجد ، وهو بسيط من الأرض مد البصر ، فتنسمنا نسيمه الطيب الأرِج ؛ ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعُسَيلة ؛ ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنُّقْرَة ، فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ؛ ثم رحلنا إلى ماء يعرف بالقارورة ، وهى مصانع مملوءة بماء المطر ، مما صنعته زُبَيْدة ابنة جعفر (رحمها الله ونفعنا) . وهذا الموضع هو وسط أرض نجد ، فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقى التربة ، معتدل فى كل فصل . ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر ، وفيه مصانع للماء . ثم رحلنا ونزلنا سُمَيْرَة ، وهى أرض غائرة فى بسيط فيه شبه حصن مسكون ، وماؤها كثير فى آبار إلا أنه زُعاق . ويأتى عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب (الخام) ولا يبيعون بسوى ذلك . ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو فى بيداء من الأرض ، وفى أعلاه ثَقْب نافذ تخرقه(٢) الريح . ثم رحلنا منه إلى وادى الكُرُوش ولا ماء به . ثم أسرينا ليلا وصَبَّحنا حصن فَيْد ، وهو حصن كبير فى بسيط من الأرض يدور به سور وعليه رَبَض ، وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج فى البيع والتجارة . وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق إلى مكة (شرفها الله تعالى) ، فإذا عادوا وجدوه . وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد ، ومنه إلى الكوفة مسيرة اثنى عشر يوما فى طريق سهل به المياه فى المصانع . ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ، إرهابا للعرب المجتمعين هنالك ، وقطعا لأطماعهم عن الركب . وهنالك

---

(١) تقدم الكلام على هذا الجمع فى الحواشى . (٢) تمر فيه .

لقينا أميرى العرب : وهما فياض وحيار ، وهما ابنا الأمير مُهَنَّا بن عيسى ، ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة ، فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحيطة لهم . وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه . ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف بالأجْفَر ، ويشتهر باسم العاشقَيْن جميل وبثينة . ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء . ثم أسرينا ونزلنا زَرُود ، وهى بسيط من الأرض فيه رمال مُنْهالة ، وبه دور صغار قد أداروها شبه الحصن ، وهنالك آبار ماء ليست بالعذبة . ثم رحلنا ونزلنا الثَّعْلَبِيَّة ، ولها حصن خرِب بإزائه مصنع هائل ينزل إليه فى دَرَج ، وبه من ماء المطر مايعم الركب . ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم ، فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن . ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاث مراحل . ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم ، وهو مشهد على الطريق عليه كُوم عظيم من حجارة ، وكل من مر به رجمه ، ويذكر أن هذا المرجوم كان رافضيا فسافر مع الركب يريد الحج ، فوقعت بينه وبين أهل السُّنَّة من الأتراك مشاجرة ، فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة . وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب . ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك . وبه مصنع كبير يعم جميع الركب ، مما بنته زبيدة (رحمة الله عليها) . وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التى بين مكة وبغداد ، فهى من كريم آثارها (جزاها الله خيرا ووفى لها أجرها) . ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد . ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق ، فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافى ، وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما . ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالتنانير ، وفيه مصنع ممتلئ بالماء . ثم أسرينا منه واجتزنا ضحوة بِزُمالة [1] وهى قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة ، وهى من

---

(١) فى معجم البلدان (زُبالة) وينطبق عليها هذا الوصف .

مناهل هذا الطريق . ثم رحلنا فنزلنا الهَيْثَمَيْن ، وفيه مصنعان للماء . ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان ، وصعدنا العقبة في اليوم الثاني ، وليس بهذا الطريق وَعْر سواها ، على أنها ليست بصعبة ولا طائلة . ثم نزلنا موضعا يسمى وَاقِصة ، فيه قصر كبير ومصانع للماء ، معمور بالعرب . وهو آخر مناهل هذا الطريق . وليس فيما بعده إلى الكوفة مَنْهل مشهور ، إلا مشارع ماء الفرات ، وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ، ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ، ويُهَنِّئ الناس بعضهم بعضا بالسلامة . ثم نزلنا موضعا يعرف بِلُورة ، فيه مصنع كبير للماء . ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيه ثلاثة مصانع . ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون ، وهي منارة في بيداء من الأرض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ، ولا عمارة حولها . ثم نزلنا موضعا يعرف بالعُذَيْب ، وهو واد مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر . ثم نزلنا القادِسيّة حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفُرْس ، التي أظهر الله فيها دين الإسلام ، وأذل المجوس عبدة النار ، فلم تقم لهم بعدها قائمة ، واستأصل الله شأفتهم . وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وَقَّاص (رضي الله عنه) . وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد (رضي الله عنه) . وخَرِبت فلم يبق منها الآن إلا مقدار قرية كبيرة ، وفيها حدائق النخل ، وبها مشارِع من ماء الفرات . ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بالنَّجَف ، وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صُلْبة ، من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا وأتقنها بناء ، ولها أسواق حسنة نظيفة . دخلناها من باب الحضرة ، فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين ثم سوق العطارين ثم باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون أنه قبر علي (عليه السلام) . وبإزائه المدارس والزوايا والخوانق ، معمورة أحسن عمارة ، وحيطانها بالقاشاني .

ذكر الروضة والقبور التي بها

ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ، ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم . ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة ، وعلى بابها الحجاب والنقباء . فعند ما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم (وذلك على قدر الزائر) ، فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ، ويقولون : عن أمركم يا أمير المؤمنين ، هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية ، فإن أذنتم له وإلا رجع ، وإن لم يكن أهلا لذلك فأنتم أهل المكارم والستر . ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك العضادتان . ثم يدخل القبة ، وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه ، وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار . وفي وسط القبة مِصْطَبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل ، مسمرة بمسامير الفضة ، قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه أي شيء . وارتفاعها دون القامة ، وفوقها ثلاثة من القبور ، يزعمون أن أحدها قبر آدم (عليه الصلاة السلام) ، والثاني قبر نوح (عليه الصلاة والسلام) ، والثالث قبر عليّ (رضى الله تعالى عنه) . وبين القبور طُسُوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب ، يغمس الزائر يده في ذلك ويَدَّهِنُ به وجهه تبركا . وللقبة باب آخر عتبته أيضا من الفضة ، وعليه ستور من الحرير الملون ، يفضى إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان ، مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير ، وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير . وأهل هذه المدينة كلهم رافضية .

طبعت بمصلحة المساحة المصرية

ذكر نقيب الأشراف

ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق ، ومكانه عنده مكين ، ومنزلته رفيعة . وله الأعلام والأطبال ، وتضرب (الطبلخانة) عند بابه مساء وصباحا ، وإليه حكم هذه المدينة ولا والى بها سواه . وكان النقيب فى عهد دخولى إليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى (نسبة إلى بلده آوة من عراق العجم أهلها رافضة) . وكان قبله جماعة يلى كل واحد منهم بعد صاحبه ، منهم جلال الدين بن الفقيه ، ومنهم قوام الدين بن طاوس ، ومنهم ناصر الدين مُطَهَّر ابن الشريف الصالح شمس الدين محمد الأوهرى ، من عراق العجم ، وهو الآن بأرض الهند ، من ندماء ملكها .

ولما تمت لنا زيارة أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، سافر الركب إلى بغداد ، وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خَفَاجة . وهم أهل تلك البلاد ، ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ، ولا سبيل للسفر فى تلك الأقطار إلا فى صحبتهم . فاكتريت جملا على يد أمير تلك القافلة شَامِر بن درّاج الخفاجى . وخرجنا من مشهد علىّ عليه السلام ، فنزلنا الخَوَرْنَق ، موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بنى ماء السماء . وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة ، فى فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات . ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الواثق ، وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه إلا صومعته . ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفُرات بالموضع المعروف بالعِذار ، وهو غابة قصب فى وسط الماء ، يسكنها أعراب يعرفون بالمَعَادى ، وهم قطاع الطريق رافضية المذهب ، خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتى النعال . وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون بها ممن يريدهم . والسباع بها كثيرة . ثم وصلنا مدينة واسِط .

والبصرة ثلاث محلات[١] : إحداها محلة هُذَيْل ، وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير ، من الكرماء الفضلاء ، أضافني وبعث إلى بثياب ودراهم . والمحلة الثانية محلة بني حَرام ، كبيرها السيد الشريف مجدالدين موسى الحسني ، ذو مكارم وفواضل . أضافني وبعث إلى التمر والدراهم . والمحلة الثالثة محلة العجم ، كبيرها جمال الدين بن اللُّوكى . وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه ، فلا يستوحش فيها بينهم غريب . وهم يصلون الجمعة فى مسجد أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه الذى ذكرته ، ثم يسدّ فلا يأتونه إلا فى الجمعة . وهذا المسجد من أحسن المساجد ، وصحنه متناهى الانفساح ، مفروش بالحصباء الحمراء التى يؤتى بها من وادى السباع . وفيه المصحف الكريم الذى كان عثمان رضى الله عنه يقرأ فيه لما قتل ، وأثر تغيير الدم فى الورقة التى فيها قوله تعالى : (فسيكفيهم الله وهو السميع العليم) .

حكاية اعتبار

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة ، فلما قام الخطيب به إلى الخطبة وسردها لحن فيها لحنا كثيرا جليا ، فعجبت من أمره ، وذكرت ذلك للقاضى حجة الدين ، فقال لى : إن هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئا من علم النحو . وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، فسبحان مغير الأشياء ومقلب الأمور ! هذه البصرة التى إلى أهلها انتهت رياسة النحو ، وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلها إمامه الذى لاينكر سبقه ، لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دُءُوبه عليها !

ولهذا المسجد سبع صوامع : إحداها الصومعة[٢] التى تتحرك بزعمهم عند ذكر علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، صعدت إليها من أعلى سطح المسجد ومعى بعض أهل البصرة ، فوجدت فى ركن من أركانها مَقْبِض خشب

(١) المحلة منزل القوم . مختار .

(٢) المئذنة .

مسمّرا فيها ، كأنه مقبض مِمْلَسة(١) البناء . فجعل الرجل الذى كان معى يده فى ذلك المَقْبِض وقال : بحق رأس أمير المؤمنين على (رضى الله عنه) تحركى ! وهز المقبض فتحركت الصومعة ، فجعلت أنا يدى فى المَقْبِض وقلت له : وأنا أقول : بحق رأس أبى بكر خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تحركى ، وهززت المقبض ، فتحركت الصومعة ، فعجبوا من ذلك . وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة ، ولا يخاف من يفعل مثل فعلى عندهم . ولو جرى مثل هذا بمشهد علىّ أو مشهد الحسين ، أو بالحِلَّة ، أو بالبحرين ، أو قُمّ ، أو قاشان ، أو ساوة ، أو آوة أو طُوس . لهلك فاعله ؛ لأنهم رافضة غالية(٢) . قال ابن جُزَىّ : قد عاينت بمدينة بَرْشَانة من وادى المنصورة من بلاد الأندلس (حاطها الله) صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم .

ذكر المشاهد المباركة بالبصرة

فمنها مشهد طَلْحة بن عُبَيْد الله أحد العشرة (رضى الله عنهم) ، وهو بداخل المدينة ، وعليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، وأهل البصرة يعظمونه تعظيما شديدا . ومنها مشهد الزبير بن العوام حَوارِىّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وابن عمته (رضى الله عنه) ، وهو بخارج البصرة ولا قبة عليه . وله مسجد وزاوية فيها الطعام لأبناء السبيل . ومنها قبر حليمة السعدية ، أم رسول الله عليه وسلم من الرضاعة (رضى الله عنها) . وإلى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . ومنها قبر أبى بَكْرَة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم) وعليه قبة . وعلى ستة أميال منها بقرب وادى السباع

---

(١) فى الأساس : وملّس أرضه بالملاسة والمِمْلَسة ، وهى الخشبة التى يُملّس بها .

(٢) غالية : مبالغون .

قبر أَنَس بن مالك خادم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ولا سبيل لزيارته إلا فى جمع كثيف، لكثرة السباع وعدم العمران. ومنها قبر الحسن بن أبى الحسن البصرى سيد التابعين (رضى الله عنه). ومنها قبر محمد بن سِيرِين (رضى الله عنه). ومنها قبر محمد بن واسع (رضى الله عنه). ومنها قبر عُتْبَة الغلام (رضى الله عنه). ومنها قبر مالك بن دينار (رضى الله عنه). ومنها قبر حبيب العجمى (رضى الله عنه). ومنها قبر سهل بن عبد الله التُّسْتَرِى (رضى الله عنه). وعلى كل قبر منها قبة مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته. وذلك كله داخل السور القديم. وهى اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال. وبها سوى ذلك قبور الجم الغفير من الصحابة والتابعين المستَشْهَدين يوم الجَمَل. وكان أمير البصرة حين ورودى عليها يسمى بركن الدين العجمى التَّوْرِيزى، أضافنى فأحسن إلىّ.

والبصرة على ساحل الفرات ودِجْلة، وبها المد والجزر كمثل ما هو بوادى سَلَا من بلاد المغرب وسواه. والخليج المِلْح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها، فإذا كان المد غلب الماء المالح على العذب، وإذا كان الجزر غلب الماء الحلو على الملح، فيستسق أهل البصرة الماء لدورهم، ولذلك يقال: إن ماءهم زُعاق؛ قال ابن جزى: وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد، وألوان أهلها مصفرة كاسفة، حتى ضرب بهم المثل. وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدى الصاحب(١) أُتْرُجَّة:

لله أترج غـــدا بيننـا ... معبرا عن حال ذى عبْرَة
لمـا كسا الله ثيـاب الضنا ... أهل الهوى وساكنى البصرة

(رجع) ثم ركبت من ساحل البصرة فى (صنبوق) وهو القارب الصغير، إلى الأُبُلَّة، وبينها وبين البصرة عشرة أميال، فى بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار، والباعة فى ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن

(١) الصاحب بن عبّاد.

والفواكه . وفيما بين البصرة والأبلة متعبَّد سهل بن عبد الله التُّسْتَرِى ، فإذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون المـاء مما يحاذيه من الوادى ، ويدعون عند ذلك تبركا بهـذا الولى (رضى الله عنه). وكانت الأبلة مدينـة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس ، فخربت ، وهى الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها . ثم ركبنا فى الخليج الخارج من بحر فارس فى مركب صغير لرجل من أهل الأبلة يسمى بمُغَامِس ، وذلك فيما بعد المغرب فصبَّحنا عَبَّادان ، وهى قرية كبيرة فى سَبْخَة (١) لا عمارة بها . وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورِباطات للصالحين ، وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال . قال ابن جُزَىّ : عبّادان كانت بلدا فيما تقدم ، وهى مجدبة لا زرع بها ، وإنما يجلب إليها . والمـاء أيضا بها قليل . وقد قال فيها بعض الشعراء :

من مبلغ أندلسا أننى ... حللت عبادان أقصى الثرى
أَوْحَشُ ما أبصرت لكننى ... قصدت فيها ذكرها فى الورى
الخـبز فيهـا يتهـادَوْنه ... وشربة المـاء بهـا تشترى

(رجـع) وعلى سـاحل البحر منهـا رابطة تعرف بالنسـبة إلى الخَضِر وإلياس (عليهما السلام). وبإزائها زاوية يسكنهـا أربعة من الفقراء بأولادهم يخدُمون الرابطـة والزاوية ، وكل من يمر بهم يتصـدق عليهم . وذكر لى أهل هذه الزاوية أن بعبَّادان عابداً كبير القدر ولا أنيس له ، يأتى هذا البحر مرة فى الشهر فيصطاد فيه ما يقوته شهرا ، ثم لا يرى إلا بعد تمام شهر ، وهو على ذلك منذ أعوام . فلما وصلنا عبادان لم يكن لى شأن إلا طلبه ، فاشتغل من كان معى بالصلاة فى المساجد والمتعبدات ، وانطلقت

---

(١) السَّبَخة بفتح الباء وسكونها أرض ذات نَزّ وملح .

طالبا له ، فجئت مسجدا خربا ، فوجدته يصلى فيه ، فجلست فى جانبه ، فأوجز فى صلاته . ولما سلم أخذ بيدى وقال لى : بلغك الله مرادك فى الدنيا والآخرة . فقد بلغت بحمد الله مرادى فى الدنيا وهو السياحة فى الأرض ، و بلغت من ذلك مالم يبلغه غيرى (فيما أعلمه) . و بقيت الأخرى ، والرجاء قوىّ فى رحمة الله وتجاوزه ، وبلوغ المراد من دخول الجنة . ولما أتيت أصحابى أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه ، فذهبوا إليه فلم يجدوه ولاوقعوا له على خبر ، فعجبوا من شأنه . وعدنا بالعشىّ إلى الزاوية فبتنا بها . ودخل علينا أحد الفقراء الأر بعة بعد صلاة العشاء الآخرة ، ومن عادة ذلك الفقير أن يأتى عبّادان كل ليلة فيُسْرِج السروج بمساجدها ، ثم يعود إلى زاويته ، فلما وصل إلى عبادان وجد الرجل العابد ، فأعطاه سمكة طرية ، وقال له : أوصل هذه إلى الضيف الذى قَدِم اليوم . فقال لنا الفقير عند دخوله علينا : من رأى منكم الشيخ اليوم ؟ فقلت له : أنا رأيته . فقال يقول لك : هذه ضيافتك . فشكرت الله على ذلك . وطبخ لنا الفقير تلك السمكة ، فأكلنا منها كلنا أجمعون . وما أكلت قط سمكا أطيب منها . وهجس فى خاطرى الإقامة بقية العمر فى خدمة ذلك الشيخ ، ثم صرفتنى النفس اللَّجوج عن ذلك .

ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجُول . ومن عادتى فى سفرى ألا أعود على طريق سلكتها ما أمكننى ذلك ، وكنت أحب قصد بغداد العراق ، فأشار علىّ بعض أهل البصرة بالسفر إلى أرض اللُّور ، ثم إلى عراق العجم ، ثم إلى عراق العرب ، فعملت بمقتضى إشارته . ووصلنا بعد أر بعة أيام إلى بلدة ماجُول ، وهى صغيرة على ساحل هذا الخليج الذى ذكرنا أنه يخرج من بحر فارس ، وأرضها سَبْخة لا شجر فيها ولا نبات ، ولها سوق عظيمة من

أكبر الأسواق . وأقمت بها يوما واحدا ، ثم اكتريت دابة لركوبي من الذين يجلبون الحبوب من رامز إلى ماجول ، وسرنا ثلاثا في صحراء يسكنها الأكراد في بيوت الشعر ، ويقال : إن أصلهم من العرب . ثم وصلنا إلى مدينة رامز ، وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ، ونزلنا بها عند القاضي حسام الدين محمود ، ولقيت عنده رجلا من أهل العلم والدين والورع ، هندي الأصل يدعى بهاء الدين ويسمى إسماعيل ، وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبي زكريا المُلْتاني ، وقرأ على مشايخ تَوْريز وغيرها . وأقمت بمدينة رامز ليلة واحدة . ثم رحلنا منها ثلاثا في بسيط فيه قرى يسكنها الأكراد ، وفي كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء . وحلواؤهم من رُبّ العنب مخلوطا بالدقيق والسمن . وفي كل زاوية الشيخ والإمام والمؤذنون والخادم للفقراء والعبيد ، والخدم يطبخون الطعام . ثم وصلت الى مدينة تُسْتَر وهي آخر البسيط من بلاد أتابك ، وأول الجبال .

وصف مدينة تُسْتَر

مدينة كبيرة رائقة نَضْرة ، وبها البساتين الشريفة ، والرياض المنيفة ، ولها المحاسن البارعة ، والأسواق الجامعة . وهي قديمة البناء ، افتتحها خالد بن الوليد . وإلى هذه المدينة ينسب إلى سهل بن عبد الله . ويحيط بها النهر المعروف بالأزرق ، وهو عجيب ، في نهاية من الصفاء ، شديد البرودة في أيام الحر ، ولم أر كزرقته إلا نهر بَلَخْشان . ولها باب واحد للمسافرين . ولها أبواب غيره شارعة إلى النهر . وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب . والنهر عميق وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحِلّة .

والفواكه بتستر كثيرة ، والخيرات متيسرة غزيرة ، ولا مثل لأسواقها في الحسن . وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الأقطار للزيارة ، ولها زاوية بها جماعة من الفقراء ، وهم يزعمون أنها تربة زين العابدين علىّ ابن الحسين بن علىّ بن أبى طالب . وكان نزولى من مدينة تستر فى مدرسة الشيخ الإمام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ، ابن الشيخ الصالح الإمام العالم صدر الدين سليمان ، وهو من ذرية سهل بن عبد الله . وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل ، جامع بين العلم والدين والصلاح والإيثار . وله مدرسة وزاوية ، وخدامها فِتْيان له أربعة : سنبل، وكافور ، وجوهر ، وسرور . أحدهم موكل بأوقاف الزاوية ، والثانى متصرف فيما يُحتاج إليه من النفقات فى كل يوم ، والثالث خادم السماط بين أيدى الواردين ومرتب الطعام لهم ، والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين . فأقمت عنده ستة عشر يوما . فلم أر أعجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه : يقدم بين يدى الرجل مايكفى الأربعة من طعام الأرز المفلفل المطبوخ فى السمن ، والدجاج المقلى والخبز واللحم والحلواء . وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة ، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع . ولما شاهدت مجالسه فى الوعظ صَغُر لدىّ كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ، ولم ألق فيمن لقيتهم مثله . حضرت يوما عنده ببستان له على شاطئ النهر ، وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبراؤها ، وأتى الفقراء من كل ناحية ، فأطعم الجميع . ثم صلى بهم صلاة الظهر ، وقام خطيبا وواعظا بعد أن قرأ القراء أمامه بالتلاحين المبكية ، والنغمات المحركة المهيِّجة . وخطب خطبة بسكينة ووقار ، وتصرف فى فنون العلم من تفسير كتاب الله ، وإيراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه . ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية . ومن عادة الأعاجم أن يكتبوا المسائل فى رقاع ويرموها إلى الواعظ فيجيب عنها . فلما رُمى إليه

بتلك الرقاع جمعها فى يده وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبدع جواب وأحسنه . وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا . وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة ، وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد ، وجز نواصيهم ، وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قدموا من البصرة لذلك ، وعشرة رجال من عوام تستر .

ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثا فى جبال شامخة ، وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك . ووصلنا إلى مدينة إيذَج ، وهى حضرة السلطان أتابك . وعند وصولى إليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكُرْمانى ، وله النظر فى جميع الزوايا ، وهم يسمونها المدرسة ، والسلطان يعظمه ويقصد زيارته ، وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدوا وعشيا . فأكرمنى وأضافنى وأنزلنى بزاوية تعرف باسم الدِّينَوَرى ، وأقمت بها أياما . وكان وصولى فى أيام القيظ ، وكنا نصلى صلاة الليل ثم ننام بأعلى سطحها ، ثم ننزل إلى الزاوية ضحوة . وكان فى صحبتى اثنا عشر فقيرا منهم إمام وقارئان مجيدان وخادم ، ونحن على أحسن ترتيب .

ذكر ملك إيذَج وتُسْتَر

وملك إيذج فى عهد دخولى إليها السلطان أتابك أَفْرَاسْيَاب ، ابن السلطان أتابك أحمد ، وأتابك عندهم : سمة لكل من يلى هذه البلاد من ملك . وتسمى هذه البلاد بلاد اللُّور . وولى هذا السلطان بعد أخيه أتابك يوسف ، وولى يوسف بعد أبيه أتابك أحمد . وكان أحمد ملكا صالحا ، سمعت من الثقات ببلاده أنه عمر أربعمائة وستين زاوية ببلاده ، منها بحضرة إيذج أربع وأربعون . وقسم خراج بلاده أثلاثا : فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس ، والثلث منه لمرتب العساكر ، والثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه .

ويبعث منه هدية لملك العراق فى كل سنة ، وربما وفد عليه بنفسه . وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده أن أكثرها فى جبال شامخة ، وقد نحتت الطرق فى الصخور والحجارة وسويت ووسعت ، بحيث تصعدها الدواب بأحمالها . وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر فى عرض عشرة ، وهى شاهقة متصل بعضها ببعض ، تشقها الأنهار ، وشجرها البلوط ، وهم يصنعون من دقيقه الخبز . وفى كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة ، فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها أتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته ، سواء طلب ذلك أو لم يطلبه ، فإن عادتهم أن يأتى خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ، ويعطى كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحما وحلواء . وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها . وكان السلطان أتابك أحمد زاهدا صالحا كما ذكرناه ، يلبس تحت ثيابه مما يلى جسده ثوب شعر .

حكاية

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبى سعيد ، فقال له بعض خواصه : إن أتابك يدخل عليك وعليه الدرع (وظن ثوب الشعر الذى تحت ثيابه درعا) ، فأمرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته . فدخل عليه يوما فقام إليه الأمير الجُوبان عظيم أمراء العراق ، والأمير سُوَيْتَه أمير ديار بكر ، والشيخ حسن الذى هو الآن سلطان العراق ، وأمسكوا بثيابه كأنهم يمازحونه ويضاحكونه ، فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ، ورآه السلطان أبو سعيد ، وقام إليه وعانقه وأجلسه إلى جانبه ، وقال له : سن آطا . ومعناه بالتركية أنت أبى ، وعوضه عن هديته بأضعافها ، وكتب له ألا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده . وفى تلك السنة توفى ، وولى ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام ، ثم ولى أخوه أفراسياب . ولما دخلت مدينة إيذج أردت رؤية السلطان أفراسياب المذكور ، فلم يتأت لى ذلك

بسبب أنه لا يخرج إلا يوم الجمعة لإدمانه على الخمر . وكان له ابن هو ولىّ عهده وليس له سواه ، فمرض فى تلك الأيام . ولما كان فى إحدى الليالى أتانى أحد خدامه وسألنى عن حالى فعرفته ، وذهب عنى ، ثم جاء بعد صلاة المغرب ومعه طَيْفوران[١] كبيران : أحدهما بالطعام ، والآخر بالفاكهة ، وخريطة فيها دراهم ، ومعه أهل السماع بآلاتهم ، فقال : اعملوا السماع حتى يُرهج[٢] الفقراء ويدعوا لابن السلطان ، فقلت له : إن أصحابى لا يدرون بالسماع ولا بالرقص . ودعونا للسلطان ولولده ، وقسمت الدراهم على الفقراء . ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنُّواح وقد مات المريض . ولما كان من الغد دخل علىّ شيخ الزاوية وأهل البلد وقالوا : إن كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والأشراف والأمراء قد ذهبوا إلى دار السلطان للعزاء ، فينبغى لك أن تذهب فى جملتهم ، فأبيت ذلك ، فعزموا علىّ فلم يكن لى بد من المسير ، فسرت معهم ، فوجدت مشور[٣] دار السلطان ممتلئا رجالا وصبيانا من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والأجناد ، وقد لبسوا التلاليس[٤] وجلال الدواب ، وجعلوا فوق رءوسهم التراب والتبن ، وبعضهم قد جزّ ناصيته . وانقسموا فرقتين : فرقة بأعلى (المشور) وفرقة بأسفله ، وتزحف كل فرقة إلى جهة الأخرى ، وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلون : خوندكارما ؟ ومعناه مولاى أنا : (مولانا) ، فرأيت من ذلك أمرا هائلا ومنظرا فظيعا لم أعهد مثله .

---

(١) الطيفور : وعاء للطعام يظهر أنه على شكل طائر ، لأن الطيفور لغة طوير .

(٢) من معانى الارهاج الصخب ، والمراد هنا التواجد والرقص .

(٣) المشور كلمة أعجمية يراد بها مجلس السلطان للاستقبال . وقد ضبطها بعض المستشرقين هكذا : مشْوَر .

(٤) التلاليس : لعله جمع تِلِّيسة ، هنة تسوى من الخوص ، وتطلق على الجوالق والزكائب فى الصعيد .

حكاية

ومن غريب ما اتفق لى يومئذ أنى دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا إلى حيطان (المشور)، وهو غاصّ بهم من جميع جهاته. وهم بين باك ومتباك ومطرق، وقد لبسوا فوق ثيابهم ثيابا من غليظ القطن غير محكمة الخياطة، بطائنها إلى أعلى ووجوهها مما يلى أجسادهم، وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خرقة أو مئزر أسود. وهكذا يكون فعلهم إلى تمام أربعين يوما، وهى نهاية الحزن عندهم. وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة. فلما رأيت جهات (المشور) غاصة بالناس نظرت يمينا وشمالا أرتاد موضعا لجلوسى، فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الأرض بمقدار شبر، وفى إحدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد، عليه ثوب صوف شبه اللِّبْد، يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفى الأسفار. فتقدمت إلى حيث الرجل، وانقطع عنى أصحابى لما رأوا إقدامى نحوه، وعجبوا منى وأنا لا علم عندى بشىء من حاله. فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل، فرد السلام وارتفع عن الأرض كأنه يريد القيام. وقعدت فى الركن المقابل له. ثم نظرت إلى الناس وقد رمونى بأبصارهم جميعا، فعجبت منهم، ورأيت الفقهاء والمشايخ والأشراف مستندين إلى الحائط تحت السقيفة. وأشار إلىّ أحد القضاة أن أنحطّ إلى جانبه فلم أفعل. وحينئذ استشعرت أنه السلطان. فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نورالدين الكِرْمانى الذى ذكرناه قبل، فصعد إلى السقيفة وسلم على الرجل، فقام إليه وجلس فيما بينى وبينه، فحينئذ علمت أن الرجل هو السلطان. ثم جىء بالجنازة وهى بين أشجار الأُتْرُجّ والليمون والنارَنْج، وقد ملئوا أغصانها بثمارها، والأشجار بأيدى الرجال، فكأن الجنازة تمشى فى بستان، والمشاعل فى رماح طوال بين يديها، والشمع كذلك، فصلى عليها، وذهبت الناس معها إلى مدفن الملوك، على أربعة أميال من المدينة. وهنالك مدرسة عظيمة يشقها

النهر ، وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة ، وبخارجها حمام ، ويَحُفّ بها بستان عظيم ، وبها الطعام للوارد والصادر . ولم أستطع أن أذهب معهم إلى مدفن الجنازة لبعد الموضع ، فعدت إلى المدرسة . فلما كان بعد أيام بعث إلىّ السلطان رسوله الذى أتانى بالضيافة أولا ، يدعونى إليه ، فذهبت معه إلى باب يعرف بباب السر ، وصعدنا فى درج كثيرة ، إلى أن انتهينا إلى موضع لا فرش به ، لأجل ماهم فيه من الحزن ، والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آنيتان قد غطيتا : إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة . وكانت بالمجلس سجّادة خضراء ، ففرشت لى بالقرب منه وقعدت عليها ، وليس بالمجلس إلا حاجبه الفقيه محمود ، ونديم له لا أعرف اسمه . فسألنى عن حالى وبلادى ، وسألنى عن الملك الناصر وبلاد الحجاز ، فأجبته عن ذلك . ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد ، فقال لى السلطان : هذا مولانا فُضَيْل ، والفقيه ببلاد الأعاجم كلها إنما يخاطب بمولانا ، وبذلك يدعوه السلطان وسواه . ثم أخذ فى الثناء على الفقيه المذكور ، وظهر لى أن السكر غالب عليه ، وكنت قد عرفت إدمانه على الخمر . ثم قال لى باللسان العربى (وكان يحسنه) تكلم ! فقلت له : إن كنت تسمع منى أقل لك : أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالصلاح والزهد ، وليس فيك ما يقدح فى سلطنتك غير هذا (وأشرت الى الآنيتين) ، فخجل من كلامى وسكت . وأردت الانصراف فأمرنى بالجلوس وقال لى : الاجتماع مع أمثالك رحمة . ثم رأيته يتمايل ويريد النوم فانصرفت . وكنت تركت نعلى بالباب فلم أجدها ، فنزل الفقيه محمود فى طلبها ، وصعد الفقيه فُضَيْل يطلبها فى داخل المجلس ، فوجدها فى طاق هنالك ، فأتى إلىّ بها فأخجلنى برّه ، واعتذرت إليه ، فقبّل نعلى حينئذ ووضعها على رأسه ، وقال لى : بارك الله فيك ، هذا الذى قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له غيرك ، والله إنى لأرجو أن يؤثر ذلك فيه .

ثم كان رحيلي من حضرة إيذَج بعد أيام ، فنزلت بمدرسة السلاطين التي بها قبورهم وأقمت بها أياما ، وبعث إلىّ السلطان بجملة دنانير وبعث بمثلها لأصحابي . وسافرنا في بلاد هذا السلطان عشرة أيام في جبال شامخة ، وفي كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام ، فمنها ما هو في العمارة ، ومنها ما لا عمارة حوله ، ولكن يجلب إليها جميع ما تحتاج إليه . وفي اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كُرِيُو الرُّخ (وهي آخر بلاد هذا الملك) . وسافرنا منها في بسيط من الأرض كثير المياه من عمالة (١) مدينة أصفهان . ثم وصلنا إلى بلدة أُشْتُرْكَان ، وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ، ولها مسجد بديع يشقه النهر . ثم رحلنا منها إلى مدينة فَـيْرُوزان ، واسمها كأنه تثنية فيروز ، وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين ، وصلناها بعد صلاة العصر ، فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة ، وقد أوقدوا خلفها وأمامها المشاعل ، وأتبعوها بالمزامير والمغنين بأنواع الأغاني المطربة ، فعجبنا من شأنهم . وبتنا بها ليلة . ومررنا بالغد بقرية يقال لها نُبْلَان وهي كبيرة على نهر عظيم ، وإلى جانبه مسجد في النهاية من الحسن ، يصعد إليه في درج وتَحُفُّ به البساتين .

وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان الكثيرة أبراج الحمام ، ووصلنا بعد العصر الى مدينة أَصْفَهان من عراق العجم . ومدينة أصفهان من كبار المدن وحسانها إلا أنها الآن قد خَرِبَ أكثرها بسبب الفتنة التي بها بين أهل السنة والروافض ، وهي متصلة بينهم حتى الآن ، فلا يزالون في قتال . وبها الفواكه الكثيرة ومنها المِشْمِش الذي لا نظير له ، يسمونه بقمر الدين ، وهم ييبسونه ويدخرونه ، ونواه ينكسر عن لوز حلو .

(١) العمالة مثلثة العين أجر العامل . ولكن المراد هنا نحو الإقليم ، وهو بعيد من المعنى اللغوي .

ومنها السَّفَرْجَل الذى لا مثـل له فى طيب المطعم وعظم الجِرْم ، والأعناب الطيبة ، والبطيخ العجيب الشأن الذى ليس فى الدنيا مثله ، إلا ما كان من بطيخ بُخَارَى وخُوَارَزم ، وقشره أخضر وداخله أحمر ، وله حلاوة شديدة ، ومن لم يكن أَلِفَ أكله فإنه فى أول أمره يُسْهِله ، وكذلك اتفق لى لما أكلته بأصفهان .

وأهل أصفهان حسان الصور ، وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة ، والغالب عليهـم الشجاعة والنَّجْدة ، وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهـم من الأطعمة ، تؤثَر عنهم فيه أخبار غريبة ، وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له : اذهب معى لنأكل نانا وماسا ، (والنان بلسانهم : الخبز ، والماس : اللبن) . فإذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مُباهيا له بذلك . وأهـل كل صـناعة يقدمون على أنفسهم كبيرا منهم ، وكذلك كبار المدينة من غير أهـل الصـناعات . ولقد ذكر لى أن طائفة منهـم أضافت أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ، ثم أضافتها الأخرى فطبخوا طعامهم بالحرير . وكان نزولى بأصـفَهان فى زاوية تنسب للشيخ على بن سهل تلميـذ الجُنَيْد ، وهى معظمة يقصـدها أهل تلك الآفاق ويتبركون بزيارتها ، وفيها الطعام للوارد والصادر . وبها حمام عجيب مفروش بالرُّخام وحيطانه بالقاشانى ، وهو موقوف فى السبيل ، لا يلزم أحدا فى دخوله شىء . وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين ابن الشيخ الصالح ولى الله شمس الدين محمد بن محمود بن على المعروف بالرجاء . وأخوه العالم المفتى شهاب الدين أحمد . أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوما ، فرأيت من اجتهاده فى العبادة وحبه فى الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب ، وبالغ فى إكرامى وأحسن ضيافتى وكسانى كسوة حسنة . وساعة وصولى الزاوية بعث إلىّ بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذى وصفناه آنفا ، ولم أكن رأيته قبل ولا أكلته .

كرامة لهذا الشيخ

دخل علىّ يوماً بموضع نزولى من الزاوية ، وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ ، وكانت ثيابه قد غسلت فى ذلك اليوم ونشرت فى البستان . ورأيت فى جملتها جبة بيضاء مبطّنة فأعجبتنى وقلت فى نفسى : مثل هذه كنت أريد . فلما دخل على الشيخ نظر فى ناحية البستان وقال لبعض خدامه : ائتنى بذلك الثوب فأتوا به فكسانى إياه ، فأهويت إلى قدميه أقبلهما ، وطلبت منه أن يلبسنى (طاقية) من رأسه ويجيزنى فى ذلك بما أجازه والده عن شيوخه . فألبسنى إياها فى الرابع عشر جُمادَى الآخرة سنة سبع وعشرين وسبعمائة بزاويته المذكورة .

ثم سافرنا من أَصْفَهَان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز ، وبينهما مسيرة عشرة أيام . فوصلنا إلى بلدة كَلِيل ، وبينها وبين أصفهان مسيرة ثلاثة ، وهى بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين وفواكه : رأيت التفاح يباع فى سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم . ونزلنا منها بزاوية عمّرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافى ، وله مال عريض قدأعانه الله على إنفاقه فى سبيل الخيرات ، من الصدقة وعمارة الزوايا وإطعام الطعام لأبناء السبيل . ثم سرنا من كَلِيل يومين ووصلنا إلى قرية كبيرة تعرف بِصُرْماء ، وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، عمرها خواجه كافى أيضا . ثم سرنا منها الى يَزْدُخَاص ، بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق . والمسجد الجامع بها عجيب مبنى بالحجارة مسقوف بها . والبلدة على ضفة خندق فيه بساتينها ومياهها . وبخارجها رِباط ينزل به المسافرون عليه باب حديد ، وهو فى النهاية من الحصانة والمَنَعة . وبداخله حوانيت يباع فيها كل ما يحتاج إليه المسافرون . وهذا الرباط عمره الأمير محمد شاه ينْجُو والد السلطان أبى إسحق ملك شيراز . وفى يَزْدُخَاص يصنع الجبن اليزدخاصى ، ولا نظير له فى طيبه ، وزن الجُبْنة منه من أوقيتين إلى أربع . ثم سرنا منها على طريق دَشْت الروم ، وهى صحراء يسكنها الأتراك . ثم سافرنا الى مايين ، وهى بلدة صغيرة كثيرة الأنهار والبساتين حسنة الأسواق ، وأكثر أشجارها الجوز ، ثم سافرنا منها إلى مدينة شيراز .

وصف شِيراز

وهى مدينة أصيلة البناء، فسيحة الأرجاء، شهيرة الذكر، منيفة القدر، لها البساتين المُونِقة، والأنهار المتدفقة، والأسواق البديعة، والشوارع الرفيعة. وهى كثيرة العمارة، متقنة المبانى، عجيبة الترتيب، وأهل كل صناعة فى سوقها لا يخالطهم غيرهم، وأهلها حسان الصور نظاف الملابس. وليس فى المشرق بلدة تدانى مدينة دمشق فى حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز. وهى فى بسيط من الأرض تَحُفّ بها البساتين من جميع الجهات، وتشقها خمسة أنهار: أحدها النهر المعروف برُكْن آباد، وهو عذب الماء شديد البرودة فى الصيف، سخن فى الشتاء، فينبعث من عين فى سفح جبل هنالك يسمى القُلَيْعَة. ومسجدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق، وهو من أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء، وصحنه متسع مفروش بالمرمر، ويغسل فى أوان الحر كل ليلة، ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كلّ عشية، ويصلون به المغرب والعشاء. وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضى إلى سوق الفاكهة. وهى من أبدع الأسواق، وأنا أقول بتفضيلها على سوق باب البريد من دمشق.

وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف، وخصوصا نساءها، وهن يلبسن الخِفَاف، ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شيء، ولهن الصدقات والإيثار. ومن غريب حالهن أنهن يجتمعن لسماع الواعظ فى كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم، فربما اجتمع منهن الألف والألفان، بأيديهن المراوح يروِّحن بها على أنفسهن من شدة الحر. ولم أر اجتماع النساء فى مثل عددهن فى بلدة من البلاد. وعند دخولى إلى مدينة شيراز لم يكن لى همّ إلا قصد الشيخ القاضى الإمام قطب الأولياء، فريد

الدهر ، ذى الكرامات الظاهرة مجد الدين إسماعيل بن محمد بن خُداد ، ومعنى خداد : عطية الله . فوصلت إلى المدرسة المَجْدِيَّة المنسوبة إليه ، وبها سكناه ، وهى من عمارته . فدخلت إليه رابع أربعة من أصحابى ، ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة فى انتظاره ، فخرج إلى صلاة العصر ، ومعه محب الدين وعلاء الدين ابنا أخيه شقيقه ، روح الدين ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله . وهما نائباه فى القضاء لضعف بصره وكبر سنه . فسلمت عليه وعانقنى وأخذ بيدى إلى أن وصل إلى مصلاه ، فأرسل يدى ، وأومأ إلى أن أصلى إلى جانبه ففعلت . وصلى صلاة العصر ، ثم قرئ بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الأنوار للصَّاغانى . وطالعه نائباه بما جرى لديهما من القضايا . وتقدم كبار المدينة للسلام عليه ، وكذلك عادتهم معه صباحا ومساء . ثم سألنى عن حالى وكيفية قدومى ، وسألنى عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك . وأمر خدامه فأنزلونى بدُوَيرة صغيرة بالمدرسة . وفى غد ذلك اليوم وصل إليه رسول ملك العراق السلطان أبى سعيد ، وهو ناصر الدين الدَّرْقَنْدى من كبار الأمراء ، خراسانى الأصل ، فعند وصوله إليه نزع (شاشيته) عن رأسه ، وقبل رجل القاضى ، وقعد بين يديه ممسكا أذن نفسه بيده . وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم . وكان هذا الأمير قد قدم فى نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ، ونزل خارج المدينة ، ودخل إلى القاضى فى خمسة نفر ، ودخل مجلسه وحده منفردا تأدبا .

حكاية

هى السبب فى تعظيم هذا الشيخ وهى من الكرامات الباهرة

كان ملك العراق السلطان محمد خُدَابَنْدَه ، قد صحبه فى حال كفره فقيه من الروافض الإمامية يسمى جمال الدين بن مطهر . فلما أسلم السلطان وأسلمت بإسلامه التتر ، زاد فى تعظيم هذا الفقيه ، فزين له مذهب

الروافض وفضله على غيره ، وشرح له حال الصحابة والخلافة وقرّر لديه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله ، وأن عليا ابن عمه وصهره هو وارث الخلافة ، ومثّل له ذلك بما هو مألوف عنده من أن الملك الذى بيده إنما هو إرثه عن أجداده وأقاربه ، مع حِدْثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين . فأمر السلطان بحمل الناس على الرَّفْض ، وكتب بذلك إلى العراقَيْن وفارس وأَذْرَبِيجان وأَصْفَهان وكَرْمَان وخُراسان ، و بعث الرسل إلى البلاد ، فكان أول بلاد وصل إليها ذلك بغداد وشيراز وأصفهان .

فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الأَزَج منهم ، وهم أهل السنة ، وأكثرهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وقالوا : لا سمع ولا طاعة ! وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة فى السلاح و به رسول السلطان . فلما صعد الخطيب المنبر قاموا إليه ، وهم نحو اثنى عشر ألفا فى سلاحهم ، وهم حُماة بغداد والمشار إليهم فيها ، فحلفوا له أنه إن غيّر الخطبة المعتادة أو زاد فيها أو نقص منها فإنهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاءه الله .

وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ، ولا يذكر إلا اسم علىّ ومن تبعه كعمّار (رضى الله عنهم) . فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة ، وفعل أهل شيراز وأصفهان كفعل أهل بغداد . فرجعت الرسل إلى الملك فأخبروه بما جرى فى ذلك ، فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث ، فكان أول من أتى به منهم القاضى مجد الدين قاضى شيراز ، والسلطان إذ ذاك فى موضع يعرف بقَرَابَاغ ، وهو موضع مَصيفه . فلما وصل القاضى أمر أن يرمى به إلى الكلاب التى عنده ، وهى كلاب ضخام فى أعناقها السلاسل معدة لأكل بنى آدم . فإذا أُتى بمن يسلط عليه الكلاب جُعل فى رَحْبة كبيرة مطلقا غير مقيد ، ثم بُعثت تلك الكلاب عليه ، فيفر أمامها

ولا مفر له ، فتدركه فتمزقه وتأكل لحمه . فلما أرسلت الكلاب على القاضى مجد الدين ووصلت إليه بصبصتْ إليه وحركت أذنابها بين يديه . ولم تَهِجْهُ بشيء . فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافى القدمين ، فأكبّ على رجلى القاضى يقبلهما . وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب . وهى أعظم كرامات السلطان عندهم . وإذا خلع ثيابه كذلك على أحد كانت شرفا له ولبنيه وأعقابه يتوارثونه ، ما دامت تلك الثياب أو شيء منها . وأعظمها فى ذلك السراويل . ولما خلع السلطان ثيابه على القاضى مجد الدين أخذ بيده وأدخله إلى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به . ورجع السلطان عن مذهب الرفْض ، وكتب إلى بلاده أن يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأجزل العطاء للقاضى وصرفه إلى بلاده مكرما معظما ، وأعطاه فى جملة عطاياه مائة قرية من قرى جَمْكان ، وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم ، والقرى منتظمة بجانبيه ، وهو أحسن موضع بشيراز[1] .

ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان : أن نصفه مما يلى شيراز ، وذلك مسافة اثنى عشر فرسخا ، شديد البرد ، وينزل فيه الثلج ، وأكثر شجره الجوز ، والنصف الآخر مما يلى بلاد هُنْج وبلاد اللار ، فى طريق هُرْمُز ، شديد الحر وفيه شجر النخيل . وقد تكرر لى لقاء القاضى مجد الدين ثانية حين خروجى من الهند ، قصدته من هرمز متبركا بلقائه ، وذلك سنة ثمان وأربعين . وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما ، فدخلت عليه ، وهو قد ضعف عن الحركة ، فسلمت عليه فعرفنى ، وقام إلى فعانقنى ، ووقعت يدى على مِرْفَقه ، وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما . وأنزلنى بالمدرسة حيث أنزلنى أول مرة ، وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا اسحاق (وسيقع ذكره) قاعدا بين يديه ممسكا بأذن نفسه ، وذلك

(١) فى هذه الحكاية مبالغة ظاهرة .

هو غاية الأدب عندهم ، ويفعله الناس إذا قعدوا بين يدى الملك . وأتيته مرة أخرى إلى المدرسة فوجدت بابها مسدودا ، فسألت عن سبب ذلك فأُخبرت أن أم السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة فى ميراث ، فصرفهما إلى القاضى مجد الدين ، فوصلتا إليه إلى المدرسة وتحاكمتا عنده ، وفصل بينهما بواجب الشرع . وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضى ، وإنما يقولون له : مولانا أعظم ، وكذلك يكتبون فى التسجيلات والعقود التى تفتقر إلى ذكر اسمه فيها . وكان آخر عهدى به فى شهر ربيع الثانى من عام ثمانية وأربعين وسبعمائة . ولاحت علىّ أنواره وظهرت لى بركاته (نفع الله به وبأمثاله) .

ذكر سلطان شيراز

وسلطان شيراز فى عهد قدومى عليها الملك الفاضل أبو اسحاق بن محمد شاه يِنْجُو ، سماه أبوه باسم الشيخ أبى اسحاق الكَازَرُونى (نفع الله به) . وهو من خيار السلاطين ، حسن الصورة والسيرة والهيئة ، كريم النفس جميل الأخلاق متواضع صاحب ، قوة وملك كبير ، وعسكره يُنيف على خمسين ألفا من الترك والأعاجم . وبطانته الأدنون إليه أهل أصفهان ، وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه ، ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لأحد منهم حمل السلاح ، لأنهم أهل نَجْدة وبأس شديد وجراءة على الملوك . ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب . ولقد شاهدت مرة رجلا تجره (الجنادرة)[1] وهم الشُّرَط إلى الحاكم وقد ربطوه فى عنقه ، فسألت عن شأنه فأُخبرت أنه وجدت فى يده قوس بالليل . فذهب السلطان المذكور إلى قهر أهل شيراز وتفضيل الأصفَهانيين عليهم ، لأنه يخافهم على نفسه . وكان أبوه محمد شاه يِنْجُو واليا على شيراز من قِبَل ملك العراق ، وكان حسن السيرة محببا إلى أهلها . فلما توفى ولّى السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينا ، وهو ابن

---

(١) فارسية ، جمع جَنْدَار ، وهو حارس ذات الملك .

الجُوبان أمير الأمراء (وسيأتى ذكره)، وبعث معه العساكر الكثيرة، فوصل إلى شيراز وملكها، وضبط مجابيها؛ وهى من أعظم بلاد الله مَجْبى: ذكر لى الحاج قِوام الدين الطَّمَغْجِى، وهو والى المجبى بها: أنه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم فى كل يوم، وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار ذهبا. وأقام بها الأمير حسين مدة، ثم أراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبى إسحاق بن محمد شاه ينجو، وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك، وعلى والدته طاش خاتون، وأراد حملهم إلى العراق ليطالبوا بأموال أبيهم. فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقعة حياء أن تُرى فى تلك الحال، فإن عادة نساء الأتراك ألا يغطين وجوههن، واستغاثت بأهل شيراز، وقالت: أهكذا يأهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان؟ فقام رجل من النجارين يسمى بَهْلَوان محمود، وقد رأيته بالسوق حين قدومى على شيراز، فقال: لا نتركها تخرج من بلدنا ولا نرضى بذلك، فتابعه الناس على قوله، وثارت عامتهم ودخلوا فى السلاح، وقتلوا كثيرا من العسكر، وأخذوا الأموال وخلصوا المرأة وأولادها. وفر الأمير حسين ومن معه، وقدم على السلطان أبى سعيد مهزوما، فأعطاه العساكر الكثيفة، وأمره بالعود إلى شيراز والتحكم فى أهلها بما شاء. فلما بلغ أهلها ذلك علموا أنهم لا طاقة لهم به، فقصدوا القاضى مجد الدين وطلبوا منه أن يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح، فخرج إلى الأمير حسين، فترجل له الأمير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح. ونزل الأمير حسين ذلك اليوم خارج المدينة. فلما كان من الغد برز أهلها للقائه فى أجمل ترتيب، وزينوا البلد وأوقدوا الشمع الكثير، ودخل الأمير حسين فى أبهة وحَفْل عظيم، وسار فيهم بأحسن سيرة. فلما مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل أمير على ما بيده، خافهم الأمير حسين على نفسه وخرج عنهم. وتغلب السلطان أبو إسحاق عليها وعلى أَصْفَهان وبلاد فارس، وذلك مسيرة شهر ونصف شهر. واشتدت شوكته، وطَمَحت همته

إلى تملك ما يليه من البلاد . فبدا بالأقرب منها وهي مدينة يَزْد، مدينة حسنة نظيفة عجيبة الأسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة . وأهلها تجار شافعية المذهب ، فحاصرها وتغلب عليها ، وتحصن الأمير مُظَفَّر شاه ابن الأمير محمد شاه بن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحدق بها الرمال ، فحاصره بها ، فظهر من الأمير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله : فكان يضرب على عسكر السلطان أبي إسحاق ليلا ، ويقتل ما شاء ويحرق المضارب والفساطيط ، ويعود إلى قلعته فلا يقدر على النيل منه . وضرب ليلة على دوار[1] السلطان ، وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة ، وعاد إلى قلعته . فأمر السلطان أن تركب في كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعوا له الكمائن ، ففعلوا ذلك . وخرج على عادته في مائة من أصحابه فضرب على العسكر ، وأحاطت به الكمائن وتلاحقت العساكر . فقاتلهم وخلص إلى قلعته ، ولم يصب من أصحابه إلا واحد ، أُتي به إلى السلطان أبي إسحاق فخلع عليه وأطلقه ، وبعث معه أمانا لمظفَّر لينزل إليه فأبى ذلك . ثم وقعت بينهما المراسلة ، ووقعت له محبة في قلب السلطان أبي إسحاق ، لما رأى من شجاعته ، فقال : أريد أن أراه ، فإذا رأيته انصرفت عنه . فوقف السلطان في خارج القلعة ، ووقف هو ببابها وسلم عليه ، فقال له السلطان : انزل على الأمان ، فقال له مظفَّر : إني عاهدت الله ألا أنزل إليك حتى تدخل أنت قلعتي ، وحينئذ أنزل إليك ، فقال له : أفعلُ ذلك . فدخل إليه السلطان في عشرة من أصحابه الخواص . فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر ، وقبل رِكابه ، ومشى بين يديه مترجلا . فأدخله داره وأكل من طعامه ، ونزل معه إلى المحلة[2] راكبا ، فأجلسه السلطان إلى جانبه وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالا عظيما . ووقع الاتفاق بينهما أن تكون الخطبة باسم السلطان أبي إسحاق ، وتكون البلاد لمظفر وأبيه . وعاد السلطان إلى بلاده .

---

(١) المراد هنا المخيم ، ولكنه ليس من معاني الدوار .

(٢) المراد المعسكر . وقد استعمل الرحالة هذه الكلمة كثيرا بهذا المعنى .

وكان السلطان أبو إسحاق طَمَح ذات مرة إلى بناء إيوان كإيوان كسرى . وأمر أهل شيراز أن يتولوا حفر أساسه ، فأخذوا فى ذلك ، وكان أهل كل صناعة يباهون كلّ من عداهم ، فانتهوا فى المباهاة إلى أن صنعوا القِفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزركش . وفعلوا نحو ذلك فى براذع الدواب وأخْرَاجها . وصنع بعضهم الفئوس من الفضة . وأوقدوا الشمع الكثير . وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ثيابهم ويربطون فُوَط الحرير على أوساطهم ، والسلطان يشاهد أفعالهم من مَنْظَرة له . وقد شاهدت هذا المَبْنَى وقد ارتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع . ولما بنى أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه ، وصارت الفعلة تخدُم فيه بالأجرة ، ويُحشر لذلك آلاف منهم . وسمعت والى المدينة يقول : إن معظم مَجْباها ينفق فى ذلك البناء . وقد كان الموكل به الأمير جلال الدين بن الفلكى التّوريزى ، وهو من الكبار ، كان أبوه نائبا عن وزير السلطان أبى سعيد المسمى على شاه جَيْلان . ولهذا الأمير جلال الدين الفلكى أخ فاضل اسمه هبة الله ، ويلقب بهاء الملك ، وَفَد على ملك الهند حين وفودى عليه ، ووفد معنا شرف الملك أمير بَخْت ، فخلع ملك الهند علينا جميعا ، وقدم كل واحد فى شغل يليق به ، وعين لنا المرتب والإحسان (وسنذكر ذلك) . وهذا السلطان أبو إسحاق يريد التشبه بملك الهند فى الإيثار وإجزال العطايا ، ولكن أين الثُّريا من الثّرى ؟ إذ أعظم ما تعرفْنا من عطيات أبى اسحاق أنه أعطى الشيخ زاده الخراسانى ، الذى أتاه رسولا عن ملك هَرَاة سبعين ألف دينار . وأما ملك الهند فلم يزل يعطى أضعاف ذلك لمن لا يُحْصى كثرة من أهل خراسان وغيرهم .

حكاية

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخُراسانيين أنه قَدِم عليه رجل من فقهاء خراسان ، هَرَوِيّ الدار من سكان خُوَارَزم ، يسمى بالأمير عبد الله ، بعثته الخاتون تُرَابَك زوج الأمير قُطْلُودُمُور ، صاحب خوارزم ، بهدية إلى ملك الهند المذكور ، فقبلها وكافأ عنها بأضعافها ، وبعث ذلك إليها . واختار رسولها الإقامة عنده فصيره فى ندمائه . فلما كان ذات يوم قال له : ادخل إلى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب ، فذهب إلى داره فأتى بثلاث عشرة خريطة ، وجعل فى كل خريطة قدر ما وسعته ، وربط كل خريطة بعضو من أعضائه ، (وكان صاحب قوة) وقام بها . فلما خرج عن الخزانة وقع ولم يستطع النهوض ، فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر مَنًّا بأمنان دِهْلى ، والمنّ الواحد : خمسة وعشرون رطلا مصرية . فأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه وذهب به .

حكاية تناسبها

اشتكى مرة أمير بَخْت الملقب بشرف الملك الخراسانى ، وهو الذى تقدم ذكره آنفا ، بحضرة ملك الهند ، فأتاه الملك عائدا . ولما دخل عليه أراد القيام فحلف له الملك ألا ينزل عن كَتّه . والكت : هو السرير ، ووضع للسلطان متكأة فقعد عليها ، ثم دعا بالذهب والميزان فجيء بذلك ، وأمر المريض أن يقعد فى إحدى كِفّتى الميزان ، فقال : ياخوند[1] عَالَم ، لو علمت أنك تفعل هذا للبست علىّ ثيابا كثيرة ، فقال له : البس الآن جميع ما عندك من الثياب ، فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن ، وقعد فى كِفَّة الميزان ، ووضع الذهب فى الكفة الأخرى حتى رجحه الذهب[2] .

(١) ياخوند عالم : يا ملك العالم . (٢) فى هذه الحكاية والتى قبلها مبالغة لا تخفى .

ذكر بعض المشاهد بشيراز

فمنها مشهد أحمد بن موسى أخي عليّ الرضا بن موسى بن جعفر بن محمد ابن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (رضي الله تعالى عنهم). وهو مشهد معظم عند أهل شيراز، يتبركون به ويتوسلون إلى الله تعالى بفضله، وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان أبي إسحاق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر. والقراء يقرءون القرآن على التربة دائما. ومن عادة الخاتون أنها تأتي إلى هذا المشهد في كل ليلة اثنين، ويجتمع في تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء. وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء، سمعت من الثقات: أن الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء ألف وأربعمائة ونيّف، بين صغير وكبير. ونقيبهم عضد الدين الحسيني. فإذا حضر القوم بالمشهد المبارك ختموا القرآن قراءة في المصاحف، وقرأ القرّاء بالأصوات الحسنة، وأتي بالطعام والفواكه والحلواء. فإذا أكل القوم وعظ الواعظ. ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر إلى العشيّ، والخاتون في غرفة مطلة على المسجد لها شباك. ثم تضرب الطبول والأنفار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند أبواب الملوك[1]. ومن المشاهد بها مشهد الإمام القطب الوليّ أبي عبد الله بن خفيف، المعروف عندهم بالشيخ، وهو قدوة بلاد فارس كلها، ومشهده معظم عندهم يأتون إليه بكرة وعشيا. وقد رأيت القاضي مجد الدين أتاه زائرا. وتأتي الخاتون إلى هذا المسجد في كل ليلة جمعة. وعليه زاوية ومدرسة، ويجتمع به القضاة والفقهاء، ويفعلون به كفعلهم في مشهد أحمد بن موسى. وقد حضرت الموضعين جميعا. وتربة الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي إسحاق متصلة بهذه التربة. والشيخ أبو عبد الله ابن خفيف كبير القدر في الأولياء شهير الذكر، وهو الذي أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند.

(١) البوقات جمع بوق (كما في المصباح) وأما الأنفار فضرب من الأبواق، غير عربية، ولعلهم أخذوها من التنفير وهو شبه الصفير كما في القاموس.

كرامة لهذا الشيخ[1]

يحكى أنه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء ، فأصابتهم مجاعة فى طريق الجبل حيث لا عمارة ، وتاهوا عن الطريق ، وطلبوا من الشيخ أن يأذن لهم فى القبض على بعض الفيلة الصغار ، وهى فى ذلك المحل كثيرة جدا ، ومنه تحمل إلى حضرة ملك الهند . فنهاهم الشيخ عن ذلك ، فغلب عليهم الجوع ، فتعدّوا قول الشيخ وقبضوا على فيل صغير منها ، وذكوه وأكلوا لحمه ، وامتنع الشيخ من أكله . فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت إليهم فكانت تشمّ الرجل منهم وتقتله ، حتى أتت على جميعهم ، وشمت الشيخ ولم تتعرض له . وأخذه فيل منها والف عليه خُرْطومه ورمى به على ظهره ، وأتى به الموضع الذى فيه العمارة . فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا أمره . فلما قَرُب منهم أمسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن ظهره إلى الأرض بحيث يرونه ، فجاءوا إليه وتمسحوا به ، وذهبوا به إلى ملكهم فعرفوه خبره (وهم كفار) . وأقام عندهم أياما .

وذلك الموضع على خَوْر يسمى خور الخَيْزُران . وبذلك الموضع مغاص الجوهر . ويذكر أن الشيخ غاص فى بعض تلك الأيام بمحضر ملكهم وخرج وقد ضم يديه معا ، وقال للملك : اختر ما فى إحداهما ، فاختار ما فى اليمنى ، فرمى إليه بما فيها ، وكانت ثلاثة أحجار من الياقوت لا مثل لها ، وهى عند ملوكهم فى التاج يتوارثونها . وقد دخلتُ جزيرة سيلان هذه ، وهم مقيمون على الكفر ، إلا أنهم يعظمون فقراء المسلمين ويؤوونهم إلى دورهم ، ويطعمونهم الطعام ، ويكونون فى بيوتهم بين أهليهم وأولادهم ،

(١) أشبه بالخرافات .

خلافا لسائر كفار الهند ، فإنهم لايقربون المسلمين ولا يطعمونهم فى آنيتهم ولا يسقونهم فيها ، مع أنهم لايؤذونهم ولايَهْجونهم . ولقد كنا نُضطر إلى أن يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به فى قدورهم ويقعدون على بعد منا ، ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الأرز (وهو طعامهم) ، ويصبون عليه الكوشان (وهو الإدام) ويذهبون، فنأكل منه ، وما فضل عنا تأكله الكلاب والطير . وإن أكل منه الولد الصغير الذى لا يعقل ضربوه وأطعموه رَوْث البقر ، وهو الذى يطهر ذلك فى زعمهم .

(رجع) وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة ، وكذلك معظم قبور أهلها ، فإن الرجل منهم يموت ولده أو زوجه ، فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هنالك ، ويفرش البيت بالحُصُر والبسط ، ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ، ويصنع للبيت بابا إلى ناحية الزُقاق ، وشُبّاك حديد ، فيدخل منه القراء يقرءون بالأصوات الحسان . وليس فى معمور الأرض أحسن أصواتا بالقرآن من أهل شيراز . ويقوم أهل الدار بالتربة ويفَرشونها ، ويوقدون السُرُج بها ، فكأن الميت لم يبرح . وذكر لى أنهم يطبخون فى كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه .

حكاية

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز ، فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش ، وفيه مصاحف موضوعة فى خرائط حرير موضوعة فوق كرسى . وفى الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتوح إلى جهة السوق ، وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرأ فيه . فسلمت عليه وجلست إليه ، فسألنى عن مَقْدَمى فأخبرته ، وسألته عن شأن هذا المسجد ، فأخبرنى أنه هو الذى عمره ووقف عليه أوقافا كثيرة للقراء وسواهم ،

وأن تلك الزاوية التى جلست إليه فيها هى موضع قبره إن قضى الله موته بتلك المدينة . ثم رفع بساطا كان تحته ، والقبر مغطى عليه ألواح خشب ، وأرانى صندوقا كان بإزائه فقال : فى هذا الصندوق كفنى وحَنُوطى ، ودراهم كنت استأجرت بها نفسى فى حفر بئر لرجل صالح ، فدفع لى هذه الدراهم ، فتركتها لتكون نفقة مُوَاراتى ، وما فَضَل منها يتصدق به ؛ فعجبت من شأنه ، وأردت الانصراف ، فحلف علىّ وأضافنى بذلك الموضع .

ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدى ، وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسى ، وربما ألمع فى كلامه بالعربى . وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة ، بداخلها بستان مليح . وهى بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آباد . وقد صنع الشيخ هنالك أحواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب ، فيخرج الناس من المدينة لزيارته ، ويأكلون من سِماطه ، ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون . وكذلك فعلت عنده (رحمه الله) . وبمقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة مبنية على قبر شمس الدين السِّمْنانى ، وكان من الأمراء الفقهاء ، ودفن هنالك بوصيّة منه بذلك . وبمدينة شيراز من كبار الفقهاء الشريف مُجيد الدين ، وأمره فى الكرم عجيب ، وربما جاد بكل ما عنده ، وبالثياب التى كانت عليه ، ويلبس مرقّعة له ، فيدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه . ومرتبه فى كل يوم من السلطان خمسون دينارا دراهم . ثم كان خروجى من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبى إسحاق الكازَرُونى بكازَرُون ، وهى على مسيرة يومين من شيراز ، فنزلنا أول يوم ببلاد الشُول ، وهم طائفة من الأعاجم يسكنون البرّية ، وفيهم الصالحون .

كرامة لبعضهم

كنت يوما ببعض المساجد بشيراز، وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل إثر صلاة الظهر، فخطر بخاطرى أنه لو كان لى مصحف كريم لتلوت فيه، فدخل علىّ فى أثناء ذلك شاب وقال لى بكلام قوى: خذ! فرفعت رأسى إليه فألقى فى حجرى مصحفا كريما وذهب عنى، فختمته ذلك اليوم قراءة، وانتظرته لأرده له فلم يعد إلىّ، فسألت عنه فقيل لى: ذلك بُهلول الشُولى، ولم أره بعد.

ووصلنا فى عشى اليوم الثانى إلى كازَرُون، فقصدنا زاوية الشيخ أبى إسحاق (نفع الله به) وبتنا بها تلك الليلة. ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائنا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن، وتؤكل بالرُقاق. ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم فى الضيافة ثلاثة أيام، ويعرض على الشيخ الذى بالزاوية حوائجه، ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية، وهم يزيدون على مائة، منهم المتزوجون ومنهم الأعزاب المتجردون، فيختمون القرآن ويذكرون الذكر، ويدعون له عند ضريح الشيخ أبى إسحاق، فتقضى حاجته بإذن الله. وهذا الشيخ أبو إسحاق معظم عند أهل الهند والصين. ومن عادة ركاب بحر الصين أنهم إذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لأبى إسحاق نذورا وكتب كل منهم على نفسه ما نذره، فإذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية إلى المركب وأخذوا من كل ناذر نذره[1]. وما من مركب يأتى من الصين أو الهند إلا وفيه آلاف من الدنانير، فيأتى الوكلاء من جهة خادم الزاوية فيقبضون ذلك. ومن الفقراء من يأتى طالبا صدقة الشيخ، فيكتب له أمر بها، وفيه علامة الشيخ منقوشة

(١) مثل هذه النذور غير شرعى، كما نبهنا على ذلك فى الحواشى. وقراءة القرآن على الأضرحة، والدعاء عندها من البدع السيئة.

فى قالب من الفضة ، فيضعون القالب فى صِبغ احمر ويلصقونه بالأمر ، فيبقى أثر الطابع فيه ، ويكون مُضَمَّنه أن من عنده نذر للشيخ أبى إسحاق فليعط منه فلانا كذا ، فيكون الأمر بالألف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير . فإذا وَجَد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسما فى ظهر الأمر بما قبضه . ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبى إسحاق عشرة آلاف دينار ، فبلغ خبرها فقراء الزاوية ، فأتى أحدهم إلى الهند وقبضها وانصرف بها إلى الزاوية .

ثم سافرنا من كازَرُون إلى مدينة الزَّيْدَيْن . وسميت بذلك لأن فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الأنصاريين ، صاحبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى الله عنهما) . وهى مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه ، مليحة الأسواق عجيبة المساجد ، ولأهلها صلاح وأمانة وديانة . ومن أهلها القاضى نور الدين الزَّيْدانى ، وكان ورد على أهل الهند فولى القضاء منها بذِيبة المَهَل[1] ، وهى جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح ، وتزوج بأخت هذا الملك (وسيأتى ذكره وذكر بنته خديجة التى تولت الملك بعده بهذه الجزائر) . وبها توفى القاضى نور الدين المذكور . ثم سافرنا منها الى الحُوَيْزاء ، وهى مدينة صغيرة يسكنها العجم ، بينها وبين البصرة مسيرة أربع ، وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس . ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحُوَيْزائى ، شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة . ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة فى برية لاماء بها إلا فى موضع واحد يسمى الطَّرْفَاوى ، وردناه فى اليوم الثالث من سفرنا ، ثم وصلنا بعد اليوم الثانى من ورودنا عليه إلى مدينة الكوفة .

(١) جزائر ملديف ، كما سيأتى .

مدينة الكوفة

وهى إحدى أمهات البلاد العراقية، المتميزة فيها بفضل المزية ، مَثْوى الصحابة والتابعين ، ومنزل العلماء والصالحين ، وحضرة على بن أبى طالب أمير المؤمنين . إلا أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدى العدوان التى امتدت إليها ، وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها ، فإنهم يقطعون طريقها . ولا سور عليها ، وبناؤها بالآجر ، وأسواقها حسان ، وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك . وجامعها الأعظم جامع كبير شريف ، بلاطاته سبعة قائمة على سوارى حجارة ضخمة منحوتة ، قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض ، وأفرغت بالرصاص ، وهى مفرطة الطول . وبهذا المسجد آثار كريمة . فمنها بيت إزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة ، يقال إن الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع ، وعلى مقربة منه محراب محلّق عليه بأعواد الساج مرتفع ، وهو محراب علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهنالك ضربه الشقىّ ابن مُلْجَم ، والناس يقصدون الصلاة به . وفى الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلّق عليه أيضا بأعواد الساج ، يذكر أنه الموضع الذى فار منه التنور حين طوفان نوح (عليه السلام). وفى ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح (عليه السلام). وإزاءه بيت يزعمون أنه متعبد إدريس (عليه السلام). ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد يقال إنه موضع إنشاء سفينة نوح (عليه السلام) . وفى آخر هذا الفضاء دار علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه)، والبيت الذى غسل فيه . ويتصل به بيت يقال أيضا إنه بيت نوح (عليه السلام). والله أعلم بصحة ذلك كله ؟ وفى الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد إليه ، فيه قبر مُسْلم بن عَقيل ابن أبى طالب (رضى الله عنه). وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتِكة وسُكَيْنَة بنت الحسين (عليه السلام). وأما قصر الإمارة بالكوفة الذى بناه سعد بن أبى وقّاص (رضى الله عنه) فلم يبق منه إلا أساسه .

والفُرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ فى الجانب الشرقى منها ، وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض . ورأيت بغربى جبانة الكوفة موضعا مسوّدا شديد السواد فى بسيط أبيض ، فأخبرت أنه قبر الشقىّ ابن مُلْجَم ، وأن أهل الكوفة يأتون فى كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام . وعلى قرب منه قبة أخبرت أنها على قبر المختار بن أبى عبيد .

ثم رحلنا ونزلنا بئر مَلَّاحة ، وهى بلدة حسنة بين حدائق نخل . ونزلت بخارجها وكرهت دخولها ، لأن أهلها روافض . ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحِلّة وهى مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات ، وهى كثيرة العمارة ، وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ، ودورها بين الحدائق ، ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين ، تَحُف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة فى كلا الشطين إلى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل . وأهل هذه المدينة كلها إمامية إثنا عشرية ، وهم طائفتان : إحداهما تعرف بالأكراد ، والأخرى تعرف بأهل الجامِعَيْن . والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبدا . وبمقربة من السوق الأعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول . وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان . ومن عاداتهم : أنه يخرج فى كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلاح وبأيديهم سيوف مشهورة ، فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر ، فيأخذون منه فرسا مسرجا ملجما أو بغلة كذلك ، ويضربون الطبول والأنفار والبوقات أمام تلك الدابة ، ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ، ويمشى آخرون عن يمينها وشمالها ، ويأتون مشهد صاحب الزمان ، فيقفون بالباب ويقولون : باسم الله ياصاحب الزمان ، باسم الله اخرج ! قد ظهر الفساد وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك فَيَفْرُقَ

الدبابدبين الحق والباطل . ولا يزالون كذلك وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنقار إلى صلاة المغرب. وهم يقولون : إن محمد بن الحسن العسكرى دخل ذلك المسجد وغاب فيه، و إنه سيخرج. وهو الإمام المنتظر عندهم. وقد كان غلب على مدينة الحلّة، بعد موت السلطان أبي سعيد، الأمير أحمد بن رُمَيْثَة ابن أبي نُمَيّ أمير مكة، وحكمها أعواما. وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق، إلى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق. فعذبه وقتله، وأخذ الأموال والذخائر التى كانت عنده .

ثم سافرنا منها إلى مدينة (كَرْبلاء) مشهد الحسين بن علىّ (عليهما السلام). وهى مدينة صغيرة تَحُفُّ بها حدائق النخل ، و يسقيها ماء الفرات. والروضة المقدسة داخلها ، وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر. وعلى باب الروضة الحجاب والقَوَمة، لا يدخل أحد إلا عن إذنهم، فيقبل العتبة الشريفة (وهى من الفضة) . وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة . وعلى الأبواب أستار الحرير. ثم سافرنا منها إلى بغداد .

مدينة بغداد

مدينة دار السلام. وحضرة الإسلام، ذات القدر الشريف، والفضل المنيف، مَثْوى الخلفاء، ومقر العلماء . قال أبو الحسين بن جبير (رضى الله عنه) : وهذه المدينة العتيقة و إن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية ، فقد ذهب رسمها ، ولم يبق إلا اسمها . وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها، والتفات أعين النوائب اليها، كالطلل الدارس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر، إلا دِجلتها التى هى بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين،

أو العقـد المنتظم بين لَبَّتين ، فهى تردها ولا تظمأ ، وتتطلع منهـا فى مرآة صقيلة لاتصدأ . قال ابن جزى : وكأن أبا تمـام حبيب بن أوْس اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها :

لقد أقام على بغـداد ناعيهـا ... فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها (والحرب موقدة ... والنـار تطفأ) حسنا فى نواحيها
تُرْجى لها عودة فى الدهر صالحة ... فالآن أضمر منهـا اليأس راجيها
مثل العجوز التى ولت شبيبتها ... وبان عنها جمـال كان يَحْظيها

وقد نظم الناس فى مدحها وذكر محاسنها فأطنبوا ، ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا ، وفيها قال الإمام القاضى أبو محمد عبدالوهاب بن على ابن نصر المالكى البغدادى ، وأنشدنيه والدى (رحمه الله) مرات :

طِيب الهـواء ببغدادٍ يُشَـوّقنى ... قربا إليهـا ، وإن عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم إذ جمعت ... طيب الهواءين ممدود ومقصور

وفيها يقول أيضا (رحمه الله تعالى ورضى عنه) :

سلام على بغـداد فى كل موطن ... وحق لها منى السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قِلًى لها ... وإنى بشطىْ جانبيها لعـارف
ولكنها ضـاقت علىّ برُحْبِهـا ... ولم تكن الأقدار فيها تساعف
وكانت كخِلّ كنت أهوى دنوه ... وأخلاقه تنأى به وتخـالف

وفيهـا يقول أيضا مغاضبا لهـا ، وأنشـدنيه والدى (رحمـه الله) غير ما مرة :

بغداد دار لأهل المـال واسعة ... وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظَلِلْت أمشى مُضاعا فى أزقتها ... كأننى مصحف فى بيت زنديق

ولبعض نساء بغداد فى ذكرها :

آهًا على بغــدادها وعراقها وظبائها والسحر فى أحداقها
ومجالها عنـد الفرات بأوجه تبــدو أهلتها على أطواقها
متبخترات فى النعــيم كأنما خُلِق الهوى العُذْرِىّ من أخلاقها
نفسى الفداء لها فأىّ محاسن فى الدهر تشرق من سنا إشراقها

(رجع) ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التى ذكرناها فى جسر مدينة الحلّة . والناس يَعْبُرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء ، فهم فى ذلك فى نزهة متصلة . وببغداد من المساجد التى يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا ، منها بالجانب الغربى ثمانية ، وبالجانب الشرقى ثلاثة ؛ والمساجد سواها كثيرة جدا ، وكذلك المدارس إلا أنها خَرِبَتْ . وحمامات بغداد كثيرة . وهى من أبدع الحمامات . وأكثرها مطلية بالقار مُسَطَّحة به ، فيخيّل لرائيه أنه رُخام أسود . وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تَنْبَع أبدا به ، ويصير فى جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويجلب إلى بغداد . وفى كل حمام منها خَلَوات كثيرة ، كل خلوة منها مفروشة بالقار ، مطلىّ نصف حائطها مما يلى الأرض به ، والنصف الأعلى مطلى بالجِصّ الأبيض الناصع ؛ فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما . وفى داخل كل خلوة حوض من رخام فيه أنبوبان ، أحدهما يجرى بالماء الحار والآخر بالماء البارد ؛ فيدخل الإنسان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد إلا إن أراد ذلك . وفى زاوية كل خلوة أيضا حوض آخر للاغتسال ، فيه أيضا أنبوبان يجريان بالحارّ والبارد . وكل داخل يعطى ثلاثا من الفوط : إحْداها يتَّزر بها عند دخوله ، والأخرى يتَّزر بها عند خروجه ، والأخرى يَنْشَف بها الماء عن جسده . ولم أر هــذا الإتقان كله فى مدينة سوى بغداد ، وبعض البلاد تقاربها فى ذلك .

ذكر الجانب الغربيّ من بغداد

الجانب الغربي منها هو الذى عمر أولا ، وهو الآن خراب أكثره . وعلى ذلك فقد بقى منه ثلاث عشرة مَحَلَّة ، كل محلة كأنها مدينة ، بها الحمامان والثلاثة . وفى ثمان منها المساجد الجامعة . ومن هذه المَحَلَّات محلة باب البصرة ، وبها جامع الخليفة أبى جعفر المنصور (رحمه الله) ، والمارَسْتان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على دِجْلة ، وهو قصر كبير خرب ، بقيت منه الآثار . وفى هذا الجانب الغربى من المشاهد قبر معروف الكَرْخى (رضى الله عنه) ، وهو فى محلة باب البصرة ، وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء فى داخله قبر متسع السَّنام عليه مكتوب : هذا قبر عَوْن ، من أولاد علىّ بن أبى طالب . وفى هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، والد على بن موسى الرِّضا .

ذكر الجانب الشرقىّ منها

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء ، كل صناعة فيه على حدة . وفى وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التى صارت الأمثال تضرب بحسنها . وفى آخره المدرسة المستنصرية ، ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبى جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر . وبها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس ، وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البُسُط . ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار ، لابسا ثياب السواد مُعْتَمًا ، وعلى يمينه ويساره مُعِيدان يعيدان كل ما يمليه ؛ وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة . وفى داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ، ودار الوضوء . وبهذه الجهة الشرقية

من المساجد التى تقام فيها الجمعة ثلاثة : أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم ، وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل . لقيت بهذا المسجد الشيخ الإمام العالم الصالح مُسْنِد العراق ، سراج الدين أباحفص عمر بن على بن عمر القَزْوينى . وسمعت عليه فيه جميع مُسْنَد أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهْرام الدَّارِمى ، وذلك فى شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة .

والجامع الثانى جامع السلطان ، وهو خارج البلد ، وتتصل به قصور تنسب للسلطان . والجامع الثالث جامع الرُّصافة . وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل .

ذكر قبور الخلفاء ببغداد . وقبور بعض العلماء والصالحين بها

وقبور الخلفاء العباسيين (رضى الله عنهم) بالرُّصافة ، وعلى كل قبر منها اسم صاحبه . فمنهم قبر المهدى ، وقبر الهادى ، وقبر الأمين ، وقبر المعتصم ، وقبر الواثق ، وقبر المتوكل ، وقبر المنتصر ، وقبر المستعين ، وقبر المعتز ، وقبر المهتدى ، وقبر المعتمد ، وقبر المعتضد ، وقبر المكتفى ، وقبر المقتدر ، وقبر القاهر ، وقبر الراضى ، وقبر المتّقى ، وقبر المستكفى ، وقبر المطيع لله ، وقبر الطائع ، وقبر القائم وقبر القادر ، وقبر المستظهر ، وقبر المسترشد ، وقبر الراشد ، وقبر المقتفى ، وقبر المستنجد وقبر المستضىء ، وقبر الناصر ، وقبر الظاهر ، وقبر المستنصر ، وقبر المستعصم ، وهو آخرهم . وعليه دخل التتر بغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم ، وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية ، وذلك فى سنة أربع وخمسين وستمائة . وبقرب الرُّصافة قبر الإمام أبى حنيفة (رضى الله عنه) ، وعليه قبة عظيمة ، وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية . فسبحان مبيد الأشياء ومغيرها . وبالقرب منها قبر الإمام أبى عبد الله أحمد بن حنبل (رضى الله عنه) ولا قبة عليه .

ويذكر أنها بنيت على قبره مرارا فتهدمت بقدرة الله تعالى . وقبره عند أهل بغداد معظم ، وأكثرهم على مذهبه . وبالقرب منه قبر أبى بكر الشِّبْلى . من أئمة المتصوفة (رحمه الله) ، وقبر سَرِىّ السَّقَطى . وقبر بِشر الحافى ، وقبر داود الطائى ، وقبر أبى القاسم الجُنَيْد (رضى الله عنهم أجمعين). وأهل بغداد لهم يوم فى كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ، ويوم لشيخ آخر يليه ، هكذا إلى آخر الأسبوع ؛ وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء (رضى الله تعالى عنهم) . وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه ، وإنما تجلب إليها من الجهة الغربية ، لأن فيها البساتين والحدائق . ووافق وصولى إلى بغداد كون ملك العراق بها ، فلنذكره هاهنا :

ترتيب ملك العراق فى رحيله

(ولنعد إلى ما كنا بسبيله) . ثم خرجت من بغداد فى مَحَلَّة(١) السلطان أبى سعيد ، وغرضى أن أشاهد ترتيب ملك العراق فى رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره . وعاداتهم أنهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحا . وترتيبهم أنه يأتى كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه ، فيقف فى موضع لا يتعداه ، قد عين له إما فى الميمنة أو الميسرة ، فإذا توافوا جميعا وتكاملت صفوفهم ، ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبُوقاته وأنقاره ، وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد إلى موقفه . ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ، ثم يليهم أهل الطرب ، وهم نحو مائة رجل ، عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان . وأمام أهل الطرب عشرة من الفُرْسان قد تقلدوا عشرة من الطبول ، وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات(٢) فيضربون تلك الأطبال والصرنايات ، ثم يمسكون . ويغنى عشرة من أهل الطرب نَوْبَتهم . فإذا

---

(١) المراد هنا : فى حاشيته وما يتبعها من آلات السفر وعدده . تسمية إصطلاحية لا لغوية .

(٢) الصرناية ضرب من الناى ، غير عربية .

قضوها ضربت تلك الأطبال والصرنايات ، ثم أمسكوا ، وغنى عشرة آخرون نوبتهم ، هكذا إلى أن تتم عشر نوبات ، فعند ذلك يكون النزول . ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الأمراء وهم نحو خمسين ، ومن ورائه أصحاب الأعلام والأطبال والأنفار والبوقات ، ثم مماليك السلطان ، ثم الأمراء على مراتبهم . وكل أمير له أعلام وطبول و بوقات ، ويتولى ترتيب ذلك كله أمير الجنادرة[1] . وسافرت فى هذه المحلة عشرة أيام ، ثم صحبت الأمير علاء الدين محمدا إلى بلدة تبريز . وكان من الأمراء الكبار الفضلاء ، فوصلنا بعد عشرة أيام إلى مدينة تِبْريز[2] ، ونزلنا بخارجها فى موضع يعرف بالشام ، وهنالك قبر قازان ملك العراق ، وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء ، وأنزلنى الأمير بتلك الزاوية . وهى ما بين أنهار متدفقه وأشجار مورقة . وفى غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ، ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان ، أحسن سوق رأيتها فى بلاد الدنيا ، كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى . واجتزت بسوق الجوهريين ، فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر ، وهى بأيدى مماليك حسان الصور ، عليهم الثياب الفاخرة ، وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير ، وهم بين أيدى التجار يعرضون الجواهر . وبتنا ليلة بتبريز . ثم وصل بالغد أمر السلطان أبى سعيد إلى الأمير علاء الدين بأن يصل إليه ، فعدت معه . ولم ألق بتبريز أحدا من العلماء . ثم سافرنا إلى أن وصلنا محلة السلطان ، فأعلمه الأمير المذكور بمكانى ، وأدخلنى عليه ، فسألنى عن بلادى وكسانى وأركبنى . وأعلمه الأمير أنى أريد السفر إلى الحجاز الشريف ، فأمر لى بالزاد والركوب فى السبيل مع المحمل ، وكتب لى بذلك إلى أمير بغداد خواجه معروف .

---

(١) سبق شرح هذه الكلمة . (٢) بفتح التاء وكسرها .

العودة إلى بغداد

عدت إلى مدينة بغداد، واستوفيت ما أمر لى به السلطان، وكان قد بقى لأوان سفر الركب أزيد من شهرين، فظهر لى أن أسافر إلى المَوْصل وديار بكر، لأشاهد تلك البلاد وأعود إلى بغداد فى حين سفر الركب، فأتوجه إلى الحجاز الشريف. فخرجت من بغداد إلى منزل على نهر دُجَيْل، وهو يتفرع عن دِجْلة فيسقى قرى كثيرة. ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحَرْبة، مخصبة فسيحة. ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق، وهو مبنى على دِجْلة. وفى العُدْوة الشرقية من هذا الحصن مدينة (سُرَّ من رأى)، وتسمى أيضا سَامَرَّا. وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها إلا القليل، وهى معتدلة الهواء رائقة الحسن على دُروس معالمها. وفيها أيضا مشهد صاحب الزمان كما بالحِلّة. ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا مدينة تَكْرِيت، وهى مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة المساجد. وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق، ودِجْلة فى الجهة الشمالية منها، ولها قلعة حصينة على شطّ دجلة، والمدينة عتيقة البناء عليها سور يُطيف بها. ثم رحلنا منها مرحلتين، ووصلنا إلى قرية تعرف بالعَقْر على شط دِجْله. وبأعلاها رَبْوة كان بها حصن، وبأسفلها الخان المعروف بخان الحديد. له أبراج. وبناؤه حافل، والقرى والعمارة متصلة من هنالك إلى المَوْصل.

ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالقَيَّارة، بمقربة من دجلة، وهنالك أرض سوداء فيها عيون تَنْبَع بالقار، ويصنع له أحواض ويجتمع فيها، فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض، حالك اللون صقيلا رطبا، وله رائحة طيبة. وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطُّحْلُب الرقيق، فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضا قارا. وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة، فإذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار، فتَنَشَّفُ النارُ ما هنالك من رطوبة مائية، ثم يقطعونه قطعا وينقلونه. وقد تقدم لنا ذكر العين التى بين الكوفة والبصرة على هذا النحو. ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما إلى الموصل.

مدينة المَوْصِل

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب ، وقلعتها المعروفة بالحَدْباء عظيمة الشأن ، شهيرة الامتناع ، عليها سور محكم البناء مشيد البروج ، وتتصل بها دور السلطان . وقد فصل بينها وبين البلد شارع متصل مستطيل من أعلى البلد إلى أسفله . وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة ، وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره . ولم أر في أسوار البلاد مثله إلا السور الذي على مدينة دِهْلي حضرة ملك الهند . وللموصل رَبَض(١) كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق ، وبه مسجد جامع على شط دِجْلة ، تدور به شبابيك حديد ، وتتصل به مَصَاطب تشرف على دجلة ، في النهاية من الحسن والإتقان ، وأمامه مارَسْتان . وبداخل المدينة جامعان أحدهما قديم والآخر حديث . (وقيسارية) الموصل مليحة لها أبواب حديد ، ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء . وبهذه المدينة مشهد جِرْجيس النبي (عليه السلام) وعليه مسجد ، والقبر في زاوية منه عن يمين الداخل إليه ، وهو فيما بين الجامع الجديد وباب الجسر ، وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى .

وهنالك تلّ يونس (عليه السلام) ، وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة إليه ، يقال إنه أمر قومه بالتطهر فيها ، ثم صعدوا التل ودعا ودعوا ، فكشف الله عنهم العذاب . وبمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب ، يقال إنه موضع المدينة المعروفة بنِينَوى مدينة يونس (عليه السلام) ، وأثر السور المحيط بها ظاهر . وفي التل بناء عظيم ورِباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات ، يضم الجميع باب واحد . وفي وسط الرباط بيت عليه ستر حرير ، وله باب مرصع ، يقال إنه الموضع الذي به موقف يونس (عليه السلام) . ومحراب المسجد الذي بهذا الرباط يقال إنه كان بيتَ مُتعبَّده (عليه السلام) .

(١) رَبَض المدينة ما حولها .

وأهل الموصل يخرجون فى كل ليلة جمعة إلى هذا الرباط يتعبدون فيه . وأهل الموصل لهم مكارم أخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة فى الغريب و إقبال عليه . وكان أميرها حين قدومى عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين علىّ بن شمس الدين محمد الملقب بِحَيْدر . وهو من الكرماء الفضلاء . أنزلنى بداره وأجرى علىّ الإنفاق مدة مُقَامى عنده . وله الصدقات والإيثار المعروف . وكان السلطان أبو سعيد يعظمه . وفوض إليه أمر هذه المدينة وما يليها .

و يركب فى موكب عظيم من مماليكه وأجناده . ووجوه أهل المدينة وكبراؤها يأتون للسلام عليه غُدُوّا وعشيا ، وله شجاعة ومهابة . ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرَّصَد ، وهى على نهر عليه جسر مبنى ، وبها خان كبير . ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمُوَيْلحة . ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر ، وهى مدينة كبيرة حسنة ، محيط بها الوادى ، ولذلك سميت جزيرة ، أكثرها خراب ، ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبنى بالحجارة ، محكم العمل ، وسورها مبنى بالحجارة أيضا ، وأهلها فضلاء لهم محبة فى الغرباء . و يوم نزولنا بها رأينا جبل الجُودِىّ ، المذكور فى كتاب الله عز وجل ، الذى استوت عليه سفينة نوح (عليه السلام) وهو جبل عال مستطيل .

ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا إلى مدينة نَصِيبِين ، وهى مدينة عتيقة متوسطة ، قدخَرِب أكثرها ، وهى فى بسيط أفيح فسيح ، فيه المياه الجارية ، والبساتين الملتفة ، والأشجار المنتظمة ، والفواكه الكثيرة ، وبها يصنع ماء الورد الذى لا نظير له فى الطيب . ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار ، منبعه من عيون فى جبل قريب منها ، وينقسم انقساما فيتخلل بساتينها . ويدخل منه نهر إلى المدينة فيجرى فى شوارعها ودورها ، ويخترق صحن مسجدها الأعظم ، وينصبّ فى صِهْرِيجين ، أحدهما فى وسط الصحن ،

والآخر عند الباب الشرقي ، وبهذه المدينة مَارَسْتان ، ومدرستان ، وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة . ولقد صدق أبو نُوَاس في قوله :

طابت نَصيبينُ لي يوما وطبت لها ٭ ياليت حظي من الدنيا نصيبينُ

قال ابن جُزَيّ : والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة .

ثم رحلنا إلى مدينة سِنْجار ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار والعيون المطردة والأنهار ، مبنية في سفح جبل ، تشبه بدمشق في كثرة أنهارها وبساتينها . ومسجدها الجامع مشهور البركة . ويدور به نهر ماء ويشقه . وأهل سِنْجار أكراد ولهم شجاعة وكرم .

وممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكُرْدي ، أحد المشايخ الكبار ، صاحب كرامات ، يذكر عنه أنه لا يفطر إلا بعد أربعين يوما ، ويكون إفطاره على نصف قرص من الشعير ، لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ، ودعالي وزودني دراهم لم تزل عندي إلى أن سلبني كفار الهنود إياها . ثم سافرنا إلى مدينة دارا ، وهي عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها قلعة مشرفة ، وهي الآن خراب لا عمارة بها ، وفي خارجها قرية معمورة ، بها كان نزولنا . ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة مارِدِين ، وهي عظيمة في سطح جبل ، من أحسن مدن الإسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقا . وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها من الصوف المعروف بالمِرْعِزّ [1] ؛ ولها قلعة شمَّاء في قُنّة جبلها . قال ابن جزي : قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء ، وإياها عنى شاعر العراق صفي الدين عبد العزيز بن سَرَايا الحِلّي بقوله في سِمْطه :

فدع ربوع الحِلَّة الفيحاء ٭ وازورَّ بالعيس عن الزوراء
ولا تقف بالمَوْصل الحدباء ٭ إن شهاب القلعة الشهباء
محرق شيطان صروف الدهر

---

(١) الزغب الذي تحت شعر العنز ، كما سيأتي في الحواشي .

وقلعة حلب تسمى الشهباء أيضا . وهذه المُسَمَّطة بديعة ، مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين ، وكان كريما شهير الصيت ، ولى الملك بها نحو خمسين سنة ، وأدرك أيام قازان ملك التتر ، وصاهر السلطان خُذَابَنْدَه بابنته دنيا خاتُون .

ذكر سلطان ماردين فى عهد دخولى إليها

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذى ذكرناه آنفا ، ورث الملك عن أبيه ، وله المكارم الشهيرة ، وليس بأرض العراق والشام ومصر أكرم منه : يقصده الشعراء والفقهاء فيجزل لهم العطايا جريا على سنن أبيه . قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسى المَرْوِىّ الكفيف مادحا فأعطاه عشرين ألف درهم . وله الصدقات والمدارس والزوايا لإطعام الطعام . وله وزير كبير القدر وهو الإمام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السِنْجارى ، قرأ بمدينة تِبْرِيز وأدرك العلماء الكبار . وقاضى قضاته الإمام الكامل برهان الدين المَوْصِلى . وهو ينتسب إلى الشيخ الولى فتح الموصلى . وهذا القاضى من أهل الدين والورع والفضل ، يلبس الخشن من ثياب الصوف الذى لاتبلغ قيمته عشرة دراهم ، ويعتمّ بنحو ذلك . وكثيرا ما يجلس للأحكام بصحن مسجد خارج المدرسة ، كان يتعبد فيه ، فإذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضى وأعوانه .

الرجوع إلى بغداد

ثم رحلت عائدا إلى بغداد فوصلت إلى مدينة الموصل التى ذكرناها ، فوجدت ركبها بخارجها متوجهين إلى بغداد ، وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة ، وهى من ذرية الخلفاء ، حجت مرارا وهى ملازمة الصوم . سلمت عليها وكنت فى جوارها ، ومعها جملة من الفقراء يخدُمونها .

وفى هذه الوجهة توفيت (رحمة الله عليها) وكانت وفاتها بزَرُود ، ودفنت هنالك.
ثم وصلنا إلى مدينة بغداد فوجدت الحاج فى أهبة الرحيل ، فقصدت أميرها معروف خواجه ، فطلبت منه ما أمر لى به السلطان ، فعين لى زاد أربعة من الرجال وماءهم ، وكتب لى بذلك ، ووجهه إلى أمير الركب ، وهو البهلوان محمد الحُوَيْج فأوصاه بى . وكانت المعرفة بينى وبينه متقدمة فزادها تأكيدا ، ولم أزل فى جواره وهو يحسن إلىّ ويزيدنى على ما أمر لى به . وأصابنى عند خروجنا من الكوفة إسهال ، فكانوا ينزلوننى من أعلى المحْمِل مرات كثيرة فى اليوم ، والأمير يتفقد حالى ويوصى بى ، ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى (زادها الله شرفا وتعظيما) . وطفت بالبيت الحرام (كرمه الله تعالى) طواف القُدوم . وكنت ضعيفا بحيث أؤدى المكتوبة قاعدا ، فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكبا على فرس الأمير الحُوَيْج . ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين ، فلما نزلنا مِنًى أخذت فى الراحة والإبلال من مرضى .

ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة تلك السنة . وجاور فى تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم : منهم تاج الدين بن الكُوَيْك ، ونور الدين القاضى ، وزين الدين بن الأصيل ، وابن الخليلىّ ، وناصر الدين الأسيوطى . وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفَّرية ، وعافانى الله من مرضى فكنت فى أنعم عيش ، وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار . وأتى فى أثناء تلك السنة حجاج الصعيد ، وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأُصْفُونى (وهى أول حجة حجها) ، والأخوان علاء الدين علىّ وسراج الدين عمر ، ابنا القاضى الصالح نجم الدين البالِسى قاضى مصر ، وجماعة غيرهم . وفى منتصف ذى القَعدة وصل الأمير سيف الدين يَلْمَلَك ، وهو من الفضلاء ، ووصل فى صحبته جماعة من أهل طَنجة بلدى (حرسها الله) .

وكانت وقفتنا فى تلك السنة فى يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين . ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة (حرسها الله) سنة تسع وعشرين . وفى هذه السنة وصل أحمد ابن الأمير رُمَيْثة ومبارك ابن الأمير عُطَيْفة، من العراق، فى صحبة الأمير محمد الحُوَيْج والشيخ زاده الحَرْباوى والشيخ دَانيال . وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبى سعيد ملك العراق ؛ وفى تلك السنة ذكر اسمه فى الخطبة بعد ذكر الملك الناصر . ودعوا له بأعلى قبة زمزم ، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين . ووقفنا تلك السنة وهى سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء . ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة ثلاثين . وفى موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عُطَيْفة وبين آيدَمُور أمير جَنْدار الناصرى . وسبب ذلك : أن تجارا من أهل اليمن سُرقوا ، فتشكوا إلى آيدمور بذلك ، فقال آيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة : ايت بهؤلاء السراق ؛ فقال : لا أعرفهم فكيف نأتى بهم ؟ وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم عليهم لك ، إن سُرق لأهل مصر والشام شىء فاطلبنى به . فشتمه آيدمور ، وضربه على صدره ، فسقط ووقعت عمامته عن رأسه ، وغضب له عبيده . وركب آيدمور يريد عسكره ، فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده . ووقعت الفتنة بالحرم ، وكان به الأمير أحمد بن عم الملك الناصر ؛ ورمى الترك بالنُّشاب فقتلوا امرأة قيل إنها كانت تحرض أهل مكة على القتال . وركب من بالركب من الأتراك وأميرهم خَاص تُرك ، فخرج إليهم القاضى والأئمة والمجاورون ، وفوق رءوسهم المصاحف ، وحاولوا الصلح ؛ ودخل الحجاج مكة فأخذوا مالهم بها وانصرفوا إلى مصر .

وبلغ الخبر الملك الناصر فشقّ عليه ، وبعث العساكر إلى مكة ، ففر الأمير عطيفة وابنه مبارك ، وخرج أخوه رُمَيْثة وأولاده إلى وادى نخلة . فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان

ولولده فأمنوا . وأتى رُمَيْثَـة وكَفَنُه فى يده إلى الأمير فخلع عليه، وسلمت إليه مكة ، وعاد العسكر إلى مصر . وكان الملك الناصر (رحمه الله) حليما فاضلا .
فخرجت فى تلك الأيام من مكة (شرفها الله تعالى) قاصدا بلاد اليمن فوصلت إلى حَدَّة، وهى نصف الطريق ما بين مكة وجُدَّة، ثم وصلت إلى جُدَّة وهى بلدة قديمة على ساحل البحر ، يقال : إنها من عمارة الفرس ، وبخارجها مصانع قديمة ، وبها جباب للماء منقورة فى الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض ، تفوت الإحصاء كثرة . وكانت هذه السنة قليلة المطر، وكان المـاء يجاب إلى جدة على مسيرة يوم ، وكان الحجاج يسألون المـاء من أصحاب البيوت .

حكاية

ومن غريب ما اتفق لى بجـدة أنه وقف على بابى سـائل أعمى يطلب المـاء، يقوده غلام ، فسلم علىّ وسمانى باسمى وأخذ بيدى، ولم أكن عرفته قط ولا عرفنى . فعجبت من شأنه . ثم أمسك أصبعى بيـده وقال : أين الفَتْخة[1] (وهى الخاتم)؟ وكنت حين خروجى من مكة قد لقينى بعض الفقراء وسألنى، ولم يكن عندى فى ذلك الحين شىء، فدفعت له خاتمى ؛ فلما سألنى عنه هذا الأعمى، قلت له : أعطيته فقيرا ، فقال : ارجع فى طلبه فإن فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار ؛ فطـال تعجبى منه ومن معرفته بذلك كله ، والله أعلم بحاله .

وكان الأمير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق ، وقاضيها وخطيبها الفقيـه عبد الله من أهل مكة ، شافعى المذهب . وإذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصـلاة ، أتى المؤذن وعد أهـل جدة المقيمين بهـا ، فإن كملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعـة ، وإن لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا

---

(١) الفتخة — خاتم كبير يكون فى اليد والرجل . قاموس .

أربعا . ولا يعتبر من ليس من أهلها ، وإن كانوا عددا كثيرا . ثم ركبنا البحر من جُدّة فى مركب يسمونه الجَلْبة ، وكان لرشيد الدين الألفى اليمنى الحبشى الأصل ، وركب الشريف منصور بن أبى نُمَىّ فى جلبة أخرى ، ورغب فى أن أكون معه ، فلم أفعل لكونه كان معه فى جلبته الجمال . فخفت من ذلك ، ولم أكن ركبت البحر قبلها . وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم فى (الجلب) وهم متأهبون للسفر .

حكاية

ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه (بعديلة) دقيق (وهى نصف حمل) ، (وبطة) سمن ، يأخذهما من (جَلَب) أهل اليمن . فأخذهما وأتى بهما إليه ، فأتانى التجار باكين ، وذكروا لى أن فى جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نُقْرة[1] ، ورغبوا منى أن أكلمه فى ردها وأن يأخذ سواها ، فأتيته وكلمته فى ذلك وقلت له : إن للتجار فى جوف هذه (العديلة) شيئا ، فقال : إن كان سَكَرا[2] فلا أرده إليهم ، وإن كان سوى ذلك فهو لهم ، ففتحوها فوجدوا الدراهم فردها إليهم ، وقال لى : لو كان عَجْلان ماردّها ، وعجلان هو ابن أخيه رُمَيثة ، وكان قد دخل فى تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق كان قاصدا لليمن ، فذهب بمعظم ما كان فيها ، وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد . وقد صَلَح حاله وأظهر العدل والفضل .

ثم سافرنا فى هذا البحر بالريح الطيبة يومين ، وتغيرت الريح بعد ذلك ، وصدتنا عن السبيل التى قصدناها ، ودخلت أمواج البحر معنا فى المركب ، واشتد المَيْدُ[3] بالناس ، ولم نزل فى أهوال حتى خرجنا فى مَرْسى يعرف برأس

(١) من الفضة .
(٢) نبيذ التمر .
(٣) الميد : الحركة والاضطراب .

دوائر، فيما بين عَيْذاب وسواكن ، فنزلنا به ، ووجدنا بساحله عَريش قصب على هيئة مسجد ، وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء ، فشربنا منه وطبخنا . ورأيت بذلك المرسى عجبا : وهو خَوْر مثل الوادى يخرج من البحر ، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا ، كل سمكة منها قدر الذراع ، ويعرفونه بالبُورى . فطبخ منه الناس كثيرا واشتووا . وقصدت إلينا طائفة من البُجاة وهم سكان تلك الأرض ، سود الألوان ، لباسهم الملاحف الصفر ، ويشدون على رءوسهم عصائب حمرا فى عرض الأصبع ، وهم أهل نَجْدة وشجاعة ، وسلاحهم الرماح والسيوف ، ولهم جمال يسمونها الصُّهب ، يركبونها بالسروج . فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم فى برية كثيرة الغزلان ، والبجاة لا يأكلونها ، فهى تأنس بالآدمى ولا تنفر منه . وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حى من العرب يعرفون بأولاد كاهِلٍ ، مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم . وفى ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن ، وهى على نحو ستة أميال من البر ، ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر ، والماء يجلب إليها فى القوارب ، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر ، وهى جزيرة كبيرة ، وبها لحوم النعام والغزلان وحُمُر الوحش . والمِعْزَى عندهم كثير ، والألبان والسمن ، ومنها يجلب إلى مكة ، وحبوبهم (الجُرْجُور)(١) وهو نوع من الذرة كبير الحب ، يجلب منها أيضا إلى مكة .

ذكر سلطانها

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولى إليها الشريف زيد بن أبى نُمَىّ ، وأبوه أمير مكة ، وأخواه أميراها بعده ، وهما عُطَيْفة ورُمَيْثة اللذان تقدم ذكرهما ، وصارت إليه من قبل البجاة ، فإنهم أخواله ، ومعه عسكر من البجاة وأولاد كاهل وعرب جُهَيْنة .

(١) الغالب أن اللفظ غير عربى بهذا المعنى .

وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن . وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره ، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ، ويرسون وينزلون إلى البر . فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب . وهم يسمون رئيس المركب الرُّبان ، ولا يزال أبدا فى مقدم المركب ينبه صاحب السُّكَّان (١) على الأحجار ، وهم يسمونها النبات . وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا إلى مدينة حَلِى وتعرف باسم ابن يعقوب . وكان من سلاطين اليمن ساكنا بها قديما . وهى كبيرة حسنة العمارة . يسكنها طائفتان من العرب وهم : بنوحَرَام ، وبنوكِنانة . وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع ، وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة . منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قَبُولة الهندى ، من كبار الصالحين ، لباسه : مُرَقَّعة وقلنسوة لِبْد ، وله خلوة متصلة بالمسجد ، فرشها الرمل ، لا حصير بها ولا بساط ، ولم أر بها حين لقائى له شيئا إلا إبريق الوضوء ، وسُفْرة من خوص النخيل فيها كِسَر شعير يابسة ، وصُحَيْفَه فيها ملح وسَعْتر ، فإذا جاءه أحد قدَّم بين يديه ذلك ، من غير تكلف شىء . وإذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدى الشيخ إلى صلاة المغرب . وإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل ، فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة . فإذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر إلى ثلث الليل ، ثم انصرفوا . ويعودون فى أول الثلث الثالث إلى المسجد فيتهجدون إلى الصبح ، ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة الإشراق فينصرفون بعد صلاتها . ومنهم من يقيم إلى أن يصلى صلاة الضُّحَا بالمسجد ، وهذا دأبهم أبدا . ولقد كنت أردت الإقامة معهم باقى عمرى فلم أوفق لذلك ، والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه .

(١) ذنب السفينة ، وهو ما به توَجَّه .

ذكر سلطان حَلِى

وسلطانها عامر بن ذُؤَيب من بني كنانة ، وهو من الفضلاء الأدباء الشعراء ، صحبته من مكة إلى جُدَّة وكان قد حج في سنة ثلاثين . ولما قدمت مدينته أنزلني وأكرمني . وأقمت في ضيافته أياما . وركبت البحر في مركب له ، فوصلت إلى بلدة السَّرْجة ، بلدة صغيرة يسكنها طائفة من تجار اليمن ، أكثرهم ساكنون بصَعْداء ، ولهم فضل وكرم وإطعام لأبناء السبيل . ويعينون الحجاج ويركبونهم في مراكبهم ويزودونهم من أموالهم ، وقد عرفوا بذلك واشتهروا به . وكثر الله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير . وليس بالأرض من يماثلهم في ذلك إلا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القَحْمة ، فله مثل ذلك من المآثر والإيثار . وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة في ضيافة المذكورين . ثم رحلنا إلى مرسى (الحادث) ولم ننزل به ، ثم إلى مرسى (الأبواب) ، ثم إلى مدينة زَبيد ، مدينة عظيمة باليمن ، بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا . وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها ، واسعة البساتين ، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره ، وهي بَرِّيَّة لاشَطِّية ، إحدى قواعد بلاد اليمن ، مدينة كبيرة كثيرة العمارة ، بها النخل والبساتين والمياه ، أملح بلاد اليمن وأجملها ، ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور ، ولنسائها الحسن الفائق الفائت . وهي وادي الحُصَيْب الذي يذكر في بعض الآثار أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لمعاذ في وصيته : يامعاذ ، إذا جئت وادي الحُصَيب فهرول . ولأهل هذه المدينة سُبُوت النخل المشهورة : وذلك أنهم يخرجون في أيام البُسْر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل ، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ، ويخرج أهل الطرب ، وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات . ويخرج النساء

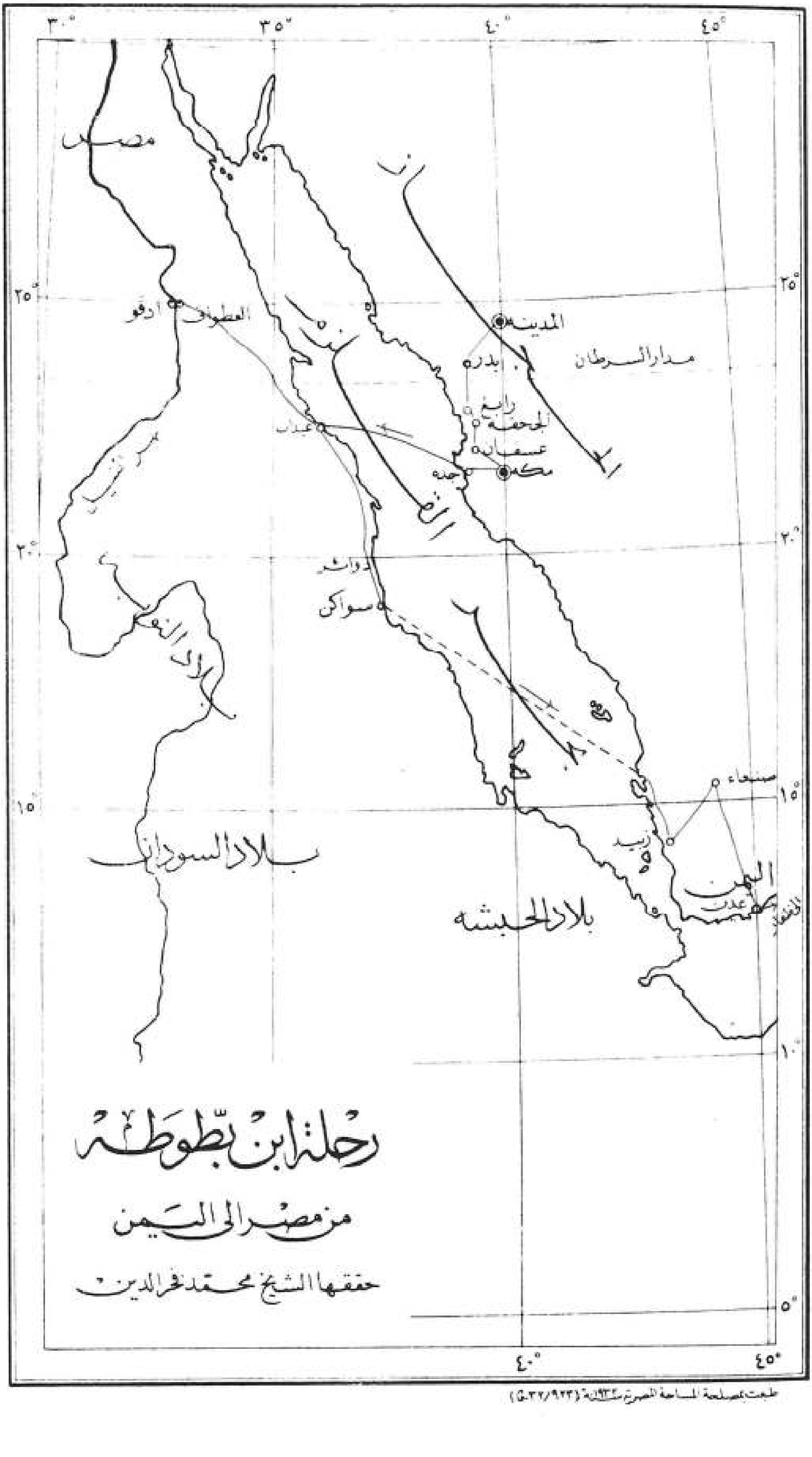

طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٣ (G-٣٢/٩٢٣)

ممتطيات الجمال فى المحامل ، ولهن مع ماذكرناه من الجمال الفائت والأخلاق الحسنة والمكارم . وللغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه كما تفعله نساء بلادنا . فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته . وإن كان بينهما ولد فهى تَكْفُلُه وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كُسْوة ولا سواها . وإذا كان مقيما فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة . لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبدا . ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل . وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق . لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصَّنْعانى ، والفقيه الصوفى المحقق أبا العباس الأَبْيانى ، والفقيه المحدث أبا على الزَّبيدى ، ونزلت فى جوارهم فأكرمونى وأضافونى ، ودخلت حدائقهم . واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضى العالم أبى زيد عبد الرحمن الصوفى ، أحد فضلاء اليمن ، ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العُجَيْل اليمنى ، وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات .

كرامة له

ذكروا أن فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة إلى زيارة الشيخ أحمد بن العُجيل ، فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ، ولم يبرح الشيخ موضعه ، فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ، ووقع بينهم الكلام فى مسألة القَدَر ، وكانوا يقولون أن لا قدر ، وأن المكلف يخلق أفعاله ، فقال لهم الشيخ : فإن كان الأمر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا ؛ فأرادوا القيام فلم يستطيعوا ، وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية ، وأقاموا كذلك ، واشتد بهم الحر ، ولحقهم وهج الشمس ، وضجوا مما نزل بهم ، فدخل أصحاب الشيخ إليه وقالوا له : إن هؤلاء القوم قد تابوا إلى الله ورجعوا عن مذهبهم

الفاسد ، فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم ، وعاهدهم على الرجوع إلى الحق وترك مذهبهم السيّئ ، وأدخلهم زاويته فأقاموا فى ضيافته ثلاثا . وانصرفوا إلى بلادهم(١) . وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح ، وهو بقرية يقال لها غَسَّانة خارج زَبِيد ، ولقيت ولده الصالح أبا الوليد إسماعيل ، فأضافنى وبت عنده ، وزرت ضريح الشيخ وأقمت معه ثلاثا . وسافرت فى صحبته إلى زيارة الفقيه أبى الحسن الزَّيْلَعى ، وهو من كبار الصالحين . وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه . فوصلنا إلى جَبَلة ، وهى بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار ، فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعى بقدوم الشيخ أبى الوليد ، استقبله وأنزله بزاويته . وسلمت عليه معه ، وأقمنا عنده ثلاثة أيام فى خير مُقام . ثم انصرفنا ، وبعث معنا أحد الفقراء ، فتوجهنا إلى مدينة تَعِزّ ، حضرة ملك اليمن ، وهى من أحسن مدن اليمن وأعظمها . وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة ، وكذلك الغالب على البلاد التى يسكنها الملوك . وهى ثلاث محلات : إحداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته ، وتسمى باسم لا أذكره ، والثانية يسكنها الأمراء والأجناد وتسمى عُدَيْنَة ، والثالثة يسكنها عامة الناس ، وبها السوق العظمى وتسمى المحَالِب .

ذكر سلطان اليمن

وهو السلطان المجاهد نور الدين على ابن السلطان المؤيد هِزَبْر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن علىّ بن رسول ، شهر جده برسول لأن أحد خلفاء بنى العباس أرسله إلى اليمن ليكون بها أميرا ، ثم استقلّ أولاده بالملك . وله ترتيب عجيب فى قعوده وركوبه . وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذى بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعى فى صحبتى ، قصدنى إلى

(١) من المبالغات .

قاضى القضاة الإمام المحدث صفى الدين الطبرى المكى ، فسلمنا عليه ورحب بنا ، وأقمنا بداره فى ضيافته ثلاثا . فلما كان فى اليوم الرابع (وهو يوم الخميس) وفيه يجلس السلطان لعامة الناس ، دخل بى عليه ، فسلمت عليه . وكيفية السلام عليه : أن يمس الانسان الأرض بسبابته ، ثم يرفعها إلى رأسه و يقول : أدام الله عزك ! ففعلت كمثل ما فعله القاضى . وقعد القاضى عن يمين الملك . وأمرنى فقعدت بين يديه ، فسألنى عن بلادى وعن مولانا أمير المسلمين جواد الأجود أبى سعيد (رضى الله عنه) ، وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللُّور . فأجبته عما سأل من أحوالهم . وكان وزيره بين يديه فأمره بإكرامى و إنزالى . وترتيب قعود هذا الملك : أنه يجلس فوق دكانة[1] مفروشة مزينة بثياب الحرير ، وعن يمينه و يساره أهل السلاح ، ويليه منهم أصحاب السيوف والدَّرَق ، و يليهم أصحاب القِسِىّ ، و بين أيديهم فى الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر ، وأمير (جَنْدار) على رأسه ، (والشَّاوُشِيَّة) وهم من (الجنادرة) وقوف على بعد . فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة : باسم الله ، فإذا قام فعلوا مثل ذلك ، فيعلم جميع من بالمَشْوَر[2] وقت قيامه ووقت قعوده . فإذا استوى قاعداً دخل كل من عادته أن يسلم عليه ، فسلم ووقف حيث رسم له فى الميمنة أو الميسرة ، لا يتعدى أحد موضعه ، ولا يقعد إلا من أمر بالقعود : يقول السلطان للأمير (جندار) : مر فلانا يقعد ، فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا ، و يقعد على بساط هنالك بين أيدى القائمين فى الميمنة والميسرة . ثم يؤتى بالطعام ، وهو طعامان : طعام العامة ، وطعام الخاصة . فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضى القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف . وأما

---

(١) الذى فى كتب اللغة (دكان) لا دكانة ، وقد نبها على ذلك فى الحواشى الآتية .

(٢) سبق تفسيرها .

الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد . ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم أحدا . وعلى مثل هذا الترتيب سواء ، ترتيب ملك الهند فى طعامه ، فلا أعلم أسلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند ؟ وأقمت فى ضيافة سلطان اليمن أياما ، وأحسن إلىّ وأركبنى .

مدينة صَنْعاء

وانصرفت مسافرا إلى مدينة صنعاء ، وهى قاعدة بلاد اليمن الأولى ، مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص ، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع ، معتدلة الهواء طيبة الماء . ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل فى أيام القيظ . وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الأوان ، فالمسافرون لايستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر ، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة . ومدينة صنعاء مفروشة[1] كلها ، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها . وجامع صنعاء من أحسن الجوامع ، وفيه قبر نبى من الأنبياء (عليهم السلام) .

مدينة عَدَن

ثم سافرت منها إلى مدينة عدن مَرْسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم ، والجبال تحف بها ، ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد ، وهى مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء ، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر ، والماء على بعد منها ، فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم

---

(١) مبلطة .

بالمال والثياب . وهى شديدة الحر . وهى مرسى أهل الهند ، تأتى إليها المراكب العظيمة . وتجار الهند ساكنون بها ، وتجار مصر أيضا . وأهل عدن مابين تجار وحمالين وصيادين للسمك . وللتجار منهم أموال عريضة ، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع مافيه ، لايشاركه فيه غيره ، لسعة ما بين يديه من الأموال . ولهم فى ذلك تفاخر ومباهاة .

ونزلت فى عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفارى ، فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار ، وله غلمان وخدام أكثر من ذلك . ومع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق ، يحسنون إلى الغريب ويؤثرون الفقير ، ويعطون حق الله من الزكاة على مايجب . ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبدالله الهندى ، وكان والده من العبيد الحمالين ، واشتغل ابنه بالعلم فرَأَسَ وساد . وهو من خيار القضاة وفضلائهم ، أقمت فى ضيافته أياما . وسافرت من مدينة عدن فى البحر أربعة أيام ووصلت إلى مدينة زَيْلَع .

مدينة زَيْلَع

وهى مدينة البرابرة ، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب ، وبلادهم صحراء مسيرة شهرين ، أولها زيلع وآخرها مَقْدَشَوْ . ومواشيهم الجمال ، ولهم أغنام مشهورة السمن . وأهل زيلع سود الألوان ، وأكثرهم رافضة . وهى مدينة كبيرة لهاسوق عظيمة ، إلا أنها أقذرمدينة فى المعمور وأوحشها وأكثرها نَتْنا . وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التى ينحرونها فى الأزقة . ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم نبت بها لقذرها . ثم سافرنا منها فى البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو ، وهى مدينة متناهية فى الكبر ، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين فى كل يوم ، ولهم أغنام كثيرة . وهم تجار أقوياء . وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها التى لانظير لها ،

ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها . ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق[١] وهى القوارب الصغار إليه ، ويكون فى كل (صُنْبوق) جماعة من شبان أهلها ، فيأتى كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام ، فيقدمه لتاجر من تجار المركب ، ويقول : هذا نزيلى ! وكذلك يفعل كل واحد منهم . ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان ، إلا من كان كثير التردد إلى البلد وعرف أهله ، فإنه ينزل حيث شاء . فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له .

ولما صعد الشبان إلى المركب الذى كنت فيه جاء إلىّ بعضهم فقال له أصحابى : ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه ، فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضى ، وكان فيهم أحد أصحاب القاضى ، فعرّفه بذلك ، فأتى إلى ساحل البحر فى جملة من الطلبة ، وبعث إلىّ أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابى ، وسلمت على القاضى وأصحابه ، وقال لى : باسم الله نتوجه للسلام على الشيخ ، فقلت : ومن الشيخ ؟ فقال السلطان ، وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ ، فقلت له : إذا نزلت توجهت إليه . فقال لى : إن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان . فذهبت معهم إليه كما طلبوا .

ذكر سلطان مَقْدَشُو

وسلطان مقدشو ، كما ذكرناه ، إنما يقولون له الشيخ ، واسمه أبو بكر ابن الشيخ عمر . وهو فى الأصل من البرابرة ، وكلامه بالمقدشى ، ويعرف اللسان العربى . ومن عاداته أنه متى وصل مركب يصعد إليه صنبوق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم ؟ ومن صاحبه ؟ ومن رُبَّانه (وهو الرئيس)

(١) اللفظ غير عربى .

وما وسْقُه(١)؟ ومن قدم فيه من التجار وغيرهم؟ فيعرف بذلك كله، ويعرض على السلطان، فمن استحق أن ينزله عنده أنزله. ولما وصلت مع القاضى المذكور (وهو يعرف بابن البرهان المصرى الأصل) إلى دار السلطان، خرج بعض الفتيان فسلم على القاضى، فقال له: بلغ الأمانة. وعرّف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز، فبلّغ. ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق(٢) التانْبُول والفَوْفَل(٣)، فأعطانى عشر أوراق مع قليل من الفوفل، وأعطى القاضى كذلك، وأعطى أصحابى وطلبة القاضى ما بقى فى الطبق، وجاء بِقُمْقُم من ماء الورد الدِّمَشْقى فسكب علىّ وعلى القاضى. وقال: إن مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة (وهى دار مُعَدَّة لضيافة الطلبة). فأخذ القاضى بيدى وجئنا إلى تلك الدار، وهى بمقربة من دار الشيخ، مفروشة مرتبة بما تحتاج إليه. ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه، وهو الموكل بالضيوف، فقال: مولانا يسلم عليكم ويقول لكم: قدمتم خير مَقْدَم. ثم وضع الطعام فأكلنا. وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن، يجعلونه فى صَحْفة خشب كبيرة، ويجعلون فوقه صحاف (الكوشان). وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول، ويطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن الحليب، ويجعلونه فى صحفة، ويجعلون اللبن الرائب فى صحفة، ويجعلون عليه الليمون، وعناقيد الفلفل المخلّل والمملوح، والزنجبيل الأخضر، والعنبا(٤)، وهى مثل التفاح، ولكن لها نواة، وهى إذا نَضِجت شديدةُ الحلاوة، وتؤكل كالفاكهة، وقبل نضجها حامضة كالليمون،

---

(١) وَسْقُهُ: حِمْلُه.

(٢) ضرب من اليقطين طعم ورقه كالقرنفل، ومُشّه مطرب. قاموس.

(٣) الفوفل: نوع من النخل كنخل النارجيل تحمل كبائس فيها الفوفل أمثال التمر. قاموس.

(٤) المنجو كما يأتى فى الحواشى والكلمة غير عربية.

يصبّرونها فى الخل . وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هـذه المواخ والمخللات . والواحد من أهل مَقْدَشَوْ يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة ، وهم فى نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها . ثم لما طَعِمْنا انصرف عنا القاضى . وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى إلينا بالطعام ثلاث مرات فى اليوم (وتلك عادتهم) . فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة جاءنى القاضى والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتونى بكسوة . وكسوتهم فوطة خَزٍّ يشدها الإنسان فى وسطه عوض السراويل ، فإنهم لا يعرفونها ، ودُرّاعة من المقطع المصرى مُعْلَمَة ، وفرجية من القُدْسى⁽¹⁾ مبطنة ، وعمامة مصرية معلمة . وأتوا لأصحابى بكسا تناسبهم . وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة ، فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضى ، فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضى ، ثم قال باللسان العربى : قدمت خير مقدم ، وشرفت بلادنا وآنستنا . وخرج إلى صحن المسجد ، فوقف على قبر والده (وهو مدفون هنالك) فقرأ ودعا ، ثم جاء الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فسلموا . وعادتهم فى السلام كعادة أهل اليمن : يضع سبّابته فى الأرض ثم يجعلها على رأسه ويقول : أدام الله عزك ! ثم خرج الشيخ من باب المسجد ، فلبس نعليه ، وأمر القاضى أن ينتعل ، وأمرنى أن أنتعل ، وتوجه إلى منزله ماشيا وهو بالقرب من المسجد ، ومشى الناس كلهم حُفاة . ورفعت فوق رأسه أربع قِباب من الحرير الملون ، وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب ، وكان لباسه فى ذلك اليوم فرجية قُدْسية خضراء ، وهو متقلد بفوطة حرير ، ومعتم بعمامة كبيرة . وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار ، وأمراء الأجناد أمامه وخلفه ، والقاضى والفقهاء والشرفاء معه . ودخل إلى (مشوره) على تلك الهيئة ، وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فى سقيفة هنالك ، وفرش للقاضى بساط لا يجلس معه غيره عليه ، والفقهاء والشرفاء معه . ولم يزالوا كذلك

(1) نسبة الى القدس .

إلى صلاة العصر . فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأجناد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهم ، ثم ضربت الأطبال والأنفار والأبواق والصُّرنايات . وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه ، ومن كان ماشيا وقف فلم يتحرك إلى خلف ولا إلى أمام . فإذا فرغ من ضرب (الطبلخانة) سلموا بأصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا . وتلك عادة لهم فى كل يوم جمعة . وإذا كان يوم السبت يأتى الناس إلى باب الشيخ فيقعدون فى سقائف خارج الدار ، ويدخل القاضى والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى (المشور) الثانى ، فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك ، ويكون القاضى على دكان وحده ، وكل صنف على دكان لا يشاركهم فيه سواهم . ثم يجلس الشيخ بمجلسه . ويبعث إلى القاضى فيجلس عن يساره ، ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ، وسائرهم يسلمون وينصرفون ، ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ، ويسلم سائرهم وينصرفون ، وإن كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه . ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ، ويسلم سائرهم وينصرفون ، ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد : طائفة بعد طائفة أخرى ، فيسلمون وينصرفون . ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدى الشيخ القاضى والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس ، ويأكل الشيخ معهم . وإن أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث إليه فأكل معه ، ويأكل سائر الناس بدار الطعام . وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم فى الدخول على الشيخ . ثم يدخل الشيخ إلى داره ، ويقعد القاضى والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات ، فما كان متعلقا بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضى ، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشُّورى ، وهم الوزراء والأمراء . وما كان مفتقرا إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه فيه ، فيخرج لهم الجواب من حينه ، على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره ، وتلك عادتهم دائما .

ثم ركبت البحر من مدينة مَقْدَشَوْ متوجها إلى بلاد السواحل قاصدا مدينة كُلْوَا من بلاد الزنوج .

مدينة كُلْوَا

فوصلنا إلى جزيرة مَنْبَسَى (١) ، وهى جزيرة كبيرة بينها و بين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ، ولا برّ لها . وأشجارها الموز والليمون والأُتْرُجّ ، ولهم فاكهة يسمونها الجَمُّون ، وهى شبه الزيتون ، ولهانوى كنواه ، إلا أنها شديدة الحلاوة . ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة و إنما يجلب إليهم من السواحل ، وأكثر طعامهم الموز والسمك . وهم شافعية المذهب ، أهل دين وعفاف وصلاح . ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان ، وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان ، وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان ، فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق فى طول الذراع . والأرض حول البئر والمسجد مسطحة ، فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل . و يكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه . ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه وتوضأ . وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام .

و بتنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كُلْوَا ، وهى مدينة عظيمة ساحلية ، أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ، ولهم شرطات فى وجوههم كما هى فى وجوه الليميين (٢) من جنادة . وذكر لى بعض التجار أن مدينة سُفَالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا ، وأن بين سُفَالة و يُوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر . ومن يوفى يؤتى بالتبر إلى سُفالة .

ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلها بالخشب . والأمطار بها كثيرة . وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج . والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب .

---

(١) فى ياقوت : مَنْبَسَة .

(٢) الليميين : فى بعض الكتب اليمنيين .

ذكر سلطان كُلْوَا

وكان سلطانها فى عهد دخولى إليها أبو المظفّر حسن ، وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج ، يغير عليهم و يأخذ الغنائم فيخرج خمسها ، و يصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة ، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم . وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة . وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ، ويعظم أهل الدين والشرف .

حكاية من مكارمه

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصدا إلى داره ، فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له : يا أبا المواهب ! فقال : لبيك يافقير ، ماحاجتك ؟ قال أعطنى هذه الثياب التى عليك . فقال له : نعم أعطيكها ؛ قال : الساعة ؟ قال : نعم الساعة . فرجع إلى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب ، وقال للفقير : ادخل فخذها . فدخل الفقير وأخذها وربطها فى منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف . فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه ؛ وأخذ ابنه ولىّ عهده تلك الكسوة من الفقير وعوّضه عنها بعشرة من العبيد . وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك ، فأمر للفقير أيضا بعشرة رءوس من الرقيق ، وحِمْلين من العاج . ومعظم عطاياهم العاج وقلما يعطون الذهب . ولما توفى هذا السلطان الفاضل الكريم ، رحمة الله عليه ، ولى أخوه داود ، فكان على الضد من ذلك ، إذا أتاه سائل يقول له : مات الذى كان يعطى ولم يترك من بعده ما يعطى ؛ ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة ، وحينئذ يعطيهم القليل ، حتى انقطع الوافدون عن بابه .

وركبنا البحر من كُلْوا إلى مدينة ظَفَارِ الحُمُوض ، وهى آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندى ، ومنها تحمل الخيل العِتاق إلى الهند . ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند ، مع مساعدة الريح ، فى شهر كامل ، قد قطعته مرة من قَالِقُوط من بلاد الهند إلى ظفار فى ثمانية وعشرين يوما بالريح الطيبة ، لم ينقطع لنا جرى بالليل ولا بالنهار . وبين ظفارِ وعدن فى البرِ مسيرة شهر فى صحراء ، وبينها وبين حَضْرَمَوْت ستة عشر يوما ، وبينها وبين عُمان عشرون يوما . ومدينة ظفارِ فى صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها . والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحَرْجاء ، وهى من أقذر الأسواق وأشدها نَتْنا ، وأكثرها ذبابا ، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك . وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين ، وهو بها فى النهاية من السمن . ومن العجائب أن دوابهم إنما علفها من هذا السردين ، وكذلك غنمهم ، ولم أر ذلك فى سواها . وأكثر باعتها الخدم . وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء . وكيفية سقيهم أنهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ، ويصبونها فى صِهريج يسقون منه . ولهم قمح يسمونه العَلَس (1) وهو فى الحقيقة نوع من السُّلْت (2) . والأرز يجلب إليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم .

ودراهم هذه المدينة من النحاس والقَصْدير ولا تَنْفُق فى سواها . وهم أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها . ومن عادتهم أنه إذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل وصعدوا فى (صنبوق) إلى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللرُّبان ، وهو الرئيس ،

---

(1) فى القاموس : ضرب من البر تكون حبتان فى قشر ، وهو طعام صنعاء .

(2) فى القاموس : ضرب من الشعير .

وكاتب المركب . ويؤتى إليهم بثلاثة أفراس فيركبونها . وتضرب أمامهم الأطبال والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان ، فيسلمون على الوزير وأمير جَنْدار . وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا . وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان . وهم يفعلون ذلك استجلابا لأصحاب المراكب . وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ، ولباسهم القطن وهو يجلب إليهم من بلاد الهند ، ويشدون الفوط فى أوساطهم عوض السراويل ، وأكثرهم يشد فوطة فى وسطه ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر . ويغتسلون مرات فى اليوم . وهى كثيرة المساجد ، ولهم فى كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال . ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا . والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف بداء الفيل ، وهو انتفاخ القدمين . ومن عاداتهم الحسنة التصافح فى المسجد أثر صلاة الصبح والعصر ، يستند أهل الصف الأول إلى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم ، وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة ، يتصافحون أجمعون . ومن خواص هذه المدينة وعجائبها أنه لا يقصدها أحد بسوء إلا عاد عليه مكروه . وحيل بينه وبينها ؛ وذكر لى : أن السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه صاحب هُرْمُز ، نازلها مرة فى البر والبحر ، فأرسل الله (سبحانه) عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ، ورجع عن حصارها وصالح ملكها . وكذلك ذكر لى : أن الملك المجاهد سلطان اليمن عيَّن ابن عم له بعسكر كبير لانتزاعها من يد ملكها (وهو أيضا ابن عمه) ، فلما خرج ذلك الأمير عن داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعا ، ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها . ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب فى شئونهم : نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم وهو عيسى بن على ، كبير القدر كريم النفس ، فكان له جوار مسميات بأسماء

خدم المغرب ، إحداهن اسمها بخيتة والأخرى زاد المال . ولم أسمع هذه الأسماء فى بلد سواها . وأكثر أهلها رءوسهم مكشوفة لايجعلون عليها العمائم . وفى كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة فى البيت يصلى عليها صاحب البيت ، كما يفعل أهل المغرب . وأكلهم الذرة ؛ وهذا التشابه كله مما يقوى القول بأن صَنْهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حِمْيَر . ويقرب من هذه المدينة — بين بساتينها — زاوية الشيخ الصالح العابد أبى محمد بن أبى بكر ابن عيسى ، من أهل ظَفَار ؛ وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون إليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها ، فإذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه ؛ رأيت بها شخصا ذكر لى : أن له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان . وفى الأيام التى كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح . أتيت هذه الزاوية فبت بها فى ضيافة الشيخين أبى العباس أحمد وأبى عبد الله محمد ابنى الشيخ أبى بكر المذكور ، وشاهدت لهما فضلا عظيما . ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذى غسلنا به فشرب منه ، وبعث الخادم بباقيه إلى أهله وأولاده فشربوه ، وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم . وكذلك أضافنى قاضيها الصالح أبو هاشم عبدالملك الزَّبِيدى ، وكان يتولى خدمتى وغسل يدى بنفسه ولا يكل ذلك إلى غيره . وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث ، وهى معظمة عندهم . ومن عادة الجند أنه إذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم ، استجاروا بهذه التربة ، وأقاموا فى جوارها إلى أن يعطوا أرزاقهم . وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف وهى منازل عاد . وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر ، وحوله قرية لصيادى السمك . وفى الزاوية قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر (عليه أفضل الصلاة والسلام) . وقد ذكرت أن بمسجد دمشق موضعا عليه مكتوب : هذا قبر هود بن عابر ؛ والأشبه أن يكون قبره بالأحقاف لأنها بلاده (والله أعلم) . ولهذه المدينة

بساتين فيها موز كثير كبير الجِرْم ، وُزِنت بحَضْرى حبة منه فكان وزنها اثنتى عشرة أوقية ، وهو طيب المطعم شديد الحلاوة ، وبها أيضا التانبُول والنارجيل المعروف بجوز الهند ، ولا يكونان إلا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند وقربها منها ، اللهم الا أن فى مدينة زَبيد فى بستان السلطان شجيرات من النارجيل . وإذ قد وقع ذكر التانبُول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما .

ذكر التانبُول

والتانبول شجر يغرس كما تغرس دوالى العنب ، ويصنع له مُعرَّشات من القصب كما يصنع لدوالى العنب ، أو يغرس فى مجاورة شجرة النارجيل ، فيصعد فيها كما تصعد الدوالى ، وكما يصعد الفلفل ، ولاثمر للتانبُول ، وإنما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العُلَّيْق ، وأطيبه الأصفر ، وتجنى أوراقه فى كل يوم . وأهل الهند يعظمون التانبول تعظيما شديدا ، وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها ، ولا سيما إن كان أميرا أو كبيرا . وإعطاؤه عندهم أعظم شأنا وأدل على الكرامة من إعطاء الفضة والذهب . وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفَوْفَل وهو شبه جوز الطيب . فيكسر حتى يصير أطرافا صغارا ، ويجعله الانسان فى فمه ويَعلُكه ، ثم يأخذ ورق التانبُول فيجعل عليها شيئا من النُّورة ويمضغها مع الفوفل ؛ وخاصَّته أنه يطيب النكهة[1] ، ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ، ويفرح أكله . ويجعله الإنسان عند رأسه ليلا ، فإذا استيقظ من نومه أخذ منه فيذهب بما فى فمه من رائحة كريهة ؛ ولقد ذكر لى أن جوارى السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره . وسنذكره عند ذكر بلاد الهند .

(١) ريح الفم .

ذكر النَّارَجيل[1]

وهو جوز الهند ، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأنا وأعجبها أمرا . وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما[2] ، إلا أن هذه تثمر جوزا وتلك تثمر تمرا . وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيها شبه العينين والفم ، وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء ، وعليها ليف شبه الشعر ، وهم يصنعون به حبالا يخيطون بها المراكب عوضا من مسامير الحديد ، ويصنعون منه الحبال للمراكب ، والجوزة منها (وخصوصا التي بجزائر ذِيبَة المَهَل) تكون بمقدار رأس الآدمي . ويزعمون أن حكيما من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلا بملك من الملوك ومعظما لديه ، وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة ، فقال الحكيم للملك : إن رأس هذا الوزير إذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر ثمرا عظيما يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا ؛ فقال له الملك : فإن لم يظهر من رأس الوزير ماذكرته ؟ قال : إن لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه . فأمر الملك برأس الوزير فقطع ، وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة ، وأثمرت هذا الجوز . وهذه الحكاية من الأكاذيب ، ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم . ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن وإسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه ؛ ومن عجائبه : أنه يكون في ابتداء أمره أخضر ، فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة .

---

(١) ضبطت هذه الكلمة في القاموس بكسر الراء .

(٢) فيه نظر .

ويُتغذى به ، ومنه كان غذائى أيام إقامتى بجزائر ذِيبَة المهَل مدة عام ونصف عام . وعجائبه أنه يصنع منه الزيت والحليب والعسل . فأما كيفية صناعة العسل منه فإن خدام النخل يصعدون إلى النخلة غدوا وعشيا إذا أرادوا أخذ مائها الذى يصنعون منه العسل ، فيقطعون العِذْق الذى يخرج منه الثمر، ويتركون منه مقدار أصبعين ، ويربطون عليه قِدْرا صغيرة ، فيقطر فيها الماء الذى يسيل من العذق . فإذا ربطها غُدْوة صعد إليها عَشِيًّا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور ، أحدهما مملوء ماء ، فيصب ما اجتمع من ماء العذق فى أحد القدحين ويغسله بالماء الذى فى القدح الآخر ، ويَنْجُر(١) من العذق قليلا ، ويربط عليه القدر ثانية . ثم يفعل غُدْوة كفعله عشيا ، فإذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب إذا صنع منه الرُّب ، فيصير عسلا عظيم النفع طيبا ، فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ، ويحملونه إلى بلادهم ويصنعون منه الحلواء . وأما كيفية صنع الحليب منه فإن بكل دار شبه الكرسى ، تجلس فوقه المرأة ، ويكون بيدها عصا فى أحد طرفيها حديدة مُشْرفة ، فيفتحون فى الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ، ويَجْرُشُون(٢) ما فى بطن الجوزة ، وكل ما ينزل منها يجتمع فى صحفة حتى لا يبقى فى داخل الجوزة شىء . ثم يمرس(٣) ذلك الجريش بالماء ، فيصير كلون الحليب بياضا ، ويكون طعمه كطعم الحليب ويَأْتَدِم به الناس . وأما كيفية صنع الزيت فإنهم يأخذون الجوز بعد نُضْجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره ، ويقطعونه قطعا ويجعل فى الشمس ، فإذا ذَبُل طبخوه فى القدور واستخرجوا زيته . وبه يستصبحون ويأتدمون ، وتجعله النساء فى شعورهن ، وهو عظيم النفع .

(١) ينحت . (٢) جَرَش الشىء : لم يُنعم دقَّه . (٣) ينقع ويمرث باليد .

ذكر سلطان ظَفَار

وهو السلطان الملك المغيث ابن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن . وكان أبوه أميرا على ظفار من قِبَل صاحب اليمن ، وله عليه هدية يبعثها له فى كل سنة . ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من إرسال الهدية . وكان من عزم ملك اليمن على محاربته وتعيين ابن عمه لذلك ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفا . وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن ، عظيم فسيح ، والجامع بإزائه . ومن عادته أن تضرب الطبول والبوقات والأنفار والصُّرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر . وفى كل يوم اثنين وخميس تأتى العساكر إلى بابه فيقفون خارج (المِشْوَر) ساعة وينصرفون . والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد إلا فى يوم الجمعة ، فيخرج للصلاة ثم يعود إلى داره . ولا يمنع أحدا من دخول (المِشْوَر) ، وأمير (جَنْدار) قاعد على بابه وإليه ينتهى كل صاحب حاجة أو شكاية ، وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين . وإذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه إلى خارج المدينة ، وأُتى بجمل عليه مَحْمِل مستور بِسِتْر أبيض منقوش بالذهب ، فيركب السلطان ونديمه فى المحمل بحيث لا يرى . وإذا خرج إلى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل . وعادته ألا يعارضه أحد فى طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكاية ولا غيرها ، ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب . فتجد الناس إذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها . ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العَدَنى ، وكان معلم صبيان ، فعلّم هذا السلطان القراءة والكتابة ، وعاهده على أن يستوزره إن ملك ، فلما ملك استوزره ، فلم يكن يحسنها ، فكان الاسم له والحكم لغيره . ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عُمَان فى مركب صغير لرجل يعرف بعلى بن إدريس المَصِيرى ، من أهل جزيرة مَصِيرة . وفى الثانى

لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك، وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك . وعندهم شجر الكُنْدُر ، وهو رقيق الورق، وإذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغا ، وذلك الصمغ هو اللُّبان ، وهو كثير جدا هنالك . ولا معيشة لأهل ذلك المرسى إلا من صيد السمك ، وسمكهم يعرف باللَّخم ، وهو شبيه كلب البحر ، يُشَرَّح ويقدد ويقتات به . وبيوتهم من عظام السمك ، وسقفها من جلود الجمال . وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيام ووصلنا إلى جبل لُمْعان وهو فى وسط البحر ، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة ، وسقفها من عظام السمك ، وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر .

ذكر وليّ لقيناه بهذا الجبل

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه إلى هذه الرابطة ، فوجدنا بها شيخا نائما ، فسلمنا عليه فاستيقظ وأشار برد السلام ، فكلمناه فلم يكلمنا ، وكان يحرك رأسه ، فأتاه أهل المركب بطعام فأبى أن يقبله ، فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ، ولا نعلم ما يقول ، وعليه مُرَقَّعة وقَلَنْسُوة لِبْد ، وليس معه رَكْوَة[1] ولا إبريق ولا عكاز ولا نعل . وقال أهل المركب : إنهم ما رأوه قط بهذا الجبل . وأقمنا تلك الليلة بساحل هذا الجبل وصلينا معه العصر والمغرب ، وجئناه بطعام فرده ، وأقام يصلى إلى العشاء الآخرة ، ثم أذّن وصليناها معه . وكان حسن الصوت بالقراءة مجيدا لها . ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ إلينا بالانصراف ، فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره . ثم إنى أردت الرجوع إليه لما انصرفنا ، فلما دنوت منه هبته وغلب علىّ الخوف . ورجعت إلى أصحابى وانصرفت معهم وركبنا البحر ، ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة الطير ، وليست بها عمارة ، فأرسينا وصعدنا إليها ، فوجدناها ملآى

---

(١) وعاء للماء .

بطيور تشبه الشقاشق (١) إلا أنها أعظم منها ، وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها ، واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها . وكان يجالسنى تاجر من أهل جزيرة مَصيرة ساكن بِظَفار اسمه مسلم . فرأيته يأكل معهم تلك الطيور ، فأنكرت ذلك عليه ، فاشتد خجله وقال لى : ظننت أنهم ذبحوها ، وانقطع عنى بعد ذلك من الخجل ، فكان لا يقربنى حتى أدعوه . وكان طعامى فى تلك الأيام بذلك المركب التمر والسمك ، وكانوا يصطادون بالغدو والعشىّ سمكا يسمى بالفارسية (شير ما هى) ، ومعناه : أسد السمك ، لأن شِير : هو الأسد ، وما هى : السمك . وهم يقطعونه قطعا ويشوونه ويعطون كل من فى المركب قطعة ، لا يفضلون أحدا على أحد ، ولا صاحب المركب ولا سواه ، ويأكلونه بالتمر . وكان عندى خبز وكعك استصحبتهما من ظَفار . فلما نَفِدا كنت أقتات من ذلك السمك فى جملتهم . وعَيَّدنا عيد الأضحى على ظهر البحر ، وهبّت علينا فى يومه ريح عاصفة بعد طلوع الفجر ، ودامت إلى طلوع الشمس وكادت تغرقنا .

حكاية

وكان معنا فى المركب حاج من أهل الهند يسمى بخضر ، ويدعى بمولانا ، لأنه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة ، فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم ، فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له : يا مولانا خضر ، كيف رأيت ؟ قال : قد كنت عند الهول أفتح عينى أنظر هل أرى الملائكة الذين يقبضون الأرواح جاءوا ؟ فلا أراهم فأقول : الحمد لله ، لو كان الغرق لأتوا لقبض الأرواح ، ثم أغلق عينى ثم أفتحها فأنظر كذلك ، إلى أن فرج الله عنا . وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغَرِق ولم ينج منه إلا رجل واحد ، خرج عوما بعد جَهْد شديد .

(١) لم نعثر على هذه الكلمة فيما لدينا من المراجع ، كما سيأتى فى حواشى الجزء الثانى .

وأكلت فى ذلك المركب نوعا من الطعام لم آكله قبله ولا بعده ، صنعه بعض تجار عُمَان وهو من الذرة ، طبخها من غير طحن وصب عليها عسل التمر وأكلناه . ثم وصلنا إلى جزيرة مَصيرة التى منها صاحب المركب الذى كنا فيه ، جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها إلا من السمك ، ولم ننزل إليها لبعد مرساها عن الساحل ، وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة . وأقمنا بها يوما ، وتوجه صاحب المركب فيه إلى داره وعاد إلينا . ثم سرنا يوما وليلة فوصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بِصُور ، ورأينا منها مدينة قَلْهات فى سفح جبل ، فخيل لنا أنها قريبة ، وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله . فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشى إليها والمبيت بها ، وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب ، فسألت عن طريقها فأخبرت أنى أصل إليها عند العصر . فاكتريت أحد البحريين ليدلنى على طريقها ، وصحبنى خضر الهندى الذى تقدم ذكره ، وتركت أصحابى مع ما كان لى بالمركب ليلحقوا بى فى غد ذلك اليوم . وأخذت أثوابا كانت لى فدفعتها لذلك الدليل ليكفينى مُؤْنة حملها ، وحملت فى يدى رمحا ، فإذا ذلك الدليل يحب أن يستولى على أثوابى ، فأتى بنا إلى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر ، فأراد عبوره بالثياب فقلت له : إنما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا ، فإن قدرنا على الجواز جزنا وإلا صعدنا نطلب المجاز ، فرجع . ثم رأينا رجالا جازوه عوما ، فتحققنا أنه كان قصده أن يغرقنا ويذهب بالثياب . فحينئذ أظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشددت وسطى ، وكنت أهزّ الرمح ، فهابنى ذلك الدليل . وصعدنا حتى وجدنا مجازا ، ثم خرجنا إلى صحراء لا ماء بها ، وعطشنا واشتد بنا الأمر ، فبعث الله لنا فارسا فى جماعة من أصحابه وبيد أحدهم رَكْوَة ماء فسقانى وسقى صاحبى ، وذهبنا نَحْسَب المدينة قريبة منا ، وبيننا وبينها

خنادق تَمْشي فيها الأميال الكثيرة . فلما كان من العشيّ أراد الدليل أن يميل بنا إلى ناحية البحر، وهو لا طريق له لأن ساحله حجارة ، فأراد أن نَنْشَب فيها ويذهب بالثياب ، فقلت له : إنما نمشي على هذه الطريق التي نحن عليها ، وبينها وبين البحر نحو ميل . فلما أظلم الليل قال لنا : إن المدينة قريبة منا ، فتعالوا نمش حتى نبيت بخارجها إلى الصباح ، فخفت أن يتعرض لنا أحد فى طريقنا ، ولم أحقق مقدار ما بقى إليها ، فقلت له : إنما الحق أن نخرج عن الطريق فننام ، فاذا أصبحنا أتينا المدينة (إن شاء الله) .

وكنت قد رأيت جملة من الرجال فى سفح جبل هنالك ، فخفت أن يكونوا لصوصا ، وقلت : التستر أولى ! وغاب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك ، فخرجت عن الطريق ، وقصدت شجرة من شجر أم غَيْلان ، وقد أعْيَيْت وأدركنى الجَهْد ، لكنى أظهرت قوة وتجلدا خوف الدليل . وأما صاحبي فمريض لا قوة له ، فجعلت الدليل بيني وبين صاحبي ، وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي . وأمسكت الرمح بيدى ، ورقد صاحبي ورقد الدليل ، وبقيت ساهرا ، فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته أنى مستيقظ . ولم نزل كذلك حتى أصبحنا ، فخرجنا إلى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق إلى المدينة ، فبعثت الدليل ليأتينا بماء ، وأخذ صاحبي الثياب ، وكان بيننا وبين المدينة مَهَاوٍ وخنادق ، فأتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر .

ثم وصلنا إلى مدينة قَلْهات ، فأتيناها ونحن فى جَهْد عظيم ، وكنت قد ضاقت نعلى على رجلى حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها . فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة أن قال لنا الموكل بالباب : لا بد لك أن تذهب معى إلى أمير المدينة ليعرف قضيتك ومن أين قدمت ؟ فذهبت معه إليه فرأيته فاضلا حسن الأخلاق ، وسألنى عن حالى وأنزلنى .

وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لى فيها على النهوض على قدمى لما لحقها من الآلام . ومدينة قَلْهات على الساحل ، وهى حسنة الأسواق ، ولها مسجد من أحسن المساجد ، حيطانه بالقاشانى ، وهو مرتفع يُنْظر منه إلى البحر والمرسى . وهو من عمارة الصالحة بِيبِى مريم ، ومعنى بيبى عندهم : الحرة . وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثله فى إقليم من الأقاليم ، وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه ، وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز ويأكلونه . والأرز يجلب إليهم من أرض الهند . وهم أهل تجارة ، ومعيشتهم مما يأتى إليهم فى البحر الهندى . وإذا وصل إليهم مركب فرحوا به أشد الفرح . وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب ، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلا : تأكل لا ، تمشى لا ، تفعل كذا لا . وأكثرهم خوارج ، لكنهم لا يقدرون على إظهار مذهبهم ، لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تَمَهْتَن ملك هرمز ، وهو من أهل السنة . وبمقربة من قَلْهات قرية (طيبى) واسمها على نحو اسم الطبيب إذا أضافه المتكلم لنفسه . وهى من أجمل القرى وأبدعها حسنا ، ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة ، ومنها تجلب الفواكه الى قلهات . وبها الموز وهو كثير بها . ويجلب منها إلى هرمز وسواها ، وبها أيضا التانَبُول لكن ورقته صغيرة . والتمر يجلب إلى هذه الجهات من عُمَان . ثم قصدنا بلاد عُمَان فسرنا ستة أيام فى صحراء ، ثم وصلنا بلاد عمان فى اليوم السابع ، وهى خِصْبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس . ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد وهى مدينة نَزْوا ، مدينة فى سفح جبل ، تَحُفُّ بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية . وعادة أهلها أنهم يأكلون فى صحون المساجد ، يأتى كل إنسان بما عنده ، ويجتمعون للأكل فى صحن المسجد ،

ويأكل معهم الوارد والصادر . ولهم نَجْدة وشجاعة ، والحرب قائمة فيما بينهم أبدا . وهم إباضية[1] المذهب، ويصلون الجمعة ظهرا أربعا، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ، ونثر كلاما شبه الخطبة يترضّى[2] فيه عن أبى بكر وعمر ، ويسكت عن عثمان وعلىّ . وهم إذا أرادوا ذكر علىّ (رضى الله عنه) كَنَوْا عنه، فقالوا : ذُكِر عن الرجل ، أو قال الرجل، ويترضَّوْن عن الشقى اللعين ابن مُلْجَم ، ويقولون فيه: العبد الصالح قامع الفتنة . ونساؤهم يكثرن الفساد ، ولا غَيْرة عندهم ولا إنكار لذلك .

ذكر سلطان عُمان

وسلطانها عربى من قبيلة الأَزْد بن الغَوْث ، ويعرف بأبى محمد بن نبهان . وأبو محمد عندهم سِمَة لكل سلطان يلى عمان ، كما هى أَتَابَك عند ملوك اللُّور. وعادته أن يجلس خارج باب داره فى مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير، ولا يمنع أحدا من الدخول إليه من غريب أو غيره ، ويكرم الضيف على عادة العرب، ويعين له الضيافة، ويعطيه على قدره. وله أخلاق حسنة. ويؤكل على مائدته لحم الحمار الإنسى، ويباع بالسوق، لأنهم قائلون بتحليله ، ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بمحضره . ومن مدن عمان مدينة زكى ، لم أدخلها ، وهى على ما ذكر لى مدينة عظيمة، ومنها : القُرَيَّات ، وشَبَا ، وكَلْبَا . وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخيل . وأكثر هذه البلاد فى عِمالة هُرْمُز .

---

(١) الإباضية : فرقة من الخوارج تبعوا عبد الله بن إباض المرى. وفى سنة ١٥٣ هـ تغلبوا على مملكة إفريقية وانتشروا فى طرابلس الغرب . ومعتقدهم فيما يختص بأصول الدين يوافق معتقد السنيين تقريبا .

(٢) يقول : رضى الله عنه

السفر إلى هُرْمُز

ثم سافرت من بلاد عمان إلى بلاد هرمز، وهرمز مدينة على ساحل البحر، وتقابلها فى البحر هرمز الجديدة، و بينهما فى البحر ثلاثة فراسخ. ووصلنا إلى هرمز الجديدة وهى جزيرة مدينتها تسمى جَرَوْن، وهى مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة. وهى مرسى الهند والسند، ومنها تحمل سِلَع الهند إلى العراقيْن وفارس وخُرَاسان. وبهذه المدينة سكنى السلطان. والجزيرة التى فيها المدينة مسيرة يوم. وأكثرها سِباخ[1] وجبال ملح وهو الملح الدارانى، ومنه يصنعون الأوانى للزينة والمنارات التى يضعون السُّرُج عليها. وطعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان. والماء فى هذه الجزيرة له قيمة، وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر. وهى على بعد من المدينة. و يأتون إليها بالقرب فيملئونها و يرفعونها على ظهورهم إلى البحر، يوسقونها فى القوارب و يأتون بها إلى المدينة. ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابية، وعيناه كأنهما بابان، فترى الناس يدخلون من إحداهما ويخرجون من الأخرى. ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الأقْصَرانى، وأصله من بلاد الروم، فأضافنى وزارنى وألبسنى ثوبا. وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب إلى الخَضِر و إلياس عليهما السلام، يذكر أنهما يصليان فيه، وظهرت له بركات وبراهين. وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ، يخدُم بها الوارد والصادر، وأقمنا عنده يوما. وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع فى آخر

(١) جمع سَبَخَة. وقد تقدم شرحها فى الحواشى.

هـذه الجزيرة قد نحت غارا لسكناه ، فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية ، وله عبيد خارج الغار يرعون بقرا له وغنما . وكان هذا الرجل من كبار التجار ، فحج البيت وقطع العلائق ، وانقطع هنالك للعبادة ، ودفع ماله لرجل من إخوانه يتجر له به ؛ وبتنا عنده ليلة فأحسن القِرى وأجمل . (رضى الله تعالى عنه) .

ذكر سلطان هُرْمز

وهو السلطان قطب الدين تَمَهْتَن بن طُوران شاه . وهو من كرماء السلاطين ، كثير التواضع حسن الأخلاق ؛ وعادته أن يأتى لزيارة كل من يَقْدَم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ، ويقوم بحقه . ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيأ للحرب مشغولا بها مع ابنى أخيه نظام الدين . والغلاء مستول على الجزيرة . فأتى إلينا وزيره شمس الدين محمد بن على وقاضيه عماد الدين الشُّونكارى وجماعة من الفضلاء ، فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب .

وأقمنا عندهم ستة عشر يوما ، فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الأصحاب : كيف ننصرف ولا نرى هـذا السلطان ؟ فجئنا دار الوزير وكانت فى جوار الزاوية التى نزلت بها ، فقلت له : إنى أريد السلام على الملك ؛ فقال : باسم الله . وأخذ بيدى فذهب بى إلى داره وهى على ساحل البحر ، فإذا شيخ عليه أقبية ضيقة دَنِسة ، وعلى رأسه عمامة ، وهو مشدود الوسط بمنديل . فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ، ولم أعرف أنه الملك ؛ وكان إلى جانبه ابن أخته وهو علىُّ شاه بن جلال الدين الكيجى . وكانت بينى وبينه معرفة ، فأنشأت أحادثه وأنا لا أعرف الملك ، فعرفنى الوزير بذلك ، فخجلت منه لإقبالى بالحديث على ابن أخته دونه ، واعتذرت إليه . ثم قام فدخل داره وتبعه الأمراء والوزراء وأرباب الدولة ، ودخلت مع الوزير ، فوجدناه قاعدا على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبدلها ، وفى يده سُبْحة جوهر لم تر العيون مثلها ، لأن مغاصات الجوهر تحت حكمه ، فجلس

أحد الأمراء إلى جانبه ، وجلست إلى جانب ذلك الأمير ، وسألني عن حالي ومَقْدَمي وعمن لقيته من الملوك فأخبرته بذلك . وحضر الطعام فأكل الحاضرون ولم يأكل معهم . ثم قام فودعته وانصرفت . وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه أنه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة للنزهة في هرمز القديمة وبساتينها ، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ ، كما قدمناه ، فخالف(١) عليه أخوه نظام الدين ودعا لنفسه ، وبايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر . فخاف قطب الدين على نفسه ، وركب البحر إلى مدينة قَلْهات التي تقدم ذكرها ، وهي من جملة بلاده . فأقام بها شهورا وجهز المراكب وأتى الجزيرة ، فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه . وعاد إلى قلهات وفعل ذلك مرارا . فلم تكن له حيلة إلا أن راسل بعض نساء أخيه فسمَّته ومات . وأتى هو إلى الجزيرة فدخلها وفرّ ابنا أخيه بالخزائن والأموال والعساكر إلى جزيرة قَيْس ، حيث مغاص الجوهر ، وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ، ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها .

ثم سافرنا من مدينة جَرَوْن برسم لقاء رجل صالح ببلد خُنْج بال . فلما جزنا البحر اكترينا دواب من التُّركمان ، وهم سكان تلك البلاد ، ولا يُسافَر فيها إلا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق ، وفيها صحراء مسيرة أربع ، يقطع بها الطريقَ لصوصُ الأعراب . وتهب فيها ريح السَّموم في شهري تَمُّوز وحَزِيران . فمن صادفته فيها قتلته . ولقد ذُكر لي أن الرجل إذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الأعضاء . وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح . وكنا نسافر فيها بالليل ، فإذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الأشجار من أم غَيْلان ، ونرحل بعد العصر إلى طلوع الشمس . وفي هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريقَ بها جمّال اللُّك الشهير الاسم هنالك .

(١) يريد خرج عليه . وهو تعبير كثير الدوران في هذه الرحلة . ويظهر لنا أنه غير فصيح .

حكاية

كان جَمال اللُّك من أهل سِجِسْتَان أعجمى الأصل (واللك بضم اللام) معناه الأقطع[1] . وكانت يده قطعت فى بعض حروبه . وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطرق . وكان يبنى الزوايا و يطعم الوارد والصادر من الأموال التى يسلبها من الناس . و يقال : إنه كان يدعو ألا يُسَلَّط إلا على من لا يزكى ماله ، وأقام على ذلك دهرا . وكان يُغير هو وفرسانه ويسلكون برارى لا يعرفها سواهم ، ويدفنون بها قِرب الماء ورَوَايَاه[2] ، فإذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ، و يرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك . وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ، ثم تاب وتعبد حتى مات . وقبره يزار ببلده .

وسلكنا هذه الصحراء إلى أن وصلنا إلى كَوْرَسْتَان ، وهو بلد صغير فيه الأنهار والبساتين ، وهو شديد الحر . ثم سرنا منه ثلاثة أيام فى صحراء مثل التى تقدمت ووصلنا إلى مدينة لار ، مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين . ولها أسواق حسان . ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبى دُلَف محمد ، وهو الذى قصدنا زيارته بِخُنْج بال . و بهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء . ومن عادتهم أنهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم ، ثم يطوفون على دور المدينة فَيُعْطَوْن من كل دار الرغيف والرغيفين ، فيطعمون منها الوارد والصادر . وأهل الدور قد أَلِفوا ذلك ، فهم يجعلونه فى جملة قوتهم ، ويعدونه لهم إعانة على إطعام الطعام . وفى كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاؤها ، ويأتى كل منهم بما تيسر له من الدراهم ، فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ، ويبيتون فى عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة ، وينصرفون بعد صلاة الصبح .

(١) أى بلسانهم .

(٢) جمع راوية ، وهى الدابة يستقى عليها . ولكن المراد هنا القربة ، على المجاز .

ذكر سلطان لار

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين، تُرْكمانى الأصل، بعث إلينا بضيافة، ولم نجتمع به ولا رأيناه . ثم سافرنا إلى مدينة خُنْجُ بال، وبها سكنى الشيخ أبى دُلَف الذى قصدنا زيارته وبزاويته نزلنا . ولما دخلت الزاوية رأيته قاعدا بناحية منها على التراب، وعليه جبة صوف خضراء بالية، وعلى رأسه عمامة صوف سوداء . فسلمت عليه فأحسن الرد، وسألنى عن مقدمى وبلادى وأنزلنى . وكان يبعث إلىّ الطعام والفاكهة مع ولد له من الصالحين كثير الخشوع والتواضع، صائم الدهر كثير الصلاة . ولهذا الشيخ أبى دلف شأن عجيب وأمر غريب : فإن نفقته فى هذه الزاوية عظيمة وهو يعطى العطاء الجزيل، ويكسو الناس ويركبهم الخيل، ويحسن إلى كل وارد وصادر، ولم أر فى تلك البلاد مثله، ولا يعلم له جهة إلا ما يصله من الإخوان والأصحاب، حتى زعم كثير من الناس أنه ينفق من الكون[1] . وفى زاويته المذكورة قبر الشيخ الولى الصالح القطب دَانيال، وله اسم بتلك البلاد شهير، وشأن فى الولاية كبير، وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تَمَهْتَن بن طوران شاه . وأقمت عند الشيخ أبى دُلَف يوما واحدًا لاستعجال الرُّفْقة التى كنت فى صحبتها . وسمعت أن بالمدينة (خنج بال المذكورة) زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين، فرحت إليها بالعشى، وسلمت على شيخهم وعليهم، ورأيت جماعة مباركة، قد أثرت فيهم العبادة، فهم صفر الألوان، نحاف الجسوم، كثيرو البكاء، غزيرو الدموع . وعند وصولى إليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم : ادع لى ولدى محمدا، وكان معتزلا فى بعض نواحى الزاوية . فجاء إلينا الولد وهو كأنما خرج من قبر، مما نهكته العبادة، فسلم وقعد، فقال له أبوه : يا بنى شارك هؤلاء الواردين فى الأكل تنل من بركاتهم ؛ وكان صائما فأفطر معنا . وهم شافعية المذهب . فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا .

(١) أى أن الله تعالى يرزقه من حيث لا يدرى . وهو بعيد .

ثم سافرنا منها إلى مدينة قَيْس ، وتسمى أيضا بسيراف ، وهى على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس ، مدينة لها انفساح وسعة ، طيبة البقعة ، فى دورها بساتين عجيبة ، فيها الرياحين والأشجار الناضرة ، وشُرْب أهلها من عيون منبعثة من جبالها . وهم عجم من الفرس أشراف ، وفيهم طائفة من عرب بنى سَفَّاف . وهم الذين يغوصون على الجوهر .

ذكر مغاص الجوهر

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين فى خَوْر راكد ، مثل الوادى العظيم . فإذا كان شهر أبريل وشهر مايو تأتى إليه القوارب الكثيرة ، فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقَطِيف ، ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئا يكسوه من عظم الغَيْلم : وهى السُّلَحْفَاة ، ويصنع من هذا العظم أيضا شكلا شبه المقراض يشده على أنفه ، ثم يربط حبلا فى وسطه ويغوص . ويتفاوتون فى الصبر فى الماء : فمنهم من يصبر الساعة والساعتين[١] فما دون ذلك . فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا فى الرمل ، فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدّة لذلك ، ويجعلها فى مِخْلاة جلد مَنُوطة بعنقه . فإذا ضاق نفسه حرك الحبل ، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل ، فيرفعه إلى القارب ، فتؤخذ منه المخلاة . ويفتح الصدف ، فيوجد فى أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة ، فإذا باشرت الهواء جَمَدت فصارت جواهر[٢] ، فيجمع جميعها من صغير وكبير ، فيأخذ السلطان خُمُسه ، والباقى يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب ، وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين ، فيأخذ الجوهر فى دينه أو ما وجب له منه .

(١) مبالغة .

(٢) هذا غير الواقع .

ثم سافرنا من سِيراف إلى مدينة البحرين ، وهى مدينة كبيرة حسنة ، ذات بساتين وأشجار وأنهار ، وماؤها قريب المُؤْنة . يحفر عليه بالأيدى فيوجد . وبها حدائق النخل والرمان والأُتْرُجّ ، ويزرع بها القطن . وهى شديدة الحر ، كثيرة الرمال ، وربما غلب الرمل على بعض منازلها . وكان فيما بينها وبين عُمَان طريق استولت عليه الرمال وانقطع ، فلا يوصل من عمان إليها إلا فى البحر . وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بِكُسَيْر وهو فى غربيها ، ويسمى الآخر بِعُوَيْر وهو فى شرقيها ، وبهما ضرب المثل فقيل : كسير وعوير ، وكل غير خير . ثم سافرنا إلى مدينة القُطَيْف[1] ، وهى مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير ، يسكنها طوائف العرب ، وهم رافضية غُلاة ، يظهرون الرفض جهارا لا يتقون أحدا ، ويقول مؤذنهم فى أذانه بعد الشهادتين : أشهد أن عليا ولىّ الله ، ويزيد بعد الحيعلتين : حىّ على خير العمل . ويزيد بعد التكبير الأخير : محمد وعلى خير البشر ، من خالفهما فقد كفر . ثم سافرنا منها إلى مدينة هَجَر ، وتسمى الآن بالحَسَا ، وهى التى يضرب المثل بها فيقال : كجالب التمر إلى هجر ، وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ، ومنه يَعْلِفُون دوابهم . وأهلها عرب ، وأكثرهم من قبيلة عبد القَيْس بن أَفْصَى . ثم سافرنا منها إلى مدينة اليمامة ، وتسمى أيضا بِحَجْر ، مدينة حسنة خِصْبة ، ذات أنهار وأشجار ، يسكنها طوائف من العرب ، أكثرهم من بنى حنيفة ، وهى بلدهم قديما ، وأميرهم طُفَيْل بن غانم . ثم سافرت منها فى صحبة هذا الأمير برسم الحج ، وذلك فى سنة ثلثين وثلاثين .

العودة إلى الحجاز

فوصلت إلى مكة ، شرفها الله تعالى . وحج فى تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر (رحمه الله) وجملة من أمرائه ، وهى آخر حجة حجها ، وأجزل الإحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين .

(١) هكذا ضبطها ابن بطوطة . وضبطها صاحب القاموس كشَرِيف .

ولما انقضى الحج توجهت إلى جُدَّة ، برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند ، فلم يقض لى ذلك ، ولا تأتى لى رفيق . وأقمت بجدة نحو أربعين يوما ، وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسى ، يروم السفر إلى القُصَيْر من عِمالة قُوص ، فصعدت إليه لأنظر حاله ، فلم يرضنى ولا طابت نفسى بالسفر فيه ، وكان ذلك لطفا من الله تعالى : فإنه سافر ، فلما توسط البحر غَرِق بموضع يقال له رأس أبى محمد ، فخرج صاحبه وبعض التجار بعد جَهْد عظيم ، وأشرفوا على الهلاك ، وهلك بعضهم ، وغرق سائر الناس ، وكان فيه نحو سبعين من الحجاج . ثم ركبت البحر بعد ذلك فى (صنبوق) برسم عَيْذاب ، فردتنا الريح إلى مرسى يعرف برأس دواير . وسافرنا منه فى البر مع البُجاة ، فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جُهَينة وبنى كاهل ، وطاعتهم للبجاة . ووردنا ماء يعرف بمَفْرُور ، وماء يعرف بالجَدِيد . ونَفِد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناما ، وتزودنا لحومها . ورأيت بهذه الفلاة صبيا من العرب كلمنى باللسان العربى ، وأخبرنى أن البجاة أسروه ، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاما ، إنما يقتات بلبن الإبل . ونَفِد منا بعد ذلك اللحم الذى اشتريناه ، ولم يبق لنا زاد ، وكان عندى نحو حِمْل من التمر الصَّيْحانى والبَرْنى برسم الهدية لأصحابى ، ففرقته على الرُفقة ، وتزودناه ثلاثا . وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير ، وصلنا إلى عَيْذاب ، وكان قد تقدم إليها بعض الرُّفقة ، فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما ، واكترينا الجمال ، وخرجنا صحبة طائفة من عرب دَغِيم ، وحللنا بُحَمَيْثِرا ، حيث قبر ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى .

العودة إلى صعيد مصر

وزرناه ثانيـة ، وبتنا فى جواره ، ثم وصلنا إلى قرية العطوانى ، وهى على ضِفَّة النيل مقابلة لمدينة أُدْفو من الصعيد الأعلى . وسافرت على طريق بُلْبَيْس إلى الشام ، ورافقنى الحاج عبد الله بن أبى بكر بن الفرحان التَّوْزَرى ، ولم يزل فى صحبتى سنين إلى أن خرجنا من بلاد الهنـد ، فتوفى بِسَنْدَابُور . ومن اللاذقية ركبنا البحر فى قُرْقُورة[١] كبيرة ، وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم ، وإنما نسبت إلى الروم لأنها كانت بلادهم فى القديم ، ومنها الروم الأقدمون واليونانيـة ، ثم استفتحها المسلمون . وبها الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التُّركمان .

وسرنا فى البحر عشرا بريح طيبة ، وأكرمنا النصرانى[٢] ، ولم يأخذ منا نولا[٣] . وفى العـاشر وصلنا إلى مدينة العَـلَايا ، وهى أول بلاد الروم . وهـذا الإقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيـا ، وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن فى البلاد : فأهله أجمـل الناس صورا ، وأنظفهم ملابس ، وأطيبهم مطاعم ، وأكثر خلق الله شفقة ، ولذلك يقال : البركة فى الشام ، والشفقة فى الروم ، وإنما عُنِى به أهل هذه البلاد . وكنا متى نزلنا بهـذه البلاد زاوية أو دارا يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء ، وهن لا يحتجبن ، فإذا سافرنا عنهم ودعونا ، كأنهم أقاربنا وأهلنا ، وترى النساء باكيات لفراقنـا متأسفات . ومن عادتهم بتلك البلاد أن يَخْبِزوا الخبز فى يوم واحد من الجمعة ، يُعِدُّون فيه ما يقوتهم سائرها ، فكان رجالهم يأتون

(١) مركب كبير ، وهو بغير هاء كما فى القاموس ، كما نبهنا على ذلك فيما يلى من الحواشى .

(٢) يريد صاحب المركب .

(٣) النول : كلمة يونانية الأصل : معناها : ما يدفعه المسافر فى المركب من الأجرة وهو ما يسميه عامتنا (بالناولون) .

إليها بالخبز الحار فى يوم خَبْزه ، ومعه الإدام الطيب ، إطرافا لنا بذلك ، ويقولون لنا : إن النساء بعثن هذا إليكم ، وهن يطلبن منكم الدعاء . وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، مقيمين على السنة . وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها ، إلا أنهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك .

ومدينة العلايا التى ذكرناها كبيرة على ساحل البحر ، يسكنها التُّركمان ، وينزلها تجار مصر وإسكندرية والشام ، وهى كثيرة الخشب ، ومنها يحمل إلى إسكندرية ودمياط ، ويحمل منها إلى سائر بلاد مصر ، ولها قلعة بأعلاها ، عجيبة منيعة ، بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومى . ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الأَرْزَنْجانى ، وصعد معى إلى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها ، وأضافنى وأكرمنى .

ذكر سلطان العلايا

وفى يوم السبت ركب معى القاضى جلال الدين ، وتوجهنا إلى لقاء ملك العلايا ، وهو يوسف بك ، (ومعنى بك : الملك) ابن قَرَمان ، ومسكنه على عشرة أميال من المدينة ، فوجدناه قاعدا على الساحل وحده فوق رابية هنالك ، والأمراء والوزراء أسفل منه ، والأجناد عن يمينه ويساره ، وهو مخضوب الشعر بالسواد . فسلمت عليه ، وسألنى عن مقدمى ، فأخبرته عما سأل ، وانصرفت عنه . وبعث إلى إحسانا . وسافرت من هنالك إلى مدينة أَنْطالِيَة ، وأما التى بالشام فهى أَنْطاكِيَة على وزنها إلا أن الكاف عوض عن اللام . وهى من أحسن المدن ، متناهية فى اتساع الساحة والضخامة ، أجمل ما يرى من البلاد ، وأكثره عمارة ، وأحسنه ترتيبا . وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها ، عن الفرقة الأخرى : فتجار النصارى ساكنون منها بالموضع المعروف بالميناء ، وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلا ،

وعند صلاة الجمعة . والروم الذين كانوا أهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به ، وعليهم أيضا سور ، واليهود فى موضع آخر وعليهم سور ، والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون بلدة عليها أيضا سور يحيط بها ، و يفرق بينها و بين ما ذكرناه من الفرق . وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى ، وبها مسجد جامع ، ومدرسة وحمامات كثيرة ، وأسواق ضخمة ، مرتبة بأبدع ترتيب ، وعليها سور عظيم يحيط بها ، وبجميع المواضع التى ذكرناها . وفيها البساتين الكثيرة ، والفواكه الطيبة ، والمِشْمِش العجيب المسمّى عندهم بقمر الدين ، وفى نواته لوز حلو . وهو ييبس ، ويحمل إلى ديار مصر ، وهو بها مستظرف . وفيها عيون الماء الطيب العذب ، الشديد البرودة فى أيام الصيف . نزلنا من هذه المدينة بمدرستها ، وشيخها شهاب الدين الحَمَوى . ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوات الحسان بعد العصر من كل يوم فى المسجد الجامع ، وفى المدرسة أيضا ، سورة الفتح ، وسورة المُلْك ، وسورة عمّ .

ذكر الأَخِيّة(١) الفتيان

واحد الأخية (أخى) على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه . وهم بجميع البلاد التُّركمانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية . ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة . (والأخى) عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم .

---

(١) الجمع والمفرد مما تواضعوا عليه . وليس فى العربية . وفى أفعال هؤلاء الفتيان نبل وهمة ونجدة وسخاء ، يظهر ذلك للتتبع لأخبارهم فى هذا الكتاب .

وتلك هى الْفُتـوَّة أيضا . ويبنى زاوية ويجعـل فيها الفرش والسُّرُج وما يحتاج إليه من الآلات . ويخـدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بمـا يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعـام ، إلى غير ذلك ممـا ينفق فى الزاوية . فإن ورد فى ذلك اليوم مسـافر على البلد أنزلوه عنـدهم . وكان ذلك ضيافته لديهم . ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر إلى مُقَدَّمهم بما اجتمع لهم . ويسمون بالفتيان . ويسمى مقدمهم ، كما ذكرنا ، (الأخى) ؛ ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم . ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان . إلا أن هؤلاء أحب فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراما له ، وشفقة عليه .

وفى الثانى من يوم وصولنا إلى هذه المدينة ، أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى ، وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه . وكان عليه أثواب أخلاق ، وعلى رأسه قلنسوة لِبْد ، فقال لى الشيخ : أتعلم ما يقول هـذا الرجل ؟ فقلت : لا أعلم ماقال ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك ، فعجبت منه ، وقلت له "نعم" . فلما انصرف قلت للشيخ : هـذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه . فضحك الشيخ وقال لى : هذا أحد شيوخ الفتيان ، فتيان (الأخية) ، وهو من الخرازين[1] ، وفيه كرم نفس ، وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات ، قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل .

(١) الخراز : الإسكاف .

وصف الضيافة

فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل، وذهبنا معه إلى زاويته، فوجدناها زاوية حسنة، مفروشة بالبُسُط الرومية الحسان، وبها الكثير من ثُرَيَّات الزجاج العراقى، وفى المجلس خمسة من (البياسيس)، والبيسوس: شبه المنارة من النحاس، وله أرجل ثلاث، وفى وسطه أنبوب للفتيلة، ويملأ من الشحم المذاب، وإلى جانبه آنية نحاس مَلْأى بالشحم، وفيها مِقْراض لإصلاح الفتيلة، وأحدهم موكل بها، ويسمى عندهم الجراجى (الجراغجى) [1]. وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان، ولباسهم الأقبية وفى أرجلهم الأخفاف، وكل واحد منهم متحزم، وعلى وسطه سكين فى طول ذراعين، وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى طول ذراع وعرض أصبعين. فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزَّرْدَخانى [2] وسواه، حسنة المنظر. وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين. ولما استقربنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير، والفاكهة والحلواء، ثم أخذوا فى الغناء والرقص، فراقنا حالهم، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم. وانصرفنا عنهم آخر الليل، وتركناهم بزاويتهم.

---

(١) جراغجى: معناها الموكل بالقنديل، بلسانهم.

(٢) الزردخانى: نوع من الحرير الرقيق، بلسانهم.

ذكر سلطان أَنْطَالِيَة

وسلطانها خِضْر بك بن يونس بك . وجدناه عند وصولنا إليها عليلا ، فدخلنا عليه بداره ، وهو فى فراش المرض ، فكلمنا بألطف كلام وأحسنه . وودعناه و بعث إلينا بإحسان . وسافرنا إلى بلدة بُرْدُور ، وهى بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار ، ولها قلعة فى رأس جبل شاهق ، نزلنا بدار خطيبها . واجتمعت (الأخية) وأرادوا نزولنا عندهم فأبى عليهم الخطيب ، فصنعوا لنا ضيافة فى بستان لأحدهم ، وذهبوا بنا إليها ، فكان من العجائب إظهارهم السرور بنا ، والاستبشار والفرح ، وهم لا يعرفون لساننا ، ونحن لا نعرف لسانهم ولا تُرجمان فيما بيننا . وأقمنا عندهم يوما وانصرفنا . ثم سافرنا من هذه البلدة الى بلد سَبَرْتا ، وهى بلدة حسنة العمارة والأسواق ، كثيرة البساتين والأنهار ، لها قلعة فى جبل شامخ ، وصلنا إليها بالعشىّ ، ونزلنا عند قاضيها . وسافرنا منها إلى مدينة أَكْرِيدُور ، مدينة عظيمة كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، ذات أنهار وأشجار وبساتين ، ولها بحيرة عذبة الماء ، يسافر المركب فيها يومين إلى أَقْشَهَر ، و بَقْشَهَر ، وغيرهما من البلاد والقرى . ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الأعظم ، بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين ، قرأ بالديار المصرية والشام ، وسكن بالعراق ، وهو فصيح اللسان ، حسن البيان ، أُطْروفة من طُرَف الزمان ، أكرمنا غاية الإكرام ، وقام بحقنا أحسن قيام .

ذكر سلطان أَكْرِيدُور

وسلطانها أبو إسحاق بك بن الدندار بك ، من كبار سلاطين تلك البلاد. سكن ديار مصر أيام أبيه ، وحج ، وله سير حسنة . ومن عادته أنه يأتى كل يوم إلى صلاة العصر بالمسجد الجامع ، فإذا قضيت صلاة العصر استند إلى جدار القبلة ، وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية فقرءوا سورة (الفتح والمُلْك وعَمّ) بأصوات حسان ، فعالة فى النفوس ، تخشع لها القلوب ، وتقشعر الجلود ، وتدمع العيون . ثم ينصرف الى داره. وأظلنا عنده شهر رمضان ، فكان يقعد فى كل ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير ، ويستند إلى مخدة كبيرة ، ويجلس الفقيه مصلح الدين إلى جانبه ، وأَجْلِسُ إلى جانب الفقيه ، ويلينا أرباب دولته ، وأمراء حضرته . ثم يؤتى بالطعام ، فيكون أول ما يفطر عليه ثريد فى صحفة صغيرة ، عليه العَدَس ، مسقىّ بالسمن والسكر . ويقدمون الثريد تبركا ، ويقولون : إن النبى صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام ، فنحن نبدأ به لتفضيل النبى له . ثم يؤتى بسائر الأطعمة ، وهكذا فعلهم فى جميع ليالى رمضان . وتوفى فى بعض تلك الأيام ولد السلطان ، فلم يزيدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام ، خلافا لما قدمناه من فعل أهل اللُّور حين مات ولد سلطانهم . فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون إلى قبره بعد صلاة الصبح . وفى ثانى يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآنى السلطان ماشيا على رجلى ، فبعث لى بفرس واعتذر . فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده ، وقال : إنما أعطيته عطية لا عاريّة . وبعث إلىّ بكسوة ودراهم . فانصرفنا إلى مدينة قُلْ حِصار ، مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب ، قد نبت فيها القصب ، فلا طريق لها إلا طريقا كالجسر مهيأ ما بين القصب والمياه ، لايسع إلا فارسا واحدا . والمدينة على تل فى وسط المياه منيعة ، لا يقدر عليها . ونزلنا بزاوية أحد الفتيان (الأخية) بها .

ذكر سلطان قُلْ حِصار

وسلطانها محمد جلبي ، وجَلِبي تفسيره بلسان الروم : سـيدى ، وهو أخو السلطان أبي إسحاق ملك أكُرِيدُور . ولما وصلنا مدينته كان غائبا عنها فأقمنا بها أياما ، ثم قدم فأكرمنا وأركبنا وزودنا . وانصرفنا على طريق قَرا أغاج ، وقَرَا تفسيره : أسود ، وأغاج تفسيره : الخشب ، وهى صحراء خَضِرة يسكنها التركمان . وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا مدينـة لاذِق ، بسبب أن هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجَرْمِيان ، يذكر أنهم من ذرية يزيد بن معاوية ، ولهم مدينة يقال لها كُوتاهِيَة ، فعصمنا الله منهم . ووصلنا إلى مدينة لاذِق ، وهى من أبدع المـدن وأضخمها ، وفيها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة . ولهـا البساتين الرائقة ، والأنهار المطردة ، والعيون النابعة ، وأسواقها حسان ، وتصنع بها ثياب قطن مُعْلَمة بالذهب لا مثل لهـا ، تطول أعمارها لصحة قطنها ، وقوة غزلهـا . وهذه الثياب معروفة بالنسبة إليها . وأكثر الصناع بها نساء الروم ، وبها من الروم كثير تحت الذمة ، وعليهم وظائف للسلطان من الجِزْية وسواها . وعلامة الروم بهـا القلانس الطوال ، منها الحمر والبيض . ونساء الروم لهن عمائم كبار .

وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجال من حوانيتهم وأخذوا بأعنة خيلنا ، ونازعهم فى ذلك رجال آخرون ، وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ، ونحن لا نعلم ما يقولون . فخفنا منهم ، وظننا أنهـم الجَرْميان الذين يقطعون الطرق ، وأن تلك مدينتهم ، وحَسِبْنا أنهـم يريدون نهبنا . ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العـربى ، فسألته عن مرادهم منا ، فقـال : إنهم من الفتيان ، وإن الذين سبقوا إلينا

أولا هم أصحاب الفتى (أخى) سنان ، والآخرون أصحاب الفتى (أخى) طومان .
وكل طائفة ترغب فى أن يكون نزولكم عندهم . فعجبنا من كريم نفوسهم .
ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة : فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا . فوقعت
قرعة (أخى) سنان وبلغه ذلك ، فأتى إلينا فى جماعة من أصحابه فسلموا علينا ،
ونزلنا بزاوية له ، وأتى بأنواع الطعام . ثم ذهب بنا إلى الحمام ودخل معنا ،
وتولى خدمتى بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابى ، يَخْدُم الثلاثة والأربعة
الواحد منهم . ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعام عظيم ، وحلواء وفاكهة كثيرة .
وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ، ثم أخذوا
فى السماع والرقص . وأعلموا السلطان بخبرنا . فلما كان من الغد ، بعث
فى طلبنا بالعشىّ ، فتوجهنا إليه وإلى ولده كما نذكره . ثم عدنا إلى الزاوية .
فألفينا (الأخى) طومان وأصحابه فى انتظارنا ، فذهبوا بنا إلى زاويتهم ففعلوا
فى الطعام والحمام مثل أصحابهم ، وزادوا عليهم أن صبوا علينا ماء الورد صبا
بعد خروجنا من الحمام ، ثم مضوا بنا إلى الزاوية ، ففعلوا أيضا من الاحتفال
فى الأطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الأكل ،
ثم السماع والرقص ، كمثل ما فعله أصحابهم أو أحسن . وأقمنا عندهم
بالزاوية أياما .

ذكر سلطان لاذِق

وهو السلطان يَنَنْج بك ، وهو من كبار سلاطين بلاد الروم . ولما
نزلنا بزاوية (أخى) سنان كما قدمناه ، بعث إلينا الواعظ المُذَكِّر العالم علاء الدين
القَسْطَمُونى ، واستصحب معه خيلا بعددنا ، وذلك فى شهر رمضان .
فتوجهنا إليه وسلمنا عليه . ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ،
ولين الكلام ، وقلة العطاء . فصلينا معه المغرب ، وحضر طعامه فأفطرنا

عنده وانصرفنا . وبعث إلينا بدراهم ، ثم بعث إلينا ولده مراد بك ، وكان ساكنا فى بستان خارج المدينة . وذلك فى إبان الفاكهة ، وبعث أيضا خيلا على عددنا كما فعله أبوه . فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة . وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه . ثم انصرفنا غدوة . وأظلنا عيد الفطر بهذه البلدة ، فخرجنا إلى المصلى ، وخرج السلطان فى عساكره والفتيان (الأخية) كلهم بالأسلحة . ولأهل كل صناعة الأعلام والبوقات والطبول والأنفار ، وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه فى حسن الهيئة ، وكمال الشكة (١) . ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز ، فيذبحون البهائم بالمقابر ، ويتصدقون بها وبالخبز . ويكون خروجهم أولا إلى المقابر ، ومنها إلى المصلى .

ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان إلى منزله ، وحضر الطعام ، فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سماط على حدة ، وجُعل للفقراء والمساكين سماط على حدة ، ولا يُرَدّ على بابه فى ذلك اليوم فقير ولا غنى . وأقمنا بهذه البلدة مدة ، بسبب مخاوف الطريق . ثم تهيأت رُفقة فسافرنا معهم يوما وبعض ليلة ، ووصلنا إلى حصن طَواس ، وهو حصن كبير . ويذكر أن صُهيبا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه من أهل هذا الحصن ، وكان مبيتنا بخارجه . ووصلنا بالغد إلى بابه ، فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا ، فأخبرناهم ، وحينئذ خرج أمير الحصن إلياس بك فى عسكره ، ليختبر نواحى الحصن والطريق ، خوفا من إغارة السراق على الماشية . فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم ، وهكذا فعلهم أبدا . ونزلنا من هذا الحصن بربَضه فى زاوية رجل فقير ، وبعث إلينا أمير الحصن بضيافة وزاد . وسافرنا منه الى مُغْلة ، ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها ، وكان

---

(١) السلاح .

من الكبراء الفضلاء ، يكثر الدخول علينا بزاويته ، ولا يدخل إلا بطعام أو بفاكهة أو حلواء . ولقينا بهذه البلدة إبراهيم بك ولد سلطان مدينة مِيلاس ، وسنذكره ، فأكرمنا وكسانا . ثم سافرنا إلى مدينة ميلاس ، وهى من أحسن بلاد الروم وأضخمها ، كثيرة الفواكه والبساتين والمياه ، نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان (الأخية) ، ففعل أضعاف ما فعله مَنْ قبله من الكرامة والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الأفعال ، وجميل الأعمال . ولقينا بمدينة ميلاس رجلا صالحا مُعَمَّرا يسمى بابا الشُّشْتَرِى ، ذكروا أن عمره يزيد على مائة وخمسين سنة ، وله قوة وحركة ، وعقله ثابت ، وذهنه جيد ، دعا لنا وحصلت لنا بركته .

ذكر سلطان مِيلاس

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أُرْخان بك ، وهو من خيار الملوك ، حسن الصورة والسيرة ، جلساؤه الفقهاء ، وهم معظمون لديه ، وببابه منهم جماعة ، منهم الفقيه الْخَوَارَزْمى ، عارف بالفنون فاضل . وكان السلطان فى أيام لقائى له واجدا عليه بسبب رحلته إلى مدينة أياسُلُوق ووصوله إلى سلطانها ، وقبول ما أعطاه . فسألنى هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك فى شأنه بما يذهب ما فى خاطره ، فأثنيت عليه عند السلطان ، وذكرت ما علمته من علمه وفضله ، ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه . وأحسن إلينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا . وسكناه فى مدينة بَرْجِين ، وهى قريبة من ميلاس ، بينهما ميلان ، وهى جديدة على تل هنالك ، بها العمارات الحسان والمساجد ، وكان قد بنى بها مسجدا جامعا لم يتم بناؤه بعد . وبهذه البلدة لقيناه . ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) علىّ .

مدينـة قُونِيَّـة

ثم انصرفنا بعد ما أحسن إلينا، كما قدمناه، إلى مدينة قونية، مدينة عظيمة حسنة العمارة، كثيرة الماء والأنهار والبساتين والفواكه، وبها المِشْمِش المسمى بقمر الدين، وقد تقدم ذكره، ويحمل منه أيضا إلى ديار مصر والشام. وشوارعها متسعة جدا وأسواقها بديعة الترتيب. وأهل كل صناعة على حدة. ويقال: إن هذه المدينة من بناء الإسكندر. وهى من بلاد السلطان بدر الدين بن قَرَمان، وسنذكره. وقد تغلب عليها صاحب العراق فى بعض الأوقات لقربها من بلاده التى بهذا الإقليم. نزلنا منها بزاوية قاضيها، ويعرف بابن قَلَم شاه وهو من الفتيان، وزاويته من أعظم الزوايا، وله طائفة كبيرة من التلاميذ، ولهم فى الفُتُوَّة سَنَد يتصل إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام. ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة. وكان صنيع هذا القاضى فى إكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع مَنْ قبله وأجمل، وبعث ولده عوضا عنه لدخول الحمام معنا. وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين[(١)] المعروف بمولانا. وكان كبير القدر. وبأرض الروم طائفة ينتمون إليه، ويعرفون باسمه، فيقال لهم: الجلالِيّة، كما تعرف الأحمدية بالعراق، والحَيْدرية بخُراسان. وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر.

---

(١) هو جلال الدين الرومى (١٢٠٧ — ١٢٧٣ م) أعظم شعراء الإسلام الصوفيين ومؤسس طريقة الجلاليين، المولويين. ولد فى بلخ وتوفى فى قونية. وله كتب شعرية باللغة الفارسية: منها (المثنوى) و (الديوان).

حكاية

يذكر أنه كان فى ابتداء أمره فقيها مدرسا ، يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بِقُونِيَة . فدخل يوما إلى المدرسة رجل يبيع الحلواء ، وعلى رأسه طبق منها ، وهى مقطعة قطعا ، يبيع القطعة منها بفَلْس . فلما أتى مجلس التدريس قال الشيخ : هات طبقك ، فأخذ الحُلْوَانى[١] قطعة منه وأعطاها الشيخ فأخذها بيده وأكلها ، فخرج الحُلْوَانى ولم يطعم أحدا سوى الشيخ ، فخرج الشيخ فى اتباعه وترك التدريس . فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم إياه ، فخرجوا فى طلبه فلم يعرفوا له مستقرا . ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام ، وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسى (المتعلِّق)[٢] الذى لا يفهم[٣] . فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر ، وألفوا منه كتابا سموه المَثْنَوى . وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ، ويعتبرون كلامه ، ويعلمونه ويقرءونه بزواياهم فى ليالى الجمعات . وفى هذه المدينة أيضا قبر الفقيه أحمد الذى يذكر أنه معلم جلال الدين . ثم سافرنا إلى مدينة اللارَنْدة ، وهى مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين .

ذكر سلطان اللارَنْدة

وسلطانها الملك بدر الدين بن قَرَمان ، وكانت قبله لشقيقه موسى ، فنزل عنها للملك الناصر ، وعوضه عنها بعوض ، وبعث إليها أميرا وعسكرا . ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين ، وبنى بهادار مملكته ، واستقام أمره بها . ولقيت هذا السلطان خارج المدينة ، وهو عائد من تصيُّده ، فنزلت له عن دابتى ، فنزل هو عن دابته ، وسلمت عليه ، وأقبل علىّ . ومن عادة ملوك هذه البلاد أنه إذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله ، وزادوا

---

(١) نسبة إلى أحد مصادر (حَلاَ) .

(٢) أى ذو القافية الواحدة فى الشطرين من البيت كالرجز .

(٣) فيه نظر ويظهر أن فى الحكاية مبالغة وتلفيقا .

فى إكرامه . وإن سلم عليهم راكبا ساءهم ذلك ولم يرضهم ، ويكون سببا لحرمان الوارد . وقد جرى لى ذلك مع بعضهم ، وسأذكره . ولما سلمت عليه وركب وركبت سألنى عن حالى وعن مقدمى ودخلت معه المدينة ، فأمر بإنزالى أحسن نُزُل . وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء فى طيافير[1] الفضة ، والشمع ، وكَسَا وأَرْكَبَ وأَحْسَنَ . ولم يطل مُقامنا عنده . وانصرفنا إلى مدينة أَقْصَرا ، وهى من أحسن بلاد الروم وأتقنها ، تَحُفُّ بها العيون الجارية ، والبساتين من كل ناحية . ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجرى الماء بدورها ، وفيها الأشجار ودوالى العنب ، وبداخلها بساتين كثيرة . وتصنع بها البُسُط المنسوبة إليها من صوف الغنم ، لا مثل لها فى بلد من البلاد ، ومنها تحمل إلى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الأتراك . وهذه المدينة فى طاعة ملك العراق . ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عن الأمير أَرْتَنا ، وأَرْتَنا : هو النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم .

وهذا الشريف من الفتيان ، وله طائفة كثيرة ، وأكرمنا إكراما متناهيا ، وفعل أفعال من تقدمه . ثم رحلنا إلى مدينة نَكْدَة ، وهى من بلاد ملك العراق ، مدينة كبيرة ، كثيرة العمارة ، قد تخرب بعضها ، ويشقها النهر المعروف بالنهر الأسود ، وهو من كبار الأنهار ، عليه ثلاث قناطر ، إحداها بداخل المدينة وثنتان بخارجها ، وعليه النواعير بالداخل والخارج ، منها تسقى البساتين ، والفواكه بها كثيرة . ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) جاروق ، وهو الأمير بها ، فأكرمنا على عادة الفتيان ، وأقمنا بها ثلاثا . وسرنا منها بعد ذلك إلى مدينة قَيْسارِيَّة ، وهى من بلاد صاحب العراق ، وهى إحدى المدن العظام بهذا الإقليم ، بها عسكر أهل العراق ، وإحدى خواتين الأمير علاء الدين

(١) صحاف . وقد سبق شرحها فى الحواشى .

أرْتَنا . وهى من أكرم الخواتين وأفضلهن ، ولها نسبة من ملك العراق ، وتدعى أغا ، ومعنى أغا الكبير ، وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك ، واسمها طَغِى خاتون . ودخلنا إليها فقامت لنا وأحسنت السلام والكلام ، وأمرت بإحضار الطعام ، فأكلنا . ولما انصرفنا بعثت لنا بفرس مسرج ملجم ، وخِلْعة ودراهم مع أحد غلمانها ، واعتذرت . ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى (الأخى) أمير علىّ ، وهو أمير كبير من كبار (الأخية) بهذه البلاد ، وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها . وزاويته من أحسن الزوايا فرشا وقناديل ، وطعاما كثيرا وإتقانا . والكبراء ، من أصحابه وغيرهم . يجتمعون كل ليلة عنده ، ويفعلون فى إكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم . ومن عادات هذه البلاد أنه ما كان منها ليس به سلطان ، (فالأخى) هو الحاكم به ، وهو يُركِب الوارد ويكسوه ويحسن إليه على قدره . وترتيبه فى أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك .

مدينة سِيواس

ثم سافرنا إلى مدينة سِيواس ، وهى من بلاد ملك العراق . وأعظم ما له بهذا الإقليم من البلاد ، وبها منزل أمرائه وعماله ، مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع ، أسواقها غاصة بالناس ، وبها دار مثل المدرسة ، تسمى دار السيادة ، لا ينزلها إلا الشرفاء ، ونقيبهم ساكن بها . وتُجْرَى لهم فيها مدة مُقامهم الفُرُش والطعام والشمع وغيره ، ويزودون إذا انصرفوا . ولما قدمنا إلى هذه المدينة خرج إلى لقائنا أصحاب الفتى (أخى) أحمد بِجَقْجى ، وبجق بالتركية : السكين ، وهذا منسوب إليه ، والجيمان منه معقودان بينهما قاف ، وباؤه مكسورة . وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة . ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى (أخى) جلبى ، وهو من كبار (الأخية) ، وطبقته أعلى من طبقة

(أخى) بجقجى ، فطلبوا أن ننزل عندهم ، فلم يمكن ذلك لسبق الأولين . ودخلنا المدينة معهم جميعا وهم يتفاخرون ، والذين سبقوا إلينا قد فرحوا أشد الفرح بنزولنا عندهم . ثم كان من صنيعهم فى الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم . وأقمنا عندهم ثلاثة فى أحسن ضيافة . ثم أتانا القاضى وجماعة من الطلبة ، ومعهم خيل الأمير علاء الدين أَرْتَنا ، نائب ملك العراق ببلاد الروم ، فركبنا إليه ، واستقبلنا الأمير إلى دهليز داره ، فسلم علينا ورحّب . وكان فصيح اللسان بالعربية . وسألنى عن العراقيْن وأَصْبَهان وشيراز وكَرْمان ، وعن السلطان أَتَابَك ، وبلاد الشام ومصر ، وسلاطين التُّركمان . وكان مراده أن أشكر الكريم منهم وأذم البخيل ، فلم أفعل ذلك ، بل شكرت الجميع ، فسر بذلك منى وشكرنى عليه . ثم أحضر الطعام فأكلنا . وقال : تكونون فى ضيافتى ، فقال له الفتى (أخى) جلبى : إنهم لم ينزلوا بعد بزاويتى ، فليكونوا عندى وضيافتك تصلهم ، فقال : افعل ، فانتقلنا إلى زاويته ، وأقمنا بها ستا فى ضيافته ، وفى ضيافة الأمير . ثم بعث الأمير بفرس وكسوة ودراهم ، وكتب لنوابه بالبلاد أن يضيفونا ويكرمونا ويزودونا .

وسافرنا إلى مدينة أَمَاصِيَة ، مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار ، وفواكه كثيرة ، وعلى أنهارها النواعير تسق جنانها ودورها . وهى فسيحة الشوارع والأسواق ، وملكها صاحب العراق . ويقرب منها بلدة سُونُسَا ، وهى لصاحب العراق أيضا . وبها سكنى أولاد ولى الله تعالى أبى العباس أحمد الرفاعى ، منهم الشيخ عز الدين ، وهو الآن شيخ الرُّواق وصاحب سَجَّادة الرفاعى ، وإخوته الشيخ على والشيخ إبراهيم والشيخ يحيى ، أولاد الشيخ أحمد كُوجَك ، ومعناه : الصغير، ابن تاج الدين الرفاعى . ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم . ثم سافرنا إلى مدينة كُمش ،

وهى من بلاد ملك العراق ، مدينة كبيرة عامرة ، يأتيها التجار من العراق والشام ، وبها معادن الفضة . وعلى مسيرة يومين منها جبال شامخة وعَرْة لم أصل إليها . ونزلنا منها بزاوية (الأخى) مجد الدين ، وأقمنا بها ثلاثا فى ضيافته ، وفعل أفعال من قبله ، وجاء إلينا نائب الأمير أرتنا ، وبعث بضيافة وزاد . وانصرفنا عن تلك البلاد فوصلنا إلى أَرْزَنْجان ، وهى من بلاد صاحب العراق ، مدينة كبيرة عامرة ، وأكثر سكانها الأرمن . والمسلمون يتكلمون بها بالتركية . ولها أسواق حسنة الترتيب ، ويصنع بها ثياب حسان تنسب إليها ، وفيها معادن النحاس . ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) نظام الدين ، وهى من أحسن الزوايا ، وهو أيضا من خيار الفتيان وكبارهم ، أضافنا أحسن ضيافة . وانصرفنا إلى مدينة أَرْز الروم ، وهى من بلاد ملك العراق ، كبيرة الساحة ، خَرِب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التُركمان بها . ويشقها ثلاثة أنهار ، وفى أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالى . ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) طومان ، وهو كبير السن ، يقال إنه أناف على مائة وثلاثين سنة ، ورأيته متوكئا على عصا ، ثابت الذهن ، مواظبا على الصلاة فى أوقاتها ، لم ينكر من نفسه شيئا إلا أنه لا يستطيع الصوم . وخدمنا بنفسه فى الطعام ، وخدمنا أولاده فى الحمام ، وأردنا الانصراف عنه ثانى يوم نزولنا . فشق عليه ذلك وأبى ، وقال : إن فعلتم نقصتم حرمتى ، وإن أقلّ الضيافة ثلاث ، فأقمنا لديه ثلاثا .

مدينة بِرْكى

ثم انصرفنا إلى مدينة بِركى ، ووصلنا إليها بعد العصر ، فلقينا رجلا من أهلها فسألناه عن زاوية (الأخى) بها ، فقال : أنا أدلكم عليها ، فاتبعناه فذهب بنا إلى منزل نفسه فى بستان له ، فأنزلنا بأعلى سطح بيته ، والأشجار مظللة ، وذلك أوان الحر الشديد ، وأتى إلينا بأنواع الفاكهة ، وأحسن

فى ضيافته ، وعلف دوابنا ، وبتنا عنده تلك الليلة . وكنا قد علمنا أن بهذه المدينة مدرسا فاضلا يسمى بمحيي الدين ، فأتى بنا ذلك الرجل الذى بتنا عنده ، (وكان من الطلبة) إلى المدرسة ، وإذا بالمدرس قد أقبل راكبا على بغلة فارهة[1] ، ومماليكه وخدامه عن جانبيه والطلبة بين يديه . وعليه ثياب مفرّجة حسان مطرزة بالذهب . فسلمنا عليه ، فرحب بنا ، وأحسن السلام والكلام ، وأمسك بيدى وأجلسنى إلى جانبه . ثم جاء القاضى عز الدين فِرِشتى ، ومعنى فرشتى : المَلَك ، لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله ، فقعد عن يمين المدرس . وأخذ فى تدريس العلوم الأصلية والفرعية . ثم لما فرغ من ذلك أتى دُوَيرة بالمدرسة ، فأمر بفرشها وأنزلنى فيها ، وبعث ضيافة حافلة . ثم وجّه إلينا بعد المغرب ، فمضيت إليه فوجدته فى مجلس ببستان له ، وهنالك صِهريج ماء ينحدر إليه الماء من حوض رُخام أبيض ، يدور به القاشانى ، وبين يديه جملة من الطلبة ، ومماليكه وخدامه وقوف عن جانبيه ، وهو قاعد على مرتبة . فخلته لما شاهدته ملكا من الملوك . فقام إلىّ واستقبلنى ، وأخذ بيدى وأجلسنى إلى جانبه على مرتبته ، وأتى بالطعام فأكلنا ، وانصرفنا إلى المدرسة . وذكر لى بعض الطلبة أن جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس ، فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة . وكتب هذا المدرس إلى السلطان بخبرنا وأثنى فى كتابه ، والسلطان فى جبل هنالك يَصيف فيه لأجل شدة الحر ، وذلك الجبل بارد ، وعادته أن يَصيف فيه .

---

(١) فارهة : نشيطة خفيفة .

ذكر سلطان بِرْكى

وهو السلطان محمد بن آيدين ، من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم . ولما بعث إليه المدرس يعلمه بخبرى وجّه نائبه إلىّ لآتيه ، فأشار علىّ المدرس أن أقيم حتى يبعث إلى ثانية . وكان المدرس إذ ذاك قد خرجت برجله قَرْحة لا يستطيع الركوب بسببها ، وانقطع عن المدرسة . ثم إن السلطان بعث فى طلبى ثانية ، فشقّ ذلك على المدرس فقال : أنا لا أستطيع الركوب ، ومن غرضى التوجه معك لأقرر لدى السلطان مايجب لك . ثم إنه تحامل ولف على رجله خِرَقا وركب ، ولم يضع رجله فى الركاب . وركبت أنا وأصحابى . وصعدنا إلى الجبل فى طريق قد نحتت وسُوِّيت ، فوصلنا إلى موضع السلطان عند الزوال ، فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز . وصادفنا السلطان فى قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان عنه ، إلى صهره السلطان أُرْخان بك . فلما بلغه خبر وصولنا بعث إلينا ولديه خِضْر بك وعمر بك ، فسلما على الفقيه ، وأمرهما بالسلام علىّ ففعلا ذلك ، وسألانى عن حالى ومَقْدَمى ، وانصرفا . وبعث إلى ببيت يسمى عندهم الخرقة (خَرْكَاه) وهو عِصِىٌّ من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللُّبود ، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح ، ويسد متى احتيج إلى سده . وأتوا بالفرش ففرشوه ، وقعد الفقيه وقعدت معه ، وأصحابه وأصحابى خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز . وذلك الموضع شديد البرد ، ومات لى تلك الليلة فرس من شدة البرد . ولما كان من الغد ركب المدرس إلى السلطان وتكلم فى شأنى بما اقتضته فضائله ، ثم عاد إلىّ وأعلمنى بذلك . وبعد ساعة وجّه السلطان فى طلبنا معا ، فجئنا إلى منزله ووجدناه قائما فسلمنا عليه ، وقعد الفقيه عن يمينه وأنا مما يلى الفقيه .

فسألني عن حالي ومقدَمي، وسألني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقَيْن، وبلاد الأعاجم. ثم حضر الطعام، فأكلنا وانصرفنا. وبعث الأرز والدقيق والسمن في كروش الأغنام. وكذلك فِعْل الترك. وأقمنا على تلك الحال أياما، يبعث إلينا في كل يوم فنحضر طعامه. وأتى يوما إلينا بعد الظهر، وقعد الفقيه في صدر المجلس، وأنا عن يساره، وقعد السلطان عن يمين الفقيه، وذلك لعزة الفقهاء عند الترك. وطلب مني أن أكتب له أحاديث، من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتبتها له، وعرضها الفقيه عليه في تلك الساعة، فأمره أن يكتب له شرحها باللسان التركي. ثم قام فخرج، ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير أَبْزار(١) ولا خُضَر، فأمر بعقاب صاحب خزانته، وبعث بالأبزار والسمن.

وطالت إقامتنا بذلك الجبل، فأدركني الملل وأردت الانصراف. وكان الفقيه أيضا قد مل من المُقام هنالك، فبعث إلى السلطان يخبره أني أريد السفر. فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية، ولم أكن إذ ذاك أفهمها، فأجابه عن كلامه وانصرف، فقال لي المدرس: أتدرى ماذا قال؟ قلت: لا أعرف ما قال. قال: إن السلطان بعث إليّ ليسألني ماذا يعطيك، فقلت له: عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد، فليعطه ما أحب من ذلك، فذهب إلى السلطان ثم عاد إلينا فقال: إن السلطان يأمر أن تقيما هنا اليوم، وتنزلا معه غدا إلى داره بالمدينة. فلما كان من الغد بعث فرسا جيدا من مراكبه، ونزل ونحن معه إلى المدينة، فخرج الناس لاستقباله، وفيهم القاضي المذكور آنفا وسواه، ودخل السلطان ونحن معه. فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس إلى ناحية المدرسة، فدعا بنا وأمرنا بالدخول معه إلى داره. فلما وصلنا إلى دِهليز الدار، وجدنا من خدامه نحو عشرين، صورهم فائقة الحسن، وعليهم ثياب الحرير، وشعورهم مفروقة

---

(١) توابل.

مرسلة ، وألوانهم ساطعة البياض مُشْربة بحمرة . فقلت للفقيه : ماهذه الصور الحسان ؟ فقال : هؤلاء فتيان روميّون . وصعدنا مع السلطان دَرَجا كثيرة إلى أن انتهينا إلى مجلس حسن فى وسطه صِهْريج ماء ، وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع من نحاس يمج ماء من فيه ، وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة ، وفوق إحداها مرتبة السلطان . فلما انتهينا إليها نحّى السلطان مرتبته بيده ، وقعد معنا ، وقعد الفقيه عن يمينه والقاضى مما يلى الفقيه ، وأنا مما يلى القاضى ، وقعد القراء أسفل المِصّطبة . ثم جاءوا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجُلّاب(١) المحلول ، قد عصر فيه ماء الليمون ، وجعل فيه كعكات صغار مقسومة ، وفيها ملاعق ذهب وفضة ، وجاءوا معها بصحاف صينية فيها مثل ذلك ، وفيها ملاعق خشب ، فمن تورّع استعمل صحاف الصينى وملاعق الخشب . وتكلمت بشكر السلطان ، وأثنيت على الفقيه ، وبالغت فى ذلك ، فأعجب ذلك السلطان وسره .

وفى ثالث يوم من دخولنا إلى المدينة مع السلطان ، صنع صنيعا عظيما ، ودعا الفقهاء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة ، فطَعِموا ، وقرأ القراء القرآن بالأصوات الحسان ، وعدنا إلى منزلنا بالمدرسة . وكان يوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع فى كل ليلة ، ثم بعث إلىّ مائة مثقال ذهبا وألف درهم وكسوة كاملة ، وفرسا ومملوكا روميا يسمى ميخائيل . وبعث لكل من أصحابى كسوة ودراهم ، كل هذا بمشاركة المدرس محيى الدين ، (جزاه الله تعالى خيرا) وودعنا وانصرفنا . وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة ، أربعة عشر يوما .

---

(١) ماء الورد كما فى القاموس . وقد شُرح معناه فى الجزء الثانى . وفى كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة) للسيد (أَدّيشير) أنه العسل أو السكر عقد بوزنه أو أكثر من ماء الورد .

مدينة تِـــيرة

ثم قصدنا مدينة تِيرة وهى من بلاد هذا السلطان ، مدينة حســـنة ذات أنهـار و بساتين وفواكه ، نزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) محمـــد ، وهو من كبار الصالحين ، صائم الدهر ، وله أصحاب على طريقته ، فأضافنا ودعا لنا .

مدينة أَيَاسُلُوق

وسرنا إلى مدينة أياسلوق ، مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم ، وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ، و يكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها ، منحوتة أبدع نحت . والمسجد الجامع بهذه المـدينة من أبدع مساجد الدنيا ، لا نظير له فى الحسن ، وكان كنيسةً للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد . فلمـا فتحت هـــذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا جامعا . وحيطانه من الرخام الملون، وفرشه الرخام الأبيض، وهو مسقوف بالرَّصَاص ، وفيه إحدى عشرة قبة منوعة ، فى وسط كل قبة صِهرِيج ماء . والنهر يشــقه ، وعن جانبي النهر الأشجـار المختلفة الأجناس ودوالى العنب ومُعَرَّشات الياسمين ، وله خمسة عشر بابا . وأمير هذه المدينة خِضْر بك ابن السلطان محمد بن آيدين . وقد كنت رأيته عند أبيه بِبِرْكِي ، ثم لقيته بهذه المدينة خارجها ، فسلمت عليه وأنا راكب ، فكره ذلك منى ، وكان سبب حرمانى لديه : فإن عادتهـــم إذا نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك ، ولم يبعث إلىّ إلا ثوبا واحدا من الحرير المذهب .

يَزْمِــير

ثم سرنا إلى مدينــة يزمير (١) ، مدينة كبيرة على ساحل البحر ، معظمها خراب ، ولهـا قلعة متصلة بأعلاها . نزلنـا منها بزاوية الشـيخ يعقوب ، وهو من الأحمدية ، صالح فاضل . ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحمد الرفاعي ، ومعه زَادَه الأَخْلاطى ، من كبار المشايخ ، ومعه مائة فقير من المُولَّهين . وقد ضرب لهم الأمير الأخبية ، وصنع لهم الشيخ يعقوب ضيافة ، وحضرتها واجتمعت بهم .

وأمير هــذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفـا . وسكناه بقلعتها . وكان حين قدومنا عليها عند أبيــه ، ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها ، فكان من مكارمه أن أتى إليّ بالزاوية ، فسلم عليّ واعتذر ، وبعث ضيافة عظيمــة . وأعطاني بعد ذلك مملوكا روميا اسمه : نِقُولة ، وثوبين من الكَمْخا ، وهى ثياب حرير تصنع ببغــداد وتِبْرِيز ونَيْسَابور وبالصين ؛ وذكر لى الفقيه الذى يؤمّ به ، أن الأمير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذى أعطاني بسبب كرمه رحمه الله . وأعطى أيضا الشـيخ عز الدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنيــة فضة كبيرة تسمى عنــدهم المِشْرَبة ، مملوءة دراهم وثيــابا من المِلفّ (٢) والمِرْعِزّ (٣) والقسيّ والكَمْخا ، وجوارى وغلمانا . وكان هذا الأمير كريما صالحا كثير الجهاد ، له أجفان (٤) غَزْوِية يضرب بها على نواحى القسطنطينية العظمى ، فيسبي ويغنم ، ويفنى ذلك كرما وجودا ، ثم يعود إلى الجهاد إلى أن اشتدت على الروم وطأته . فرفعوا

---

(١) أزمــير .

(٢) ما يطلق عليه عندنا (الجوخ) .

(٣) الزغب الذى تحت شعر العنز ، كما سبق .

(٤) مراكب الحرب . والأمثل أن تجمع على جفان ، لأن المفرد جفْنة ، على التشــبيه ، وليس من التسمية اللغوية .

أمرهم إلى البابا ، فأمر نصارى جِنَوة و إفرانسة(١) بغزوه فغزوه . وجهّز جيشا من رومة ، وطرقوا مدينته ليلا فى عدد كثير من الأجفان ، وملكوا المرسى والمدينة . ونزل إليهم الأمير عمر من القلعة فقاتلهم فاستُشْهِد هو وجماعة من ناسه . واستقر النصارى بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمَنَعتها .

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة مَغْنِيسِيَة ، ونزلنا بها عشيّ يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان ، وهى مدينة كبيرة حسنة فى سفح جبل ، وبسيطها كثير الأنهار والعيون والبساتين والفواكه .

ذكر سلطان مَغْنِيسِيَة

وسلطانها يسمى صاروخان . ولما وصلنا إلى هذه البلدة وجدناه بتربة ولده ، وكان قد توفى منذ أشهر ، فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بتربته . والولد قد صُبِّر وجعل فى تابوت خشب مغشّى بالحديد المُقَصْدَر(٢) ، وعلق فى قبة لا سقف لها حتى تذهب رائحته ، وحينئذ تُسَقّف القبة ، ويجعل تابوته ظاهرا على وجه الأرض ، وتجعل ثيابه عليه . وهكذا رأيت غيره أيضا من الملوك فعل . وسلمنا عليه بذلك الموضع ، وصلينا معه صلاة العيد ، وعدنا إلى الزاوية . فأخذ الغلام الذى كان لى أفراسنا ، وتوجه مع غلام لبعض الأصحاب ، لسقيها ، فأبطأ . ثم لما كان العشيّ ، لم يظهر لهما أثر . وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين ، فركب معى إلى السلطان ، وأعلمناه بذلك ، فبعث فى طلبهما ، فلم يوجدا واشتغل الناس فى عيدهم . وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمى فُوجة ، على مسيرة يوم من مغنيسية . وهؤلاء الكفار فى بلد حصين ، وهم يبعثون هدية فى كل سنة إلى سلطان مغنيسية ، فيقنع منهم بها ، لحصانة بلدهم . فلما كان بعد الظهر أتى بهما بعض الأتراك وبالأفراس ، وذكروا أنهما اجتازا بهم عشية النهار ، فأنكروا أمرهما ، واشتدوا عليهما حتى أقرا بما عزما عليه من الفرار .

(١) فرنسا .

(٢) المصنوع بالقصدير .

ثم سافرنا من مغنيسية ، و بتنا ليلة عند قوم من التُّركمان ، قد نزلوا فى مرعى لهم ، ولم نجد عندهم ما نَعْلِف به دوابنا تلك الليلة ، و بات أصحابنا يَحْرُسون مداولةً بينهم خوف السرقة . فأتت نَوْبة الفقيه عفيف الدين التُّوزَرى ، فسمعته يقرأ سورة البقرة ، فقلت له : إذا أردت النوم فأعلمنى لأنظر من يحرس . ثم نمت فما أيقظنى إلا الصباح ، وقد ذهب السراق بفرس لى كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه ، وكان من جياد الخيل ، اشتريته بأياسُلوق . ثم رحلنا من الغد فوصلنا إلى مدينة بَرْغَمَة ، مدينة خربة ، لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل ، و يقال : إن أَفْلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة ، وداره تشتهر باسمه إلى الآن . ونزلنا منها بزاوية فقير من الأحمدية . ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا إلى داره وأكرمنا إكراما كثيرا .

ذكر سلطان بَرْغَمه

وسلطانها يسمى يَخْشِى خان ، وخان عندهم : هو السلطان . و يخشى معناه جيد . صادفناه فى مَصِيف له ، فأُعلم بقدومنا ، فبعث بضيافة وثوب قُدْسِىّ . ثم اكترينا من يدلنا على الطريق ، وسرنا فى جبال شامخة وَعْرة ، إلى أن وصلنا إلى مدينة بَلِى كَسْرى ، مدينة حسنة ، كثيرة العمارات ، مليحة الأسواق ، ولا جامع لها يُجَمَّع فيه (١) . وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها ، فبنوا حيطانه ، ولم يجعلوا له سقفا ، وصاروا يصلون به ، ويجتمعون تحت ظلال الأشجار . ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى (أخى) سِنان ، وهو من أفاضلهم ، وأتى إلينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى .

---

(١) تصلى فيه صلاة الجمعة .

ذكر سلطان بَلِي كَسْرِى

ويسمى دُمُور خان ، ولا خير فيه . وأبوه هو الذى بنى هـذه المدينة ، وكثرت عمارتها بمن لاخير فيه فى مدة ابنـه هذا ، والنـاس على دين الملك ورايته . وبعث إلىّ ثوب حرير . واشتريت بهذه المدينة جارية روميـة تسـمى مَرْغَلِيطة . ثم سرنا إلى مدينة بُرْصَا ، مدينة كبيرة عظيمة حسـنة الأسواق ، فسيحة الشوارع ، تَحُفُّ بها البساتين من جميع جهاتها ، والعيون الجارية . وبخارجها نهر شديد الحرارة ، يصب فى بركة عظيمة ، وقد بنى عليها بيتـان أحدهما للرجال ، والآخر للنساء . والمرضى يستشفون بهـذه الحَمَّـة[1] ويأتون إليهـا من أقاصى البـلاد . وهنـالك زاوية للواردين ينزلون بها ، ويُطْعَمُون مدة مُقامهم وهى ثلاثة أيام . عمر هذه الزاوية أحد ملوك التُّركمان . ونزلنا فى هذه المدينة بزاوية الفتى (أخى) شمس الدين ، من كبار الفتيان . ووافقنا عنـده يوم عاشوراء فصنع طعاما كثيرا ، ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا ، وأفطروا عنده ، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة . وحضر الفقيه الواعظ مجـد الدين القُونَوِى ، ووعظ وذكّر وأحسـن . ثم أخذوا فى السماع والرقص ، وكانت ليلة عظيمة الشأن . وهذا الواعظ من الصالحين ، يصوم الدهر ، ولا يفطر إلا فى كل ثلاثة أيام ، ولا يأكل إلا من كدّ يمينه . ويقال إنه لم يأكل طعام أحد قط ، ولا منزل له ولا متاع إلا مايستتر به ، ولا ينـام إلا فى المقبرة . ويعظ فى المجالس ويُذَكِّر فيتوب على يديه فى كل مجلس الجمـاعة من الناس . وطلبته بعد هذه الليلة فلم أجده ، وأتيت الجبانة فلم أجده ، ويقال إنه يأتيها بعد هجوع الناس .

---

(١) الحمة — العين الحارة يستشفى بها المرضى .

طبعت بمصلحة المساحة المصرية

ذكر سلطان بُرْصا

وسلطانها اختيار الدين أُرْخان بك ، وأرخان ابن السلطان عثمان جُوق . وهذا السلطان أكبر ملوك التُّركمان ، وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا ، له من الحصون ما يقارب مائة حصن . وهو فى أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ، ويقيم بكل حصن منها أياما ، لإصلاح شئونه وتفقد حاله . ويقال إنه لم يقم قط شهرا كاملا ببلد ، ويقاتل الكفار ويحاصرهم . ووالده هو الذى استفتح مدينة بُرْصا من أيدى الروم ، وقبره بمسجدها . وكان مسجدها كنيسة للنصارى . ويذكر أنه حاصر مدينة يَزْنِيك نحو عشرين سنة ، ومات قبل فتحها ، فحاصرها ولده هذا الذى ذكرناه نحو اثنتى عشرة سنة وافتتحها ، وبها كان لقائى له . وبعث إلىّ بدراهم كثيرة .

ثم سافرنا إلى مدينة يَزنيك ، وبتنا قبل الوصول إليها ليلة بقرية تدعى كُرْلة ، بزاوية فتى من (الأخية) . ثم سرنا من هذه القرية يوما كاملا فى أنهار ماء ، على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض . ثم وصلنا إلى بحيرة ماء تنبت القصب ، على ثمانية أميال من يزنيك ، لا يستطاع دخولها إلا على طريق واحد مثل الجسر ، لا يسلك عليها إلا فارس واحد ، وبذلك امتنعت هذه المدينة . والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات ، وهى خاوية على عروشها ، لا يسكن بها إلا أناس قليلون من خدام السلطان . وبها زوجته ، وهى الحاكمة عليهم ، امرأة صالحة فاضلة . وعلى المدينة أسوار أربعة ، بين كل سورين خندق ، وفيه الماء . ويُدْخل إليها على جسور خشب ، متى أرادوا رفعها رفعوها . وبداخل المدينة البساتين والدور والمزارع ، فلكل إنسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة . وشربها من آبار بها قريبة . وبها من جميع

أصناف الفواكه والجوز ، والقَسْطَل (١) عندهم كثير جدا ، رخيص الثمن ويسمون القسطل : قسْطنة بالنون ، والجوز : القَوْز بالقاف . وبها العنب العَذارى (٢) ، لم أر مثله فى سواها ، متناهى الحلاوة ، عظيم الجِرْم ، صافى اللون ، رقيق القشر ، وللحبة منه نواة واحدة . أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الإمام المجاور ، علاء الدين السُلْطَانيوكى ، وهو شيخ الفضلاء الكرماء : ما جئت قط لزيارته إلا أحضر الطعام . وصورته حسنة ، وسيرته أحسن .

وبعد قدومنا بأيام ، وصل إلى هـذه المدينة السلطان أُرْخان بك الذى ذكرناه ، وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما ، بسبب مرض فرس لى ، فلما طال علىّ المكث تركتـه وانصرفت ، ومعى ثلاثة من أصحابى وجارية وغلامان ، وليس معنا من يحسن اللسان التركى ويترجم عنا . وكان لنـا تُرجمان فارقنا بهذه المدينة . ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مَكَجا ، بتنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا . وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خادم لها ، وهى قاصدة مدينة يَنجا ، ونحن فى اتباع أثرها ، فوصلتْ إلى واد كبير يقال له سقرى ، كأنه نسب إلى سَقَر ، أعاذنا الله منها ! فذهبت تجوز الوادى ، فلما توسطته كادت الدابة تغرق بها ، ورمتها عن ظهرها ، وأراد الخادم الذى كان معهـا استخلاصها ، فذهب الوادى بهما معا . وكان فى عُدْوة الوادى قوم رموا بأنفسهم فى أثرهما سباحة ، فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رَمَق ، ووجدوا الرجل قد قَضَى نَحْبَه ، (رحمه الله) . وأخبرنا أولئك النـاس أن المعدية (٣) أسفل من ذلك الموضع ، فتوجهنا إليها وهى أربع خشبات مربوطة بالحبال ، يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ،

(١) ما يسمى عندنا بأبى فروة ، وسيأتى شرحه أيضا فى الجزء الثانى .

(٢) شبيه باللؤلؤ ، لأن من معانى العذراء الدرة لم تثقب . ولكن صيغة النسب غير صحيحة .

(٣) يريد بها المَعْبَر . وقد استعملها المؤلف كثيرا بهذا المعنى ، وهو غلط .

ويجذبها الرجال من العُدْوة الأخرى ، ويركب عليها الناس ، وتجوز الدواب سباحة ، وكذلك فعلنا . ووصلنا تلك الليلة إلى كاوِية ، واسمها على مثال فاعلة ، من الكىّ ، نزلنا منها بزاوية أحد (الأخية) ، فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا ، وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه ، فقال : اطلبوا الفقيه فإنه يعرف العربية ، فأتى الفقيه ، فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا . وبتنا تلك الليلة بالزاوية ، وبعث معنا دليلا إلى يَنجا ، بلدة كبيرة حسنة ، بحثنا بها عن زاوية (الأخى) فوجدنا بها أحد الفقراء المُوَلَّهين ، فقلت له : هذه زاوية (الأخى) ؟ فقال لى نعم ، فسررت عنـــد ذلك إذ وجدت من يفهم اللسان العربى . فلما اختبرته أبرز الغيبُ أنه لا يعرف من اللسان العربى إلا كلمة نعم خاصة .

ونزلنا بالزاوية ، وجاء الينا أحد الطلبة بطعام ، ولم يكن (الأخى) حاضرا ، وحصل الأنس بهذا الطالب ، ولم يكن يعرف اللسان العربى . لكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة ، فأعطانى فارسا من أصحابه . وتوجه معنا الى كَيْنُوك ، وهى بلدة صغيرة ، يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين ، وليس بها غير بيت واحد من المسلمين ، وهم الحكام عليهم . وهى من بلاد السلطان أُرخان بك . فنزلنا بدار عجوز ، وذلك إبان الثلج والشتاء ، فأحسنا إليها وبتنا عندها تلك الليلة . وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالى للعنب ، ولا يزرع بها إلا الزعفران . وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير ، وظنت أننا تجار نشتريه منها . ولمـا كان الصـباح ركبنا وأتانا الفارس الذى بعثه الفتى معنا من كاوِية ، فبعث معنا فارسا غيره ليوصـلنا الى مدينة مُطُرْنى . وقد وقع فى تلك الليـلة ثلج كثير عَفَّى الطرق ، فتقدمنا ذلك الفارس ، فاتبعنا أثره ، إلى أن وصلنا فى نصف النهار إلى قرية للتُركمان ، فأتوا بطعام ، فأكلنا منه ، وكلمهم ذلك الفارس ، فركب معنا أحدهم ، وسلك بنا أوعارا وجبالا ومجرى

ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة . فلما خلصنا من ذلك ، قال لنا ذلك الفارس : أعطونى شيئا من الدراهم . فقلنا له : إذا وصلنا إلى المدينة نعطيك ونرضيك . فلم يرض ذلك منا ، أو لم يفهم عنا ، فأخذ قوسا لبعض أصحابى ومضى غير بعيد ، ثم رجع فرد إلينا القوس ، فأعطيته شيئا من الدراهم فأخذها ، وهرب عنا ، وتركنا لا نعرف أين نقصد ، ولا طريق يظهر لنا . فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه ، إلى أن بلغنا عند غروب الشمس جبلا لم يظهر الطريق به لكثرة الحجارة ، فخفت الهلاك على نفسى ومن معى ، وتوقعت نزول الثلج ليلا ، ولا عمارة هنا لك : فإن نزلنا عن الدواب هلكنا ، وإن سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه . وكان لى فرس من الجياد ، فعملت على الخلاص ، وقلت فى نفسى : إذا سلمت فلعلى أحتال فى سلامة أصحابى ، فكان كذلك . واستودعتهم الله تعالى وسرت .

وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتا من الخشب يظن رائيها أنها عمارة فيجدها قبورا ، فظهر لى منها كثير . فلما كان بعد العشاء وصلت إلى البيوت فقلت : اللهم اجعلها عامرة ، فوجدتها عامرة . ووفقنى الله تعالى إلى باب دار ، فرأيت عليها شيخا فكلمته بالعربى فكلمنى بالتركى وأشار إلى بالدخول ، فأخبرته بشأن أصحابى فلم يفهم عنى . وكان من لطف الله أن تلك الدار زاوية للفقراء ، والواقف بالباب شيخها . فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامى مع الشيخ ، خرج بعضهم ، وكانت بينى وبينه معرفة ، فسلم على وأخبرته خبر أصحابى ، وأشرت إليه بأن يمضى مع الفقراء لاستخلاص الأصحاب ، ففعلوا ذلك وتوجهوا معى إلى أصحابى ، وجئنا جميعا إلى الزاوية ، وحمدنا الله تعالى على السلامة . وكانت ليلة جمعة ، فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله ، وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة .

ورحلنا عند الصباح ، فوصلنا إلى مدينة مُطُرْنى عند صلاة الجمعة ، فنزلنا بزاوية أحد الفتيان (الأخية) وبها جماعة من المسافرين ، ولم نجد مَرْبِطا للدواب ، فصلينا الجمعة ونحن فى قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المَرْبِط . فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا ، وكان يعرف اللسان العربى ، فسررت برؤيته ، وطلبت منه أن يدلنا على مرابط للدواب بالكراء ، فقال : أما ربطها فى منزل فلا يتأتى ، لأن أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل منها الدواب ، ولكننى أدلكم على سقيفة بالسوق ، يربط فيها المسافرون دوابهم والذين يأتون لحضور السوق ، فدلنا عليها ، وربطنا بها دوابنا . ونزل أحد الأصحاب بحانوت خال إزاءها ليحرس الدواب .

حكاية

وكان من غريب ما اتفق لنا ، أنى بعثت أحد الخدام ليشترى التبن للدواب ، وبعثت أحدهم يشترى السمن ، فأتى أحدهما بالتبن والآخر دون شىء ، وهو يضحك ، فسألناه عن سبب ضحكه ، فقال : إنا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن ، فأشار إلينا بالوقوف وكلم ولداً له ، فدفعنا له الدراهم ، فأبطأ ساعة وأتى بالتبن ، فأخذناه منه وقلنا له : إنا نريد السمن ، فقال : هذا السمن . وأبرز الغيب أنهم يقولون للتبن سمن ، بلسان الترك ، وأما السمن فيسمى عندهم رباغ[1] . ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذى يعرف اللسان العربى رغبنا منه أن يسافر معنا إلى قَصْطَمُونِيَة ، وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر ، وكسوته ثوبا مصريا من ثيابى ، وأعطيته نفقة تركها لعياله ، وعينت له دابة لركوبه ، ووعدته الخير .

وسافر معنا فظهر لنا من حاله أنه صاحب مال كثير ، وله ديون على الناس ، غير أنه ساقط الهمة ، خسيس الطبع ، سَيّئ الأفعال . وكنا نعطيه

(١) فى النسخة المطبوعة بأوربة (روغان) .

الدراهم لنفقتنا . فيأخذ ما يَفْضُـل من الخبز ، ويشترى به الأبزار والخُضَر والملح ، ويمسك ثمن ذلك لنفسه . وذُكِر لى أنه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك . وكنا نحتمله لما كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك ، وانتهت حاله إلى أن فضحناه . وكنا نقول له فى آخر النهار : يا حاج ، كم سرقت اليوم من النفقة ؟ فيقول : كذا ، فنضحك منه ، ونرضى بذلك . ومن أفعاله الخسيسة أنه مات لنا فرس فى بعض المنازل ، فتولى سلخ جلده بيده وباعه . ومنها أنا نزلنا ليلة عند أخت له فى بعض القرى ، فجاءت بطعام وفاكهة من الإجّاص والتفاح والمِشْمِش والخَوْخ ، كلها ميبسّة ، وتجعل فى الماء حتى تَرْطُب ، فتؤكل ويشرب ماؤها . فأردنا أن نحسن إليها ، فعلم بذلك فقال : لا تعطوها شيئا ، وأعطونى ذلك ، فأعطيناه إرضاء له ، وأعطيناها إحسانا فى خُفية بحيث لم يعلم بذلك . ثم وصلنا إلى مدينة بولى . ولما انتهينا إلى قريب منها ، وجدنا واديا يظهر فى رأى العين صغيرا . فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجِرْية والانزعاج ، فجازوه جميعا . وبقيت جارية صغيرة خافوا إجازتها . وكان فرسى خيرا من أفراسهم ، فأردفتها وأخذت فى جواز الوادى . فلما توسطتُه وقع بى الفرس ، ووقعت الجارية ، فأخرجها أصحابى وبها رَمَق ، وخَلَصْت أنا . ودخلنا المدينة ، فقصدنا زاوية أحد الفتيان (الأخية) . ومن عاداتهم أنه لا تزال النار موُقدة فى زواياهم أيام الشتاء أبدا ، يجعلون فى كل ركن من أركان الزاوية مَوْقِدا للنار ، ويصنعون لها منافِس يصعد منها الدخان ، ولا يؤذى الزاوية . ويسمونها البخارى واحدها بَخيرى[1] . قال ابن جُزَىّ : وقد أحسن صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحِلّى فى قوله ، فى التورية ، وتذكرته بذكر البخيرى :

إن البخيرىَّ مذ فارقتموه غدا ... يَحثُو الرماد على كانونه التَّرِب

لو شئتمو أنه يُمسِى أبا لهبٍ ... جاءت بِغالكم حَمّالة الحطبِ

---

(١) المفرد والجمع ليسا على أصول اللغة .

(رجع). قال : فلما دخلنا الزاوية ، وجدنا النار موقدة ، فنزعت ثيابى ، ولبست ثيابا سواها ، واصطليت بالنار . وأتى (الأخى) بالطعام والفاكهة ، وأكثر من ذلك . فلله دَرُّهم من طائفة، ما أكرم نفوسهم، وأشد إيثارهم ، وأعظم شفقتهم على الغريب ، وألطفهم بالوارد ، وأحبهم فيه ، وأجملهم احتفالا بأمره ، فليس قدوم الإنسان الغريب عليهم إلا كقدومه على أحب أهله إليه . وبتنا تلك الليلة بحال مرضية . ثم رحلنا بالغداة ، فوصلنا إلى مدينة كُرَدَىْ بُولِى ،وهى مدينة كبيرة، فى بسيط من الأرض، حسنة، متسعة الشوارع والأسواق ، من أشدالبلاد بردا ، وهى مَحَلَّات مفترقة ، كل مَحَلَّة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم .

ذكر سلطانها

وهو السلطان شاهبك، من متوسطى سلاطين هذه البلاد، حسن الصورة والسيرة ، جميل الخلق ، قليل العطاء . صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ، ونزلنا بزاوية منها . ولقيت بها الخطيب الفقيه شمس الدين الدِمَشْقى الحنبلى، وهو من مستوطنيها منذ سنين، وله بها أولاد . وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ، ومسموع الكلام عنده . ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية، فأعلمنا أن السلطان قد جاء لزيارتنا ، فشكرته على فعله . واستقبلت السلطان فسلمت عليه، وجلس، فسألنى عن حالى وعن مقدمى، وعمن لقيته من السلاطين، فأخبرته بذلك كله ، وأقام ساعة ثم انصرف ، وبعث بدابة مسرجة وكسوة . وانصرفنا إلى مدينة بُرْلُو ، وهى مدينة صغيرة ، على تل تحتها خندق ، ولها قلعة بأعلى شاهق . نزلنا منها بمدرسة فيها حسنة ، وكان الحاج الذى سافرمعنا يعرف مدرسها وطلبتها ، ويحضر معهم الدرس . ودعانا أمير هذه البلدة ،

وهو على بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه، ملك قَصْطَمُونِيَة، وسنذ كره. فصعدنا إليه إلى القلعة، فسلمنا عليه فرحب بنا وأكرمنا. وسألنى عن أسفارى وحالى فأجبته عن ذلك، وأجلسنى إلى جانبه، وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد، وهو من كبار الكتاب. وحضر الطعام، فأكلنا، ثم قرأ القراء بأصوات مُبكية، وألحان عجيبة، وانصرفنا.

السفر إلى قَصْطَمُونِيَة

وسافرنا بالغد إلى مدينة قصطمونية، وهى من أعظم المدن وأحسنها، كثيرة الخيرات، رخيصة الأسعار، نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالأُطْروش(١) لثقل سمعه. ورأيت منه عجبا: وهو أن أحد الطلبة كان يكتب له فى الهواء، وتارة فى الأرض بأصبعه، فيفهم عنه ويجيبه، ويحكى له بذلك الحكايات فيفهمها.

وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما، فكنا نشترى طابِق(٢) اللحم الغنمى السمين بدرهمين، ونشترى خبزا بدرهمين فيكفينا ليومنا، ونحن عشرة. ونشترى حلواء العسل بدرهمين، فتكفينا أجمعين، ونشترى جَوْزا بدرهم، وقَسْطلا بمثله، فنأكل منها أجمعون، ويفْضُل باقيها. ونشترى حمل الحطب بدرهم واحد، وذلك أوان البرد الشديد. ولم أر فى البلاد مدينة أرخص أسعارا منها. ولقيت بها الشيخ الإمام العالم المفتى المدرس، تاج الدين السُّلْطانيوكى من كبار العلماء، قرأ بالعراقيْن وتبريز، واستوطنها مدة، وقرأ بدمشق، وجاور بالحرمين قديما. ولقيت بها العالم المدرس صدر الدين سليمان الفِنيكى، من أهل فِنيكة من بلاد الروم، وأضافنى بمدرسته التى بسوق

---

(١) الأطروش الأصم. قاموس

(٢) أى نصف الخروف. قاموس

الخيل . ولقيت بها الشيخ المعمَّر الصالح دادا امير علىّ . دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخيل . فوجدته ملقى على ظهره ، فأجلسه بعض خدامه ، ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما ، وكلمنى بالعربى الفصيح ، وقال : قَدِمت خير مَقْدَم . وسألته عن عمره فقال : كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله ، وتوفى وأنا ابن ثلاثين سنة ، وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة ، فطلبت منه الدعاء فدعالى وانصرفت .

ذكر سلطان قَصْطَمُونِيَة

وهو السلطان المكرم سليمان بادْشاه ، وهو كبير السن ، يُنيف على سبعين سنة ، حسن الوجه ، طويل اللحية ، صاحب وقار وهيبة ، يجالسه الفقهاء والصلحاء . دخلت عليه بمجلسه فأجلسنى إلى جانبه ، وسألنى عن حالى ومقدمى وعن الحرمين الشريفين ، ومصر والشام ، فأجبته . وأمر بإنزالى على قرب منه ، وأعطانى ذلك اليوم فرسا عتيقا قِرْطَاسِىّ اللون ، وكسوة ، وعيّن لى نفقة وعَلَفا ، وأمر لى بعد ذلك بقمح وشعير . ومن عادة هذا السلطان أن يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ، ويؤتى بالطعام فتفتح الأبواب . ولا يمنع أحد من حَضَرِىّ أو بَدَوِىّ أو غريب أو مسافر من الأكل . ويجلس فى أول النهار جلوسا خاصا ، ويأتى ابنه فيقبل يديه وينصرف إلى مجلس له ، ويأتى أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون . ومن عادته فى يوم الجمعة أن يركب إلى المسجد وهو بعيد عن داره . والمسجد المذكور ثلاث طبقات من الخشب ، فيصلى السلطان وأرباب دولته والقاضى والفقهاء ووجوه الأجناد فى الطبقة السفلى ، ويصلى الأفندى وهو أخو السلطان وأصحابه وخدامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى ، ويصلى ابن السلطان ولىّ عهده ، وهو أصغر أولاده ، ويسمى الجواد ، وأصحابه ومماليكه

وخدامه وسائر الناس فى الطبقة العليا . ويجتمع القراء فيقعدون حَلْقَة أمام المحراب . ويقعد معهم الخطيب والقاضى ، ويكون السلطان بإزاء المحراب . ويقرءون سورة الكهف بأصوات حسان ، ويكررون الآيات بترتيب عجيب . فإذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر ، فخطب ثم صلى . فإذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارئ بين يدى السلطان عشرا ، وانصرف السلطان ومن معه . ثم يقرأ القارئ بين يدى أخى السلطان ، فإذا أتم قراءته آنصرف هو ومن معه . ثم يقرأ القارئ بين يدى آبن السلطان ، فإذا فرغ من قراءته قام المعرِّف وهو المذكِّر، فيمدح السلطان بشعر تركى ، ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف . ويأتى آبن الملك إلى دار أبيه بعد أن يقبل يد عمه فى طريقه ، وعمه واقف فى انتظاره، ثم يدخلان إلى السلطان ، فيتقدم أخوه ويقبل يده ، ويجلس بين يديه . ثم يأتى آبنه فيقبل يده وينصرف إلى مجلسه ، فيقعد به مع ناسه . فإذا حانت صلاة العصر صلوها جميعا ، وقبل أخو السلطان يده، وآنصرف عنه ، فلا يعود إليه إلا فى الجمعة الأخرى . وأما الولد فإنه يأتى كل يوم غُدْوة كما ذكرناه .

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صَنُوب ، وهى مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين ، يحيط بها البحر من جميع جهاتها ، إلا واحدة ، وهى جهة الشرق ، ولها هنالك باب واحد ، لايدخل إليها أحد إلا بإذن أميرها . وأميرها إبراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذى ذكرناه . ولما استؤذن لنا عليه ، دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين (أخى) جلبى ، وهى خارج باب البحر ، ومن هناك يصعد إلى جبل داخل فى البحر كمِيناء سَبْتة، فيه البساتين والمزارع والمياه، وأكثر فواكهه التين والعنب. وهو جبل مانع لا يستطاع الصعود إليه، وفيه إحدى عشرة قرية ، يسكنها كفار الروم

تحت ذمة المسلمين . وبأعلاه رابطة تنسب لخَضِر وإلياس عليهما السلام ، لا تخلو عن متعبِّد ، وعندها عين ماء ، والدعاء فيها مستجاب . وبسفح هذا الجبل قبر الولى الصالح الصحابى بلال الحبشى ، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر . والمسجد الجامع بمدينة صَنُوب من أحسن المساجد ، وفى وسطه بِرْكة ماء عليها قبة تُقِلُّها أربع أرجل ، ومع كل رجل ساريتان من الرُّخام ، وفوقها مجلس يصعد له على دَرَج خشب . وذلك من عمارة السلطان بَرْوانه ابن السلطان علاء الدين الرومى ، وكان يصلى الجمعة بأعلى تلك القبة ،

وملك بعده ابنه غازى جلبى . فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان . وكان غازى جلبى شجاعا مِقْداما . ووهب الله له الصبر تحت الماء ، وقوة السباحة . وكان يسافر فى (الأجفان) الحربية لحرب الروم ، فإذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء ، وبيده آلة حديد يخرق بها (أجفان) العدو ، فلا يشعرون بما حل بهم ، حتى يَدْهَمَهم الغرق[1] . وطرقتْ مرسى بلده مرة (أجفان) العدو فخرقها وأسر من كان فيها ، وكانت فيه كفاية لا كِفاء لها . خرج يوما للتصيد وكان مُولَعا به ، فاتبع غزالة دخلت بين أشجار ، وزاد فى ركض فرسه فعارضته شجرة ، فضربت رأسه فَشَدَخته فمات . وتغلب السلطان سليمان على البلد ، وجعل به ابنه إبراهيم . وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ، ونائب الأمير بها ومعلمه ، و يعرف بابن عبد الرزاق .

(١) من هذا يظهر أن تدمير سفن العدوّ من تحت الماء ليس بالحديث . ولا يبعد أن تكون الغوّاصات نشأت من ذلك .

حكاية

لما دخلنا هذه المدينة رآنا أهلها ونحن نصلى مُسْبِلى أيدينا ، وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ، ولا كيفية صلاته . والمختار من مذهبه هو إسبال اليدين . وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلى أيديهم ، فاتهمونا بمذهبهم وسألونا عن ذلك ، فأخبرناهم أننا على مذهب مالك ، فلم يقنعوا بذلك منا . واستقرت التُّهَمَة فى نفوسهم ، حتى بعث إلينا نائب السلطان بأرنب وأوصى بعض خدامه أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل به . فذبحناه وطبخناه وأكلنا ، وانصرف الخادم إليه وأعلمه بذلك ، فحينئذ زالت عنا التهمة ، و بعثوا لنا بالضيافة . والروافض لا يأكلون الأرنب . و بعد أربعة أيام من وصولنا إلى صَنُوب ، توفيت أم الأمير إبراهيم بها ، فخرجتُ فى جنازتها ، وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره ، وكذلك الأمراء والمماليك ، وثيابهم مقلوبة . وأما القاضى والخطيب والفقهاء فإنهم قلبوا ثيابهم ، ولم يكشفوا رءوسهم ، بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الأسود ، عوضا عن العمائم . وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوما ، وهى مدة العزاء عندهم .

وكانت إقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ، ننتظر تيسير السفر فى البحر إلى مدينة القِرَم . فاكترينا مركبا للروم ، وأقمنا أحد عشر يوما ننتظر مساعدة الريح . ثم ركبنا البحر ، فلما توسطناه بعد ثلاث هاج علينا واشتد بنا الأمر ، ورأينا الهلاك عيانا . وكنت بالطارِمة[1] ومعى رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر ، فأمرته أن يصعد إلى أعلى المركب لينظر كيف البحر ، ففعل ذلك وأتانى بالطارمة ، فقال لى : أستودعكم الله .

(١) (الطارمة) مكان فى السفينة تحت السكان فى لغة الملاحين . وفى المختار : الطارمة بيت من خشب . فارسىّ معرب .

ودَهِمنا من الهول ما لم يعهد مثـله . ثم تغـيرت الريح وردتنا إلى مقربة من مدينة صَنُوب التى خرجنا منها . وأراد بعض التجار النزول إلى مرساها فمنعت صاحب المركب من إنزاله . ثم استقامت الريح وسافرنا . فلما توسطنا البحر هاج علينا ، وجرى لنا مثل المرة الأولى ثم ساعدت الريح . ورأينا جبال البر ، وقصدنا مرسى يسمى الكَرْش . فأردنا دخوله ، فأشار إلينا أناس كانوا بالجبل أن لا تدخلوا ، نخفنا على أنفسنا ، وظننا أن هنـالك (أجفانا) للعدو ، فرجعنا مع البر . فلما قَرُبْنا منه ، قلت لصاحب المركب : أريد أن أنزل هاهنا ، فأنزلنى بالساحل . ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ، ورأيت فى أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربىّ عليه عمامة ، متقلد سيفا و بيده رمح ، و بين يديه سراج موقد . فقلت للراهب : ما هذه الصورة ؟ فقال : هذه صورة النبى علىّ . فعجبت من قوله . و بتنا تلك الليلة بالكنيسة ، وطبخنا دجاجا فلم نستطع أكلها ، إذ كانت مما استصحبناه فى المركب ، ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه . وهذا الموضع الذى نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدَشْت قِفْجَق . وهـذه الصحراء خَضِرة نَضِرة ، لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب ، وإنما يوقدون الأرواث . ولا يُسافَر فى هذه الصحراء إلا فى العَجَل ، وهى مسيرة ستة أشهر : ثلاثة منها فى بلاد السلطان محمد أُوزبك ، وثلاثة فى بلاد غيره . ولما كان الغد من يوم وصولنا إلى هذا المرسى ، توجه بعض التجار من أصحابنا إلى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقِفْجَق ، وهم على دين النصرانية . فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس ، فركبناها ووصلنا إلى مدينـة الكَفَا ، وهى مدينة عظيمة مستطيلة على ضِفَّة البحر ، يسكنها النصارى ، وأكثرهم الجِنَوِيُّون ، ولهم أمير يعرف بالدَّمَدِير . ونزلنا منها بمسجد المسلمين .

حكاية

ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة . ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ، ولم أكن سمعتها قط ، فهالني ذلك . وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ، ويقرءوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ، ففعلوا ذلك ، فإذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح ، فسلم علينا ، واستفهمناه عن شأنه ، فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك ، وقال : لما سمعت القراءة والأذان خفت عليكم فجئت كما ترون ، ثم انصرف عنا وما رأينا إلا خيرا .

ولما كان من الغد جاء إلينا الأمير وصنع طعاما فأكلنا عنده ، وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق ، وكلهم كفار . ونزلنا إلى مرساها ، فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسَفَري ، صغير وكبير ، وهو من مراسي الدنيا الشهيرة . ثم اكترينا عجلة وسافرنا إلى مدينة القِرَم ، وهي مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان ، وعليها أمير من قِبَله اسمه تُلُكْتُمُور . وكان أحد خدام هذا الأمير قد صحبنا في طريقنا فعرفه بقدومنا ، فبعث إليّ مع إمامه سعدالدين بِغَرس . ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراساني ، فأكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا ، وأحسن إلينا . وهو معظم عندهم ، ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم . وأخبرني هذا الشيخ زاده أن بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى في دَيْر يتعبد به ويكثر الصوم ، وأنه انتهى إلى أن يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول ، ورغب مني أن أصحبه في التوجه إليه فأبيت ، ثم ندمت بعد ذلك على أن لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره . ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائلي ، قاضي الحنفية . ولقيت بها قاضي الشافعية وهو يسمى بخضر ، والفقيه

المدرس علاء الدين الأَصِى ، وخطيب الشافعية أبا بكر ، وهو الذى يخطب بالمسجد الجامع الذى عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة ، والشيخ الحكيم الصالح مُظَفَّر الدين ، وكان من الروم فأسلم وحسن إسلامه ، والشيخ الصالح العابد مُظْهِر الدين ، وهو من الفقهاء المعظمين . وكان الأمير تلكتمور مريضا ، فدخلنا عليه فأكرمنا وأحسن إلينا . وكان على التوجه إلى مدينة السَّرَا حضرة السلطان محمد أُوزْبَك ، فعملت على السير فى صحبته ، واشتريت العجلات لذلك .

ذكر العجلات التى يسافر عليها بهذه البلاد

وهم يسمون العجلة عَرَبة ، وهى عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار . ومنها ما يجره فرسان ، ومنها ما يجره أكثر من ذلك . وتجرها أيضا البقر والجمال ، على حال العربة فى ثقلها أو خفتها . والذى يَخْدُم العربة يركب إحدى الأفراس التى تجرها ، ويكون عليها سرج وفى يده سوط ، يحركها للمشى ، وعود كبير يُصَوِّبها به إذا عاجت عن القصد . ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب ، مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهى خفيفة الحمل ، وتكسى باللِّبد أو بالملف[١] . ويكون فيها طيقان مشبكة ، ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو فى حال سيره . والتى تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا ، وعليها قُفْل . وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبى مغشَّاة باللبد ، وعربة صغيرة لرفيق عفيف الدين التُّوزَرى ، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من الجمال ، يركب أحدها خادم العربة .

---

(١) هو ما يسمى بالجوخ عندنا . والكلمة بهذا المعنى غير عربية كما سبق فى الحواشى .

وسرنا فى صحبة الأمير تلكتمور وأخيه عيسى وولديه . وسافر أيضا معه فى هذه الوجهة إمامه سعد الدين ، والخطيب أبو بكر والقاضى شمس الدين والفقيه شرف الدين موسى ، والمعرِّف علاء الدين . وخُطة هذا المعرف أن يكون بين يدى الأمير فى مجلسه ، فإذا أتى القاضى يقف له هذا المعرف و يقول بصوت عال : باسم الله ، سيدنا ومولانا قاضى القضاة والحكام ، مبين الفتاوى والأحكام ، باسم الله . وإذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار إليه قال : باسم الله ، سيدنا فلان الدين ، باسم الله . فيتهيأ من كان حاضرا لدخول الداخل ، و يقوم إليه و يفسح له فى المجلس . وعادة الأتراك أن يسيروا فى هذه الصحراء سيرا كسير الحجاج فى دَرْب الحجاز : يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحا ، و يرحلون بعد الظهر و ينزلون عشيًا . وإذا نزلوا حلوا الخيل والإبل والبقر عن العربات ، وسَرّحوها للرعى ليلا ونهارا . ولا يعلف أحد دابة لا السلطان ولا غيره . وخاصّة هذه الصحراء ، أن نباتها يقوم مقام الشعير للدواب ، وليست لغيرها من البلاد هذه الخاصة ، ولذلك كثرت الدواب بها . ودوابهم لا رعاة لها ، ولا حراس ، وذلك لشدة أحكامهم فى السرقة . وحكمهم فيها أنه من وجد عنده فرس مسروق ، كلّف أن يرده إلى صاحبه و يعطيه معه تسعة مثله ، فإن لم يقدر على ذلك أُخذ أولاده فى ذلك ، فإن لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة .

وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ ، وإنما يصنعون طعاما من شيء عندهم يسمونه الدُّوقى[1] ، يجعلون على النار الماء ، فإذا غلى صبوا عليه شيئا من الدُّوقى ، وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه معه ، ثم يجعل لكل رجل نصيبه فى صحفة ، و يصبون عليه اللبن

(١) نبات عندهم والاسم غير عربى .

الرائب ويشربونه، ويشربون عليه لبن الخيل، وهم يسمونه القِمِز[1]. وهم أهل قوة وشدة وحسن مِزاج. ويستعملون في بعض الأوقات طعاما يسمونه البورخاني، وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارا، ويثقبون أوساطها، ويجعلونها في قدر، فإذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها. ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدُّوقي الذي تقدم ذكره. وهم يرون أكل الحلواء عيبا.

ولقد حضرت يوما عند السلطان أُوزْبَك في رمضان، فأحضرت لحوم الخيل، وهي أكثر ما يأكلون من اللحم، ولحوم الأغنام. وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابي، فقدمتها بين يديه فجعل أصبعه عليها، وجعله على فيه، ولم يزد على ذلك. وأخبرني الأمير تلكتمور أن أحد الكبار من مماليك هذا السلطان، وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا، قال له السلطان يوما: كل الحلواء أعتقكم جميعا، فأبى، وقال: لو قتلتني ما أكلتها!.

ولما خرجنا من مدينة القِرَم، نزلنا بزاوية الأمير تلكتمور في موضع يعرف بسَجَان، فبعث إليّ أن أحضر عنده، فركبت إليه، وكان لي فرس معد لركوبي، يقوده خادم العربة، فإذا أردت ركوبه ركبته. وأتيت الزاوية، فوجدت الأمير قد صنع بها طعاما كثيرا فيه الخبز، ثم أتوا بماء أبيض في صحاف صغار، فشرب القوم منه. وكان الشيخ مظفَّر الدين يلي الأمير في مجلسه، وأنا أليه، فقلت له: ما هذا؟ فقال: هذا ماء الدهن، فلم أفهم ما قال. فذقته، فوجدت له حموضة فتركته. فلما خرجت سألت عنه فقالوا: هو نبيذ يصنعونه من حب الدُّوقي. ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقي (البوزة). وإنما قال لي الشيخ مظفر الدين: ماء الدُّخْن،

---

(١) الكلمة غير عربية.

ولسانه فيه اللُّكْنة الأعجمية ، فظننت أنه يقول ماء الدهن . وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القِرَم ، وصلنا إلى ماء كثير ، نخوضه يوما كاملا ، وإذا كثر خوض الدواب والعربات في هذا الماء اشتد وَحَله وزاد صعوبة. فذهب الأمير إلى راحلتي ، وقدمني أمامه مع بعض خدامه ، وكتب لي كتابا إلى أمير أَزَاق ، يعلمه أني أريد القدوم على الملك ، ويحضّه على إكرامي. وسرنا حتى انتهينا إلى ماء آخر نخوضه نصف يوم ، ثم سرنا بعده ثلاثا .

مدينة أَزَاق

ووصلنا إلى مدينة أَزَاق ، وهي على ساحل البحر ، حسنة العمارة ، يقصدها الجنويّون وغيرهم بالتجارات . وبها من الفتيان (أخي) بجَقْجي ، وهو من العظماء ، يطعم الوارد والصادر . ولما وصل كتاب الأمير تُلُكْتُمُور إلى أمير أزاق ، وهو محمد خواجه الخُوَارَزْمي ، خرج إلى استقبالي ، ومعه القاضي والطلبة ، وأخرج الطعام . فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه . ووصلنا إلى المدينة ، ونزلنا بخارجها ، بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر وإلياس عليهما السلام . وخرج شيخ من أهل أزاق فأضافنا بزاوية له ضيافة حسنة . وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تلكتمور ، وخرج الأمير محمد للقائه ومعه القاضي والطلبة ، وأعدوا له الضيافة ، وضربوا ثلاث قباب ، متصلا بعضها ببعض ، إحداها من الحرير الملون عجيبة ، والثنتان من الكتان . ولما نزل الأمير بُسطت بين يديه شِقَق الحرير يمشي عليها ، فكان من مكارمه وفضله ، أن قدمني أمامه ، ليرى ذلك الأمير منزلتي عنده . ثم وصلنا إلى الخباء الأول وهو المعد لجلوسه ، وفي صدره كرسي من الخشب لجلوسه كبير مرصع ، وعليه مرتبة حسنة ، فقدمني الأمير أمامه ، وقدم الشيخ مظفر الدين ، وصعد هو ، فجلس فيما بيننا ، ونحن جميعا على المرتبة . وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها ، عن

يسار الكرسي ، على فُرُش فاخرة ، ووقف ولدا الأمير تلكتمور وأخوه والأمير محمد وأولاده في الخدمة . ثم أتوا بالأطعمة ، من لحوم الخيل وسواها ، وأتوا بألبان الخيل ، ثم أتوا (بالبوزة) . وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان ، ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه ، وخطب خطبة بليغة ، ودعا للسلطان وللأمير ، وللحاضرين . يقول ذلك بالعربي ، ثم يفسره لهم بالتركي . وفي أثناء ذلك يكرر القراء آية من القرآن بترجيع عجيب . ثم أخذوا في الغناء ، يغنون بالعربي ، ثم بالفارسي والتركي . ثم أتوا بطعام آخر ، ولم يزالوا على ذلك إلى العشيّ . وكلما أردت الخروج منعني الأمير . ثم جاءوا بكسوة للأمير وكُسًا لولديه وأخيه ، وللشيخ مظفر الدين ولي . وأتوا بعشرة أفراس للأمير ، ولأخيه ولولديه بستة أفراس ، ولكل كبير من أصحابه بفرس ، ولي بفرس . والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا ، وثمنها نزر . قيمة الجيد منها خمسون درهما أو ستون من دراهمهم ، وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه . وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالأكاديش . ومنها معاشهم ، وهي ببلادهم ، كالغنم ببلادنا بل أكثر : فيكون للتركي منهم آلاف منها . وتحمل هذه الخيل إلى بلاد الهند ، فيكون في الرِّفقة منها ستة آلاف ، وما فوقها وما دونها ، لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك ، وما فوقه . ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم . ويركب أحدها وبيده عصا طويلة فيها حبل ، فإذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ، ورمى الحبل في عنقه وجذبه ، فيركبه ويترك الآخر للرعي . وإذا وصلوا بها إلى أرض السند أطعموها العلف ، لأن نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير . ويموت لهم منها الكثير ويسرق . ويَغْرَمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس ، بموضع يقال له شَشْنَقار ، ويغرمون عليها بمُلْتان قاعدة بلاد السند .

وكانوا فيما تقدم يَغْرَمون ربع ما يجلبونه ، فرفع ملك الهندالسلطان محمد ذلك ، وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ، ومن تجار الكفار العشر . ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير ، لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم ، وربما باعوها بِضعْف ذلك وضعفيه ؛ والجياد منها تساوى خمسمائة دينار وأكثر من ذلك . وأهل الهند لا يبتاعونها للجرى والسبق ، لأنهم يلبسون فى الحرب الدروع ، ويُدرّعون الخيل ، وإنما يبتغون قوة الخيل واتساع خُطاها ، والخيل التى يبتغونها للسبق ، تجلب إليهم من اليمن وعُمان وفارس . ويباع الفرس منها بألف دينار إلى أربعة آلاف . ولما سافر الأمير تُلُكْتُمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام ، حتى جَهَّز لى الأمير محمد خواجه آلات سفرى . وسافرت إلى مدينة الماجَر ، وهى مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير ، وبها البساتين والفواكه الكثيرة ، نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح ، العابد المعمَّر محمد البطائحى ، من بطائح العراق . وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعى رضى الله عنه . وفى زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ، منهم المتزوج والعَزَب .

ولأهل تلك البلاد اعتقاد حسن فى الفقراء ، وفى كل ليلة يأتون إلى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ، ويأتى السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ، ويجزلون الإحسان ويعطون العطاء الكثير ، وخصوصا النساء ، فإنهن يكثرن الصدقة ، ويتحرين أفعال الخير . وصلينا بمدينة الماجَر صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة ، صعد الواعظ عز الدين المنبر ، وهو من فقهاء بُخَارى وفضلائها ، وله جماعة من الطلبة والقراء يقرءون بين يديه ، ووعظ وذكَّر ، وأمير المدينة حاضر وكبراؤها . فقام الشيخ محمد البطائحى فقال : إن الفقية الواعظ يريد السفر ، ونريد له زادا ، ثم خلع فرجية مِرْعِزّ كانت

عليه ، وقال : هذه منى إليه . فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ، ومن أعطى فرسا ، ومن أعطى دراهم ، واجتمع له كثير من ذلك كله . ورأيت (بقيسارية) هذه المدينة ، يهوديا سلم علىّ وكلمنى بالعربى ، فسألته عن بلاده فذكر أنه من بلاد الأندلس ، وأنه قدم منها فى البر ولم يسلك بحرا . وأتى على طريق القُسْطَنْطِينِيّة العظمى ، وبلاد الروم وبلاد الجِرْكَس . وذكر أن عهده بالأندلس منذ أربعة أشهر . وأخبرنى التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك ، بصحة مقاله . ورأيت بهذه البلاد عجبا ، من تعظيم النساء عندهم . وهن أعلى شأنا من الرجال . فأما نساء الأمراء ، فكانت أول رؤيتى لهن عند خروجى من القِرَم ، رؤية الخاتون[١] زوجة الأمير سَلْطِيَة فى عربة لها ، وكلها مجللة بالملف الأزرق الطيب ، وطيقان البيت مفتوحة ، وأبوابه ، وبين يديها أربع جوار فائقات الحسن ، بديعات اللباس ، وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها . ولما قربتْ من منزل الأمير ، نزلت من العربة إلى الأرض ، ونزل معها نحو ثلاثين من الجوارى ، يرفعن أذيالها . ولأثوابها عُرًى تأخذ كل جارية بعروة ، ويرفعن الأذيال عن الأرض من كل جانب . ومشت كذلك متبخترة . فلما وصلت إلى الأمير قام إليها وسلم عليها وأجلسها إلى جانبه ، ودار بها جواريها . وجاءوا بروايا القِمِزّ ، فصبت منه فى قدح ، وجلست على ركبتيها قُدّام الأمير وناولته القدح فشرب ، ثم سقت أخاه وسقاها الأمير . وحضر الطعام فأكلت معه ، وأعطاها كسوة وانصرفت . وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء . وسنذكر نساء الملك فيما بعد . وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن ، وإحداهن تكون فى العربة والخيل تجرها ، وبين يديها الثلاث والأربع من الجوارى ، يرفعن أذيالها ، وعلى رأسها (البُغْطاق) . وهو أقروف[٢] مرصع بالجوهر ، وفى أعلاه ريش الطواويس ، وتكون

(١) الأميرة .

(٢) قبعة مستطيلة مخروطة الشكل . وليست الكلمة بعربية فيما نعلم .

طيقان البيت مفتحة ، وهى بادية الوجه ، لأن نساء الأتراك لا يحتجبن . وتأتى إحداهن على هـذا الترتيب ، ومعها عبيدها بالغنم واللبن ، فتبيعه من الناس بالسلع العِطْرية . وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها ، ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغنم . وفى رأسه قلنسوة تناسب ذلك .

وتجهزنا من مدينة الماجَر، نقصد معسكر السلطان ، وكان على أربعة أيام من الماجر ، بموضع يقال له : بِشْ دَغ ، ومعنى بش عندهم : خمسة ، ومعنى دغ : الجبل . وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار ، يغتسل منها الأتراك ، ويزعمون أنه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض . وارتحلنا إلى موضع المحلة[1] ، فوصلناه أول يوم من رمضان ، فوجدنا المحلة قد رحلت ، فعدنا إلى الموضع الذى رحلنا منه ، لأن المحلة تنزل بالقرب منه . فضربت بيتى على تل هنالك ، وركزت العلم أمام البيت ، وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك . وأقبلت المحلة فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ، فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ صاعداً فى الهواء ، وهم يطبخون فى حال رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم . فإذا بلغوا المنزل ، أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض ، وهى خفيفة المحمل . وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت . واجتاز بنا خواتين السلطان ، كل واحدة بناسها على حدة . ولما اجتازت الرابعة منهن ، وهى بنت الأمير عيسى بك ، وسنذكرها ، رأت البيت بأعلى التل ، والعلم أمامه ، وهو علامة الوارد ، فبعثت الفتيان والجوارى فسلموا علىّ ، وأبلغونى سلامها ، وهى واقفة تنتظرهم . فبعثت إليها هدية مع بعض أصحابى ، ومع مُعَرِّف الأمير تُلُكْتُمور ، فقبلتها تبركا ، وأمرت أن أنزل فى جوارها ، وانصرفتْ . وأقبل السلطان فنزل فى محلته على حدة .

(١) المراد القافلة . وقد وردت كثيرا بهذا المعنى فى الرحلة .

ذكر السلطان المعظم محمد أُوزْبك خان

واسمه محمد أوزبك. ومعنى خان عندهم: السلطان؛ وهذا السلطان عظيم المملكة، شديد القوة، كبير الشأن، رفيع المكان، قاهر لأعداء الله، أهل قسطنطينية العظمى، مجتهد فى جهادهم. وبلاده متسعة. ومدنه عظيمة، منها الكَفَا والقِرَم، والماجَر، وأزاق، وسرداق، (سوداق) وخُوارَزمْ. وحضرته السَّرا. وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا، وعظاؤها، وهم: مولانا أمير المؤمنين ظل الله فى أرضه، إمام الطائفة المنصورة، الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة، أيد الله أمره، وأعز نصره، وسلطان مصر والشام، وسلطان العراق، والسلطان أوزبك هذا، وسلطان بلاد تُركستان وما وراء النهر، وسلطان الهند، وسلطان الصين.

ترتيب السلطان محمد أوزبك فى سفره

ويكون هذا السلطان إذا سافر فى مَحَلَّة على حدة، معه مماليكه وأرباب دولته، وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة فى مَحَلّتها. وله فى قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع. ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة فى قبة تسمى قبة الذهب، مزينة بديعة، وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب، وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة، وقوائمه فضة خالصة، ورءوسها مرصعة بالجواهر. ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طَيْطُغلى، وتليها الخاتون كَبَك، وعلى يساره الخاتون بَيَلُون، وتليها الخاتون أُرْدُجى. ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك، وعن الشِّمال ولده الثانى جان بك، وتجلس بين يديه ابنته إيت كُجُجُك. وإذا أتت إحداهن، قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير، وأما طَيْطُغِلى، وهى الملكة وأحظاهن عنده، فإنه يستقبلها إلى باب القبة، فيسلم عليها ويأخذ بيدها. فإذا صعدت

على السرير وجلست ، حينئذ يجلس السلطان . وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب . ويأتى بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين وعن الشمال ، وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتى معه غلام بكرسيه . ويقف بين يدى السلطان أبناء الملوك من بنى عمه ، وإخوته وأقاربه ، ويقف فى مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار ، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال . ثم يدخل الناس للسلام : الأمثل فالأمثل ، ثلاثة ثلاثة ، فيسلمون وينصرفون ، فيجلسون على بعد . فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ، ثم ينصرف سائرهن فيتبعنها إلى محلتها ، فإذا دخلت اليها انصرفت كل واحدة إلى محلتها راكبة عربتها ، ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل ، وأمام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة ، وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان ، وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ، ركبانا ومثلهم مشاة ، بأيديهم القضبان ، والسيوف مشدودة على أوساطهم ، وهم بين الفرسان والفتيان . وهكذا ترتيب كل خاتون منهن فى انصرافها ومجيئها . وكان نزولى من المحلة فى جوار ولد السلطان جان بك الذى نذكره فيما بعد . وفى الغد من يوم وصولى دخلت إلى السلطان بعد صلاة العصر ، وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء ، وقد صنع طعاما كثيرا وأفطرنا بحضره . وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضى حمزة فى شأنى بالخير ، وأشاروا على السلطان بإكرامى . وهؤلاء الأتراك لا يعرفون إنزال الوارد ولا إجراء النفقة ، وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز ، وتلك كرامتهم . وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان ، فلما أردت الانصراف أمرنى بالقعود ، وجاءوا بالطعام ، ثم باللحوم المصلوقة من الغنم والخيل . وفى تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء ، فجعل أصبعه عليه وجعله على فيه ، ولم يزد على ذلك .

ذكر الخواتين وترتيبهن

وكل خاتون منهن تركب فى عربة . وللبيت الذى تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب ، أو من الخشب المرصع . وتكون الخيل التى تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب . وخادم العربة الذى يركب أحد الخيل فتى يدعى القَشِّى . والخاتون قاعدة فى عربة ، وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى (أُولُو خاتون) ، ومعنى ذلك : الوزيرة ، وعن شمالها امرأة من القواعد أيضا تسمى (كُجُك خاتون) ، ومعنى ذلك : الحاجبة . وبين يديها ست من الجوارى الصغار ، يقال لهن البنات ، فائقات الجمال متناهيات الكمال ، ومن ورائها اثنتان منهن تستند إليهما . وعلى رأس الخاتون (البُغْطاق) ، وهو مثل التاج الصغير المكلل بالجواهر ، وبأعلاه ريش الطواويس ، وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر شبه (المنوت) التى يلبسها الروم . وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مِقْنَعة حرير ، مزركشة الحواشى بالذهب والجوهر . وعلى رأس كل واحدة من البنات (الكُلا) ، وهو شبه (الأقروف) ، وفى أعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجوهر ، وريش الطواويس من فوقها . وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب . ويكون بين يدى الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين ، وقد لبسوا ثياب الحرير المذهبة المرصعة بالجواهر ، وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة ، أو يكون من عود ملبّس بهما . وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة ، فى كل عربة الثلاث والأربع من الجوارى الكبار والصغار ، ثيابهن الحرير ، وعلى رءوسهن (الكُلا) . وخلف هذه العربات نحو ثلثمائة عربة تجرها الجمال والبقر ، تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها . ومع كل عربة غلام موكّل بها متزوج بجارية من الجوارى اللاتى ذكرنا . فإن العادة عندهم أنه لا يدخل بين الجوارى من الغلمان إلا من كان له بينهن زوجة . وكل خاتون على هذا الترتيب . ولنذكرهن على الانفراد :

ذكر الخاتون الكبرى

والخاتون الكبرى ، هى الملكة والدة السلطان جان بك وتين بك ، وسنذكرهما . وليست أم ابنته إيت كُجُجُك ، وأمها كانت الملكة قبل هذه. واسم هذه الخاتون طَيْطُغْلِي . وهى أحظى نساء هذا السلطان عنده ، وبعظمها الناس بسبب تعظيمه لها ، وإلا فهى أبخل الخواتين . وفى غد اجتماعى بالسلطان ، دخلت إلى هذه الخاتون ، وهى قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد ، كأنهن خادمات لها ، وبين يديها نحو خمسين جارية صغارا ، يسمين البنات ، وبين أيديهن طيافير[1] الذهب والفضة ، مملوءة بحب الملوك[2] ، وهن ينقينه . وبين يدى الخاتون صينية ذهب مملوءة منه ، وهى تنقيه . فسلمنا عليها . وكان فى جملة أصحابى قارئ يقرأ القرآن على طريقة المصريين ، بطريقة حسنة وصوت طيب ، فقرأ . ثم أمرت أن يؤتى (بالقمز) ، فأتى به فى أقداح خشب لطاف خفاف ، فأخذت القدح بيدها وناولتنى إياه ، وتلك نهاية الكرامة عندهم . ولم أكن شربت (القمز) قبلها ، ولكن لم يمكنى إلا قبوله ، وذقته ولا خير فيه ، ودفعته لأحد أصحابى . وسألتنى عن كثير من حال سفرنا ، فأجبناها ، ثم انصرفنا عنها ، وكان ابتداؤنا بها لأجل عظمتها عند الملك .

ذكر الخاتون الثانية التى تلى الملكة

واسمها كَبَك خاتون ، ومعناه بالتركية : النُخالة ، وهى بنت الأمير نَغَطَى . وأبوها حى مبتلى بعلة النِقْرِس ، وقد رأيته . وفى غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون ، فوجدناها على مرتبة تقرأ فى المصحف الكريم ، وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ، ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا ، فسلمنا عليها ، وأحسنت فى السلام والكلام . وقرأ قارئنا فاستحسنته وأمرت (بالقمز) ، فأحضر ، وناولتنى القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة ، وانصرفنا عنها .

(١) صحاف . وقد تقدم الكلام عليها فى الحواشى .
(٢) نبات يعد من بعض أنواع اليتوعات .

ذكر الخاتون الثالثة

واسمها بَيَلُون، وهى بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تَكْفُور . ودخلنا على هذه الخاتون، وهى قاعدة على سرير مرصع، قوائمه فضة. وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونُوبيات. منهن قائمات وقاعدات. والفِتْيان على رأسها والحجاب بين يديها ، من رجال الروم . فسألت عن حالنا ومقدَمنا ، وبُعْد أوطاننا ، وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها ، رقّة منها وشفقة . وأمرت بالطعام فأحضر ، وأكلنا بين يديها وهى تنظر إلينا . ولما أردنا الانصراف قالت : لا تنقطعوا عنا، وترددوا إلينا ، وطالِعُونا بحاجاتكم . وأظهرت مكارم الأخلاق ، وبعثت فى إثرنا بطعام وخبز كثير، وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة، وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها . ومع هذه الخاتون كان سفرى إلى القسطنطينية العظمى ، كما نذكره بعد .

ذكر الخاتون الرابعة

واسمها أُرْدُوجا، وهى بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير الأُلُوس، ومعناه : أمير الأمراء. وأدركته حيا، وهو متزوج ببنت السلطان إيت كُجُجُك. وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل ، وأشفقهن . وهى التى بعثت إلىّ لما رأت بيتى على التل ، عند جواز المحلة كما قدمناه . دخلنا عليها، فرأينا من حسن خُلُقها وكرم نفسها مالا مزيد عليه . وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها، ودعت (بالقِمِزّ) فشرب أصحابنا . وسألت عن حالنا فأجبناها. ودخلنا أيضا إلى أختها ، زوجة الأمير على بن أَرْزَق

ذكر بنت السلطان المعظم أوزْبَك

واسمها إيت كُجُجُك ، ومعنى اسمها : الكلب الصغير، فان إيت هو الكلب، وكُجُجُك هو الصغير . وقد قدمنا أن الترك يسمون بالفأل، كما تفعل العرب . وتوجهنا إلى هـذه الخاتون بنت الملك وهي في مَحَلّة منفردة ، على نحو ستة أميال من محلة والدها ، فأمرت بإحضار الفقهاء والقضاة ، والسيد الشريف ابن عبد الحميد ، وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء . وحضر زوجها الأمير عيسى الذي بنته زوجة السلطان . فقعد معها على فراش واحد ، وهو مُعتَلّ بالنِّقْرس ، فلا يستطيع التصرف(١) على قدميه ، ولا ركوب الفرس ، وإنما يركب العربة ، وإذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه المجلس محمولا . وعلى هـذه الصورة رايت أيضا الأمير نَغَطَىْ ، وهو أبو الخاتون الثانية . وهذه العلة فاشية في هؤلاء الأتراك . ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق مالم نره من سواها ، وأجزلت الإحسان وأفضلت ، جزاها الله خيرا .

ذكر ولدى السلطان

وهما شقيقان، وأمهما جميعا الملكة طَيْطُغْلى التى قدمنا ذكرها . والأكبر منهما اسمه تين بك ، واسم أخيه جان بك . وكل واحد منهما له مَحَلّة على حدة . وكان تين بك من اجمل خلق الله صورة . وعهد له أبوه بالملك ، وكانت له الحُظْوة والتشريف عنده . ولم يرد الله ذلك : فإنه لما مات أبوه وَلِىَ يسيرا ، ثم قتل لأمور قبيحة جرت له . وولى أخوه جان بك وهو خير منه

(١) يريد المشى وما إليه . وهو تعبير غريب .

وأفضل . وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد ، هو الذى تولى تربية جان بك . وأشار علىّ هو والقاضى حمزة ، والإمام بدر الدين القِوَامى ، والإمام المقرئ حسام الدين البخارى وسواهم حين قدومى ، أن يكون نزولى بمحلة جان بك ، لفضله ، ففعلت ذلك .

ذكر سفرى إلى مدينة بُلْغار

وكنت سمعت بمدينة بلغار ، فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها ، وقصر النهار أيضا ، فى عكس ذلك الفصل . وكان بينها وبين مَحَلَّة السلطان مسيرة عشر . فطلبت منه من يوصلنى إليها ، فبعث معى من أوصلنى إليها ، وردّنى إليه . ووصلتها فى رمضان . فلما صلينا المغرب أفطرنا ، وأُذِّن بالعشاء فى أثناء إفطارنا ، فصليناها ، وصلينا التراويح والشفع والوتر ، وطلع الفجر إثر ذلك . وكذلك يقصر النهار بها ، فى فصل قصره أيضا . وأقمت بها ثلاثا(١) .

ذكر أرض الظلمة

وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة ، والدخول إليها من بلغار وبينهما أربعون يوما ، ثم أضربت عن ذلك لعظم المُؤْنة فيه وقلة الجدوى . والسفر إليها لا يكون إلا فى عجلات صغار ، تجرها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمى ، ولا حافر الدابة فيها . والكلاب لها الأظفار ، فتثبت أقدامها فى الجليد . ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها ، مُوقَرَة بطعامه وشرابه وحطبه ، فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مَدَر . والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذى قد سار فيها مرارا كثيرة ، وتنتهى قيمته إلى ألف دينار

(١) أبْهَمَ ابن بطوطه هنا . ولم يحدد هذه البلاد ، ولا عيَّن موقعها .

ونحوها . وتربط العربة إلى عنقه ويُقرن معه ثلاثة من الكلاب ، ويكون هو المقدم ، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات ، فإذا وقف وقفت . وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره ، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا ، قبل بني آدم ، وإلا غضب الكلب وفرّ وترك صاحبه للتلف . فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة ، نزلوا عند الظلمة ، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك ، وعادوا إلى منزلهم المعتاد . فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم ، فيجدون بإزائه من السَّمُّور[1] والسِنْجاب[2] والقاقم[3] . فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه ، أخذه ، وإن لم يرضه تركه ، فيزيدونه . وربما رفعوا متاعهم ، أعني أهل الظلمة ، وتركوا متاع التجار . وهكذا بيعهم وشراؤهم . ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم ، أمن الجن هو أم من الإنس؟ ولا يرون أحدا[4] .

والقاقم : هو أحسن أنواع الفراء ، وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار ، وصَرْفها من ذهبنا مائتان وخمسون . وهى شديدة البياض ، من جلد حيوان صغير فى طول الشبر ، وذنبه طويل ، يتركونه فى الفروة على حاله . والسمور دون ذلك ، تساوى الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها . وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق ، وكذلك تجار فارس والعراقين .

وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذى بعثه السلطان فى صحبتى ، فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف بِبِشْ دَغ ، وذلك فى الثامن والعشرين من رمضان ، وحضرت معه صلاة العيد ، وصادف يوم العيد يوم الجمعة .

(١) دابة يتخذ من جلدها فراء مُثْمنة . قاموس .

(٢) حيوان على حد اليربوع أكبر من الفأر ، ويتخذ من جلده الفراء اه من الدميرى .

(٣) لم نعثر على ضبطه فيما لدينا من المعجمات .

(٤) حكاية أهل الظلمة هذه تكاد تكون خيالية .

ذكر ترتيبهم فى العيد

ولما كان صباح يوم العيد ، ركب السلطان فى عساكره العظيمة ، وركبت كل خاتون عربتها ، ومعها عساكرها . وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها ، إذ هى الملكة على الحقيقة ، ورثت الملك من أمها . وركب أولاد السلطان ، كل واحد فى عسكره . وكان قد قدم لحضور العيد قاضى القضاة شهاب الدين السَّايلى ، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ ، فركبوا وركب القاضى حمزة ، والإمام بدر الدين القِوامى ، والشريف ابن عبد الحميد . وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تِينَ بك ، ولىّ عهد السلطان ، ومعهم الطبول والأعلام . فصلى بهم القاضى شهاب الدين ، وخطب أحسن خطبة . وركب السلطان ، وانتهى إلى برج خشب يسمى عندهم الكُشْك ، فجلس فيه ومعه خواتينه . ونصب برج ثان دونه ، فجلس فيه ولىّ عهده وابنته صاحبة التاج . ونصب برجان دونهما ، عن يمينه وشماله ، فيهما أبناء السلطان وأقاربه . ونصبت الكراسى للأمراء وأبناء الملوك ، عن يمين البرج وشماله . فجلس كل واحد على كرسيه . ونصب لكل أمير شبه منبر ، فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه ، فكانوا على ذلك ساعة . ثم أتى بالخلع ، فخلعت على كل أمير خِلْعة ، وعند ما يلبسها ، يأتى إلى أسفل برج السلطان فيخدُم(١) . وخدمته أن يمس الأرض بركبته اليمنى ، و يمد رجله تحتها والأخرى قائمة . ثم ينزل السلطان عن البرج ويركب الفرس ، وعن يمينه ابنه ولىّ العهد ، وتليه بنته الملكة إيت كجحك ، وعن يساره ابنه الثانى ، و بين يديه الخواتين الأربع ، فى عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب ، والخيل التى تجرها مجللة بالحرير المذهب . وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار

(١) يظهر شعائر الطاعة والخضوع . وقد استعمل ابن بطوطة هذا التعبير كثيرا فى رحلته . وليس فصيحا فيما نعلم .

وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة ، فيمشون بين يدى السلطان على أقدامهم إلى أن يصل إلى الوطاق[1] ، وقد نصبت هنالك باركة (باركاه) عظيمة ، والباركة عندهم : بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب ، مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب ، وفى أعلى كل عمود جامور[2] من الفضة المذهبة ، له بريق وشعاع ، وتظهر هذه الباركة على البعد . ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان ، ويفرش ذلك كله بفرش الحرير . وينصب فى وسط الباركة السرير الأعظم ، وهم يسمونه التخت ، وهو من خشب مرصع ، وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة ، وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة ، وفوقه فرش عظيم . وفى وسط هذا السرير الأعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى ، وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته إيت كجك ، ومعها الخاتون أُرْدُوجا ، وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيالون ، ومعها الخاتون كَبَك . ونصب عن يمين السرير كرسى قعد عليه تين بك ، ولد السلطان ، ونصب عن شماله كرسى قعد عليه جَان بك (ولده الثانى) . ونصبت كراسىّ عن اليمين والشمال ، جلس فوقها أبناء الملوك والأمراء الكبار ، ثم الأمراء الصغار ، مثل أمراء هَزَارة ، وهم الذين يقودون ألفا . ثم أتى بالطعام على موائد الذهب والفضة ، وكل مائدة يحملها أربعة رجال ، وأكثر من ذلك . وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة . وتوضع بين يدى كل أمير مائدة . ويأتى (الباوَرْجى) ، وهو مقطع اللحم ، وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير ، وفى حزامه جملة سكاكين فى أغمادها . ويكون لكل أمير بَاوَرْجى ، فإذا قدمت المائدة قعد بين يدى أميره ، ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة ، فيها ملح محلول بالماء ، فيقطع الباورجى اللحم

---

(١) يراد به الخيمة بلسانهم .

(٢) قال فى اللسان : والجامور الرأس تشبيها بجامور السفينة اهـ والمراد هنا رأس العمود .

قطعا صغارا . ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطا بالعظم ، فإنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم . ثم يؤتى بأوانى الذهب والفضة للشرب . وأكثر شربهم من نبيذ العسل . فإذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها ، ثم ناولته القدح فشرب . ثم تأخذ قدحا آخر فتناوله الخاتون الكبرى ، فتشرب منه ، ثم تناول سائر الخواتين على ترتيبهن . ثم يأخذ ولى العهد القدح و يَخْدُم ، و يناوله أباه فيشرب ، ثم يناول الخواتين ثم أخته ، و يخدُم لجميعهن . ثم يقوم الولد الثانى فيأخذ القدح ويسقى أخاه ويخدم له ، ثم يقوم الأمراء الكبار ، فيسقى كل واحد منهم ولى العهد ويخدم له ، ثم يقوم أبناء الملوك فيسقى كل واحد منهم هذا الابن الثانى و يخدم له ، ثم يقوم الأمراء الصغار فيسقون أبناء الملوك ، و يغنون فى أثناء ذلك .

وكانت قد نصبت قبة كبيرة أيضا إزاء المسجد للقاضى والخطيب والشريف ، وسائر الفقهاء ، والمشايخ وأنا معهم ، فأتينا بموائد الذهب والفضة ، يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك . ولا يتصرف فى ذلك اليوم بين يدى السلطان إلا الكبار ، فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد إلى من أراد : فكان من الفقهاء من أكل ، ومنهم من تورّع عن الأكل فى موائد الفضة والذهب . ورأيت مدّ البصر عن اليمين والشمال عربات ، عليها رَوَايا (القِمِزّ) ، فأمر السلطان بتفريقها على الناس ، فأتوا إلىّ بعربة منها ، فأعطيتها جيرانى من الأتراك . ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة ، فأبطأ السلطان ، فمن قائل : إنه لا يأتى لأن السكر قد غلب عليه ، ومن قائل : إنه لا يترك الجمعة . فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل ، فسلم على السيد الشريف ، وتبسم له . وكان يخاطبه بآطا وهو (الأب) بلسان التركية .

ثم صلينا الجمعة. وآنصرف الناس إلى منازلهم، وآنصرف السلطان إلى الباركة، فبقى على حاله إلى صلاة العصر. ثم آنصرف الناس أجمعون، وبقى مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته.

ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما آنقضى العيد. فوصلنا إلى مدينة الحاج تَرْخان(١)، ومعنى (ترخان) عندهم الموضع المحرر من المغارم. والمنسوب إليه هذه المدينـة هو حاج من الصالحين تركى نزل بموضـعها، وحرر له السلطان ذلك الموضع، فصار قرية، ثم عظمت وتمدنت. وهى من أحسن المدن، عظيمة الأسواق، مبنية على نهر إتل(٢)، وهو من أنهار الدنيا الكبار. وهنالك يقيم السلطان حتى يشـتد البرد، ويَجْمُد هذا النهر، وتَجْمُـد المياه المتصلة به، ثم يأمر أهل تلك البـلاد فيأتون بالآلاف من أحمال التبن، فيجعلونهـا على الجليد المنعقد فوق النهر. والتبن هنالك لا تأكله الدواب، لأنه يضرها، وكذلك ببلاد الهنـد، وإنمـا أكلهـا الحشيش الأخضر، لخِصْب البلاد. ويسافرون بالعربات، فوق هـذا النهر والمياه المتصلة به، ثلاث مراحل. وربمـا جازت القوافل فوقه مع آخر فصـل الشتاء، فيغرقون ويهلكون.

ولما وصلنا مدينة الحاج تَرْخان، رغبت الخاتون بَيَلُون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها فى زيارة أبيها، لتضع حملها عنده، وتعود إليه، فأذن لها. ورغبتُ منه أن يأذن لى فى التوجه فى صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى، فمنعنى خوفا علىّ، فلاطفته وقلت له: إنمـا أدخلها فى حرمتك، وجوارك، فلا أخاف أحدا، فأذن لى، وودعنـاه، ووصلنى بألف وخمسمائة دينـار وخلعة وأفراس كثيرة. وأعطتنى كل خاتون منهن سبائك الفضة. وأعطت بنته أكثر منهن، وكستنى وأركبتنى. واجتمع لى من الخيل والثياب وفروات السِنْجاب والسَّمور جملة.

(١) وتسمى: أستراخان.

(٢) هو نهر فلجا.

ذكر سفرى إلى القُسْطَنْطِينِيَّة

وسافرنا فى العاشر من شوال ، فى صحبة الخاتون بَيَلُون ، وتحت حُرْمتها . ورحل السلطان فى تشييعها مرحلة ، ورجع هو والملكة وولى عهده . وسافرت سائر الخواتين فى صحبتها مرحلة ثانية ، ثم رجعن . وسافر فى صحبتها الأمير بَيْدَرة فى خمسة آلاف من عسكره . وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس ، منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين ، والباقون من الترك . وكان معها من الجوارى نحو مائتين ، وأكثرهن روميات . وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة ، ونحو ألفى فرس لجرها وللركوب ، ونحو ثلثمائة من البقر ، ومائتين من الجمال لجرها . وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ، ومن الهنديين مثلهم . وقائدهم الأكبر يسمى بِسُنْبُل الهندى ، وقائد الروميين يسمى بميخائيل ، ويقول له الأتراك : لؤلؤ ، وهو من الشجعان الكبار . وتركت أكثر جواريها وأثقالها بمحلة السلطان . إذ كانت قد توجهت للزيارة ووضع الحمل .

وتوجهنا إلى مدينة أُكَك ، وهى مدينة متوسطة ، حسنة العمارة ، كثيرة الخيرات ، شديدة البرد . و بينها و بين السَّرا حضرة السلطان ، مسيرة عشر . وعلى يوم من هذه المدينة ، جبال الرُّوس ، وهم نصارى شُقْر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر . وعندهم معادن الفضة . ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة إلى مدينة سُرْدَق ، وهى من مدن دَشْت قِفْجَق ، على ساحل البحر ، ومرساها من أعظم المراسى وأحسنها ، و بخارجها البساتين والمياه . و ينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصناعات . وأكثر بيوتها خشب . وكانت هذه المدينة كبيرة ، نخَرِب معظمها ، بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك ، وكانت الغلبة للروم ، فانتصر للترك أصحابهم ، وقتلوا الروم شر قِتْلة ، ونفوا أكثرهم و بقى بعضهم تحت الذمة إلى الآن .

وكانت الضيافة تُحمل إلى الخاتون فى كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر ، والدُّوقِ والقِمِزّ وألبان البقر والغنم . وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره إلى آخر حد بلاده، تعظيما لها لا خوفا عليها ، لأن تلك البلاد آمنة . ثم وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم باباسَلْطُوق، وهذه البلدة آخر بلاد الترك ، بينها و بين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما، فى برية غير معمورة ، منها ثمانية أيام لاماء بها ، يُتزود لها الماء ويحمل فى الرَّوَايا والقرب على العربات .

وكان دخولنا إليها فى أيام البرد، فلم نحتج إلى كثير من الماء . والأتراك يرفعون الألبان فى القرب ، ويخلطونها بالدُّوقِ المطبوخ ، ويشربونها فلا يَعْطَشون. وأخذنا من هذه البلدة فى الاستعداد للبرية . واحتجت إلى زيادة أفراس ،فأتيت الخاتون فأعلمتها بذلك ، وكنت أسلم عليها صباحا ومساء . ومتى أتتها ضيافة تبعث إلىّ بالفرسين والثلاثة ، و بالغنم. فكنت أترك الخيل لأذبحها . وكان من معى من الغلمان والخدام يأكلون مع أصحابنا الأتراك . فاجتمع لى نحو خمسين فرسا ، وأمرت لى الخاتون بخمسة عشر فرسا ، وأمرت وكيلها (ساروجة الرومى) أن يختارها سمانا من خيل المطبخ ، وقالت : لا تخف ، فإن احتجت إلى غيرها زدناك .

ودخلنا البرية فى منتصف ذى القَعْدة ، فكان سيرنا ، من يوم فارقنا السلطان إلى أول البرية، تسعة عشر يوما، و إقامتنا خمسة . ورحلنا فى هذه البرية ثمانية عشر يوما ، وما رأينا إلا خيرا والحمد لله . ثم وصلنا بعد ذلك إلى حصن مَهْتُولى ، وهو أول عمالة الروم . وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها ، فوصلها إلى هذا الحصن كَفَالى نِقُولة الرومى فى عسكر عظيم وضيافة عظيمة . وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك

القسطنطينية . وبين مَهْتولى والقُسْطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما ، منها ستة عشر يوما إلى الخليج وستة منه إلى القُسْطنطينية . ولا يُسافَر من هذا الحصن إلا بالخيل والبغال ، وتترك العربات به لأجل الوعْر والجبال . وجاء كَفَالى ببغال كثيرة . وبعثت إلىّ الخاتون بستة منها ، وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركتُه من أصحابى وغلمانى مع العربات والأثقال ، فأمر لهم بدار . ورجع الأمير بَيْدَرة بعساكره . ولم يسافر مع الخاتون إلا ناسها . وتركت مسجدها بهذا الحصن . وكان يؤتى إليها بالخمور فى الضيافة ، فتشربها ، وبالخنازير . وأخبرنى بعض خواصها أنها أكلتها . ولم يبق معها من يصلى ، إلا بعض الأتراك ، كان يصلى معنا . وتغيرت البواطن لكن الخاتون أوصت الأمير كفالى بإكرامى . ولقد ضَرَب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا . ثم وصلنا حصن مَسْلَمة بن عبد الملك ، وهو بسفح جبل على نهر زخّار ، يقال له : أَصْطَفِيلى . ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره . وبخارجه قرية كبيرة . ثم سرنا يومين ووصلنا إلى الخليج ، وعلى ساحله قرية كبيرة ، فوجدنا فيها المد ، فأقمنا حتى كان الجزر وخضناه ، وعرضه نحو ميلين . ومشينا أربعة أميال فى رمال ، ووصلنا الخليج الثانى فخضناه ، وعرضه نحو ثلاثة أميال . ثم مشينا نحو ميلين فى حجارة ورمل ، ووصلنا الخليج الثالث ، وعرضه ميل واحد . فعرض الخليج كله مائيّه ويابسه اثنا عشر ميلا . وتصير ماء كلها فى أيام المطر فلا تخاض إلا فى القوارب .

وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفَنِيكة ، وهى صغيرة لكنها حسنة مانعة ، وكنائسها وديارها حسان والأنهار تخرقها ، والبساتين تحف بها . ويُدّخر بها العنب والإجّاص ، والتفاح والسَّفَرْجَل ، من السنة إلى الأخرى . وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا ، والخاتون فى قصر لأبيها هنالك . ثم قدم أخوها

شقيقها واسمه كَفَالِى قَرَاس فى خمسة آلاف فارس، شاكين فى السلاح . ولما أرادوا لقاء الخاتون ، ركب أخوها فرسا أشهب ، ولبس ثيابا بيضاء ، وجعل على رأسه مِظلّة مكلّلة بالجواهر ، وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك ، وعن يساره مثلهم ، لابسين البياض أيضا ، وعليهم مظلات مزركشة بالذهب . وجعل بين يديه مائة من المشاة ، ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم ، وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرّعا ، عليه شِكّة[1] فارس ، من البَيْضة[2] المجوهرة ، والدروع والتركش[3] ، والقوس والسيف ، وبيده رمح فى طرف رأسه راية . وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة . وتلك الخيل المقودة هى مراكب ابن السلطان . وقسم فرسانه على أفواج ، كل فَوْج فيه مائتا فارس ، ولهم أمير قد قدّم أمامه عشرة من الفرسان شاكين فى السلاح . وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشر من العلامات ملونة ، بأيدى عشرة من الفرسان ، وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ، ومعهم ستة يضربون الأبواق والأنفار والصُّرْنايات[4] .

وركبت الخاتون فى مماليكها ، وجواريها وفتيانها وخدامها ، وهم نحو خمسمائة ، عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة . وعلى الخاتون حلة مرصعة بالجوهر ، وعلى رأسها تاج مرصع ، وفرسها مجلل بجُلّ حرير مزركش بالذهب ، وفى يديه ورجليه خَلاخيل الذهب ، وفى عنقه قلائد مرصعة ، وعَظْم السرج مكسو ذهبا ، مكلل جوهرا .

---

(١) سلاح . (٢) شبه الخُوذة على الرأس . (٣) جعبة السهام بلسانهم ، كما سيأتى فى الحواشى (٤) سبق الكلام على الأنقار والصرنايات فى الحواشى .

وكان التقاؤهما فى بسيط من الارض على نحو ميل من البلد . وترجل لها أخوها لأنه أصغر سنا منها ، وقبَّل رِكابها . وقبلت رأسه . وترجل الأمراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها . وانصرفت مع أخيها . وفى غد ذلك اليوم وصلنا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر ، لا أثبت الآن اسمها . ذات أنهار وأشجار ، نزلنا بخارجها . ووصل أخو الخاتون ولىّ العهد فى ترتيب عظيم ، وعسكر ضخم من عشرة آلاف مُدرَّع . وعلى رأسه تاج . وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك . وعن يساره مثلهم . وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء ، إلا أن الحَفْل أعظم والجمع أكثر . ولاقته أخته فى مثل زِيِّها الأول ، وترجلا جميعا . وأُتى بخباء حرير فدخلا فيه . فلا أعلم كيفية سلامهما .

ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية . فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ، ركبانا ومشاة فى أحسن زى وأجمل لباس . وضربت عند الصبح الطبول والأبواق والأنفار ، وركبت العساكر . وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون ، وأرباب الدولة والخواص ، وعلى رأس الملك رُوَاق[١] يحمله جملة من الفرسان ، ورجال بأيديهم عصىّ طوال ، فى أعلى كل عصا شبه كرة من الجلد ، يرفعون بها الرواق ، وفى وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى . ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العَجاج[٢] ، ولم أقدر على الدخول فيما بينهم ، فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها ، خوفا على نفسى . وذُكر لى أنها لما قَرُبَتْ من أبويها ترجلت وقبلت الأرض بين أيديهما ، ثم قبلت حافرى فرسيهما ، وفعل كبار أصحابها مثل فعلها فى ذلك .

(١) قال فى القاموس : والرواق بيت كالفسطاط ، أو سقف فى مقدم البيت اهـ والمراد هنا المعنى الأول .

(٢) الغبار .

وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى ، وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها . ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك ، وجدنا به مائة رجل ، معهم قائد لهم فوق دكان . وسمعتهم يقولون : سَرَاكِنُو، سَرَاكِنُو، ومعناه : المسلمون . ومنعونا من الدخول ، فقال لهم أصحاب الخاتون : إنهم من جهتنا ، فقالوا : لا يدخلون إلا بإذن . فأقمنا بالباب ، وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك ، وهى بين يدى والدها ، فذكرت له شأننا ، فأمر بدخولنا ، وعين لنا دارا بمقربة من دار الخاتون . وكتب لنا أمرا بألا نُعْترض حيث نذهب من المدينة ، ونودى بذلك فى الأسواق . وأقمنا بالدار ثلاثا ، تُبعث إلينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش . وفى اليوم الرابع دخلنا على السلطان .

ذكر سلطان القسطنطينية

واسمه تَكْفُور ابن السلطان جِرْجيس ، وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة ، لكنه تزهد وترهب ، وانقطع للعبادة فى الكنائس ، وترك الملك لولده ، وسنذكره . وفى اليوم الرابع من وصولنا إلى القسطنطينية ، بعثت إلىّ الخاتون الفتى سُنْبُلا الهندى ، فأخذ بيدى وأدخلنى إلى القصر ، فجزنا أربعة أبواب فى كل باب سقائف ، بها رجال وأسلحتهم ، وقائدهم على دكان مفروش . فلما وصلنا إلى الباب الخامس ، تركنى الفتى سنبل ودخل . ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ، ففتشونى لئلا يكون معى سكين ، وقال لى القائد : تلك عادة لهم ، لابد من تفتيش كل من يدخل على الملك ، من خاص أو عام ، غريب أو بلدى . وكذلك الفعل بأرض الهند . ثم لما فتشونى ، قام الموكل بالباب ، فأخذ بيدى وفتح الباب ، وأحاط بى أربعة

من الرجال ، أمسك اثنان بكمى ، واثنان من ورائى ، فدخلوا بى إلى (مِشْوَر) كبير ، حيطانه بالفُسَيْفِساء ، قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد ، وفى وسطه ساقية ماء ، ومن جهتيها الأشجار . والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا ، لا يتكلم أحد منهم . وفى وسط (المشور) ثلاثة رجال وقوف أسلمنى أولئك الأربعة إليهم ، فأمسكوا بثيابى ، كما فعل الآخرون . وأشار إليهم رجل فتقدموا بى ، وكان أحدهم يهوديا ، فقال لى بالعربى : لا تخف فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد ، وأنا التَرْجُمان ، وأصلى من بلاد الشام . فسألته : كيف أُسَلِّم ؟ فقال : قل السلام عليكم .

ثم وصلت إلى قبة عظيمة والسلطان على سريره ، وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه ، وأسفل السرير الخاتون وأخواتها ، وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة ، وكلهم بالسلاح . فأشار إلى قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هُنَيْهة ، ليسكن رُوعى ، ففعلت ذلك . ثم وصلت إليه ، فسلمت عليه ، وأشار إلى أن اجلس ، فلم أفعل . وسألنى عن بيت المقدس ، وعن الصخرة المقدسة ، وعن القُمامة (١) ، وعن مَهْد عيسى ، وعن بيت لحم ، وعن مدينة الخليل عليه السلام ، ثم دِمَشْق ومصر والعراق وبلاد الروم ، فأجبته عن ذلك كله ، واليهودى يترجم بينى وبينه . فأعجبه كلامى ، وقال لأولاده : أكرموا هذا الرجل وأَمِّنوه . ثم خلع على خلعة ، وأمر لى بفرس مسرج ملجم ، ومِظلة من التى يجعلها الملك فوق رأسه ، وهى علامة الأمان . وطلبت منه أن يعين من يركب معى بالمدينة فى كل يوم ، حتى أشاهد عجائبها وغرائبها ، وأذكرها فى بلادى ، فعين لى ذلك . ومن العادات عندهم أن الذى يلبس خلعة الملك ، ويركب فرسه ، يطاف به فى أسواق المدينة بالأبواق والطبول ، ليراه الناس . وأكثر ما يُفْعَل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أُوزْبَك لئلا يُؤْذَوْا . فطافوا بى فى الأسواق .

(١) قال فى القاموس : نصرانية بنتْ ديرا بالقدس فسمى باسمها .

وصف المدينة

وهى متناهية فى الكبر ، منقسمة قسمين ، بينهما نهر عظيم المد والجزر ، على شكل وادى سَلَا من بلاد المغرب . وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية نخربت ، وهو الآن يعبر فى القوارب ؛ واسم هذا النهر أَبْسُمِى . وأحد القسمين يسمى أَصْطَنْبُول ، وهو بالعُدْوة الشرقية من النهر ، وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته ، وسائر الناس . وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصُّفَّاح(١) متسعة . وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم . وعلى كل سوق أبواب ، تسد عليه بالليل . وأكثر الصناع والباعة بها النساء . والمدينة فى سفح جبل داخل فى البحر نحو تسعة أميال ، وعرضه مثل ذلك أو أكثر ، وفى أعلاه قلعة صغيرة ، وقصر السلطان . والسور يحيط بهذا الجبل ، وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر . وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة . والكنيسة العظمى فى وسط هذا القسم من المدينة . وأما القسم الثانى منها فيسمى الغَلَطَة ، وهو بالعُدْوة الغربية من النهر ، شبيه برِباط(٢) الفتح فى قربه من النهر . وهذا القسم خاص بنصارى الأفرنج يسكنونه . وهم أصناف : فمنهم الجنَوِيُّون ، والبنادقة ، وأهل رُومِيَة ، وأهل إفرانسة . وحكمهم إلى ملك القسطنطينية ، يُقَدِّم عليهم منهم من يرتضونه ؛ ويسمونه (القمص) ، وعليهم وظيفة(٣) فى كل عام لملك القسطنطينية . وربما استعصوا عليه ، فيحاربهم حتى يصالح بينهم البابا . وجميعهم أهل تجارة .

(١) حجارة عراض رقاق كما فى القاموس .

(٢) مدينة فى مراكش

(٣) جُعْل .

ومرساهم من أعظم المراسى ، رأيت به نحو مائة جفن من القَراقِر[1] ، وسواها من الكبار ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة . وأسواق هذا القسم حسنة ، إلا أن الأقذار غالبة عليها ، ويشقها نهر صغير قَذِر نَجِس .

ذكر الكنيسة العظمى

وإنما نذكر خارجها ، وأما داخلها فلم أشاهده . وهى تسمى عندهم أَيَا صُوفِيَا ، وهى من أعظم كنائس الروم ، عليها سور يُطِيف بها ، فكأنها مدينة . وأبوابها ثلاثة عشر بابا . ولها حرم هو نحو ميل ، عليه باب كبير ، ولا يمنع أحد من دخوله . وقد دخلته مع والد الملك الذى يقع ذكره . وهو شبه (مِشْوَر) مُسَطَّح بالرخام ، وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة ، لها حائطان مرتفعان نحو ذراع ، مصنوعان بالرُّخام المجزَّع المنقوش بأحسن صنعة . والأشجار منتظمة عن جهتى الساقية . ومن باب الكنيسة إلى باب هذا (المشور) مُعَرَّش من الخشب مرتفع ، عليه دوالى العنب ، وفى أسفله الياسمين والرياحين . وفى خارج باب هذا (المشور) قبة خشب كبيرة فيها طبلات[2] خشب ، يجلس عليها خدام ذلك الباب . وعن يمين القبة مصاطب وحوانيت ، أكثرها من الخشب ، يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم . وفى وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد إليها على دَرَج خشب ، وفيها كرسى كبير مُطَبَّق بالملف[3] ، يجلس فوقه قاضيهم ، وسنذكره .

---

(١) سبق فى الحواشى شرح هاتين الكلمتين . وكان يجب أن يقول : مائة جفنة ، كما تقدم .

(٢) مصاطب فيما يظهر . واستعمال الكلمة غريب .

(٣) سبق أنه شبه (الجوخ) عندنا .

وعن يسار القبة التى على باب هذا (المشور) سوق العطارين . والساقية التى ذكرناها ، تنقسم قسمين : أحدهما يمر بسوق العطارين والآخر يمر بالسوق ، حيث القضاة والكتّاب . وعلى باب الكنيسة سقائف ، يجلس بها خدامها الذين يَقُمّون[1] طرقها ، ويوقدون سُرُجها ، ويغلقون أبوابها . وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب ، وحلْقتاه من الذهب الخالص . وذكر لى أن عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهى إلى آلاف ، وأن بعضهم من ذرية الحواريين ، وأن بداخلها كنيسة مختصة بالنساء ، فيها من الأبكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف ، وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله .

ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس ، أن يأتوا كل يوم صباحا إلى زيارة هذه الكنيسة . ويأتى إليها البابا مرة فى السنة . وإذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك إلى لقائه ويترجل له ، وعند دخول المدينة يمشى بين يديه على قدميه . ويأتيه صباحا ومساء للسلام عليه طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف .

ذكر الملك المترهب جِرْجيس

وهذا الملك وَلّى المُلْك ابنه وانقطع للعبادة ، وبنى مَانَسْتارا[2] خارج المدينة على ساحلها . وكنت يوما مع الرومى المعين للركوب معى ، فإذا بهذا الملك ماش على قدميه ، وعليه المُسوح[3] وعلى رأسه قلنسوة لِبْد ، وله لحية بيضاء طويلة ، ووجه حسن عليه أثر العبادة ، وخلفه وأمامه جماعة من الرهبان ، وبيده عكاز وفى عنقه سُبْحة . فلما رآه الرومى نزل وقال لى : انزل فهذا والد الملك . فلما سلم عليه الرومى ، سأله عنى ثم وقف ، وبعث لى فجئت إليه فأخذ بيدى ، وقال لذلك الرومى ، وكان يعرف اللسان العربى :

---

(١) يكنسون . (٢) المانَسْتارُ شبه الزاوية عند المسلمين ، غير عربية .

(٣) جمع مِسْح وهو لباس خشن من صوف .

قل لهذا السرا كنو (يعنى المسلم) : أنا أصافح اليد التى دخلت بيت المقدس، والرجل التى مشت داخل الصخرة . والكنيسة العظمى التى تسمى قُمَامة، و بيت لحم . وجعل يده على قدمى، ومسح بها وجهه . فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم . ثم أخذ بيدى ومشيت معه، فسألنى عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى، وأطال السؤال . ودخلت معه إلى حرم الكنيسة الذى وصفناه آنفا . ولما قارب الباب الأعظم، خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه، وهو من كبارهم فى الرَّهْبانية . ولما رآهم أرسل يدى، فقلت له : أريد الدخول معك إلى الكنيسة، فقال للتَّرجمان : قل له : لابد لداخلها من السجود للصليب الأعظم، فإن هذا مما سنته الأوائل، ولا يمكن خلافه، فتركته، ودخل وحده . ولم أره بعدها .

قاضى القسطنطينية

ولما فارقت الملك المترهب، دخلت سوق الكتّاب، فرآنى القاضى، فبعث إلى أحد أعوانه، فسأل الرومى الذى معى فقال له : إنه من طلبة المسلمين، فلما عاد إليه وأخبره بذلك، بعث الىّ أحد أصحابه . وهم يسمون القاضى : النجشى كفالى، فقال لى : النجشى كفالى يدعوك، فصعدت إليه إلى القبة التى تقدم ذكرها، فرأيت شيخا حسن الوجه واللِّمَّة[1] عليه لباس الرهبان، وهو (الملف الأسود)، وبين يديه نحو عشرة من الكتّاب يكتبون، فقام إلىّ وقام أصحابه، وقال : أنت ضيف الملك ويجب علينا إكرامك . وسألنى عن بيت المقدس والشام ومصر، وأطال الكلام، وكثر عليه الازدحام . وقال لى : لا بد لك أن تأتى إلى دارى، فأضيفك، فانصرفت عنه . ولم ألقه بعد .

---

(١) الشعر المجاوز شحمة الأذن .

الانصراف عن القسطنطينية

ولما ظهر لمن كان فى صحبة الخاتون من الأتراك أنها على دين أبيها ، وراغبة فى المقام معه ، طلبوا منها الإذن فى العودة إلى بلادهم ، فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا . وبعثت معهم من يوصلهم إلى بلادهم أمير (يسمى ساروجة الصغير) فى خمسمائة فارس . وبعثت عنى فأعطتنى ثلثمائة دينار من ذهبهم ، وألفى درهم بندقية ، وشُقَّة مِلَفّ من عمل البنات ، وهو أجود أنواعه ، وعشرة أثواب من حرير ، وكتان ، وصوف ، وفرسين . وذلك من عطاء أبيها . وأوصت بى ساروجة ، وودعتها وانصرفت . وكانت مدة مُقامى عندهم شهرا وستة أيام . وسافرنا فى صحبة ساروجة ، فكان يكرمنى حتى وصلنا إلى آخر بلادهم ، حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا . فركبنا العربات ودخلنا البرية . ووصل ساروجة معنا إلى مدينة (باباسَلْطُوق) ، وأقام بها ثلاثا فى الضيافة ، وانصرف إلى بلاده ، وذلك فى اشتداد البرد . وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين ، أحدهما مبطن ، وفى رجلى خف من صوف ، وفوقه خف مبطن بثوب كتان ، وفوقه خف من البرغالى ، وهو جلد الفرس ، مبطن بجلد ذئب . وكنت أتوضأ بالماء الحار ، بمقربة من النار ، فما تقطر من الماء قطرة ، إلا جَمَدَتْ لحينها . وإذا غسلت وجهى ، يصل الماء إلى لحيتى ، فَيَجْمُد فأحركها ، فيسقط منها شبه الثلج ، والماء الذى ينزل من الأنف يجمد على الشارب . وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علىّ من الثياب ، حتى يُركبنى أصحابى . ثم وصلت إلى مدينة الحاج تَرْخان ، حيث فارقنا السلطان أُوزْبَك ، فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه . فسافرنا على نهر إتِل وما يليه من المياه ثلاثا ، وهى جامدة . وكنا إذا احتجنا إلى الماء قطعنا قطعا من الجليد ، وجعلناه فى القدر حتى يصير ماء ، فنشرب منه ونطبخ به .

مدينة السَّرا

ووصلنا إلى مدينة السرا ، وهى حضرة السلطان أُوزْبَك . ودخلنا على السلطان، فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته، فأعلمناه . وأمر باجراء النفقة علينا ، وأنزلنا . ومدينة السرا من أحسن المدن، متناهية الكبر، فى بسيط من الأرض ، تَغَصُّ بأهلها كثرة ، حسنة الأسواق ، متسعة الشوارع . وركبنا يوما مع بعض كبرائها ، وغرضنا التطوف حولها، ومعرفة مقدارها . وكان منزلنا فى طرف منها ، فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها إلا بعد الزوال، فصلينا الظهر وأكلنا طعاما ، فما وصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب . ومشينا يوما فى عرضها ذاهبين وراجعين فى نصف يوم . وذلك فى عمارة متصلة الدُّور ، لا خراب فيها ولا بساتين . وفيها ثلاثة عشر مسجدا لإقامة الجمعة . أحدها للشافعية . وأما المساجد سوى ذلك فكثير جدا . وفيها طوائف من الناس . وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها . والتجار والغرباء، من أهل العراقيْن ومصر والشام وغيرها، ساكنون بمحلة عليها سور ، احتياطا على أموال التجار .

وقصر السلطان بها يسمى أَلْطُون طاش ، وألطون معناه (الذهب) ، وطاش معناه (حجر) . وقاضى هذه الحضرة ، بدر الدين الأعرج ، من خيار القضاة . وبها من مدرسى الشافعية ، الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان اللَّكْزِى، أحد الفضلاء ، وبها من المالكية شمس الدين المصرى . وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين، أضافنا بها وأكرمنا . وبها زاوية الفقيه الإمام العالم نعمان الدين الخُوَارَزْمى ، رأيته بها ، وهو من فضلاء المشايخ ، حسن الأخلاق كريم النفع شديد التواضع ، شديد السطوة على أهل الدنيا ، يأتى إليه السلطان أوزبك زائرا فى كل جمعة ، فلا يستقبله ولا يقوم إليه ،

ويقعد السلطان بين يديه ، ويكلمه ألطف كلام ، ويتواضع له ، والشيخ بضد ذلك . وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين ، خلاف فعله مع السلطان ، فإنه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم . وأكرمنى جزاه الله خيرا ، وبعث إلىّ بغلام تركى . وشاهدت له بركة .

كرامة له

كنت أردت السفر من السَّرا إلى خوارزم ، فنهانى عن ذلك وقال لى : أقم أياما ، وحينئذ تسافر . فنازعتنى النفس ووجدت رُفْقة كبيرة آخذة فى السفر ، فيهم تجار أعرفهم ، فاتفقت معهم على السفر فى صحبتهم ، وذكرت له ذلك ، فقال لى : لابد لك من الإقامة . فعزمت على السفر ، فأبَق لى غلام أقمت بسببه ، وهذه من الكرامات الظاهرة . ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابى ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج تَرْخان فجاء به إلىَّ . فحينئذ سافرت إلى خُوَارَزْم ، وبينها وبين حضرة السرا صحراء ، مسيرة أربعين يوما ، لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ ، وإنما تجر العربات بها الجمال . فسرنا من السرا عشرة أيام ، فوصلنا إلى مدينة سَرَا جُوق ، ومعنى (جوق) صغير ، فكأنهم قالوا سرا الصغيرة . وهى على شاطئ نهر كبير زخّار يقال له أُلوُصُو ، ومعناه الماء الكبير ، وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد . وإلى هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيل التى تجر العربات . وبعناها بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس ، وأقل من ذلك ، لأجل ضعفها ورُخْصها بهذه المدينة . واكترينا الجمال لجر العربات . وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح مُعَمَّر من الترك يقال له أَطَا ، ومعناه الوالد ، أضافنا بها ، ودعا لنا ، وأضافنا أيضا قاضيها ، ولا أعرف اسمه .

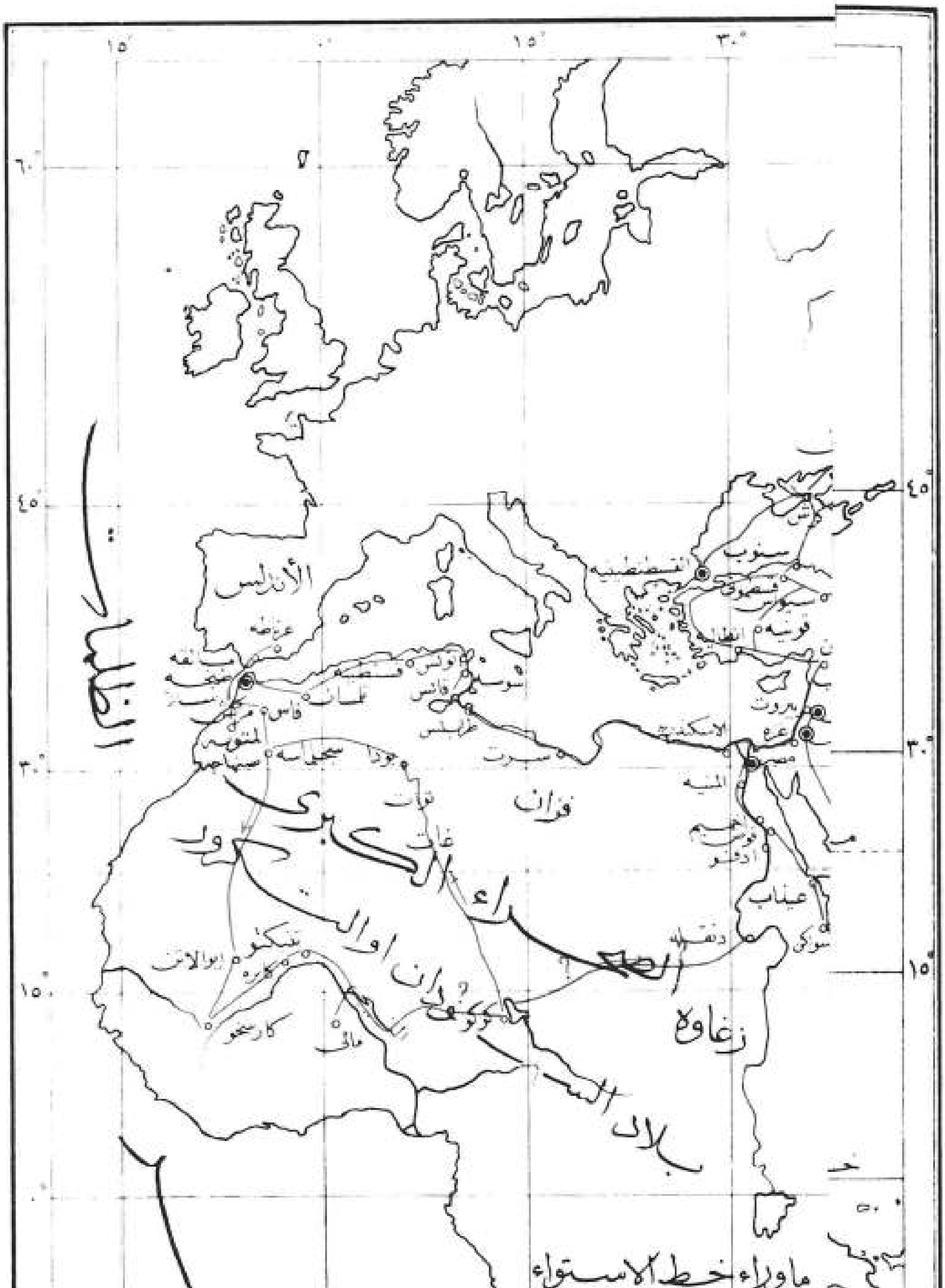

الأندلس
غرناطة
تلمسان
فاس
تونس
قابس
طرابلس
سرت
فزان
سجلماسة
توات
غات
القسطنطينية
سنوب
قونية
بيروت
الاسكندرية
مصر
عيذاب
دنقلة
زغاوة
مالي
ماوراء خط الاستواء

ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادًّا لا ننزل إلا ساعتين : إحداهما عند الضُّحا ، والأخرى عند المغرب . وتكون الإقامة قدر ما يطبخون الدُّوقِي ويشربونه ، وهو يطبخ من غلية واحدة . ويكون معهم الخليع[1] من اللحم يجعلونه عليه ، ويصبون عليه اللبن . وكل إنسان إنما ينام أو يأكل فى عربته حال السير. ومن عادة المسافرين فى هذه البرية الإسراع لقلة أعشابها ، والجمال التى تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به ، إلا فى سنة أخرى ، بعد أن يَسْمَن . والماء فى هذه البرية فى مناهل معلومة ، بعد اليومين والثلاثة : وهو ماء المطر والحسيان[2] ؛ ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها ، كما ذكرناه .

مدينة خُوَارَزْم

وصلنا إلى خوارزم ، وهى أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها ، لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة ، والعمارة الكثيرة ، والمحاسن الأثيرة ، وهى ترتج بسكانها لكثرتهم ، وتموج بهم موج البحر . ولقد ركبت بها يوما ودخلت السوق ، فلما توسطته وبلغت منتهى الزحام فى موضع يقال له الشَّوْر ، لم أستطع أن أجوز ذلك الموضع ، لكثرة الازدحام ، وأردت الرجوع فما أمكننى لكثرة الناس ، فبقيت متحيرا . وبعد جهد شديد رجعت . وذكر لى بعض الناس أن تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة ، لأنهم يسدون سوق القيسارية وغيرها من الأسواق ، فركبت يوم الجمعة وتوجهت إلى المسجد الجامع والمدرسة .

---

(١) صوابه (الخَلْع) قال فى القاموس : الخلع لحم يطبخ بالتوابل فى وعاء من جلد ، أو القديد الخ .

(٢) صوابه الأحساء أو الحِساء ، جمع حِسْى وحِسًى ، سهل يستنقع فيه الماء ، كما سبق .

وهـذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزْبَك ، وله فيها أمير كبـير يسمى قُطْلُودُمُور ، وهو الذى عمر هـذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة . وأما المسجد فعمرته زوجته الخاتون الصالحة تُرَابَكْ . وبخوارزم مَارَسْتان له طبيب شامىّ ، يعرف بالصَّهيونى ، نسـبة إلى صَهْيون من بلاد الشام . ولم أر فى بلاد الدنيـا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوسا ولا أحب فى الغرباء . ولهم عادة جميلة فى الصلاة لم أرها لغيرهم : وهى أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة . فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بحضر الجماعة . وفى كل مسجد دِرَّة معلقة لذلك ، ويُغَرَّم خمسـة دنانير تنفق فى مصالح المسجد ، أو لإطعام الفقراء والمساكين ؛ ويذكرون أن هـذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان .

وبخارج خُوَارَزْم نهر جَيْحُون ، وهو يَجْمُد فى أوان البرد ، كما يجمد نهر إتِل . ويسلك الناس عليه ، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر ، وربمـا سلكوا عليه عند أخذه فى الذوبان فهلكوا . ويُسَافَر فيه أيام الصيف بالمراكب إلى تِرْمِذ ، ويجلبون منها القمح والشـعير وهى مسيرة عشر للمنحدر . وبخارج خوارزم قبر الإمام العـلامة أبى القاسم محمود بن عمر الزَمَخْشَرى ، وعليه قبة ؛ (وَزَمَخْشَر) قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم . ولمـا أتيت هذه المدينة نزلت بخارجها ، وتوجه بعض أصحابى إلى القاضى الصدر أبى حفص عمر البكرى ، فبعث إلىَّ نائبه نور الإسلام ، فسلم علىّ ثم عاد إليه ، ثم أتى القاضى فى جماعة من أصحابه فسلم علىّ ، وهو فتىّ السن كبير الفعال . وله نائبان ، أحدهما نور الإسلام المذكور ، والآخر نور الدين الكَرْمانى ، من كبار الفقهاء ، وهو الشديد فى أحكامه ، القوىّ فى ذات الله تعالى .

ولما اجتمعت بالقاضى قال لى : إن هذه المدينة كثيرة الزحام ، ودخولكم نهارا لا يتأتى ، وسيأتى إليكم نور الإسلام لتدخلوا معه من آخر الليل . ففعلنا ذلك ، ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد . ولما كان بعد صلاة الصبح أتى إلينا القاضى المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة .

وكنت أيام إقامتى بها أصلى الجمعة مع القاضى أبى حفص عمر بمسجده . فإذا فرغت الصلاة ذهبت معه إلى داره وهى قريبة من المسجد ، فأدخل معه إلى مجلسه ، وهو من أبدع المجالس ، فيه الفرش الحافلة ، وحيطانه مكسوة بالملف . وفيه طيقان كثيرة ، وفى كل طاق منها أوانى الفضة المموهة بالذهب ، والأوانى العراقية . وكذلك عادة أهل تلك البلاد أن يصنعوا فى بيوتهم . ثم يؤتى بالطعام الكثير . وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع ، وهو سِلْف الأمير (قُطْلُودُمُور) ، متزوج بأخت امرأته . وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمُذَكِّرين ، أكبرهم مولانا زين الدين المَقْدِسى ، والخطيب مولانا حسام الدين المَشَاطِى ، الخطيب المِصْقَع ، أحد الخطباء الأربعة الذين لم أسمع فى الدنيا أحسن منهم .

أمير خوارزم

هو الأمير الكبير قُطْلُودُمُور ، وهو ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزْبَك ، وأكبر أمرائه ، وهو واليه على خراسان . وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التى أمها الملكة طَيْطُغْلى ، وامرأته الخاتون تُرَابَك صاحبة المكارم الشهيرة . ولما أتانى القاضى مسلما علىّ ، كما ذكرته ، قال لى : إن الامير قد علم بقدومك ، وبه بقية مرض يمنعه من الإتيان إليك . فركبت مع القاضى إلى زيارته ، وأتينا داره فدخلنا (مِشْوَرا) كبيرا أكثر

بيوته خشب ، ثم دخلنا (مشورا) صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة ، قد كسيت حيطانها بالملَفّ الملون وسقفها بالحرير المـذهب ، والأمير على فرش له من الحرير ، وقد غطى رجليه لما بهما من النِقْرِس ، (وهى علة فاشية فى الترك) . فسلمت عليه وأجلسنى إلى جانبه . وقعد القاضى والفقهاء . وسألنى عن سلطانه الملك محمد أوزبك . وعن الخاتون بَيَلُون وعن أبيها ، وعن مدينة القسطنطينية ، فأعلمته بذلك كله . ثم أُتِى بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكَرَاكِىّ وأفراخ الحمام ، وخبز معجون بالسمن ، والكعك والحلوى . ثم أتى بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبّب ، فى أوانى الذهب والفضة ، ومعه ملاعق الذهب . وبعضه فى أوانى الزجاج العراقى ، ومعه ملاعق من الخشب ، ومن العنب والبطيخ العجيب . ومن عادات هـذا الأمير أن يأتى القـاضى فى كل يوم إلى (مشوره) ، فيجلس بمجلس مُعَدّله ، ومعـه الفقهاء وكتّابه . ويجلس فى مقابلته أحد الأمراء الكبراء ، ومعه ثمـانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم . ويتحاكم الناس إليهم : فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضى ، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء . وأحكامهم مضبوطة عادلة ، لأنهم لا يُتَّهمون بميل ولا يقبلون رشوة . ولما عدنا إلى المدرسة ، بعد الجلوس مع الأمير ، بعث إلينا الأرز والدقيق والغنم والسمن والأبزار[١] وأحمال الحطب . وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم ، وكذلك الهند وخُراسان ، وبلاد العجم . وأما الصين فيوقدون فيها حجارة[٢] تشتعل فيها النـار ، كما تشتعل فى الفحم ، ثم إذا صارت رمادا عجنـوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا به ثانية كذلك حتى يتلاشى .

---

(١) الأفاوية كما تقدم فى الحواشى .

(٢) يظهر أنها الفحم الحجرى المعروف الآن .

مكرمة لهذا القاضى والأمير

صليت فى بعض أيام الجمع على عادتى بمسجد القاضى أبى حفص . فقال لى : إن الأمير أمر لك بخمسمائة درهم ، وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى، يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه. فلما أمر بذلك قلت له : أيها الأمير، تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين؛ او جعلت له جميع المال كان أحسن له ، فقال : أفعل ذلك . وقد أمر لك بالألف كاملة . ثم بعثها الأمير فى صحبة إمامه شمس الدين السِّنْجَرى فى خريطة يحملها غلامه . وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا دراهم ، وركبته فى ذهابى إلى المسجد، فما أعطيت ثمنه إلا من تلك الألف . وتكاثرت عندى الخيل بعد ذلك، حتى انتهت إلى عدد لا أذكره ، خيفة مكذِّب يكذب به . ولم تزل حالى فى الزيادة ، حتى دخلت أرض الهند . وكانت عندى خيل كثيرة ، لكنى كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه أمام الخيل . وبقى عندى إلى انقضاء ثلاث سنين . ولما هلك تغيرت حالى ، وبعثت إلىَّ الخاتون امرأة القاضى مائة دينار دراهم ، وصنعت لى أختها تُرابَك زوجة الأمير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التى بنتها ، وفيها الطعام للوارد والصادر . وبعثت إلى بفروة سَمُّور وفرس جيد . وهى من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن . جزاها الله خيرا .

ذكر بطيخ خُوارَزْم

وبطيخ خُوارزم لا نظير له فى بلاد الدنيا شرقا ولا غربا ، إلا ما كان من بطيخ بخارى ، ويليه بطيخ أَصْفَهان . وقشره أخضر وباطنه أحمر ، وهو صادق الحلاوة ، وفيه صلابة ؛ ومن العجائب أنه يُقَدَّد وييبَّس فى الشمس ، ويجعل فى القواصر . ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين . وليس فى جميع الفواكه اليابسة أطيب منه . وكنت أيام إقامتى بدهلى ، من بلاد الهند ، متى قدم المسافرون بعثت من يشترى لى منهم قَدِيد البطيخ . وكان ملك الهند إذا أُتِى إليه بشىء منه بعث إلىّ به لما يعلم من محبتى فيه . ومن عادته أنه يُطرِف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك .

ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت مَحارة[1] ، وكان عَديلى[2] بها عفيف الدين التَّوْزَرِى ، وركب الخدام بعض الخيل ، وجلّلنا باقيها لأجل البرد . ودخلنا البرية التى بين خوارزم وبخارى ، وهى مسيرة ثمانية عشر يوما ، فى رمال لا عمارة بها إلا بلدة واحدة . فودعت الأمير قُطْلُودُمُور . وخلع علىّ خلعة ، وخلع علىّ القاضى أخرى .

مدينة أَلْكات

وخرج مع الفقهاء لوداعى . وسرنا أربعة أيام ووصلنا إلى مدينة ألكات ، وليس بهذه الطريق عمارة سواها . وهى صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جَمَدت من البرد ، فكان الصبيان يلعبون فوقها ، ويَزْلَقُون عليها . وسمع بقدومى قاضى أَلْكات ، ويسمى صدر الشريعة ، وكنت قد لقيته بدار قاضى خُوارزم . فجاء إلىّ مسلما مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخَيْوَقِى . ثم عرض علىّ القاضى الوصول إلى أمير تلك المدينة ، فقال له

(١) شبه الهودج . قاموس . (٢) أى الذى يعادلنى فى تلك المحارة .

الشيخ محمود : القادم ينبغى له أن يزار ، و إن كانت لنا همة نذهب إلى أمير المدينة ونأتى به ؛ ففعلوا ذلك . وأتى الأمير بعد ساعة فى أصحابه وخدامه ، فسلمنا عليه . وكان غرضنا تعجيل السفر ، فطلب منا الإقامة ، وصنع دعوة جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم ، ووقف الشعراء يمدحونه . وأعطانى كسوة وفرسا جيدا . وسرنا على الطريق المعروفة بسِيبايَة . وفى تلك الصحراء مسيرة ست ، دون ماء . ووصلنا بعد ذلك إلى بلدة وَبْكِنَة ، وهى على مسيرة يوم واحد من بخارى ، بلدة حسنة ذات أنهار و بساتين ، وهم يدخرون العنب من سنة إلى سنة . ثم سرنا فى بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوما كاملا . ووصلنا إلى مدينة بُخَارى التى ينسب إليها إمام المحدِّثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى . وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جَيْحُون من البلاد ، وخربها اللعين (تَنْكِيز التترى)[١] جد ملوك العراق . فساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة إلا القليل ، وأهلها أذلاء ، وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها ، لاشتهارهم بالتعصب ودعوى الباطل و إنكار الحق . وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئا من العلم ، ولا من له عناية به .

ذكر أوليّة التتر وتخريبهم بخارى وسواها

كان تَنْكِيز خان حدادا بأرض الخَطَا ، وكان له كرم نفس وقوة و بسطة فى الجسم . وكان يجمع الناس و يطعمهم ، ثم صارت له جماعة ، فقدموه على أنفسهم وغلب على بلده ، وقوى واشتدت شوكته ، واستفحل أمره فغلب على ملك الخطا ، ثم على ملك الصين . وعظمت جيوشه ، وتغلب على بلاد الخُتَن ، وكاشْغَر ، والمالِق . وكان جلال الدين سِنْجَر بن خوارزم شاه ، ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر ، له قوة عظيمة وشوكة ، فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرض له . فاتفق أن بعث تنكيز تجارا بأمتعة الصين

(١) جنكيز خان .

والخطا من الثياب الحريرية وسواها إلى بلدة أُطْرار ، وهى آخر عمالة جلال الدين . فبعث إليه عامله عليها معلماً بذلك ، واستأذنه ما يفعل فى أمرهم . فكتب إليه يأمره أن يأخذ أموالهم ، ويمثّل بهم ويقطع أعضاءهم ، ويردهم إلى بلادهم ، لِمَا أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم ، رأيا فائلا[1] وتدبيرا سيئا مشئوما . فلما فعل ذلك تجهز تنكيز بنفسه فى عساكر لا تحصى كثرة ، لغزو بلاد الإسلام . فلما سمع عامل أُطْرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره . فذُكر أن أحدهم دخل محلة بعض أمراء تنكيز فى صورة سائل ، فلم يجد من يطعمه ، ونزل إلى جانب رجل منهم فلم ير عنده زادا ولا أطعمه شيئا . فعاد إلى أُطْرار فأخبر عاملها بأمرهم ، وأعلمه أن لا طاقة لأحد بقتالهم . فاستمد مليكه جلال الدين ، فأمده بستين ألفا زيادة على من كان عنده من العساكر . فلما وقع القتال هزمهم تنكيز ، ودخل مدينة أُطْرار بالسيف ، فقتل الرجال وسبي الذرارى . وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربته ، فكانت بينهم وقائع لا يعلم فى الإسلام مثلها . وآل الأمر إلى أن تملك تنكيز ما وراء النهر ، وخرّب بخارى وسَمَرْقَنْد وتِرْمِذ ، وعبر النهر (وهو نهر جَيْحُون) إلى مدينة بَلْخ فتملكها ، ثم إلى اليامِيان (البامِيان) فتملكها . وأوغل فى بلاد خراسان وعراق العجم . فثار عليه المسلمون فى بلخ وفيما وراء النهر ، فكرّ عليهم ودخل بلخ بالسيف ، وتركها خاوية على عروشها . ثم فعل مثل ذلك فى تِرْمِذ ، فخربت ولم تعمر بعد ، لكنها بنيت مدينة على ميلين منها وهى التى تسمى اليوم (ترمذ) . وقتل أهل اليامِيان (البامِيان) وهدمها بأسرها إلا صومعة جامعها ، وعفا عن أهل بخارى وسَمَرْقَنْد . ثم عاد بعد ذلك إلى العراق . وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حاضرة الإسلام ، ودار الخلافة بغداد بالسيف ، وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسى ، رحمه الله .

---

(١) مخطئا .

قال ابن جُزَىّ : أخبرنا شيخنا قاضى القضاة ، أبو البركات بن الحاج ، أعزه الله ، قال : سمعت الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول : لقيت بمكة نور الدين بن الزَّجاج من علماء العراق ، ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث ، فقال لى : هلك فى فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم ، ولم يبق منهم غيرى ، وغير ذلك ، وأشار إلى ابن أخيه .

(رجع) قال : ونزلنا من بخارى بِرَبَضها المعروف بفتح أباد ، حيث قبر الشيخ العالم العابد الزاهد سيف الدين البَاخَرْزِى ، وكان من كبار الأولياء . وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ ، حيث نزلنا ، عظيمة لها أوقاف ضخمة ، يطعم منها الوارد والصادر ، وشيخها من ذريته ، وهو الحاج السياح يحيى الباخرزى . وأضافنى هـذا الشيخ بداره ، وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء بالأصوات الحسان ، ووعظ الواعظ ، وغنوا بالتركى والفارسى على طريقة حسنة . ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالى . ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة ، وكان قد قدم من هَرَاة . وهو من الصلحاء الفضلاء . وزرت ببخارى قبر الإمام العالم أبى عبد الله البخارى ، مُصَنِّف الجامع الصحيح ، شيخ المسلمين رضى الله عنه . وعليه مكتوب (هـذا قبر محمد بن إسمـاعيل البخارى وقد صـنف من الكتب كذا وكذا) وكذلك على قبور علماء بخارى أسمـاؤهم وأسمـاء تصانيفهم . وكنت قيدت من ذلك كثيرا وضـاع منى فى جمـلة ما ضاع لى ، لمّـا سلبنى كفار الهند فى البحر مالى . ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طَرْمَشِيرِين ، وسنذكره ، فمررنا على نَخْشَب ، البلدة التى ينسب إليها الشيخ أبو تراب النخشبى ، وهى صغيرة تَحُف بها البساتين والمياه ، فنزلنـا بخارجها بدار لأمـيرها . وكان عندى جارية قد قاربت الولادة ، وكنت أردت حملها إلى سَمَرْقَنْد لتلد بها . فاتفق أنها كانت فى المَحْمِل ، فوُضع المحمل

على الجمل ، وسافر أصحابنا من الليل ، وهي معهم ، والزاد وغيره من أسبابي. وأقمت أنا حتى أرتحل نهارا مع بعض من معي ، فسلكوا طريقا وسلكت طريقا سواها ، فوصلنا عشية النهار إلى محلة السلطان المذكور ، وقد جعنا فنزلنا على بُعْد من السوق ، واشترى بعض أصحابنا ماسد جوعتنا. وأعارنا بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة . ومضى أصحابنا من الغد في البحث عن الجمال وباقي الأصحاب ، فوجدوهم عشيا وجاءوا بهم . وكان السلطان غائبا عن المحلة في الصيد ، فاجتمعت بنائبه الأمير تُقْبُغا ، فأنزلني بقرب مسجد ، وأعطاني خرْقة (خركاه) وهي شبه الخباء ، وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم . فجعلت الجارية في تلك الخرقة فولدت تلك الليلة بنتا . وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد ، فرأيت كل مايسرني ويرضيني منذ ولدت . وتوفيت بعد وصولي إلى الهند بشهرين ، وسيذكر ذلك . واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغي ، ومعناها بالتركية : الثائر .

ذكر سلطان ماوراء النهر

وهو السلطان المعظم علاء الدين طَرْمَشيرين ، وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ، ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم . وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار : وهم ملك الصين ، وملك الهند ، وملك العراق ، والملك أُوزْبَك ، وكلهم يهادونه ويعظمونه ويكرمونه . وولي الملك بعد أخيه الجَكَطَيْ وكان الجكطي هذا كافرا ، وولي بعد أخيه الأكبر كَبَك ، وكان كبك هذا كافرا أيضا ، لكنه كان عادل الحكم منصفا للمظلومين ، يكرم المسلمين ويعظمهم .

حكاية

ومن أحكام كَبَك ما ذكر أن امرأة شكت له أحد الأمراء ، وذكرت أنها فقيرة ذات أولاد ، وكان لها لبن تَقُوتهم بثمنه ، فاغتصبه ذلك الأمير وشربه ، فقال لها : أنا أُوَسِّطه[1] فإن خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله ، والا وَسَّطْتُك بعده ، فقالت المرأة : قد حَلَّلته ، ولا أطلبه بشيء . فأمر به فوسط فخرج اللبن من بطنه .

السلطان طَرْمَشِيرين

ولنعد لذكر السلطان (طرمشيرين) . ولما أقمت بالمَحَلَّة وهم يسمونها (الأردو) أياما ، ذهبت يوما لصلاة الصبح بالمسجد على عادتى . فلما صليت ذكر لى بعض الناس أن السلطان بالمسجد. فلما قام عن مُصَلَّاه ، تقدمت للسلام عليه. وقام الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغى ، وأعلماه بحالى وقدومى منذ أيام . فقال لى بالتركية ما معناه : فى عافية أنت ؟ مبارك قدومك . وكان عليه فى ذلك الحين قَباء قُدْسِىّ أخضر ، وعلى رأسه (شاشية) مثله . ثم انصرف إلى مجلسه راجلا ، والناس يتعرضون له بالشكايات ، فيقف لكل مشتك منهم صغيرا أو كبيرا ذكرا أو أنثى . ثم بعث عنى فوصلت إليه وهو فى خرقة[2] والناس فى خارجها ميمنة وميسرة ، والأمراء منهم على الكراسى ، وأصحابهم وقوف على رءوسهم وبين أيديهم . وسائر الجند قد جلسوا صفوفا ، وأمام كل واحد منهم سلاحه ، وهم أهل النَّوْبة يقعدون هنالك إلى العصر ، ويأتى آخرون فيقعدون إلى آخر الليل . وقد صُنِعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها . ولما دخلت إلى الملك بداخل الخرقة وجدته جالسا على كرسى شبه المنبر مكسو بالحرير المزركش

---

(١) وَسَطَهُ : قطعه نصفين (قاموس) . (٢) شبه الخيمة كما تقدم .

بالذهب ، وداخل الخرقة مُلَبَّس بثياب الحرير المذهب ، والتاج المرصّع بالجوهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان ، بينه وبين رأسه قدر ذراع . والأمراء الكبار على الكراسى عن يمينه ويساره ، وأولاد الملوك بأيديهم المذابّ(١) بين يديه . وعند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة . وقام إلىّ أربعتهم حين دخولى ، ودخلوا معى ، فسلمت عليه وسألنى ، وصاحب العلامة يترجم بينى وبينه ، عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله ، وعن مدينة الخليل (عليه السلام) ، وعن دمشق ومصر والملك الناصر ، وعن العراقين وملكيهما وبلاد الأعاجم . ثم أذن المؤذن بالظهر ، فانصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات ، وذلك أيام البرد الشديد المهلك ، فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء فى الجماعة ، ويقعد للذكْر بالتركية بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ، ويأتى إليه كل من فى المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده ، وكذلك يفعلون فى صلاة العصر . وكان إذا أُتِىَ بهدية من زبيب أو تمر ، (والتمر عزيز عندهم وهم يتبركون به) يعطى منها بيده كل من فى المسجد .

حكاية

ومن فضائل هذا الملك أنه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر ، فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قُبالة المحراب ، حيث جرت عادته أن يصلى ، وقال للإمام حسام الدين الياغى : إن مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلا ريْثَمَا يتوضأ ، فقام الإمام المذكور وقال : الصلاة لله أو لطَرْمَشِيرين ؟ ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة . وجاء السلطان وقد صُلِّىَ منها ركعتان ، فصلّى الركعتين الاخريين حيث انتهى به القيام ، وذلك فى الموضع الذى تكون فيه نعال الناس عند باب المسجد ، وقضى ما فاته . وقام إلى الإمام ليصافحه وهو

---

(١) جمع مِذَبَّة .

يضحك . وجلس قُبالة المحراب والشيخ الإمام إلى جانبه ، وأنا إلى جانب الإمام، فقال لى : إذا مشيت إلى بلادك فحدث أن فقيرا من فقراء الأعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك . وكان هـذا الشيخ يعظ الناس فى كل جمعة ، و يأمر السلطان بالمعروف ، و ينهاه عن المنكر وعن الظلم ، ويُغْلظ عليه القول ، والسلطان ينصت لكلامه ويبكى . وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئا ، ولم يأكل قط من طعامه ، ولا لبس من ثيابه . وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين ، وكنت كثيرا ما أرى عليه قَباء قطن مبطنا بالقطن محشوا به ، وقد بَلِيَ وتمزق ، وعلى رأسه قَلَنْسُوة لِبْد يساوى مثلها قيراطا ، ولا عمامة عليه . فقلت له فى بعض الأيام : ياسيدى ما هذا القباء الذى أنت لابسه إنه ليس بجيد ! فقال لى : ياولدى ليس هذا القباء لى ، و إنما هو لابنتى . فرغبت أن يأخذ بعض ثيابى ، فقال لى : عاهدت الله منذ خمسين سـنة ألا أقبل من أحد شيئا ، ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك . ولما عزمت على السـفر بعد مُقَامى عند هـذا السلطان أربعة وخمسين يوما ، أعطـانى السـلطان سبعمائة دينار دراهم ، وفروة سَمُّور تساوى مائة دينار ، طلبتها منه لأجل البرد ، وأعطـانى فرسين وجملين . ولما أردت وَداعه أدركتـه فى أثناء طريقه إلى مُتَصَيَّده ، وكان اليوم شديد البرد جدا ، فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة لشـدة البرد ، ففهـم ذلك وضحك ، وأعطانى يده وانصرفت .

و بعد سنتين من وصولى إلى أرض الهند ، بلغنا الخبر أن الملأ من قومه وأمرائه ، اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين ، وهنالك معظم عساكره ، و بايعوا ابن عم له اسمـه بُوزُن أُغْلِي ، وكل من كان من أبنـاء الملوك فهم يسمونه أُغْلِي . وكان مسلما إلا أنه فاسد الدين ، سيئ السيرة . وسبب بَيْعتهم له وخلعهم لطَرْمَشِيرين أن طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكيز اللعين ، الذى خرب بلاد الإسلام ، وقد تقدم ذكره .

كتاب تَنْكيز خان

وكان تنكيز ألف كتابا فى أحكامه، يسمى عندهم اليَسَاق. وعندهم أنه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب . ومن جملة أحكامه أنهم يجتمعون يوما فى السنة ويأتى أولاد تنكيز والأمراء من أطراف البلاد ، ويحضر الخواتين وكبار الأجناد . فإذا كان سلطانهم قد غير شيئا من تلك الأحكام يقوم إليه كبراؤهم ، فيقولون له : غيرت كذا وغيرت كذا، وفعلت كذا ، وقد وجب خلعك . ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ، ويُقعدون غيره من أبناء تنكيز . وإن كان أحد الأمراء الكبار أذنب ذنبا فى بلاده ، حكموا عليه بما يستحقه . وكان السلطان طَرْمَشِيرين قد أبطل حكم هذا اليوم ومحا رسمه. فأنكروه عليه أشد الإنكار، وأنكروا عليه أيضا كونه أقام أربع سنين فيما يلى خُراسان من بلاده ، ولم يصل إلى الجهة التى توالى الصين . والعادة أن الملك يقصد تلك الجهة فى كل سنة ، فيختُبر أحوالها وحال الجند بها ، لأن أصل ملكهم منها، ودار الملك هى مدينة المالِق . فلما بايعوا بُوزُن أتى فى عسكر عظيم ، وخاف طَرْمَشِيرين على نفسه من أمرائه، ولم يأمنهم . فركب فى خمسة عشر فارسا يريد بلاد غَزْنَة ، وهى من عمالته، وواليها كبير أمرائه وصاحب سره ، بُرُنْطيه . وهذا الأمير محب فى الإسلام والمسلمين ، قد عمر فى عمالته نحو أربعين زاوية ، فيها الطعام للوارد والصادر، وتحت يده العساكر العظيمة. ولم أر قط فيمن رأيته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه . فلما عبر نهر جَيْحُون وقصد طريق بَلْخ، رآه بعض الأتراك من أصحاب يَنْقِى ابن أخيه كَبَك، وكان السلطان طرمشيرين قتل أخاه كبك، وبقى ابنه ينقى ببلخ . فلما أعلمه التركى بخبره قال : ما فرّ إلا لأمر حدث عليه . فركب فى أصحابه وقبض عليه وسجنه . ووصل بُوزُن إلى سَمَرْقَنْد وبخارى فبايعه الناس، وجاءه يَنْقِى بطرمشيرين . فيُذْكر أنه لما

وصل إلى نَسَف بخارج سَمَرْقَنْد ، قتل هنالك ودفن بها ، وقيل إنه لم يقتل كما سنذكره . ولما ملك بُوزُن هرب ابن السلطان طرمشيرين وهو بِشَاىْ أغل (أغلى) وأخته وزوجها فيزور إلى ملك الهند ، فعظمهم وأنزلهم منزلة علية ، بسبب ما كان بينه وبين طرمشيرين من الود والمكاتبة والمهاداة ، وكان يخاطبه بالأخ . ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض السند وادّعى أنه هو طرمشيرين ، واختلفت الناس فيه . فسمع بذلك عماد الملك سَرْتِيز ، غلام ملك الهند ، ووالى بلاد السند . فبعث إليه بعض الأتراك العارفين به ، فعادوا إليه وأخبروه أنه هو طرمشيرين حقا . فأمر له بالسراجة[1] فضربت خارج المدينة ، ورتب له ما يرتب لمثله . وخرج لاستقباله ، وترجل له وسلم عليه ، ولم يشك أحد أنه هو . وبعث إلى ملك الهند بخبره ، فبعث اليه الأمراء يستقبلونه بالضيافات . وكان فى خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين فيما تقدم ، وهو كبير الحكماء بالهند ، فقال للملك : أنا أتوجه إليه وأعرف حقيقة أمره ، فإنى كنت عالجت له دُمَّلا تحت ركبته وبقى أثره ، وبه أعرفه . فأتى إليه ذلك الحكيم واستقبله مع الأمراء ، ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده ، وأخذ يغمز رجليه ، وكشف عن الأثر، فشتمه وقال له : تريد أن تنظر إلى الدمل الذى عالجته ، ها هو ذا . وأراه أثره ، فتحقق أنه هو . وعاد إلى ملك الهند فأعلمه بذلك .

ثم إن الوزير خواجه جِهان أحمد بن إياس ، وكبير الأمراء قُطْلُوخان ، معلم السلطان أيام صغره ، دخلا على ملك الهند وقالا له : ياخُونْد عالَم[2] ، هذا السلطان طرمشيرين قد وصل وصح أنه هو ، وها هنا من قومه نحو أربعين ألفا وولده وصهره ، أرأيت إن اجتمعوا عليه ما يكون من العمل ؟ فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم ، وأمر أن يؤتى بطرمشيرين

(١) نوع من الفساطيط ، كما يأتى . وليست عربية بهذا المعنى .

(٢) سيد العالم .

معجلا . فلما دخل عليه أُمِرَ بالخدمة[1] كسائر الواردين ، ولم يُعظِّم . وقال له السلطان : كيف تكذب وتقول إنك طرمشيرين ، وطرمشيرين قد قتل ، وهذا خادم تربته عندنا ؟ والله لولا المعرة لقتلتك . ولكن أعطوه خمسة آلاف دينار ، واذهبوا به إلى دار بِشَاى أغْلى وأخته ولدى طرمشيرين ، وقولوا لهما : إن هذا الكاذب يزعم أنه والدكما . فدخل عليهما فعرفاه ، وبات عندهما ، والحراس يحرسونه . وأخرج بالغد . وخافا أن يهلكا بسببه ، فأنكراه . ونفى عن بلاد الهند والسند . فسلك طريق كَيْج ومكْران ، وأهل البلاد يكرمونه ويضيفونه . ووصل إلى شيراز ، فأكرمه سلطانها أبو إسحاق ، وأجرى له كفايته . ولما دخلت عند وصولى من الهند إلى مدينة شيراز ، ذُكر لى أنه باق بها ، وأردت لقاءه ولم أفعل ، لأنه كان فى دار لا يدخل إليه أحد إلا بإذن من السلطان أبى إسحاق ، فخفت مما يُتوقع بسبب ذلك . ثم ندمت على عدم لقائه .

بُوزُن ومعاملاته للمسلمين

(رجع الحديث إلى بوزن) وذلك أنه لما ملك ضيَّق على المسلمين ، وظلم الرعية ، وأباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم ، فضج المسلمون من ذلك ، وتربصوا به الدوائر . واتصل خبره بخليل ابن السلطان ألْيَسُور فقصد ملك هَرَاة ، وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغورى ، فأعلمه بما كان فى نفسه ، وسأله الإعانة بالعساكر والمال ، على أن يشاطره الملك إذا استقام له . فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما ، وبين هَرَاة وترْمذ تسعة أيام . فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل ، تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة فى جهاد العدو . وكان أول قادم عليه علاء الملك خُدَاوَنْد زاده صاحب ترمذ ، وهو أمير كبير شريف حُسَينى النسب ،

---

[1] أداء التعظيم على طريقة الهند .

فأتاه فى أربعة آلاف من المسلمين، فسر به وولاه وزارته وفوض إليه أمره، وكان من الأبطال. وجاء الأمراء من كل ناحية، واجتمعوا على خليل، والتقى مع بوزن، فمالت العساكر إلى خليل، وأسلموا بُوزُن، وأتوا به أسيرا، فقتله خنقا بأوتار القِسىّ. وتلك عادة لهم أنهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك إلا خنقا.

واستقام الملك لخليل، وعرض عساكره بسَمَرْقَنْد، فكانوا ثمانين ألفا، عليهم وعلى خيلهم الدروع. فصرف العسكر الذى جاء به من هَرَاة، وقصد بلاد المالِق. فقدَّم التتر على أنفسهم واحدا منهم، ولقوه على مسيرة ثلاث من المالِق بمقربة من أطراز (طَرَاز). وحَمِىَ القتال وصبر الفريقان، فحمل الأمير خُدَاوند زاده وزيره فى عشرين ألفا من المسلمين، حملة لم يثبت لها التتر، فانهزموا، واشتد فيهم القتل. وأقام خليل بالمالق ثلاثا. وخرج من بقى من التتر فأذعنوا له بالطاعة. وجاز إلى تخوم الخطا والصين، وفتح مدينة قَراقُرُم ومدينة بِشْ بَالِغ. وبعث إليه سلطان الخطا بالعساكر ثم وقع بينهما الصلح. وعظم أمر خليل، وهابته الملوك، وأظهر العدل، ورتب العساكر بالمالِق، وترك بها وزيره خُدَاوَنْد زاده، وانصرف إلى سَمَرْقَند وبُخارى.

ثم إن الترك أرادوا الفتنة، فسعوا إلى خليل بوزيره المذكور، وزعموا أنه يريد الثورة، ويقول إنه أحق بالملك لقرابته من النبى صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته. فبعث واليا إلى المالِق عوضا عنه، وأمره أن يَقْدَم عليه فى نفر يسير من أصحابه، فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير تثبّت، فكان ذلك سبب خراب ملكه. وكان خليل لما عظم أمره بغى على صاحب هَرَاة، الذى أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال: فكتب إليه أن يخطب فى بلاده باسمه، ويضرب الدنانير والدراهم

على سكّته ، فغاظ ذلك الملك حسينا ، وأنف منه ، وأجابه بأقبح جواب . فتجهز خليل لقتاله ، فلم توافقه عساكر الإسلام ، ورأوه باغيا عليه . وبلغ خبره الملك حسينا ، فجهز العساكر مع ابن عمه ملك وَرْنا ، والتقى الجمعان فانهزم خليل ، وأُتى به إلى الملك حسين أسيرا ، فمنّ عليه بالبقاء ، وجعله فى دار ، وأعطاه جارية وأجرى عليه النفقة . وعلى هذه الحال تركته عنده فى أواخر سنة سبع وأربعين ، عند خروجى من الهند . (ولنعد إلى ما كنا بسبيله) .

سَمَرْقَنْد

ولما ودعت السلطان طَرْمَشيرين ، سافرت إلى مدينة سمرقند ، وهى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا ، مبنية على شاطئ واد يعرف بوادى القصّارين ، عليه النواعير تسقى البساتين ، وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ، ولهم عليه مصاطب ومجالس يقعدون عليها ، ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات . وكانت على شاطئه قصور عظيمة ، وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها ، فدثر أكثر ذلك ، وكذلك المدينة خَرِب كثير منها ، ولا سور لها ولا أبواب عليها ، وفى داخلها البساتين . وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ، ومحبة فى الغريب . وهم خير من أهل بخارى .

قبر قُثَم بن العباس

وبخارج سمرقند قبر قُثَم بن العباس بن عبد المطلب رضى الله عن العباس وعن ابنه ، وهو المستشهَد حين فتحها . ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة إلى زيارته . والتتر يأتون لزيارته ، وينذُرون [1] له النذور العظيمة ، ويأتون إليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير ، فيُصْرف ذلك فى النفقة على الوارد والصادر ، ولخدام الزاوية والقبر المبارك . وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ، ومع كل رجل ساريتان من الرخام ، منها الخضر والسود والبيض والحمر .

(١) مثل هذه النذور غير جائز شرعا ، كما قدمنا فى الحواشى .

وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب ، وسقفها مصنوع بالرصاص . وعلى القبر خشب الأبنوس المرصع ، مكسو الأركان بالفضة ، وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة . وفرش القبة بالصوف والقطن . وفى خارجها نهر كبير يشق الزاوية التى هنالك ، وعلى حافتيه الأشجار ودوالى العنب والياسمين . وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر . وكان الناظر فى كل حال هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى ، قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق . وهو الآن عند ملك الهند ، وسيأتى ذكره . ولقيت بسمرقند قاضيها المسمى عندهم صَدْر الجهان ، وهو من الفضلاء ذوى المكارم . وسافر إلى بلاد الهند بعد سفرى إليها ، فأدركته منيته بمدينة مُلْتان ، قاعدة بلاد السند .

حكاية

لما مات هذا القاضى بمُلْتان ، كتب صاحب الخبر بأمره إلى ملك الهند ، وأنه قدم برسم بابه ، فاختُرِم(١) دون ذلك . فلما بلغ الخبر الملك أمر أن يبعث إلى أولاده عدد من آلاف الدنانير ، لا أذكره الآن ، وأمر أن يعطى أصحابه ما كانوا يُعْطَوْن لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة .

ولملك الهند فى كل بلد من بلاده صاحب الخبر ، يكتب له بكل مايجرى فى ذلك البلد من الأمور ، وبمن يرد عليه من الواردين . وإذا أتى الوارد كتبوا من أى البلاد ورد ، وكتبوا اسمه ونعته وثيابه ، وأصحابه وخيله وخدامه ، وهيئته من الجلوس والمأكل ، وجميع شؤونه وتصرفاته ، وما يظهر منه من فضيلة أو ضدها . فلا يصل الوارد إلى الملك إلا وهو عارف جميع حاله ، فتكون كرامته على مقدار مايستحقه . وسافرنا من سمرقند ، فجُزْنا بلدة نَسَف ، وإليها ينسب أبو حفص عمر النسفى ، مؤلف كتاب المنظومة فى المسائل الخلافية بين الفقهاء الأربعة ، رضى الله عنهم .

(١) مات .

مدينـــة ترمـــذ

ثم وصلنا إلى مدينة ترمذ، التى ينسب إليها الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سُورة الترمذى ، مؤلف الجامع الكبير فى السُّنن ، وهى مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق ، تخترقها الأنهار ، وبها البساتين الكثيرة والعنب ، والسفرجل بها كثير متناهى الطيب ، واللحوم بها كثيرة ، وكذلك الألبان ، وأهلها يغسلون رءوسهم فى الحمام باللبن عوضا عن الطَّفل ، ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبنا : فإذا دخل الرجل الحمام أخذ منها فى إناء صغير فغسـل رأسه ، وهو يرطّب الشعر ويَصْقُله . وأهل الهند يجعلون فى رءوسهم زيت السمسم ، ويغسـلون الشعر بعده بالطفل ، فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيله ، وبذلك طالت لِحَى أهل الهند ومن سكن معهم .

وكانت مدينة ترمذ القـديمة مبنية على شاطئ جَيْحُون ، فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر . وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عَزِيزان ، من كبار المشايخ وكرمائهم ، كثير المـال والرِّباع والبساتين ، ينفق على الوارد والصادر من ماله . واجتمعتُ قبل وصولى إلى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خُدَاوَنْد زاده ، وكتب لى إليها بالضيافة ، فكانت تحمل إلينا أيام مُقامنا بها فى كل يوم . ولقيت أيضـا قاضيها قِوام الدين ، وهو متوجه لرؤية السلطان طَرْمَشـيرين ، وطالب للإذن له فى السفر إلى بلاد الهند . وسيأتى ذكر لقائى له بعد ذلك ، ولأخويه : ضياء الدين وبرهان الدين بمُلْتان ، وسفرنا جميعا إلى الهند، وذكر أخويه الآخرين : عماد الدين وسيف الدين ، ولقائى لهما بحضرة ملك الهند ، وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند، بعد قتل أبيهما ، وتزوجهما بنتى الوزير خواجه جِهان ، وما جرى فى ذلك كله، إن شاء الله تعالى .

ثم اجتزنا نهر جَيْحُون إلى بلاد خراسان ، وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ ، وإجازة الوادى ، يوما ونصف يوم فى صحراء ورمال لاعمارة بها إلى مدينة بلَخْ .

مدينــة بَلْــخ

وهى خاوية على عروشها غير عامرة ، ومن رآها ظنها عامرة لإتقان بنائها . وكانت ضخمة فسيحة ، ومساجدها ومدارسها باقيــة الرُّسوم حتى الآن . ونقوش مبانيهـا مدخلة بأصـبغة اللازَوَرْد . والنـاس يَنْسُبون اللازَوَرد إلى خراسان ، وإنمـا يجلب من جبال بَدَخْشَان التى ينسب إليها اليـاقوت البدَخْشى ، وسـيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى . وخرَّب هذه المدينة تَنْكِيز اللعين ، وهدم من مسجدها نحو الثلث ، بسبب كنزٍ ذُكر له أنه تحت سارية من سواريه . وهو من أحسن مساجد الدنيا وأفسـحها . ومسجد رِبَاط الفتح بالمغرب يشبهه فى عظم سواريه . ومسجد بلخ أجمل منه فى سوى ذلك .

حكاية

ذكر لى بعض أهل التاريخ ، أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا ببلخ لبنى العبـاس ، يسمى داود بن علىّ . فاتفق أن الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه ، فبعث إليهم من يغرمهم مَغْرَما فادحا . فلما بلغ بلخ ، أتى نساؤها وصبيانها إلى تلك المرأة التى بنت المسـجد ، وهى زوج أميرهم ، وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المَغْرَم ، فبعثت إلى الأمير الذى قدم لتغريمهـم بثوب لهـا مرصـع بالجوهر ، قيمته أكثر ممـا أمر بتغريمه ، فقالت له : اذهب بهذا الثوب إلى الخليفة ، فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم . فذهب به إلى الخليفة وألقى الثوب بين يديه ، وقص عليه القصة ، فخجل الخليفة ، وقال : أتكون المرأة أكرم منا ؟ وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ ، وبالعودة إليهـا ليرد للمرأة ثوبها ، وأسقط عن أهل بلخ خَرَاج سنة . فعاد الأمير إلى بلخ ، وأتى منزل المرأة ، وقص عليها

مقالة الخليفة ، وردّ عليها الثوب ، فقالت له : أَوَقَعَ بصر الخليفة على هذا الثوب؟ فقال : نعم ، قالت : لا ألبس ثوبا وقع عليه بصر غير ذي مَحْرَم منّى . وأمرت ببيعه فبنى منه المسجد والزاوية ورِباط فى مقابلته ، وهو عامر حتى الآن . وفَضَل من ثمن الثوب مقدار ثلثه ، فذُكِر أنها أمرت بدفنه تحت بعض سوارى المسجد ليكون هنالك متيسرا ، إن احتيج إليه خرج . فأُخبِر تنكيز بهذه الحكاية ، فأمر بهدم سوارى المسجد فهدم منها نحو الثلث ، ولم يجد شيئا ، فترك الباقى على حاله (١) .

قـــبر عكاشـــة

وبخارج بلخ قبر يذكر أنه قبر عُكَاشة بن مِحْصَن الأَسَـدى ، صاحب رسول الله صـلى الله عليه وسلم تسليما ، الذى يدخل الجنـة بلا حساب . وعليـه زاوية معظمة ، بها كان نزولنا . وبخارجهـا بركة ماء عجيبـة ، عليها شجرة جوز عظيمة ، ينزل الواردون فى الصيف تحت ظلالها . وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خُرْد ، وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة ، منها قبر حِزْقِيل النبى عليه السلام ، وعليه قبة حسنة . وزرنا بها أيضا قبورا كثيرة من قبور الصالحين ، لا أذكرها الآن . ووقفنا على دار إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه ، وهى دار ضخمة مبنيـة بالصخر الأبيض . وهى بمقربة من المسجد الجامع .

ثم سافرنا من مدينة بلخ ، فسرنا فى جبال قوه اسْتان سبعة أيام ، وهى قرى كثيرة عامرة ، بهـا المياه الجارية ، والأشجار المورقة ، وأكثرها شجر التين . وبها زوايا كثيرة ، فيها الصالحون المنقطعون إلى الله تعالى . وبعد ذلك كان وصولنا إلى مدينة هَرَاة ، وهى أكبر المدن العامرة بخُرَاسان ، كبيرة عظيمة كثيرة العمارة . ولأهلها صلاح وعفاف وديانة ، وهم على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وبلدهم طاهر من الفساد .

(١) يظهر أن هذه الحكاية مخترعة ، أو هى مبالغ فيها .

ذكر سلطان هَرَاة

وهو السلطان المعظم حسين ابن السلطان غياث الدين الغُورى ، صاحب الشجاعة المأثورة والتأييد والسعادة . ظهر له من إنجاد الله تعالى وتأييده فى موطنين اثنين ما يقضى منه العجب : أحدهما عند ملاقاة جيشه للسلطان خليل الذى بغى عليه ، وكان منتهى أمره وقوعه أسيرا فى يديه ، والموطن الثانى عند ملاقاته بنفسه لمسعود ، سلطان الرافضة ، وكان منتهى أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه ؛ وولى السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ ، وولى أخوه بعد أبيه غياث الدين .

حكاية الرافضة

كان بخراسان رجلان : أحدهما يسمى بمسعود ، والآخر يسمى بمحمد . وكان لهما خمسة من الأصحاب ، وهم من الفُتّاك ، ويعرفون بالعراق بالشُّطار[١] . فاتفق سبعتهم على الفساد ، وقطع الطرق وسلب الأموال . وشاع خبرهم ، وسكنوا جبلا منيعا بمقربة من مدينة بَيْهَق . وكانوا يكْمُنون بالنهار ، ويخرجون بالليل والعشى ، فيضربون على القرى ، ويقطعون الطرق ، ويأخذون الأموال . وآنثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد ، فكثر عددهم واشتدت شوكتهم ، وهابهم الناس ، وضربوا على مدينة بَيْهَق فملكوها ، ثم ملكوا سواها من المدن . واكتسبوا الأموال ، وجندوا الجنود ، وركبوا الخيل ، وتسمى مسعود بالسلطان . وصار العبيد يفرون عن مواليهم إليه ، فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال ، وإن ظهرت له شجاعة أمَّره على جماعة . فعظم جيشه ، واستفحل أمره ، وتمذهب جميعهم بمذهب الرفْض ، وطَمَحوا إلى استئصال أهل السنة بخراسان ، وأن يجعلوها كلمة واحدة رافضية .

(١) الشاطر مَنْ أعيا أهله خُبْثا .

وكان بمشهد طُوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن ، وهو عندهم من الصلحاء ، فوافقهم على ذلك ، وسموه بالخليفة ، وأمرهم بالعدل فأظهروه ، حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط فى معسكرهم فلا يلتقطها أحد ، حتى يأتى ربها فيأخذها . وغلبوا على نَيْسَابُور . وبعث إليهم السلطان طُغَيْتُمُور بالعساكر فهزموه ، ثم بعث إليهم نائبه أَرْغُون شاه ، فهزموه وأسروه ومَنّوا عليه . ثم غزاهم طغيتمور بنفسه فى خمسين ألفا من التتر ، فهزموه . وملكوا البلاد وتغلبوا على سَرَخْس والزَّاوة وطُوس ، وهى من أعظم بلاد خراسان . وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسى الرِّضَا . وتغلبوا على مدينة الجام ، ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هَرَاة ، وبينها وبينهم مسيرة ست . فلما بلغ ذلك الملك حسينا ، جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم : هل يقيمون حتى يأتى القوم ، أو يمضون إليهم فيناجزونهم ؟ فوقع إجماعهم على الخروج إليهم ، وهم قبيلة واحدة يسمون الغوريّة ، فتجهزوا أجمعون ، واجتمعوا من أطراف البلاد ، وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مَرْغِيس (بَدْغيس) ، وهى مسيرة أربع لا يزال عُشبها أخضر ، ترعى منه ماشيتهم وخيلهم . وأكثر شجرها الفُسْتق ، ومنها يحمل إلى أرض العراق . وعَضَدَهم أهل مدينة سِمْنان . ونفروا جميعا إلى الرافضة ، وهم مائة وعشرون ألفا ما بين رجَّالة وفرسان . يقودهم الملك حسين . واجتمعت الرافضة فى مائة وخمسين ألفا من الفرسان . وكانت الملاقاة بصحراء بُوشَنْج ، وصبر الفريقان معا . ثم كانت الدائرة على الرافضة ، وفر سلطانهم مسعود ، وثبت خليفتهم حسن فى عشرين ألفا حتى قتل . وقتل أكثرهم ، وأسر منهم نحو أربعة آلاف .

وذكر لى بعض من حضر هذه الوقيعة ، أن ابتداء القتال كان فى وقت الضُّحا ، وكانت الهزيمة عند الزوال . ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى ، وأُتى بالطعام ، فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون ، وسائرهم يضربون أعناق الأسرى . وعاد إلى حضرته بعد هـذا الفتح العظيم ، وقد نصر الله السنة على يديه ، وأطفأ نار الفتنة . وكانت هذه الوقيعة بعد خروجى من الهند عام ثمـانية وأربعين .

ونشأ بهراة رجل من الزهاد الصلحاء الفضلاء ، وآسمه نظام الدين مولانا . وكان أهـل هراة يحبونه ويرجعون إلى قوله ، وكان يعظهم ويذكرهم . فوافقـــوه على تغـيير المنكر ، ومعهـم على ذلك خطيب المدينـــة المعروف بمَلِك وَرْنا ، وهو ابن عم الملك حسين ، ومتزوج بزوجة والده ، وهى من أحسن الناس صورة وسيرة . والملك يخافه على نفسه . وسنذكر خبره . وكانوا متى علموا بمنكر ، ولو كان عند الملك ، غيروه .

حكاية

ذُكر لى أنهم تعرفوا يوما أن بدار الملك حسين منكرا ، فاجتمعوا لتغييره . وتحصن منهم بداخل داره ، فاجتمعوا على الباب فى ستة آلاف رجل ، نخاف منهم ، فاستحضر الفقيه وكبار البلد ، وكان قد شرب الخمر ، فأقاموا عليه الحد بداخل قصره ، وآنصرفوا عنه .

حكاية هى سبب قتل الفقيه نظام الدين

كان الأتراك المجاورون لمدينة هراة ، الساكنون بالصحراء ، وملكهم طُغَيْتَمُور الذى مر ذكره ، وهم نحو خمسين ألفا ، يخافهم الملك حسين ويهدى لهم الهدايا فى كل سنة ويُداريهم . وذلك قبل هزيمته للرافضة . وأما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم . ومن عادة هؤلاء الأتراك التردد إلى مدينة هراة ، وربمـا شربوا بها الخمر ، وأتاها بعضهم وهو سكران . فكان

وكان بمشهد طُوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن ، وهو عندهم من الصلحاء ، فوافقهم على ذلك ، وسموه بالخليفة ، وأمرهم بالعدل فأظهروه ، حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط فى معسكرهم فلا يلتقطها أحد ، حتى يأتى ربها فيأخذها . وغلبوا على نَيْسَابُور . وبعث إليهم السلطان طُغَيْتَمُور بالعساكر فهزموه ، ثم بعث إليهم نائبه أَرْغُون شاه ، فهزموه وأسروه ومَنّوا عليه . ثم غزاهم طغيتمور بنفسه فى خمسين ألفا من التتر ، فهزموه . وملكوا البلاد وتغلبوا على سَرَخْس والزَّاوة وطُوس ، وهى من أعظم بلاد خراسان . وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسى الرِّضَا . وتغلبوا على مدينة الجام ، ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هَرَاة ، وبينها وبينهم مسيرة ست . فلما بلغ ذلك الملك حسينا ، جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم : هل يقيمون حتى يأتى القوم ، أو يمضون إليهم فيناجزونهم ؟ فوقع إجماعهم على الخروج إليهم ، وهم قبيلة واحدة يسمون الغوريّة ، فتجهزوا أجمعون ، واجتمعوا من أطراف البلاد ، وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مَرْغِيس (بَدْغيس) ، وهى مسيرة أربع لا يزال عُشبها أخضر ، ترعى منه ماشيتهم وخيلهم . وأكثر شجرها الفُسْتق ، ومنها يحمل إلى أرض العراق . وعَضَدَهم أهل مدينة سِمْنان . ونفروا جميعا إلى الرافضة ، وهم مائة وعشرون ألفا ما بين رجّالة وفرسان . يقودهم الملك حسين . واجتمعت الرافضة فى مائة وخمسين ألفا من الفرسان . وكانت الملاقاة بصحراء بُوشَنْج ، وصبر الفريقان معا . ثم كانت الدائرة على الرافضة ، وفر سلطانهم مسعود ، وثبت خليفتهم حسن فى عشرين ألفا حتى قتل . وقتل أكثرهم ، وأسر منهم نحو أربعة آلاف .

وذكر لى بعض من حضر هذه الوقيعة ، أن ابتداء القتال كان فى وقت الضُّحا ، وكانت الهزيمة عند الزوال . ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى ، وأُتى بالطعام ، فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون ، وسائرهم يضربون أعناق الأسرى . وعاد إلى حضرته بعد هـذا الفتح العظيم ، وقد نصر الله السنة على يديه ، وأطفأ نار الفتنة . وكانت هذه الوقيعة بعد خروجى من الهند عام ثمـانية وأربعين .

ونشأ بهراة رجل من الزهاد الصلحاء الفضلاء ، وآسمه نظام الدين مولانا . وكان أهـل هراة يحبونه ويرجعون إلى قوله ، وكان يعظهم ويذكرهم . فوافقـــوه على تغـيير المنكر ، ومعهـم على ذلك خطيب المدينـــة المعروف بمَلِك وَرْنا ، وهو ابن عم الملك حسين ، ومتزوج بزوجة والده ، وهى من أحسن الناس صورة وسيرة . والملك يخافه على نفسه . وسنذكر خبره . وكانوا متى علموا بمنكر ، ولو كان عند الملك ، غيروه .

حكاية

ذُكر لى أنهم تعرفوا يوما أن بدار الملك حسين منكرا ، فاجتمعوا لتغييره . وتحصن منهم بداخل داره ، فاجتمعوا على الباب فى ستة آلاف رجل ، نخاف منهم ، فاستحضر الفقيه وكبار البلد ، وكان قد شرب الخمر ، فأقاموا عليه الحد بداخل قصره ، وآنصرفوا عنه .

حكاية هى سبب قتل الفقيه نظام الدين

كان الأتراك المجاورون لمدينة هراة ، الساكنون بالصحراء ، وملكهم طُغَيْتُمُور الذى مر ذكره ، وهم نحو خمسين ألفـا ، يخافهم الملك حسين ويهدى لهم الهدايا فى كل سنة ويُداريهم . وذلك قبل هزيمته للرافضة . وأما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم . ومن عادة هؤلاء الأتراك التردد إلى مدينة هراة ، وربمـا شربوا بها الخمر ، وأتاها بعضهم وهو سكران . فكان

نظام الدين يَحُد[1] من وجد منهم سكران . وهؤلاء الأتراك أهل نَجْدة وبأس . ولا يزالون يضربون على بلاد الهند فيسْبُون ويقتلون ، وربما سبوا بعض المسلمات اللاتى يكن بأرض الهند بين الكفار . فإذا خرجوا بهن إلى خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدى الترك . وعلامة النسوة المسلمات بأرض الهند ترك ثَقْب الأذن ، والكافرات آذانهن مثقوبات . فاتفق مرة أن أميرا من أمراء الترك ، سبى امرأة فذكرت أنها مسلمة ، فانتزعها الفقيه من يده . فبلغ ذلك من التركى مبلغا عظيما ، وركب فى آلاف من أصحابه وأغار على خيل هَراة ، وهى فى مرعاها بصحراء مَرْغيس (بَدْغيس) ، واحتملوها ، فلم يتركوا لأهل هراة ما يركبون ، ولا ما يَحْلُبون . وصعدوا بها إلى جبل هنالك لا يُقْدر عليهم فيه . ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها . فبعث إليهم رسولا يطلب منهم ردّ ما أخذوه من الماشية والخيل ، ويذكّرهم العهد الذى بينهم ، فأجابوا بأنهم لا يردون ذلك حتى يُمَكَّنوا من الفقيه نظام الدين . فقال السلطان : لا سبيل إلى هذا . وكان الشيخ أبو أحمد الجَسْتى حفيد الشيخ مَوْدُود الجستى له بخراسان شأن عظيم ، وقوله معتبر لديهم . فركب فى جماعة من أصحابه ومماليكه ، فقال : أنا أحمل الفقيه نظام الدين معى إلى الترك ، ليرضوا بذلك ، ثم أرده . فمال الناس إلى قوله ، ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك ، فركب مع الشيخ أبى أحمد ، ووصل إلى الترك ، فقام إليه الأمير تُمُورَالْطى وقال له : أنت أخذت امرأتى منى ، وضربه بدَبُّوسه فكسر دماغه فخر ميتا . فسُقِط فى أيد الشيخ أبى أحمد وانصرف من هنالك إلى بلده . وردّ الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية . وبعد مدة قدم ذلك التركى الذى قتل الفقيه إلى مدينة هراة ، فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه

---

(١) يقيم عليهم الحد الشرعى .

فأقبلوا عليه كأنهم مُسَلِّمون ، وتحت ثيابهم السيوف ، فقتلوه وفرّوا .
ولما كان بعد هذا ، بعث الملك حسين ابن عمه مَلِك وَرْنا ، الذى كان رفيق الفقيه نظام الدين فى تغيير المنكر ، رسولا إلى ملك سِجِسْتان . فلما حصل بها بعث إليه أن يقيم هنالك ، ولا يعود إليه .

(ولنعد) إلى ما كنا بسبيله فنقول : سافرنا من هراة إلى مدينة الجَام ، وهى متوسطة ، حسنة ، ذات بساتين وأشجار ، وعيون كثيرة وأنهار . وأكثر شجرها التوت ، والحرير بها كثير . وهى تنسب إلى الولىّ العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجامى ، وسنذكر حكايته . وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده ، الذى قتله ملك الهند . والمدينة الآن لأولاده ، وهى محررة من قِبَل السلطان ، ولهم بها نعمة وثروة . وذكر لى من أثق به أن السلطان أبا سعيد ملك العراق ، قدم خراسان مرة ، ونزل هذه المدينة ، وبها زاوية الشيخ . فأضافه ضيافة عظيمة ، وأعطى كل خِباء بمحلته رأس غنم[1] ، وكل أربعة رجال رأس غنم ، وكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علَف ليلة ، فلم يبق فى المحلة حيوان إلا وصلته ضيافته .

مدينة طُوس

ثم سافرنا من الجام إلى مدينة طوس ، وهى من أكبر بلاد خراسان وأعظمها ، بلد الإمام الشهير أبى حامد الغزالى رضى الله عنه ، وبها قبره . ورحلنا منها إلى مدينة مشهد الرِّضا ، وهو علىّ بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن على زَيْن العابدين ، بن الحسين الشهيد ، ابن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنهم) . وهى أيضا مدينة كبيرة ضخمة ، كثيرة الفواكه والمياه ، والأرحاء[2] الطاحنة . وكان بها الطاهر

(١) يريد شاة فيما يظهر . وهو تعبير غريب .
(٢) الأرحاء : جمع الرحَى ، للطاحونة .

محمد شاه ، والطاهر عندهم بمعنى النقيب، عند أهل مصر والشام والعراق . وأهل الهند والسند وتُرْكستان يقولون : السيد الأجل . وكان أيضا بهذا المشهد القاضى الشريف جلال الدين ، لقيته بأرض الهند ، والشريف على وولداه أمير هِنْدُو ودولة شاه . وصحبونى من تِرْمِذ إلى بلاد الهند ، وكانوا من الفضلاء .

والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة فى داخل زاوية ، تجاورها مدرسة ومسجد . وجميعها مليح البناء ، مصنوع الحيطان بالقاشانى . وعلى القبر دكان خشب ملبَّس بصفائح الفضة ، وعليه قناديل فضة معلقة . وعتبة باب القبة فضة . وعلى بابها ستر حرير مذهب ، وهى مبسوطة بأنواع البُسُط . وإزاء هذا القبر قبر هرون الرشيد أمير المؤمنين (رضى الله عنه) . وعليه دكان يضعون عليه (الشمعدانات) . ثم سافرنا إلى مدينة سَرَخْس ، وإليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السَّرَخْسِى (رضى الله عنه) . ثم سافرنا منها إلى مدينة زاوة ، وهى مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حَيْدر ، وإليه تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء، وهم الذين يجعلون حَلَق الحديد فى أيديهم وأعناقهم وآذانهم .

نَيْسَابور

ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة نيسابور ، وهى إحدى المدن الأربع التى هى قواعد خراسان ، ويقال لها دمشق الصغيرة ، لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها . وتخترقها أربعة من الأنهار . وأسواقها حسنة متسعة، ومسجدها بديع ، وهو فى وسط السوق . ويليه أربع من المدارس، يجرى بها الماء الغزير ، وفيها من الطلبة خلق كثير ، يقرءون القرآن والفقه ، وهى من حسان مدارس تلك البلاد . ومدارس خراسان والعراقَيْن ودمشق وبغداد ومصر ، وإن بلغت الغاية من الإتقان والحسن ، فكلها

تقصر عن المدرسة التى عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله ، المجاهد فى سبيل الله ، عالم الملوك ، واسطة عقد الخلفاء العادلين ، أبو عِنان ، وصل الله سعده ونصر جُنْده . وهى التى عند القَصَبة من حضرة فاس ، حرسها الله تعالى ، فإنها لا نظير لها سعة وارتفاعا . ونقش الجص بها لا قدرة لأهل المشرق عليه . ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من الكَمْخا(١) وغيرها ، وتحمل منها إلى الهند . وفى هذه المدينة زاوية الشيخ الإمام العالم القطب العابد ، قطب الدين النيسابورى ، أحد الوعاظ العلماء الصالحين . نزلت عنده فأحسن القِرى وأكرم ، ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة .

كرامة له

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا ، فرآه معى ، فقال : لى هذا الغلام لا يصلح لك ، فبعه : فقلت له نعم . وبعت الغلام فى غد ذلك اليوم . واشتراه بعض التجار . وودعت الشيخ وانصرفت . فلما حللت بمدينة بِسْطام ، كتب إلىَّ بعض أصحابى من نيسابور ، وذكر أن الغلام قتل بعض أولاد الأتراك ، وقتل به . وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضى الله عنه .

مدينة بِسْطام

وسافرت من نيسابور إلى مدينة بسطام ، التى ينسب إليها الشيخ العارف أبو يزيد البِسْطامى الشهير (رضى الله عنه) . وبهذه المدينة قبره . ومعه فى قبة واحدة ، أحد أولاد جعفر الصادق (رضى الله عنه) . وببسطام أيضا قبر الشيخ الصالح الولى أبى الحسن الخَرَّقانى . وكان نزولى من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى يزيد البِسْطامى (رضى الله عنه) .

---

(١) تقدم تفسيرها فى الحواشى .

ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هِنْدُخير إلى قُنْدُوس وَبَغْلان ، وهى قرى فيها مشايخ وصالحون ، وبها البساتين والأنهار . فنزلنا بِقُنْدُوس على نهر ماء به زاوية لأحد شيوخ الفقراء من أهل مصر . وأضافنا بها والى تلك الأرض ، وهو من أهل المَوْصِل ، وسكناه ببستان عظيم هنالك . وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعى الجمال والخيل . وبها مراع طيبة وأعشاب كثيرة . والأمن بها شامل بسبب شدة أحكام الأمير بُرُنْطَيْه . وقد قدمنا أن أحكام الترك فيمن سرق فرسا أن يُعْطِى معه تسعة مثله ، فإن لم يجد ذلك أخذ فيها أولاده ، فإن لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة . والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع ، بعد أن يسم كل واحد دوابه فى أفخاذها . وكذلك فعلنا فى هذه البلاد . واتفق أن تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ، ففقدنا منها ثلاثة أفراس . ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها إلى منزلنا خوفا على أنفسهم من الأحكام . وكنا نربط فى كل ليلة إزاء أخبيتنا فرسين لما عسى أن يقع بالليل ، ففقدنا الفرسين ذات ليلة ، وسافرنا من هنالك ، وبعد ثنتين وعشرين ليلة جاءوا بهما إلينا فى أثناء طريقنا . وكان أيضا من اسباب إقامتنا خوف الثلج : فإن بأثناء الطريق جبلا يقال له هِنْدُوكُوش ، ومعناه : قاتل الهنود ، لأن العبيد والجوارى الذين يؤتى بهم من بلاد الهند ، يموت هنالك الكثير منهم ، لشدة البرد ، وكثرة الثلج . وهو مسيرة يوم كامل . وأقمنا حتى تمكن دخول الحر ، وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل ، وسلكنا به جميع نهارنا إلى الغروب . وكنا نضع اللُّبُود بين أيدى الجمال تطأ عليها ، لئلا تغْرَق فى الثلج .

ثم سافرنا إلى موضع يعرف بأَنْدَر . وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفا رَسْمها . ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لأحد الفضلاء ، ويسمى بمحمد المَهْرَوِىّ ، ونزلنا عنده وأكرمنا . وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به ، لحسن اعتقاده وفضله . وسافر معنا إلى أن صعدنا

جبل هِنْدُوكُوش . ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة ، فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت ، وتألمنا لذلك . ثم نزلنا بموضع يعرف بَنْج هِير ، ومعنى بَنْج : خمسة ، وهير : الجبل ، فمعناه خمسة جبال . وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة ، على نهر عظيم أزرق ، كأنه بحر ، ينزل من جبال بَدَخْشَان . وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذى يعرفه الناس بالبَلَخْش . وخرّب هذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمر بعد . وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكّى ، وهو معظّم عندهم . ووصلنا إلى جبل بَشَاى .

أبو الأولياء

وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء ، وأطا معناه بالتركية : الأب ، وأولياء باللسان العربى ، فمعناه أبو الأولياء . وهم يذكرون أن عمره ثلاثمائة وخمسون عاما . ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيارته من البلاد والقرى ، ويقصده السلاطين والخواتين . وأكرمنا وأضافنا ، ونزلنا على نهر عند زاويته . ودخلنا إليه فسلمت عليه وعانقنى ، وجسمه رطب لم أر ألين منه . ويظن رائيه أن عمره خمسون سنة . وذكر لى أنه فى كل مائة سنة ينبت له الشعر والأسنان . وشككت فى حاله ، والله أعلم بصدقه .

ثم سافرنا إلى بَرْوَن وفيها لقيت الأمير بُرُنْطَيْه ، وأحسن إلىّ وأكرمنى ، وكتب إلى نوابه بمدينة غَزْنَة فى إكرامى . وقد تقدم ذكره ، وذكر ما أُعطِى من البَسْطة فى الجسم .

قرية الجَرْخ

ثم سافرنا إلى قرية الجرخ ، وهى كبيرة لها بساتين كثيرة ، وفواكهها طيبة . قَدِمْناها فى أيام الصيف ، ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة ، وصلينا بها الجمعة . وأضافنا أميرها محمد الجرخى ، ولقيته بعد ذلك بالهند .

غَـــزْنَة

ثم سافرنا إلى مدينة غَزْنَة ، وهى بلد السلطان المجاهد محمود بن سُبُكْتُكِين الشهير الاسم ، وكان من كبار السلاطين ، يلقب بيمين الدولة . وكان كثير الغزو لبلاد الهند ، وفتح بها المدائن والحصون . وقبره بهذه المدينة عليه زاوية . وقد خَرِب معظم هذه البلدة ، ولم يبق منها إلا يسير ، وكانت كبيرة . وهى شديدة البرد . والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد إلى مدينة القَنْدَهار ، وهى كبيرة مخصبة ، ولم أدخلها ، وبينهما مسيرة ثلاث . ونزلنا بخارج غزنة ، فى قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها . وأكرمنا أميرها مَرْدَك أغَا ، ومرذك معناه : الصغير ، وأغا معناه : الكبير الأصل .

كَابُل

ثم سافرنا إلى كابُل ، وكانت فيما سلف مدينة عظيمة . وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لهم الأفغان . ولهم جبال وشِعَاب وشوكة قوية . وأكثرهم قطاع الطريق ، وجبلهم الكبير يسمى كُوه سليمان . ويُذْكر أن نبى الله سليمان عليه السلام صعِد ذلك الجبل ، فنظر إلى أرض الهند وهى مظلمة ، فرجع ولم يدخلها ، فسمى الجبل به . وفيه يسكن ملك الأفغان .

وبكابل زاوية الشيخ إسماعيل الأفغانى ، تلميذ الشيخ عباس ، من كبار الأولياء . ومنها رحلنا إلى كُرماش وهى حصن بين جبلين تَقْطَع[1] به الأفغان . وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ، ونرميهم بالنُّشاب ، فيفرون . ثم وصلنا إلى شَشْنَغَار وهى آخر العمارة مما يلى بلاد الترك . ومن هنا دخلنا

---

(١) أى يقطعون الطريق .

البريّة الكبرى وهى مسيرة خمس عشرة ، لا تُدْخل إلا فى فصل واحد ، وهو بعد نزول المطر بأرض السند والهند ، وذلك فى أوائل شهر يوليه . وتهُبّ فى هذه البرية ريح السَّمُوم القاتلة التى تُعفّن الجسوم ، حتى إن الرجل إذا مات تتفسَّخ أعضاؤه . وقد ذكرنا أن هذه الريح تهب أيضا فى البرية بين هُرْمُز وشيراز . وكانت تقدمت أمامنا رُفْقة كبيرة فيها خُداوَنْدزاده ، قاضى تِرْمِذ ، فمات لهم جمال وخيل كثيرة .

بَنْج آب

ووصلت رُفْقتنا سالمة بحمد الله تعالى إلى بَنْج آب ، وهو ماء السند . وبنج معناه : خمسة ، وآب معناه : الماء ، فمعنى ذلك الأودية الخمسة . وهى تصب فى النهر الأعظم ، وتسق تلك النواحى . وسنذكرها إن شاء الله تعالى . وكان وصولنا لهذا النهر سَلْخ ذى الحجة . واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة . ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا إلى أرض الهند ، وعرفوا ملكها أحوالنا . وها هنا ينتهى بنا الكلام فى هذا السِّفر . والحمد لله رب العالمين .

(تم الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى)

المطبعة الأميرية ٢٨٠٦ – ١٩٣٢ – ٥٥٠٠

وزارة المعارف العمومية

مهذب رحلة ابن بطوطة

المسماة

تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار

وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه

أحمد العوامرى بك ، محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف

المفتش بوزارة المعارف

(حقوق الطبع محفوظة للوزارة)

الجزء الثانى

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٤

فهرس الجزء الثانى من مهذب رحلة ابن بطوطة

صفحة

المقدمة ١
ذكر البريد ٢
ذكر الكركدن ٤
حكاية ٦
ذكر السفر فى نهر السند وترتيب ذلك ٨
ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة (مدينة لاهرى) ٩
مكرمة لهذا الملك (جلال الدين الكيجى) ١١
ذكر أمير ملتان وترتيب حاله ١٢
« من اجتمعت به فى هذه المدينة (ملتان) من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند ١٣
« أشجار بلاد الهند وفواكهها ١٥
« الحبوب التى يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها ١٧
« غزوة لنا بهذا الطريق الخ ١٩
« أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار ٢٠
« وصفها (دهلى) ٢٤
« سور دهلى وأبوابها ٢٤
« جامع دهلى ٢٥
« الحوضين العظيمين بخارجها ٢٧
« بعض مزاراتها ٢٨
« بعض علمائها وصلحائها ٢٨
حكاية — كرامة ٢٩
ذكر فتح دهلى ومن تداولها من الملوك ٣٠
« السلطان شمس الدين للمش ٣١
« السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين ٣٢

صفحة

ذكر السلطانة رضية ٣٣
« السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين... ... ... ٣٣
« السلطان غياث الدين بلبن ٣٤
حكاية... ... ... ٣٥
ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن ٣٧
« « جلال الدين ٣٨
« « علاء الدين محمد شاه الخلجى... ... ... ٤٠
« ابنه شهاب الدين ٤٢
« السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين ٤٣
« السلطان خسروخان ناصر الدين ٤٥
« « غياث الدين تغلق شاه ٤٧
« ما رامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك ٤٩
« مسير "تغلق" إلى بلاد اللكنوتى وما اتصل بذلك من وفاته ٥٠
« السلطان أبى المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذى قدمنا عليه ٥٢
ذكر وصفه ٥٣
« أبوابه ومشوره وترتيب ذلك ٥٣
« ترتيب جلوسه للناس ٥٥
« دخول الغرباء وأصحاب الهدايا عليه ٥٧
« دخول هدايا عماله عليه... ... ... ٥٧
« خروجه للعيدين وما يتصل بذلك ٥٨
« جلوس يوم العيدين وذكر السرير الأعظم والمبخرة العظمى ٦٠
« ترتيبه إذا قدم من سفره... ... ... ٦٢
« ترتيب الطعام الخاص ٦٣
« ترتيب الطعام العام... ... ... ٦٣
« بعض أخباره فى الجود والكرم ٦٥
« عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين ٦٥

صفحة

ذكر عطائه للواعظ الترمذى ناصر الدين... ... ... ٦٦
« « لعبد العزيز الأردويلى ٦٧
« « لشمس الدين وعضد الدين والقاضى مجد الدين ٦٨
« « لبرهان الدين وحاجى كاون... ... ... ٦٩
« قدوم ابن الخليفة عليه وأخباره ٧٠
حكاية من تعظيمه إياه ٧٢
« نحوها ٧٢
« عن بخل ابن الخليفة ٧٤
« ٧٤
« ٧٥
ذكر ما أعطاه السلطان الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مهنا أمير عرب الشام ... ٧٦
« تزوج الأمير سيف الدين بأخت السلطان ٧٧
« سجن الأمير غدا ٧٩
« تزويج السلطان بنتى وزيره من ابنى خداوند زاده قوام الدين ٨١
حكاية فى تواضع السلطان وإنصافه و بعض حكايات أخرى ٨٢
ذكر اشتداده فى إقامة الصلاة وأحكام الشرع ٨٣
« رفعه للغارم والمظالم وإطعامه فى الغلاء ٨٤
« فتكات هذا السلطان وقتله لأخيه ٨٥
« قتله ثلاثمائة وخمسين رجلا وتعذيبه للشيخ شهاب الدين ٨٦
« « الفقيه المدرس عفيف الدين الكاسانى وفقيهين معه ٨٨
« « لفقيهين من أهل السند ٨٩
« « للشيخ هود ٩٠
« سجنه لابن تاج العارفين الخ ٩٢
« قتله للشيخ الحيدرى وطوغان وأخيه ٩٣
« « ابن ملك التجار وضربه لخطيب الخطباء ٩٤
« تخريبه لدهلى ونفى أهلها ٩٥

صفحة

ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته من منه على بهادور بورة ٩٦
« ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك ٩٦
« « كشلوخان وقتله ٩٨
« هزيمة جيش السلطان بجبل قراجيل ٩٩
« ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر ١٠٠
« ثورة هلاجون ١٠٢
« وقوع الوباء فى عسكر السلطان — وذكر الإرجاف بموته وفرار الملك هوشنج ... ١٠٣
« ثورة الشريف إبراهيم ١٠٤
« خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك... ... ... ١٠٥
« انتقال السلطان إلى نهر الكنك وقيام عين الملك ١٠٦
« عودة السلطان لحضرته الخ ١١١
« فرار أمير بخت ١١٢
« خلاف شاه أفغان بأرض السند وخلاف القاضى جلال ١١٤
« خلاف ابن الملك مل ١١٥
« خروج السلطان إلى كنباية ١١٦
« قتال مقبل وابن الكولمى... ... ... ١١٧
« الغلاء الواقع بأرض الهند ١١٨
« وصولنا إلى دار السلطان عند قدومنا وهو غائب... ... ... ١١٩
« « « أم السلطان وذكر فضائلها ١٢٠
« الضيافة... ... ... ١٢١
« وفاة بنتى وما فعلوا فى ذلك ١٢٣
« إحسان السلطان والوزير إلىّ... ... ... ١٢٥
« العيد الذى شهدته أيام غيبة السلطان ، وقدوم السلطان ١٢٦
« دخول السلطان حضرته... ... ... ١٢٨
« دخولنا عليه ١٢٩
« عطاء ثان أمر لى به ١٣٢

صفحة

ذكر طلب الغرماء ما لهم قبلى ١٣٣
« خروج السلطان إلى الصيد ١٣٦
« الجمل الذى أهديته إلى السلطان ١٣٨
« الجملين اللذين أهديتهما إليه الخ ١٣٩
« خروج السلطان وأمره لى بالإقامة بالحضرة ١٤١
« ما فعلته فى ترتيب مقبرة السلطان قطب الدين ١٤٣
« عادتهم فى إطعام الناس فى الولائم ١٤٤
« خروجى إلى "هزار أمروها" ١٤٥
« مكرمة لبعض الأصحاب ١٤٧
« خروجى إلى محلة السلطان وذكر ما هم به السلطان من عقابى ١٤٨
« انقباضى عن الخدمة الخ ١٤٩
« بعث السلطان إلىّ وإبائى الرجوع . وذكر توجهى إلى الصين ١٥٠
« سبب إرساله بالهدية إلى الصين ١٥١
« غزوة شهدناها بكول وذكر محنتى بالأسر ١٥٤
حكاية الشيخ محمد العريان ١٦٠
« أحد القضاة ١٦١
« قتم سلطان جنبيل ١٦٢
ذكر أمير علابور واستشهاده ١٦٣
« السحرة الجوكية — حكاية ١٦٥
حكاية ١٦٦
« ١٦٨
« — ذكر سوق المغنين بمدينة دولة آباد ١٧٠
« ١٧٢
« ١٧٣
ذكر سلطان قندهار — ذكر ركوبنا البحر ١٧٤

صفحة

ذكر سلطان قوقة ١٧٥

حكاية أحد الجوكية ١٧٦

ذكر سلطان هنور – ذكر ترتيب طعامه ١٧٨

« الفلفل... ... ... ١٨١

« سلطان فاكنور ١٨٢

« « منجرور ١٨٣

« « جرفتن ١٨٤

« الشجرة العجيبة الشأن التي بإزاء جامع ده فتن ١٨٥

حكاية – ذكر سلطان فالقوط ١٨٦

ذكر مراكب الصين ١٨٧

« أخذنا فى السفر إلى الصين ومنتهى ذلك ١٨٨

« القرفة والبقم — ذكر سلطان كولم — حكاية ١٩١

حكاية – حكاية ١٩٢

ذكر توجهنا إلى الغزو وفتح سندابور ١٩٤

« أشجار جزائر ذيبة المهل — ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عاداتهم الخ ١٩٦

« نسائها ٢٠٠

« السبب فى إسلام أهل هذه الجزائر وذكر العفاريت من الجن الخ ٢٠١

« سلطانة هذه الجزائر ٢٠٢

« وصولى إلى هذه الجزائر وتنقل حالى بها ٢٠٤

« بعض إحسان الوزير إلىّ — ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامى بعد ذلك ٢٠٧

« العيد الذى شاهدته معهم ٢٠٩

« تزوجى وولايتى القضاء ٢١٠

« قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى الذى نفاه السلطان شهاب الدين إلى السويد
وما وقع بينى وبينه... ... ... ٢١١

ذكر انفصالى عنهم ٢١٢

« سلطان سيلان ٢١٣

	صفحة
ذكر سلطان كنكار — ذكر الياقوت ...	٢١٥
« القرود ...	٢١٦
« العلق الطيار ...	٢١٧
« جبل سرنديب ...	٢١٨
« القدم (قدم آدم عليه السلام) ...	٢١٩
« سلطان بلاد المعبر ...	٢٢١
« وصولى إلى السلطان غياث الدين ...	٢٢٢
« ترتيب رحيله وشنيع فعله فى قتل النساء والولدان ...	٢٢٣
« هزيمته للكفار وهى من أعظم فتوحات الإسلام ...	٢٢٤
« وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافى عنه ...	٢٢٧
« سلب الكفار لنا ...	٢٢٩
« سلطان بنجالة ...	٢٣١
حكاية ...	٢٣٢
ذكر الشيخ جلال الدين — كرامة له — كرامة له أيضا ...	٢٣٣
حكاية عجيبة فى ضمنها كرامات له ...	٢٣٤
ذكر سلطان البرهنكار ...	٢٣٧
« سلطان الجاوة — ذكر دخولنا داره وإحسانه إلينا ...	٢٣٨
« انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه ...	٢٤٠
« اللبان — ذكر الكافور — ذكر العود الهندى ...	٢٤١
« القرنفل — ذكر سلطان مل جاوة ...	٢٤٢
« عجيبة رأيتها بمجلسه ...	٢٤٣
« ملكة كيلوكرى ...	٢٤٤
« الفخار الصينى — ذكر دجاج الصين — ذكر بعض أحوال أهل الصين ...	٢٤٧
« دراهم الكاغد التى بها يبيعون ويشترون ...	٢٤٨
« التراب الذى يوقدونه مكان الفحم — ذكر ما خصوا به من إحكام الصناعات ...	٢٤٩
« عاداتهم فى تقييد ما فى المراكب ...	٢٥٠

صفحة

ذكر عادتهم فى منع التجار عن الفساد ٢٥١
« حفظهم للمسافرين فى الطريق ٢٥٢
حكاية عجيبة ٢٥٥
« ٢٥٧
ذكر الأمير الكبير قرطى ٢٦٠
حكاية المشعوذ ٢٦٢
ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان — ذكر قصره ٢٦٣
« خروج القان لقتال ابن عمه وقتله ٢٦٤
« رجوعى إلى الصين ثم إلى الهند ٢٦٦
« الرخ ٢٦٧
« أعراس ولد الملك الظاهر ٢٦٨
« سلطان ظفار ٢٦٩
« « بغداد ٢٧٠
حكاية ٢٧١
« ٢٧٢
« ٢٧٣
ذكر سلطان مصر ٢٧٤
« « تونس ٢٧٦
« بعض فضائل السلطان (أبي عنان) ٢٨٠
« سلطان غرناطة ٢٩٣
« التكشيف ٢٩٦
حكاية ٢٩٧
ذكر مسوفة الساكنين بإيوالاتن ٢٩٩
« سلطان مالّى — ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها ٣٠٢
« كلامى للسلطان بعد ذلك و إحسانه إلى وذكر جلوسه بقبته ٣٠٣
« جلوسه بالمشور — ذكر تذلل السودان لملكهم الخ ٣٠٥
« فعله فى صلاة العيد وأيامه ٣٠٦

صحة

ذكر الأضحوكة فى إنشاد الشعراء للسلطان ٣٠٨
حكاية — حكاية ٣٠٩
« ٣١٠
« ٣١١
ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها ٣١٢
« سفرى عن مالّى — ذكر الخيل التى تكون بالنيل ٣١٣
حكاية ٣١٤
« — حكاية ٣١٥
« ٣١٦
« ٣١٩
ذكر معدن النحاس — ذكر سلطان تَكَدَّا ٣٢٠
« وصول الأمر الكريم إلى ٣٢١
قال ابن جزى ٣٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

(وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بنُ عبد الله بنِ محمد بنِ إبراهيم اللواتى الطَّنْجى ، المعروف بابن بطوطة ، رحمه الله تعالى :

ولما كان بتاريخ الغُرَّة من شهر الله المحرّم مُفْتَتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، وصلنا إلى وادى السِند المعروف بِبَنْج آب . ومعنى ذلك المياه الخمسة . وهذا الوادى من أعظم أودية الدنيا . وهو يفيض فى أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه ، كما يفعل أهل الديار المصرية فى فيض النيل . وهـذا الوادى هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند . ولما وصلنا إلى هذا النهر جاء إلينا أصحاب الأخبار الموكَّلون بذلك . وكتبوا بخبرنا إلى قطب المُلْك أمير مدينة مُلْتان . وكان أمير أمراء السند على هـذا العهد مملوكا للسلطان يسمى سَرْتيز ، وبين يديه تعرض عساكر السلطان. ومعنى اسمه : الحادّ الرأس ، لأن سَرْ هو الرأس ، وتِيز معناه الحادّ . وكان فى حين قدومنا بمدينة سِيوَستان من السند . وبينها وبين مُلْتان مسيرة عشرة أيام . وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة دِهْلى مسيرة خمسين يوما . وإذا كتب المخبرون إلى السلطان من بلاد السِند يصل الكتاب إليه فى خمسة أيام بالبريد .

ذكر البريد

والبريد ببلاد الهند صنفان . فأما بريد الخيل فيسمونه الوُلاق، وهو خيل تكون للسلطان فى كل مسافة أربعة أميال . وأما بريد الرجّالة فيكون فى مسافة الميل . الواحد منه ثلاث رُتَب ويسمونها الداوة . والداوة هى ثلث ميل . والميل عندهم يسمى الكُرُوه . وترتيب ذلك أن يكون فى كل ثلث ميل قرية معمورة . ويكون بخارجها ثلاث قِباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة ، قد شدّوا أوساطهم . وعند كل واحد منهم مِقرعة مقدار ذراعين ، بأعلاها جلاجل نحاس . فإذا خرج البريد من المدينـة أخذ الكتاب بأعلى يده ، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى ، وخرج يشتد بمنتهى جُهده . فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له . فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جُهده ، وهو يحرك المقرعة حتى يصـل إلى الداوة الأخرى . ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يُراد منه . وهذا البريد أسرع من بريد الخيل . وربما حملوا على هـذا البريد الفواكه المستَطْرَفة بالهند من فواكه خُراسان ، يجعلونها فى الأطباق ويشتدون بها حتى تصل إلى السلطان . وكذلك يحملون أيضا الكبار من ذوى الجنايات : يجعلون الرجل منهم على سرير ، ويرفعونه فوق رءوسهم ويسيرون به شدًّا . وكذلك يحملون المـاء لشرب السلطان إذا كان بدولة أباد ، يحملونه من نهر الكَنْك الذى تحج الهنود إليه . وهو على مسيرة أربعين يوما منها . وإذا كتب المخبرون إلى السلطان بخبر من يصل إلى بلاده ، استوعبوا الكتاب وأمعنوا فى ذلك ، وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا . وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله فى حركته وسكونه وجميع تصرفاته ، لا يغادرون من ذلك كله شيئا . فإذا وصـل الوارد إلى مدينة

مُلْتَان ، وهى قاعدة بلاد السند ، أقام بها حتى يَنْفُذَ أمر السلطان بقدومه وما يجرى له من الضيافة . و إنما يكرم الإنسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته ، إذ لا يعرف هنالك ما حَسَبُه ولا آباؤه . ومن عادة ملك الهند السلطان أبى المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة . ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء . ونَفَذ أمره بأن يسمى الغرباء فى بلاده بالأعزة . فصار لهم ذلك اسما عَلَما . ولا بد لكل قادم على هـذا الملك من هدية يهديها إليه ويقدمها وسيلة بين يديه . فيكافئـه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة . وسيمر من ذكر هدايا الغرباء إليه كثير . ولمـا تعوّد الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون كلَّ قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دَيْنا ، ويجهزونه بمـا يريد أن يهديه إليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والأمتعة ، ويخدُمونه بأموالهم وأنفسهم ، ويقفون بين يديه كالحَشَم . فإذا وصل إلى السلطان أعطاه العطاء الجزيل ، فقضى ديونهم ، ووفَّاهم حقوقهم . فنفَقَتْ تجارتهم ، وكثرت أرباحهم ، وصار لهم ذلك عادة مستمرة .

ولمـا وصلت إلى بلاد السند سلكت ذلك المنهج واشتريت من التجار الخيل والجمال والمماليك وغير ذلك . ولقد اشتريت من تاجر عراقى من أهل تَكْرِيت يعرف بمحمد الدُّرى بمدينة غَزْنَة نحو ثلاثين فرسا ، وجملا عليه حِمْل من النُّشَّاب ، فإنه مما يهدى إلى السلطان ، وذهب هـذا التاجر إلى خُراسان ثم عاد إلى الهند . وهنالك تقاضى منى ماله ، واستفاد بسببى فائدة عظيمة ، وعاد من كبار التجار . ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلبنى الكفار ما كان بيدى فلم ألق منه خيرا .

ذكر الكَرْكَدّن

ولما أجزنا نهر السِنْد المعروف ببنج آب دخلنا غَيْضَــة قصب اسلوك الطريق لأنه فى وسطها ، فخرج علينا الكَرْكَدّن . وصورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الجِرْم ، رأسه كبير متفاوت الضخامة . ولذلك يضرب به المثل فيقال : الكركدن رأس بلا بدن . وهو دون الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف . وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة أذرع . وعرضه نحو شبر . ولما خرج علينا عارضــه بعض الفرسان فى طريقه ، فضرب الفرس الذى كان تحته بقرنه فأنفذ فخذه وصَرَعه ، وعاد إلى الغَيْضَة فلم نقدر عليه . وقد رأيت الكركدن مرة ثانية فى هذا الطريق ، بعد صلاة العصر ، وهو يرعى نبات الأرض . فلما قصدناه هرب منا . ورأيتــه مرة أخرى ونحن مع ملك الهند : دخلنا غَيْضَة قَصَب ، وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ، ودخلت الرجّالة والفرسان فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه الى المَحَــلّة . وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا إلى مدينة جَنَانِى ، مدينة كبيرة حسنة على ساحل نهر السند ، لها أسواق مليحة ، وسكانها طائفة يقال لهم السامِرَة ، استوطنوها قديما واستقر بها أسلافهم حين فَتْحِها على أيام الحجاج بن يوسف ، على ما أثبت المؤرخون فى فتح السِــنْد . وأخبرنى الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد ركن الدين ، ابن الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ، ابن الشيخ الإمام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القُرَشى ، وهو أحد الثلاثة الذين أخبرنى الشيخ الولى الصالح برهان الدين الأعرج بمدينة الإسكندرية أنى سألقاهم فى رحلتى ، فلقيتهم والحمد لله — أخبرنى أن جده الأعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القُرَشى ، وشهد فتح السند فى العسكر الذى بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام إمارته على العراق ، وأقام بها وتكاثرت ذريته .

وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع احد ، ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون ، ولا يصاهرون أحدا من غيرهم ، ولا يصاهرهم أحد . وكان لهم فى هذا العهد أمير يسمى وُنار ، وسنذكر خبره .

ثم سافرنا من مدينة جَنانى إلى أن وصلنا إلى مدينة سِيوِستان ، وهى مدينه كبيرة . وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها إلا شجر أم غَيْلان . ولا يزرع على نهرها شىء ما عدا البِطّيخ . وطعامهم الذرة والجُلُبّان ومنه يصنعون الخبز . وهى كثيرة السمك والألبان الجاموسية . وأهلها يأكلون السَقَنْقُور ، وهى دُوَيّبة يسميها المغاربة حُنَيْشة الجنة ، إلا أنها لا ذنب لها . ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ، ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكُركم . وهو عندهم عِوَضُ الزعفران .

ودخلنا هذه المدينة فى احتدام القيظ . وحرها شديد . فكان أصحابى يقعدون عُرْيانين ، يجعل أحدهم فُوطة على وَسَطِه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء ، فما يمضى اليسير من الزمان حتى تَيْبَس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى ، وهكذا أبدا . ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشَيْبانى ، وأرانى كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لجده الأعلى ، بخَطابة هذه المدينة . وهم يتوارثونها من ذلك العهد إلى الآن .

(ونص الكتاب) : هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان . وتاريخه سنة تسع وتسعين . وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : الحمد لله وحده ، على ما أخبرنى الخطيب المذكور . ولقيت بها أيضا الشيخ المُعَمَّر محمد البغدادىّ . وهو بالزاوية التى على قبر الشيخ

الصالح عثمان المَرَنْدِى . وذكر أن عمره يزيد على مائة وأربعين سنة ، وأنه حضر قتل المستعصم بالله آخر خلفاء بنى العباس رضى الله عنهم ، لمَّا قتله الكافر هلاون(1) بن تَنْكيز التترى . وهذا الشيخ على كبر سنه قوى الجُثة ، يتصرف على قدميه .

حكاية

كان يسكن بهذه المدينة الأمير وُنار السامرىّ الذى تقدم ذكره ، والأمير قيْصر الرومى . وهما فى خدمة السلطان ، ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس . وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رَتَن ، وهو من الحذاق فى الحساب والكتابة . فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء . فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند ، وولاه بتلك البلاد ، وأقطعه سِيوَستان وأعمالها ، وأعطاه المراتب وهى الأطبال والعلامات ، كما يعطى كبار الأمراء . فلما وصل إلى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهما تقديم الكافر عليهم ، فأجمعوا على قتله . فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج إلى أحْواز المدينة ، ليطلع على أمورها . فخرج معهم . فلما جَنّ الليل أقاموا ضجة بالمحلّة وزعموا أن السبُع ضرب عليها . وقصدوا مَضْرِب الكافر فقتلوه وعادوا إلى المدينة ، فأخذوا ما كان بها من مال السلطان . وذلك اثنا عشر لكا ، واللك مائة ألف دينار . وصَرْف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند ، وصرف الدينار الهندى ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب . وقدّموا على أنفسهم وُنار وسموه ملك فيروز . وقسم الأموال على العسكر ، ثم خاف على نفسه

---

(1) هو (هولاكو) .

لبعده عن قبيلته ، فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته . وقدّم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومى . واتصل خبرهم بعماد الملك سَرْتيز مملوك السلطان ، وهو يومئذ أمير أمراء السند ، وسكناه بِمُلْتان ، فجمع العساكر وتجهز فى البر وفى نهر السند . وبين ملتان وسِيوِسْتان عشرة أيام . وخرج إليه قيصر فتلاقيا . وانهزم قيصر ومن معه أشنع هزيمة . وتحصنوا بالمدينة ، فحصرهم ونصب المجانيق عليهم ، واشتد عليهم الحصار فطلبوا الأمان بعد أربعين يوما من نزوله عليهم ، فأعطاهم الأمان . فلما نزلوا إليه غَدَرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم . فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ، ويوسِّط[1] بعضهم ويسلُخ آخرين منهم ويملأ جلودهم تبنا ، ويعلقها على السور . فكان مُعْظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ، تُرْعِب من ينظر إليها . وجمع رءوسهم فى وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك . ونزلت بتلك المدينة إثْر هذه الوقيعة بمدرسة فيها كبيرة . وكنت أنام على سطحها فإذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها ، ولم تطِب نفسى بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها . وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخُرَاسانى ، المعروف بفصيح الدين قاضى هَرَاة ، فى متقدم التاريخ ، قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لَاهَرِى وأعمالها من بلاد السند ، وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سَرْتيز بمن معه من العساكر ، فعزمت على السفر معه إلى مدينة لَاهَرِى . وكان له خمسة عشر مركبا قدم بها فى نهر السند تحمل أثقاله ، فسافرت .

(١) وسطه توسيطا قطعه نصفين كما سبق .

ذكر السفر فى نهر السند وترتيب ذلك

وكان للفقيه علاء الملك فى جملة مراكبه مركب يعرف (بالأَهْوَرَة) وهى نوع من الطَّرِيدة عندنا . إلا أنها أوسع منها وأقصر . وعلى نصفها مَعْرَش من خشب يصعد له على دَرَج ، وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الأمير . ويجلس أصحابه بين يديه . ويقف المماليك يَمْنة ويَسْرة . والرجال يَقْذِفون . وهم نحو أربعين . ويكون مع هذه الأَهْوَرَة أربعة من المراكب عن يمينها ويسارها : اثنان منها فيهما مراتب الأمير ، وهى العلامات والطبول والأبواق والأنقار والصرنايات [١] ، والآخران فيهما أهل الطرب . فتضرب الطبول والأبواق نَوْبة ، ويغنى المغنون نَوْبة ، ولا يزالون كذلك من أول النهار إلى وقت الغداء . فإذا كان وقت الغداء انضمت المراكب وَوُصِل بعضها ببعض ، ووضعت بينهما الإصقالات [٢] وأتى أهل الطرب إلى أَهْوَرَة الأمير ، فيغنون إلى أن يفرغ من أكله . ثم يأكلون . وإذا انقضى الأكل عادوا إلى مركبهم وشرعوا أيضا فى المسير على ترتيبهم إلى الليل . فإذا كان الليل ضُرِبت المحلّة على شاطئ النهر ، ونزل الأمير إلى مضاربه ، ومُدَّ السماط وحضر الطعام معظم العسكر . فإذا صلوا العشاء الأخيرة سَمَرَ السُّمَّار بالليل نَوْبات ، فإذا أتم أهل النَّوْبة منهم نوبتهم ، نادى مناد منهم بصوت عال : يا خَوَنْد مَلِك [٣] ، قد مضى من الليل كذا من الساعات ، ثم يَسْمُر أهل النوبة الأخرى . فإذا أتموها نادى مناديهم أيضا مُعْلِما بما مرّ من الساعات . فإذا كان الصبح ضربت الأبواق والطبول ، وصليت صلاة الصبح ، وأتى بالطعام .

---

(١) هذا اللفظ ليس بعربى كما تقدم الكلام فى الحواشى . وقد تقدم الكلام على الأنقار .

(٢) لعله يقصد خشبات تصل بين المراكب . وليس بعربى فيما نعلم .

(٣) سيد الملوك .

فإذا فرغ الأكل أخذوا فى المسير . فإن أراد الأمير ركوب النهر ركب على ما ذكرناه من الترتيب . إن أراد المسير فى البر ضربت الأطبال والأبواق وتقدم حجابه . ثم تلاهم المشاءون بين يديه . ويكون بين أيدى الحجاب ستة من الفُرْسان ، عند ثلاثة منهم أطبال قد تقلدوها ، وعند ثلاثة صُرْنايات ، فإذا أقبلوا على قرية أو ما هو من الأرض مرتفع ، ضربوا تلك الأطبال والصرنايات . ثم تضرب أطبال العسكر وأبواقه . ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نَوْبات . فإذا كان وقت الغداء نزلوا .

وسافرت مع علاء الملك خمسه أيام . ووصلنا إلى موضع ولايته وهو مدينة لاهَرِى ، مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير . وبها يصب نهر السند فى البحر ، فيلتقى بها بحران . ولها مَرْسى عظيم يأتى إليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم . وبذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها . أخبرنى الأمير علاء الملك المذكور أن مَجْبَى هذه المدينة ستون لكا فى السنة . وقد ذكرنا مقدار اللك . وللأمير من ذلك نصف العشر . وعلى ذلك يعطى السلطان عُمَّالَه البلاد ، يأخذون منها لأنفسهم نصف العشر .

ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة

وركبت يوما مع علاء الملك ، فانتهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها ، يعرف (بتارنا) ، فرأيت هنالك مالا يحصره العد من الحجارة ، على مثل صور الآدميين والبهائم . وقد تغير كثير منها وَدَثَرَتْ أشكاله . فيبقى منه صورة رأس أو رجل أو سواهما . ومن الحجارة أيضا على صورة الحبوب من البُرّ والحِمَّص والفول والعدس . وهنالك آثار سور وجدران دور . ثم رأينا

رَسْم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفى وسطه دكانة [١] حجارة منحوتة كأنها حجر واحد، عليها صورة آدمى إلا أن رأسه طويل، وفمه فى جانب من وجهه، ويداه خلف ظهره كالمكتوف. وهناك مياه شديدة النَّتْن، وكتابة على بعض الجدران بالهندى. وأخبرنى علاء الملك أن أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة، أكثر أهلها الفساد، فمُسِخوا حجارة، وأن ملكهم هو الذى على الدكانة فى الدار التى ذكرناها، وهى إلى الآن تسمى دار الملك، وأن الكتابة التى فى بعض الحيطان هنا لك بالهندى هى تاريخ هلاك أهل تلك المدينة، وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها.

وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيام، ثم أحسن فى الزاد. وانصرفت عنه إلى مدينة بَكّار. وهى مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند. وفى وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر. عمرها كَشْلُوخان أيام ولايته على بلاد السند. وسيقع ذكره. ولقيت بهذه المدينة الفقيه الإمام صدر الدين الحنفى. ولقيت بها قاضيها المسمى بأبى حنيفة. ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمدا الشيرازى. وهو من المُعَمَّرِين. ذكر لى أن سنه تزيد على مائه وعشرين عاما. ثم سافرت من مدينة بَكّار. فوصلت إلى مدينة أُوجَة، وهى مدينة كبيرة على نهر السند لها أسواق حسنة، وعمارة جيدة. وكان الأمير بها إذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجى. أحد الشجعان الكرماء. وبهذه المدينة توفى بعد سقطة سقطها عن فرسه.

---

(١) الذى فى كتب اللغة التى بين أيدينا (دكان) لا دكانة.

مَكْرُمة لهذا الملك

ونشأت بيني و بين هـذا الملك الشريف جلال الدين مودّة ، وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة ، واجتمعنا بحضرة دِهْلى . فلما سافر السلطان إلى دولة أباد كما سنذكره . وأمرنى بالإقامة بالحضرة ، قال لى جلال الدين : إنك تحتاج إلى نفقة كبيرة ، والسلطان تطول غيبته ، فخذ قريتى واستغلها حتى أعود . ففعلت ذلك واستغللت منها نحو خمسة آلاف دينار . جزاه الله أحسن جزائه . ولقيت بمدينة أوجَة الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حَيْدرا العَلَوِى ، وألبسنى الخِـرْقة . وهو من كِبار الصالحين . ولم يزل الثوب الذى ألبسنيه معى إلى أن سلبنى كفار الهنود فى البحر . ثم سافرت من أوجة إلى مدينة مُلْتان ، وهى قاعدة بلاد السـند ومسكن أمير أمرائه . وفى الطريق إليها على مسافة عشرة أميال منها الوادى المعروف بِخُسْرُو آباد ، وهو من الأودية الكبار ، لا يجاز إلا فى المركب . وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث ، وتفتش رحالهم . وكانت عادتهم فى حين وصولنا إليها أن يأخذوا الربع من كل مايجلبه التجار ، ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مَغْرَما . ثم بعد وصولنا الهند بسنتين رفع السلطان تلك المغـارِم . وأمر ألا يؤخذ من النـاس إلا الزكاة والعشر لمـا بايع الخليفة أبا العباس العباسى . ولمـا أخذنا فى إجازة هذا الوادى وفتشت الرحال ، عظم علىّ تفتيش رحلى ، لأنه لم يكن فيه طائل ، وكان يظهر فى أعين الناس كبيرا ، فكنت أكره أن يُطَّلع عليـه . ومن لطف الله تعالى أن وصل أحد كِبار الأجناد من جهة قطب الملك صاحب مُلْتان ، فأمر ألا يُعْرَض لى ببحث ولا تفتيش . فكان كذلك . فحمدت الله على ماهيأه لى من لطائفه .

وبتنا تلك الليلة على شاطئ الوادى . وقدم علينا فى صبيحتها ملك البريد، واسمه دِهْقان ، وهو سَمَرْقَنْدِى الأصل . وهو الذى يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها ، ومايحدث بها ، ومن يصل إليها . فتعرفت به ، ودخلت فى صحبته إلى أمير ملتان .

ذكر أمير مُلْتَان وترتيب حاله

وأمير مُلْتَان هو قطب المُلْك ، من كبار الأمراء وفضلائهم . ولما دخلت عليه قام لى وصافحنى وأجلسنى إلى جانبه . وأهديت له مملوكا وفرسا وشيئا من الزبيب واللوز . وهو من أعظم ما يهدى إليهم ، لأنه ليس ببلادهم وإنما يجلب من خُراسان . وكان جلوس هـذا الأمير على دكان كبير عليه البُسُط ، وعلى مقربة منه القاضى ، ويسمى سالار ، والخطيب ولا أذكر اسمه . وعن يمينه ويساره أمراء الأجناد وأهل السلاح وقوفا على رأسه ، والعساكر تعرض بين يديه . وهنالك قِسِىّ كثيرة . فإذا أتى من يريد أن يُثْبَت فى العسكر راميا أعطى قوسا من تلك القسىّ ينزِع فيها . وهى متفاوتة فى الشدة . فعلى قدر نَزْعه يكون مرتبه . ومن أراد أن يثبت فارسا فهنالك طبلة منصوبة فيُجْرِى فرسه ويرميها برمحه . وهنالك أيضا خاتم معلق فى حائط صغير ، فيجرِى فرسه حتى يحاذيه . فإن رفعه برمحه فهو الجيد عندهم . ومن أراد أن يثبت راميا فارسا فهنالك كرة موضوعة فى الأرض ، فيجرِى فرسه ويرميها . وعلى قدر ما يظهر من الإنسان فى ذلك من الإصابة يكون مرتبه . ولما دخلنا على هذا الأمير وسلمنا عليه كما ذكرنا ، أمر بإنزالنا فى دار خارج المدينة هى لأصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذى تقدم ذكره . وعادتهم ألا يضيفوا أحدا حتى يأتى أمر السلطان بتضييفه .

ذكر من اجتمعت به فى هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند

فمنهم خُداوَنْدزاده قِوام الدين قاضى تِرْمِذ . قدم بأهله وولده . ثم ورد عليه بها إخوته عِماد الدين وضياء الدين و برهان الدين . ومنهم مبارك شاه أحد كبار سَمَرْقَنْد . ومنهم أُرُنْ بُغَا أحد كبار بُخارى . ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده . ومنهم بدر الدين الفَصّال . وكل واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدّامه وأتباعه. ولما مضى من وصولنا إلى مُلْتان شهران، وصل أحد حجاب السلطان، وهو شمس الدين البُوشَنْجى(١)، والملك محمد الهَرَوى الكُتْوال(٢). بعثهما السلطان لاستقبال خداوندزاده . وقدم معهما ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جِهان ، وهى أم السلطان ، لاستقبال زوجة خداوند زاده . وأتوا بالخلع لها ولأولادهما ، ولتجهيز من قدم من الوفود . وأتوا جميعا إلىّ وسألونى لماذا قدمت؟ فأخبرتهم أنى قدمت للإقامة فى خدمة خَوَنْد(٣) عالَم، وهو السلطان . وبهذا يدعى فى بلاده . وكان أمر أن لا يترك أحد ممن يأتى من خُراسان يدخل بلاد الهند إلا إن كان برسم الإقامة . فلما أعلمتهم أنى قدمت للإقامة ، استدعوا القاضى والعدول وكتبوا عقدا علىّ وعلى من أراد الإقامة من أصحابى . وأبى بعضهم ذلك .

وتجهزنا للسفر إلى الحضرة، و بين مُلْتان و بينها مسيرة أربعين يوما، فى عمارة متصلة . وأخرج الحاجب وصاحبه الذى بعث معه ما يُحتاج إليه فى ضيافة قوام الدين . واستصحبوا من مُلْتان نحو عشرين طباخا . وكان الحاجب

---

(١) نسبة إلى بُوشَنْج ، بليدة بينها و بين هَرَاة عشرة فراسخ فى واد كثير الشجر والفواكه اه ياقوت .

(٢) رئيس الشرطة ، بلسانهم .

(٣) سيد العالم بلسانهم .

يتقدم ليلا إلى كل منزل فيجهز الطعام وسواه ، فما يصل خُدَاوَنْدزاده حتى يكون الطعام متيسرا . وينزل كل واحد ممن ذكرناهم من الوفود على حِدَة بمضاربه وأصحابه ، وربما حضروا الطعام الذى يصنع لخداوندازه. ولم أحضره أنا إلا مرة واحدة . وترتيب ذلك الطعام أنهم يجعلون الخبز ، وخبزهم الرُّقاق وهو شبه الجراديق[١] ، ويقطعون اللحم المشوى قطعا كبارا بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستا . ويجعلون أمام كل رجل قطعة . ويجعلون أقراصا مصنوعة بالسمن ، تشبه الخبز (المشرّك) ببلادنا ، ويجعلون فى وسطها الحلواء الصابونية ، ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء مصنوع من الدقيق والسكر والسمن . ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزَّنجَبِيل الأخضر فى صِحاف صينية . ثم يجعلون شيئا يسمونه سَمُوسك ، وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفُسْتُق والبصل والأبازير ، موضوع فى جوف رُقاقة مقلوة بالسمن ، يضعون أمام كل إنسان خمس قطع من ذلك أو أربعا ، ثم يجعلون الأرز المطبوخ بالسمن وعليه الدجاج ، ثم يجعلون لُقَيْمات القاضى ، ثم يجعلون القاهرية . ويقف الحاجب على السماط قبل الأكل ، ويَخْدُم إلى الجهة التى فيها السلطان ، ويَخْدُم جميع من حضر لخدمته . والخدمة عندهم حطّ الرأس نحو الركوع . فإذا فعلوا ذلك جلسوا للأكل . ويؤتى بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات ، وهو الجُلَّاب[٢] محلولا فى الماء ، ويسمون ذلك الشربة ، ويشربونه قبل الطعام . ثم يقول الحاجب : باسم الله. فعند ذلك يشرعون فى الأكل . فإذا أكلوا أتوا بأكواز الفُقَّاع[٣] ، فإذا

---

(١) فى القاموس : الجردقة بالفتح الرغيف معرّب .

(٢) ماء الورد كما فى القاموس .

(٣) شراب يعلوه زبد كما فى القاموس .

شربوه أتوابالتَّانْبول(١) والفوْفل(٢) . وقد تقدم ذكرهما ، فإذا أخذوهما قال الحاجب : باسم الله ، فيقومون و يخدُمون مثل خدمتهم أولا و ينصرفون.

وسافرنا من مدينة مُلْتَان ، وهم يجرون هذا الترتيب على حسب ما سطرناه ، إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند. وكان أول بلد دخلناه مدينة (أَبُوهَر) وهى أول تلك البلاد الهندية ، صغيرة حسنة كثيرة العمارة ذات أنهار وأشجار . وليس هنالك من أشجار بلادنا شئ ما عدا النَّبْق. لكنه عندهم عظيم الجِرم ، تكون الحبة منه بمقدار حبة العفْص ، شديد الحلاوة . ولهم أشجار كثيرة ، ليس منها شئ ببلادنا ولا بسواها .

ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها

فمنها العَنْبَة(٣) وهى شجرة تشبه أشجار النَّارَنْج ، إلا أنها أعظم أجراما وأكثر أوراقا ، وظلها أكثر الظلال ، غير أنه ثقيل فمن نام تحته وُعِك . وثمرها على قدر الإجّاص الكبير . فإذا كان أخضر قبل تمام نُضْجه أخذوا ما سقط منه ، وجعلوا عليه الملح وصبروه كما يصبر اللَّيْم(٤) والليمون ببلادنا . وكذلك يصبرون الزنجبيل الأخضر وعناقيد الفلفل . و يأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بإثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات . فإذا نَضِجت العنبة فى أوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح . فبعضهم يقطعها بالسكين ، و بعضهم يمصها مصا . وهى حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة ،

---

(١) هو نبات طعم ورقه كالقرنفل كما فى القاموس . وقد سبق شرحه .

(٢) نبات هندى .

(٣) هى شجرة (المنجو) كما يؤخذ من الترجمة الفرنسية . ولم نجد هذه الكلمة فى كتب اللغة . وفى القاموس : والأنبج كأحمد وتكسر باؤه ثمرة شجرة هندية ، معرب أنْب اهـ .

(٤) يظهر أنه نوع من الليمون . وقال فى القاموس : إن نون الليمون قد تسقط .

ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار، كما تزرع نوى النارنج وغيرها. ومنها (الشَّكي) و(البَرْكي)، وهي أشجار أوراقها كأوراق الجوز. وثمرها يخرج من أصل الشجرة فما اتصل منه بالأرض فهو البَرْكي. وحلاوته أشد ومطعمه أطيب. وما كان فوق ذلك فهو الشكي. وثمره يشبه القرع الكبار. وجلوده تشبه جلود البقر. فإذا اصفرّ في أوان الخريف قطعوه وشقوه. فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار، بين كل حبة وحبة صِفاق[1] أصفر اللون. ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير. وإذا شويت تلك النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول، إذ ليس يوجد هنالك. ويدخرون هذه النوى في التراب الأحمر فتبقى إلى سنة أخرى. وهذا الشَّكي والبَرْكي خير فاكهة ببلاد الهند. ومنها (التَّنْدُو) وهو ثمر شجر الآبَنُوس. وحباته في قدر حبات المِشْمِش ولونها. وهو شديد الحلاوة. ومنها (الجُمُون) وأشجاره عاديّة[2]. ويشبه ثمرة الزيتون. وهو أسود اللون وله نواة واحدة كالزيتون. ومنها النَّارَنْج الحلو[3] وهو عندهم كثير. وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود. ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض، وثمره على قدر اللَّيْم. وهو طيب جدا، وكنت يعجبني أكله. ومنها (المَهْوَا)، وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز، إلا أن فيها حمرة وصفرة، وثمره مثل الإجّاص الصغير، شديد الحلاوة. وفي أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة. وطعمها كطعم العنب، إلا أن الإكثار من أكلها يحدث في الرأس صُداعا. ومن العجب أن هذه الحبوب إذا يبست في الشمس كان مطعمها كمطعم التين. وكنت آكلها عوضا عن التين، إذ لا يوجد ببلاد الهند. وهم يسمون هذه الحبة (الأنكور)، وتفسيره

(١) يراد به ما يشبه الجلدة .

(٢) يراد به ما يطول عمرها جدا ، نسبة إلى عاد . (٣) البرتقال .

بلسانهم العنب . والعنب بأرض الهند عزيز جدا . ولا يكون بها إلا فى مواضع بحضرة دِهْلى ، وببلاد أخر . ويثمر مرتين فى السنة . ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به . ومن فواكههم فاكهة يسمونها (كَسِيرا) ، يحفرون عليها الأرض وهى شديدة الحلاوة تشبه القَسْطَل(١) . وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان . ويثمر مرتين فى السنة ، ورأيته ببلاد جزائر (ذِيبة المَهَل(٢)) لا ينقطع له ثمر . وهم يسمونه (أنَار) . وأظن ذلك هو الأصل فى تسمية الجُلّنار ، فإن جُل بالفارسية الزهر ، ونار الرمان .

ذكر الحبوب التى يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها

وأهل الهند يزدرعون مرتين فى السنة . فإذا نزل المطر عندهم فى أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفى ، وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته . ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم (الكُذْرُو) ، وهو نوع من الدُّخن . وهذا الكذرو أكثر الحبوب عندهم . ومنها (القال) . ومنها (الشاماخ) ، وهو أصغر حبا من القال . وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة ، وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين . يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة ، فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره ، وتكون بيمناه مِقرعة يضرب بها الزرع . فيسقط فى القفة ، فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة . وحب هذا

(١) هو ما يسمى فى مصر (أبا فروة) .

(٢) جزائر مالديف .

الشاماخ صغير جدا ، وإذا جمع جعل فى الشمس . ثم يدق فى مهاريس الخشب . فيطير قشره ويبقى لُبّه أبيض. ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس . وهى أطيب من خبزه . وكنت آكلها كثيرا ببلاد الهند وتعجبنى. ومنها الماش[1] وهو نوع من الجُلُبَّان. ومنها (المُنْج)، وهو نوع من الماش، إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافى الخضرة . ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ، ويسمونه (كشرى)، وعليه يفطرون فى كل يوم. وهو عندهم كالحَرِيرة ببلاد المغرب . ومنها اللُّوبِيَاء وهى نوع من الفول. ومنها (المُوت) وهو مثل الكذرو ، إلا أن حبوبه أصغر، وهو من علف الدواب عندهم . وتسمن الدواب بأكله . والشعير عندهم لا قوة له ، وإنما علف الدواب من هذا (الموت) أو الحِمَّص ، يجَرْشُونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب . ويطعمونها عوضا عن القَصِيل[2] أوراق الماش بعد أن تسق الدابة السمن عشرة أيام ، فى كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة . ولا تركب فى تلك الأيام. وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش ، كما ذكرنا، شهرا أو نحوه .

وهذه الحبوب التى ذكرناها هى الخريفية . وإذا حصدوها بعد ستين يوما من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية ، وهى القمح والشعير والحِمّص والعَدَس . وتكون زراعتها فى الأرض التى كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها . وبلادهم كريمة طيبة التربة . وأما الأرز فإنهم يزرعونه ثلاث مرات فى السنة. وهو من أكثر الحبوب عندهم. ويزدرعون السِمْسِم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التى تقدم ذكرها .

---

(١) فى القاموس : الماش حب معروف .

(٢) القصيل : ما قطع من الزرع أخضر .

(ولنعد) إلى ما كنا بسبيله فأقول : سافرنا من مدينة أَبُوهَر في صحراء مسيرة يوم ، في أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار(١) الهنود . وربما قطعوا الطريق . وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار ، فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين ، يسكنون القرى ، ويكون عليهم حاكم من المسلمين ، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق .

ذكر غزوة لنا بهذا الطريق، وهي أول غزوة شهدتها ببلاد الهند

ولما أردنا السفر من مدينة أَبُوهَر، خرج الناس منها أول النهار، وأقمت بها إلى نصف النهار في لُمَّة(٢) من أصحابي . ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارساً ، منهم عرب ومنهم أعاجم ، فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلاً من الكفار وفارسان. وكان أصحابي ذوي نَجْدة وعُتَيّ ، فقاتلناهم أشد القتال ، فقتلنا أحد الفارسين منهم ، وغنمنا فرسه ، وقتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلاً . وأصابتني نُشَّابة ، وأصابت فرسي نُشَّابة ثانية ، ومنَّ الله بالسلامة منها ، لأن نشابهم لاقوة لها . وجرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر ، وذبحنا فرسه المجروح فأكله الترك من أصحابنا . وأوصلنا تلك الرءوس إلى حصن أبي بَكْهَر فعلقناها على سوره . وكان وصولنا في نصف الليل إليه وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين الى مدينة أُجُودَهَن ، مدينة صغيرة ، هي للشيخ الصالح فريد الدين البَدَاوُني ، الذي أخبرني الشيخ الصالح الولي برهان الدين الأعرج بالإسكندرية أني سألقاه ، فلقيته والحمد لله . وهو شيخ

(١) يراد بذلك أنهم عبدة أوثان .

(٢) قال في اللسان : لُمَّة الرجل أصحابه إذا أرادوا سفرا فأصاب من يصحبه فقد أصاب لُمَّة . والواحد لُمَّة والجمع لُمَّة اهـ .

ملك الهند ، وأنعم عليه بهذه المدينة ، وهذا الشيخ مبتلى بالوَسْواس والعياذ بالله ، فلا يصافح أحدا ولا يدنو منه . وإذا لَصِقَ ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه . دخلت زاويته ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين ، فعجب وقال : أنا دون ذلك . ولقيت ولديه الفاضلين معز الدين ، وهو أكبرهما ، ولما مات أبوه تولى الشُيُوخة بعده ، وعلم الدين . وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البَدَاوُنِي ، منسوبا الى مدينة بَدَاوُن[1] . ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة ، قال لى علم الدين : لا بد لك من رؤية والدى فرأيته ، وهو فى أعلى سطح له ، وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذؤابة ، وهى مائلة إلى جانب . ودعا لى وبعث إلى بسكر ونبات .

ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يُهْرَعون من عسكرنا ، ومعهم بعض أصحابنا . فسألتهم ما الخبر؟ فأخبرونى أن كافرا من الهنود مات وأججت النار لإحراقه ، وامرأته تُحْرِق نفسها معه . ولما احترقا جاء أصحابى وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه . وبعد ذلك كنت فى تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة ، والناس يتبعونها من مسلم وكافر . والأطبال والأبواق بين يديها ، ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود . وإذا كان ذلك ببلاد السلطان ، استأذنوا السلطان فى إحراقها ، فيأذن لهم فيحرقونها . ثم اتفق بعد مدة أنى كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار ، وأميرها مسلم من سامرة السند . وعلى مقربة منها الكفار العصاة . فقطعوا الطريق يوما ، وخرج الأمير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار . ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة . وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات . فاتفقن على إحراق أنفسهن . وإحراق المرأة بعد زوجها

---

(١) بفتح الباء الموحدة والدال المعجم وضم الواو وآخرها نون . ابن بطوطة .

عندهم أمر مندوب إليه غير واجب . لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ونُسبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خَشِن الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة ممتَهَنة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها. ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتى ذكرناهن على إحراق أنفسهن ، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب ، كأنهن يودِّعن الدنيا، وتأتى إليهن النساء من كل جهة . وفى صبيحة اليوم الرابع أُتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهى متزينة متعطرة، وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفى يُسراها مرآة تنظر فيها وجهها. والبراهمة يَحُفُّون بها، وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنقار. وكل إنسان من الكفار يقول لها: أبلغى السلام أبى أو أخى أو أمى أو صاحبي . وهى تقول نعم وتضحك لهم .

وركبت مع أصحابى لأرى كيفية صنعهن فى الاحتراق ، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال . وبين أشجاره أربع قِباب ، فى كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صِهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار، فلا تخللها الشمس . ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصِهريج ، وانغمسن فيه، وجردن ما عليهن من ثياب وحلى فتصدقن به ، وأُتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مَخِيط ، فرُبط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها ، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض، وصب عليها زيت الجُلْجُلان(١) . فزاد فى اشتعالها. وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حُزَم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار . وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة ، وقد حُجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم، لئلا يدهشها النظر إليها. فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك

(١) ثمر الكزبرة ، وحب السمسم ، قاموس .

الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعُنْف ، وقالت لهم وهى تضحك : أبا لنار تخوفوننى ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة . ثم جمعت يديها على رأسها خِدْمة للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأطبال والأنقار والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها . وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك . وارتفعت الأصوات ، وكثر الضجيج. ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسى ، لولا أصحابى الذين تداركونى بالماء ، فغسلوا وجهى وانصرفت . وكذلك يفعل أهل الهند أيضا فى الغرق، يُغْرِق كثير منهم أنفسهم فى نهر الكُنْك ، وهو الذى إليه يحجون ، وفيه يُرْمى برماد هؤلاء المحرقين . وهم يقولون إنه من الجنة ، و إذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره : لاتظنوا أنى أغرق نفسى لأجل شىء من أمور الدنيا أو لقلة مال . إنما قصدى التقرب الى كُسَاى . وكساى اسم الله عز وجل بلسانهم . ثم يغرق نفسه ، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده فى البحر المذكور.

(ولنعد) إلى كلامنا الأول فنقول : سافرنا من مدينة (أُجُودَهَن) فوصلنا بعد مسيرة أربعة أيام منها إلى مدينة سَرْسَتِى ، مدينة كبيرة كثيرة الأرز. وأرزها طيب . ومنها يحمل إلى حضرة دهلى . ولها مجبى كثير جدا . أخبرنى الحاجب شمس الدين البُوشَنْجِى بمقداره وأنسيته . ثم سافرنا منها إلى مدينة حَانِسِى ، وهى من أحسن المدن وأكثرها عمارة . ولها سور عظيم ، ذكروا أن بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى تُورَة . وله عندهم حكايات وأخبار . ومن هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضى قضاة الهند، وأخوه قُطْلُوخان معلم السلطان، وأخواهما نظام الدين وشمس الدين الذى انقطع إلى الله وجاور بمكة حتى مات . ثم سافرنا من حَانْسِى فوصلنا بعد يومين إلى مسعود أباد. وهى على عشرة أميال من حضرة دهلى، وأقمنا بها ثلاثة أيام. وحانْسِى و(مسعود أباد)

هما للملك المعظم هُو شَنْج ابن الملك كمال كُرْك . وكرك معناه الذئب ، وسيأتي ذكره. وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قَنْوج. وبينها وبين حضرة دهلي عشرة أيام. وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جِهان . وجِهان اسم الدنيا . وكان بها أيضا وزيره خواجه جِهان، المسمى بأحمد بن إياس ، الرومي الأصل . فبعث الوزير إلينا أصحابه ليتلقونا . وعين للقاء كل واحد منا من كان من صِنْفه ، فكان من الذين عينهم للقائي الشيخ البِسْطَامي والشريف المَازَنْدَراني، وهو حاجب الغرباء، والفقيه علاءالدين المُلْتاني المعروف بِقُنَّرة. وكتب إلى السلطان بخبرنا. وبعث الكتاب مع الدَّواة، وهي بريد الرجالة على ما ذكرناه . فوصل إلى السلطان ، وأتاه الجواب في تلك الأيام الثلاثة التي أقمناها بمسعود أباد .

وبعد تلك الأيام خرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء. وهم يسمون الأمراء ملوكا . فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها : الأمير ، يقولون هم : الملك . وخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزَّنْجاني. وهو كبير المنزلة عند السلطان . ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمى بَالَم . وهي للسيد الشريف ناصر الدين مُطَهَّر الأَوْهَرِي ، أحد ندماء السلطان، وممن له عنده الحُظْوة التامة. وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دِهْلِي قاعدة بلاد الهند . وهي المدينة العظيمة الشأن الضخمة ، الجامعة بين الحسن والحصانة . وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير . وهي أعظم مدن الهند ، بل مدن الإسلام كلها بالمشرق .

ذكر وصفها

ومدينة دِهلى كبيرة الساحة ، كثيرة العمارة . وهى الآن أربع مدن متجاورات متصلات . إحداها المسماة بهذا الاسم دهلى ، وهى القديمة من بناء الكفار . وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة . والثانية تسمى سِيرِى وتسمى أيضا دار الخلافة ، وهى التى أعطاها السلطان غياثَ الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسى لما قدم عليه . وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين ، وسنذكرهما . والثالثة تسمى تُغْلُق أباد ، باسم بانيها السلطان تُغْلُق والد سلطان الهند الذى قدمنا عليه . وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوما بين يدى السلطان قطب الدين فقال له : يا خَوَنْد عَالَم ، كان ينبغى أن تبنى هنا مدينة . فقال له السلطان متهكما : إذا كنت سلطانا فابنها. فكان من قَدَر الله أن كان سلطانا فبناها وسماها باسمه. والرابعة تسمى (جِهان پَناه)، وهى مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن ، الذى قدمنا عليه . وهو الذى بناها . وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد ، فبنى منه بعضا وترك بناء باقيه ، لعظم ما يلزم فى بنائه .

ذكر سور دِهْلى وأبوابها

والسور المحيط بمدينة دهلى ليس له نظير . وعرض حائطه إحدى عشرة ذراعا . وفيه بيوت يسكنها السُّمَّار[1] وحفاظ الأبواب ، وفيها مخازن للطعام ومخازن للعُـدَد ومخازن للمجانيق والرَّعَّادات[2] . ويبقى الزرع بها مدة طائلة

---

(١) الذين يسهرون على حفظ السور ، تسمية اصطلاحية .

(٢) يقصد بها آلات رمى النار .

لا يتغير ولا تطرقه آفة . ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ، ولكن طعمه طيب . ورأيت أيضا الكُذْرُو[1] يخرج منها . وكل ذلك من اختزان السلطان بلَبَن منذ تسعين سـنة . ويمشى فى داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها . وفيه طيقان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء . وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة وأعلاه بالآجر . وأبراجه كثيرة متقاربة . ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا .

ذكر جامع دِهلى

وجامع دهلى كبير الساحة ، حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت ، ملصقة بالرَّصاص أتقن إلصاق ، ولا خشبة به أصلا . وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة . ومنبره أيضا من الحجر . وله أربعة من الصحون . وفى وسط الجامع العمود الهائل الذى لايدرى من أى المعادن هو . ذكر لى بعض حكمائهم أنه يسمى (هَفْت جُوش) ومعنى ذلك سبعة معادن ، وأنه مؤلف منها . وقد جُلِيَ من هذا العمود مقدار السبابة . ولذلك المجلو منه بريق عظيم . ولا يؤثر فيه الحديد . وطوله ثلاثون ذراعا . وأدرنا به عمامة فكان الذى أحاط بدائرته منهـا ثمانى أذرع . وعند الباب الشرقى من أبواب المسجد صنمان كبيران جدا من النحاس ، مطروحان بالأرض قد ألصقا بالحجـارة . ويطؤهما كل داخل المسجد أو خارج منه . وكان موضع هذا المسجد بُدْخَانة ، وهو بيت الأصنام . فلمـا افتتحت جعل مسجدا . وفى الصحن الشمالى من المسجد الصَّوْمَعة التى لا نظير لها فى بلاد الإسلام . وهى مبنية بالحجارة الحمر ، خلافا لحجارة سائر المسجد فإنها بيض . وحجارة

---

(١) سبق تعريفه فى ص ١٧

الصومعة منقوشة . وهى سامية الارتفاع . وحَجَرُها [١] من الرخام الأبيض الناصع . وتفافيحها [٢] من الذهب الخالص . وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة . حدثنى من أثق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها . وهى من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَبَن . وأراد السلطان قطب الدين أن يبنى بالصحن الغربى صومعة أعظم منها . فبنى مقدار الثلث منها واخْتُرِم [٣] دون تمامها . وأراد السلطان محمد إتمامها ، ثم ترك ذلك تشاؤما . وهذه الصومعة من عجائب الدنيا فى ضخامتها وسعة ممرها ، بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة . وهـذا الثلث المبنى منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التى ذكرنا أنها بالصحن الشمالى . وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المـدينة ، وعاينت الأسـوار على ارتفاعها وسموها منحطة . وظهر لى الناس فى أسفلها كأنهم الصبيان الصغار . ويظهر لناظرها من أسفلها أن ارتفاعها ليس بذلك ، لعظم جِرْمها وسعتها . وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبنى أيضا مسجدا جامعا (بِسِيرى) المسماة دار الخلافة ، فلم يتم منه غير الحائط القبلى والمحراب . وبناؤه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر . ولو كمل لم يكن له مثل فى البلاد . وأراد السلطان محمد إتمامه وبعث عُرَفاء البناء ليقـدروا النفقة فيه ، فزعموا أنه ينفق فى إتمامه خمسة وثلاثون لكا [٤] ، فترك ذلك استكثارا له ، وأخبرنى بعض خواصه أنه لم يتركه استكثارا ، لكنه تشاءم به ، لمـا كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه .

---

(١) المراد رأسها .

(٢) جمع تفاحة أى ما يشبه التفاح فى الاستدارة . ولم نر هذا الجمع فى مراجعنا .

(٣) مات .

(٤) تقدم الكلام عليه فى ص ٦

ذكر الحوضين العظيمين بخارجها

وبخارج دهلى الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين لَلْمِش . ومنه يشرب أهل المدينة وهو بالقرب من مصلاّها . وماؤه يجتمع من ماء المطر . وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله ، والجهة الغربية منه من ناحية المصلَّى مبنية بالحجارة ، مصنوعة أمثال الدكاكين ، بعضها أعلى من بعض . وتحت كل دكان دَرَج ينزل عليها إلى الماء ، وبجانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين . وفى وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة ، مجعولة طبقتين ، فإذا كثر الماء فى الحوض لم يكن سبيل إليها إلا فى القوارب ، فإذا قل الماء دخل إليها الناس . وفى داخلها مسجد . وفى أكثر الأوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون إلى الله المتوكلون عليه . وإذا جف الماء فى جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقِثّاء والبطيخ الأخضر والأصفر ، وهو شديد الحلاوة صغير الجِرْم . وفيما بين دهلى ودار الخلافة حوض الخاصّ[1] ، وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين ، وعلى جوانبه نحو أربعين قبة . ويسكن حوله أهل الطرب . وموضعهم يسمى طرب آباد . ولهم سوق هنالك من أعظم الأسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة . وأخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح فى شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات . ويؤم بهن الأئمة . وعددهن كثير ، وكذلك الرجال المغنون . ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب فى عُرْس الأمير سيف الدين غَدَا بن مُهَنَّا ، ولكل واحد منهم مصلى تحت ركبته ، فإذا سمع الأذان قام فتوضأ وصلى .

(١) فى الترجمة الفرنسية أن المقصود (بحوض الخاص) الحوض الملكى .

ذكر بعض مزاراتها

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بَخْتِيار الكَعْكِي ، وهو ظاهر البركة كثير التعظيم . وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكى ، أنه كان إذا أتاه الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القـلة ، أو الذين لهم البنات ولا يجدون ما يجهزونهن به إلى أزواجهن ، يعطى من أتاه منهم كعكة من الذهب أو من الفضة ، حتى عرف من أجل ذلك بالكعكى رحمـه الله . ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكُرْلانِي. ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكَرْمانى ، نسبة إلى كَرْمان . وهو ظاهر البركة ساطع النور . وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثير ، نفع الله تعالى بهم .

ذكر بعض علمائها وصلحائها

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكُبَّا ، وهو من كبار الصالحين . والناس يزعمون أنه ينفق من الكون[1] ، لأنه لا مال له ظاهرا . وهو يطعم الوارد والصادر ، ويعطى الذهب والدراهم والأثواب . وظهرت له كرامات كثيرة واشتهر بها . رأيته مرات كثيرة وحصلت لى بركته . ومنهم الشيخ الصالح العالم عَلاء الدين النِّيلى ، كأنه منسوب إلى نيل مصر ، والله أعلم . كان من أصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البَدَاوُنى . وهو يعظ الناس فى كل يوم جمعة ، فيتوب كثير منهم بين يديه ، ويحلقون رءوسهم ، ويتواجدون[2] ويغشى على بعضهم .

---

(١) يريدون بذلك أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب .

(٢) يظهرون الوجد . والمراد محبة الله تعالى .

حكاية

شاهدته فى بعض الأيام وهو يعظ ، فقرأ القارئ بين يديه : (يأيها النــاس اتقوا ربكم إنّ زلزلة الساعة شئ عظيم ، يوم ترونها تَذْهَلُ كل مرضعة عمـا ارضعت وتضع كل ذاتِ حَمْلٍ حملها ، وترى الناس سُكَارى وماهم بِسكارى ، ولكنّ عذاب الله شديد) ، ثم كررها الفقيه علاء الدين ، فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة ، فأعاد الشيخ الآية فصاح الفقير ثانية ، ووقع ميتا . وكنت فيمن صلّى عليه وحضر جنازته . ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكُهْرَانى ، وكان يصوم الدهر ويقوم الليل . وتجرّد عن الدنيا جميعا ونبذها . ولباسه عباءة . ويزوره السلطان وأهل الدولة . وربما احتجب عنهم . فرغب السلطان منه أن يُقْطعه قرى يطعم منها الفقراء والواردين ، فأبى ذلك . وزاره يوما وأتى إليــه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها . وذكروا أنه لا يفطر إلا بعد ثلاث ، وأنه قيل له فى ذلك ، فقال : لا أفطر حتى أُضْطَرّ فتحِل لى الميتة . ومنهم الإمام الصالح العالم العابد الورع الخاشع ، فريد دهره ووحيــد عصره ، كمال الدين عبد الله الغارى ، نسبة إلى غار كان يسكنه خارج دِهْلى ، بِمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البَذَاوُنى . زرته بهذا الغار ثلاث مرات .

كرامة له

كان لى غلام فأَبَق منى . وألفيته بيد رجل من الترك ، فذهبت إلى انتزاعه من يده ، فقال لى الشيخ : إن هذا الغلام لا يصلح لك فلا تأخذه . وكان التركى راغبا فى المصالحة ، فصالحته بمائة دينار أخذتها منه وتركته له . فلمـا

كان بعد ستة أشهر قتَل سيده، وأُتِى به إلى السلطان ، فأمر بتسليمه لأولاد سيده فقتلوه . ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت إليه ولازمته وتركت الدنيا ، ووهبت جميع ما كان عندى للفقراء والمساكين ، وأقمت عنده مدة . فكنت أراه يواصل[1] عشرة أيام وعشرين يوما ، ويقوم أكثر الليل ، ولم أزل معه حتى بعث[2] عنى السلطان ، ونشبْتُ فى الدنيا ثانية . والله تعالى يختم بالخير . وسأذكر ذلك فيما بعد ، إن شاء الله تعالى ، وكيفية رجوعى إلى الدنيا .

ذكر فتح دِهْلى ومن تداولها من الملوك

حدثنى الفقيه الإمام العلامة قاضى القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد ابن البرهان الغَزْنَوى ، الملقب بصدر الجهان : أنّ مدينة دهلى افتتحت من أيدى الكفار سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وقد قرأت أنا ذلك مكتوبا على محراب الجامع الأعظم بها . وأخبرنى أيضا أنها افتتحت على يد الأمير قطب الدين أَيْبَك ، وهو أحد مماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سَام الغَورى ملك غَزْنة وخراسان ، المتغلب على ملك إبراهيم ابن السلطان الغازى محمود بن سُبُكْتُكِين الذى ابتدأ فتح الهند . وكان السلطان شهاب الدين بعث الأمير قطب الدين بعسكر عظيم ، ففتح الله عليه مدينة لاَهُور ، وسكنها وعظم شأنه . وسُعِى به إلى السلطان ، وألقى إليه جلساؤه أنه يريد الانفراد بملك الهند ، وأنه قد عصى وخالف . وبلغ هذا الخبر قطب الدين فبادر بنفسه وقدِم على غَزْنة ليلا ، ودخل على السلطان ، ولا علم عند الذين وشوا به إليه . فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره وأقعد أَيْبَك

(1) يتابع الصوم . (2) يريد أرسل فى طلبى . وهو تعبير للمؤلف درج عليه وقد أصلحناه فى مواضع كثيرة .

تحت السرير بحيث لا يظهر . وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به . فلما استقر بهم الجلوس سألهم السلطان عن شأن أَيْبَك ، فذكروا له أنه عصى وخالف . وقالوا : قد صحّ عندنا أنه ادّعى الملك لنفسه ، فضرب السلطان سريره برجله وصفق بيديه ، وقال: يا أيبك ، قال: لبيك ، وخرج عليهم ، فَسُقِط فى أيديهم ، وفزعوا إلى تقبيل الأرض . فقال لهم السلطان : قد غفرت لكم هذه الزلة ، وإياكم والعودة إلى الكلام فى أيبك . وأمره أن يعود إلى بلاد الهند ، فعاد إليها وفتح مدينة دِهْلى وسواها . واستقر بها الإسلام إلى هذا العهد ، وأقام قطب الدين بها إلى أن توفى .

ذكر السلطان شمس الدين لَلْمِش

وهو أول من ولى الملك بمدينة دهلى مستقلا به . وكان قبل تملكه مملوكا للأمير قطب الدين أَيْبَك وصاحب عسكره نائبا عنه . فلما مات قطب الدين استبد بالملك وأخذ الناس بالبيعة ، فأتاه الفقهاء يَقْدُمهم قاضى القضاة إذ ذاك وجيه الدين الكاسانى . فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه ، وقعد القاضى إلى جانبه على العادة ، وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه فيه ، فرفع طرف البساط الذى هو قاعد عليه ، وأخرج لهم عَقْدا يتضمن عِتْقه ، فقرأه القاضى والفقهاء وبايعوه جميعا . واستقل بالملك وكانت مدته عشرين سنة . وكان عادلا صالحا فاضلا . ومن مآثره أنه اشتد فى رد المظالم وإنصاف المظلومين ، وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا ، وأهل الهند جميعا يلبسون البياض . فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ نظر فى قضيته ، وأنصفه ممن ظلمه . ثم إنه أعيا فى ذلك . فقال : إن بعض الناس تجرى عليهم المظالم بالليل وأريد تعجيل إنصافهم . فجعل على

باب قصره أسدين مصورين من الرُّخام ، موضوعين على برجين هنالك . وفى عنقيهما سلسلتان من الحديد فيهما جَرَس كبير . فكان المظلوم يأتى ليلا فيحرك الجرس ، فيسمعه السلطان وينظر فى أمره للحين وينصفه . ولما توفى السلطان شمس الدين خلّف من الأولاد الذكور ثلاثة ، وهم ركن الدين الوالى بعده ، ومُعِز الدين وناصر الدين ، وبنتا تسمى رَضِيَّة ، هى شقيقة معز الدين منهم ، فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه .

ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين

ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه ، افتتح أمره بالتعدى على أخيه معز الدين فقتله . وكانت رضية شقيقته ، فأنكرت ذلك عليه فأراد قتلها . فلما كان فى بعض أيام الجُمَع ، خرج ركن الدين إلى الصلاة ، فصعدت رضيَّة على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم ، وهو يسمى (دولة خانة) ولبست عليها ثياب المظلومين . وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح ، وقالت لهم : إن أخى قتل أخاه وهو يريد قتلى معه ، وذكرتهم بأيام أبيها ، وفعله الخير ، وإحسانه إليهم ، فثاروا عند ذلك إلى السلطان ركن الدين وهو فى المسجد ، فقبضوا عليه وأتوا به إليها . فقالت لهم : القاتل يقتل . فقتلوه قصاصا بأخيه . وكان أخوهما ناصر الدين صغيرا ، فاتفق الناس على تولية رضيّة .

ذكر السلطانة رَضِيَّة

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك فولوها . واستقلت بالملك أربع سنين . وكانت تركب بالقوس والتركش[1] والقُرْبان[2] ، كما يركب الرجال . ولا تستر وجهها . ثم إنها اتُّهِمت بعبد لها من الحبشة . فاتفق الناس على خلعها و تزويجها ، فخلعت وزوجت من بعض أقاربها . وولى الملك أخوها ناصر الدين .

ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين

ولما خلعت رضية ولِيَ ناصِر الدين أخوها الأصغر واستقل بالملك مدة . ثم إن رضية وزوجها خالفا عليه ، وركبا في مماليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد ، وتَهيَّأا لقتاله . وخرج ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث الدين بلَبَن ، متولى الملك بعده ، فوقع اللقاء وانهزم عسكر رضية ، وفرت بنفسها ، فأدركها الجوع وأجهدها الإعياء ، فقصدت حرّاثا رأته يَحْرُث الأرض ، فطلبت منه ما تأكله ، فأعطاها كسرة خبز فأكلتها ، وغلب عليها النوم ، وكانت فى زِىّ الرجال . فلما نامت نظر إليها الحراث وهى نائمة ، فرأى تحت ثيابها قَباء مرصّعا ، فعلم أنها امرأة ، فقتلها وسلبها ، وطرد

(١) كلمة هندية فيما يظهر . ومعناها كنانة السهام .

(٢) من معانى (القُرْبان) جليس الملك الخاص . والمعنى عليه ظاهر .

فرسها ودفنها فى فَدَّانه(١) ، وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق لبيعها ، فأنكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشِّحْنة وهو الحاكم ، فضربه فأقر بقتلها ، ودلَّهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها ، ودفنت هنالك وبنى عليها قبة . وقبرها الآن يزار ويتبرك به . وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجُون(٢) ، على مسافة فرسخ واحد من المدينة. واستقل ناصر الدين بالملك بعدها ، واستقام له الأمر عشرين سنة . وكان ملكا صالحا ينسخ نُسَخا من الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها . وقد وَقَفَنى القاضى كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة . ثم إن نائبه غياث الدين بَلَبَن قتله وملك بعده . ولبلبن هذا خبر ظريف نذكره .

ذكر السلطان غياث الدين بَلَبَن

ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالملك بعده عشرين سنة . وقد كان قبلها نائبا له عشرين سنة أخرى . وكان من خيار السلاطين ، عادلا حليما فاضلا . ومن مكارمه أنه بنى دارا وسماها دار الأمن : فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه ، ومن دخلها خائفا أمن ، ومن دخلها وقد قتل أحدا أرضى عنه أولياء المقتول ، ومن دخلها من ذوى الجنايات أرضى أيضا من يطلبه . وبتلك الدار دفن لما مات . وقد زرت قبره .

---

(١) يريد الأرض التى يزرعها . وهو غلط ، لأن الفدان الثور أو الثوران يقرن للحرث بينهما ، أو هو آلة الثورين .

(٢) نهر جُمْنَا .

حكاية (١)

يذكر أن أحد الفقراء ببخارى رأى بها بلبن هذا، وكان قصيرا حقيرا دميما. فقال له : يا تركك، وهي لفظة تعرب عن الاحتقار. فقال له : لبيك يا خوند(٢)، فأعجبه كلامه. فقال له اشتر لى من هذا الرمان، وأشار إلى رمان يباع بالسوق، فقال نعم، وأخرج فليسات لم يكن عنده سواها، واشترى له من ذلك الرمان. فلما أخذها الفقير قال له : وهبنا لك ملك الهند. فقبل بلبن يد نفسه، وقال : قبلت ورضيت، واستقر ذلك في ضميره. واتفق أن بعث السلطان شمس الدين للمش تاجرا يشترى له المماليك بسمرقند وبخارى وترمذ. فاشترى مائة مملوك كان من جملتهم بلبن. فلما دخل بالمماليك على السلطان أعجبه جميعهم إلا بلبن، لما ذكرناه من دمامته. فقال : لا أقبل هذا. فقال له بلبن : يا خوند عالم، لمن اشتريت هؤلاء المماليك ؟ فضحك منه وقال : اشتريتهم لنفسى. فقال له : اشترنى أنا لله عز وجل. فقال نعم وقبله. وجعله في جملة المماليك. فاحتقر شأنه وجعل في السقائين. وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين : إن أحد مماليكك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولى عليه. ولا يزالون يلقون له ذلك وهو لا يلتفت إلى أقوالهم، لصلاحه وعدله، إلى أن ذكروا ذلك للخاتون الكبرى أم أولاده، فذكرت له ذلك وأثر في نفسه. وبحث عن المنجمين، فقال : أتعرفون المملوك الذى يأخذ ملك ابنى إذا رأيتموه ؟ فقالوا له : نعم، عندنا علامة نعرفه بها. فأمر السلطان بعرض مماليكه وجلس لذلك، فعرضوا بين يديه طبقة طبقة، والمنجمون ينظرون إليهم ويقولون : لم نره بعد. وحان وقت الزوال. فقال السقاءون

---

(١) في هذه الحكاية كثير مما لا يمكن تصديقه.

(٢) يا سيدى.

بعضهم لبعض : إنا قد جعنا فلنجمع شيئا من الدراهم ، ونبعث أحدنا إلى السوق ليشترى لنا ما نأكله ، فجمعوا الدراهم و بعثوا بها بَلَبَن ، إذ لم يكن فيهم أحقر منه . فلم يجد بالسوق ما أرادوه . فتوجه إلى سوق أخرى وأبطأ . وجاءت نو بة السقَّائين فى العرض ، وهو لم يأت بعد ، فأخذوا زِقَّه وماعونه وجعلوه على كاهل صبى ، وعرضوه على أنه بلبن . فلما نودى باسمه جاز الصبى بين أيديهم ، وانقضى العرض ، ولم ير المنجمون الصورة التى تطلبوها . وجاء بلبن بعد تمام العرض ، لما أراد الله من إنفاذ قضائه .

ثم إنه ظهرت نجابته بجعل أمير السقائين . ثم صار من جملة الأجناد ، ثم من الأمراء . ثم تزوج السلطان ناصر الدين بنته قبل أن يلى الملك . فلما وَلِىَ الملك جعله نائبا عنه مدة عشرين سنة . ثم قتله بَلَبَن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى ، كما تقدم ذكر ذلك . وكان للسلطان بلبن ولدان ، أحدهما الخان الشهيد ولىّ عهده ، وكان واليا لأبيه ببلاد السند ، ساكنا بمدينة مُلْتان ، وقتل فى حرب له مع التتر . وترك ولدين هما كِى قُبَاد وكِى خُسْرُو . وولد السلطان بلبن الثانى يسمى ناصر الدين . وكان واليا لأبيه ببلاد اللَّكْنُوتى وَبَنْجَالة . فلما استُشْهِد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد إلى ولده كِى خُسْرُو ، وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين . وكان لناصر الدين أيضا ولد ساكن بحضرة دِهْلى مع جده ، يسمى معز الدين . وهو الذى تولى الملك بعد جده ، فى خبر عجيب نذكره ، وأبوه إذ ذاك حى كما ذكرناه .

ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَبَن

ولما توفى السلطان غياث الدين ليلا ، وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اَللَّكْنَوَتِى ، وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كِى خُسْرُو ، على حسب ما قصصناه ، كان ملك الأمراء نائب السلطان غياث الدين عدوا لكى خسرو ، فأدار عليه حيلة تمت له وهى : أنه كتب بَيْعَة دلّس فيها على خطوط الأمراء الكبار ، بأنهم بايعوا معز الدين حفيد السلطان بَلَبَن ، ودخل على كِى خُسْرُو كالمتنصح له . فقال له : إن الأمراء قد بايعوا ابن عمك وأخاف عليك منهم . فقال له كِى خُسْرُو : فما الحيلة؟ قال : انج بنفسك هاربا إلى بلاد السند. فقال : وكيف الخروج والأبواب مسدودة؟ فقال له : إن المفاتيح بيدى وأنا أفتح لك. فشكره على ذلك وقبّل يده . فقال اركب الآن . فركب فى خاصته ومماليكه. وفتح له الباب وأخرجه وسدّ فى إثْره . واستأذن على معز الدين فبايعه. فقال : كيف لى بذلك وولاية العهد لابن عمى؟ فأعلمه بما أدار عليه من الحيلة وبإخراجه. فشكره على ذلك. ومضى به إلى دار الملك ، وبعث إلى الأمراء والخواص فبايعوا ليلا. فلما أصبح بايعه سائر الناس. واستقام له الملك ، وكان أبوه حيا ببلاد بَنْجَالَة واَللَّكْنَوَتِى فاتصل به الخبر . فقال : أنا وارث الملك ، وكيف يلى ابنى الملك ويستقل به وأنا بقيد الحياة؟ فتجهز فى جيوشه قاصدا حضرة دِهْلى. وتجهز ولده فى جيوشه أيضا قاصدا لمدافعته عنها. فتوافيا معا بمدينة كَرَا ، وهى على ساحل نهر الكَنْك الذى تحج الهنود إليه . فنزل ناصر الدين على شاطئه مما يلى كرا ، ونزل ولده السلطان معز الدين مما يلى الجهة الأخرى. والنهر بينهما . وعزما على القتال ثم إن الله تعالى أراد حقن دماء المسلمين ، فألقى فى قلب

ناصر الدين الرحمة لابنه. وقال : إذا ملك ولدى فذلك شرف، وأنا أحق أن أرغب فى ذلك . وألقى فى قلب السلطان معز الدين الضراعة لأبيه . فركب كل واحد منهما فى مركب منفردا عن جيوشه ، والتقيا فى وسط النهر . فقبَّل السلطان رجل أبيه واعتذرله . فقال له أبوه : قد وهبت لك ملكى ووليتك. وبايعه وأراد الرجوع لبلاده . فقال له ابنه : لا بد لك من الوصول إلى بلادى. فمضى معه إلى دِهْلى ودخل القصر ، وأقعده أبوه على سرير الملك ، ووقف بين يديه . وسُمِّى ذلك اللقاء الذى كان بينهما بالنهر لقاء السعْدَيْن ، لما كان فيه من حَقْن الدماء وتواهُبِ المُلْك والتجافى عن المنازعة . وأكثرت الشعراء فى ذلك . وعاد ناصر الدين إلى بلاده فمات بها بعد سنين ، وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهَادُور الذى أسره السلطان تُغْلُق ، وأطلقه ابنه محمد بعد وفاته . واستقام الملك لمعز الدين أربعة أعوام بعد ذلك . وكانت كالأعياد. رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورُخْص أسعارها ، وجود معز الدين وكرمه . وهو الذى بنى الصومعة بالصحن الشمالى من جامع دهلى . ولا نظير لها فى البلاد . وحكى لى بعض أهل الهند أن معز الدين أعترته علة أعجز الأطباء دواؤها . ويَبِس أحد شقيه ، فقام عليه نائبه جلال الدين فيروز شاه الخَلْجى .

ذكر السلطان جلال الدين

ولما اعترى السلطان معزالدين ما ذكرناه من يُبْس أحد شِقيه ، خالف عليه نائبه جلال الدين ، وخرج إلى ظاهر المدينه ، فوقف على تل هنا لك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشَانى ، فبعث معز الدين الأمراء لقتاله ، فكان كل من يبعثه منهم يبايع جلال الدين ويدخل فى جملته . ثم دخل المدينة وحصره فى القصر

ثلاثة أيام . وحدثني من شاهد ذلك أن السلطان معز الدين أصابه الجوع في تلك الأيام، فلم يجد ما يأكله، فبعث إليه أحد الشرفاء من جيرانه ما أقام أَوَدَه . ودُخِل عليه القصر فقتل. وولى بعده جلال الدين . وكان حليما فاضلا وحلمه أداه إلى القتل كما سنذكره .

واستقام له الملك سنين . وبنى القصر المعروف باسمه ، وهو الذى أعطاه السلطان محمد صِهْرَه الأمير غدا بن مُهَنّاً لما زوجه بأخته . وسنذكر ذلك . وكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين. وابن أخ اسمه علاء الدين، زوجه بابنته وولاه مدينة كرا ومانِكْبُور ونواحيها . وهي من أخصب بلاد الهند، كثيرة القمح والأرز والسكر . وتصنع بها الثياب الرفيعة ، ومنها تجلب إلى دهلي. وبينهما مسيرة ثمانية عشر يوما . وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه، فلا يزال يشكوها إلى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينهما بسببها . وكان علاء الدين شهما شجاعا مُظَفَّرا منصورا . وحب المُلْك ثابت في نفسه ، إلا أنه لم يكن له مال إلا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفار . فاتفق أنه ذهب مرة إلى الغزو ببلاد الدُّوَيْقِير ، وتسمى بلاد الكَتَكَة أيضا ، وسنذكرها. وهي كرسي بلاد المالْوَة والمَرْهَتَّة. وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار. فعثرت بعلاء الدين في تلك الغزوة دابة له عند حجر ، فسمع له طنينا ، فأمر بالحفر هنالك فوجد تحته كنزا عظيما، ففرقه في أصحابه. ووصل إلى الدُّوَيْقِير، فأذعن له سلطانها بالطاعة، ومكّنه من المدينة من غير حرب، وأهدى له هدايا عظيمة، فرجع الى مدينة كرا ، ولم يبعث إلى عمه شيئا من الغنائم . فأغرى الناس عمه به ، فبعث إليه فامتنع من الوصول إليه . فقال السلطان جلال الدين: أنا أذهب إليه وآتى به فإنه محل ولدى. فتجهز

فى عساكره ، وطوى المراحل حتى حلّ بساحل مدينة كَرَا ، حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج إلى لقاء أبيه ناصر الدين . وركب النهر للوصول إلى ابن أخيه . وركب ابن أخيه أيضا فى مركب ثان ، عازما على الفتك به. وقال لأصحابه : إذا أنا عانقته فاقتلوه . فلما التقيا وسط النهر عانقه ابن أخيه ، وقتله أصحابه كما أمرهم ، واحتوى على ملكه وعساكره .

ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخَلْجى[1]

ولما قتل عمه استقلّ بالملك ، وفر إليه أكثر عساكر عمه . وعاد بعضهم إلى دِهْلى واجتمعوا على ركن الدين ، وخرج إلى دفاعه ، فهربوا جميعا إلى السلطان علاء الدين ، وفر ركن الدين إلى السِنْد. ودخل علاء الدين دار الملك ، واستقام له الأمر عشرين سنة. وكان من خيار السلاطين. وأهل الهند يثنون عليه كثيرا. وكان يتفقد أمور الرعية بنفسه ، ويسأل عن أسعارهم. ويحضر المحتسب ، وهم يسمونه الرئيس ، فى كل يوم لذلك . ويذكر أنه سأله يوما عن سبب غلاء اللحم ، فأخبره أن ذلك لكثرة المغرَم على البقر ، فأمر برفع ذلك ، وأمر بإحضار التجار وأعطاهم الأموال ، وقال لهم : اشتروا بها البقر والغنم وبيعوها ، ويرتفع ثمنها لبيت المال ، ويكون لكم أجرة على بيعها. ففعلوا ذلك. وفعل مثل هذا فى الأثواب التى يؤتى بها من دولة آباد . وكان إذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر . ويذكر أن السعر ارتفع ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمن عيّنه. فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن ، فأمر ألا يبيع أحد زرعا غير زرع المخزن[2] . وباع للناس ستة أشهر فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس ، فرغبوا فى أن يؤذن لهم فى البيع ، فأُذن لهم على أن يبيعوه بأقل من القيمة الأولى التى امتنعوا من بيعه بها .

---

(١) نسبة إلى خَلْج ، موضع قرب غَزْنة ا هـ ياقوت .

(٢) بيت مال الدولة . وقد استعمل المؤلف هذه الكلمة كثيرا للدلالة على هذا المعنى .

وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا سواهما . وسبب ذلك أنه كان له ابن أخ يسمى سليمان شاه . وكان يحبه و يعظمه . فركب يوما إلى الصيد وهو معه ، وأضمر فى نفسه أن يفعل به ما فعل هو بعمه جلال الدين من الفتك . فلما نزل للغداء رماه بنُشَّابة فصرعه ، وغطاه بعض عبيده بِتُرْس ، وأتى ابن أخيه ليُجْهِز عليه ، فقال له العبيد إنه قد مات فصدقهم . وركب فدخل القصر على الحَـرَم . وأفاق السلطان علاء الدين من غَشْيته . وركب واجتمعت العساكر عليه . وفر ابن أخيه فأدرك وأتى به إليه فقتله . وكان بعد ذلك لا يركب . وكان له من الأولاد خضر خان وشادى خان وأبو بكر خان ومبارك خان ، وهو قطب الدين الذى وَلِىَ الملك ، وشهاب الدين . وكان قطب الدين مُهْتَضَما عنده ناقص الحظ قليل الحُظْوة . وأعطى جميع إخوته المراتب وهى الأعلام والأطبال ، ولم يعطه شيئا . وقال له يوما : لابد أن أعطيك مثل ما أعطيت إخوتك ، فقال له : الله هو الذى يعطينى . فهال أباه هذا الكلام وفزع منه . ثم إن السلطان أصابه المرض الذى مات منه . وكانت زوجته أم ولده خضر خان ، وتسمى ماه حق (والماه القمر بلسانهم) ، لها أخ يسمى سِنْجر . فعاهدت أخاها على تمليك ولدها خضر خان . وعلم بذلك (ملك نائب) أكبر أمراء السلطان . وكان يسمى الألفى . لأن السلطان اشتراه بألف تنكة ، وهى ألفان وخمسمائة من دنانير المغرب . فوشى إلى السلطان بما اتفقوا عليه فقال لخواصه : إذا دخل علىّ سِنْجر فإنى معطيه ثوبا ، فإذا لبسه فأمسكوا بأكمامه واضربوا به الأرض واذبحوه . فلما دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه . وكان خَضْر خان غائبا بموضع يقال له سَنْدَبَت ، على مسيرة يوم من دهلى ، وقد توجه لزيارة شهداء مدفونين لنذر كان عليه أن يمشى تلك المسافه راجلا ، ويدعو لوالده بالراحة . فلما بلغه أن أباه قتل خاله ، حَزِن عليه حزنا شديدا ومزق جيبه . وتلك عادة لأهل الهند ، يفعلونها إذا مات لهم من

يعز عليهم . فبلغ والده ما فعله ، فكره ذلك . فلما دخل عليه عنفه ولامه ، وأمر به فقيدت يداه ورجلاه ، وسلمه (لملك نائب) وأمره أن يذهب به إلى حصن كالِيُور ، وهو حصن منقطع بين كفار الهنود منيع ، على مسيرة عشر من دهلي . وقد سكنته أنا مدة . فلما أوصله إلى هذا الحصن سلمه للكُتْوَال ، وهو أمير الحصن ، وللمفردين وهم الزِماميون[1] . وقال لهم : لا تقولوا هذا ابن السلطان فتكرموه . إنما هو أعدى عدو له . فاحفظوه كما يحفظ العدو . ثم إن المرض اشتد بالسلطان . فقال (لملك نائب) : ابعث من يأتي بابني خضر خان لأوليه العهد . فقال له نعم ، وماطله بذلك ، فمتى سأله عنه ، قال هو ذا يصل ، إلى أن توفى السلطان رحمه الله .

ذكر ابنه شهاب الدين

ولما توفى السلطان علاء الدين أقعد (ملك نائب) ابنه الأصغر شهاب الدين على سرير الملك ، وبايعه الناس . وتغلب (ملك نائب) عليه ، وسَمَل أعين أبي بكر خان وشادي خان ، وبعث بهما إلى كالِيُور ، وأمر بِسَمْل عيني أخيهما خضر خان المسجون هنالك ، وسجنوا . وسجن قطب الدين لكنه لم تُسْمَل عيناه . وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصه ، يسمى أحدهما بشير والآخر بمبشِّر ، فبعثت إليهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين ، وهي بنت السلطان معز الدين ، فذكرتهما بنعمة مولاهما ، وقالت : إن هذا الفتى (نائب ملك) قد فعل في أولادي ما تعلمانه ، وإنه يريد أن يقتل قطب الدين ، فقالا لها : سَتَرَيْنَ ما نفعل . وكانت عادتهما أن يبيتا عند (ملك نائب) ويدخلا عليه بالسلاح . فدخلا عليه تلك الليلة وهو في بيت من

(١) الجند المقيدة أسماؤهم في جرائد الجيش : وهي تسمية اصطلاحية فيما يظهر .

الخشب، ينام فيه أيام المطر فوق سطح القصر . فاتفق أنه أخذ السيف من يد أحدهما فقلبه ورده إليه ، فضربه به المملوك وثنّى عليه صاحبه ، واحتزا رأسه ، وأتيا به إلى مجلس قطب الدين ، فرمياه بين يديه، وأخرجاه فدخل على أخيه شهاب الدين ، وأقام بين يديه أياما كأنه نائب له . ثم عزم على خلعه فخلعه .

ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع إصبعه ، وبعث به إلى كاليور فحبس مع إخوته ؛ واستقام الملك لقطب الدين . ثم إنه بعد ذلك خرج من حضرة دهلى إلى دولة أباد ، وهى على مسيرة أربعين يوما منها . والطريق بينهما تَكْنُفُه الأشجار من الصَفْصاف وسواه . فكأن الماشى به فى بستان . وفى كل ميل منه ثلاث (داوات) وهى البريد . وقد ذكرنا ترتيبه . وفى كل (داوة) جميع ما يحتاج المسافر إليه . فكأنه يمشى فى سوق مسيرة الأربعين يوما . وكذلك يتصل الطريق إلى بلاد التِلِنْك والمَعْبَر مسيرة ستة أشهر . وفى كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر . فلا يفتقر الفقير إلى حمل زاد فى ذلك الطريق . ولما خرج السلطان قطب الدين فى هذه الحركة ، اتفق بعض الأمراء على الخلاف عليه ، وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون ، وسنه نحو عشرة أعوام ، وكان مع السلطان ، فبلغ السلطان ذلك ، فأخذ ابن أخيه هذا وأمسك برجليه وضرب برأسه الحجارة حتى نَثَرَ دماغه. وبعث أحد الأمراء ويسمى (ملك شاه) إلى كالِيُور حيث ابو هذا الولد وأعمامه ، وأمره بقتلهم جميعا . فحدثنى القاضى

زين الدين مبارك قاضي هذا الحصن ، قال : قدم علينا ملك شاه ضَحْوَة يوم ، وكنت عند خضر خان بمجلسه ، فلما سمع بقدومه خاف وتغير لونه . ودخل عليه الأمير . فقال له : فيم جئت؟ قال : فى حاجة خَوَنْد عَالَمَ . فقال له : نفسى سالمة ؟ فقال نعم . وخرج عنه واستحضر الكُتُوَال وهو صاحب الحصن ، والمفردين وهم الزماميون ، وكانوا ثلاثمائة رجل ، وأرسل إلىّ و إلى العدول ، واستظهر بأمر السلطان فقرءوه ، وأتوا إلى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه ، وهو متثبّت غير جَزِع . ثم ضربوا عنق أبى بكر خان وشادى خان . ولما توا ليضربوا عنق خضر خان فزِع وَذَهَل . وكانت أمه معه فسدوا الباب دونها وقتلوه . وسحبوهم جميعا فى حفرة بدون تكفين ولا غسل . وأخرجوا بعد سنين فدفنوا بمقابر آبائهم . وعاشت أم خضر خان مدة . ورأيتها بمكة سنة ثمان وعشرين . وحصن كَالِيُور هذا فى رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر لايحاذيه جبل . وبداخله جِباب الماء ، ونحو عشرين بئرا عليها الأسوار ، مضافة إلى الحصن منصوبا عليها المجانيق والرَّعَّادات . ويُصْعَد إلى الحصن فى طريق متسعة يصعدها الفيل والفرس . وعند باب الحصن صورة فيل منحوت من الحجر وعليه صورة فَيَّال . وإذا رآه الانسان على البعد لم يشك أنه فيل حقيقة . وفى أسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوته ، مساجدها ودورها ، ولا خشب فيها ما عدا الأبواب . وكذلك دار الملك بها ، والقِباب والمجالس . وأكثر سُوقتها كفار . وفيها ستمائة فارس من جيش السلطان ، لا يزالون فى جهاد لأنها بين الكفار .

ولما قتل قطب الدين أخوته واستقل بالملك ، فلم يبق من ينازعه ولا من

يخالف عليه ، بعث الله تعالى عليه خاصته الحظىّ لديه ، أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنده ، ناصر الدين خُسْرُو خان ، ففتك به وقتله واستقل بملكه ، إلا أن مدته لم تطل فى الملك . فبعث الله عليه أيضـا من قتله بعد خلعه ، وهو السلطان تُغْلُق ، كما نشرح ذلك كله مستوفى ، إن شاء الله تعالى ، إثر هذا ونسطره .

ذكر السلطان خُسْرُو خان ناصر الدين

وكان خُسْرُوخان من أكبر أمراء قطب الدين . وهو شجاع حسن الصورة . وكان فتح بلاد جَنْديرى و بلاد المعبر . وهى من أخصب بلاد الهند ، و بينهما وبين دِهْلى مسيرة ستة أشهر . وكان قطب الدين يحبه حبا شديدا و يؤثره ، فجر ذلك حتفه على يديه . وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضى خان صدر الجهان ، وهو أكبر أمرائه ، وكِليت دار ، وهو صاحب مفاتيح القصر . وعادته أن يبيت كلّ ليلة على باب السلطان ومعه أهل النَوْبة . وهم ألف رجل ، يبيتون مُناوبة بين أربع ليال ، و يكونون صَفَّين فيما بين أبواب القصر . وسلاح كل واحد منهم بين يديه ، فلا يدخل أحد إلا فيما بين سِماطيْهم . و إذا تم الليل أتى أهل نوبة النهار . ولأهل النوبة أمراء وكتّاب يتطوفون عليهم و يكتبون من غاب منهم أو حضر .

وكان معلم السلطان قاضى خان يكره أفعال خُسْرُو خان ، و يسوءه ما يراه من إيثاره لكفار الهنود وميله إليهم . وأصله منهم . ولا يزال يلق ذلك إلى السلطان فلا يسمع منه ، و يقول له : دعه وما يريد ، لمـا أراد الله من قتله على يديه . فلما كان فى بعض الأيام قال خسرو خان للسلطان : إن جماعة من الهنـود يريدون أن يُسْلموا . ومن عادتهم بتلك البـلاد أن

الهندى إذا أراد الإسلام أدخل إلى السلطان ، فيكسوه كُسْوة حسنة ، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره . فقال له السلطان : ائتنى بهم ، فقال : إنهم يستحيون أن يدخلوا إليك نهارا لأجل أقربائهم وأهل ماهم . فقال له ائتنى بهم ليلا . فجمع خُسْرُو خان جماعة من شجعان الهنود وكبرائهم ، فيهم أخوه خان خانان ، وذلك أوان الحر ، والسلطان ينام فوق سطح القصر ، ولا يكون عنده فى ذلك الوقت إلا بعض الفتيان . فلما دخلوا الأبواب الأربعة وهم شاكون فى السلاح ، ووصلوا إلى الباب الخامس وعليه قاضى خان ، أنكر شأنهم وأحسّ الشر ، فمنعهم من الدخول ، وقال : لا بد أن أسمع من خَوَنْد عَالَم بنفسى الإذن فى دخولهم ، وحينئذ يدخلون . فلما منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه ، وعلت الضجة بالباب . فقال السلطان : ما هذا ؟ فقال خسرو خان : هم الهنود الذين أتوا ليُسلِموا فمنعهم قاضى خان من الدخول . وزاد الضجيج ، فخاف السلطان ، وقام يريد الدخول إلى القصر ، وكان بابه مسدودا والفتيان عنده ، فقرع الباب ، واحتضنه خُسْرُو خان من خلفه ، وكان السلطان أقوى منه فصرعه . ودخل الهنود فقال لهم خسرو خان : هو ذا فوق فاقتلوه . فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر إلى صحنه . وأرسل خسرو خان من حينه إلى الأمراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفق . فكلما أدخلت طائفة وجدوه على سرير الملك فبايعوه . ولما أصبح أعلن أمره ، وكتب المراسم وهى الأوامر إلى جميع البلاد ، وبعث لكل أمير خِلْعة ، فأطاعوه جميعا وأذعنوا ، إلا تُغْلُق شاه والد السلطان محمد شاه ، وكان إذ ذاك أميرا بِدِبَال بُور من بلاد السند ، فلما وصلته خِلْعة خسرو خان طرحها بالأرض وجلس فوقها ، وبعث إليه أخاه خان خانان فهزمه . ثم آل أمره إلى أن قتله ، كما سنشرحه فى أخبار تُغْلُق .

ولما ملك خسرو خان آثر الهنود، وأظهر أمورا منكرة ، منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود ، فإنهم لا يجيزون ذبحها . وجزاء من ذبحها عندهم أن يخاط فى جلدها ويحرق . وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة وللاستشفاء إذا مرضوا . ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها . وكان ذلك مما بَغَّض خسرو خان إلى المسلمين وأمالهم عنه إلى تغلق ، فلم تطل مدة ولايته ، ولا امتدت أيام ملكه ، كما سنذكره .

ذكر السلطان غياث الدين تُغْلُق شاه

حدثنى الشيخ الإمام الصالح العالم العامل العابد ، ركن الدين ابن الشيخ الصالح شمس الدين أبى عبد الله ، ابن الولى الإمام العالم العابد بهاء الدين زكريا القُرَشى المُلْتانى بزاويته منها ، أن السلطان تغلق كان من الأتراك المعروفين بالقَرَوْنة ، وهم قاطنون بالجبال التى بين بلاد السند والترك . وكان ضعيف الحال فقدم بلاد السند فى خدمة بعض التجار ، وكان كُلْوا نيّاله ، والكُلْوانىّ هو راعى الخيل[1] . وذلك فى أيام السلطان علاء الدين ، وأمير السند إذ ذاك أخوه أولُوخان . فخدمه تُغْلُق وتعلّق بجانبه، فرتّبه فى (البِيَادَة) وهم الرجالة . ثم ظهرت نجابته فأُثبت فى الفرسان . ثم كان من الأمراء الصغار . وجعله أولوخان أمير خيله . ثم كان بعد من الأمراء الكبار . وسمى بالملك الغازى. ورأيت مكتوبا على مقصورة الجامع بمُلْتان ، وهو الذى أمر بعملها : إنى قاتلت التتر تسعا وعشرين مرة فهزمتهم ، فحينئذ سميت بالملك الغازى .

ولما وَلِىَ قطب الدين ولّاه مدينة (دِبال بُور) وعِمالتها ، وجعل ولده الذى هو الآن سلطان الهند أمير خيله . وكان يسمى جَوْنَة . ولما ملك سمى بمحمدشاه. ثم لما قتل قطب الدين وَوَلِىَ خُسْرُوخان أبقاه على إمارة الخيل.

(١) أى بلسانهم .

فلما أراد تُغْلُق الخلاف ، كان له ثلثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم فى القتال . وكتب إلى كَشْلُوخان وهو يومئذ بمُلْتان ، و بينها و بين (دِبال بُور) ثلاثة أيام ، يطلب منه القيام بنُصْرته ، و يذكّره نعمة قطب الدين ، و يحرّضه على طلب ثأره . وكان ولد كَشْلُوخان بدهلى ، فكتب إلى تُغْلُق : إنه لو كان ولدى عندى لأعنتك على ما تريد . فكتب تغلق إلى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه ، و يأمره أن يَفِرّ إليه و يستصحب معه ولد كَشْلُوخان . فأدار ولده الحيلة على خُسْرُوخان وتمت له كما أراد . فقال له : إن الخيل قد سَمِنت وَبَدُنَتْ ، وهى تحتاج إلى التضمير ، فأذن له فى تضميرها . فكان يركب كل يوم فى أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث . واستمر إلى أربع ساعات ، إلى أن غاب يوما إلى وقت الزوال ، وذلك وقت طعامهم . فأمر السلطان بالركوب فى طلبه فلم يجد له خبرا . ولحق بأبيـه واستصحب معـه ولد كَشْلُوخان . وحينئذ أظهر تُغْلُق الخلاف وجمع العساكر ، وخرج معه كَشْلُوخان فى أصحابه . وبعث السلطان أخاه خان خانان لقتالها ، فهزماه شر هزيمة ، وفر عسكره إليهما . ورجع خان خانان إلى أخيه ، وقُتل أصحابه وأُخِذت خزائنه وأمواله .

وقصد تغلق حضرة دهلى ، وخرج إليه خسرو خان فى عساكره ، ونزل بخارج دهلى ، بموضع يعرف بأَصْيا أباد ، ومعنى ذلك : رحى الريح . وأمر بالخزائن ففتحت وأعطى الأموال بالبِدَر لا بوزن ولا عدّ . ووقع اللقاء بينه و بين تغلق ، وقاتلت الهنود أشد قتال ، وانهزمت عساكر تُغْلُق ، ونهبت مَحَلّته ، وانفرد فى أصحابه الأقدمين الثلثمائة . فقال لهم : إلى أين الفرار ، حيثما أُدْرِكْنا قُتِلنا ؟ واشتغلت عساكر خسرو خان بالنهب ، وتفرقوا عنه ولم يبق معه إلا قليل . فقصد تغلق وأصحابه موقفه(١) ، فحَمِىَ القتال بينهم وبين الهنود ، وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معـه أحد . وهرب فنزل عن

(١) أى موقف خُسْرُوخان .

فرسه ، ورمى بثيابه وسلاحه ، وبقى فى قميص واحد . وأرسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند . ودخل بستانا هنالك . واجتمع الناس على تُغْلُق وقصد المدينة ، فأتاه الكُتْوال بالمفاتيح ، ودخل القصر ونزل بناحية منه ، وقال لكَشْلُوخان : أنت تكون السلطان . فقال كَشْلُوخان : بل أنت تكون السلطان . وتنازعا فقال له كَشْلُوخان : فإن أبيت أن تكون سلطانا يتولّ ولدك . فكره هذا وقبل حينئذ . وقعد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام . ولما كان بعد ثلاث اشتد الجوع بخُسْرُوخان ، وهو مختف بالبستان . فخرج وطاف به ، فوجد القيِّم فسأله طعاما ، فلم يكن عنده ، فأعطاه خاتمه وقال : اذهب فارهنه فى طعام . فلما ذهب بالخاتم إلى السوق ، أنكر الناس أمره ، ورفعوه إلى الشِّحْنة وهو الحاكم ، فأدخله على السلطان تُغْلُق فأعلمه بمن دفع إليه الخاتم ، فبعث ولده محمدا ليأتى به ، فقبض عليه وأتاه به راكبا على (تَتُّو) ، وهو البِرْذَوْن . فلما مَثَل بين يديه ، قال له : إنى جائع فأتنى بالطعام ، فأمر له بالشربة[1] ثم بالطعام ثم بالفُقّاع ثم بالتّانْبُول . فلما أكل قام قائما ، وقال : يا تغلق افعل معى فعل الملوك ولا تفضحنى . فقال له : لك ذلك . وأمر به فضربت رقبته . وذلك فى الموضع الذى قَتَل هو به قُطْبَ الدين ، ورمى برأسه وجسده من أعلى السطح ، كما فعل هو برأس قطب الدين . وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه . ودفن فى مقبرته . واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام ، وكان عادلا فاضلا .

ذكر ما رامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك

ولما استقر تُغْلُق بدار الملك بعث ولده ليفتح بلاد التِلِنْك ، وهى على مسيرة ثلاثة أشهر من مدينة دهلى . وبعث معه عسكرا عظيما فيه كبار الأمراء : مثل الملك تَمُور ومثل الملك تِكِين ومثل الملك كافور المُهُرْدار ومثل الملك بَيْرَم

(١) شراب حلو كما يفهم مما تقدم .

وسـواهم . فلما بلغ أرض التِلِنْك أراد المخالفة . وكان له نديم من الفقهاء الشعراء، يعرف بِعُبَيْد ، فأمره أن يلق إلى الناس أن السلطان تغلق توفى . وظنه أن الناس يبايعونه مسرعين إذا سمعوا ذلك . فلما ألقى ذلك إلى الناس أنكره الأمراء، وضرب كل واحد منهم طَبْله وخالف . فلم يبق معه من أحد . وأرادوا قتله ، فمنعهم منه ملك تمور وقام دونه . ففر إلى أبيه فى عشرة من الفرسان سماهم (ياران موافق)، ومعناه الأصحاب الموافقون. فأعطاه أبوه الأموال والعساكر وأمره بالعود إلى تِلِنْك فعاد إليها. وعلم أبوه بما كان أراد، فقتل الفقيه عبيدا ، وأمر بالملك كافور المهردار فضرب له عمود فى الأرض محدود الطرف، ورُكِز فى عنقه حتى خرج من جنبه طرفه، ورأسه إلى أسفل. وترك على تلك الحـال . وفر من بق من الأمراء إلى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَبَن ، واستقروا عنده .

ذكر مسير تُغْلُق إلى بلاد اللَّكْنَوَتى وما اتصل بذلك إلى وفاته

وأقام الأمراء الهاربون عنـد السلطان شمس الدين . ثم إن شمس الدين توفى ، وعَهِد لولده شهاب الدين بجلس مجلس أبيـه . ثم غلب عليه أخوه الأصغر غياث الدين بَهَادُور بُورة ، ومعناه بالهندية الأسود . واستولى على الملك ،وقتل أخاه قُطْلُوخان وسائر إخوته . وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم إلى تغلق ، فتجهز معهما بنفسـه لقتال أخيهما ، وخلّف ولده محمدا نائبا عنـه فى ملكه ، وأجَدَّ السير إلى بلاد اَللَّكْنَوَتى فتغلب عليهـا . وأسر سلطانها غياث الدين بَهَادُور، وقدم به أسيرا إلى حضرته . وكان بمدينة دهلى الولى نظام الدين البَذَاوُنى. ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردد إليه ويعظم

خدامه و يسأله الدعاء.وكان يأخذ الشيخَ حال تغلب عليه. فقال ابن السلطان لخدامه : إذا كان الشيخ فى حاله التى تغلب عليه فأعلمونى بذلك . فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه ، فلما رآه الشيخ قال : وهبنالك الملك . ثم توفى الشيخ فى أيام غيبة السلطان ، فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله ، فبلغ ذلك أباه فأنكره وتوعده ، وكان قد رابته منه أمور . ونَقَمَ منه استكثاره من شراء المماليك و إجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس ، فزاد حَنَقُه عليه . و بلغه أن المنجمين زعموا أنه لا يدخل مدينة دِهْلى بعد سفره ذلك . ولما عاد من سفره وقرب من الحضرة ، أمر ولده أن يبنى له قصرا ، وهم يسمونه الكُشْك ، على واد هنالك يسمى أفغان بور . فبناه فى ثلاثة أيام ، وجعل أكثر بنائه بالخشب ، مرتفعا على الأرض قائما على سوارى خشب . وأحكمه بهندسة تولَّى النظر فيها الملك زاده المعروف بعد ذلك بخواجه جِهان ، واسمه أحمد بن إياس ، كبير وزراء السلطان محمد ، وكانت الحكمة التى اخترعوها فيه أنه متى وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط . ونزل السلطان بالقصر وأطعم الناس وتفرقوا . واستأذنه ولده فى أن يَعْرِض الفيلة بين يديه وهى مزينة ، فأذن له . وحدثنى الشيخ ركن الدين أنه كان يومئذ مع السلطان ومعهما ولد السلطان المُؤْثَر لديه محمود . فجاء محمد ابن السلطان فقال للشيخ : يا خَوَنْد ، هذا وقت العصر ، انزل فصل. قال لى الشيخ : فنزلت . وأتى بالأفيال من جهة واحدة على ما دبَّروه . فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محمود . قال الشيخ : فسمعت الضجة فعدت ولم أصل ، فوجدت الكشك قد سقط . فأمر ابنه أن يؤتى بالفئوس والمَسَاحِى (١) للحفر عنه . وأشار بالإبطاء ، فلم يؤت بهما إلا وقد غربت الشمس. فحفروا ووجدوا السلطان قد حنى ظهره على ولده ليقيه الموت . فزعم بعضهم أنه

(١) المِسْحَاة المجرفة .

أخرج ميتا ، وزعم بعضهم أنه أخرج حيا ، فأُجْهِز عليه ، وحمل ليلا إلى مقبرته التى بناها بخارج البلدة المسماة باسمه ، تُغْلُق أباد ، فدفن بها . وقد ذكرنا السبب فى بنائه لهذه المدينة . وبها كانت خزائن تغلق وقصوره . وبها القصر الأعظم الذى جعل قراميده مذهبة ، فإذا طلعت الشمس كان لها نور عظيم وبَصيص (١) ، يمنع البصر من إدامة النظر إليها . واختزن بها الأموال الكثيرة . ويذكر أنه بنى صِهْريجا وأفرغ فيه الذهب إفراغا ، فكان قطعة واحدة . فصرف جميع ذلك ولده محمد شاه لما وَلِى . وبسبب ما ذكرناه من هندسة الوزير خواجه جِهان فى بناء الكُشْك الذى سقط على تغلق ، كانت حُظْوته عند ولده محمد شاه وإيثاره لديه ، فلم يكن أحد يدانيه فى المنزلة لديه ، ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء ولا غيرهم .

ذكر السلطان أبى المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تُغْلُق شاه ملك الهند والسند الذى قدِمْنا عليه

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ، ولا مخالف عليه ، وقد قدَّمنا أنه كان اسمه جَوْنَة . فلما ملك تسمى بمحمد . واكتنى بأبى المجاهد . وكل ما ذكرت من شأن سلاطين الهند فهو مما أخبرت به وتلقيته أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغَزْنَوى قاضى القضاة . وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كونى ببلاده

(١) بريق

ذكر وصفه

وهذا الملك أحب الناس لإسداء العطايا و إراقة الدماء ، فلا يخلو بابه عن فقير يُغْنَى ، أو حيّ يقتل . وقد شهرت فى الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة ، وحكاياته فى الفتك والبطش بذوى الجنايات . وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا ، وأكثرهم إظهارا للعدل والحق . وشعائر الدين عنده محفوظة . وله اشتداد فى أمر الصلاة والعقوبة على تركها . وهو من الملوك الذين اطَّردت سعادتهم ، وخرق المعتاد يُمْن نقيبتهم . ولكن الأغلب عليه الكرم . وسنذكر من أخباره عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه . وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين ، وكفى بالله شهيدا . واعلم أن بعض مآثره من ذلك لا يسعه عقل كثير من الناس ، و يعدّونه من قبيل المستحيل عادة . ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته ، وأخذت بحظ وافر منه ، ولا يسعنى إلا قول الحق فيه . وأكثر ذلك ثابت بالتواتر فى بلاد المشرق .

ذكر أبوابه ومشوره [1] وترتيب ذلك

ودار السلطان بدهلى تسمى دار سَرَا ، ولها أبواب كثيرة . فأما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به . ويقعد به أهل الأنقار والأبواق والصرنايات . فإذا جاء أمير أو كبير ضربوها ، و يقولون فى ضربهم : جاء فلان ، جاء فلان . وكذلك أيضا فى البابين الثانى والثالث . وبخارج الباب الأول دكاكين يقعد عليها الجلادون ، وهم الذين يقتلون الناس : فإن العادة عندهم أنه

(1) سبق أن قلنا فى حواشى الجزء الأول : إن هذه الكلمة يراد بها غالبا مجلس السلطان للاستقبال . وهى غير عربية فى هذا المعنى .

متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب (المشور). ويبقى هنالك ثلاثا. وبين البابين الأول والثانى دهليز كبير فيه دكاكين مبنية من جهتيه ، ويقعد عليها أهل النَّوْبة من حفاظ الأبواب . وأما الباب الثانى فيقعد عليه البوابون الموكلون به . وبينه وبين الباب الثالث دكان كبير يقعد عليه نقيب النقباء ، وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده. وعلى رأسه كلاة[1] من الذهب مجوهرة ، فى أعلاها ريش الطواويس . والنقباء بين يديه وعلى رأس كل واحد منهم شاشية[2] مذهبة. وفى وسطه مِنْطقة ، وبيده سوط نصابه من ذهب أو فضة. ويفضى هذا الباب الثانى إلى (مشور) كبير متسع يقعد به الناس. وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتّاب الباب . ومن عاداتهم ألا يدخل هذا الباب أحد إلا من عينه السلطان لذلك . ويعين لكل إنسان عددا من أصحابه وناسه يدخلون معه . وكل من يأتى إلى هذا الباب يكتب الكتّاب أنّ فلانا جاء فى الساعة الأولى أو الثانية أو ما بعدهما من الساعات إلى آخر النهار . ويُطَالَع السلطان بذلك بعد العشاء الاخرة . ويكتبون أيضا كلّ ما يحدث بالباب من الأمور . وقد عين من أبناء الملوك من يُوصل كل مايكتبونه إلى السلطان . ومن عاداتهم أيضا أنه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعدا لعذر أو لغير عذر لا يدخل هذا الباب بعدها إلا بإذن من السلطان . فإن كان له عذر من مرض أو غيره قَدَّم بين يديه هدية مما يليق إهداؤه إلى السلطان . وكذلك أيضا القادمون من الأسفار : فالفقيه يهدى المصحف والكتاب ، وشبه الفقير يهدى المصلى والسُّبْحة والمِسْواك

(١) ضرب من القلانس عندهم . والكلمة غير عربية .

(٢) غطاء للرأس من نسيج رقيق وهو ما يسمى بالشاش عندنا الآن .

ونحوها ، والأمراء ومن أشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح. وهذا الباب الثالث يُفْضِى إلى (المشور) الهائل الفسيح الساحة المسمى هَزَار أُسطون ، ومعنى ذلك ألف سارية ، وهى سوار من خشب مدهونة ، عليها سُقُف خشب منقوشة أبدع نقش ، يجلس الناس تحتها . وبهذا (المشور) يجلس السلطان الجلوس العام .

ذكر ترتيب جلوسه للناس

وأكثر جلوسه بعد العصر، وربما جلس أول النهار. وجلوسه على مِصْطَبة مفروشة بالبياض ، فوقها مرتبة . ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه متكأ ، وعن يساره مثل ذلك . وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد فى الصلاة ، وهو جلوس أهل الهند كلهم . فإذا جلس وقف أمامه الوزير ، ووقف الكتاب خلف الوزير ، وخلفهم الحجاب. وكبير الحجاب هو (فيروز ملك) ابن عم السلطان ونائبه. وهو أدنى الحجاب إلى السلطان. ثم يتلوه (خاص حاجب) ، ثم يتلوه نائب (خاص حاجب) ، ووكيل الدار ونائبه ، وشرف الحجاب ، وسيد الحجاب ، وجماعة تحت أيديهم . ثم يتلو الحجاب النقباء وهم نحو مائة . وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم : باسم الله. ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير (قَبُولة) . وبيده المِذبة يُشَرِّد بها الذباب . ويقف مائة من السلحدارية[1] عن يمين السلطان ، ومثلهم عن يساره ، بأيديهم الدَّرَق والسيوف والقِسِى. ويقف فى الميمنة والميسرة بطول (المشور) قاضى القضاة ، ويليه خطيب الخطباء ، ثم سائر القضاة ، ثم كبار الفقهاء ، ثم كبار الشرفاء المشايخ ، ثم إخوة السلطان وأصهاره ، ثم الأمراء الكبار ، ثم كبار الأعزة وهم الغرباء ،

(١) جنود شاكون فى السلاح ، بلسانهم .

ثم القواد . ثم يؤتى بستين فرسا مسرجة ملجمة بجَهَازات سلطانية . فمنها ماهو بشعار الخلافة ، وهى التى لجُمُها ودوائرها من الحرير الأسود المذهب ، ومنها ما يكون ذلك فيها من الحرير الأبيض المذهب . ولا يركب بذلك غير السلطان . فيوقف النصف من هـذه الخيل عن اليمين ، والنصف عن الشمال ، بحيث يراها السلطان . ثم يؤتى بخمسين فيلا مزينة بثياب الحرير والذهب ، مكسوة أنيابهـا بالحديد ، إعدادا لقتل أهل الجرائم ، وعلى عنق كل فيل فَيَّاله ، وبيده شبه الطبرزين[1] من الحديد ، يؤدبه به ، ويُقَوِّمه لمـا يراد منه . وعلى ظهر كل فيل شـبه الصندوق العظيم ، يسع عشرين من المقاتلة ، وأكثر من ذلك ودونه ، على حسب ضخامة الفيل وعظم جِرْمه . ويكون فى أركان ذلك الصـندوق أربعة أعلام مركوزة . وتلك الفيـلة معلّمة أن تخدُم للسلطان وتُحُط رءوسها . فإذا خدمت قال الحجاب : باسم الله ، بأصوات عالية . ويوقف أيضا نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال ، خلف الرجال الواقفين . وكل من يأتى من النـاس المعينين للوقوف فى الميمنة أو الميسرة يَخْدُم عند موقف الحجاب . ويقول الحجاب : باسم الله . ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذى يخدم . فإذا خدم انصرف إلى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه ابدا . ومن كان من كفار الهنود يخدم ، ويقول له الحجاب والنقباء : هداك الله . ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم ، بأيديهم التِّرَسة والسيوف ، فلا يمكن أحدا الدخول بينهم إلا بين يدى الحجاب القائمين بين يدى السلطان .

---

(١) آلة كالساطور ، غير عربية .

ذكر دخول الغرباء واصحاب الهدايا عليه

وإن كان بالباب أحد ممن قَدِم على السلطان بهدية ، دخل الحجاب على السلطان على ترتيبهم ، يَقْدُمهم (أمير حاجب) ونائبه خلفه ، ثم (خاص حاجب) ونائبه خلفه ، ثم وكيل الدار ونائبه خلفه ، ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب ، ويَخْدُمون فى ثلاثة مواضع . ويُعلِمون السلطان بمن فى الباب . فإذا أمرهم أن يأتوا به ، جعلوا الهدية التى ساقها بأيدى الرجال يقومون بها أمام الناس ، بحيث يراها السلطان . ويُستدعى صاحبها ، فيخدم قبل الوصول إلى السلطان ثلاث مرات ، ثم يخدم عند موقف الحجاب . فإن كان رجلا كبيرا أوقِف فى صف أمير حاجب ، وإلا وقف خلفه . ويخاطبه السلطان بنفسه ألطف خطاب ، ويرحب به . وإن كان ممن يستحق التعظيم فإنه يصافحه أو يعانقه ، ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه . فإن كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده ، وأظهر استحسانها ، جبرا لخاطر مهديها وإيناسا له ورفقا به ، وخلع عليه وأمر له بمال لغسل رأسه[١] ، على عادتهم فى ذلك ، بمقدار مايستحقه المهدَى

ذكر دخول هدايا عُمَّاله عليه

وإذا أتى العمال بالهدايا والأموال المجتمعة من مجابى البلاد ، صنعوا الأوانى من الذهب والفضة مثل الطُسوت والأباريق وسواها ، وصنعوا من الذهب والفضة قطعا شبه الآجر ، يسمونها الخِشْت . ويقف الفراشوان وهم عبيد السلطان صفا والهدية بأيديهم . كل واحد منهم ممسك قطعة . ثم يقدم الفيلة إن كان فى الهدية شىء منها ، ثم الخيل المسرجة الملجمة ، ثم البغال ،

---

(١) غسل الرأس هنا غير مراد . والمراد التكريم .

ثم الجمال وعليها الأموال . ولقد رأيت الوزير خواجه جِهان قَدَّم هديته ذات يوم ، حين قدم السلطان من دولة آباد ، ولقيه بها فى ظاهر مدينة بَيانة . فأدخلت الهدية إليه على هذا الترتيب . ورأيت فى جملتها صينية مملوءة بأحجار الياقوت ، وصينية مملوءة بأحجار الزُمُرُّد ، وصينية مملوءة باللؤلؤ الفاخر . وكان (حاجى كاوُن) ابن عم السلطان أبى سعيد ملِك العراق حاضرا عنده حين ذلك ، فأعطاه حظا منها . وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ذكر خروجه للعيدين وما يتصل بذلك

وإذا كانت ليلة العيد بعث السلطان إلى الملوك والخواص ، وأرباب الدولة والأعِزّة ، والكُتّاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار ، الخلع التى تعمهم جميعا . فإذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة كلها بالحرير والجواهر . ويكون منها ستة عشر فيلا لا يركبها أحد ، وإنما هى مختصة بركوب السلطان . ويرفع عليها ستة عشر شطرا[1] من الحرير مرصعة بالجواهر ، قائمةُ كلِ شطر منها ذهب خالص . وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر . ويركب السلطان فيلا منها . وترفع أمامه الغاشِية وهى ستارة سَرْجه ، وتكون مرصعة بأنفس الجواهر . ويمشى بين يديه عبيده ومماليكه . وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب . وعلى وَسَطه مِنْطقة ذهب . وبعضهم يرصعها بالجوهر . ويمشى بين يديه أيضا النقباء وهم نحو ثلثمائة . وعلى رأس كل واحد منهم أقروف[2] ذهب ، وعلى وسطه مِنْطقة ذهب ، وفى يده مِقْرعة نِصابها ذهب . ويركب قاضى القضاة صدر الجهان كمال الدين الغَزْنَوِى ،

---

(١) يراد به المظلة بلسانهم . وشطر معرب (چتْر) بالفارسية .

(٢) لم نجد هذا اللفظ فيما بين أيدينا من كتب اللغة . والمراد به قلنسوة طويلة . كما سبق التنبيه على ذلك فى الحواشى .

وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخُوَارَزْمي ، وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة ، كل واحد منهم على فيل . وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين . ويركب المؤذنون أيضا على الفيلة وهم يكبّرون .

ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب ، والعساكر تنتظره . كل أمير بِفَوْجِه على حدة ، ومعه طبوله وأعلامه . فيقدم السلطان ، وأمامه من ذكرناه من المشاة ، وأمامهم القضاة والمؤذّنون يذكرون الله تعالى . وخلف السلطان مراتبه : وهي الأعلام والطبول والأبواق (والأنقار) (والصرنايات). وخلفهم جميع أهل دُخْلته[1] . ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره. ثم يليه ابن أخ السلطان بَهْرام خان بمراتبه وعساكره . ثم يليه ابن عمه (الملك فيروز) بمراتبه وعساكره . ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك مجير بن (ذي الرجا) بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك الكبير قَبُولة بمراتبه وعساكره . وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال . أخبرني صاحب ديوانه ثِقَة الملك علاء الدين عليّ المصريّ ، المعروف بابن الشَّرابِشيّ ، أن نفقته ونفقة عبيده ومرتباتهم ستة وثلاثون لكا[2] في السنة . ثم يليه الملك نُكْبِيَة بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك بُغْرة بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك مُخْلِص بمراتبه وعساكره. ثم يليه الملك قطب المُلْك بمراتبه وعساكره. وهؤلاء هم الأمراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان ، وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب . ويركب غيرهم من الأمراء دون مراتبهم . وجميع من يركب في ذلك اليوم يكون مُدَّرِعا هو وفرسه. وأكثرهم مماليك السلطان . فإذا وصل السلطان إلى باب المصلى وقف على بابه ، وأمر بدخول القضاة

---

(١) بطانته (٢) تقدم الكلام على مقداره في ص ٦

وكبار الأمراء وكبار الأعزة . ثم نزل السلطان . ويصلى الإمام ويخطب . فإن كان عيد الأضحى أتى السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيزة ، بعد أن يجعل على ثيابه فوطة حرير توقيا من الدم . ثم يركب الفيل ويعود إلى قصره .

ذكر جلوس يوم العيد ، وذكر السرير الأعظم والمِبْخَرة العظمى

ويفرش القصر يوم العيد ويزين بأبدع الزينة ، وتضرب البارگة[1] على (المشور) كله ، وهى شبه خَيْمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة . وتحف بها القباب من كل ناحية . ويصنع شبه أشجار من حرير ملون فيها شِبْه الأزهار . ويجعل منها ثلاثة صفوف (بالمشور) . ويجعل بين كل شجرتين كرسى ذهب عليه مرتبة مغطاة . وينصب السرير الأعظم فى صدر (المشور) ، وهو من الذهب الخالص ، كله مرصع القوائم بالجواهر . وطوله ثلاثة وعشرون شبرا ، وعرضه نحو النصف من ذلك . وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل . وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب . وتجعل فوقه المرتبة . ويرفع (الشطر) المرصع بالجواهر على رأس السلطان . وعند ما يصعد على السرير ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية : باسم الله . ثم يتقدم الناس للسلام . فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ ، وإخوة السلطان وأقاربه وأصهاره ، ثم الأعزة ، ثم الوزير ، ثم أمراء العساكر ، ثم شيوخ المماليك ، ثم كبار الأجناد ، يسلم واحد ، إثر واحد ، من غير تزاحم ولا تدافع .

ومن عاداتهم فى يوم العيد أن كل من بيده قرية مُنْعَم بها عليه يأتى

(١) هذه التسمية لا نعرفها فى العربية .

بدنانير ذهب مصرورة فى خرقة مكتوب عليها اسمه ، فيلقيها فى طَست ذهب هنالك . فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان مَنْ شاء . فإذا فرغ الناس من السلام ، وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم . وتنصب فى ذلك اليوم المِبْخَرة العظمى ، وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة ، فإذا أرادوا اتصالها وصلوها . وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال ، وفى داخلها ثلاثة بيوت ، يدخل فيها المبخّرون يوقدون العود القَمَارى(١) والقاقُلِّى(٢) والعنبر الأشهب والجاوى ، حتى يعم دخانها (المشور) كله . ويكون بأيدى الفتيان براميل(٣) الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر ، يصبونه على الناس صبا . وهذا السرير وهذه المبخرة لا يخرجان إلا فى العيدين خاصة . ويجلس السلطان فى بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك . وتنصب (باركة) بعيدة لها ثلاثة أبواب يجلس السلطان فى داخلها ، ويقف على الباب الأول منها عماد المُلْك سَرْتيز ، وعلى الباب الثانى الملك نُكْبِيَة ، وعلى الباب الثالث يوسف بُغْرة ، ويقف على اليمين أمراء المماليك السلحدارية ، وعن اليسار كذلك . ويقف الناس على مراتبهم . وشِحْنة(٤) الباركة (المَلِك طَغَا) ، وبيده عصا ذهب ، وبيد نائبه عصا فضة ، يرتبان الناس ويسويان الصفوف . ويقف الوزير والكتّاب خلفه ، ويقف الحجاب والنقباء . ثم يأتى أهل الطرب . فأولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المَسْبِيَّات فى تلك السنة ، فيغنين ويرقصن . ويهبهن السلطان للأمراء والأعزّة . ثم يأتى بعدهن سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن . ويهبهن لإخوانه وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك . ويكون جلوس السلطان لذلك

---

(١) نسبة الى قَمَار بلد بالهند — ويقول ياقوت إن صحة الاسم قامرون لاقمار .

(٢) القاقلة : ثمر نبات هندى من العطر ، كما فى القاموس . انظر ص ٢٤١

(٣) قال فى شرح القاموس : البِرْميل بالكسر وعاء من خشب يتخذ للخمر ، جمعه براميل .

(٤) المراد به هنا القائم على حراسة الباركة .

بعـد العصر . ثم يجلس فى اليوم الذى بعـده بعد العصر أيضـا على ذلك الترتيب . و يؤتى بالمغنيات فيغنين و يرقصن ، و يهبهن لأمراء المماليك . وفى اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم . و فى اليوم الرابع يعتق العبيد . و فى اليوم الخامس يعتق الجوارى . و فى اليوم السادس يزوج العبيد بالجوارى . و فى اليوم السابع يعطى الصدقات و يكثر منها .

ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره

و إذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ، ورفعت على ستة عشر فيلا منها ستة عشر (شطرا) ، منها مزركش[1] ومنها مرصع ، وحملت أمامه الغاشية وهى الستارة المرصعة بالجوهر النفيس . وتصنع قِبَاب الخشب مقسومة على طبقات ، وتكسى بثياب الحرير ، و يكون فى كل طبقة الجوارى المغنيات ، عليهن أجمل لباس وأحسن حلية . ومنهن رواقص . ويجعل فى وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود ، مملوء بماء الجُلَّاب محلولا بالماء ، يشرب منـه جميع النـاس من وارد وصادر و بلدىّ أو غريب . وكل من يشرب منـه يعطى التَّانَبُول والفَوْفَل . و يكون ما بين القباب مفروشا بثياب الحرير ، يطؤه مركب السلطان . وتزين حيطان الشارع الذى يمر به من باب المدينـة إلى باب القصر بثيـاب الحرير . و يمشى أمامه المشـاة من عبيـده وهم آلاف . وتكون الأفواج والعساكر خلفه . ورأيته فى بعض قَدَماته على الحضرة ، وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرَّعَّادات الصغار على الفيلة ، ترمى بالدنانير والدراهم على الناس ، فيلتقطونها من حين دخوله إلى المدينة حتى يصل إلى قصره .

---

(١) المزركش الحرير المنسوج بالذهب ، لأنه مركب من (زر) أى ذهب ، ومن (كش) ومعناها ذو . ولم نعثر عليها فى المعجمات المتداولة .

ذكر ترتيب الطعام الخاص

والطعام بدار السلطان على صنفين : الطعام الخاص والطعام العام . فأما الخاص فهو طعام السلطان الذى يأكل منـه . وعادته أن يأكل فى مجلسه مع الحاضرين . ويحضر لذلك الأمراء الخواص و (أمير حاجب) ابن عم السلطان ، وعماد الملك سَرْتيز ، و (أمير مجلس). ومن شاء السلطان تشريفه أو تكريمه من الأعزة أو كبار الأمراء دعاه فأكل معه . وربما أراد أيضا تشريف أحد من الحاضرين فأخذ إحدى الصحاف بيده وجعل عليها خبزة ، وأعطاه إياها ، فيأخذها المعطَى ويجعلها على كفه اليسرى ، ويخْدم بيده اليمنى إلى الأرض . وربما بعث من ذلك الطعام إلى من هو غائب عن المجلس ، فيخدم كما يصنع الحاضر ، ويأكله مع من حضره . وقـد حضرت مرات هذا الطعام الخاص ، فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلا .

ذكر ترتيب الطعام العام

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ ، وأمامه النقباء يصيحون : باسم الله ، ونقيب النقباء أمامهم بيده عمود ذهب ، ونائبه معه بيده عمود فضة . فإذا دخلوا من الباب الرابع وسمع من (بالمشور) أصواتهم ، قاموا قياما جميعا . ولا يبقى أحد قاعد إلا السلطان وحده . فإذا وضع الطعام بالأرض اصطفت النقباء صفا ، ووقف أميرهم أمامهم ، وتكلم بكلام يمدح فيه السلطان ويثنى عليه ، ثم يخدم ويخدم النقباء لخدمته ، ويخدم جميع من (بالمشور) من كبير وصغير . وعادتهم أنه من سمع كلام نقيب النقبـاء حين ذلك وقف إن كان

ماشيا ، ولزم موقفه إن كان واقفا . ولا يتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه حتى يفرغ ذلك الكلام . ثم يتكلم أيضا نائبه كلاما نحو ذلك ، و يخدم و يخدم النقباء و جميع الناس مرة ثانية . وحينئذ يجلسون . و يكتب كتاب الباب معرِّفين بحضور الطعام ، و إن كان السلطان قد علم بحضوره . و يحمل المكتوب صبيّ من أبناء الملوك موكّل بذلك ، فيأتى به إلى السلطان . فإذا قرأه عين من شاء من كبار الأمراء لترتيب الناس و إطعامهم .

وطعامهم الرُّقاق والشواء والأقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والأرز والدجاج والسمك . وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم . وعادتهم أن يكون فى صدّر سماط الطعام القضاة والخطباء والفقهاء والشرفاء والمشايخ ، ثم أقارب السلطان ، ثم الأمراء الكبار ، ثم سائر الناس . ولا يقعد أحد إلا فى موضع معين له ، فلا يكون بينهم تزاحم البتة . فإذا جلسوا أتى (الشُّرْبدارِيَّة) ، وهم السقاة و بأيديهم أوانى الذهب والفضة والنحاس والزجاج ، مملوءة بالنبات المحلول بالماء ، فيشربون ذلك قبل الطعام . فإذا شربوا قال الحجاب : باسم الله . ثم يشرعون فى الأكل ، ويجعل أمام كل إنسان من جميع ما يحتوى عليه السماط ، يأكل منه وحده . ولا يأكل أحد مع أحد فى صحفة واحدة . فإذا فرغوا من الأكل أتوا بالفُقَّاع فى أكواز القَصْدِير . فإذا أخذوه ، قال الحجاب : باسم الله . ثم يؤتى بأطباق التَّانَبُول والفَوْفَل فيعطى كل إنسان غَرْفة من الفوفل المهشوم ، وخمس عشرة ورقة من التَّانَبُول ، مجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر . فإذا أخذ الناس التانبول قال الحجاب : باسم الله ، فيقومون جميعا . ويخدم الأمير المعين للإطعام ، ويخدمون لخدمته ، ثم ينصرفون . وطعامهم مرتان فى اليوم ، إحداهما قبل الظهر ، والأخرى بعد العصر .

ذكر بعض أخباره فى الجود والكرم

وإنما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعاينته . ويعلم الله تعالى صدق ما أقول. وكفى به شهيدا، مع أن الذى أحكيه مستفيض متواتر، والبلاد التى تقرب من أرض الهند كاليمن وخُراسان وفارس ، مملوءة بأخباره ، يعلمونها حقيقة، ولا سيما جوده على الغرباء ، فإنه يفضّلهم على أهل الهند ، ويؤثرهم ويجزل لهم الاحسان ، ويُسْبغ عليهم الإنعام ، ويولّيهم الخطط الرفيعة ، ويُولِيهم المواهب العظيمة . ومن إحسانه إليهم أن سماهم الأعزة ، ومنع من أن يُدْعَوا الغرباء . وقال : إن الإنسان إذا دعى غريبا انكسر خاطره وتغيرت حاله . وسأذكر بعضا مما لا يحصى من عطاياه الجزيلة ومواهبه ، إن شاء الله تعالى .

ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين

وكان السلطان قد بعث هدية إلى الخليفة بديار مصر أبى العباس ، وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة [1] على بلاد الهند والسند اعتقادا منه فى الخلافة . فبعث إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه ، مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين . فلما قدم عليه بالغ فى إكرامه وأعطاه عطاء جَزْلا . وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ، ثم صرفه وأعطاه أموالا طائلة . وفيما أعطاه جملة من صفائح الخيل ومساميرها ، كل ذلك من الذهب الخالص . وقال له : إذا نزلت من البحر فأنعِل أفراسك بها . فتوجه إلى كِنْبَاية ليركب البحر منها إلى بلاد اليمن ، فوقعت قضية خروج القاضى جلال الدين وأخذه

(١) يظهر أنه يريد أمر الولاية عليها — وليس هذا من معانى كلمة التقدمة .

مال ابن الكَوْلَمِىّ. فأخذ أيضا ما كان لشيخ الشيوخ. وفر بنفسه مع ابن الكولمى إلى السلطان. فلما رآه السلطان قال له: اجمع خاطرك[1] فهأنا سائر إلى المخالفين، وأعطيك أضعاف ما أخذوه. وبلغنى بعد الانفصال عن بلاد الهند أنه وَفَّى له بما وعده، وأخلف له جميع ما ضاع منه، وأنه وصل بذلك إلى ديار مصر.

ذكر عطائه للواعظ الترِمِذى ناصر الدين

وكان هذا الفقيه الواعظ قدم على السلطان، وأقام تحت إحسانه مدة عام، ثم أحب الرجوع إلى وطنه فأذِن له فى ذلك. ولم يكن سمع كلامه ووعظه. فلما خرج السلطان يقصد بلاد المَعْبَر، أحب سماعه قبل انصرافه، فأمر أن يهيأ له منبر من الصَّنْدل الأبيض، وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب، وأُلصق بأعلاه حجر ياقوتٍ عظيم، وخلع على ناصر الدين خِلعة عباسية سوداء، مذهبة مرصعة بالجوهر، وعمامة مثلها. ونصب له المنبر بداخل السَرَّاجة[2]. وقعد السلطان على سريره، والخواص عن يمينه ويساره. وأخذ القضاة والفقهاء والأمراء مجالسهم. فخطب خطبة بليغة ووعظ وذكّر. فلما نزل عن المنبر قام السلطان إليه وعانقه وأركبه على فيل. وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه، وكنت فى جملتهم، إلى سراجة ضربت له مُقابِلة سراجة السلطان، جميعها

---

(١) يظهر أنه يريد: هوّن الأمر على نفسك.

(٢) شىء يشبه الفسطاط فيما يظهر. ولكن السراجة بهذا المعنى غير عربية فيما نعلم.

من الحرير الملون، وصيوانها[١] من الحرير، وخباؤها أيضا كذلك . فجلس وجلسنا معه . وكان بجانب من السراجة أواني الذهب التي أعطاه السلطان إياها : وذلك تَنُّور كبير بحيث يسع في جوفه الرجل القاعد، وقِدْران اثنتان، وصِحاف لا أذكر عددها، وجملة أكواز، ورَكْوَة[٢] ، ومائدة لها أربع أرجل، ومَحْمِل للكتب. كل ذلك من ذهب خالص . ورفع عماد الدين السِّمْناني[٣] وتَدَيْن من أوتاد السراجة ، أحدهما نحاس والآخر مُقَصْدَر ، يوهم بذلك أنهما من ذهب وفضة . ولم يكونا إلا كما ذكرنا . وقد كان أعطاه حين قدومه مائة ألف دينار دراهم ، ومِئِين من العبيد ، سرّح بعضهم وحمل بعضهم .

ذكر عطائه لعبد العزيز الأَرْدُوِيلي

وكان عبد العزيز هذا فقيها مُحَدِّثا ، قرأ بدمشق على تقي الدين بن تَيْمِية، وبرهان الدين بن البَرْكَح، وجمال الدين المِزِّي، وشمس الدين الذهبي وغيرهم . ثم قَدِم على السلطان فأحسن إليه وأكرمه . واتفق يوما أنه سرد عليه أحاديث في فضل العباس وابنه رضي الله عنهما ، وشيئا من مآثر الخلفاء أولادِهما ، فأعجب ذلك السلطان لحبه لبني العباس ، وقَبَّل قدمي الفقيه ، وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها ألفا تنكة[٤] ، فصبها عليه بيده وقال : هي لك مع الصينية . وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم .

---

(١) لم نجد هذه الكلمة فيما بين أيدينا من كتب اللغة .

(٢) وعاء للماء .

(٣) نسبة إلى سِمْنان ، بلدة بين الري ودامغان ا هـ ياقوت .

(٤) راجع قيمة التنكة في ص ٤١

ذكر عطائه لشمس الدين الأنْدُكانى[1]

وكان الفقيه شمس الدين الاندكانى حكيما شاعرا مطبوعا . فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسىّ ، عدد أبياتها سبعة وعشرون بيتا ، فأعطاه لكل بيت منها ألف دينار دراهم . وهذا أعظم مما يحكى عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم ، وهو عشر عطاء السلطان .

ذكر عطائه لعَضُدِ الدين الشَوَنْكَارى

وكان عضد الدين فقيها إماما فاضلا كبير القدر ، عظيم الصيت شهير الذكر ببلاده . فبلغت السلطان أخباره وسمع بمآثره ، فبعث إليه إلى بلده شَوَنْكَارة عشرة آلاف دينار دراهم . ولم يره قط ولا وفد عليه .

ذكر عطائه للقاضى مجد الدين

ولما بلغه أيضا خبر القاضى العالم الصالح ذى الكرامة الشهيرة، مجد الدين قاضى شِيراز ، الذى سطرنا أخباره فى السِفْر الأول ، وسيمر بعض خبره بعد هذا أيضا ، بعث إليه إلى مدينة شِيراز ، مع الشيخ زاده الدِمشق ، عشرة آلاف دينار دراهم .

---

(١) (نسبة إلى أندُكان) من قرى فرغانه ا هـ ياقوت .

ذكر عطائه لبرهان الدين الصَاغَرْجى[1]

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الأئمة كثير الإيثار ، باذلا لما يملكه ، حتى إنه كثيرا ما يأخذ الديون ، ويؤثر على الناس[2] . فبلغ خبره السلطان فبعث إليه أربعين ألف دينار ، وطلب منه أن يصل إلى حضرته فقبل الدنانير ، وقضى دينه منها ، وتوجه إلى بلاد الخَطَا[3] وأبى أن يصل إليه . وقال : لا أمضى إلى سلطان يقف العلماء بين يديه .

ذكر عطائه لحاجى كَاوْن وحكايته

وكان حاجى كاون ابن عم السلطان أبى سعيد ملك العراق . وكان أخوه موسى ملكا ببعض بلاد العراق . فوفد حاجى كاون على السلطان ، فأكرم مثواه ، وأعطاه العطاء الجَزْل . ورأيته يوما وقد أتى الوزير خواجة جهان بهديته ، وكان منها ثلاث صينيات ، إحداها مملوءة يواقيت ، والأخرى مملوءة زُمُرُّدا ، والأخرى مملوءة جواهر . وكان حاجى كاون حاضرا فأعطاه من ذلك حظا جزيلا . ثم إنه أعطاه أيضا مالا عريضا . ومضى يريد العراق ، فوجد أخاه قد توفى ، وولى مكانه سليمان خان . فطلب إرث أخيه وادعى الملك . وبايعه العساكر وقصد بلاد فارس ، ونزل بمدينة شَوَنْكارة التى بها الإمام عَضُد الدين الذى تقدم ذكره آنفا . فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج إليه ساعة ثم خرجوا . فقال لهم : ما منعكم عن تعجيل الخروج إلى مبايعتنا؟ فاعتذروا له فلم يقبل منهم . وقال لأهل سلاحه : جردوا السيوف . فجردوها وضربوا أعناقهم وكانوا جماعة كبيرة . فسمع من يجاور

---

(١) نسبة الى صاغَرْج بالغين المعجمة المفتوحة والراء الساكنة والجيم ، قرية كبيرة من قرى الصُغْد . ياقوت .

(٢) يريد أنه يحمل عن الناس ديونهم — وقوله (ويؤثر على الناس) غير مفهوم .

(٣) موضع فى شمال الصين .

هذه المدينة من الأمراء بما فعله ، فغضبوا لذلك وكتبوا إلى شمس الدين السِمْنانى ، وهو من الأمراء الفقهاء الكبار ، فأعلموه بما جرى على أهل شَوَنْكارة ، وطلبوا منه الإعانة على قتاله . فتجرد فى عساكره ، واجتمع أهل البلاد طالبين ثأر من قتله حاجى كاون من المشايخ . وضربوا على عسكره ليلا فهزموه . وكان هو بقصر المدينة فأحاطوا به . فاختفى فى بيت الطهارة . فعثروا عليه وقطعوا رأسه ، وبعثوا به إلى سليمان خان ، وفرقوا أعضاءه على البلاد تشفيا منه .

ذكر قدوم ابن الخليفة عليه وأخباره

وكان الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز ، ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى البغدادىّ ، قد وفد على السلطان علاء الدين طَرْمَشِيرِين ملك ما وراء النهر ، فأكرمه وأعطاه الزاوية التى على قبر قُثَمَ ابنِ العباس رضى الله عنهما . واستوطنها أعواما . ثم لما سمع بمحبة السلطان فى بنى العباس وقيامه بدعوتهم ، أحب القدوم عليه ، وبعث له برسولين ، أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبى الشَّرَف الحَرْباوىّ ، والثانى محمد الهَمَدَانىّ (١) الصوفىّ ، فقدما على السلطان . وكان ناصر الدين التِرْمِذىّ الذى تقدم ذكره قد لقى غياث الدين ببغداد ، وشهد لديه البغداديون بصحة نسبة . فشهد هو عند السلطان بذلك . فلما وصل رسولاه إلى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار ، وبعث معهما ثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين ، ليتزود بها إليه ، وكتب له كتابا بخط يده يعظمه فيه ، ويسأله القدوم عليه . فلما وصله الكتاب رحل إليه . فلما وصل إلى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه ، بعث السلطان من يستقبله على العادة .

(١) قد يكون بسكون الميم نسبة إلى هَمْدان ، قبيلة باليمن ، وقد يكون بفتح الميم نسبة إلى هَمَدان التى هى هَمَذَان ، لأن إعجام ذالها تعريب ، كما فى شرح الشفاء للخفاجى .

ثم لما وصل الى سَرْسَتى ، بعث أيضا لاستقباله صدر الجهان قاضى القضاة كمال الدين الغَزْنَوى ، وجماعة من الفقهاء . ثم بعث الأمراء لاستقباله . فلما نزل بمسعود أباد خارج الحضرة ، خرج السلطان بنفسه لاستقباله . فلما التقيا ترجّل غياث الدين ، فترجل له السلطان ، وخدم فخدم له السلطان ، وكان قد استصحب هدية فى جملتها ثياب ، فأخذ السلطان أحد الأثواب وجعله على كتفه ، وخدم كما يفعل الناس معه . ثم قُدّمت الخيل ، فأخذ السلطان أحدها بيده وقدّمه له ، وحلف أن يركب وأمسك بِركابه حتى ركب . ثم ركب السلطان وسايره (والشطر) يظلهما معا . وأخذ التَّانَبُول بيده وأعطاه إياه. وهذا أعظم ما أكرمه به، فإنه لا يفعله مع أحد. وقال له : لو لا أنى بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك . فقال له غياث الدين : وأنا أيضا على تلك البَيْعة . وقال له غياث الدين : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما : من أحيا أرضا مَوَاتا فهى له . وأنت أحييتنا . فجاوبه السلطان بألطف جواب وأبَرّه . ولما وصلا إلى (السرّاجة) المعدة لنزول السلطان ، أنزله فيها وضُرِب للسلطان غيرها . وبات تلك الليلة بخارج الحضرة . فلما كان بالغد دخل إلى دار الملك ، وأنزله بالمدينة المعروفة بِسيرى ، وبدار الخلافة أيضا فى القصر الذى بناه علاء الدين الخَلْجى وابنه قطب الدين. وأمر السلطان جميع الأمراء أن يمضوا معه إليه. وأعدّ له فيه جميع ما يحتاج إليه من أوانى الذهب والفضة ، حتى كان من جملتها مُغْتَسَل يغتسل فيه من ذهب . وبعث له أربعمائة ألف دينار لغسل رأسه [1] على العادة . وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجوارى . وعين له عن نفقته فى كل يوم ثلثمائة دينار. وبعث له زيادة عليها عددا من الموائد بالطعام الخاص . وأعطاه جميع مدينة سِيرِى إقطاعا ، وجميع ما احتوت

(١) سبق تفسير هذا .

عليه من الدور ، وما يتصل بها من بساتين المخزن [1] وأرضه . وأعطاه مائة قرية . وأعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة إلى دهْلى . وأعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ، ويكون علفها من المخزن . وأمره ألا ينزل عن دابته إذا أتى دار السلطان إلا فى موضع خاص . لا يدخله أحد راكبا سوى السلطان . وأمر الناس جميعا من كبير وصغير أن يخْدُموا له ، كما يخدمون للسلطان . وإذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره . وإن كان على الكرسى قام قائما ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه . ويجلس مع السلطان على بساط واحد . وإذا قام قام السلطان لقيامه ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه . وإذا انصرف إلى خارج المجلس جُعِل له بساط يقعد عليه ما شاء ثم ينصرف . يفعل هذا مرتين فى اليوم .

حكاية من تعظيمه إياه

وفى أثناء مُقامه بدهلى قدم الوزير من بلاد بَنْجالَة ، فأمر السلطان كبار الأمراء أن يخرجوا إلى استقباله ، ثم خرج بنفسه إلى استقباله وعظمه تعظيما كثيرا ، وصنعت القِباب بالمدينة كما تصنع للسلطان إذا قدم . وخرج ابن الخليفة للقائه أيضا والفقهاء والقضاة والأعيان . فلما عاد السلطان لقصره قال للوزير : امض إلى دار المخدوم زاده . وبذلك يدعوه . ومعنى ذلك : ابن المخدوم . فسار الوزير إليه ، وأهدى له ألفى تنكة من الذهب وأثوابا كثيرة . وحضر الأمير قَبُولة وغيره من كبار الأمراء . وحضرت أنا كذلك .

حكاية نحوها

وفد على السلطان ملك غَزْنَة المسمى بِبَهْرام ، وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة . فأمر السلطان بإنزاله ببعض دور مدينة سيرى التى لابن الخليفة ،

(١) يريد به بيت مال الدولة كما تقدم .

وأمر أن يبنى له بها دار . فبلغ ذلك ابن الخليفة فغضب منه ، ومضى إلى دار السلطان بجلس على البساط الذى عادته الجلوس عليه ، وبعث إلى الوزير فقال له : سلم على خَوَنْد عَالَم ، وقل له : إن جميع ما أعطانيه هو بمنزلى لم أتصرف فى شىء منه ، بل زاد عندى ونما ، وأنا لا أقيم معكم . وقام وانصرف . فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا ، فأعلمه أن سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غَزْنَة فى مدينة سِيرِى . فدخل الوزير على السلطان فأعلمه بذلك . فركب من حينه فى عشرة من ناسه ، وأتى منزل ابن الخليفة ، فاستأذن ونزل عن فرسه خارج القصر ، حيث ينزل الناس ، فتلقاه واعتذر له ، فقبِل عذره. وقال له السطان : والله ما أعلم أنك راض عنى حتى تضع قدمك على عنق . فقال له : هذا ما لا أفعله ولو قُتلت . فقال له السلطان : وحق رأسى لا بد لك من ذلك . ثم وضع رأسه فى الأرض ، وأخذ الملك الكبير قَبُولة رِجل ابن الخليفة بيده ، فوضعها على عنق السلطان . ثم قام وقال : الآن علمت أنك راض عنى ، وطاب قلبى . وهـذه حكاية غريبة لم يسمع بمثلها عن ملك .

ولقد حضرته يوم عيـد ، وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خِلَع من عند السلطان ، وقد جُعل مكان عُقَد الحرير التى تعلق بها حباتُ جوهر على قدر البندق الكبير . وقام الملك الكبير ببابه حتى نزل من قصره فكساه إياها . وقد أعطاه ما لا يحصره العد ولا يحيط به الحد . وابن الخليفة مع ذلك كله أبخل خلق الله تعالى . وله فى البخل أخبار عجيبة . يعجب منهـا سامعها . وكأنه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم . ولنذكر بعض أخباره فى ذلك .

حكاية عن بخل ابن الخليفة

وكانت بيني و بينه مودة . وكنت كثير التردد إلى منزله . وعنده تركت ولدا لي سميته أحمد ، لما سافرت . ولا أدري ما فعل الله بهما . فقلت له يوما : لم تأكل وحدك ولا تجمع أصحابك على الطعام ؟ فقال لي : لا أستطيع أن أنظر إليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامي . فكان يأكل وحده ، ويعطي صاحبه محمد بن أبي الشَّرَفِ من الطعام ليعطي منه مَنْ أحب ، و يتصرف في باقيه . وكنت أتردد إليه فأرى دِهليز قصره الذي يسكن به مظلما لا سراج به . ورأيته مرارا يجمع الأعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه ، وقد ملأ منها مخازن ، فكلمته في ذلك . فقال لي : يُحْتَاج إليها . وكان يُخَدِّم أصحابه ومماليكه وفتيانه في خدمة البستان وبنائه . ويقول : لا أرضى أن يأكلوا طعامي وهم لا يخدُمون . وكان عليّ مرة دين فطولبتُ به ، فقال لي في بعض الأيام : والله لقد هممت أن أؤدي عنك دينك ، فلم تسمح نفسي بذلك ولا ساعدتني عليه .

حكاية

حدثني مرة قال : خرجت عن بغداد وأنا رابع أربعة ، أحدهم محمد ابن أبي الشَّرَفِ صاحبي ، ونحن على أقدامنا ولا زاد عندنا ، فنزلنا على عين ماء ببعض القرى ، فوجد أحدنا في العين درهما ، فقلنا : وما نصنع بدرهم ؟ فاتفقنا على أن نشتري به خبزا ، فبعثنا أحدنا لشرائه ، فأبى الخباز بتلك القرية أن يبيع الخبز وحده . وإنما يبيع خبزا بقيراط وتبنا بقيراط ، فاشترى منه

الخبز والتبن . فطرحنا التبن إذ لا دابة تأكله . وقسمنا الخبز لقمة لقمة . وقد انتهى حالى اليوم إلى ما تراه . فقلت له : ينبغى لك أن تحمد الله على ما أولاك ، وتُؤْثر الفقراء والمساكين بالتصدق . فقال : لا أستطيع ذلك . ولم أره قط يجود بشىء ، ولا يفعل معروفا . ونعوذ بالله من الشُح .

حكاية

كنت يوما ببغداد بعد عودتى من بلاد الهند ، وأنا قاعد على باب المدرسة المستنصرية ، التى بناها جدّه أمير المؤمنين المستنصر رضى الله عنه . فرأيت شابا ضعيف الحال ، يشتد خلف رجل خارج من المدرسة. فقال لى الطلبة : هذا الشاب الذى تراه هو ابن الأمير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذى ببلاد الهند . فدعوته فقلت له : إنى قدمت من بلاد الهند ، وإنى أعرفك خبر أبيك فقال : قد جاءنى خبره فى هذه الأيام . ومضى يشتد خلف الرجل . فسألت عن الرجل ، فقيل لى : هو الناظر فى الحُبْس[1] وهذا الشاب هو إمام ببعض المساجد ، وله على ذلك أجرة درهم واحد فى اليوم . وهو يطلب أجرته من الرجل . فطال عجبى منه . والله لو بعث إليه جوهرة من الجواهر التى فى الخلَع الواصلة إليه من السلطان ، لأغناه بها . ونعوذ بالله من مثل هذه الحال .

(١) الحبس بوزن القُفْل ما وقُف . مختار .

ذكر ما أعطاه السلطان الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مُهَنَّا أمير عرب الشام

ولما قدم هذا الأمير على السلطان أكرم مثواه، وأنزله بقصر السلطان جلال الدين فى داخل مدينة دِهْلى، ويعرف بكُشْك، لعل معناه القصر الأحمر. وهو قصر عظيم فيه (مشور) كبير جدا، ودِهليز هائل، على بابه قبة تشرف على هذا (المشور)، وعلى (المشور) الثانى الذى يدخل منه إلى القصر. وكان السلطان جلال الدين يقعد بها، وتلعب الكرة بين يديه فى هذا (المشور). وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به، فرأيته مملوءا أثاثا وفرشا وبُسُطا وغيرها، وذلك كله متمزق لا مُنْتَفَع فيه. فإن عادتهم بالهند أن يتركوا قصر السلطان إذا مات بجميع ما فيه، لا يتعرضون له. ويبنى المتولّى بعده قصرا لنفسه. ولما دخلته طفت به وصعدت إلى أعلاه. فكانت لى فيه عِبرة نشأت عنها عَبْرة. وكان معى الفقيه الطبيب الأديب جمال الدين المغربى، الغرْناطى الأصل، البِجَائى[1] المولد، مستوطِن بلاد الهند، قدمها مع أبيه وله بها أولاد.

وبهذا القصر كانت وليمة عُرْسه[2]، كما نذكره. وكان السلطان شديد المحبة للعرب مؤثرا لهم معترفا بفضائلهم. فلما وصله هذا الأمير أجزل له العطاء، وأحسن إليه إحسانا عظيما، وأعطاه مرة وقد قدِمتْ عليه هدية

(١) نسبة إلى بجاية، مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب. ياقوت.
(٢) أى عرس الأمير سيف الدين.

(أعظم ملك) البايزيدى من بلاد مانِكْبُور ، أحد عشر فرسا من عِتاق الخيل . وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة ، عليها اللُّجُم المذهبة . ثم زوجه بعد ذلك بأخته فَيْرُوز خَوَنْدَة .

ذكر تزوج الأمير سيف الدين بأخت السلطان

ولما أمر السلطان بترويج أخته للأمير غدا ، عين للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله ، المعروف بشَوْنِويس . وعيننى لملازمة الأمير غدا فى تلك الأيام . فأتى الملك فتح الله (بالصيوانات) فظلل بها (المشورين) بالقصر الأحمر المذكور . وضرب فى كل واحد منهما قبة ضخمة جدا . وفرش ذلك بالفُرُش الحسان . وأتى شمس الدين التَبْريزى أمير المطربين ، ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص . وكلهن مملوكات السلطان. وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحُلْوَانيين[1] والشُرْبدارية والتَانَبُول داران[2] . وذبحت الأنعام والطيور . وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما. ويحضر الأمراء الكبار والأعزة ليلا ونهارا . فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين ، جاءت الخواتين من دار السلطان ليلا إلى هذا القصر . فَزَيَّنَّه وفرشنه بأحسن الفرش . واستحضر الأمير سيف الدين ، وكان عربيا غريبا لا قرابة له ، فَحَفَفْنَ به ، وأجلسنه على مرتبة معينة له . وكان السلطان قد أمر أن تكون ربيبته أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا ، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته ، وأخرى مقام عمته ، وأخرى مقام خالته ، حتى يكون كأنه بين أهله .

---

(١) نسبة إلى الْحُلْوان ، من مصادر (حَلَا) .

(٢) من يعدون التانبول — بلغة الهند .

ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحِنَّاء فى يديه ورجليه . وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن . وانصرفن إلى قصر الزفاف . وأقام هو مع خواص أصحابه . وعين السلطان جماعة من الأمراء يكونون من جهته ، وجماعة يكونون من جهة الزوجة . وعادتهم أن تقف الجماعة التى من جهة الزوجة على باب الموضع الذى تكون به جَلْوَتها على زوجها . ويأتى الزوج بجماعته ، فلا يدخلون إلا إن غلبوا أصحاب الزوجة ، أو يعطونهم الآلاف من الدنانير إن لم يقدروا عليهم . ولما كان بعد المغرب أُتِى إليه بِخِلْعة حرير زرقاء ، مزركشة مرصعة ، قد غلبت الجواهر عليها : فلا يظهر لونها مما عليها من الجوهر ، وبشاشيّة[1] مثل ذلك . ولم أر قط خِلعة أجمل من هذه الخلعة . وقد رأيت ماخلعه السلطان على سائر أصهاره ، مثل ملك الملوك عماد الدِّين السِّمْنانى ، وابن ملك العلماء ، وابن شيخ الإسلام ، وابن صدر جِهان البخارىّ ، فلم يكن فيها مثل هذه .

ثم ركب الأمير سيف الدين فى أصحابه وعبيده وفى يد كل واحد منهم عصا قد أعدّها ، وصنعوا شبه إكليل من الياسَمين والنِّسرين ، وله رَفْرَف يغطى وجه المتكلل به وصدره ، وأتوا به الأمير ليجعله على رأسه ، فأبى ذلك . وكان من عرب البادية لاعهد له بأمور الملك والحضر . فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه . وأتى باب الصرف[2] ، ويسمونه باب الحرم ، وعليه جماعة الزوجة ، فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية ، وصرعوا كل من عارضهم فغلبوهم . ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات . وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله . ودخل إلى (المشور) ، وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج ، مرصع بالجوهر ، و(المشور) ملآن بالنساء والمطربات ، وقد أحضرن أنواع الآلات المطربة ، وكلهن واقفات على قدم إجلالا له وتعظيما . فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر ، فنزل وخَدَم عند أول درجة منه . وقامت العروس قائمة حتى صعِد فأعطته التَّانبُول بيدها ، فأخذه وجلس

---

(١) سبق شرحها فى الحواشى .

(٢) لعلهم يريدون به باب الانصراف .

تحت الدرجة التى وقفت بها . ونثرت دنانير الذهب على رءوس الحاضرين من أصحابه . ولقطتها النساء ، والمغنيات يغنين حينئذ ، والأطـبال والأبواق (والأنقار) تضرب فى خارج الباب .

ثم قام الأمـير وأخذ بيد زوجته ونزل وهى تتبعه ، فركب فرسه يطأ به الفُرُش والبُسُط ، ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه . وجعلت العروس فى محفَّة ، وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره ، والخواتين بين يديها راكبات ، وغيرهن من النساء ماشيات . و إذا مروا بدار أمير أو كبير ، خرج إليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته ، حتى أوصلوها إلى قصره . ولما كان بالغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم . وأعطى السلطان كل واحد منهم فرسا مسرجا ملجما ، وبِدْرة دراهم من ألف دينار إلى مائتى دينار . وأعطى الملكُ فتح الله الخواتين ثياب الحرير المنوَّعة والبِدَر ، وكذلك أهل الطرب . وعادتهم ببلاد الهند ألا يعطى أحد أهل الطرب شيئا ، و إنما يعطيهم صاحب العُرْس . وأُطعِم الناس جميعا ذلك اليوم . وانقضى العرس . وأمر السلطان أن يُعطى الأميرُ غدا بلاد المالُوَة والجُزُرَات وكنْباية ونَهْر والة . وجُعل فتح الله نائبا عنه عليها . وعظمه تعظيما شـديدا . وكان عربيا جافيا فلم يقدر قَدْر ذلك . وغلب عليه جفاء البادية . فأداه ذلك إلى النكبة ، بعد عشرين ليلة من زفافه .

ذكر سجن الأمير غدا

ولما كان بعد عشرين يوما من زفافه ، اتفق أنه وصل إلى دار السلطان ، فأراد الدخول ، فمنعه أمير (البرد دارية) ، وهم الخواص من البوابين ، فلم يسمع منه ، وأراد الاقتحام ، فأمسك البواب بضفيرته وردّه ، فضربه الأمير بعصا كانت هنالك حتى أدماه . وكان هذا المضروب من كبار الأمراء ،

يعرف أبوه بقاضي غَزْنة ، وهو من ذرية السلطان محمود بن سُبُكْتُكين .
والسلطان يخاطبه بالأب ، ويخاطب ابنه هذا بالأخ . فدخل على السلطان
والدم على ثيابه فأخبره بما صنع الأمير غَدَا . ففكر السلطان هُنَيْهة . ثم قال له :
القاضي يفصل بينكما. وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لأحد من ناسه ، ولابد
من الموت عليها ، وإنما أحتملها لغربته . وكان القاضي كمال الدين (بالمشور) .
فأمر السلطان الملك تَتَر أن يقف معهما عند القاضي. وكان تتر حاجا مجاورا ،
يحسن العربية . فحضر معهما ، وقال للأمير : أنت ضربته ؟ أو قل : لا .
لقصد أن يعلمه[1] الحجة . وكان سيف الدين جاهلا مغترا ، فقال : نعم أنا
ضربته . وأتى والد المضروب فرام الإصلاح بينهما ، فلم يقبل سيف الدين .
فأمر القاضي بسجنه تلك الليلة . فو الله ما بعثت له زوجته فراشا ينام عليه
ولا سألت عنه ، خوفا من السلطان .

وأردت زيارته بالسجن ، فلقيني بعض الأمراء ، وفهم عنّي أني أريد
زيارته ، فقال لي أوَ نسيت ؟ وذكرني بقضية اتفقت لي في زيارة الشيخ
شهاب الدين ابن شيخ الجام ، وكيف أراد السلطان قتلي على ذلك على ماذكره ،
فرجعت ولم أزره . وتخلص الأمير غدا عند الظهر من سجنه ،
فأظهر السلطان إهماله ، وأضرب عما كان أمر له بولايته ، وأراد نفيه .
وكان للسلطان صهر يسمى بمغيث ابن ملك الملوك . وكانت أخت السلطان
تشكوه لأخيها إلى أن ماتت ، فذكرت جواريها أنها ماتت بسبب قهره لها .
وكان في نسبه مَغْمَز . فكتب السلطان بخطه : يُجْلَى اللقيط ، يَعْنِيه .
ثم كتب : ويُجْلَى (موش خوار) ، ومعناه : آكل الفيران ، يعني بذلك الأمير
غدا ، لأن عرب البادية يأكلون اليَرْبوع وهو شِبه الفأر ، وأمر بإخراجهما .
فجاءه النقباء ليخرجوه. فأراد دخول داره ووَدَاع أهله . فترادف النقباء في

(١) الضمير في يعلم راجع إلى تتر . أي أن تتر يقصد أن يعلم الأمير غدا الدفاع عن نفسه .

طلبه ، فخرج باكيا . وتوجهت حين ذلك إلى دار السلطان ، فبتّ بها . فسألني عن مبيتي بعض الأمراء . فقلت له ، جئت لأتكلم في الأمير سيف الدين ، حتى يُرَدّ ولا ينفى ، فقال : لا يكون ذلك . فقلت له : والله لأبيتنّ بدار السلطان ولو بلغ مبيتي مائة ليلة حتى يُرَد . فبلغ ذلك السلطان فأمر برده ، وأمره أن يكون في خدمة الأمير ملك قَبُولة اللاهُورِى . فأقام أربعة أعوام في خدمته ، يركب لركوبه ويسافر لسفره ، حتى تأدب وتهذب . ثم أعاده السلطان إلى ما كان عليه أولا . وأقطعه البلاد ، وقدَّمه على العساكر ، ورفع قدره .

ذكر تزويج السلطان بنتى وزيره من ابن خُدَاوَنْدزاده قِوام الدين الذى قدم معنا عليه

ولما قدم خداوند زاده أعطاه السلطان عطاء جَزْلا ، وأحسن إليه إحسانا عظيما ، وبالغ في إكرامه . ثم زوج ولديه بنتى الوزير خَواجه جِهان . وكان الوزير إذ ذاك غائبا . فأتى السلطان إلى داره ليلا ، وحضر عقد الزواج ، كأنه نائب عن الوزير ، ووقف حتى قرأ قاضى القضاة الصَّداق ، والقضاة والأمراء والمشايخ قعود . وأخذ السلطان بيده الأثواب والبِدَر ، فجعلها بين يدى القاضى وولدى خُدَاوَنَدزاده . وقام الأمراء وأَبَوْا أن يجعل السلطان ذلك بين أيديهم بنفسه . فأمرهم بالجلوس ، وأمر بعض كبار الأمراء أن يقوم مقامه وانصرف .

حكاية فى تواضع السلطان وإنصافه

ادّعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل أخاه من غير موجِب ، ودعاه إلى القاضى . فمضى على قدميه ولا سلاح معه ، إلى مجلس القاضى ، فسلَّم وخَدَم . وكان قد أمر القاضى قبل ذلك أنه إذا جاءه إلى مجلسه لا يقوم له ولا يتحرك . فصعد إلى المجلس ووقف بين يدى القاضى. فحكم عليه أن يرضى خصمه عن دم اخيه فأرضاه .

حكاية مثلها

وادعى على السلطان مرة رجل من المسلمين أنّ له قِبلَه حقا ماليا ، فتخاصما فى ذلك عند القاضى ، فتوجه الحكم على السلطان بإعطاء المال فأعطاه .

حكاية مثلها

وادعى عليه صبيّ من أبناء الملوك أنه ضربه من غير موجِب ، ورفعه إلى القاضى. فتوجه الحكم عليه أن يرضيه بالمال إن قبل ذلك ، وإلا أمكنه من القِصاص. فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجلسه ، واستحضر الصبي وأعطاه عصا ، وقال له : وحق رأسى لَتَضْرِبَنّى كما ضربتك ، فأخذ الصبى العصا وضربه بها إحدى وعشرين ضربة ، حتى رأيت (الكلا)[1] قد طارت عن رأسه .

---

(١) سبق أنها ضرب من القلانس .

ذكر اشتداده فى إقامة الصلاة

وكان السلطان شديدا فى إقامة الصلاة ، آمرا بملازمتها فى الجماعات ، يعاقِب على تركها أشد العقاب. ولقد قتل فى يوم واحد تسعة رجال على تركها ، وكان أحدهم مُغَنِّيا . وكان يبعث الرجال الموكَّلين بذلك إلى الأسواق ، فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عوقب ، حتى انتهى إلى عقاب الستائريين[1] الذين يمسكون دواب الخدام على باب (المشور)، إذا ضيعوا الصلاة . وأمر أن يطالب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الإسلام . فكانوا يُسألون عن ذلك ، فمن لم يحسنه عوقب . وصار الناس يتدارسون ذلك (بالمشور) والأسواق ويكتبونه .

ذكر اشتداده فى إقامة أحكام الشرع

وكان شديدا فى إقامة الشرع . ومما فعل فى ذلك أن أمر أخاه مبارك خان أن يكون قعوده (بالمشور) مع قاضى القضاة كمال الدين فى قبة مرتفعة هنالك ، مفروشة بالبُسُط ، وللقاضى بها مرتبة تَحُفُّ بها المَخَادّ ، كمرتبة السلطان . ويقعد أخو السلطان عن يمينه . فمن كان عليه حق من كبار الأمراء وامتنع من أدائه لصاحبه، يحضره رجال أخى السلطان عند القاضى لينصف منه .

---

(١) لا تعرف هذه التسمية فى العربية .

ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لإنصاف المظلومين

ولما كان فى سنة إحدى وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده، وألا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة. وصار يجلس بنفسه للنظر فى المظالم فى كل يوم اثنين وخميس، برَحَبة أمام (المشور). ولا يقف بين يديه فى ذلك اليوم إلا (أمير حاجب) و (خاص حاجب) وسيد الحجاب وشرف الحجاب لا غير. ولا يُمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه. وعين أربعة من كبار الأمراء يجلسون فى الأبواب الأربعة من (المشور)، لأخذ القِصَص من المشتكين. والرابع منهم ابن عمه (الملك فيروز). فإن أخذ صاحب الباب الأول من الشاكى فحسن، وإلا أخذه الثانى أو الثالث أو الرابع، وإن لم يأخذوه منه مضى به إلى صدر الجهان قاضى المماليك. فإن أخذه منه وإلا شكا إلى السلطان. فإن صح عنده أنه مضى به إلى أحد منهم فلم يأخذه منه أدبه. وكل ما يجتمع من القصص فى سائر الأيام يُطالَع به السلطان بعد العِشاء الآخرة.

ذكر إطعامه فى الغلاء

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند، واشتد الغلاء حتى بلغ منّ(١) القمح ستة دنانير، أمر السلطان أن يعطى جميع أهل دِهْلى نفقة ستة أشهر من المخزن، بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب لكل إنسان

(١) المنّ رطلان.

فى اليوم ، صغير أو كبير حر أو عبد . وخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الأَزِمّة[1] بأهل الحارات ، ويحضِرون الناس . ويُعْطى كُلُّ واحد عَوْلَة[2] ستة أشهر يقتات بها .

ذكر فتكات هذا السلطان وما نُقِمَ من أفعاله

وكان على ماقدّمنا من تواضعه ، وإنصافه ورِفْقِه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة ، كثير التجاسر على إراقة الدماء ، لا يخلو بابه عن مقتول إلا فى النادر. وكنت كثيرا ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك . ولقد جئت يوما فنفر بى الفرس ، ونظرت إلى قطعة بيضاء فى الأرض ، فقلت ماهذه ؟ فقال بعض أصحابى : هى صدر رجل قطع ثلاث قطع . وكان يعاقِب على الصغيرة والكبيرة . ولا يحترم أحدا من أهل العلم والصلاح والشرف[3] . وفى كل يوم يرد على (المشور) من المسلسلين والمغلولين والمقيدين مِئُون. فمن كان للقتل قتل ، أو للعذاب عذب ، أو للضرب ضرب . وعادته أن يؤتى كل يوم بجميع من فى سجنه من الناس إلى (المشور) ، ما عدا يوم الجمعة ، فإنهم لا يخرجون فيه . وهو يوم راحتهم يتنظفون فيه ويستريحون . أعاذنا الله من البلاء .

ذكر قتله لأخيه

وكان له أخ اسمه مسعود خان ، وأمه بنت السلطان علاء الدين . وكان من أجمل من رأيت فى الدنيا . فاتهمه بالقيام عليه . وسأله عن ذلك فأقر

(١) جمع زمام — والمراد به إحصاء الناس .

(٢) اسم مرة من قولهم : عال عِيَاله عَوْلا ، كفاهم .

(٣) فى هذا القول منافاة لما سبق .

خوفا من العذاب، فإنه من أنكر مايدعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب. فيرى الناس أن القتل أهون عليهم من العذاب. فأمر به فضربت عنقه في وسط السوق. وبقي مطروحا هنالك ثلاثة أيام على عادتهم.

ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلا في ساعة واحدة

وكان مرة عَيَّن حِصَّة من العسكر تتوجه مع الملك يوسف بُغْرة إلى قتال الكفار، ببعض الجبال المتصلة بِحَوْز دِهْلِي. فخرج يوسف وخرج معه معظم العسكر، وتخلف قوم منهم. فكتب يوسف إلى السلطان يعلمه بذلك، فأمر أن يطاف بالمدينة ويقبض على من وُجِد من أولئك المتخلفين. فَفُعِل ذلك، وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم. فأمر بقتلهم أجمعين فقتلوا.

ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني الذي تنسب مدينة الجام بخراسان إلى جده، على ما قصصنا ذلك، من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء. وكان يواصل[1] أربعة عشر يوما. وكان السلطانان قطب الدين وتُغْلُق يعظمانه ويزورانه ويتبركان به. فلما وَلِيَ السلطان محمد أراد أن يُخَدِّم الشيخ في بعض خدمته، فإن عادته أن يُخَدِّم الفقهاء والمشايخ والصلحاء، محتجا أن الصدر الأول رضي الله عنهم لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم

---

(١) يصومها متتابعة، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في الحواشي.

والصلاح . فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة . وشافهه السلطان بذلك فى مجلسه العام ، فأظهر الإباء والامتناع ، فغضب السلطان من ذلك . وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السِمْنانى أن يَنْتِف لحيته . فأبى ضياء الدين ذلك . وقال لا أفعل هـذا . فأمر السلطان بنتف لحيـة كل واحد منهما فنتفت . ونفى ضياء الدين إلى بلاد التِلِنْك . ثم ولاه بعد مدة قضاء وَرَنْكَل ، فمـات بها . ونفى شهاب الدين إلى دولة آباد ، فأقام بهـا سبعة أعوام ، ثم أرسل إليه فأكرمه وعظمه ، وأمر الأمراء أن يأتوا للسلام عليـه ويمتثلوا أقواله ، ولم يكن أحد فى دار السلطان فوقه .

ولمـا انتقل السلطان إلى السكنى على نهر الكَنْك ، وبنى هنالك القصر المعروف بِسَرْك دُوَار (معناه شبه الجنة) وأمر الناس بالبناء هنالك ، طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له فى الإقامة بالحضرة ، فأذن له إلى أرض مَوَات على مسافة ستة أميال من دهلى ، فحفر بها كهفا كبيرا صنع فى جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام . وجلب المـاء من نهر (جُون) ، وعمر تلك الأرض ، وجمع مالا كثـيرا من مُسْتَغَلّها ، لأنهـا كانت سنين قاحطة . وأقام هنالك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان . وكان عبيده يَخْدُمون تلك الأرض نهارا ويدخلون الغار ليلا ، ويسدُّونه على أنفسهم وأنعامهم ، خوف سُرَّاق الكفار ، لأنهم فى جبل منيع هنالك .

ولمـا عاد السلطان إلى حضرته ، استقبله الشيخ ولقيـه على سبعة أميال منهـا . فعظمه السلطان وعانقه عند لقائه . وعاد إلى غاره . ثم أرسل إليه بعـد أيام فامتنع من إتيانه ، فبعث إليه مُخْلِص الملك النَذْر بارى ، وكان من كبراء الملوك ، فتلطف له بالقول ، وحذّره بطش السطان . فقال له : لا أخدم ظالمـا أبدا . فعاد مخلص الملك إلى السلطان فأخبره بذلك . فأمر أن يؤتى به ، فأتى به ، فقال له : أنت القائل : إنى ظالم ؟ فقال : نعم أنت ظالم .

ومن ظلمك كذا وكذا ، وعدد أمورا ، منها تخريبه لمدينة دِهْلِى وإخراجه أهلها . فأخذ السلطان سيفه ودفعه لصدْر الجهان وقال : يثبت هذا أنى ظالم، وتقطع عنق بهذا السيف . فقال له شهاب الدين : ومن يريد أن يشهد بذلك فيقتل ؟ ولكن أنت تعرف ظلم نفسك . وأمر بتسليمه للملك نُكْبِيَة رأس[1] الدويدارية ، فقيده بأربعة قيود ، وغَلَّ يديه . وأقام كذلك أربعة عشر يوما مُواصِلا ، لا يأكل ولا يشرب . وفى كل يوم منها يؤتى به إلى (المشور). ويجمع الفقهاء والمشايخ، ويقولون له : ارجع عن قولك، فيقول : لا أرجع عنه ، وأريد أن أكون فى زمرة الشهداء . فلما كان اليوم الرابع عشر، بعث إليه السلطان بطعام مع مخلص الملك ، فأبى أن يأكل . وقال : قد رفع رزقى من الأرض . ارجع بطعامك إليه . وفى اليوم بعده أُتِىَ به إلى دار القاضى صدر الجهان، وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الأعزة، فوعظوه، وطلبوا منه أن يرجع عن قوله ، فأبى ذلك . فضربت عنقه رحمه الله تعالى.

ذكر قتله للفقيه المدرس عفيف الدين الكاسانى[2] وفقيهين معه

وكان السلطان فى سنى القحط قد أمر بحفر آبار فى خارج دار الملك، وأن يزرع هنالك زرع . وأعطى الناس البَذْر وما يلزم الزراعة من النفقة. وكلفهم زرع ذلك للمخزن. فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين، فقال : هذا الزرع لا يحصل المراد منه. فَوُشِىَ به إلى السلطان فسجنه. وقال له : لأى شىء تدخل نفسك فى أمور الملك ؟ ثم إنه سَرَّحه بعد مدة فذهب إلى داره . ولقيه فى طريقه إليها صاحبان له من الفقهاء ، فقالا له : الحمد لله على خلاصك . فقال

(١) الناموس (السكرتير) .
(٢) نسبة إلى كاسان ، بلد بما وراء النهر . قاموس .

الفقيه : الحمـد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وتفرقوا فلم يصلوا إلى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان . فأمر بهم فأُحْضِر ثلاثتهم بين يديه . فقال : اذهبوا بهذا ، يعنى عفيف الدين ، فاضربوا عنقه حمائل[1] ، وهو أن يقطع الرأس مع الذراع و بعض الصـدر . واضربوا عنق الآخرين . فقالا له : أما هو فيستحق العقاب بقوله ، وأما نحن فبأى جريمة تقتلنا ؟ فقال لهما : إنكما سمعتما كلامه فلم تنكراه ، فكأنما وافقتما عليه ، فقتلوا جميعا ، رحمهم الله .

ذكر قتله أيضا لفقيهين من أهل السند كانا فى خدمته

وأمر السلطان هذين الفقيهين السِنْديين أن يمضيا مع أمير عَيَّنه ، إلى بعض البلاد ، وقال لهما : إنما سلمت أحوال البلاد والرعية لكما ، و يكون هذا الأمير معكما يتصرف بما تأمرانه به . فقالا له : إنما نكون كالشاهدين عليه ، ونبين له وجه الحق ليتبعه . فقال لهما : إنما قصدكما أن تأكلا أموالى وتضيعاها ، وتنسبا ذلك إلى هذا التركى الذى لا معرفة له . فقالا له : حاش لله ياخَوَنْدَ عَالَمَ ، ماقصدنا هذا . فقال لهما : لم تقصدا غير هذا . اذهبوا بهما إلى الشيخ زاده النهاوَنْدى ، وهو الموكل بالعذاب . فَذُهِب بهما إليه . فقال لهما : السلطان يريد قتلكما ، فأقرا بما تقصدان ولا تعذبا أنفسكما . فقالا : والله ما قصدنا إلا ما ذكرنا . فقال لزبانيته : ذوقوهما بعض شىء ، يعنى من العذاب . فَبُطِحا على أقفائهما ، و جُعِل على صـدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة . ثم قلعت بعد هنيهة ، فذهبت بلحم صدريهما ، فأقرا على أنفسهما أنهما لم يقصدا إلا ما قاله السلطان ، وأنهما مجرمان مستحقان للقتل ، فلا حق لهما ،

(١) تعبير اصطلاحى لهم .

ولا دعوى فى دمائهما دنيا ولا أخرى . وكتبا خطهما بذلك ، واعترفا به عند القاضى . فسجل على العقد . وكتب فيه أن اعترافهما كان عن غير إكراه ولا إجبار . ولو قالا أُكرِهنا لعذبا أشد العذاب . فرأيا أن تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الأليم . فقتلا ، رحمهما الله تعالى .

ذكر قتله للشيخ هود

وكان الشيخ زاده المسمى بهُود ، حفيد الشيخ الصالح الولى ركن الدين ابن بهاء الدين بن أبى زكرياء المُلْتانى ، وجدّه الشيخ ركن الدين ، معظما عند السلطان . وكذلك أخوه عماد الدين الذى كان شبيها بالسلطان ، وقتل يوم وقيعة كَشْلُوخان ، وسنذكره . ولما قتل عماد الدين أعطى السلطان أخاه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزاويته . فتوفى الشيخ ركن الدين وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود . ونازعه فى ذلك ابن أخى الشيخ ركن الدين ، وقال : أنا أحق بميراث عمى . فقَدِما على السلطان وهو بدولة آباد ، وبينها وبين مُلْتان ثمانون يوما . فأعطى السلطان هودا الشيوخة على ما أوصى له الشيخ . وكان كهلا . وكان ابن أخى الشيخ فتى . وأكرمه السلطان وأمر بتضييفه فى كل منزل يحله ، وأن يخرج إلى لقائه أهل كل بلد يمر به إلى ملتان ، وتصنع له فيه دعوة . فلما وصل الأمر لحضرة خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ والأعيان للقائه . وكنت فيمن خرج إليه فتلقيناه ، وهو راكب دولة[1] يحملها الرجال ، وخيله مَجْنُوبة[2]. فسلمنا عليه . وأنكرت أنا ما كان من فعله فى ركوبه الدولة . وقلت : إنما

(١) يظهر أنها شىء كالمحفة — ولم نجد هذا المعنى لها فى كتب اللغة .

(٢) فسرنا معنى هذه الكلمة فى موضع آخر من الحواشى .

كان ينبغى له أن يركب الفرس و يساير من خرج للقائه من القضاة والمشايخ . فبلغه كلامى فركب الفرس . واعتذر بأن فعله أولا كان بسبب ألم منعه من ركوب الفرس . ودخل الحضرة ، وصُنِعت له بها دعوة أُنفق فيها من مال السلطان كثير . وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والأعزة . ومد السماط وأتوا بالطعام على العادة . ثم أعطيت الدراهم ، فأخذ كلٌّ على قدر استحقاقه . فأُعطِى قاضى القضاة خمسمائة دينار ، وأعطِيتُ أنا مائتين وخمسين دينارا . وهذه عادة لهم فى الدعوة السلطانية .

ثم انصرف الشيخ هود إلى بلده ومعه الشيخ نور الدين الشيرازى ، بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته ، و يصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك . واستقر بزاويته وأقام بها أعواما . ثم إن عماد المُلْك أمير بلاد السند ، كتب إلى السلطان يذكر أن الشيخ وأقاربه يشتغلون بجمع الأموال و إنفاقها فى الشهوات ، ولا يطعمون أحدا بالزاوية . فَنَفَذَ الأمر بمطالبتهم بالأموال ، فطالبهم عماد الملك بها ، وسجن بعضهم وضرب بعضا . وصار يأخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام ، حتى استخلص ما كان عندهم . ووُجِد لهم كثير من الأموال والذخائر ، فمن جملتها نعلان مرصعتان بالجوهر والياقوت ، بيعتا بسبعة آلاف دينار . قيل إنهما كانتا لبنت الشيخ هود . وقيل لسُرِّيّة له . فلما اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الأتراك فقبِض عليه . وكتب عماد الملك بذلك إلى السلطان ، فأمره أن يبعثه ويبعث الذى قبض عليه . فلما وصلا إليه سرَّح الذى قبض عليه . وقال للشيخ هود : أين أردت أن تفر ؟ فاعتذر بعذر . فقال له السلطان : إنما أردت أن تذهب إلى الأتراك فتقول : أنا ابن الشيخ بهاء الدين زكريا ، وقد فعل السلطان معى كذا ، وتأتى بهم لقتالنا . اضربوا عنقه ، فضربت عنقه رحمه الله تعالى .

ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده

وكان الشيخ الصالح شمس الدين بن تاج العارفين ساكنا بمدينة كُول ، منقطعا للعبادة ، كبير القدر . ودخل السلطان مدينة كُول ، فأرسل إليه فلم يأته ، فذهب السلطان إليه ، ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره . واتفق بعد ذلك أن أميرا من الأمراء خالف على السلطان ببعض الجهات ، وبايعه الناس . فنقل للسلطان أنه وقع ذكر هذا الأمير بمجلس الشيخ شمس الدين فأثنى عليه ، وقال إنه يصلح للملك . فبعث السلطان بعض الأمراء إلى الشيخ ، فقيده وقيد أولاده وقيد قاضى كُول ومحتسبها ، لأنه ذكر أنهما كانا حاضرين للمجلس الذى أثنى فيه الشيخ على الأمير المخالف ، وأمر بهم فسُجنوا جميعا ، بعد أن سَمَل عينى القاضى وعينى المحتسب . ومات الشيخ بالسجن . وكان القاضى والمحتسب يخرجان مع بعض السجانين فيسألان الناس ، ثم يُرَدّان إلى السجن . وكان قد بلغ السلطان أن أولاد الشيخ كانوا يخالطون كفار الهنود وعُصاتهم ويصحبونهم . فلما مات أبوهم أخرجهم من السجن ، وقال لهم : لا تعودوا إلى ما كنتم تفعلون . فقالوا له : وما فعلنا ؟ فاغتاظ من ذلك ، وأمر بقتلهم جميعا فقتلوا . ثم استحضر القاضى ، فقال : أخبرنى بمن كان يرى رأى هؤلاء الذين قُتِلوا ، ويفعل مثل أفعالهم ، فأملى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد . فلما عرض ما أملاه على السلطان ، قال : هذا يحب أن يُخَرِّب البلد ، اضربوا عنقه . فضربت عنقه ، رحمه الله تعالى .

ذكر قتله للشيخ الحَيْدرِىّ

وكان الشيخ على الحيدرىّ ساكنًا بمدينة كِنْبايَة ، من ساحل الهند . وهو عظيم القدر شهير الذكر بعيد الصيت ، ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة . وإذا قدِموا بدءوا بالسلام عليه . وكان يكاشَف[١] بأحوالهم . وربما نذر أحدهم النذر ونِدم عليه ، فإذا أتى الشيخَ للسلام عليه ، أعلمه بما نذر له وأمر بالوفاء به . واتفق له ذلك مرات واشتهر به[٢] . فلما خالف القاضى جلال الأفغانىّ وقبيلته بتلك الجهات ، بلغ السلطانَ أن الشيخ الحيدرى دعا للقاضى جلالِ الدين وأعطاه (شاشيّته) من رأسه ، وذكر أيضا أنه بايعه . فلما خرج السلطان إليهم بنفسه وانهزم القاضى جلال ، خلّف السلطان شَرَفَ المُلْك (أمير بَخْت) ، أحد الوافدين معنا عليه ، بِكِنْباية ، وأمره بالبحث عن أهل الخلاف ، وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم . فأُحْضِر الشيخ على الحيدرىّ بين يديه ، وثبت أنه أعطى القائم شاشيته ودعا له . فحكموا بقتله . فلما ضربه السّياف لم يفعل شيئا . وعجب الناس لذلك ، وظنوا أنه يُعْفَى عنه بسبب ذلك . فأمر سيّافا آخر بضرب عنقه فضربها . رحمه الله تعالى .

ذكر قتله لطُوغان وأخيه

وكان طُوغان الفَرْغَانى وأخوه من كبار أهل مدينة فَرْغانة . فوفدا على السلطان فأحسن إليهما وأعطاهما عطاء جزيلا . وأقاما عنده مدة . فلما طال مقامهما أرادا الرجوع إلى بلادهما وحاولا الفرار . فوشى بهما أحد

---

(١) يريد أنه يكشف له عن أحوالهم كشف غيب . ولكن الله تعالى لا يطلع من عباده على بعض المغيَّبات إلا من اختصه بذلك من رسله وأنبيائه الكرام .

(٢) مبالغة من القُصّاص .

أصحابهما إلى السلطان ، فأمر بتوسيطهما فوسّطا . وأعطى الذى وشى بهما جميع مالهما . وكذلك عادتهم بتلك البلاد ، فإذا وشى أحد بأحد وثبت ماوشى به فقتِل ، أُعطِى ماله .

ذكر قتله لابن ملك التجار

وكان ابن ملك التجار شابا صغيرا لانبات بعارضيه . فلما وقع خلاف عين المُلْك وقيامه وقتاله للسلطان ، كما سنذكره ، هُزِم عين الملك وقبض عليه وعلى أصحابه ، وكان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب المُلْك ، فأمر بهما فعلّقا من أيديهما فى خشب . وأمر أبناء الملوك فرموْهما بالنُّشاب حتى ماتا . ولما ماتا قال الحاجب خواجه أمير على التبريزىّ لقاضى القضاة كمال الدين : ذلك الشاب لم يجب عليه القتل . فبلغ ذلك السلطان . فقال : هلا قلت هذا قبل موته . وأمر به فضرب مائتى مِقرعة أو نحوها ، وسجن وأعطى أمير السيافين جميع ماله . فرأيته فى ثانى ذلك اليوم وقد لبس ثيابه ، وجعل قلنسوته على رأسه وركب فرسه ، فظننت أنه هو . وأقام بالسجن شهورا . ثم سرّحه ورده إلى ما كان عليه . ثم غضب عليه ثانية ونفاه إلى خُراسان . فاستقر بِهَراة ، وكتب إليه يستعطفه فوقّع له على ظهر كتابه ما معناه : إن كنت تُبْتَ فارجع ، فرجع إليه .

ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات

وكان قد ولّى خطيب الخطباء بدهلى النظر فى خزانة الجواهر فى السفر ، فاتفق أن جاء سراق الكفار ليلا فضربوا على تلك الخزانة ، وذهبوا بشىء منها ، فأمر بضرب الخطيب حتى مات . رحمه الله تعالى .

ذكر تخريبة لدهلى ونفى أهلها

ومن أعظم ما كان يُنقَم من السلطان إجلاؤه لأهل دِهْلى عنها . وسبب[١] ذلك أنهم كانوا يكتبون بَطَائِق فيها شتمه وسبه . ويختِمون عليها ويكتبون عليها : وحق رأس خَوَنْد عَالَم ما يقرؤها غيره . ويرمونها (بالمشور) ليلا ، فإذا فضَّها وجد فيها شتمه وسبه . فعزم على تخريب دِهْلى . واشترى من أهلها جميعا دورهم ومنازلهم ، ودفع لهم ثمنها ، وأمرهم بالانتقال عنها إلى دولة آباد . فأبوا ذلك . فنادى مناديه ألا يبقى بها أحد بعد ثلاث . فانتقل معظمهم ، واختفى بعضهم فى الدور . فأمر بالبحث عمن بقى بها . ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعا وتركوا أثقالهم وأمتعتهم ، وبقيت المدينة خاوية على عروشها . فحدثنى من أثق به قال : صعد السلطان ليلة إلى سطح قصره ، فنظر إلى دِهْلى وليس بها نار ولا دخان ولا سراج . فقال : الآن طاب قلبى وتَهَدَّن[٢] خاطرى . ثم كتب إلى أهل البلاد أن ينتقلوا إلى دهلى ليعمروها ، فخربت بلادهم ولم تعمر دهلى لاتساعها وضخامتها . وهى من أعظم مدن الدنيا . وكذلك وجدناها لما دخلنا إليها خالية ليس بها إلا قليل عمارة . وقد ذكرنا كثيرا من مآثر هذا السلطان ومما نُقِم منه أيضا[٣] . فلنذكر جملا من الوقائع والحوادث فى أيامه .

---

(١) هذا السبب غير كاف . بل لابد أنه كانت هناك أسباب أخرى عظيمة حملته على ما فعل .

(٢) ارتاحت نفسى وهدأت .

(٣) آثرنا إثبات حكايات القتل وما ارتكبه هذا السلطان من ضروب القسوة ، لنعرض على القارئ صورة صادقة لهذا العهد فى تلك البلاد .

ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته من منه على بهادور بورة

ولما ولي السلطان الملك بعد أبيه ، وبايعه الناس ، أحضر السلطان غياث الدين بهادُور بُورة ، الذى كان أسره السلطان تُغْلُق ، فمنّ عليه وفك قيوده ، وأجزل له العطاء من الأموال والخيل والفيلة ، وصرفه إلى مملكته ، وبعث معه ابن أخيه إبراهيم خان ، وعاهده على أن تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما ، وتكتب أسماؤهما معا فى السكّة(١) ، ويخطب لهما ، وعلى أن يَصْرف غياث الدين ابنه محمدا المعروف بِبَرْباط ، ليكون رهينة عند السلطان . فانصرف غياث الدين إلى مملكته والتزم ما شُرِط عليه ، إلا أنه لم يبعث ابنه . وادّعى أنه امتنع . وأساء الأدب فى كلامه . فبعث السلطان العساكر إلى ابن أخيه إبراهيم خان وأميرَهم دُلْجي التترى ، فقاتلوا غياث الدين فقتلوه ، وسلخوا جلده وحُشِي بالتبن ، وطِيف به على البلاد .

ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك

وكان للسلطان تُغْلُق ابن أخت يسمى بهاء الدين (كُشْتَ اسْب) ، فجعله أميرا ببعض النواحى . فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه . وكان شجاعا بطلا . فبعث السلطان إليه العساكر فيهم الأمراء الكبار . فالتقى الفرسان واشتد القتال ، وصبر كلا العسكرين . ثم كانت الكَرّة لعسكر السلطان ، ففر بهاء الدين إلى ملك من ملوك الكفار ، يعرف (بالرايْ(٢) كَنْبِيلَة) . والراى عندهم كمثل ماهو بلسان

---

(١) المراد النقود — وأصل السكة قالب الحديد الذى تضرب عليه الدراهم .

(٢) الراى هو الراجا ، وهو الملك . والكلمتان هنديتان .

الروم عبارة عن السلطان، وكنبيلة اسم الإقليم الذى هو به . وهذا الراى له بلاد فى جبال منيعة . وهو من أكابر سلاطين الكفار . فلما هرب إليه بهاء الدين أتبعته عساكر السلطان ، وحصروا تلك البلاد واشتد الأمر على الكافر، ونفد ما عنده من الزرع، وخاف أن يؤخذ باليد، فقال لبهاء الدين : إن الحال قد بلغت ما تراه . وأنا عازم على إهلاك نفسى وعيالى ومن تبعنى، فاذهب أنت إلى السلطان فلان ، لسلطان من الكفار سماه له ، فأقم عنده فإنه سيمنعك . وبعث معه من أوصله إليه . وأمر (رَاىْ كَنْبِيلَة) بنار عظيمة فأججت وأحرق فيها أمتعته . وقال لنسائه وبناته : إنى أريد قتل نفسى، فمن أرادت موافقتى فلتفعل . فكانت المرأة منهن تغتسل وتدهن بالصندل ، وتقبل الأرض بين يديه ، وترمى بنفسها فى النار ، حتى هلكن جميعا . وفعل مثل ذلك نساء أمرائه ووزرائه وأرباب دولته ، ومن أراد من سائر النساء .

ثم اغتسل الراى وادّهن بالصندل ولبس السلاح ما عدا الدِرْع . وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه . وخرجوا إلى عسكر السلطان فقاتلوا حتى قتلوا جميعا. ودُخلت المدينة، فأُسر أهلها وأسر من أولاد (رَاىْ كَنْبِيلَة) أحد عشر ولدا ، فأتى بهم إلى السلطان فأسلموا جميعا . وجعلهم السلطان أمراء، وعظمهم لأصالتهم ولفعل أبيهم . فرأيت عنده منهم نصرا وبَخْتِيار والمُهْردار ، وهو صاحب الخاتَم الذى يختم به على الماء الذى يشرب السلطان منه ، وكنيته أبو مسلم . وكانت بينى و بينه صحبة ومودة .

ولما قتل (راى كنبيلة) ، توجهت عساكر السلطان إلى بلد الكفار الذى لجأ إليه بهاء الدين ، وأحاطوا به ، فقال ذلك السلطان : أنا لا أقدر على أن أفعل ما فعله راى (كنبيلة)، فقبض على بهاء الدين وأسلمه إلى عسكر السلطان ، فقيدوه وغلوه وأتوا به إليه . فلما أُتى به إليه ، أمر بقتله .

وأمر بجلده فحشى بالتبن ، وقُرِن بجلد بهادُور بُورة، وَطِيفَ بهما على البلاد. فلما وصلا إلى بلاد السند وأمير أمرائها يومئذ كَشْلُوخان ، صاحب السلطان تُغْلُق ومعينه على أخذ الملك ، وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالعم ، ويخرج لاستقباله إذا وَفَد من بلاده ، أمر كَشْلُوخان بدفن الجلدين. فبلغ ذلك السلطان فشقَّ عليه فعله ، وأراد الفتك به .

ذكر ثورة كَشْلُوخان وقتله

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله في دفن الجلدين أرسل إليه ، وعلم كشلوخان أنه يريد عقابه ، فامتنع وخالف وأعطى الأموال ، وجمع العساكر ، وبعث إلى الترك والأفغان وأهل خُراسان ، فأتاه منهم العدد الجم ، حتى كافأ عسكره عسكر السلطان أو أَرْبى عليه كثرة . وخرج السلطان بنفسه لقتاله . فكان اللقاء على مسيرة يومين من مُلْتَان بصحراء أبُو هَر . وأخذ السلطانُ بالحزم عند لقائه ، فجعل تحت (الشطر) عوضا عنه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين المُلْتَانى . وهو(١) حدثنى هذا ، وكان (٢) شبيها به . فلما حَمِيَ القتال انفرد السلطان فى أربعة آلاف من عسكره ، وقصد عسكر كَشْلُوخان (الشطر) ، معتقدين أن السلطان تحته . فقتلوا عماد الدين. وشاع فى العسكر أن السلطان قتل ، فاشتغلت عساكر كَشْلُوخان بالنهب ، وتفرقوا عنه ولم يبق معه إلا قليل . فقصده السلطان بمن معه فقتله وحزّ رأسه . وعلم بذلك جيشه ففروا. ودخل السلطان مدينة مُلْتَان وقبض على قاضيها كريم الدين ، وأمر بسلخه فسلخ ، وأمر برأس كَشْلُوخان فعلق على بابه . وقد رأيته معلقا لما وصلت إلى مُلْتَان . وأعطى السلطان الشيخ ركن الدين أخا عماد الدين ، وابنه صدر الدين مائة قرية ، إنعاما عليهما ليأكلا منها ، ويطعما بزاويتهما

(١) أى الشيخ ركن الدين (٢) أى الشيخ عماد الدين .

المنسوبة لجدهما بهاء الدين زكريا . وأمر السلطان وزيره خواجه جِهان أن يذهب إلى مدينة كمال بُور ، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر ، وكان أهلها قد خالفوا . فأخبرنى بعض الفقهاء أنه حضر دخول الوزير إياها . قال : وأحضر بين يديه القاضى بها والخطيب ، فأمر بسلخ جلودهما . فقالا له : اقتلنا بغير ذلك ، فقال لهما : بم استوجبتما القتل ؟ فقالا : بمخالفتنا أمر السلطان . فقال لهما : فكيف أخالف أنا أمره ، وقد أمرنى أن أقتلكما بهذه القِتْلة ؟ ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند ، وعاد السلطان إلى حضرته .

ذكر هزيمة جيش السلطان بجبل قراجيل (١)

وجبل قراجيل هذا جبل كبير يتصل مسيرة ثلاثة أشهر ، وبينه وبين دِهْلى مسيرة عشر . وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار . وكان السلطان بعث الملك نُكْبِية رأس (الدُويدارية) إلى حرب هذا الجبل ، ومعه مائة ألف فارس ، ورجّالة سواهم كثير . فملك مدينة جِدْية وهى فى أسفل الجبل . وملك ما يليها . وسبى وخرّب وأحرق . وفر الكفار إلى أعلى الجبل ، وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم . وللجبل طريق واحد ، وعن أسفل منه واد وفوقه الجبل . فلا يجوزه إلا فارس منفرد خلفه آخر . فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق . وتملكوا مدينة وَرَنْكَل التى بأعلى الجبل واحتووا على ما فيها . وكتبوا إلى السلطان بالفتح ، فبعث إليهم قاضيا وخطيبا . وأمرهم بالإقامة . فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا . وماتت الخيل وانحلّت القِسِيّ . فكتب الأمراء إلى السلطان ، واستأذنوه فى الخروج عن

---

(١) من سلسلة جبال همالايا .

الجبل، والنزول إلى أسفله، حتى ينصرم فصل نزول المطر فيعودوا. فأذن لهم فى ذلك. فأخذ الأمير نُكْبِيَة الأموال التى استولى عليها من الخزائن والمعادن، وفرقها على الناس ليرفعوها و يوصلوها إلى أسفل الجبل. فعند ما علم الكفار بخروجهم قعدوا لهم بتلك المهاوى، وأخذوا عليهم المَضيق، وصاروا يقطعون الأشجار العادية[1] قِطَعا و يطرحونها من أعلى الجبل، فلا تمر بأحد إلا أهلكته. فهلك الكثير من الناس وأسر الباقون منهم. وأخذ الكفار الأموال والأمتعة والخيل والسلاح. ولم يفلِت من العسكر إلا ثلاثة من الأمراء: كبيرهم نُكْبِية، و بدر الدين المَلِك دولة شاه، وثالث لهما لا أذكره. وهذه الوقيعة أثرت فى جيش الهند أثرا كبيرا، وأضعفته ضعفا بيّنا. وصالح السلطان بعدها أهل الجبل على مال يؤدونه إليه، لأن لهم البلاد فى أسفل الجبل، ولا قدرة لهم على عمارتها إلا بإذنه.

ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المَعْبَر، وما اتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير

وكان السلطان قد أمّر على بلاد المَعْبَر، و بينها و بين دِهْلى مسيرة ستة أشهر، الشريف جلال الدين أحسن شاه. فخالف وادّعى الملك لنفسه، وقتل نوّاب السلطان وعُمّاله، وضرب الدنانير والدراهم باسمه. وكان يكتب فى إحدى صفحتى الدينار: سلالة طه و يس، أبو الفقراء والمساكين، جلال الدنيا والدين. وفى الصفحة الأخرى: الواثق بتأييد الرحمن، أحسن شاه السلطان. وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قتاله. فنزل بموضع يقال له (كُشْك زِر)، ومعناه

(١) الكبيرة القديمة، كما تقدم

قصر الذهب . وأقام به ثمانية أيام لقضاء حاجات الناس . وفى تلك الأيام أُتى بابن أخت الوزير خواجه جِهان ، وأربعة من الأمراء أو ثلاثة ، وهم مقيدون مغلولون .

وكان السلطان قد بعث وزيره هذا فى مقدمته ، فوصل إلى مدينة ظِهار ، وهى على مسيرة أربع وعشرين من دِهْلى ، وأقام بها أياما . وكان ابن أخته شجاعا بطلا . فاتفق مع الأمراء الذين أُتى بهم على قتل خاله ، والهرب بما عنده من الخزائن والأموال إلى الشريف القائم ببلاد المعبر . وعزموا على الفتك بالوزير عند خروجه إلى صلاة الجمعة . فوشى بهم أحد من أدخلوه فى أمرهم إلى الوزير ، وكان يسمى الملك نُصْرة الحاجب ، وأخبر الوزير أن آية ما يرومونه لُبْسهم الدروع تحت ثيابهم . فبحث الوزير عنهم فوجدهم كذلك . فبعث بهم إلى السلطان ، وكنت بين يديه حين وصولهم . فرأيت أحدهم وكان طُوَالا ألْحَى ، وهو يُرْعد ويتلو سورة يس . فأمر بهم فطرحوا للفيلة المعلّمة قَتْلَ الناس ، وأمر بابن أخت الوزير فرد إلى خاله ليقتله فقتله . وسنذكر ذلك .

وتلك الفيلة التى تقتل الناس تكسى أنيابها حدائد مسنونة ، شِبْهْ سكك الحرث ، ولها أطراف كالسكاكين . ويركب الفيال على الفيل . فإذا رُمى بالرجل بين يديه لفّ عليه خرطومه ورمى به إلى الهواء . ثم يتلقّفه بنابيه ، ويطرحه بعد ذلك بين يديه ، ويجعل يده على صدره ، ويفعل به ما يأمره الفيال ، على حسب ما أمره السلطان . فإن أمره بتقطيعه قطعه الفيل قطعا بتلك الحدائد . وإن أمر بتركه تركه مطروحا فسلخ . وكذلك فُعِل بهؤلاء .

ولما تجهز السلطان لهذه الحركة أمرنى بالإقامة بالحضرة كما سنذكره ، ومضى فى سفره إلى أن بلغ دولة آباد . فثار الأمير هَلاجُون ببلاده وخرج . وكان الوزير خواجة جِهان قد بقى أيضا بالحضرة ، لحشد الحُشود وجمع العساكر .

ذكر ثورة هَلَاجُون

ولما بلغ السلطان دَوْلة آباد وبعد عن بلاده ، ثار الأمير هَلَاجُون بمدينة لاهُور وادّعى الملك . وساعده الأمير قُلْجُنْد على ذلك وصيره وزيرا له . واتصل ذلك بالوزير خواجه جِهان وهو بدهلى فحشد الناس ، وجمع العساكر ، وجمع الخُراسانيين ، وكل من كان مقيما من الخدام بدهلى. وأخذ أصحابه وأخذ فى الجملة أصحابى ، لأنى كنت بها مقيما . وأعانه السلطان بأميرين كبيرين : أحدهما قِيران ملك صَفْدار ، ومعناه مرتب العساكر ، والثانى الملك تَمُور الشُرْبدار ، وهو الساقى . وخرج هَلَاجُون بعساكره . فكان اللقاء على ضِفّة أحد الأودية الكبار . فانهزم هلاجون وهرب ، وغرِق كثير من عساكره فى النهر . ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض أهلها ، وقتل آخرين بغير ذلك من أنواع القتل . وكان الذى تولى قتلهم محمد بن النجيب نائب الوزير ، وهو المعروف بأَجْدَر ملك ، وكان ظالما قاسى القلب . ويسميه السلطان أسد الأسواق . وكان ربما عضّ أرباب الجنايات بأسنانه شَرَها وعُدْوانا . وبعث الوزير من نساء المخالفين نحو ثلاثمائة إلى حصن كالْيُور ، فسجنّ به . ورأيت بعضهن هنالك فى السجن.

ذكر وقوع الوباء فى عسكر السلطان

ولما وصل السلطان إلى بلاد التِلِنْك، وهو قاصد إلى قتال الشريف ببلاد المعبر، نزل مدينة بَدْرَكُوت، وهى قاعدة بلاد التِلِنْك، و بينها و بين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة أشهر، ووقع الوباء إذ ذاك فى عسكره فهلك معظمهم. ومات العبيد والمماليك وكبار الأمراء، مثل الملك دَولة شاه الذى كان السلطان يخاطبه بالعم، ومثل الأمير عبد الله الهَرَوىّ. وقد تقدمت حكايته فى السِفْر الأول. وهو الذى أمره السلطان أن يرفع من الخزانة ما استطاع من المال، فربط ثلاث عشرة خريطة بأعضاده ورفعها. ولما رأى السلطان ما حل بالعسكر عاد إلى دولة آباد. وخالفت البلاد وانتقضت الأطراف، وكاد الملك يخرج عن يده، لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته.

ذكر الإرجاف بموته وفرار الملك هُوشَنْج

ولما عاد السلطان إلى دولة آباد مرض فى طريقه فأرجف الناس بموته. وشاع ذلك فنشأت عنه فتن عريضة. وكان الملك هُوشَنْج ابن الملك كمال الدين كُرْك بدولة آباد. وكان بينه و بين السلطان عهد ألا يبايع غيره أبدا، لا فى حياته ولا بعد موته. فلما أُرجف بموت السلطان هرب إلى سلطان كافر يسمى بُرْبَرَة، يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكُوكَنْ تَانَة. فعلم السلطان بفراره وخاف وقوع الفتنة، فأجدّ السير إلى دولة آباد، واقتفى أَثَر هوشَنْج، وحصره بالخيل، وأرسل إلى الكافر أن يسلمه إليه. فأبى وقال: لا أسلم دخيلى. وخاف هوشنج على نفسه، فراسل السلطان وعاهده

على أن يرحل السلطان إلى دولة آباد ويبقى هنالك قُطْلُوخان معلم السلطان، ليستوثق منه هُوشَنْج وينزل إليه على الأمان . فرحل السلطان ونزل هوشنج إلى قُطْلوخان، وعاهده ألا يقتله السلطان ولا يحط منزلته . وخرج بماله وعياله وأصحابه وقدم على السلطان، فسر بقدومه وأرضاه وخلع عليه . وكان قُطْلوخان صاحب عهد يستنيم الناس إليه . ومنزلته عند السلطان عليّة، وتعظيمه له شديد . ومتى دخل عليه قام له إجلالا، فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه، حتى يكون هو الذى يدعوه، لئلا يتعبه بالقيام له . وهو محب للصدقات كثير الإيثار، مُولَع بالإحسان للفقراء والمساكين .

ذكر ما هَمَّ به الشريف إبراهيم من الثورة ومآل حاله

وكان الشريف إبراهيم المعروف بالخريطة دار، وهو صاحب الكاغد والأقلام بدار السلطان، واليا على بلاد حَانْسِى وسَرَسْتِى، لما تحرك السلطان إلى بلاد المعبر، وأبوه هو القائم ببلاد المعبر، الشريف أحسن شاه . فلما أرجف بموت السلطان طمع إبراهيم فى السلطنة . وكان شجاعا كريما حسن الصورة. وكنت متزوجا بأخته حُورْنَسَب . وكانت صالحة تتهجد بالليل، ولها أوراد من ذكر الله عز وجل . وكانت تقرأ لكنها لا تكتب . فلما همّ إبراهيم بالثورة، اجتاز به أمير من أمراء السند، ومعه الأموال يحملها إلى دِهْلى . فقال له إبراهيم : إن الطريق مخوف وفيه القَطْع، فأقم عندى حتى يصلح الطريق وأوصلك إلى المأمن . وكان قصده أن يتحقق موت السلطان، فيستولى على تلك الأموال . فلما تحقق حياته سرّح ذلك الأمير . وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك . ولما وصل السلطان إلى الحضرة بعد غيبته سنتين ونصف سنة، وصل الشريف

إبراهيم إليه ، فوشى به بعض غلمانه ، وأعلم السلطان بما كان همّ به . فأراد السلطان أن يعجل بقتله ، ثم تأنى لمحبته له . فاتفق أن أُتى يوما إلى السلطان بغزال مذبوح ، فنظر إلى ذِبْحته فقال : ليس بجيّد الذكاة ، اطرحوه . فرآه إبراهيم فقال : إن ذكاته جيدة وأنا آكله . فأخبر السلطان بقوله ، فأنكر ذلك ، وجعله ذريعة إلى أخذه . فأمر به فَقُيّد وغُلّ . ثم قرره على ما رُمى به من أنه أراد أخذ الأموال التى مَرّ بها ضياء الملك . وعلم إبراهيم أنه إنما يريد قتله بسبب أبيه ، وأنه لا تنفعه معذرة ، وخاف أن يعذب . فرأى الموت خيرا له ، فأقر بذلك . فأمر به فَوُسّط وترك هنالك . وعادتهم أنه متى قتل السلطان أحدا أقام مطروحا بموضع قتله ثلاثا ، فإذا كان بعد الثلاث اخذه طائفة من الكفار موكّلون بذلك ، فحملوه إلى خندق خارج المدينة يطرحونه به ، وهم يسكنون حول الخندق ، لئلا يأتى أهل المقتول فيعرفوه . وربما أعطى بعضهم هؤلاء الكفار ما لا فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه . وكذلك فُعل بالشريف إبراهيم ، رحمه الله تعالى .

ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التِلِنْك

ولما عاد السلطان من التِلِنْك وشاع خبر موته ، وكان ترك تاج المُلْك نصرة خان نائبا عنه ببلاد التلنك ، وهو من قدماء خواصه ، بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان ، ودعا لنفسه وبايعه الناس بحضرة بَدْرَكُوت . فبلغ خبره السلطان ، فبعث معلمه قُطْلُو خان فى عساكر عظيمة فحصره بعد قتال شديد ، هلك فيه أمم من الناس . واشتد الحصار على أهل بدركوت وهى منيعة . وأخذ قُطْلُو خان فى نقبها . فخرج إليه نُصْرَة خان على الأمان فى نفسه فأمّنه . وبعث به إلى السلطان . وأمّن أهل المدينة والعسكر .

ذكر انتقال السلطان إلى نهر الكِنْك(١) وقيام عين المُلْك

ولما استولى القحط على البلاد انتقل السلطان بعساكره إلى نهر الكنك، الذى تحج إليه الهنود، على مسيرة عشر من دِهْلى. وأمر الناس بالبناء، وكانوا قبل ذلك صنعوا خياما من حشيش الأرض، فكانت النار كثيرا ماتقع فيها وتؤذى الناس، حتى كانوا يصنعون كهوفا تحت الأرض. فإذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب. ووصلت أنا فى تلك الأيام إلى مَحَلَّة السلطان. وكانت البلاد التى بغربىّ النهر حيث السلطان شديدةَ القحط، والبلاد التى بشرقيه خِصْبة، وأميرها عين المُلْك بن ماهر، ومنها مدينة عِوَض(٢) ومدينة ظَفَر آباد ومدينة اللَّكْنُو وغيرها. وكان الأمير عين الملك كل يوم يُحْضِر خمسين ألف مَنّ(٣) منها قمح وأرز وحمص لعلف الدواب. فأمر السلطان أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال إلى الجهة الشرقية المُخْصِبة لترعى هنالك. وأوصى عين الملك بحفظها. وكان لعين الملك أربعة إخوة: وهم شهرالله ونصرالله وفضل الله، ولا أذكر اسم الآخر. فاتفقوا مع أخيهم عين الملك على أن يأخذوا فيلة السلطان ودوابه، ويبايعوا عين الملك ويقوموا على السلطان. وهرب إليهم عين الملك بالليل وكاد الأمر يتم لهم. ومن عادة ملك الهند أنه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكا له يكون عينا عليه ويعرفه بجميع حاله. ويجعل أيضا جوارى فى الدور يكنّ عيونا له على أمرائه، ونسوة يسميهن الكناسات، يدخلن الدور بلا استئذان، ويخبرهن الجوارى بما عندهن، فتخبر الكناسات بذلك المخبرين، فيخبرون بذلك

(١) نهر الكنج

(٢) قال ياقوت: اسم بلد بعيد عنا فى أواسط بلاد الهند، تأتيه التجار بعد مشقة.

(٣) المن رطلان. كما سبق فى الحواشى.

السلطان . وكان للسلطان مملوك يعرف بابن ملك شاه ، هو عين على عين الملك هـــذا ، فأخبر السلطان بفراره وجوازه النهر ، فَسُقِط فى يده ، وظن أنها القاضـــية عليه : لأن الخيل والفيلة والزرع ، كل ذلك عند عين الملك ، وعساكر السلطان مفترقة . فأراد أن يقصد حضرته ويجمع العساكر وحينئذ يأتى لقتاله . وشاور أرباب الدولة فى ذلك . وكان أمراء خراسان والغرباء أشد الناس خوفا من هذا القائم، لأنه هندى وأهل الهند مُبْغِضون للغرباء، فكرهوا ما ظهر به، وقالوا : ياخَوَنْد عَالَمَ ، إن فعلت ذلك بلغه الخبر ، فاشتد أمره ورتَّب العساكر ، وانثال عليـه طلاب الشر ودعاة الفتن . والأولى معاجلته قبل استحكام قوته . وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مُطَهَّر الأَوْهَرى . ووافقه جميعهم . فعمل السـلطان بإشـارتهم . وكتب تلك الليلة إلى من قرب منه من الأمراء والعساكر ، فأتوا من حينهم ، وأدار فى ذلك حيلة حسنة : فكان إذا قـدم على محلته مثلا مائة فارس ، بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلا ودخلوا معهم إلى المحلة، كأن جميعهم مدد له . وتحرك السلطان مع ساحل النهر ليجعل مدينة قِنَّوْج وراء ظهره ، ويتحصن بها لمنعتها وحصانتها . وبينها وبين الموضع الذى كان به ثلاثة أيام .

فرحل أول مرحلة وقد عَبَّأ جيشه للحرب ، وجعلهم صفا واحدا عند نزولهم ، كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه إلى جانبه ، ومعه خِباء صغير يأكل به ويتوضأ ويعود إلى مجلسه . والمحلَّة الكبرى على بعد منهم . ولم يدخل السلطان فى تلك الأيام الثلاثة خِباء ولا استظل بظل . وكنت فى يوم منها بخبائى ، فصاح بى فتى من فتيانى اسمه سُنْبل واستعجلنى . وكان معى الجوارى فخرجت إليه . فقال : إن السلطان أمر الساعة أن يقتل كل من معه امرأته أو جاريته . فشفع عنده الأمراء ، فأمر ألا تبق السـاعة بالمحلة امرأة ، وأن يُحْملن إلى حصن هنا لك على ثلاثة أميال . فلم تبق امرأة بالمحلة ولا مع

السلطان . وبتنا تلك الليلة على تعبئة. فلما كان فى اليوم الثانى رتب السلطان عسكره أفواجا ، وجعل مع كل فَوْج الفيلة المدرّعة وعليها الأبراج وفوقها المقاتلة . وتدرّع العسكر وتهيئوا للحرب ، وباتوا تلك الليلة على أُهبة . ولما كان اليوم الثالث شاع أن عين الملك الثائر أجاز النهر ، فخاف السلطان ذلك ، وتوقع أنه لم يفعله إلا بعد مراسلة الأمراء الباقين مع السلطان . فأمر فى الحين بِقَسْم الخيل العِتاق على خواصه ، وبعث لى حظا منها . وكان لى صاحب يسمى (أمير أميران) الكَرْمانى من الشجعان . فأعطيته فرسا منها أشهب اللون . فلما حركه جَمَحَ به ، فلم يستطع إمساكه ورماه عن ظهره ، فمات رحمه الله تعالى . وَجَدَّ السلطان ذلك اليوم فى مسيره فوصل بعد العصر إلى مدينة قِنَوْج . وكان يخاف أن يسبقه القائم إليها . وبات ليلته تلك يرتب الناس بنفسه . ووقف علينا ونحن فى المقدمة مع ابن عمه (الملك فيروز) ، ومعنا الأمير غَدَا بن مُهَنَّا ، والسيد ناصر الدين مطهَّر ، وأمراء خُراسان . فأضافنا إلى خواصه وقال : أنتم أعِزَّة علىّ ، وماينبغى أن تفارقونى . وكان فى عاقبة ذلك الخير : فإن القائم ضرب فى آخر الليل على المقدمة ، وفيها الوزير خواجة جِهان ، فقامت ضجة فى الناس كبيرة . فحينئذ أمر السلطان ألا يبرح أحد مكانه ، ولا يقاتل الناس إلا بالسيوف. فاستلّ العسكر سيوفهم ونهضوا إلى أصحابهم . وحَمِيَ القتال . وأمر السلطان أن يكون شعار جيشه : دهْلى وغَزْنة . فإذا لقى أحدهم فارسا قال له : دهلى . فإن أجابه بغزنة علم أنه من أصحابه ، وإلا قاتله . وكان القائم إنما قصد أن يضرب على موضع السلطان ، فأخطأ به الدليل ، فقصد موضع الوزير . فضرب عنق الدليل . وكان فى عسكر الوزير الأعاجم والترك والخراسانيون وهم أعداء الهنود ، فصَدَقُوا القتال . وكان جيش القائم نحو الخمسين ألفا فانهزموا عند طلوع الفجر . وكان الملك إبراهيم المعروف بالبَنْجى التترى قد أقطعه السلطان بلاد سَنْدِيلة ، وهى قريبة

من بلاد عين المُلْك ، فاتفق معه على الخلاف وجعله نائبه . وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فِيلَة السلطان وخيله ، فوافقاه أيضا ، وجعل داود حاجبه . وكان داود هذا لما ضربوا على مَحَلّة الوزير ، يَجْهَر بِسَبِّ السلطان ، ويَشْتِمه أقبح شتم ، والسلطان يسمع ذلك و يعرف كلامه. فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه إبراهيم التترى : ماذا ترى يا ملك إبراهيم ؟ قد فر أكثر العسكر وذوو النَّجْدة منهم ، فهل لك أن نجو بأنفسنا ؟ فقال إبراهيم لأصحابه بلسانهم : إذا أراد عين الملك أن يفر فإنى سأقبض على دَبُّوقَتِه(١) . فإذا فعلت ذلك فاضربوا أنتم فرسه ليسقط إلى الأرض فنقبِض عليه ونأتى به السلطان ، ليكون ذلك كفَّارة لذنبى فى مخالفته ، وسببا للخلاص .

فلما أراد عين الملك الفرار قال له إبراهيم : إلى أين يا سلطان علاء الدين ؟ وكان يسمى بذلك ، وأمسك بدبوقته وضرب أصحابه فرسه ، فسقط إلى الأرض ، ورمى إبراهيم بنفسه عليه ، وجاء أصحاب الوزير ليأخذوه فمنعهم ، وقال : لا أتركه حتى أوصله إلى الوزير أو أموت دون ذلك . فتركوه فأوصله إلى الوزير . وكنت أنظر عند الصبح إلى الفيلة والأعلام يؤتى بها إلى السلطان . ثم جاءنى بعض العراقيين فقال : قد قُبِض على عين الملك وأُتِىَ به إلى الوزير . فلم أصدقه. فلم يمر إلا يسير حتى جاءنى الملك تَمُور الشُرْبدار ، فأخذ بيدى وقال : أبشر فقد قُبِض على عين الملك وهو عند الوزير . فتحرك السلطان عند ذلك ونحن معه إلى محلة عين الملك على نهر الكِنْك ، فنهبت العساكر ما فيها . واقتحم كثير من عسكر عين الملك النهر فغرِقوا ، وأخذ داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم . ونهبت الأموال والخيل والأمتعة . ونزل السلطان على المجاز . وجاء الوزير بعين الملك وقد أُرْكِب على ثور ، وهو عُرْيان مستور العورة بخرقة مربوطة بحبل ، و باقيه فى عنقه . فوقف على باب (السرّاجة).

(١) الشعر المضفور ، مولدة . قاموس .

وجاء أبناء الملوك إلى عين الملك فجعلوا يسبونه و يبصقون فى وجهه ، و يصفعون أصحابه . و بعث إليه السلطانُ الملكَ الكبير، فقال له : ما هذا الذى فعلت ؟ فلم يجد جوابا . فأمر به السلطان أن يكسى ثوبا من ثياب الزمالة(١) وقيد بأربعة كُبُول(٢) ، وغُلّت يداه إلى عنقه وسُلّم إلى الوزير ليحفظه . وجاز إخوته النهر هاربين ووصلوا مدينة عِوَض ، فأخذوا أهلهم وأولادهم وما قدروا عليه من المال ، وقالوا لزوجة أخيهم عين الملك : اخلُصى بنفسك و بنيك معنا . فقالت : أفلا أكون كنساء الكفار اللائى يحرقن أنفسهن مع أزواجهن ؟ فأنا أيضا أموت لموت زوجى وأعيش لعيشه . فتركوها . و بلغ ذلك السلطان فكان سبب خيرها ، وأدركته لها رِقة . وأُدرِك الفتى سُهَيْل نصر الله من أولئك الأخوة فقتل وأُتِى السلطان برأسه . وأُتِى بأم عين الملك وأخته وامرأته ، فسلمن إلى الوزير وجعلن فى خِباء بقرب خباء عين الملك . فكان يدخل إليهن و يجلس معهن و يعود إلى مَحْبِسه .

ولما كان بعد العصر من يوم الهزيمة ، أمر السلطان بِسَراح لفيف الناس الذين مع عين الملك ، من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يعبأ به . وأُتِى بالملك إبراهيم البَنْجى الذى ذكرناه ، فقال ملك العسكر: ياخَوَنْدْ عالَمَ ، اقتل هذا فإنه من المخالفين . فقال الوزير : إنه قد فدى نفسه بالقائم . فعفا عنه السلطان وسرّحه إلى بلاده . ولما كان بعد المغرب جلس السلطان ببرج الخشب ، وأُوتِى باثنين وستين رجلا من كبار أصحاب القائم ، وأُتِى بالفيلة فطرحوا بين أيديها . فجعلت تقطعهم بالحدائد الموضوعة على أنيابها ، وترمى بعضهم إلى الهواء وتتلقّفه ، والأبواق (والأنفار) والطبول تضرب عند ذلك ، وعين الملك واقف يعاين مقتلهم ، ويُطْرح منهم عليه . ثم أعيد إلى محبِسه .

---

(١) لم نعثر على معنى ملائم لهذه الكلمة فى كتب اللغة . و يراد بها هنا سائقو دواب الحمل .

(٢) جمع كَبْل وهو القيد .

وأقام السلطان على جواز النهر أياما لكثرة الناس وقلة القوارب . وأجاز أمتعته وخزائنه على الفيلة . وفرق الفيلة على خواصه ليجيزوا أمتعتهم . وبعث إلىّ بفيل منها أجزت عليه رَحْلى. وقصد السلطان ونحن معه إلى مدينة بَهْرَايِج، وهي مدينة حسنة فى عُدْوة نهر السَّرُو ، وهو واد كبير شديد الانحدار . وأجازه السلطان لزيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالار عُود ، الذى فتح أكثر تلك البلاد. وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة . وتكاثر الناس للجواز وتزاحموا ، حتى غَرِق مركب كبير كان فيه نحو ثلاثمائة نفس ، لم ينج منهم إلا عربىّ من أصحاب الأمير غَدَا . وكنا ركبنا نحن فى مركب صغير فسلّمنا الله تعالى . وكان العربى الذى سلم من الغرق يسمى بسالم ، وذلك اتفاق عجيب . وكان أراد أن يصعد معنا فى مركبنا فوجدنا قد ركبنا النهر ، فركب فى المركب الذى غرق . فلما خرج ظن الناس أنه كان معنا ، فقامت ضجة فى أصحابنا وفى سائر الناس ، وتوهموا أنا غرقنا . ثم لما رأونا بعد استبشروا بسلامتنا . وزرنا قبر الصالح المذكور ، وهو فى قبة لم نجد سبيلا إلى دخولها لكثرة الزحام . وفى تلك الوِجْهة دخلنا غَيْضَة قصب ، فخرج علينا منها الكَرْكَدَّن ، فقتل وأتى برأسه . وهو دون الفيل . ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف . وقد ذكرناه .

ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة علىّ شاه كَر

ولما ظَفِر السلطان بعين المُلْك كما ذكرنا ، عاد إلى حضرته بعد مَغيب عامين ونصف ، وعفا عن عين الملك ، وعفا أيضا عن نُصْرة خان القائم ببلاد التِلِنْك ، وجعلهما معا على عمل واحد ، وهو النظر على بساتين السلطان. وكساهما وأركبهما ، وعين لهما نفقة من الدقيق واللحم فى كل يوم . وحدث

بعد ذلك أن أحد أصحاب قُطْلُوخان، وهو على شاه كر (ومعنى كر الأطرش) خالف على السلطان . وكان شجاعا حسن الصورة والسيرة . فغلب على بَدْرَكُوت ، وجعلها مدينة ملكه ، وخرجت العساكر إليه . وأمر السلطان معلمه أن يخرج إلى قتاله . فخرج فى عساكر عظيمة وحصره ببدركوت ، ونقبت أبراجها ، واشتدت به الحال ، فطلب الأمان . فأمّنه قُطْلُوخان ، وبعث به إلى السلطان مقيدا . فعفا عنه ونفاه إلى مدينة غَزْنَة ، من طرف خُراسان ، فأقام بها مدة ، ثم اشتاق إلى وطنه فأراد العودة إليه ، لما قضاه الله من حينه ، فقبض عليه ببلاد السند وأتى به السلطان ، فقال له : إنما جئت لتثير الفساد ثانية ، وأمر به فضربت عنقه .

ذكر فرار أمير بَخْت وأخذه

وكان السلطان قد وَجد على أمير بخت الملقب بشرف الملك ، أحد الذين وفدوا معنا على السلطان ، فحطّ مرتبه من أربعين ألفا إلى ألف واحد . وبعثه فى خدمة الوزير إلى دهلى . واتفق أن مات أمير عبد الله الهَرَوىّ فى الوباء فى التِلِنْك ، وكان ماله عند أصحابه بدهلى ، فاتفقوا مع أمير بخت على الهرب . فلما خرج الوزير من دهلى إلى لقاء السلطان ، هربوا مع أمير بخت وأصحابه ووصلوا إلى أرض السند ، فى سبعة أيام ، وهو مسيرة أربعين يوما . وكان معهم الخيل مجنوبة[1] ، وعزموا على أن يقطعوا نهر السند عوما ، ويركب أمير بخت وولده ومن لا يحسن العوم فى (معدية[2]) قَصَب يصنعونها . وكانوا قد أعدوا حبالا من الحرير لذلك . فلما وصلوا إلى النهر

(١) جَنَب الفرس والأسير قاده إلى جَنْبه . لسان .

(٢) يريد المعبر الذى يجاز به النهر . وليست عربية . وقد وردت كثيرا فى هذا الكتاب .

خافوا عبوره بالعوم . فبعثوا رجلين منهم إلى جلال الدين صاحب مدينة أوجة ، فقالا له : إن ها هنا تجارا أرادوا أن يعبروا النهر . وقد بعثوا إليك بهذا السرج لتبيح لهم الجواز . فأنكر الأمير أن يعطى التجار مثل ذلك السرج ، وأمر بالقبض على الرجلين ، ففر أحدهما ولحق بشرف الملك وأصحابه وهم نيام ، لما لحقهم من الإعياء ومواصلة السهر ، فأخبرهم الخبر فركبوا مذعورين وفروا . وأمر جلال الدين بضرب الرجل الذى قبض عليه ، فاعترف بقضية شَرَف المُلْك . فأمر جلال الدين نائبه فركب فى العسكر وقصدوا نحوهم ، فوجدوهم قد ركبوا ، فاقتفوا أثرهم فأدركوهم ، فرموا العسكر بالنُّشاب . ورمى طاهر بن شرف الملك نائبَ الأمير جلال الدين بسهم فأثبته فى ذراعه . وغَلَبَ عليهم ، فأُتَى بهم إلى جلال الدين فقيدهم وغلّ أيديهم ، وكتب إلى الوزير فى شأنهم ، فأمره الوزير أن يبعثهم إلى الحضرة . فبعثهم إليها وسجنوا بها . فمات طاهر فى السجن . فأمر السلطان أن يضرب شرف الملك مائة مِقْرعة فى كل يوم . فبقى على ذلك مدّة . ثم عفا عنه . وبعثه مع الأمير نظام الدين أمير نجْلة إلى بلاد جَنْديرى . فانتهت حاله إلى أن كان يركب البقر ولم يكن له فرس يركبه . وأقام على ذلك مدّة . ثم وفد ذلك الأمير على السلطان وهو معه ، فجعله السلطان شاشنكيره (جاشنكير) ، وهو الذى يقطع اللحم بين يدى السلطان ، ويمشى مع الطعام . ثم إنه بعد ذلك نوه به ورفع مِقداره . وانتهت حاله إلى أن مرض فزارد السلطان ، وأمر بوزنه بالذهب وأعطاه ذلك . وقد قدمنا هذه الحكاية فى السِفر الأول . وبعد ذلك زوجه بأخته وأعطاه بلاد جنديرى التى كان بها يركب البقر فى خدمة الأمير نظام الدين . فسبحان مقلّب القلوب ومحوّل الأحوال .

ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند

وكان شاه أفغان خالف على السلطان بأرض مُلْتان من بلاد السند ، وقتل الأمير بها ، وكان يسمى (بِهْ زاد) . وادّعى السلطنة لنفسه . وتجهز السلطان لقتاله فعلم أنه لا يقاومه . فهرب ولحق بقومه الأفغان ، وهم ساكنون بجبال منيعة لا يُقْدَر عليها . فاغتاظ السلطان مما فعله ، وكتب إلى عماله أن يقبضوا على من وجدوه من الأفغان ببلاده . فكان ذلك سببا لخلاف القاضى جلال .

ذكر خلاف القاضى جلال

وكان القاضى جلال وجماعة من الأفغانيين قاطنين بمقربة من مدينة كِنْبَاية ومدينة بُلُوذْرَة . فلما كتب السلطان إلى عماله بالقبض على الأفغانيين ، كتب إلى (الملك مُقْبِل) نائب الوزير ببلاد الجُزَرَات ونَهْرُوَالة ، أن يحتال فى القبض على القاضى جلال ومن معه . وكانت بلاد بُلُوذْرَة إقطاعا لملك الحكماء . وكان ملك الحكماء متزوجا بربيبة السلطان زوجة أبيه تُغْلُق ، ولها بنت من تغلق ، هى التى تزوجها الأمير غَدَا . وملك الحكماء إذ ذاك فى صحبة مقبل ، لأن بلاده تحت نظره . فلما وصلوا إلى بلاد الجُزَرات أمر مقبل ملك الحكماء أن يأتى بالقاضى جلال وأصحابه . فلما وصل ملك الحكماء إلى بلاده ، حذَّرهم فى خُفْية لأنهم كانوا من أهل بلاده . وقال : إن مقبلا طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه إلا بالسلاح . فركبوا فى نحو ثلاثمائة مدرّع وأتوه ، وقالوا : لا ندخل إلا جملة . فظهر له أنه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون ، وخافهم فأمرهم بالرجوع ، وأظهر تأمينهم .

فخالفوا عليه ودخلوا مدينة كَنْباية ، ونهبوا خزانة السلطان بها وأموال الناس . ونهبوا مال ابن الكَوْلَمِيّ التاجر ، وهو الذى عمر المدرسة الحسنة بالإسكندرية . وسنذكره إثر هذا . وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة . وجاء الملك عزيز الخَمَّار والملك جِهان لقتالهم فى سبعة آلاف من الفرسان ، فهزموهم أيضا . وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانثالوا عليهم . وادعى القاضى جلال السلطنة وبايعه أصحابه . وبعث السلطان إليه العساكر فهزمها . وكان بدولة آباد جماعة من الأفغان فخالفوا أيضا .

ذكر خلاف ابن الملك مَلّ

وكان ابن الملك مَلّ ساكنا بدولة آباد فى جماعة من الأفغان . فكتب السلطان إلى نائبه بها وهو نظام الدين أخو معلمه قُطْلُوخان ، أن يقبض عليهم . وبعث إليه بأحمال كثيرة من القيود والسلاسل . وبعث بِخِلَع الشتاء . وعادة ملك الهند أن يبعث لكل أمير على مدينة ولوجوه عسكره خِلْعَتين فى السنة ، خِلعة الشتاء وخِلعة الصيف . وإذا جاءت الخلع يخرج الأمير والعسكر للقائها ، فإذا وصلوا إلى الآتى بها نزلوا عن دوابهم ، وأخذ كل واحد خِلْعة وحملها على كتفه ، وَخَدَم لجهة السلطان . وكتب السلطان لنظام الدين : إذا خرج الأفغان ونزلوا عن دوابهم لأخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك . وأتى أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع إلى الأفغان فأخبرهم بما يراد بهم . فكان نظام الدين ممن احتال فانعكست عليه . فركب وركب الأفغان معه حتى إذا لَقُوا الخلع ونزل نظام الدين عن فرسه ، حملوا عليه وعلى أصحابه ، فقبضوا عليه وقتلوا كثيرا من أصحابه ، ودخلوا المدينة فأخذوا الخزائن ، وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن الملك مَلّ ، وانثال عليهم المفسدون فقويت شوكتهم .

ذكر خروج السلطان بنفسه إلى كِنْباية

ولما بلغ السلطان ما فعله الأفغان بكنباية ودولة آباد ، خرج بنفسه وعزم على أن يبدأ بكنباية ثم يعود إلى دولة آباد . وبعث (أعظم ملك) البايزيدىّ صهره ، فى أربعة آلاف مُقَدَّمة ، فاستقبلته عساكر القاضى جلال ، فهزموه وحصروه بِبُلُوذْرة وقاتلوه بها . وكان فى عسكر القاضى جلال شيخ يسمى جَلُول ، وهو أحد الشجعان . فلا يزال يفتك بالعساكر ويقتل ويطلب المبارزة فلا يتجاسر أحد على مبارزته . واتفق يوما أنه دفع فرسه فكبا به فى حفرة فسقط عنه وقتل . ووجدوا عليه دِرعين فبعثوا برأسه إلى السلطان ، وصلبوا جسده بسور بُلُوذْرَة ، وبعثوا يديه ورجليه إلى البلاد . ثم وصل السلطان بعساكره ، فلم يكن للقاضى جلال من ثبات ، ففر فى أصحابه وتركوا أموالهم وأولادهم فَنُهِب ذلك كله . ودُخلت المدينة ، وأقام بها السلطان أياما ثم رحل عنها . وترك بها صهره شرف الملك أمير بَخْت الذى قدمنا ذكره وقضية فراره وأخذه بالسند وسَجْنه ، وما جرى عليه من الذل ثم من العز . وأمره بالبحث عمن كان فى طاعة جلال الدين . وترك معه الفقهاء ليحكم بأقوالهم ، فأدى ذلك إلى قتل الشيخ على الحَيْدَرِى على ما قدمناه . ولما هرب القاضى جلال لحق بناصر الدين ابن الملك مَلّ بدولة آباد ودخل فى جملته . فأتى السلطان بنفسه إليهم ، واجتمعوا فى نحو أربعين ألفا من الأفغان والترك والهنود والعبيد ، وتحالفوا على ألا يفروا ، وأن يقاتلوا السلطان . وأتى السلطان لقتالهم ، ولم يرفع (الشطر) (١) الذى هو علامة عليه . فلما استَحَرّ القتال رفع (الشطر) . فلما عاينوه دَهِشوا وانهزموا أقبح هزيمة ، ولجأ ابن الملك مَلّ والقاضى جلال فى نحو أربعمائة من خواصهما إلى قلعة الدُّوَيْقِير ، وسنذكرها .

(١) المظلة كما سبق ، غير عربية ، بل معربة عن (جتر) .

وهى من أمنع قلاع الدنيا . واستقر السلطان بمدينة دولة آباد ، والدويقير هى قلعتها . وبعث لهم أن ينزلوا على حكمه ، فأبوا أن ينزلوا إلا على الأمان ، فأبى السلطان أن يُؤَمِّنهم ، وبعث لهم الأطعمة تهاونا بهم ، وأقام هنالك . وعلى ذلك آخر عهدى بهم .

ذكر قتال مُقْبِل وابن الكَوْلَمِىّ

وكان ذلك قبل خروج القاضى جلالٍ وخلافه . وكان تاج الدين بن الكَوْلَمِىّ من كبار التجار ، فوفد على السلطان من أرض الترك بهدايا جليلة ، منها المماليك والجمال والمتاع والسلاح والثياب . فأعجب السلطان فعله وأعطاه اثنى عشر لكا[1] . ويذكر أنه لم تكن قيمة هديته إلا لكا واحدا . وولاه مدينة كِنْباية ، وكانت لنظر الملك مقبل نائب الوزير . فوصل إليها وبعث المراكب إلى بلاد المُلَيْبَار[2] وجزيرة سَيْلان وغيرها ، وجاءته التحف والهدايا فى المراكب ، وضَخُمت حاله . ولما لم يبعث أموال تلك الجهات إلى الحضرة ، بعث الملك مُقْبل إلى ابن الكَوْلَمِىّ أن يبعث ما عنده من الهدايا والأموال ، مع هدايا تلك الجهات على العادة ، فامتنع ابن الكَوْلَمِىّ من ذلك وقال : أنا أحملها بنفسى أو أبعثها مع خدامى . ولا حكم لنائب الوزير علىّ ، ولا للوزير . واغتر بما أولاه السلطان من الكرامة والعطية . فكتب مقبل إلى الوزير بذلك ، فوقّع له الوزير على ظهر كتابه : إن كنت عاجزا عن بلادنا فاتركها وارجع إلينا . فلما بلغه الجواب ، تجهز فى عسكره ومماليكه ، والتقيا بظاهر كِنْباية ، فانهزم ابن الكولمى ، وقُتل جماعة من الفريقين ، واستخفى

(١) سبق تعريف اللك فى ص ٦ (٢) المليبار .

ابن الكَوْلَمِيّ فى دار النَاخُذَاة (١) إلياس ، أحد كبراء التجار ، ودخل مقبل المدينة ، فضرب رقاب أمراء عسكر ابن الكولمى ، وبعث له الأمان ، على أن يأخذ ماله المختص به ، ويترك مال السلطان وهديته وَمَجْبَى البلد . وبعث مقبل بذلك كله مع خدامه إلى السلطان . وكتب شاكيا ابن الكولمى وكتب ابن الكَوْلَمِيّ شاكيا إياه. فبعث السلطان ملك الحكماء لينصف بينهما . وبإثر ذلك كان خروج القاضى جلال الدين ، فنَهَب مالَ ابن الكولمى . وفر ابن الكولمى فى بعض مماليكه ولحق بالسلطان .

ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند

وفى مدة مَغِيب السلطان عن حضرته ، إذ خرج يقصد بلاد المعْبَر ، وقع الغلاء واشتد الأمر وانتهى المَنّ إلى ستين درهما . ثم زاد على ذلك . وضاقت الأحوال وعظم الخطب . ولقد خرجت مرة إلى لقاء الوزير ، فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعا من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه . وكانت الجلود تطبخ وتباع فى الأسواق . وكان الناس إذا ذُبحت البقر أخذوا دماءها فأكلوها . وحدثنى بعض طلبة خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمى إكْرُوهة ، بين حَانْسِى وَسَرْسَتِى ، فوجدوها خالية ، فقصدوا بعض المنازل يبيتوا به ، فوجدوا فى بعض بيوته رجلا قد أضرم نارا وبيده رِجل آدمى ، وهو يشويها فى النار ويأكل منها ، والعياذ بالله. ولما اشتد الحال ، أمر السلطان أن يعطى جميع أهل دهلى نفقة ستة أشهر ، فكانت القضاة والكتّاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات ، ويكتبون الناس ويعطون كلّ أحد نفقة ستة أشهر ، بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب فى اليوم

---

(١) صاحب السفن أو وكيله ، معرّبة . قاموس .
وقال الشارح : المشهور عند أكثر المعرّبين إهمال دالها .

لكل واحد . وكنت فى تلك المدة أطعم الناس من الطعام الذى أصنعه بِمَقْبَرة السلطان قطب الدين، على ما يذكر. فكان الناس ينتعشون بذلك. والله تعالى ينفع بالقصد فيه . وإذ قد ذكرنا من أخبار السلطان وما كان فى أيامه من الحوادث ما فيه الكفاية ، فلنعد إلى ما يخصنا من ذلك ، ونذكر كيفية وصولنا أولا إلى حضرته، وتنقّل الحال إلى خروجنا عن الخدمة ، ثم خروجِنا عن السلطان فى الرسالة إلى الصين ، وعودنا منها إلى بلادنا ، إن شاء الله تعالى .

ذكر وصولنا إلى دار السلطان
عند قدومنا وهو غائب

ولما دخلنا حضرة دهلى قصدنا باب السلطان ، ودخلنا الباب الأول ثم الثانى ثم الثالث ، ووجدنا عليه النقباء . وقد تقدم ذكرهم . فلما وصلنا إليهم تقدم بنا نقيبهم إلى (مشور) عظيم متسع ، فوجدنا به الوزير خواجه جِهان ينتظرنا . فتقدم ضياء الدين خُدَاوَنْد زاده ، ثم تلاه أخوه قِوام الدين ، ثم أخوهما عماد الدين، ثم تلوتهم ، ثم تلانى أخوهم بُرْهان الدين، ثم الأمير مبارك السَّمَرْقَنْدِى ، ثم أَرُنْ بُغا التركى ، ثم ملك زاده ابن أخت خُداوند زاده ، ثم بدر الدين الفَصّال . ولما دخلنا من الباب الثالث ظهرلنا (المشور) الكبير المسمى هَزَار أُسْطُون ، ومعنى ذلك ألف سارية ، وبه يجلس السلطان الجلوس العام . فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض . وخدمنا نحن بالركوع ، وأوصلنا أصابعنا إلى الأرض . وخدمتنا لناحية سرير السلطان . وخدم جميع من معنا . فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء بأصوات عالية : باسم الله ، وخرجنا .

ذكر وصولنا إلى دار ام السلطان وذكر فضائلها

وأم السلطان تدعى المخدومة جهان . وهى من أفضل النساء ، كثيرة الصدقات ، عمرت زوايا كثيرة ، وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر . وهى مكفوفة البصر . وسبب ذلك أنه لما ملك ابنها جاء إليها جميع الخواتين ، وبنات الملوك والأمراء فى أحسن زىّ ، وهى على سرير الذهب المرصع بالجوهر . فخدمن بين يديها جميعا فذهب بصرها للحين . وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع . وولدها أشد الناس برًّا بها . ومن بره أنها سافرت معه مرة فتقدم السلطان قبلها بمدة ، فلما قدمت خرج لاستقبالها ، وترجّل عن فرسه وقبّل رجلها ، وهى فى المحَفَّة بمرأى من الناس اجمعين .

ولنعد لما قصدناه فنقول : ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه إلى باب الصرف ، وهم يسمونه باب الحرم . وهنالك سُكْنى المخدومة جهان . فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب ، وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله . ودخل معنا قاضى قضاة المماليك ، كمال الدين بن البرهان ، فخدم الوزير والقاضى عند بابها وخدمنا كخدمتهم . وكتب كاتب بابها هدايانا . ثم خرج من الفتيان جماعة ، وتقدم كبارهم إلى الوزير فكلموه سرا . ثم عادوا إلى القصر ، ثم رجعوا إلى الوزير ، ثم عادوا إلى القصر ، ونحن وقوف . ثم أمرنا بالجلوس فى سقيف هنالك . ثم أتوا بالطعام ، وأتو بقلال من الذهب مثل القدور . ولها مرافع من الذهب تجلس عليها . وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب . وجعلوا الطعام سماطين ، وعلى كل سماط صفان . ويكون فى رأس الصف كبير القوم الواردين . ولما تقدّمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء وخدمنا لخدمتهم . ثم أتوا بالشَّرْبة فشربنا . وقال الحجاب : باسم الله . ثم أكلنا ، وأتوا بالفُقّاع ثم بالتَّانَبُول[1] ، ثم قال الحجاب :

(١) تقدم فى الحواشى تفسير (الشربة) و (الفقاع) و (التانبول) .

باسم الله ، فخدمنا جميعا . ثم دُعينا إلى موضع هنالك ، فخلع علينا خِلع الحرير المذهبة . ثم أتوا بنا إلى باب القصر فخدمنا عنده ، وقال الحجاب : باسم الله . ووقف الوزير ووقفنا معه . ثم أخرج من داخل القصر تَخْتٌ (١) ثياب غير مخيطة من حرير وكتان وقطن . فأعطى كل واحد منا نصيبه منها . ثم أتوا بِطَيْفُور (٢) ذهب فيه الفاكهة اليابسة ، وبطيفور مثله فيه الجُلَّاب ، وطيفور ثالث فيه التَّانْبُول . ومن عادتهم أن الذى يخرج له ذلك يأخذ الطيفور بيده ويجعله على كاهله ، ثم يخدم بيده الأخرى إلى الأرض . فأخذ الوزير الطيفور بيده ليعلمنى كيف أفعل ، إيناسا منه وتواضعا ومَبَرَّة . جزاه الله خيرا . ففعلت كفعله . ثم انصرفنا إلى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلى . وبُعِثت لنا الضيافة .

ذكر الضيافة

ولما وصلت إلى الدار التى أُعِدّت لنزولى ، وجدت فيها ما يُحْتاج إليه من فرش وبُسُط وحُصُر وأوان وسرير الرقاد . وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل . يحمل السرير منها الرجل الواحد . ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير فى السفر يحمله غلامه على رأسه . وهو أربع قوائم مخروطة ، يعرض عليها أربعة أعواد . وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن . فإذا نام الإنسان عليه لم يحتج إلى ما يرطبه به ، لأنه يعطى الرطوبة من ذاته . وجاءوا مع السرير (بمُضَرَّبتين (٣)) ومِخَدَّتين ولحاف ، كل ذلك من الحرير . وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللُّحُف وجوها تغشّيها من كتان أو قطن بيضا ، فمتى توسخت

(١) التخت وعاء تصان فيه الثياب . قاموس .

(٢) الطيفور : طائر صغير كما فى القاموس . ويراد به هنا وعاء على صورة هذا الطائر ، كما يظهر .

(٣) يقصد بالمضربة الحشية .

غسلوا الوجوه وبقى ما فى داخلها مصونا . وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحونى ، والآخر الجزار، ويسمونه القصّاب، فقالوا لنا : خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ، ومن هذا كذا وكذا من اللحم ، لأوزان لا أذكرها الآن . وعادتهم أن يكون اللحم الذى يعطون بقدر وزن الدقيق . وهذا الذى ذكرناه ضيافة أم السلطان . وبعد ذلك وصلتنا ضيافة السلطان، وسنذكرها .

ولما كان من غد ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان ، وسلمنا على الوزير ، فأعطانى بْدَرتين كل بدرة من ألف دينار دراهم . وأعطانى خلعة من المِرْعِز[١] . وكتب جميع أصحابى وخدامى وغلمانى فَجَعلوا أربعة أصناف : فالصنف الأول منها أعطى كل واحد منهم مائتى دينار ، والصنف الثانى أعطى كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا ، والصنف الثالث أعطى كل واحد مائة دينار، والصنف الرابع أعطى كل واحد خمسة وسبعين دينارا . وكانوا نحو أربعين . وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيّفا . وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان ، وهى ألف رطل هندية من الدقيق ، ثلثها من الدَّرْمَك [٢] ، وثلثاها من الخشكار [٣] ، وألف رطل من اللحم ، ومن السكر والسمن والفَوْفَل أرطال كثيرة لا أذكر عددها . وألف من ورق التَّانَبُول . والرطل الهندى عشرون رطلا من أرطال المغرب ، وخمسة وعشرون من أرطال مصر . وكانت ضيافة خُدَاوَنْد زاده أربعة آلاف رطل من الدقيق ، ومثلها من اللحم، مع ما يناسبها مما ذكرناه .

---

(١) المرعز : الزغب الذى تحت شعر العنز . كما فى كتب اللغة .

(٢) الدرمك : دقيق الُحوّارَى . وهو الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق .

(٣) كلمة فارسية معناها ماخشن من الطحين . ويسمى بالعربية القُصْرَى كبشرى .

ذكر وفاة بنتي وما فعلوا في ذلك

ولما كان بعد شهر ونصف من مَقْدَمِنا ، توفيت بنت لى سنها دون السنة. فاتصل خبر وفاتها بالوزير، فأمر أن تدفن في زاوية بناها في خارج (دِرْوَازة بَالَم)، بقرب مقبرة هنالك لشيخنا إبراهيم القُونَوِى . فدفناها بها. وكتب بخبرها إلى السلطان ، فأتاه الجواب فى عَشِىّ اليوم الثانى . وكان بين مُتَصَيَّد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام . وعادتهم أن يخرجوا إلى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه ، ويَفْرُشون جوانب القبر بالبُسُط وثياب الحرير ، ويجعلون على القبر الأزاهير ، وهى لا تنقطع هنالك فى فصل من الفصول . ويجعلون أغصان النَّارَنْج والليمون بثمارها . وإن لم يكن فيها ثمار علّقوا منها حبات بالخيوط . ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجَوْز النَّارَجيل . ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرءون القرآن . فإذا ختموه أتوا بماء الجُلَّاب[1] فسقوه الناس . ثم يصب عليهم ماء الورد صبا . ويعطون التَّانْبُول وينصرفون.

ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت ، خرجت عند الصبح على العادة وأعددت ما تيسر من ذلك كله ، فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك ، وأمر بسرّاجة فضربت على القبر ، وجاء الحاجب شمس الدين الفُوشَنْجى[2] ، الذى تلقانا بالسند ، والقاضى نظام الدين الكَرَوانى[3] ، وجملة من كبار أهل المدينة . ولم آت إلا والقوم قد أخذوا مجالسهم والحاجب بين أيديهم ، وهم يقرءون القرآن . فقعدت مع أصحابى بمقربة من القبر . فلما فرغوا من القراءة قرأ القراء بأصوات حسان . ثم قام القاضى فقرأ رثاء فى البنت المتوفاة وثناء على السلطان . وعند ذكر اسمه

(١) الجُلَّاب ماء الورد معرب . قاموس .

(٢) نسبة إلى فُوشَنْج وهى بُوشَنْج . انظر ص ١٣

(٣) لعله نسبة إلى كَرَوان ، قرية بطُوس . ياقوت .

قام الناس جميعا قياما فخدموا ثم جلسوا . ودعا القاضى دعاء حسنا ، ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد فصبوه على الناس ، ثم داروا عليهم بأقداح شَرْبة النبات . ثم فرقوا عليهم التَّانْبُول . ثم أتى بإحدى عشرة خلعة لى ولأصحابى . ثم ركب الحاجب وركبنا معه إلى دار السلطان ، فخدمنا للسرير على العادة . وانصرفت إلى منزلى . فما وصلت حتى جاء الطعام من دار المخدومة جهان ، ما ملأ الدار ودُور أصحابى . وأكلوا جميعا وأكل المساكين . وفضلت الأقراص والحلواء والنبات ، فأقامت بقاياها أياما . وكان ذلك كله بأمر السلطان . وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان (بالدولة) وهى المِحَفّة التى تُحْمل فيها النساء ويركبها الرجال أيضا ، وهى شبه السرير ، سطحها من ضفائر الحرير أو القطن ، وعليها عود معوج من القصب الهندى ، يحملها ثمانية رجال فى نَوْبتين ، يستريح أربعة ويحمل أربعة . وهذه (الدول) بالهند كالحمير بديار مصر ، عليها يُحْمل أكثر الناس ، فمن كان له عبيد حملوه ، ومن لم يكن له عبيد اكترى رجالا يحملونه . وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون فى الأسواق ، وعند باب السلطان وعند أبواب الناس للكراء . وتكون (دول) النساء مغشاة بغشاء حرير . وكذلك كانت هذه (الدولة) التى أتى الفتيان بها من دار أم السلطان ، فحملوا فيها جاريتى التى هى أم البنت المتوفاة . وبعثت أنا معها هدية جارية تركية . فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة ، وجاءت فى اليوم الثانى ، وقد أعطوها ألف دينار دراهم وأساور ذهب مرصعة وتهليلا [1] من الذهب مرصعا أيضا ، وقميص كتان مزركشا بالذهب ، وخلعة حرير مذهبة وتختا بأثواب . ولما جاءت بذلك كله أعطيته أصحابى والتجار الذين لهم علىّ الدين ، محافظة على نفسى وصونا لعرضى ، لأن المخبرين يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالى .

---

(١) نوع من القلائد ، غير عربية فى هذا المعنى ، فيما نعلم .

ذكر إحسان السلطان والوزير إلىّ في أيام غَيْبة السلطان عن الحضرة

وفى أثناء مُقامى أمر السلطان أن يعيّن لى من القُرى ما يكون فائده خمسة آلاف دينار فى السنة. فعينها لى الوزير وأهل الديوان ، وخرجت إليها . وهذه القرى على مسافة ستة عشر (كُرُوها) وهو الميل ، بِصَدًّى يعرف بصدى هِنْدُبَت ، والصدى عندهم مجموع مائة قرية . وأحْواز المدينة مقسومة أصداء ، كل صدى له (جَوْطَرِىّ) ، وهو شيخ من كفار تلك البلاد ، ومتصرف ، وهو الذى يضم مجابيها . وكان قد وصل فى ذلك الوقت سبْى من الكفار ، فبعث الوزير إلىّ عشر جوار منه .

والكفار ببلاد الهند فى برّ متصل و بلاد متصلة مع المسلمين . والمسلمون غالبون عليهم . و إنما يمتنع الكفار بالجبال والأوعار ، ولهم غَيْضات من القصب . وقصبهم غير مجوّف ، و يعظم و يلتف بعضه على بعض ، ولا تؤثر فيه النار . وله قوة عظيمة . فيسكنون تلك الغياض وهى لهم مثل السور . وبداخلها تكون مواشيهم و زروعهم ، ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر ، فلا يُقْدَر عليهم إلا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ، و يقطعون ذلك القَصَب بآلات معدّة لذلك .

ذكر العيد الذى شهدته أيام غَيْبة السلطان

وأظل عيد الفطر والسلطان لم يعد بعد إلى الحضرة . فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل ، وقد مهد له على ظهره شبه السرير . وركزت أربعة أعلام فى أركانه الأربعة . ولبس الخطيب ثياب السواد . وركب المؤذنون على الفيلة يُكَبِّرون أمامه، وركب فقهاء المدينة وقضاتها . وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج إلى المصلى . ونصب على المصلَّى (صيوان) قطن ، وفرش ببسط . واجتمع الناس ذاكرين لله تعالى . ثم صلى بهم الخطيب وخطب ، وانصرف الناس إلى منازلهم ، وانصرفنا إلى دار السلطان. وجعل الطعام، فحضره الملوك والأمراء والأعزة وهم الغرباء ، وأكلوا وانصرفوا .

ذكر قدوم السلطان ولقائنا له

ولما كان فى رابع شوّال نزل السلطان بقصر يسمى تِلْبَت ، على مسافة سبعة أميال من الحضرة . فأمرنا الوزير بالخروج إليه فخرجنا ، ومع كل إنسان هديته من الخيل والجمال والفواكه الُخراسانية والسيوف المصرية ، والمماليك والغنم المجلوبة من بلاد الأتراك . فوصلنا إلى باب القصر وقد اجتمع جميع القادمين ، فكانوا يدخلون إلى السلطان على قدر مراتبهم ، ويخلع عليهم ثياب الكتّان المزركشة بالذهب . ولما وصلت النوبة إلىّ ، دخلت فوجدت السلطان قاعدا على كرسى ، فظننته أحد الحجاب ، حتى رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافى الهَرَوِىّ، وكنت عرفته أيام غَيْبةِ السلطان . فخدم الحاجب فخدمت . واستقبلنى (أمير حاجب) ، وهو ابن عم

السلطان المسمى بِفَيْرُوز ، وخدمت ثانية لخدمته . ثم قال لى ملك الندماء : باسم الله ، مولانا بدر الدين ، وكانوا يدعوننى بأرض الهند بدر الدين . وكل من كان من أهل الطلب إنما يقال له مولانا . فَقَرُبت من السلطان ، حتى أخذ بيدى وصافحنى وأمسك يدى ، وجعل يخاطبنى بأحسن خطاب ، ويقول لى باللسان الفارسى : حلّت البركة ، قدومك مبارك ، (اجمع خاطرك[١]) ، أعمل معك من المراحم ، وأعطيك من الإنعام ما يسمع به أهل بلادك فيأتون إليك . ثم سألنى عن بلادى ، فقلت له : بلاد المغرب . فقال لى : بلاد عبد المؤمن؟ فقلت له : نعم . وكان كلما قال لى كلاما جيدا قبلت يده ، حتى قبلتها سبع مرات . وخلع علىّ وانصرفت . واجتمع الواردون ، فمدّ لهم سماط ، ووقف على رءوسهم قاضى القضاة صدْر الجهان ناصر الدين الخُوَارَزْمِىّ ، وكان من كبار الفقهاء ، وقاضى قضاة المماليك صدر الجهان كمال الدين الغَزْنَوِىّ ، وعماد المُلْك ، والملك جلال الدين الكِيجِىّ ، وجماعة من الحجاب والأمراء . وحضر لذلك خُدَاوَنْدزاده غِياث الدين ، ابن عم خداوند زاده قِوام الدين قاضى تِرْمِذ الذى قَدم معنا . وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالأخ ، وتردد إليه مرارا من بلاده .

والواردون الذين خلع عليهم فى ذلك اليوم هم خُداوند زاده قِوام الدين ، وإخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين ، وابن أخته أمير بَخْت ابن السيد تاج الدين ، وكان جده وجيه الدين وزير خُراسان ، وكان خاله علاء الدين أمير هِنْد ووزيرا أيضا ، والأمير هبة الله ابن الفلكى التَّبْرِيزى ، وكان أبوه نائب الوزير بالعراق ، وهو الذى بنى المدرسة الفلكية بتَبريز ، وملك كَرَاىْ من أولاد بَهْرام جور صاحب كِسْرى ، وهو من أهل جبل

(١) تعبير غريب . ويظهر أنه يريد : كن مطمئنا إلى الإقامة بيننا .

بَذَخْشان الذى منه يجلب الياقوت البَلَخْش واللازَوَرْد ، والأمير مبارك شاه السَمَرْقَنْدى ، وأَرُن بُغا البُخارى ، وملك زاده التِرْمِذى ، وشهاب الدين الكَازَرُونى (١) التاجر الذى قَدِم من تبْرِيز بالهدية إلى السلطان ، فَسُلِب فى طريقه .

ذكر دخول السلطان حضرته وما أمر لنا به من المراكب

وفى الغد من يوم خروجنا إلى السلطان ، أُعْطِى كل واحد منا فرسا من مراكب السلطان ، عليه سرج ولجام مُحَلَّيان . وركب السلطان لدخول حضرته ، وركبنا فى مقدمته مع صدر الجِهان ، وزينت الفيلة أمام السلطان ، وجعلت عليها الأعلام ، ورفع عليها ستة عشر (شطرا) ، منها مزركشة ومنها مرصعة ، ورفع فوق رأس السلطان (شطر) منها . وحملت أمامه الغاشية وهى ستارة مرصعة ، وجعل على بعض الفيلة رعَّادات (٢) صغار . فلما وصل السلطان إلى قرب المدينة ، رمى فى تلك الرعادات بالدنانير والدراهم مختلطة ، والمشاة بين يدى السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك . ولم يزالوا ينثرونها إلى أن وصلوا إلى القصر . وكان بين يديه آلاف من المشاة على الأقدام . وصنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير ، وفيها المغنيات ، على ما ذكرنا ذلك .

---

(١) نسبة الى كازَرُون ، مدينة بفارس بين البحرين وشيراز . ياقوت .

(٢) سبق تفسيرها فى الحواشى .

ذكر دخولنا عليه
وما أنعم به من الإحسان والولاية

ولما كان يوم الجمعة ثانى يوم دخول السلطان، أتينا باب (المشور) فجلسنا فى سقائف الباب الثالث . ولم يكن قد أذن لنا بالدخول ، وخرج الحاجب شمس الدين الفُوشَنْجى ، فأمر الكتّاب أن يكتبوا أسماءنا ، وأذن لهم فى دخولنا ودخول بعض أصحابنا . وعين للدخول معى ثمانية ، فدخلنا ودخلوا معنا . ثم جاءوا بالبِدَر والقَبَّان وهو الميزان . وقعد قاضى القضاة والكتّاب، ودعوا من بالباب من الأعزة وهم الغرباء، فعينوا لكل إنسان نصيبه من تلك البدر . فكان لى منها خمسة آلاف دينار . وكان مبلغ المال مائة ألف دينار ، تصدقت به أم السلطان لمّا قدم ابنها . وانصرفنا ذلك اليوم . وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ، ويسأل عن أحوالنا ويخاطبنا بأجمل كلام . ولقد قال لنا فى بعض الأيام : أنتم شرفتمونا بقدومكم، فما نقدر على مكافأتكم، فالكبير منكم فى مقام والدى، والكهل فى مقام أخى ، والصغير فى مقام ولدى ، وما فى ملكى أعظم من مدينتى هذه أعطيكم إياها . فشكرناه ودعونا له . ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات، فعين لى اثنى عشر ألف دينار فى السنة ، وزادنى قريتين على الثلاث التى أمر لى بها قبل : إحداهما قرية جَوْزة والثانية قرية مَلِك بُور . وفى بعض الأيام بعث لنا خُداوَنْدزاده غياثَ الدين وقُطْبَ المُلْك صاحبَ السند ، فقالا لنا إن خَوَنْدَ عَالَم يقول لكم : من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك . فسكت الجميع لأنهم كانوا يريدون تحصيل الأموال والانصراف إلى بلادهم . وتكلم أمير بخت ابن السيد تاج الدين

الذى تقـدم ذكره فقال : أما الوزارة فميراثى وأما الكتّابة فشغلى ، وغير ذلك لا أعرفه . وتكلم هبة الله ابن الفلكى، فقال مثل ذلك . وقال لى خُدَاوَنْدزاده بالعربى: ما تقول أنت ياسيدى ؟ وأهل تلك البلاد ما يدعون العربى إلا بالتسويد ، وبذلك يخاطبه السلطان تعظيما للعرب . فقلت له : أما الوزارة والكتابة فليستا شغلى ، وأما القضاء والمشيخة فشغلى وشغل آبائى ، وأما الإمارة فتعلمون أن الأعاجم ما أسلمت إلا بأسياف العرب . فلما بلغ ذلك السلطان أعجبه كلامى . وكان (هَزَار أُسْطون) يأكل الطعام ، فبعث إلينا فأكلنا بين يديه وهو يأكل. ثم انصرفنا إلى خارج هَزَار أُسْطون ، فقعد أصحابى، وانصرفت بسبب دُمَّل كان يمنعنى الجلوس. فاستدعانا السلطان ثانية، فحضر أصحابى واعتذروا له عنى . وجئت بعد صلاة العصر فصليت (بالمشور) المغرب والعشاء الآخرة . ثم خرج الحاجب فاستدعانا فدخل خُدَاوَنْدزاده ضياء الدين، وهو أكبر الإخوة المذكورين، فجعله السلطان (أمير داد) ، وهو من الأمراء الكبار . فجلس بمجلس القاضى ، فمن كان له حق على أمير أو كبير أحضره بين يديه . وجعل مرتبه على هذه الخُطَّة [1] خمسين ألف دينار فى السنة.وعيّن له مَجَاشِر [2] فائدها ذلك المقدار ، وأمر له بخمسين ألفا عن يد، وخلع عليه خلعة حرير مزركشة، تسمى صورة الشِير ، ومعناه صورة السبع ، لأنه يكون فى صدرها وظهرها صورة سبع . وأمر له بفرس من الجنس الأول . والخيل عندهم أربعة أجناس . وسروجهم كسروج أهل مصر ، ويكسون أَعْظَمها بالفضة المذهبة . ثم دخل أمير بَخْت ، فأمره أن يجلس مع الوزير فى مُسْنَده، ويقف على محاسبات الدواوين، وعين له مرتبا أربعين ألف دينار فى السنة ، وأُعطى مجاشر فائدها بمقدار ذلك، وأُعْطِى أربعين ألفا عن يد ،

(١) المقصود بالخطة : العمل الذى يتولاه وهو القضاء .

(٢) يراد بها هنا المراعى ، جمع مجشر ، وقوله (فائدها ذلك المقدار) أى مستغلها ذلك .

وأعطى فرسا مجهزا ، وخلع عليه كخلعة الذى قبله ، واقب شرف المُلْك . ثم دخل هبة الله ابن الفلكى بجعله (رسول دار) ، ومعناه حاجب الإرسال . وعين له مرتبا أربعين ألف دينار فى السنة ، وأُعْطِى مجاشر يكون فائدها بمقدار ذلك ، وأعطى أربعة وعشرين ألفا عن يد ، وأعطى فرسا مجهزا وخِلْعة ، وجعل لقبه بهاء الملك .

ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستندا إلى السرير ، والوزير خواجه جِهان بين يديه ، والملك الكبير قَبُولة واقف بين يديه . فلما سلمت عليه قال لى الملك الكبير : اخْدُم فقد جعلك خَوَنْد عالَم قاضى دار الملك ، دِهْلى ، وجعل مرتبك اثنى عشر ألف دينار فى السنة ، وعين لك مجاشر بمقدارها ، وأمر لك باثنى عشر ألفا نقدا ، تأخذها من الخزانة غدا إن شاء الله ، وأعطاك فرسا بسرجه ولجامه ، وأمر لك بخلعة مُحرابية ، وهى التى يكون فى صدرها وظهرها شكل محراب . فخدمت . وأخذ بيدى فتقدم بى إلى السلطان ، فقال لى السلطان : لا تحسب قضاء دهلى من أصغر الأشغال ، هو أكبر الأشغال عندنا . وكنت أفهم قوله ولا أحسن الجواب عنه . وكان السلطان يفهم العربى ولا يحسن الجواب عنه . فقلت له : يامولانا ، أنا على مذهب مالك وهؤلاء حنفية ، وأنا لا أعرف اللسان . فقال لى : قد عينت بهاء الدين المُلْتَانىّ وكمال الدين البِجْنَوْرِىّ ينوبان عنك ويشاورانك ، وتكون أنت تسجل على العقود ، وأنت عندنا بمقام الوالد . فقلت له : بل عبدكم وخادمكم . فقال لى باللسان العربى : بل أنت سيدنا ومخدومنا ، تواضعا منه وفضلا وإيناسا . ثم قال لشرف المُلْك أمير بَخْت : إن كان الذى رُتّب له لا يكفيه ، لأنه كثير الإنفاق ، فأنا أعطيه زاوية ، إن قدر على إقامة حال الفقراء . وقال : قل له هذا بالعربى . وكان يظن أنه يحسن العربى ، ولم يكن كذلك . وفهم السلطان ذلك ، فقال له : امشيا الليلة فارقدا فى موضع واحد ،

وفهمه هذه الحكاية . فإذا كان الغد إن شاء الله تجيء إلىّ وتعلمنى بكلامه . فانصرفنا وذلك فى ثلث الليل ، وقد ضُربت النَوْبة . والعادة عندهم إذا ضربت أنه لايخرج أحد. فانتظرنا الوزير حتى خرج وخرجنا معه . ووجدنا أبواب دهلى مسدودة ، فبتنا عند السيد أبى الحسن العِبَادىّ العِراقىّ ، بزُقَاق يعرف بسَرَابُورْخَان . وكان هذا الشيخ يتجر بمال السلطان ويشترى له الأسلحة والأمتعة بالعراق وخراسان . ولما كان الغد بُعث إلينا فقبضنا الأموال والخيل والخلع . وأخذ كل واحد منا البِدْرة بالمال ، فجعلها على كاهله . ودخلنا كذلك على السلطان فخدمنا ، وأتينا بالأفراس فقبلنا حوافرها ، بعد أن جعلت عليها الخرق . وقدناها بأنفسنا إلى باب دار السلطان ، فركبناها . وذلك كله عادة عندهم . ثم انصرفنا وأمر السلطان لأصحابى بألفى دينار وعشر خلع . ولم يعط أصحاب أحد سواى شيئا . وكان أصحابى لهم رُواء ومنظر ، فأعجبوا السلطان ، وخدموا بين يديه وشكرهم .

ذكر عطاء ثان أمر لى به ، وتوقُّفه مدة

وكنت يوما (بالمشور) بعد أيام من توليتى القضاء والإحسان إلىّ ، وأنا قاعد تحت شجرة هنالك ، وإلى جانبى مولانا ناصر الدين الترْمذى العالم الواعظ ، فأتى بعض الحجاب فدعا مولانا ناصر الدين ، فدخل إلى السلطان فخلع عليه ، وأعطاه مصحفا مكللا بالجوهر . ثم أتانى بعض الحجاب فقال : أعطنى شيئا فآخذ لك (خَطّ خُرْد)[1] باثنى عشر ألفا ، أمر لك بها خَوَنْد عَالَم ، فلم أصدقه ، وظننته يريد الحيلة علىّ ، وهو جادّ فى كلامه . فقال بعض الأصحاب أنا أعطيه ، فأعطاه دينارين أو ثلاثة وجاء (بخَطّ خُرْد) ، ومعناه الخط الأصغر ، مكتوبا

(١) يمكن أن يفسر بعبارة (إذن الصرف) فى الاصطلاح المالى الآن .

بتعريف الحاجب ، ومعناه : أمر خَوَنْد عَالَم أن يعطى فلان من الخزانة الموفورة كذا ، بتبليغ فلان أى بتعريفه. و يكتب المبلغ اسمه ، ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الأمراء: وهم الخان الأعظم قُطْلوخان ، معلم السلطان ، والخريطة دار ، وهو صاحب خريطة الكاغد والأقلام ، والأمير نُكْبية (الدوادار) ، صاحب الدواة. فإذا كتب كل واحد منهم خطه ، يذهب بالبراءة إلى ديوان الوزارة ، فينسخها كتاب الديوان عندهم ، ثم تثبت فى ديوان الإشراف ، ثم تثبت فى ديوان النظر ، ثم تكتب (البِرْوانة) ، وهى الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ، ثم يثبتها الخازن فى ديوانه . و يكتب تلخيصا فى كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان من المال و يعرضه عليه . فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ، ومن أراد التأجيل اجل له ، ولكن لا بد من عطاء ذلك ولو طالت المدة. فقد أجلت هذه الاثنا عشر ألفا ستة أشهر ، ثم أخذتها مع غيرها على ما يأتى. وعادتهم إذا أمر السلطان بإحسان لأحد أن يُحطّ منه العُشُر . فمن أمر له مثلا بمائة ألف أعطى تسعين ألفا ، أو بعشرة آلاف أعطى تسعة آلاف .

ذكر طلب الغرماء مالهم قِبَلى ، ومدحى للسلطان ، وأمره بخلاص دينى ، وتوقف ذلك مدة

وكنت على ما ذكرته قد استدنت من التجار مالا أنفقته فى طريقى ، وما صنعت به الهدية للسلطان ، وما أنفقته فى إقامتى . فلما أرادوا السفر إلى بلادهم ألحوا على فى طلب ديونهم. فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أولها :

إليك أمير المؤمنين المبجّلا * أتينا نجدّ السير نحوك فى الفلا
فجئت محلا من علائك زائرا * ومغناك كهف للزيارة أُهّلا

فلو أنّ فوق الشمس للمجد رتبة * لكنت لأعلاها إماما مؤهّلا
فأنت الإمام الماجد الأوحد الذى * سجاياه حتما أن يقول ويفعلا
ولى حاجة من فيض جودك أرتجى * قضاها وقصدى عند مجدك سُهِّلا
أأذكرها أم قد كفانى حياؤكم * فإن حياكم ذكره كان أجملا
فَعَجِّلْ لمن وافى محلك زائرا * قضا دينه إن الغريم تعجّلا

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسىّ ، فجعلها على ركبته ، وأمسك طرفها بيده ، وطرفها الثانى بيدى. وكنت إذا أكملت بيتا منها أقول لقاضى القضاة كمال الدين الغَزْنَوِى : بين معناه لخَوَنْد عالَم ، فيبينه ، ويعجب السلطان . وهم يحبون الشعر العربى . فلما بلغت قولى : فعجل لمن وافى ، البيت ، قال : مرحمة. ومعناه : ترحمت عليك . فأخذ الحجاب حينئذ بيدى ليذهبوا بى إلى موقفهم ، وأخدم على العادة . فقال السلطان : اتركوه حتى يكملها فأكملتها وخدمت . وهنأنى الناس بذلك . وأقمت مدة وكتبت رَفْعًا ، وهم يسمونه (عرض داشت) ، فدفعته إلى قطب المُلْك صاحب السند فدفعه للسلطان. فقال له : امض إلى خواجة جهان فقل له يعطى دينه ، فمضى إليه وأعلمه فقال : نعم . وأبطأ أياما . وأمره السلطان فى خلالها بالسفر إلى دولة آباد . وفى أثناء ذلك خرج السلطان إلى الصيد، وسافر الوزير ، فلم آخذ شيئا إلا بعد مدة .

والسبب الذى توقف به العطاء أذكره مستوفى : وهو أنه لما عزم الذين كان لهم علىّ دين على السفر ، قلت لهم : إذا أنا أتيت دار السلطان (فَدَرِّهونى)[١] ، على العادة فى تلك البلاد، لعلمى أن السلطان متى علم بذلك خاصهم . وعادتهم أنه متى كان لأحد دين على رجل من ذوى العناية وأعوزه خلاصه ، وقف له بباب دار السلطان . فإذا أراد الدخول قال له :

---

(١) احجُزوا علىّ ، وقولوا لى : (دَرُوهى السلطان) ، كما فى الصفحة التالية . وقد اشتق المؤلف هذا الفعل من كلمة (دَرُوهى) ، كما هو ظاهر .

(دَرُوهَى)(١) السلطان ، وحق رأس السلطان ما تدخل حتى تخلّصنى ، فلا يمكنه أن يبرح مكانه حتى يخلصه أو يرغب إليه فى تأخيره . فاتفق يوما أن خرج السلطان إلى زيارة قبر أبيه ونزل بقصر هنالك . فقلت لهم : هـذا وقتكم . فلما أردت الدخول وقفوا لى بباب القصر ، فقالوا لى : (دَروهَى) السلطان ، ما تدخل حتى تخلصنا . وكتب كتّاب الباب بذلك إلى السلطان ، فخرج (حاجب قصة) شمس الدين ، وكان من كبار الفقهاء ، فسألهم لأى شئ (دَرَّهتُموه) ؟ فقالوا : لنا عليه الدين. فرجع إلى السلطان فأعلمه بذلك . فقال له : اسألهم كم مبلغ الدين ؟ فسألهم ، فقالوا له : خمسة وخمسون ألف دينار . فعاد إليه فأعلمه . فأمره أن يعود إليهم ويقول : إن خَوَنْدَ عَالَم يقول لكم : المـال عندى وأنا أنصفكم منه ، فلا تطالبوه به . وأمر عمـاد الدين السِّمْنانى وخُدَاوَنْد زاده غياث الدين أن يقعدا (بِهَزَار أُسْطُون) ، ويأتى أهل الدين بعقودهم ، وينظرا إليهـا ويتحققاها . ففعـلا ذلك . وأتى الغرماء بعقودهم ، فدخلا على السلطان وأعلمـاه بثبوت العقـود ، فضحك وقال ممازحا : أنا أعلم أنه قاض جَهَّز شغله فيها . ثم أمر خُداوند زاده أن يعطينى ذلك من الخزانة ، فطمع فى الرشوة على ذلك ، وامتنع أن يكتب(خَطّ خُرْد)، فبعثت إليه مائتى تنكة . فردها ولم يأخذها. وقال لى عنه بعض خدامه: إنه طلب خمسمائة تنكة . فامتنعت من ذلك، وأعلمت عَميد الملك بن عماد الدين السِّمنانى بذلك . فأعلم به أباه وعلمه الوزير . وكانت بينه و بين خُدَاوَنْد زاده عداوة . فأعلم السلطان بذلك، وذكر له كثيرا من أفعال خُداوند زاده ، فغير خاطر السلطان عليه، فأمر بحبسه فى المدينة. وقال : لأى شىء أعطاه فلان ما أعطاه ؟ قِفُوا ذلك حتى يُعلم هل يعطى خُدَاوند زاده شيئا إذا منعتُه ، أو يمنعه إذا أعطيتُه . فبهذا السبب توقف عطاء دينى(٢) .

---

(١) يا عدوّ السلطان !

(٢) فى عبارة السلطان شىء من غموض المعنى .

ذكر خروج السلطان إلى الصيد وخروجى معه وما صنعت فى ذلك

ولما خرج السلطان إلى الصيد خرجت معه من غير تربّص وكنت قد أعددت مايحتاج إليه، وعملت ترتيب أهل الهند: فاشتريت (سَرَّاجة)، وضربها هنالك مباح. ولابدّ منها لكبار الناس. وتمتاز سراجة السلطان بكونها حمراء، وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق. واشتريت (الصيوان) وهو الذى يظلل به داخل السراجة، ويرفع على عمودين كبيرين. ويحمل ذلك الرجال على أعناقهم ويقال لهم (الكيوانية). والعادة هنالك أن يكترى المسافر (الكيوانية) وقد ذكرناهم، ويكترى من يسوق له العُشب لعلف الدواب، لأنهم لا يُطعِمونها التبن، ويكترى (الكهّارين)، وهم الذين يحملون أوانى المطبخ، ويكترى من يحمله فى (الدولة)، وقد ذكرناها، ويحملها فارغة، ويكترى الفراشين، وهم الذين يضربون السرّاجة ويفْرُشونها ويرفعون الأحمال على الجمال. ويكترى (الدَّوادويَّة)، وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل. فاكتريت أنا جميع من احتجت إليه منهم وأظهرت القوة والهمة. وخرجت يوم خروج السلطان، وغيرى أقام بعده اليومين والثلاثة. فلمّا كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل، وقصده أن يطّلع على أحوال الناس ويعرف من سارع إلى الخروج ومن أبطأ. وجلس خارج السراجة على كرسىّ، فجئت وسلمت، ووقفت فى موقفى بالميمنة، فبعث إلى الملك الكبير قَبُولة، فأمرنى بالجلوس عناية بى، ولم يجلس فى ذلك اليوم سوائى. ثم أتِى بالفِيل وأُلصِق به سُلَّم فركب عليه، ورفع (الشطر) فوق رأسه، وركب معه الخواص، وجال ساعة. ثم عاد إلى السراجة. وعادته إذا ركب أن

يركب الأمراء أفواجا، كل أمير بفَوْجه وعلاماته وطبوله (وأنقاره وصُرْنا ياته). ويسمون ذلك المراتب . ولا يركب أمام السلطان إلا الحجاب وأهل الطرق والطبالة الذين يتقلدون الأطبال الصغار، والذين يضربون الصرنايات. ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلا، وعن يساره مثل ذلك، منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعزة . وكنت أنا من أهل مَيْمَنته . ويكون بين يديه المشاءون والأدلاء . ويكون خلفه علاماته، وهي من الحرير المذهب، والأطبال على الجمال، وخلف ذلك مماليكه وأهل دُخْلته (١)، وخلفهم الأمراء وجميع الناس .

ولا يعلم أحد أين يكون النزول . فإذا أمر السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول . ولا تضرب سرّاجة أحد حتى تضرب سراجته . ثم يأتي الموكلون بالنزول فينزلون كل أحد في منزله . وفي خلال ذلك ينزل السلطان على نهر أو بين أشجار . وتقدم بين يديه لحوم الأغنام والدجاج المسمّنة والكراكيّ (٢) وغيرها من أنواع الصيد . ويحضر أبناء الملوك وفي يد كل واحد منهم سَفُّود (٣)، ويوقدون النار ويشتوون ذلك . ويؤتى (بسَّراجة) صغيرة فتضرب للسلطان، ويجلس من معه من الخواص في خارجها، ويؤتى بالطعام ويستدعي من شاء فيأكل معه . وكان في بعض تلك الأيام وهو بداخل السراجة يسأل عمن بخارجها . فقال له السيد ناصر الدين مُطَهّر الأوْهَري أحد ندمائه : ثَمَّ فلان المغربي وهو متغير . فقال لماذا ؟ فقال : بسبب الدين الذي عليه وغرماؤه يُلِحُّون في الطلب، وكان خَوَنْدَ عَالَم قد أمر الوزير (٤) بإعطائه فسافر قبل ذلك . فإن أمر مولانا أن يصبر أهل الدين حتى يقدم الوزير، أو أمر بإنصافهم . وحضر لهذا الملك دَوْلة شاه، وكان السلطان يخاطبه بالعم، فقال : ياخَوَنْدَ عَالَم، كل يوم هو يكلمني بالعربية

(١) بطانته، بثلثة الدال . (٢) جمع كُرْكي، طائر .
(٣) السفود الحديدة التي يشوى بها اللحم . (٤) أي خواجة جهان .

ولا أدرى ما يقول ؟ يا سيدى ناصر الدين ماذا ؟ فقال : يتكلم لأجل الدين الذى عليه . فقال السلطان : إذا دخلنا دار الملك فامض أنت يا أومار ، ومعناه يا عم ، إلى الخزانة فأعطه ذلك المال . وكان خُداوَنْد زاده حاضرا فقال : يا خَوَنْد عَالَم ، إنه كثير الإنفاق وقد رأيته ببلادنا عند السلطان طَرْمَشِيرين . وبعد هذا الكلام استحضرنى السلطان للطعام ولا علم عندى بما جرى . فلما خرجت قال لى السيد ناصر الدين : اشكر للملك دولة شاه . وقال لى الملك دولة شاه : اشكر لخُداوَنْدزاده . وفى بعض تلك الأيام ونحن مع السلطان فى الصيد ، ركب فى المَحَلَّة ، وكان طريقه على منزلى ، وأنا معه فى الميمنة ، وأصحابى فى السَّاقَة . وكان لى خباء عند (السراجة). فوقف أصحابى عندها وسلَّموا على السلطان ، فبعث عماد المُلْك والملك دولة شاه ليسألا : لمن تلك الأخبية والسراجة ؟ فقيل لهما : لفلان ، فأخبراه بذلك فتبسم . فلما كان الغد نفذ الأمر أن أعود أنا وناصر الدين مُطَهَّر الأوْهَرِى وابن قاضى مصر والملك صَبِيح إلى البلد ، فخلع علينا وعدنا إلى الحضرة .

ذكر الجمل الذى أهديته إلى السلطان

وكان السلطان فى تلك الأيام سألنى عن الملك الناصر هل يركب الجمل ؟ فقلت له : نعم يركب المهارِى[١] فى أيام الحج ، فيسير إلى مكة من مصر فى عشرة أيام . ولكن تلك الجمال ليست بجمال هذه البلاد . وأخبرته أن عندى جملا منها . فلما عدت إلى الحضرة بحثت عن بعض عرب مصر ، فصوّر لى صورة الكُور[٢] الذى تُرْكب المهَارِىّ به ، من القِير[٣] ، وأريتها بعض النجارين ، فعمل الكور

(١) نوع جيد من الإبل . جمع مَهْرِيّة ، نسبة إلى حى من العرب .

(٢) الكور الرحل بأداته .

(٣) الزفت .

وأتقنه وكسوته (بالملَف) ، وجعلت على الجمـل عباءة حسنة وجعلت له خِطَام (١) حرير. وكان عنـدى رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء ، فصنع منها ما يشبه التمر وغيره . و بعثت الجمل والحلواء إلى السلطان . وأمرت الذى حملها أن يدفعها على يد الملك دولة شاه . و بعثت له بفرس و جملين . فلما وصله ذلك دخل على السلطان وقال : يا خَوَنْدَ عَالَم ، رأيت العجب ! قال وما ذلك؟ قال : فلان بعث جملا عليه سرج . فقال : ائتوا به . فأدخل الجمل فى داخل (السراجة) . وأُعْجِب به السلطان . وقال لرجلى : اركبه ، فركبه ومشّاه بين يديه . وأمر له بمائتى دينـار دراهم وخلعة . وعاد الرجل إلىّ فأعلمنى ، فسرنى ذلك . وأهديت إليه جملين بعد عودته إلى الحضرة .

ذكر الجملين اللذين أهديتهما إليه والحلواء، وأمره بخلاص دينى وما تعلّق بذلك

ولمـا عاد إلىّ رجلى الذى بعثته بالجمل ، فأخبرنى بمـا كان من شأنه ، صنعت كُورين اثنين ، وجعلت مُقَدّم كل واحد ومُؤَخّره مكسواً بصفائح الفضة المذهبة ، وكسوتهما (بالملف) وصنعت رَسَنا (٢) مصفَّحا بصفائح الفضة ، وجعلت لهما جُلَّين (٣) من زردخانة (٤) مبطَّنين بالكَمْخا (٥) ، وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة المذهبة ، وصنعت أحد عشر طَيْفُورا (٦) وملأتها بالحلوى ، وغطيت كل طيفور بمنديل حرير . فلمّا قدم السلطان من الصيد ، وقعد ثانى يوم قدومه بموضع جلوسه العام ، غدوت عليه بالجملين ، فأمر بهما فحركا

(١) ما يقتاد به البعير . (٢) الرسن : الحبل .

(٣) الجل بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به .

(٤) نسيج من حرير رقيق ، غير عربية . (٥) نسيج ذو نقوش بارزة ، بلسانهم .

(٦) سبق الكلام عليه فى الحواشى ، وكذا سبق الكلام على معنى (الملف) .

بين يديه وهَرْولا ، فطار خَلْخَال احدهما . فقال لبهاء الدين ابن الفلكى : ارفع الخلخال ، فرفعه . ثم نظر إلى الطيافير فقال : ما معك فى تلك الصحاف ، حلواء هى ؟ فقلت له نعم . فقال للفقيه ناصر الدين الترّمذى الواعظ : ما أكلت قط ولا رأيت مثل الحلواء التى بعثها إلينا ونحن بالمعسكر . ثم أمر بتلك الطيافير أن تُرْفَع لموضع جلوسه الخاص ، فرفعت . وقام إلى مجلسه واستدعانى ، وأمر بالطعام فأكلت . ثم سألنى عن نوع من الحلواء بعثت له قَبْلُ ، فقلت له : ياخَوَنْد عالَم ، تلك الحلواء أنواعها كثيرة ، ولا أدرى عن أى نوع تسألون منها ؟ فقال : ائتوا بتلك الأطباق . وهم يسمون الطيفور طبقا ، فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها . فقال : عن هذا سألتك . وأخذ الصحفة التى هى فيها . فقلت له : هذه يقال لها المُقَرَّصة . ثم أخذ نوعا آخر فقال : وما اسم هذه ؟ فقلت له : هى لُقَيْمات القاضى . وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامرىّ ، وينتسب إلى آل العباس ، رضى الله تعالى عنه . وهو كثير المال ، ويقول له السلطان : والدى . فحسدنى وأراد أن يخجلنى . فقال : ليست هذه لقيمات القاضى ، بل هى هذه . وأخذ قطعة من التى تسمى جلد الفرس . وكان بإزائه ملك الندماء ، ناصر الدين الكافى الهَرَوىّ ، وكان كثيرا ما يمازح هذا الشيخ بين يدى السلطان ، فقال له : يا خواجة ، أنت تكذب ، والقاضى يقول الحق . فقال له السلطان : وكيف ذلك ؟ فقال ياخَوَنْد عالَم : هو القاضى وهى لقيماته ، فإنه أتى بها . فضحك السلطان ، وقال صدقت . فلما فرغنا من الطعام أكلنا الحلواء ثم شربنا الفُقَّاع بعد ذلك . وأخذنا التَّانَبُول وانصرفنا . فلم يكن غير هنيهة حتى أتانى الخازن ، فقال : ابعث أصحابك يقبضون المال فبعثتهم . وعدت إلى دارى بعد المغرب فوجدت

المال بها . وهو ثلاث بِدَر، فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة . وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التى هى دين علىّ ، وَصَرْف الاثنى عشر ألفا التى أمر لى بها فيما تقدم ، بعد حطّ العُشْر على عادتهم . وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب .

ذكر خروج السلطان وأمره لى بالاقامة بالحضرة

وفى تاسع جُمادَى الأولى، خرج السلطان يقصد بلاد المَعْبَر وقتال القائم بها . وكنت قد خلّصت أصحاب الدين وعزمت على السفر ، وأعطيت مرتَّب تسعة أشهر للكهَّارين والفراشين والكِيوانيّة والدَّوادوية[1] ، وقد تقدم ذكرهم . فخرج الأمر بإقامتى فى جملة ناس ، وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له . وتلك عادتهم خوفا من أن ينكر المبلّغ .

وأمر لى بستة آلاف دينار دراهم . وأمر لابن قاضى مصر بعشرة آلاف . وكذلك كلّ من أقام من الأعزة . وأما البلديون فلم يعطوا شيئا . وأمرنى السلطان أن أتولى النظر فى مقبرة السلطان قطب الدين الذى تقدم ذكره . وكان السلطان يعظم تربته تعظيما شديدا لأنه كان خادما له . ولقد رأيته إذا أتى قبره يأخذ نعله فيقبلها ويجعلها فوق رأسه . وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متّكأ . وكان إذا وصل القبر خدم له كما كان يَخْدُم أيام حياته . وكان يعظم زوجتـه ويدعوها بالأخت ، وجعلها مع حرمه ، وزوّجها بعد ذلك لابن قاضى مصر ، واعتنى به من أجلها . وكان يمضى لزيارتها فى كل جمعة .

ولمـا خرج السلطان أرسل إلينا للوداع، فقام ابن قاضى مصر فقال : أنا

---

(١) سبق شرح معنى هذه الكلمات .

لا أودع ولا أفارق خَوَنْدَ عَالَم . فكان له فى ذلك الخير . فقال له السلطان : امض فتجهز للسفر . وقدمت بعــده للوداع . وكنت أحب الإقامة ولم تكن عاقبتها محمودة . فقال : مالك من حاجة ؟ فأخرجت بطاقة فيهــا ست مسائل ، فقال لى : تكلم بلسانك . فقلت له : إنّ خَوَنْدَ عَالَم أمر لى بالقضاء وما قعدت لذلك بعــد . وليس مرادى من القضاء إلا حرمته . فأمرنى بالقعود للقضاء وقعود النائبين معى . ثم قال لى : إيه . فقلت : وروضــة السلطان قطب الدين ماذا أفعل فيهــا ، فإنى رتبت فيها أربعمائة وســتين شخصا ؟ ومحصــول أوقافها لا يفى بمرتباتهم وطعامنا . فقال للوزير : پَنْجَاهْ هَزَار ، ومعناه خمسون ألفا . ثم قال : أعطه مائة ألف منّ من القمح والأرز ينفقها فى هــذه السنة ، حتى تأتى غلة الروضة . والمنّ عشرون رطلا مغربية ؟ ثم قال لى : وماذا أيضا ؟ فقلت : إن أصحابى سُجِنوا بسبب القرى التى أعطيتمونى ، فإنى عوضتها بغيرها ، فطلب أهل الديوان ما وصلنى منها ، او الاستظهار بأمر خَوَنْدَ عَالَم أن يرفع عنى ذلك . فقال : كم وصلك منها ؟ فقلت خمسة آلاف دينار . فقال : هى إنعام عليك . فقلت له : ودارى التى أمرتم لى بها مفتقرة إلى البناء . فقال للوزير: عمروها. ثم قال لى : هل بقِىَ لك كلام؟ فقلت لا . فقال لى: أوصيك ألا تأخذ الدينْ، لئلا تُطْلب ، فلا تجد من يبلغنى خبرك . أنفق على قــدر ما أعطيتك . قال الله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقْتُرُوا وكان بين ذلك قَوَاما). فأردت أن أقبل قدمه ، فمنعنى وأمسك رأسى بيده فقبلتها . وانصرفت وعدت إلى الحضرة فاشتغلت بعمارة دارى ، وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار ، أعطيت منها من الديوان ستمائة دينار ، وزدت عليها الباقى . وبنيت بإزائها مسجدا ، واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين . وكان السلطان

قد أمر أن تبنى عليه قبــة يكون ارتفاعها فى الهواء مائة ذراع ، بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قَازَان ملك العراق . وأمر أن تشترى ثلاثون قرية تكون وقفا عليها ، وجعلها بيدى ، على أن يكون لى العشر من فائدها على العادة .

ذكر ما فعلته فى ترتيب المقبرة

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأمواتهم ترتيبا كترتيبهم بِقَيْد الحياة ، ويؤتى بالفِيَلة والخيلِ فتربط عند باب التربة وهى مزينة . فرتبت أنا فى هذه التربة بحسب ذلك . ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين ، وهم يسمونهم الخَتْمِيين . ورتبت من الطلبة ثمانين ، ومن المعيدين ، ويسمونهم المكررين ، ثمانية . ورتبت لها مدرسا ، ورتبت من الصوفية ثمانين . ورتبت الإمام والمؤذنين والقراء بالأصوات الحسان ، والمدّاحين [١] وكتّاب الغَيْبَة [٢] والمُعَرِّفين [٣] . وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالأرباب . ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية ، وهم الفراشون والطباخون والسقاءون ، والشربدارية ، الذين يسقون الشَّرْبة [٤] والتَّانَبُول دارية ، الذين يعطون التانبول ، والسِلَحْدارية [٥] والنّيزدارية [٦] والشَّطْرداريّة [٧] والطَّشْتدارية [٨] والحجاب والنقباء . فكان جميعهم أربعمائة وستين . وكان السلطان أمر أن

---

(١) من يلقون خطبا مدحية .

(٢) الذين يحصون الغائبين .

(٣) الذين يعرفون الناس : فيقولون : هذا فلان ، وهذا فلان .

(٤) يراد بها الشراب الحلو .

(٥) حاملو الأسلحة كالسيوف .

(٦) حاملو الرماح .

(٧) حاملو المظلات .

(٨) حاملو الطسوت .

يكون الطعام بها كل يوم اثنى عشر منا من الدقيق . ومثلها من اللحم . فرأيت أن ذلك قليل ، والزرع الذى أمر به كثير . فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منًّا من الدقيق ومثلها من اللحم ، مع ما يتبع ذلك من السكر والنبات (١) والسمن والتَّانْبُول . وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد . وكان الغلاء شديدا ، فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره . وسافر الملك صَبِيح إلى السلطان بدولة آباد ، فسأله عن حال الناس ، فقال له : لو كان بدهلى اثنان مثل فلان لما شكوا الجُهد . فأعجب ذلك السلطان ، وبعث إلىّ بخلعة من ثيابه . وكنت أصنع فى المواسم وهى : العيدان ، والمولد الكريم ، ويوم عاشوراء ، وليلة النصف من شعبان ، ويوم وفاة السلطان قطب الدين ، مائة منّ من الدقيق ومثلها لحما . فيأكل منها الفقراء والمساكين . وأما أهل الوظيفة فيجعل أمام كل إنسان منهم ما يخصه . ولنذكر عادتهم فى ذلك .

ذكر عادتهم فى إطعام الناس فى الولائم

وعادتهم ببلاد الهند وبلاد السِّرا ، أنه إذ فُرِغ من أكل الطعام فى الوليمة جُعِل أمام كل إنسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المَهْد ، له اربع قوائم ، منسوج سطحه من الخوص ، وجعل عليه الرُّقاق ورأس شاة مشوىّ ، وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية ، ومغطاة بأربع قطع من الحلواء كأنها الآجر ، وطبق صغير مصنوع من الجلد فيه الحلواء والسموسك (٢) . ويغطى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد . ومن كان دون من ذكرناه جُعِل امامه نصف رأس شاة ، ومقدار النصف مما ذكرناه .

---

(١) يريد به (سكر النبات) ويعمل من عصير العنب .

شىء مصنوع من اللحم والأفاويه .

ومن كان دون هؤلاء أيضا جعل أمامه مثل الربع من ذلك . ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه. وأول ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السرا، حضرة السلطان أوزْبَك ، فامتنعت أن يرفع رجالى ذلك ، إذ لم يكن لى به عهد . وكذلك يبعثون أيضا لدار كبراء الناس من طعام الولاء .

ذكر خروجى إلى هَزَار امْروها

وكان الوزير قد أعطانى من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف منّ ، ونفّذ لى الباقى فى هَزَار أَمْرُوها . وكان والى الخراج بها عزيزا الخمار ، وأميرها شمس الدين البَذَخْشَانىّ . فبعثت رجالى فأخذوا بعض الإحالة ، وشكوا تعسّف عزيز الخمار . فخرجت بنفسى لاستخلاص ذلك . وبين دهلى وهذه العمالة ثلاثة أيام . وكان ذلك أوان نزول المطر . فخرجت فى نحو ثلاثين من أصحابى ، واستصحبت معى أخوين من المغنين المحسنين ، يغنيان لى فى الطريق ، فوصلنا إلى بلدة بِجْنَوْر ، فوجدت بها أيضا ثلاثة إخوة من المغنين، فاستصحبتهم فكانوا يغنون لى نَوْبة، والآخران نَوْبة. ثم وصلنا إلى أمْرُوها، وهى بلدة صغيرة حسنة، فخرج عمالها للقائى. وجاء قاضيها الشريف أمير على ، وشيخ زاويتها ، وأضافانى معا ضيافة حسنة . وكان عزيز الخمار بموضع يقال له أَفْغَان بُور على نهر السَّرُو . وبيننا وبينه النهر ولا (معدية) فيه . فأخذنا الأثقال فى (معدية) صنعناها من الخشب والنبات . وجُزْنا فى اليوم الثانى . وجاء نجيب أخو عزيز فى جماعة من أصحابه وضرب لنا (سَرّاجة) . ثم جاء اخوه الوالى وكان معروفا بالظلم . وكانت القرى التى فى عمالته ألفا وخمسمائة قرية . ومَجْباها ستون (لكا) فى السنة . له فيها نصف العشر . ومن عجائب النهر الذى نزلنا عليه أنه لايشرب منه أحد فى أيام نزول المطر .

ولا تسبق منـه دابة . ولقد اقمنا عليه ثلاثا فما غَرِقَ منـه احد غرفة ، ولا كدنا نقرب منه ، لأنه ينزل من جبال قَرَاجيل التى بها معادن الذهب ، ويمر على الخَشاش[١] المسمومة ، فمن شرب منه مات . وهذا الجبل متصل مَسيرة ثلاثة أشهر . ويُنزَل منـه إلى بلاد تُبَّت حيث غِزلان المِساك . وقد ذكرنا ما اتفق لجيش المسلمين بهذا الجبل . وبهـذا الموضع جاء إلىّ جماعة من الفقراء الحَيْدَرِيّة وعملوا السَّماع[٢] وأوقدوا النيران ، فدخلوها ولم تضرهم ، وقد ذكرنا ذلك . وكانت قد نشأت بين أمير هـذه البلاد شمس الدين البَذَخْشَانِى وبين واليها عزيز الخمار منازعة . وجاء شمس الدين لقتاله ، فامتنع منه بداره . وبلغت شِكاية أحدهما الوزير بدهلى ، فبعث إلىّ والوزير وإلى الملك شاه أمير المماليك بِأَمْرُوها ، وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان ، وإلى شهاب الدين الرومىّ ، أن ننظر فى قضيتهما ، فمن كان على الباطل بعثناه إلى الحضرة . فاجتمعوا جميعا بمنزلى ، وادعى عزيز على شمس الدين دَعَاوَى : منها أن خادما له يعرف بالرِضَا المُلْتَانى نزل بدار خازن عزيز ، فشرب بها الخمر ، وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذى عند الخازن . فاستفهمت الرضا عن ذلك ، فقال لى : ماشربت الخمر منذ خروجى من مُلْتَان ، وذلك ثمانية أعوام . فقلت له : أو شَرِبْتَها بملتان ؟ قال نعم . فأمرت بجلده ثمانين ، وسجنته بسبب الدعوى لِلَوْثٍ[٣] ظهر عليه . وانصرفت عن أمروها ، فكانت غيبتى نحو شهرين . وكنت فى كل يوم أذبح لأصحابى بقرة . وتركت أصحابى ليأتوا

---

(١) الخشاش بفتح الخاء وكسرها الحشرات .

(٢) لعله المعروف الآن (بالذكْر) .

(٣) اللوث هنا الشر .

بالزرع المُـنَـقَّـذِ على عزيز ، وحَمْلُه عليه (١) . فَوَزَّعَ على أهل القرى التي تحت نظره ، ثلاثين ألف مَنٍّ يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة . وأهل الهند لا يحملون إلا على البقر . وعليه يرفعون أثقالهم في الأسفار . وركوب الحمير عندهم عيب كبير . وحميرهم صغار الأجرام ، وإذا أرادوا تشهير أحد بعد ضربه أركبوه الحمار .

ذكر مَكْرُمة لبعض الأصحاب

وكان السيد ناصر الدين الأَوْهَرِى قد ترك عندى لما سافر ألفا وستين تَنْكة ، فتصرفت فيها . فلما عدت إلى دهْلى وجدته قد أحال فى ذلك المال خُدَاوَنْدَ زَاده قِوام الدين ، وكان قد قدم نائبا عن الوزير . فاستقبحت أن أقول له : تصرفت فى المال ، فأعطيته نحو ثلثه ، وأقمت بدارى أياما ، وشاع أنى مرضت . فأتى ناصر الدين الخُـوَارَزْمى صدر الجهان لزيارتى ، فلما رآنى قال : ما أرى بك مرضا . فقلت له : إنى مريض القلب . فقال لى : عرفنى ذلك . فقلت له : ابعث إلىّ نائبك شيخ الإسلام أعرفه . فبعثه إلىّ فأعلمته . فعاد إليه فأعلمه . فبعث إلىّ بألف دينار دراهم ، وكان له عندى قبل ذلك ألف ثان . ثم طُلِب منى بقية المال ، فقلت فى نفسى : ما يخلصنى منه إلا صدر الجهان ، لأنه كثير المال . فبعثت إليه بفرس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار ، وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار ، وببغلتين قيمتهما ألف ومائتا دينار ، وبِتُرْكَش (٢) فضة ، وبسيفين غمداهما مُغَشَّيان بالفضة . وقلت له : انظر قيمة الجميع وابعث إلىّ ذلك .

---

(١) أى ويكون حل هذا الزرع مفروضا عليه والضمير فى (وزّع) يرجع إلى عزيز .
(٢) سبق شرحه فى الحواشى ، وأن المراد منه جعبة السهام ، غير عربى .

فأخذ ذلك وعمـل لجميعه قيمة ثلاثة آلاف دينار ، فبعث إلىّ ألفا واقتطع الألفين . فتغـير خاطرى ، ومرضت بالحمى . وقلت فى نفسى إن شكوتُه إلى الوزير افتضحت . فأخذت خمسة أفراس وجاريتين ومملوكين ، وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد ابن ملك الملوك عمـاد الدين السِمْنانى ، وهو فتِيّ السنّ ، فرد على ذلك ، وبعث إلى مائتى تنكة وأغزر . وتَخَلَّصْتُ من ذلك المـال . فشتان بين فعل محمد و محمد .

ذكر خروجى إلى مَحَلَّة[1] السلطان

وكان السلطان لمـا توجه إلى بلاد المَـعْبَر وصل إلى التِلِنْك ، ووقع الوباء بعسكره ، فعاد إلى دولة آباد ، ثم وصل إلى نهر الـكِنْك فنزل عليه . وأمر الناس بالبناء . وخرجت فى تلك الأيام إلى مَحَلَّته . واتفق ما سردناه من مخالفة عين المُـلْك . ولازمت السلطان فى تلك الأيام ، وأعطانى من عِتاق الخيل ، لمَّـا قسمها على خواصه ، وجعلنى فيهم . وحضرت معه الوقيعة على عين الملك والقبض عليه . وجُزْت معه نهر الكِنْك ونهر السَّرُو لزيارة قبر الصالح البطل سالار عُود (مسعود) . وقد استوفيت ذلك كله . وعدت معه إلى حضرة دهلى لمـا عاد إليها .

ذكر ما هم به السلطان من عقابى
وما تداركنى من لطف الله تعالى

وكان سبب ذلك أنى ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجام ، بالغار الذى احتفره خارج دهلى . وكان قصدى رؤية ذلك الغار . فلما

(١) يراد بها المعسكر ، وقد وردت هذه الكلمة كثيرا بهذا المعنى فى الكتاب .

أخذه السلطان سأل أولاده عمن كان يزوره ، فذكروا أناسا أنا من جملتهم . فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمتى (بالمشور) . وعادته أنه متى فعل ذلك مع أحد فقلما يتخلص . فكان أول يوم من ملازمتهم لى يوم الجمعة . فألهمنى الله تعالى تلاوة قوله (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين ألف مرة . وبت (بالمشور) وواصلت[١] إلى خمسة أيام ، فى كل يوم منها أختم القرآن ، وأُفْطِر على الماء خاصة . ثم أفطرت بعد خمس ، وواصلت أربعا . وتخلصت بعد قتل الشيخ . والحمد لله تعالى.

ذكر انقباضى عن الخدمة وخروجى عن الدنيا

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة ، ولازمت الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع ، فريد الدهر ووحيد العصر ، كمال الدين عبد الله الغارى . وكان من الأولياء وله كرامات كثيرة ، قد ذكرت منها ما شاهدته عند ذكر اسمه . وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ . ووهبت ما عندى للفقراء والمساكين . وكان الشيخ يواصل عشرة أيام ، وربما واصل عشرين. فكنت أحب أن أواصل ، فكان ينهانى ، ويأمرنى بالرفق بنفسى فى العبادة . ويقول لى : إن المُنْبَتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .وظهر لى من نفسى تكاسل بسبب شىء بقى معى . فخرجت عن جميع ما عندى ، من قليل وكثير . وأعطيت فقيرا ثياب ظَهْرِى[٢] ولبست ثيابه . ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر ، والسلطان إذ ذاك غائب ببلاد السند .

---

(١) صمتها متتابعة .

(٢) يقصد الثياب التى كان يلبسها بالفعل .

ذكر بعث السلطان إلى ، وإبائى الرجوع إلى الخدمة ، واجتهادى فى العبادة

ولما بلغ السلطان خبر خروجى عن الدنيا استدعانى ، وهو يومئذ بسيوستان ، فدخلت عليه فى زىّ الفقراء ، فكلمنى أحسن كلام وألطفه ، وأراد منى الرجوع إلى الخدمة فأبيت ، وطلبت منه الإذن فى السفر إلى الحجاز ، فأذِن لى فيه ، وانصرفت عنه . ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة إلى الملك بَشير . وذلك فى أواخر جُمادَى الثانية سنة اثنتين وأربعين . فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان . وانتهيت إلى مواصلة خمسة أيام . وأفطرت بعدها على قليل أرز دون إدام . وكنت أقرأ القرآن كل يوم ، وأتهجد بما شاء الله . وكنت إذا أكلت الطعام آذانى ، فإذا طرحته وجدت الراحة . وأقمت كذلك أربعين يوما ، ثم بعث إلىّ ثانية .

ذكر ما أمرنى به من التوجه إلى الصين فى الرسالة

ولما كَمَلَ لى أربعون يوما ، بعث إلىّ السلطان خيلا مسرجة وجوارى وغلمانا وثيابا ونفقة . فلبست ثيابه وقصدته . وكانت لى جبة قطن زرقاء مبطنة ، لبستها أيام اعتكافى . فلما جرّدتها ولبست ثياب السلطان أنكرت نفسى ، وكنت متى نظرت إلى تلك الجبة أجد نورا فى باطنى . ولم تزل عندى

إلى أن سلبنى الكفار فى البحر . ولما وصلت إلى السلطان زاد فى إكرامى على ما كنت أعهده ، وقال لى : إنما بعثت إليك لتتوجه عنى رسولا إلى ملك الصين ، فإنى أعلم حبك للأسفار والجولان . فجهزنى بما أحتاج إليه ، وعين للسفر معى من يُذْكر بعد .

ذكر سبب إرساله بالهدّية إلى الصين وذكر من بُعِث معى وذكر الهدّية

وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية ، وخمسمائة ثوب من (الكَمْخَا) ، منها مائة من التى تصنع بمدينة الزيتون ، ومائة من التى تصنع بمدينة الخَنْسا ، وخمسة أَمْنان من المِسْك ، وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر ، وخمسة من (التراكش) مزركشة ، وخمسة سيوف . وطلب من السلطان أن يأذن له فى بناء بيت الأصنام الذى بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره . ويعرف الموضع الذى هو به بِسَمْهَل ، وإليه يَحُج أهل الصين . وتغلب عليه جيش الإسلام بالهند فخربوه وسلبوه . فلما وصلت هذه الهدية إلى السلطان ، كتب إليه أنَّ هذا المطلب لا يجوز فى ملة الإسلام إسعافه ، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطى الجزية ، فإن رضيت بإعطائها أبحنا لك بناءها . والسلام على من اتبع الهدى .

وكافأه عن هديته بخير منها : وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ، ومائة مملوك ، ومائة جارية من كفار الهند ، مغنيات ورواقص ، ومائة ثوب بَيْرَمِيَّة ، وهى من القطن ، ولا نظير لها فى الحسن . قيمة الثوب منها مائة دينار ، ومائة شِقَّة من ثياب الحرير التى يكون حريرها مصبوغا بخمسة ألوان ، وأربعة ومائة ثوب من الثياب

المعروفة بالصلاحيّة ، وخمسمائة ثوب من المِرْعِز ، مائة منها سود ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق ، ومائة شِقّة من الكتّان الرومى ، ومائة قَضْلَة من (المَلَف) ، وسَرّاجة ، وست من القباب ، وأربع حَسَك[١] من ذهب ، وست حَسَك من فضة مُنَيَّلة[٢] ، وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها ، وستة طُسُوت من الفضة ، وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة ، وعشر شَوَاشِ[٣] من لباسه ، إحداها مرصّعة بالجوهر ، وعشرة (تراكش) مزركشة ، أحدها مرصّع بالجوهر ، وعشرة من السيوف ، أحدها مرصع الغِمْدِ بالجوهر ، وقُفّاز مرصّع بالجوهر ، وخمسة عشر من الفتيان[٤] .

وعين السلطان للسفر معى بهذه الهديّة الأمير ظهير الدين الزَّنْجَانِى[٥] ، وهو من فضلاء أهل العلم ، والفتى كافورا (الشُّربدار) ، وإليه سُلِّمت الهدية . وبعث معنا الأمير محمدا الهَرَوِىّ فى ألف فارس ، ليوصلنا إلى الموضع الذى نركب منه البحر . وتوجه فى صحبتنا رُسُل ملك الصين وهم خمسة عشر رجلا ، يسمى كبيرهم تُرْسى ، وخدامهم نحو مائة رجل . وانفصلنا فى جمع كبير ومحلّة عظيمة . وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده . وكان سفرنا فى السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين ، وهو اليوم الذى اختاروه للسفر، لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه أو سابعه أو الثانى عشر أو السابع عشر أو الثانى والعشرين أو السابع والعشرين . فكان نزولنا

(١) يراد بها (الشمعدانات) ولم نجد له أصلا عربيا .

(٢) يريد مطلية بالزرقة التى أصلها من النيلَج وهو مستخرج من النّيل وهو العِظْلِم .

(٣) جمع شاشية ، ثياب رفيعة ، والكلمة غير عربية . ومنه يطلق المصريون كلمة (الشاش) على النسيج الرفيع المعروف (٤) كل ما يراه القارئ غريبا من الكلمات — من أول هذا الفصل إلى هنا — قد سبق شرحه فى الحواشى .

(٥) نسبة إلى زَنْجان ، بلد بأذَرْبِجان . قاموس .

فى أول مرحلة بمنزل تِلْبَت ، على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دِهْلى . ورحلنا منه إلى منزل (أو) . ورحلنا منه إلى منزل هِيلُو . ورحلنا منه إلى مدينة بَيَانَة ، مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق ، ومسجدها الجامع من أبدع المساجد ، وحيطانه وسقفه حجارة . والأمير بها مُظَفَّر ابن الداية ، وامه هى داية للسلطان . وكان بهـا قبله الملك مجير بن أبى الرجاء أحد كبار الملوك ، وقد تقدم ذكره . وهو ينتسب فى قريش . وفيـه تجبُّر وله ظلم كثير ، قتل من أهل هذه المدينة جملة ، ومثَّل بكثير منهم . ولقد رأيت من أهلها رجلا حسن الهيئة قاعدا فى أسْطُوان [1] منزله ، وهو مقطوع اليدين والرجلين . وقدم السلطان مرة على هذه المدينة فشكا الناس الملك مجيرا ، فأمر السلطان بالقبض عليـه وجعلت فى عنقه الجامعة[2] . وكان يقعد بالديوان بين يدى الوزير ، وأهل البـلد يكتبون عليه المظالم . فأمره السلطان بإرضائهم فأرضاهم بالأموال ، ثم قتله بعد ذلك .

ومن كبار أهل هـذه المدينة الإمام العالم عز الدين الزُّبَيْرى ، من ذرية الزُّبير بن العوام رضى الله عنه ، أحد كبار الفقهاء الصلحاء ، لقيته بكَالْيُور عند الملك عز الدين البَنْتَانى المعروف بأعظم ملك . ثم رحلنا من بَيَانَة فوصلنا إلى مدينة كُول ، مدينة حسنة ذات بساتين ، وأكثر أشجارها (العَنْبا) [3] ، ونزلنا بخارجها فى بسيط أفْيح . ولقينا بهـا الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين . وهو مكفوف البصر مُعَمَّر . وبعد ذلك سجنه السلطان ومات فى سجنه . وقد ذكرنا حديثه .

(١) دهليز — وليست كلمة (أسطوان) عربية بهذا المعنى .

(٢) الغُل ، وهو هنا سلسلة من حديد .

(٣) سبق أنها (المنجو) .

ذكر غزوة شهدناها بِكُول

ولما بلغنا مدينة كول بَلَغَنَا أن بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجِلالى وأحاطوا بها . وهى على مسافة سبعة من كُول . فقصدناها والكفار يقاتلون أهلها وقد أشرفوا على التلف . ولم يعلم الكفار بنا حتى صَدَقْنا الحملة عليهم ، وهم فى نحو ألف فارس وثلاثة آلاف راجل . فقتلناهم عن آخرهم ، واحتوينا على خيلهم وأسلحتهم . واسْتُشْهِد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارسا ، وخمسة وخمسون راجلا . واستشهد الفتى كافور الساقى الذى كانت الهدية مسلمة بيده ، فكتبنا إلى السلطان بخبره ، وأقمنا فى انتظار الجواب . وكان الكفار فى أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع ، فيغيرون على نواحى بلدة الجِلالى . وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم .

ذكر مِحْنَتِي بالأسر ، وخلاصى منه ، وخلاصى من شدّة بعده ، على يد ولى من أولياء الله تعالى

وفى بعض تلك الأيام ركبت فى جماعة من أصحابى ودخلنا بستانا نَقِيل فيه ، وذلك فصل القيظ . فسمعنا الصياح فركبنا ، ولحقنا كفارا أغاروا على قرية من قرى الجِلالى . فأَتْبعناهم فتفرقوا وتفرق أصحابنا فى طلبهم ، وانفردت فى خمسة من أصحابنا . فخرج علينا جُملة من الفُرْسان والرجال من غَيْضَة هنالك ، ففررنا منهم لكثرتهم ، وأَتْبعنى نحو عشرة منهم ، ثم انقطعوا عنى إلا ثلاثة منهم ، ولا طريق بين يدى . وتلك الأرض كثيرة الحجارة ،

فنشِبت يد فرسى بين الحجارة ، فنزلت عنه واقتلعت يده وعدت إلى ركوبه .
والعادة بالهند أن يكون مع الانسان سيفان ، أحدهما معلق بالسرج ويسمى الركابى ، والاخر فى (التركش) . فسقط سيفى الركابى من غمده وكانت حِليتُه ذهبا . فنزلت فأخذته وتقلدته ، وركبت وهم فى إثرى . ثم وصلت إلى خندق عظيم فنزلت ودخلت فى جوفه ، فكان آخر عهدى بهم .

ثم خرجت إلى واد فى وسط شَعْراء[1] ملتفة فى وسطها طريق . فمشيت عليه ولا أعرف منتهاه . فبينا أنا فى ذلك خرج علىّ نحو أربعين رجلا من الكفار بأيديهم القِسِىّ ، فأحدقوا بى . وخفت أن يرمونى رمْية رجل واحد إن فررت منهم ، وكنت غير متدرّع ، فألقيت بنفسى إلى الأرض واستأسرت[2] ، وهم لا يقتلون من فعل ذلك . فأخذونى وسلبونى جميع ما علىّ غير جُبّة وقميص وسراويل ، ودخلوا بى إلى تلك الغابة فانتهوا بى إلى موضع جلوسهم منها ، على حوض ماء بين تلك الأشجار ، وأتونى بخبز مَاش وهو الجُلُبّان ، فأكلت منه وشربت من الماء . وكان معهم مُسْلِمان كلّمانى بالفارسية وسألانى عن شأنى ، فأخبرتهما ببعضه ، وكتمتهما أنى من جهة السلطان . فقالا لى : لا بد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم . ولكن هذا مقدَّمهم ، وأشاروا إلى رجل منهم . فكلمته بترجمة المسلمين[3] ، وتلطفت له ، فوكل بى ثلاثة منهم ، احدهم شيخ ومعه ابنه ، والآخر أسود خبيث . وكلمنى أولئك الثلاثة ، ففهمت منهم أنهم أُمِروا بقتلى . واحتملونى عَشِىّ النهار إلى كهف . وسلّط الله على الأسود منهم حُمّى مُرْعِدة ، فوضع رجليه علىّ ، ونام الشيخ وابنه . فلما أصبحنا تكلموا فيما بينهم ، وأشاروا إلىّ بالنزول معهم إلى الحوض . وفهمت أنهم يريدون قتلى ، فكلمت الشيخ وتلطفت

(١) أرض كثيرة الشجر والنبات (٢) طلبت أن يأسرونى .

(٣) أى أن المسلمين كانا يترجمان كلامى له .

له فرقّ لى ، وقطعت كُمّىْ قميصى وأعطيته إياهما لكى لا يأخذه أصحابه فىّ إن فررت . ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا أنهم أصحابهم ، فأشاروا إلىّ بالنزول معهم ، فنزلنا ووجدنا قوما آخرين ، فأشاروا عليهم أن يذهبوا فى صحبتهم فأبوا . وجلس ثلاثتهم أمامى وأنا مواجه لهم ، ووضعوا حبل قِنَّب كان معهم بالأرض وأنا أنظر اليهم ، وأقول فى نفسى : بهذا الحبل يَرْبِطوننى عند القتل . وأقمت كذلك ساعة . ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذونى فتكلموا معهم ، وفهمت أنهم قالوا لهم : لأى شىء ما قتلتموه ؟ فأشار الشيخ إلى الأسود كأنه اعتذر بمرضه .

وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لى : أتريد أن أسَرِّحك ؟ فقلت نعم . فقال اذهب . فأخذت الجبة التى كانت علىّ فأعطيته إياها . وأعطانى مُنَيَّرة (١) بالية عنده وأرانى الطريق . فذهبت وخفت أن يبدو لهم فيدركونى ، فدخلت غَيْضَة قصب واختفيت فيها إلى أن غابت الشمس . ثم خرجت وسلكت الطريق التى أرانيها الشاب . فأفضت بى إلى ماء ، فشربت منه وسرت إلى ثلث الليل ، فوصلت إلى جبل فنمت تحته . فلما أصبحت سلكت الطريق ، فوصلت ضُحًا إلى جبل من الصخر عال ، فيه شجر أم غَيلان (٢) والسِدْر ، فكنت أجنى النَّبْق فآكله ، حتى أثّر الشوك فى ذراعى آثارا هى باقية به حتى الآن . ثم نزلت من ذلك الجبل إلى أرض مزدَرعة قطنا ، وبها أشجار الخِرْوع . وهنا لك بئر متسعة جدا مطوية بالحجارة ، لها دَرَج يُنْزَل عليها إلى وِرْد الماء . وبعضها يكون فى وسطه وجوانبه القِبَاب من الحجر والسقائف والمجالس . ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها فى الطرقات التى لا ماء بها . وسنذكر بعض ما رأيناه منها فيما بعد .

(١) مخططة .

(٢) من أشجار الطلح وهى أشجار عظام .

ولما وصلت إلى البئر شربت منها ووجدت عليها شيئا من عساليج [1] الخَرْدَل ، قد سقطت ممن غسلها . فأكلت منها وادخرت باقيها ، ونمت تحت شجرة خِرْوع . فبينما أنا كذلك إذ ورد البئر نحو أربعين فارسا مدرّعين ، فدخل بعضهم المزرعة ثم ذهبوا . وطمس الله أبصارهم دونى . ثم جاء بعدهم نحو خمسين فى السلاح ونزلوا إلى البئر . وأتى أحدهم إلى شجرة إزاء الشجرة التى كنت تحتها ، فلم يشعر بى . ودخلت إذ ذاك فى مزرعة القطن وأقمت بها بقية نهارى . وأقاموا على البئر يغسلون ثيابهم ويلعبون . فلما كان الليل هدأت أصواتهم فعلمت أنهم قد مرّوا أو ناموا ، فخرجت حينئذ واتّبعت أثر الخيل والليل مقمر ، وسرت حتى انتهيت إلى بئر أخرى عليها قبة . فنزلت إليها وشربت من مائها وأكلت من عساليج الخردل التى كانت عندى . ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعُشْب مما يجمعه الطير . فنمت بها وكنت أحس حركة حيوان فى ذلك العشب ، أظنه حية ، فلا أباليها لما بى من الجَهْد . فلما أصبحت سلكت طريقا واسعة تُفْضِى إلى قرية خَرِبة ، وسلكت سواها فكانت كمثلها ، وأقمت كذلك أياما . وفى بعضها وصلت إلى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وفى داخلها شبه بيت ، وعلى جوانب الحوض نبات الأرض كالنَّجِيل وغيره . فأردت أن أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلنى إلى العمارة . ثم إنى وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ، ووجدت ثورا عليه بَرْدعة ومِنْجل ، فإذا تلك الطريق تُفْضِى إلى قرى الكفار ، فاتّبعت طريقا أخرى ، فأفضت بى إلى قرية خربة ، ورأيت بها اسودين عريانين نخفتُهما ، وأقمت تحت أشجار هنالك . فلما كان الليل دخلت القرية ، ووجدت دارا فى بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزرع . وفى أسفلها نَقْب يسع الرجل ، فدخلتها ووجدت

(١) جمع عُسْلوج ، وهو ما لان واخضرّ من الأغصان .

داخلها مفروشا بالتبن ، وفيه حجر جعلت رأسى عليه ونمت . وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل ، وأظنه كان يخاف ، فاجتمعنا خائفين . وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يومَ أُسرت وهو يوم السبت .

وفى السابع منها وصلت إلى قرية للكفار عامرة ، وفيها حوض ماء ومنابت خُضْر ، فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطونى ، فوجدت حول بئر بها أوراق فُجْل فأكلتها . وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة[1] ، فدعانى طليعتهم فلم أجبه . وقعدت على الأرض ، فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربنى به ، فلم ألتفت إليه لعظيم ما بى من الجُهْد . ففتشنى فلم يجد عندى شيئا ، فأخذ القميص الذى كنت أعطيت الشيخ الموكل بى كُمَّيه .

ولما كان فى اليوم الثامن ، اشتد بى العطش وعدمت الماء ، ووصلت إلى قرية خراب فلم أجد بها حوضا . وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضا يجتمع بها ماء المطر ، فيشربوا منه جميع السنة ، فاتّبعت طريقا ، فأفضت بى إلى بئر غير مطوية ، عليها حبل مصنوع من نبات الأرض ، وليس فيه آنية يستق بها ، فربطت خرقة كانت على رأسى فى الحبل ، وامتصصت ما تعلق بها من الماء فلم يُرْونى ، فربطت خُفّى ، واستقيت به فلم يُرْونى ، فاستقيت به ثانيا ، فانقطع الحبل ووقع الخف فى البئر . فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت . ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلى بحبل البئر ، و بِخِرَق وجدتها هنالك . فبينا أنا أربطها وأفكر فى حالى ، إذ لاح لى شخص فنظرت إليه ، فإذا رجل أسود اللون بيده إبريق وعكاز ، وعلى كاهله جِراب ، فقال لى : سلام عليكم . فقلت له : عليكم السلام ورحمة الله و بركاته . فقال لى بالفارسية : جيكس ، ومعناه : من أنت ؟ فقلت له : أنا تائه . فقال لى : وأنا كذلك . ثم ربط إبريقه بحبل كان معه واستقى .

---

(1) طليعة الجيش من يبعث ليطلع طلع العدو ، للواحد والجمع .

فأردت أن أشرب فقال لى : اصبر . ثم فتح جِرَابه، فأخرج منه غَرْفة حِمَّص أسود مقلوّ مع قليل أرز ، فأكلت منه وشربت ، وتوضأ وصلى ركعتين، وتوضأت أنا وصليت . وسألنى عن اسمى فقلت : محمد ، وسألته عن اسمه فقال لى : القلب الفارح . فتفاءلت بذلك وسررت به . ثم قال لى : باسم الله ترافقنى؟ فقلت نعم . فمشيت معه قليلا، ثم وجدت فُتُورا فى أعضائى، ولم أستطع النهوض . فقعدت ، فقال : ما شأنك ؟ فقلت له : كنت قادرا على المشى قبل أن ألقاك ، فلما لقيتك عجزت . فقال : سبحان الله ! اركب فوق عنق . فقلت له : إنك ضعيف ولا تستطيع ذلك . فقال : يقوينى الله ، لا بدَّ لك من ذلك . فركبت على عنقه ، وقال لى : أكثر من قراءة : حسبنا الله ونعم الوكيل. فأكثرت من ذلك وغلبتنى عينى . فلم أفِق إلا لسقوطى على الأرض ، فاستيقظت ولم أر للرجل أثرا ، وإذا أنا فى قرية عامرة، فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود. وحاكمها من المسلمين . فأعلموه بى، فجاء إلىّ فقلت له : ما اسم هذه القرية ؟ فقال لى : تاج بُورة. وبينها وبين مدينة كُول حيث أصحابنا فرسخان .

وحملنى ذلك الحاكم إلى بيته فأطعمنى طعاما سُخْنا . واغتسلت . وقال لى : عندى ثوب وعمامة أودعهما عندى رجل عربىّ مصرىّ ، من أهل المحلة التى بكُول . فقلت له : هاتهما ألبسهما، إلى أن أصل إلى المحلة، فأتى بهما فوجدتهما من ثيابى، وكنت قد وهبتهما لذلك العربىّ لما قَدِمْنا كُول . فطال تعجبى من ذلك. وأفكرت فى الرجل الذى حملنى على عنقه . فتذكرت ما أخبرنى به ولى الله تعالى أبو عبد الله المرشدى ، على ما ذكرناه فى السفر الأول ، إذ قال لى : ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخى، ويخلصك من شدّة تقع فيها . وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه، فقال: القلب الفارح. فعلمت أنه هو الذى أخبرنى بلقائه، وأنه من الأولياء. ولم يحصل لى من صحبته إلا المقدار الذى ذكر. (١)

(١) حكاية هذا الولى من الغرائب التى يحار فيها العقل . والعهدة فيها على ابن بطوطة .

وأتيت تلك الليلة إلى أصحابي بكُول معلما لهم بسلامتي، فجاءوا إليّ بفرس وثياب واستبشروا بي، ووجدت جواب السلطان قد وصلهم. وقد بعث بفتى يسمى بسُنْبل الجامدار، عوضا عن كافور المستَشْهَد، وأمرنا أن نتمادى في سفرنا. ووجدتهم أيضا قد كتبوا للسلطان بما كان من أمري، وتشاءموا بهذه السفرة، لِمَا جرى فيها عليّ وعلى كافور، وهم يريدون أن يرجعوا .

فلما رأيت تأكيد السلطان في السفر، أكدت عليهم، وقَوِيَ عزمي . فقالوا : ألا ترى ما اتفق في بداية هذه السفرة؟ والسلطان يَعْذِرك، فلنرجع إليه، أو لِنُقِمْ حتى يصل جوابه. فقلت لهم : لا يمكن المُقام، وحيثما كنا أدركنا الجواب . فرحلنا من كُول ونزلنا بُرْج بُورة، وبه زاوية حسنة، وفيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العُرْيان، لأنه لا يلبس إلا ثوبا من سرته إلى أسفل . وباقي جسده مكشوف . وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان، القاطن بقرافة مصر، نفع الله به .

حكاية هذا الشيخ

وكان من أولياء الله تعالى، قائما على قدم التجرد، يلبس (تنورة) وهو ثوب يستر من سرته إلى أسفل . ويذكر أنه كان إذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقي بالزاوية من طعام وإدام وماء، وفرق ذلك على المساكين، ورمى بفَتيلة السراج، وأصبح على غير معلوم . وكانت عادته أن يطعم أصحابه عند الصباح خبزا وفولا، فكان الخبازون والفوالون يستبقون إلى زاويته فيأخذ منهم مقدار ما يكفي الفقراء . ومن حكاياته أنه لما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره، وملك دِمَشْق ما عدا قلعتها، وخرج الملك الناصر إلى مدافعته، ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قَشْحَب، والملك الناصر إذ ذاك حديث السن، لم يَعْهَد الوقائع، وكان الشيخ العريان

فى صحبته،[١] نزل وأخذ قيدا فقيد به فرس الملك الناصر، لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه، فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين. فثبت الملك الناصر، وهُزِم التتر هزيمة شَنْعاء، قتل منهم فيها كثير وغَرِق كثير، بما أرسل عليهم من المياه. ولم يعد التتر إلى قصد بلاد الإسلام بعدها. وأخبرنى الشيخ محمد العريان تلميذ هذا الشيخ، أنه حضر هذه الوقيعة وهو حديث السن[٢].

ورحلنا من برج بُورة ونزلنا على الماء المعروف (بآب سياه). ثم رحلنا إلى مدينة قِنَوْج، مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة، رخيصة الأسعار، كثيرة السكر، ومنها يحمل إلى دِهْلى، وعليها سور عظيم. وقد تقدم ذكرها. وكان بها الشيخ معين الدين البَاخَرْزى، وقد أضافنا بها. وأميرها فَيْرُوز البَدَخْشَانى، من ذرية بَهْرام جُور صاحب كِسرى. ويسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الأخلاق، يعرفون بأولاد شَرَف جِهان، وكان جدهم قاضى القضاة بدولة آباد. وهو من المحسنين المتصدقين. وانتهت الرياسة ببلاد الهند إليه.

حكاية له

يذكر أنه عُزِل مرة عن القضاء وكان له أعداء، فادعى أحدهم عند القاضى الذى وَلِىَ بعده، أن له عشرة آلاف دينار قِبَله، ولم تكن له بينة. وكان قصده أن يحلّفه، فبعث القاضى له. فقال لرسوله: بم ادعى علىّ؟ فقال بعشرة آلاف دينار، فبعث إلى مجلس القاضى عشرة آلاف، وسُلّمت للمدعى. وبلغ خبره السلطان علاء الدين، وصح عنده بطلان تلك الدعوى، فأعاده إلى القضاء، وأعطاه عشرة آلاف.

---

(١) جواب لما.

(٢) هذه الحكاية من اختراع القُصّاص كما يظهر.

وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا ، ووصلنا فيها جواب السلطان فى شأنى ، بأنه إن لم يظهر لفلان أثر ، يتوجه وجيه المُلْك قاضى دولة آباد عوضا عنه. ثم رحلنا من هذه المدينة فنزلنا بمنزل هَنَوْل ، ثم بمنزل (وزير بور) ، ثم بمنزل البَجَالِصة. ثم وصلنا إلى مدينة مَوْرِى ، وهى صغيرة ، ولها أسواق حسنة . ولقيت بها الشيخ الصالح المعمَّر قُطْبَ الدين ، المسمى بِحَيْدَر الفَرْغانى ، وكان ـ سال مرض ، فدعالى وزودنى رغيفَ شعير . وأخبرنى أن عمره يُنيف على مائة وخمسين . وذكر لى أصحابه أنه يصوم الدهر ويواصل كثيرا ، ويكثر الاعتكاف. وربما أقام فى خلوته أربعين يوما ، يقتات فيها بأربعين تمرة ، فى كل يوم واحدة. وقد رأيت بدهلى الشيخ المسمى برجب البُرْقعى ، دخل الخلوة بأربعين تمرة فأقام بها أربعين يوما ، ثم خرج ، وفَضَل معه منها ثلاث عشرة تمرة .

ثم رحلنا ووصلنا إلى مدينة (مَرْه) وهى مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذمّة . وهى حصينة ، وبها القمح الطيب الذى ليس مثله بسواها . ومنها يحمل إلى دِهلى ، وحبوبه طِوال شديدة الصفرة ضخمة ، ولم أر قمحا مثله إلا بأرض الصين . وتنسب هذه المدينة إلى المَالَوَة ، وهى قبيلة من قبائل الهنود ، ضخام الأجسام عظام الخَلْق حِسان الصور ، لنسائهم الجمال الفائق . ثم سافرنا إلى مدينة عَلاَبُور ، مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة . وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قَتَمِ ، وهو سلطان جَنْبِيل الذى حاصر مدينة كَيَالِير ، وقُتِل بعد ذلك .

حكايته

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابَرى ، وهى على نهر الجُون[١] . كثيرة القرى والمزارع ، وكان أميرها خطَّابا الأفغانىّ ، وهو أحد الشجعان .

(١) نهر جمنا ، كما تقدم .

واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رَجُو، و بلده يسمى (سُلْطان بُور)، وحاصر مدينة رابرى، فبعث خَطَّاب إلى السلطان يطلب منه الإعانة، فأبطأ عليه المَدَد، وهو على مسيرة أربعين من الحضرة، فخاف أن يتغلب الكفار عليه. فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة ومثلهم من المماليك، ونحو أربعمائة من سائر الناس. وجعلوا العمائم فى أعناق خيلهم، وهى عادة أهل الهند، إذا أرادوا الموت و باعوا نفوسهم من الله تعالى. وتقدّم خطّاب وقبيلته وتبعهم سائر الناس، وفتحوا الباب عند الصبح، وحملوا على الكفار حملة واحدة. وكانوا نحو خمسة عشر ألفا. فهزموهم بإذن الله وقتلوا سلطانيهم، قَتّم ورَجُو. و بعثوا برأسيهما إلى السلطان. ولم ينج من الكفار إلا الشريد.

ذكر أمير عَلَابُور واستشهاده

وكان أمير علابور بَدْر الحبشىّ من عبيد السلطان. وهو من الأبطال الذين تضرب بهم الأمثال. وكان لايزال يُغير على الكفار منفردا بنفسه، فيقتل ويَسْبِي حتى شاع خبره واشتهر أمره، وهابه الكفار. وكان طويلا ضخما يأكل الشاة عن آخرها فى أكلة. وأُخبرت أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غدائه، على عادة الحبشة ببلادهم. وكان له ابن يدانيه فى الشجاعة، فاتفق أنه أغار مرة فى جماعة من عبيده على قرية للكفار، فوقع به الفرس فى مَطْمُورة[1]. واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقَتَّارة، والقتارة حديدة شبه سِكَّة الحرث، يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه، ويَفْضُل منها مقدار ذراعين. وضربتها لا تبقى. فقتله بتلك الضربة ومات فيها. وقتلوا رجالها وسبوا نساءها. وقاتل عبيده أشدّ القتال، فتغلبوا على القرية، وأخرجوا الفرس من المطمورة سالما فأتوا به ولده. فكان من

(١) الحفيرة تحت الأرض.

الاتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجه إلى دِهْلى ، فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل ، وعاد الفرس إلى أصحابه فدفعوه إلى أهله ، فركبه صهر له فقتله الكفار عليه أيضا .

ثم سافرنا إلى مدينة كَالِيُور ، وهى مدينة كبيرة لها حصن منيع ، منقطع فى رأس شاهق ، على بابه صورة فيل وفَيَّال من الحجارة ، وقد مر ذكره فى اسم السلطان قطب الدين . وأمير هذه المدينة أحمد بن سِيرخان ، فاضل كان يكرمنى أيام إقامتى عنده قبل هذه السفرة . ودخلت عليه يوما وهو يريد توسيط[1] رجل من الكفار، فقلت له : بالله لا تفعل ذلك، فإنى ما رأيت أحدا قط يُقْتَل بمَحْضَرى . فأمر بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه .
ثم رحلنا من مدينة كَالِيُور إلى مدينة بَرْوَن ، مدينة صغيرة للسلمين بين بلاد الكفار ، أميرها محمد بن بَيْرَم التركىّ الأصل . والسباع بها كثيرة . وذكر لى بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس ، حتى قتل من أهلها كثيرا . وكانوا يعجبون من شأن دخوله . وأخبرنى محمد التَّوْفيزى من أهلها، وكان جارا لى بها، أنه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير . وأخبرنى غيره أنه كان مع جماعة فى دار عُرْس ، فخرج أحدهم لحاجة فافترسه أسد ، فخرج أصحابه فى طلبه ، فوجدوه مطروحا بالسوق وقد شرب دمه ، ولم يأكل لحمه . وذكروا أنه كذلك فعله بالناس . ومن العجب أن بعض الناس أخبرنى أن الذى يفعل ذلك ليس بسبع ، وإنما هو آدمى من السحرة المعروفين بالْجُوكِيّة ، يتصوّر فى صورة سبع . ولما أُخبرت بذلك أنكرته ، وأخبرنى به جماعة . ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة .

---

(١) قطعه نصفين كما سبق فى الحواشى .

ذكر السحرة الجُوكيّة

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب . منها ان أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب . وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليهم ، فلا يترك للواحد إلا موضع يدخل منه الهواء. و يقيم بها الشهور . وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة . و رأيت بمدينة مَنْجَرُور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم ، قد رفعت له طبلة[1] وأقام بأعلاها ، لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما . وتركته كذلك فلا أدرى كم أقام بعدى . والناس يذكرون أنهم يُرَكّبون حبوبا ، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة وأشهر ، فلا يحتاجون فى تلك المدة إلى طعام ولا شراب ، و يخبرون بأمور مغيبة . والسلطان يعظمهم ويجالسهم . ومنهم من يقتصر فى أكله على البقل ، ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون . والظاهر من حالهم أنهم عوّدوا أنفسهم الرياضة ، ولا حاجة لهم فى الدنيا وزينتها . ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتا من نظرته . وتقول العامة : إنه إذا قُتل إنسان بالنظر، وشق عن صدر الميت وجد دون قلب . و يقولون : أكل قلبه . وأكثر ما يكون هذا فى النساء . والمرأة التى تفعل ذلك تسمى (كَفْتارا)[2] .

حكاية

لما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط ، والسلطان ببلاد التِّلِنْك ، نفذ امره ان يعطى لأهل دهلى ما يقوتهم ، بحساب رطل ونصف للواحد فى اليوم . فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة

(١) يقصد شيئا كالمنصة ، وليس لهذه الكلمة هذا المعنى فى العربية .

(٢) لا تخلو هذه الأخبار من مبالغة كما هو ظاهر .

ليتولوا إطعامهم ، فكان عندى منهم خمسمائة نفس . فعمرت لهم سقائف فى دارى وأسكنتهم بها . وكنت أعطيهم نفقة خمسة أيام لخمسة أيام . فلما كان فى بعض الأيام أتونى بمرأة منهم وقالوا إنها (كَفْتار) ، وقد أكلت قلب صبيّ كان إلى جانبها . وأتوا بالصبي ميتا ، فأمرتهم أن يذهبوا بها إلى نائب السلطان ، فأمر باختبارها : وذلك بأن ملئوا أربع جرّات بالماء ، وربطوها بيديها ورجليها ، وطرحوها فى نهر الُجون ، فلم تغرق ، فعلم أنها (كفتار) . ولو لم تَطْفُ على الماء لم تكن بكفتار . فأمر بإحراقها بالنار . وأتوا بأهل البلد رجالا ونساء فأخذوا رمادها ، وزعموا أنه من تبخّر به أمن فى تلك السنة من سحر (كفتار)[١] .

حكاية

بعث إلىّ السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة ، فدخلت عليه وهو فى خلوة ، وعنده بعض خواصه ، ورجلان من هؤلاء الُجوكية ، وهم يلتحفون بالملاحف ، ويغطون رءوسهم ، لأنهم يَنْتِفونها بالرماد ، فأمرنى بالجلوس فجلست . فقال لهما : إن هذا العزيز من بلاد بعيدة ، فأرياه ما لم يره . فقالا : نعم . فتربّع أحدهما ، ثم ارتفع عن الأرض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعا ، فعجبت منه ، وأدركنى الخوف فسقطت إلى الأرض . فأمر السلطان أن أُسقى دواء عنده ، فأفقت ، وقعدت وهو على حاله متربع . فأخذ صاحبه نعلا له من شكارة[٢] كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمغتاظ ، فصعدتْ إلى أن علت فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب فى عنقه ، وهو ينزل قليلا

(١) يظهر أن هذه الحكاية وأمثالها من الشعوذة .

(٢) زكيبة صغيرة . والشكارة ليست بعربية . وقال صاحب القاموس إن الزكيبة كلمة مصرية .

قليلا حتى جلس معنا . فقال لى السلطان : إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل . ثم قال : لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت ، فانصرفت عنه ، وأصابنى الخفقان ومرضت ، حتى أمر لى بشربة أذهبت ذلك عنى .

ولنعد لما كنا بسبيله فنقول : سافرنا من مدينة بِرْوَن إلى منزل أَمْوارِى ، ثم إلى منزل بَجَرَّا ، وبه حوض عظيم طوله نحو ميل ، وعليه الكنائس فيها الأصنام وقد مثّل بها المسلمون ، وفى وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طِباق ، وعلى أركانه الأربعة قباب . ويسكن هنالك جماعة من الجُوكية ، وقد لبَّدوا شعورهم وطالت حتى صارت فى طولهم . وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة . وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم . ويذكرون أن من كانت به عاهة من بَرَص أوجُذام ، يأوى إليهم مدة طويلة فيبرأ بإذن الله تعالى . وأول مارأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طَرْمَشِيرين ، ملك تركستان . وكانوا نحو الخمسين . فحفر لهم غار تحت الأرض ، وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلا لقضاء حاجة . ولهم شبه القرن[1] يضربونه أول النهار وآخره وبعد العتمة . وشأنهم كله عجب .

ثم سافرنا إلى مدينة جَنْدِيرى ، مدينة عظيمة لها أسواق حافلة ، يسكنها أمير أمراء تلك البلاد ، عز الدين البَنْتانِى ، وهو المدعو (بأعظم ملك) ، وكان خَيّرًا فاضلا يجالس أهل العلم . وممن كان يجالسه الفقيه عز الدين الزُّبَيْرِى والفقيه العالم وجيه الدين البَيانى ، نسبة إلى مدينة بَيانة التى تقدم ذكرها ، والفقيه القاضى المعروف بقاضى خاصّة ، وإمامهم شمس الدين . وكان النائب عنه على أمور المخزن ، يسمى قمر الدين ، ونائبه على أمور العسكر سعادة التِّلِنْكِى من كبار الشجعان ، وبين يديه تعرض العساكر . و (أعظم ملك) لا يظهر إلا فى يوم الجمعة ، وفى غيرها نادرا .

---

(١) يراد به البوق .

ثم سرنا من جَنْدِيرى إلى مدينة ظِهار ، وهى مدينة المـالُوَة ، أكبر عمالة بتلك البلاد . وزرعها كثير خصوصا القمح . ومن هذه المدينة تحمل أوراق التانبُول إلى دِهْلى . وبينهما أربعـة وعشرون يوما . وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الأميال فيما بين كل عمودين . فإذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار فى يومه ، وما بقى له إلى المنزل أو إلى المدينة التى يقصدها ، قرأ النقش الذى فى الأعمدة فعرفه . ومدينة ظِهار إقطاع للشيخ إبراهيم الذى من أهل ذِيبَة المَهَل[1] .

حكاية

كان هذا الشيخ إبراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها ، فأحيا أرضا مَوَاتاهنالك ، وصار يزدرعها بطيخا ، فأتى فى غاية من الحلاوة ، وليس بتلك الأرض مثله . ويزرع الناس بطيخا فيما يجاوره فلا يكون مثله . وكان يطعم الفقراء والمساكين . فلما قصد السلطان إلى بلاد المَعْبَر أهدى إليه هذا الشيخ بطيخا فقبله منه واستطابه ، وأقطعه مدينة ظِهار ، وأمره أن يعمر زاوية بربوة تشرف عليها ، فعمرها أحسن عمارة. وكان يطعم بها الوارد والصادر . وأقام على ذلك أعواما . ثم قدم على السلطان وحمل إليه ثلاثة عشر (لكا)[2] ، فقال : هذا فضل مما كنت أطعمه الناس ، وبيت المـال أحق به . فقبضه منه . ولم يعجب السلطان فعله ، لكونه جمع المـال ولم ينفق جميعه فى إطعام الطعام . وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير الخواجة جهان أن يفتك بخاله ، ويستولى على أمواله ، ويسير إلى القائم ببلاد المعبر ، فَنَمَى خبره إلى خاله ، فقبض عليه وعلى جماعة من الأمراء ، وبعثهم إلى السلطان فقتل الأمراء ، وردّ ابن أخته إليه فقتله الوزير .

---

(١) جزائر مالديف .

(٢) تقدم شرحه فى الحواشى .

ولما ردّ ابن أخت الوزير إليه أمر به أن يقتل ، كما قتل أصحابه . ثم طرح للفيلة ، وسلخ جلده وملئ تبنا .

ثم سافرنا من مدينة ظِهار إلى مدينة أجَيْن ، مدينة حسنة كثيرة العمارة . وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك ، وهو من الفضلاء الكرماء العلماء ، استُشْهِد بجزيرة سَنْدابُور حين افتتحها . وقد زرت قبره هنالك ، وسنذكره . وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربي الغَرْناطى الأصل .

ثم سافرنا من مدينة أجَيْن إلى مدينة دولة آباد ، وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن ، الموازية لحضرة دِهْلى فى رفعة قدرها واتساع خِطّتها . وهى منقسمة ثلاثة أقسام : أحدها دولة آباد ، وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره ، والقسم الثانى يسمى الكَتَكَة ، والقسم الثالث قلعتها التى لا مِثل لها ولا نظير فى الحصانة ، وتسمى الدُّوَيْقِير . وبهذه المدينة سكنى الخان الأعظم قُطْلُوخان معلم السلطان . وهو أميرها والنائب عن السلطان بها ، وببلاد صَاغَر ، وبلاد التِّلِنْك وما أضيف إلى ذلك . وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر ، عامرة كلها ، ونوابه فيها . وقلعة الدُّوَيْقِير التى ذكرناها هى قطعة حجر فى بسيط من الأرض ، قد نحتت وبنى بأعلاها قلعة يصعد إليها بِسلم مصنوع من جلود ، ويرفع ليلا . ويسكن بها الزِمامِيّون[1] بأولادهم . وفيها سجن أهل الجرائم العظيمة فى جبوب [2] بها . وبها فيران ضخام أعظم من القطوط[3] ، والقطوط تهرُب منها ، ولا تطيق مدافعتها لأنها تغلبها . ولا تصاد إلا بحيل تُدار عليها . وقد رأيتها هنالك فعجبت منها .

---

(١) الحراس المقيدة أسماؤهم فى جرائد الجيش ، تسمية اصطلاحية .

(٢) جمع جب . ولكن الجموع فى الكتب التى بأيدينا هى : أَجْباب وجِباب وجِبَبَة .

(٣) جمع قط . وهذا الجمع غريب . والذى فى القاموس : قِطَاط وقِطَطة .

حكاية

أخبرنى الملك خطاب الأفغانىّ أنه سجن مرة فى جب بهذه القلعة، يسمى جب الفيران ، قال : فكانت تجتمع علىّ ليلا لتأكلنى، فأقاتلها ، وألقى من ذلك جهدا . ثم إنى رأيت فى النوم قائلا يقول لى : اقرأ سورة الإخلاص مائة ألف مرة ، فيفرج الله عنك . قال : فقرأتها فلما أتممتها أخرجت . وكان سبب خروجى أن الملك (مَلّ) كان مسجونا فى جب يجاورنى ، فمرض وأكلت الفيران أصابعه وعينيه فمات . فبلغ ذلك السلطان فقال : أخرجوا خطابا لئلا يتفق له مثل ذلك . وإلى هذه القلعة لجأ ناصر الدين ابن الملك (مَلّ) هذا ، والقاضى جلال حين هزمهما السلطان .

وأهل بلاد دولة آباد هم قبيل المَرْهَتّة الذين خص الله نساءهم بالحسن ، وخصوصا فى الأنوف والحواجب . وكفار هذه المدينة أصحاب تجارات . وأكثر تجاراتهم فى الجوهر، وأموالهم طائلة . وبدولة آباد العنب والرمان ، ويثمران مرتين فى السنة . وهى من أعظم البلاد مَجْبى وأكبرها خراجا ، لكثرة عمارتها واتساع عمالتها . وأخبرت أن بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعا ، وهى كما ذكرناها مسيرة ثلاثة أشهر ، بسبعة عشر كُرُورا ، والكُرُور مائة لك ، واللك مائة ألف دينار . ولكنه لم يفِ بذلك فبقى عليه بقية ، فأخذ ماله وسلِخ جلده .

ذكر سوق المغنين

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنّيات ، يسمى سوق طرب آباد ، من أجمل الأسواق وأكبرها ، فيه الدكاكين الكثيرة ، كل دكان له باب يفضى إلى دار صاحبه . وللدار باب سوى ذلك . والحانوت مزين بالفرش ، وفى وسطه

شكل مَهْد كبير، تجلس فيــه المغنية أو ترقد ، وهى متزينة بأنواع الحُلَى ، وجواريها يحرِكن مهدها . وفى وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة ، يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس ، وبين يديه خدامه ومماليكه . وتأتى المغنّيات طائفة بعد أخرى ، فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ، ثم ينصرف .

وفى تلك السوق المساجد للصلاة . ويصلى الأئمــة فيها التراويح فى شهر رمضان . وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مَرّ بهــذه السوق ينزل بِقبتها ، وتغنى المغنيات بين يديه . وقدفعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضا .

ثم سافرنا إلى مدينة نَذَرْبار ، مدينة صغيرة يسكنها المَرْهَتَة ، وهم أهل الإتقان فى الصناعات ، والأطباء والمنجمون ، وشرفاء المرهتة هم البراهمة . وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم . ولا يرون تعذيب الحيوان ولا ذبحه . ويغتسلون للأكل . ولا يتزوجون فى أقاربهم إلا فيمن كان بينهم وبينه سبعة أجداد . ولا يشربون الخمر . وهى عندهم أعظم المعايب . وكذلك هى ببلاد الهند عند المسلمين . ومن شربها من مسلم حُدّ ثمانين جلدة ، وسجن فى مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه إلا حين طعامه .

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صَاغَر ، وهى مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضا صاغر كاسمها ، وعليه النواعير والبساتين فيها العنب والموز وقصب السكر . وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة . وأحوالهم كلها مرضية . ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر . وكل من يبنى زاوية يحبس البستان عليها ، ويجعل النظر فيه لأولاده ، فإن انقرضوا أعاد النظر للقضاة . والعمارة بها كثيرة . والناس يقصدونهــا للتبرك بأهلها ، ولكونهــا محررة من

المغارم والوظائف (١) . ثم سافرنا من صَاغَر إلى مدينة كِنْباية ، وهى على خُور من البحر ، وهو شبه الوادى تدخله المراكب ، وبه المد والجزر ، وعاينت المراكب به مُرْساة فى الوَحَل حين الجزر . فإذا كان المد عامت فى الماء . وهذه المدينة من أحسن المدن فى إتقان البناء وعمارة المساجد . وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء ، فهم أبدا يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ، ويتنافسون فى ذلك . ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامرىّ الذى اتفقت لى معه قضية الحلواء ، وكذبه ملك الندماء . ولم أر قط أضخم من الخشب الذى رأيته بهذه الدار . وبابها كانه باب مدينة . وإلى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه . ومنها دار ملك التجار الكَازَرُونى ، وإلى جانبها مسجده . ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه دُوز .

حكاية

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضى جلال الأفغانىّ ، أراد شمس الدين والنَاخُذَاة إلياس ، وكان من كفار أهل هذه المدينة ، وملك الحكماء الذى تقدم ذكره ، أن يمتنعوا منه بهذه المدينة ، وشرعوا فى حفر خندق عليها ، إذ لا سور لها . فتغلب عليهم ودخلها . واختفى الثلاثة فى دار واحدة ، وخافوا أن يُطَّلع عليهم ، فاتفقوا على أن يقتلوا أنفسهم ، فضرب كل واحد منهم صاحبه بِقَتَّارة . وقد ذكرنا صفتها . فمات اثنان منهم ولم يمت ملك الحكماء . وكان من كِبار التجار أيضا بها نجم الدين الجِيلانى . وكان حسن الصورة كثير المال . وبنى بها دارا عظيمة ومسجدا . ثم أرسل السلطان إليه وأمّره عليها وأعطاه المراتب . فكان

(١) المكوس والجبايات .

ذلك سبب تلف نفسه وماله . وكان أمير كِنْباية حين وصلنا إليها مُقْبِلا التِلِنْكى . وهو كبير المنزلة عند السلطان . وكان فى صحبته الشيخ زاده الأَصْبَهانى نائبا عنه فى جميع أموره . وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بأمور السلطنة ، ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده ويتحيل فى الفرار . وبلغ خبره السلطان ، وذكر عنه أنه يروم الهرب ، فكتب إلى مقبل أن يبعثه ، فبعثه على البريد ، وأُحْضِر بين يدى السلطان ووكّل به . والعادة عنده أنه متى وُكّل بأحد فقلما ينجو . فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه إياه ، وهربا جميعا . وذكر لى احد الثقات أنه رآه فى ركن مسجد بمدينة قَلْهات ، وأنه وصل بعد ذلك إلى بلاده ، فحصل على أمواله وأَمِنَ ما كان يخافه .

حكاية

وأضافنا الملك مقبل يوما بداره ، فكان من النادر أن جلس قاضى المدينة وهو أعور العين اليمنى ، وفى مقابلته شريف بغدادىّ شديد الشبه به فى صورته وعوره ، إلا أنه أعور اليسرى . فجعل الشريف ينظر إلى القاضى ويضحك ، فزجره القاضى ، فقال له : لا تزجرنى فإنى أحسن منك ، قال : كيف ذلك ؟ قال : لأنك أعور اليمنى وأنا أعور اليسرى . فضحك الأمير والحاضرون ، وخجل القاضى ولم يستطع أن يرد عليه ، لأن الشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم .

وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر ، وسكناه بقبة من قباب الجامع . دخلنا عليه وأكلنا من طعامه . واتفق له لما دخل القاضى جلال مدينة كِنْباية حين خلافه ، أنه أتاه ، وذُكر للسلطان أنه دعا له ، فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدرى . وكان بها أيضا من الصالحين التاجر خواجة إسحاق . وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر ، وينفق على

الفقراء والمساكين . وماله على هذا يَنْمِى ويزيد كثرة . وسافرنا من هذه المدينة إلى بلدة كاوِى . وهى على خُور فيه المد والجزر من بلاد الراى (١) جَالَنْسِى ، وسنذكره . وسافرنا إلى مدينة قَنْدَهار . وهى مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر .

ذكر سلطانها

وسلطان قَنْدَهار كافر اسمه جَالَنْسِى . وهو تحت حكم الإسلام ، يعطى ملك الهند هدية كل عام . ولما وصلنا إلى قندهار خرج إلى استقبالنا وعظمنا أشد التعظيم ، وخرج عن قصره فأنزلنا به . وجاء إلينا مَنْ عنده من كبار المسلمين ، كأولاد خواجة بُهْرة ، ومنهم الناخُذَاة إبراهيم ، وله ستة من المراكب . ومن هذه المدينة ركبنا البحر .

ذكر ركوبنا البحر

وركبنا فى مركب لإبراهيم هذا يسمى الجاكَر ، وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا ، وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا ، فى مركب لأخى إبراهيم . وأعطانا جَالَنْسِى مركبا جعلنا فيه خيل ظهير الدين وسنبل وأصحابهما . وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف . وبعث معنا ولده فى مركب شبه الغراب (٢) إلا أنه أوسع منه . وفيه ستون مجذافا . ويُسَقَّف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شىء من السهام ولا الحجارة . وكان ركوبى أنا فى الجاكَر . وكان فيه خمسون راميا ، وخمسون من المقاتلة الحُبْشَان ، وهم زعماء هذا البحر . وإذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم .

---

(١) مرادف للفظ (راجا) كما تقدم .

(٢) نوع من السفن عندهم .

ووصلنا بعد يومين الى جزيرة بَيْرَم. وهى خالية، وبينها وبين البر أربعة أميال، فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها . وسبب خرابها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد . وكان ملك التجار الذى تقدم ذكره أراد عمارتها وبنى سورها ، وجعل بها المجانيق ، وأسكن بها بعض المسلمين . ثم سافرنا منها ووصلنا فى اليوم الثانى إلى مدينة قُوقَة ، وهى مدينة كبيرة عظيمة الأسواق ، أرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر ، ونزلت فى عشارى[1] مع بعض أصحابى حين الجزر لأدخلها ، فوَحِل العشارى فى الطين ، وبقى بيننا وبين البلد نحو ميل . فكنت لما نزلنا فى الوَحَل أتوكأ على رجلين من أصحابى . وخوفنى الناس وصول المد قبل وصولى إليها وأنا لا أحسن السباحة. ثم وصلت إليها وطفت بأسواقها، ورأيت بها مسجدا ينسب للخَضِر وإلياس، عليهما السلام ، صليت به المغرب، ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم . ثم عدت إلى المركب .

ذكر سلطانها

وسلطانها كافر يسمى دُنْكُول . وكان يظهر الطاعة لملك الهند . وهو فى الحقيقة عاص . ولما أقلعنا عن هذه المدينة وصلنا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سَنْدَابُور، وهى جزيرة فى وسطها ست وثلاثون قرية، ويدور بها خور . وإذا كان الجزر فماؤها عذب طيب ، واذا كان المد فهو ملح أُجَاج . وفى وسطها مدينتان إحداهما قديمة من بناء الكفار ، والثانية بناها المسلمون ، عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الأول . وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد . عمره الناخُذَاة حسن والد للسلطان جمال الدين محمد الهِنَوْرى. وسيأتى

(١) نوع آخر يظهر أنه صغير كالزورق . والتسمية ليست بعربية فيا نعلم . ولا ندرى كيف تضبط الكلمة .

ذكره ، وذكر حضورى معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثانى ، إن شاء الله .
وتجاوزنا هذه الجزيرة لمّا مررنا بها ، وأرسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر ، فيها كنيسة وبستان وحوض ماء . ووجدنا بها أحد الجوكية .

حكاية هذا الجُوكى

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى ، وجدنا بها جُوكيا مستندا إلى حائط بُدْخانة ، وهى بيت الأصنام . وهو فيما بين صنمين منها ، وعليه اثر المجاهدة ، فكلمناه فلم يتكلم . ونظرنا هل معه طعام ؟ فلم نر معه طعاما . وفى حين نظرنا صاح صيحة عظيمة ، فسقطت عند صياحه جَوْزة من جوز النارَجيل بين يديه ، ودفعها لنا فعجبنا من ذلك ، ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها . وأتيناه بزاد فردّه . وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدى ، فدفعها إلىّ . وكانت بيدى سُبْحة فقلبها فى يدى فأعطيته إياها ، ففركها بيده وشمها وقبلها وأشار إلى السماء ، ثم إلى سَمْت القبلة ، فلم يفهم أصحابى إشارته ، ففهمت أنا عنه أنه أشار أنه مسلم يخفى إسلامه عن أهل تلك الجزيرة ، ويتعيّش من ذلك الجوز .

ولما ودّعناه قبلت يده ، فأنكر أصحابى ذلك ، ففهم إنكارهم ، فأخذ يدى وقبلها وتبسم ، وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا ، وكنت آخر أصحابى خروجا . فجذب ثوبى فرددت رأسى إليه فأعطانى عشرة دنانير . فلما خرجنا عنه قال لى أصحابى : لم جذبك ؟ فقلت لهم أعطانى هذه الدنانير . وأعطيت ظَهير الدين ثلاثة منها ، وسُنْبُلا ثلاثة . وقلت لهما : الرجل مسلم . ألا ترون كيف أشار إلى السماء يشير إلى أنه يعرف الله تعالى ، وأشار إلى القبلة يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام . وأخذه السُبْحة يصدق ذلك . فرجعا لما قلت لهما ذلك إليه فلم يجداه[1] . وسافرنا تلك الساعة ، وبالغد وصلنا إلى

(١) فى هذه الحكاية غرابة ، وهى على عهدة ابن بطوطة .

مدينة هِنَوْر ، وهى على خُور كبير تدخله المراكب الكبار . والمدينة على نصف ميل من البحر . وفى أيام المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه ، فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للتصيد فيه . وفى يوم وصولنا إليها جاءنى أحد الجُوكِيّة من الهنود فى خلوة ، وأعطانى ستة دنانير ، وقال لى : الْبَرَهْمَن بعثها إليك ، يعنى الجوكى الذى أعطيته السُّبْحة ، وأعطانى الدنانير فأخذتها منه ، وأعطيته دينارا منها فلم يقبله وانصرف . وأخبرت صاحِبَيَّ بالقضية ، وقلت لهما : إن شئتما فخذا نصيبكما منها ، فأبيا وجعلا يعجبان من شأنه . وقالا لى : إن الدنانير الستة التى أعطيتنا إياها جعلنا معها مثلها ، وتركناها بين الصنمين حيث وجدناه . فطال عجبى من أمره . واحتفظت بتلك الدنانير التى أعطانيها .

وأهل مدينة هِنَوْر شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد فى الحرب وقوة . وبذلك عُرِفوا حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم لسَنْدابُور ، وسنذكر ذلك . ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمدا الناقورى ، وأضافنى بزاويته ، وكان يطبخ الطعام بيده ، استقذارا للجارية والغلام . ولقيت بها الفقيه إسماعيل معلم كتاب الله تعالى . وهو ورِع حسن الخلق كريم النفس ، والقاضى بها نور الدين عليّا . ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المَخِيط ، وإنما يلبسن ثيابا غير مخيطة ، تحتزم إحداهن بأحد طرفى الثوب ، وتجعل باقيه على رأسها وصدرها . ولهن جمال وعفاف . وتجعل إحداهن خَرْص[1] ذهب فى أنفها . ومن خصائصهن أنهن جميعا يحفظن القرآن العظيم . ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات ، وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد . ولم أر ذلك فى سواها . ومعاش أهلها من التجارة فى البحر . ولا زرع لهم . وأهل بلاد المُلَيْبَار يعطون السلطان جمال الدين فى كل عام شيئا معلوما ، خوفا منه لقوته فى البحر . وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجّالة .

---

(١) الخرص بفتح الخاء وكسرها حلقة من الذهب أو الفضة .

ذكر سلطان هِنَوْر

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن ، من خيار السلاطين وكبارهم . وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هَرْيَب سنذكره . والسلطان جمال الدين مواظب على الصلاة فى الجماعة . وعادته أن يأتى إلى المسجد قبل الصبح فيتلو فى المصحف حتى يطلع الفجر ، فيصلى أول الوقت ثم يركب إلى خارج المدينة ، ويأتى عند الضُّحا فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ، ثم يدخل إلى قصره . وهو يصوم الأيام البيض . وكان أيام إقامتى عنده يدعونى للإفطار معه ، فأحضر لذلك . ويحضر الفقيه علىّ والفقيه إسماعيل ، فتوضع أربعة كراسى صغار على الأرض . فيقعد على أحدها ويقعد كل واحد منا على كرسى .

ذكر ترتيب طعامه

وترتيبه أن يؤتى بمائدة نحاس ، ويجعل عليها صحفة نحاس يسمونها (الطَالَم) ، وتأتى جارية حَسْناء ملتحفة بثوب حرير ، فتقدم قدور الطعام بين يديه ، ومعها مِغْرفة نحاس كبيرة ، فتغرف بها من الأرز مِغْرفة واحدة ، وتجعلها فى (الطَالَم) ، وتصب فوقها السمن ، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح ، والزنجبيل الاخضر والليمون المملوح والعَنْبا[1] . فيأكل الإنسان لقمة ويتبعها بشىء من تلك الموالح . فإذا ما تمت الغرفة التى جعلتها فى (الطَالَم) ، غرفت غرفة أخرى من الأرز ، وأفرغت دجاجة مطبوخة فى سُكُرُّجَة ، فيؤكل بها الأرز أيضا . فإذا تمت الغرفة الثانية ، غرفت وأفرغت لونا آخر من الدجاج تؤكل به . فإذا تمت ألوان الدجاج أُتُوا بألوان من السمك فيأكلون بها الأرز أيضا . فإذا فرغت ألوان السمك أتوا بالخُضَر مطبوخة بالسمن

(١) المانجو ، كما مرّ فى الحواشى .

والألبان ، فيأكلون بها الأرز . فإذا فرغ ذلك كله أتُوا باللبن الرائب ، وبه يختمون طعامهم . فإذا وضع علم أنه لم يبق شيء يؤكل بعده . ثم يشربون على ذلك الماء السُّخن ، لأن الماء البارد يَضُرّ بهم فى فصل نزول المطر .

ولقد أقمت عند هذا السلطان فى كرّة أخرى أحد عشر شهرا لم آكل خبزا ، وإنما طعامهم الأرز . وبقيت أيضا بجزائر المَهَل وسيلان وبلاد المَعْبَر والمُلَيْبَار ، ثلاث سنين لا آكل فيها إلا الأرز ، حتى كنت لا أستسيغه إلا بالماء . ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرِّقاق ، يشد فى وسطه فُوطة ويلتحف بِملحفتين إحداهما فوق الأخرى . ويَعْقِص[1] شعره ويَلُفُّ عليه عمامة صغيرة . وإذا ركب لبس قَباء والتحف بملحفتين فوقه . وتضرب بين يديه طبول وأبواق يحملها الرجال . وكانت إقامتنا عنده فى هذه المرة ثلاثة أيام . وزودونا وسافرنا عنه .

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المُلَيْبَار ، وهى بلاد الفلفل . وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سَنْدَابُور إلى كَوْلَم . والطريق فى جميعها بين ظلال الأشجار . وفى كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين ، يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم أو كافر . وعند كل بيت منها بئر يشرب منها ، ورجل كافر موكل بها . فمن كان كافرا سقاه فى الأوانى ، ومن كان مسلما سقاه فى يديه ، ولا يزال يصب له حتى يشير له أو يكف . وعادة الكفار ببلاد المُلَيْبَار ألا يدخل المسلم دورهم ولا يَطْعَم فى أوانيهم . فإن طَعِم فيها كسروها أو أعطوها المسلمين . وإذا دخل المسلم موضعا منها لا يكون فيه دار للمسلمين ، طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز ، وصبوا عليه الإدام . وما فضل عنه تأكله الكلاب والطير . وفى جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون ، فيبيعون منهم[2]

---

(١) عَقَص الشعر ضفره وليّه على الرأس .

(٢) باعه الشىء وباعه منه . أساس .

جميع ما يحتاجون إليه ، و يطبخون لهم الطعام . ولولاهم لما سافر فيه مسلم. وهذا الطريق الذى ذكرنا أنه مسيرة شهرين ، ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة . وكل إنسان بستانه على حِدَة وداره فى وسطه ، وعلى الجميع حائط خشب . والطريق يمر فى البساتين ، فإذا انتهى إلى حائط بستان ، كان هنالك دَرَج خشب يُصْعد عليها ، ودرج أُخْرى يُنْزل عليها إلى البستان الآخر ، هكذا مسيرة الشهرين . ولا يسافر أحد فى تلك البلاد بدابة ، ولا تكون الخيل إلا عند السلطان . وأكثر ركوب أهلها فى (دَوْلة) على رقاب العبيد أو المستأجرين . ومن لم يركب (دولة) مشى على قدميه كائنا من كان . ومن كان له رَحْل أو متاع من تجارة وسواها ، اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم ، فترى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته ، و بيد كل واحد منهم عود غليظ له زُجّ حديد[1] ، وفى أعلاه مِخْطاف حديد . فإذا أعيا ولم يجد دكانة[2] يستريح عليها ، ركز عوده بالأرض وعلق حِمْله منه . فإذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به . ولم أر طريقا آمن من هذا الطريق .

وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة ، فإذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه . وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة ، و بلغ خبره الحاكم ، فأمر بعود فركز فى الأرض وبُرِىَ طرفه الأعلى ، وأدخل فى لوح خشب حتى برز منه ، ومد الرجل على اللوح وركز فى العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره . وترك عبرة للناظرين . ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثير ، ليراها الناس فيتعظوا . ولقد كنا نلقى الكفار بالليل فى هذه الطريق ، فإذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز . والمسلمون أعز الناس بها ، غير أنهم كما ذكرنا لا يؤاكلونهم

(١) الزج الحديدة التى فى أسفل الرمح .

(٢) سبق أن أشرنا إلى أن اللفظ (دكان) لا (دكانة) .

ولا يدخلونهم دورهم . وفى بلاد المُلَيْبَار اثنا عشر سلطانا من الكفار ، منهم القوى الذى يبلغ عسكره خمسين ألفا ، ومنهم الضعيف الذى عسكره ثلاثة آلاف . ولا فتنة بينهم البتة . ولا يطمع القوى منهم فى انتزاع ما بيد الضعيف . وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذى هو مبدأ عمالته ، ويسمونه باب أمان فلان . وإذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل باب أمان الآخر، أمن على نفسه، ولم يستطع الذى هرب عنه أخذه ، وإن كان القوىّ صاحب العدد والجيوش . وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم . وإذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء ، أمر بعض غلمانه فعلّق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها ، فلا يبيع أحد ولا يشترى ما دامت عليها تلك الأغصان .

ذكر الفُلْفُل

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالى العنب . وهم يغرسونها إزاء النارجيل ، فتصعد فيها كصعود الدوالى . وأوراق شجره تشبه أوراق الخيل(١) . وبعضها يشبه أوراق العُلَّيْق(٢) ويثمر عناقيد صغارا . وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحُصُر فى الشمس ، كما يصنع بالعنب . ولا يزالون يقلّبونه حتى يستحكم يُبْسه ، ثم يبيعونه من التجار . والعامة ببلادنا يزعمون أنهم يقلونه بالنار ، وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش . وليس كذلك . وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس . ولقد رأيته بمدينة قَالِقُوط يُصَبّ للكيل كالذرة ببلادنا .

(١) الخيل بالكسر و يفتح السَّذَاب .

(٢) نوع من النبت يتعلق بالشجر .

وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سَرُور ، وهي صغيرة على خور كبير ، كثيرة أشجار النَّارجيل . وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة ، أحد الكرماء ، أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نَفِدَت . وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فَاكَنُور ، مدينة كبيرة على خُور ، بها قصب السكر الكثير الطيب ، الذى لا مثل له بتلك البلاد . وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السِّلَاط . وبها قاض وخطيب . وعمر بها حسين مسجدا لإقامة الجمعة .

ذكر سلطانها

وسلطان فَاكَنُور كافر اسمه بَاسَدَوْ . وله نحو ثلاثين مركبا حربيا قائدها مسلم يسمى لُولا . وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار . ولما أرسينا على فَاكَنُور بعث سلطانها إلينا ولده ، فأقام بالمركب كالرهينة . ونزلنا إليه فأضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة ، تعظيما لسلطان الهند وقياما بحقه ، ورغبة فيما يستفيده فى التجارة مع أهل مراكبنا . ومن عاداتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلا بد من إرسائه بها ، وإعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البَنْدَر[1] ، ومن لم يفعل ذلك خرجوا فى اتباعه بمراكبهم وأدخلوه المرسى قهرا ، وضاعفوا عليه المَغْرَم ، ومنعوه عن السفر ما شاءوا . وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة مَنْجَرُور . مدينة كبيرة على خُور يسمى خور الدُّنْب ، وهو أكبر خور ببلاد المليبار ، وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن . والفلفل والزنجبيل بها كثير جدا .

---

(١) البَنْدَر المَرْسَى . قاموس .

ذكر سلطانها

وهو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رَامَدَوْ . وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون رَبَضا[١] بناحية المدينة . وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته إلى التجار . وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعيّ المذهب ، يسمى بدر الدين المَعْبَرى ، وهو يقرئ العلم . صعد إلينا فى المركب ، ورغب منا فى النزول إلى بلده ، فقلنا : حتى يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب . فقال : إنما فعل ذلك سلطان فَاكَنُور ، لأنه لاقوة للمسلمين فى بلده . وأما نحن فالسلطان يخافنا . فأبينا عليه إلا إن بعث السلطان ولده . فبعث ولده كما فعل الآخر . ونزلنا إليهم وأكرمونا إكراما عظيما ، وأقمنا عندهم ثلاثة أيام .

ثم سافرنا إلى مدينة هِيلِى ، فوصلناها بعد يومين . وهى كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار . وإلى هذه المدينة تنتهى مراكب الصين ، ولا تدخل إلا مرساها ومرسى كَوْلَمَ وقالِقُوط . ومدينة هيلى معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع ، فإنه عظيم البركة مشرق النور . وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة . وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين ، وحسن الوزّان كبير المسلمين . وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم . ولهم مرتبات من مال المسجد . وله مطبخة [٢] يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ، ولإطعام الفقراء من المسلمين بها . ولقيت بهذا المسجد فقيها صالحا من أهل مَقْدَشُو [٣] يسمى سعيدا ، حسن اللقاء والخلق . وذكر لى أنه جاور بمكة أربع عشرة سنة ،

---

(١) ربض المدينة ما حولها .

(٢) الصحيح مطبخ لا مطبخة .

(٣) مدينة فى أول بلاد الزنج فى جنوب اليمن اه ياقوت .

ومثلها بالمدينة . وسافر فى بلاد الهند والصين . ثم سافرنا من هيلى إلى مدينة جُرْفَتَّن . و بينها و بين هيلى ثلاثة فراسخ . ولقيت بها فقيها من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصَرْصَرِى ، نسبة إلى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد فى طريق الكوفة . واسمها كاسم صَرْصَر التى عندنا بالمغرب ، وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال ، له أولاد صغار أوصى إليه بهم ، وتركته آخذا فى حملهم إلى بغداد . وعادة أهل الهند كعادة السودان ، لايتعرضون لمال الميت ولو ترك الآلاف ، و إنما يبقى ماله بيد كبير المسلمين ، حتى يأخذه مستحقه شرعا .

ذكر سلطانها

وهو يسمى بِكُوَيْل . وهو من أكبر سلاطين المُلَيْبار . وله مراكب كثيرة تسافر إلى عُمان وفارس واليمن . وسرنا من جُرْفَتَّن إلى مدينة دَهْفَتَّن ، وهى مدينـة كبيرة على خُور ، كثيرة البساتين . و بها النارَجيل والفلفل والفَوْفَل والتانْبُول . وبهـا القلقاس الكثير ، و يطبخون به اللحم . وأما الموز فلم أرفى البلاد أكثر منه بها ولا أرخص ثمنا . وفيها الباين[1] الأعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمـائة خطوة . وهو مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة . وعلى جوانبه ثمـان وعشرون قبة من الحجر ، فى كل قبة أربع مجالس من الحجر ، وكل قبة يصعد إليها على دَرَج حجارة ، وفى وسـطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات . فى كل طبقة أربعة مجالس . وذكر لى أن والد هذا السلطان كُوَيْل هو الذى عمر هذا الباين . و بإزائه مسجد جامع للمسلمين . وله دَرَج ينزل منها إليه ، فيتوضأ منه الناس و يغتسلون . وحدثنى الفقيه حسين أن الذى عمر المسجد والباين أيضـا هو أحد أجداد كويل ، وأنه كان مسلما ولإسلامه خبر عجيب نذكره .

---

(١) معناه الحوض ، بلسانهم .

ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي بإزاء الجامع[1]

ورأيت أنا بإزاء الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين إلا أنها لينة ، وعليها حائط يُطيف بها ، وعندها محراب صليت فيه ركعتين . واسم هذه الشجرة عندهم (دَرَخْت الشهادة) . وأخبرت هنالك أنه إذا كان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة ، بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة ، ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة وقرءوا المكتوب الذي فيها . وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار ، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها ، وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر . وهم يستشفون بها للمرضى .

وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جدكُوَيْل الذي عمر المسجد والباين . فإنه كان يقرأ الخط العربي . فلما قرأها وفهم مافيها أسلم وحسن إسلامه . وحكايته عندهم متواترة . وحدثني الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى ، وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت ولم يترك لها أثر . ثم إنها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه . وهلك الكافر سريعا .

ثم سافرنا إلى مدينة بُدْفَتَّن . وهي مدينة كبيرة على خور كبير . وبخارجها مسجد قريب من البحر ، يأوي إليه غرباء المسلمين ، لأنه لا مسلم بهذه المدينة . ومرساها من أحسن المراسي ، وماؤها عذب . والفَوْفَل بها كثير ، ومنها يحمل إلى الهند والصين . وأكثر أهلها براهمة ، وهم معظَّمون عند الكفار ، مبغَضُون في المسلمين ، ولذلك ليس بينهم مسلم .

---

(١) خبر هذه الشجرة مكذوب كما هو ظاهر . وقد صدقه المؤلف ، كما صدق كثيرا من الخرافات التي ذكرها في هذه الرحلة .

حكاية

أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته ، فاشتعلت النار فى بيته فاحترق هو وأولاده ومتاعه . فاحترموا هذا المسجد ولم يتعرضوا له بسوء بعدها ، وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد ، وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير .

ثم سافرنا من مدينة بُدْفَتّن إلى مدينة فَنْدَرَيْنَا ، مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق ، وبها للمسلمين ثلاث مَحَلَّات فى كل مَحَلَّة مسجد . والجامع بها على الساحل ، وهو عجيب ، له مناظر ومجالس على البحر . وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عُمَان ، وله أخ فاضل . وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين . ثم سافرنا منها إلى مدينة قَالِقُوط ، وهى إحدى البنادر العظام ببلاد المليبار ، يقصدها أهل الصين والجاوة وسَيلان والمَهَل ، وأهل اليمن وفارس ، ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها من أعظم مراسى الدنيا .

ذكر سلطانها

وسلطانها كافر يعرف بالسامرىّ ، شيخ مسن يحلق لحيته ، كما يفعل طائفة من الروم ، رأيته بها ، وسنذكره إن شاء الله . وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر ، من أهل البحرين ، فاضل ذو مكارم يجتمع إليه التجار ويأكلون فى سماطه . وقاضيها فخر الدين عثمان ، فاضل كريم . وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازَرُونى ، وهو يأخذ النذور التى ينذرها أهل الهند والصين للشيخ أبى إسحاق الكازرونى[1] ، نفع الله به . وبهذه المدينة (الناخداة) مثقال الشهير

---

(١) النذر لغير الله حرام ، كما أوضحنا فى الحواشى . ونَذَر من بابى ضرب ونصر .

الاسم ، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة ، لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس .

ولما وصلنا إلى هذه المدينة خرج إلينا إبراهيم شاه بندر والقاضى والشيخ شهاب الدين ، وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمى بِقُلاج ، ومعهم الأطبال (والأنقار) والأبواق والأعلام فى مراكبهم. ودخلنا المرسى فى بروز [١] عظيم ، مارأيت مثله بتلك البلاد . فكانت فرحة تتبعها ترْحة . وأقمنا بمرساها ، وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ، ونزلنا بالمدينة وجُعِل كل واحد منا فى دار . وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر، ونحن فى ضيافة الكافر. وبحر الصين لا يسافر فيه إلا بمراكب الصين . ولنذكر ترتيبها .

ذكر مراكب الصين

ومراكب الصين ثلاثة أصناف : الكبار منها تسمى (الجُنوك) وأحدها (جُنْك)، والمتوسطة تسمى (الزَّو). والصغار يسمى أحدها الكَكَم [٢]. ويكون فى المركب الكبيرة منها اثنا عشر قلعًا فما دونها إلى ثلاثة . وقلْعها من قضبان الخَيْزُران منسوجة كالحُصُر ، لاتحط أبدا ، ويديرونها بحسب دوران الريح ، وإذا أرسوا تركوها واقفة فى مهب الريح. ويخدُم فى المركب منها ألف رجل، منهم البحْرية ستمائة ، ومنهم أربعمائة من المقاتلة ، تكون فيهم الرماة ، وأصحاب الدَرَق ، والذين يرمون بالنِفط. ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة : النصفى والثلثى والربعى . ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين ، أو بصين كَلَان ، وهى صين الصين . وكيفية إنشائها أنهم

---

(١) يقصد فى أبهة ، لأن الأبهة من شأنها البروز أى الظهور .

(٢) هذه الأسماء غير عربية ولا معربة .

يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخُشب ضِخام جدا ، موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام ، طول المسمار منها ثلاث أذرع . فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب ، صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ، ودفعوهما فى البحر ، وأتموا العمل . وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم . وهى كبار كالصوارى . يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ، ويَجْذفون وقوفا على أقدامهم . ويجعلون للمركب أربعة ظهور . ويكون فيه البيوت (١) والمصارى (٢) ، والغرف للتجار . والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس(٣) ، وعليها المفتاح ، يسدها صاحبها ، ويحمل معه الجوارى والنساء . وربما كان الرجل فى مِصْريته فلا يعرف به غيْرُه ممن يكون بالمركب ، حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد . والبحْرية يسكنون فيها أولادهم . ويزدرعون الخُضَر والبقول والزنجبيل فى أحواض خشب. ووكيل المركب كأنه أمير كبير. وإذا نزل إلى البرمشت الرماة والحُبْشان بالحراب والسيوف والأطبال والأبواق (والأنقار) أمامه . وإذا وصل إلى المنزل الذى يقيم به ركزوا رماحهم من جانبى بابه ، ولا يزالون كذلك مدة إقامته . ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة ، يبعث بها وكلاءه إلى البلاد . وليس فى الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين .

ذكر أخذنا فى السفر إلى الصين ومنتهى ذلك

ولما حان وقت السفر إلى الصين جهز لنا السلطان السامرىّ (جُنْكا) من الجنوك الثلاثة عشر التى بمرسى قالِقُوط . وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفَدىّ الشامىّ ، وبينى وبينه معرفة . فقلت له أريد (مِصْرية) لا يشاركنى

(١) الغرف . (٢) المصرية حجرة النوم وما يتبعها من مرحاض وغيره . والتسمية عرفية ، وكذلك جمعها على مصار . (٣) المرحاض ، غير عربى .

فيها أحد . فقال لى : إن تجار الصين قد اكتروا المصارى ذاهبين وراجعين . ولصهرى (مِصْرية) أعطيكها، لكنها (لاسنداس) فيها . وعسى أن تمكن معاوضتها . فأمرت أصحابى فأوسقوا ما عندى من المتاع ، وصعد العبيد والجوارى إلى (الجنك) ، وذلك فى يوم الخميس . وأقمت لأصلى الجمعة وألحق بهم . وصعد الملك سُنْبل وظهير الدين مع الهدية . ثم إن فتى لى يسمى هِلالا أتانى غُدْوة الجمعة ، فقال : إن (المصرية) التى أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح . فذكرت ذلك للناخُذَاة ، فقال : ليست فى ذلك حيلة . فإن أحببت أن تكون فى (الكَكَم) ففيه المصارى على اختيارك . فقلت نعم ، وأمرت أصحابى فنقلوا الجوارى والمتاع إلى (الكَكَم) . واستقروا به قبل صلاة الجمعة . وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه . وكانت الجنوك قد سافرت ، ولم يبق منها إلا الذى فيه الهدية ، وجنك عزم أصحابه على أن يَشْتُوا بِفَنْدَرَيْنا ، والككم هذا . فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود إلى الككم ، ولا يستطيع من فيه النزول إلينا . ولم يكن بقى معى إلا بساط أفترشه . وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى . ورمى البحر بالجنك الذى كان أهله يريدون فَنْدَرَيْنا ، فتكسر ومات بعض أهله وسلم بعضهم . وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه ، فرغب فى إعطاء عشرة دنانير ذهبا لمن يخرجها ، وكانت قد لزمتْ خشبة فى مؤخر الجنك . فانتدب [1] لذلك بعضُ البحرية الهُرْمُزِيّين فأخرجها ، وأبى أن يأخذ الدنانير . وقال : إنما فعلت ذلك لله تعالى .

ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذى كانت فيه الهدية ، فمات جميع من فيه . ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم ، ورأيت ظهير الدين وقد انشق رأسه وتناثر دماغه ، والملك سُنْبلا وقد ضرب مسمار فى أحد صُدْغيه ونَفَذ

(١) ندبه للأمر دعاه فانْتَدَبَ هو .

من الآخر . وصلينا عليهما ودفناهما . ورأيت الكافر سلطان قالِقُوط وفي وسطه شَقَّة (١) بيضاء كبيرة ، قد لفها من سرته إلى ركبته وفي رأسه عمامة صغيرة ، وهو حافي القدمين . والشطر (٢) بيد غلام فوق رأسه ، والنار توقد بين يديه في الساحل ، وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمي البحر .

وعادة بلاد المُلَيْبار أن كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن إلا في هذا البلد خاصة ، فإن ذلك يأخذه أربابه ولذلك عُمِرَتْ وكثر تردد الناس إليها . ولما رأى أهل (الكَكَم) ما حدث (للجُنْك) ، رفعوا قلعهم وذهبوا ، ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواريّ ، وبقيت منفردا على الساحل ، وليس معي إلا فتى كنت أعتقته ، فلما رأى ما حلّ بي ذهب عني . ولم يبق عندي إلا العشرة الدنانير التي أعطانيها الجُوكي ، والبساط الذي كنت أفترشه . وأخبرني الناس أن ذلك الككم لا بد له أن يدخل مرسى كَوْلَم ، فعزمت على السفر إليها ، وبينهما مسيرة عشر في البر أو في النهر أيضا لمن أراد ذلك . فسافرت في النهر واكتريت رجلا من المسلمين يحمل لي البساط . وعادتهم إذا سافروا في ذلك النهر أن ينزلوا بالعشيّ فيبيتوا بالقرى التي على حافتيه ، ثم يعودوا إلى المركب بالغدوّ . فكنا نفعل ذلك . ولم يكن بالمركب مسلم إلا الذي اكتريته . وكان يشرب الخمر عند الكفار إذا نزلنا ويعربد عليّ ، فيزيد تغير خاطري . ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا إلى كُنْجي كَري . وهي بأعلى جبل هنالك يسكنها اليهود ولهم أمير منهم . ويؤدون الجزية لسلطان كَوْلَم .

---

(١) بفتح الشين وكسرها .

(٢) المظلة بلسانهم ، معرب جتر ، كما شرحناه في الحواشي .

ذكر القِرْفة والبَقَّم

وجميع الأشجار التى على هذا النهر أشجار القِرفة والبقم، وهى حطبهم هنالك، ومنها كنا نوقد النار لطبخ طعامنا فى ذلك الطريق .

وفى اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة كَوْلَم ، وهى من أحسن بلاد المُلَيْبار وأسواقها حسان . وتجارها يعرفون بالصُّوليين ، لهم أموال عريضة ، يشترى أحدهم المركب بما فيه ، ويُوسقه من داره بالسِلع . وبها من التجار المسلمين جماعة ، كبيرهم علاء الدين الأَوَجِى ، من أهل أَوَه [1] من بلاد العراق وهو رافضى . ومعه أصحاب له على مذهبه . وهم يظهرون ذلك . وقاضيها فاضل من أهل قَزْوِين . وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر ، وله أخ فاضل كريم اسمه تقى الدين . والمسجد الجامع بها عجيب ، عمره التاجر خواجة مهذّب . وهذه المدينة أول ما يُوالى الصين من بلاد المليبار . وإليها يسافر أكثرهم . والمسلمون بها أعِزّة محترمون .

ذكر سلطانها

وهو كافر يعرف بالتيرَوَرِى. وهو معظّم للمسلمين . وله أحكام شديدة على السُّراق والدُّعَّار .

حكاية

ومما شاهدت بكَوْلَم أن بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم، وفر إلى دار الأَوَجِى ، وكان له مال كثير ، وأراد المسلمون دفن المقتول ، فمنعهم نواب

---

(١) قال ياقوت : أَوَه بفتحتين قرية بين زَنْجان وهَمَذان .

السلطان من ذلك ، وقالوا : لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيقتل به. وتركوه فى تابوته على باب الأوجى حتى أنتن وتغير . فمكّنهم الأوجى من القاتل، ورغب منهم أن يعطيهم أمواله و يتركوه حيا ، فأبوا ذلك وقتلوه . وحينئذ دفن المقتول .

حكاية

أُخبرت أن سلطان كَوْلَمَ ركب يوما إلى خارجها . وكان طريقه فيما بين البساتين ، ومعه صهره زوج بنته ، وهو من أبناء الملوك . فأخذ حبة واحدة من العنب سقطت من بعض البساتين ، وكان السلطان ينظر إليه ، فأمر به عند ذلك فوسّط أى قسم نصفين ، وصلب نصفه عن يمين الطريق ، ونصفه الآخر عن يساره . وقسمت العنبة نصفين ، فوضع على كل نصف منه نصف منها . وترك هنالك عبرة للناظرين (١) .

حكاية

ومما اتفق نحو ذلك بقَالِقُوط ، ان ابن أخى النائب عن سلطانها غصب سيفا لبعض تجار المسلمين ، فشكا بذلك إلى عمه ، فوعده بالنظر فى أمره . وقعد على باب داره ، فإذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف ، فدعاه فقال : هذا سيف المسلم؟ قال نعم. قال : اشتريته منه؟ قال لا ، فقال لأعوانه أمسكوه. ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف .

وأقمت بكَوْلَم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازَرُونى شيخ زاوية قَالِقُوط ، فلم أتعرف للكُكَم خبرا . وفى أثناء مُقَامى

---

(١) فى هذه الحكاية مبالغة غير معقولة .

بها دخلها رسل ملك الصين الذين كانوا معنا ، وكانوا مع أحد تلك الجنوك فانكسر أيضا ، فكساهم تجار الصين وعادوا إلى بلادهم . ولقيتهم بها بعد .

وأردت أن أعود من كَوْلَم إلى السلطان لأعلمه بما اتفق للهدية . ثم خفت أن يتعقب فعلى و يقول: لم فارقت الهدية ؟ فعزمت على العودة إلى السلطان جمال الدين الهِنَوْرِى ، والإقامة عنده حتى أتعرف خبر (الكَكَم). فعدت إلى قَالِقُوط ، ووجدت بها بعض مراكب السلطان ، وقد بعث فيها أميرا من العرب يعرف بالسيد أبي الحسن، وهو من خواص البوابين، بعثه السلطان بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز (١) والقَطِيف(٢) لمحبته للعرب . فتوجهت إلى هـذا الأمير، ورأيته عازما على أن يشتو بقالقوط ، وحينئذ يسافر إلى بلاد العرب. فشاورته فى العودة إلى السلطان فلم يوافق على ذلك . فسافرت بالبحر من قالقوط، وذلك آخر فصل السفر فيه . فكنا نسير نصف النهار الأول ثم نرسو إلى الغد .

ولقينا فى طريقنا أربعة أجفان(٣) غَزَوْية نخفناها ، ولكنهم لم يتعرضوا لنا بشر. ووصلنا إلى مدينة هِنَوْر ، فنزلت إلى السلطان وسلمت عليه ، فأنزلنى بدار ، ولم يكن لى خادم. وطلب منى أن أصلى معه الصلوات ، فكان أكثر جلوسى فى مسجده . وكنت أختم القرآن كل يوم . ثم كنت أختم مرتين فى اليوم : أبتدئ القراءة بعد صلاة الصبح ، فأختم عنـد الزوال ، وأجدد الوضوء وأبتـدئ القراءة ، فأختم الختمة الثـانية عند الغروب . ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر . واعتكفت فيها أربعين يوما .

---

(١) فرضة كرمان ، على بر فارس اهـ ياقوت .

(٢) مدينة بالبحرين .

(٣) نوع من السفن الحربية ، كأنه يريد جمع جَفْن، ولم نر هذا المعنى بهذا اللفظ فى كتب اللغة التى بأيدينا ، كما تقدم فى الحواشى .

ذكر توجهنا إلى الغزو وفتح سَنْدَابُور

وكان السلطان جمال الدين قد جَهَّز اثنين وخمسين مركبا لغزو سندابور. وكان قد وقع بين سلطانها وولده خلاف، فكتب ولده إلى السلطان جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور، ويُسَلِّم الولدُ، ويزوجه السلطان أخته. فلما تجهزت المراكب ظهر لى أن أتوجه فيها إلى الجهاد، ففتحت المصحف أنظر فيه. فكان أول الصفحة (يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره)، فاستبشرت بذلك. وأتى السلطان إلى صلاة العصر فقلت له: إنى أريد السفر، فقال: فأنت إذن تكون أميرهم. فأخبرته بما خرج لى أول الصفحة، فأعجبه ذلك. وعزم على السفر بنفسه ولم يكن ظهر له ذلك قبل. فركب مركبا منها وأنا معه. وذلك فى يوم السبت. فوصلنا عشىّ الاثنين إلى سندابور، ودخلنا خُورها فوجدنا أهلها مستعدين للحرب، وقد نصبوا المجانيق، فبتنا عليها تلك الليلة.

فلما أصبحنا ضربت الطبول (والأنفار) والأبواق، وزحفت المراكب ورمت عليها بالمجانيق. فلقد رأيت حجرا أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان. ورمى أهل المراكب أنفسهم فى الماء وبأيديهم التِّرَسَةَ والسيوف. وأنزل النصر على المسلمين، فدخلنا بالسيف. ودخل معظم الكفار فى قصر سلطانها، فرمينا النار فيه، فخرجوا وقبضنا عليهم. ثم إن السلطان أمنهم ورد لهم نساءهم وأولادهم، وكانوا نحو عشرة آلاف. وأسكنهم بربَض المدينة. وسكن السلطان القصر. وأعطى أهل دولته الديار بالقرب منه. وكسانى فرجية مصرية وجدت فى خزائن الكافر. وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها، وهو الثالث عشر لجمادى الأولى، إلى منتصف شعبان. وطلبت منه الإذن فى السفر، فأخذ علىّ العهد فى العودة إليه.

وسافرت فى البحر إلى هِنَـوْر ثم إلى فَاكَنَوْر ، ثم إلى مَنْجَرُور ثم إلى هِيلِي ، ثم إلى جُرْفَتَّن وَدَهْ فَتَّن وَبُدْفَتَّن وَفَنْدَرَيْنا وقالِقُوط . وقد تقدم ذكرها جميعا . ثم إلى مدينة الشَّالْيات ، مدينة من حسان المدن ، تصنع بها الثياب المنسوبة لها . وأقمت بها فطال مُقامى ، فعدت إلى قَالِقُوط . ووصل إليها غلامان كانا لى (بالكَكَم) ، فأخبرانى أن جاريتى توفيت ، وأخذ صاحب الجاوة سائر الجوارى ، واستولت الأيدى على المتاع ، وتفرق أصحابى إلى الصين والجاوة وبَنْجالة . فعدت لما تعرفت هذا إلى هِنَوْر ، ثم إلى سَنْدابور فوصلتها فى آخر المحرم ، وأقمت بها إلى الثانى من شهر ربيع الآخر . وقدم سلطانها الكافر الذى دخلناها عليه [1] لأخذها ، وهرب إليه الكفار كلهم ، وكانت عساكر السلطان متفرقة فى القرى فانقطعوا عنا . وحصرنا الكفار وضيقوا علينا . ولما اشتدّ الحال خرجت عنها وتركتها محصورة ، وعدت إلى قَالِقُوط .

وعزمت على السفر إلى ذِيبَة المَهَل [2] .وكنت أسمع بأخبارها. فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل. وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا، وهى نحو ألفى جزيرة، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه . وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر. وهى من التقارب بحيث تظهر رءوس النخل التى بإحداها عند الخروج من الأخرى . فإن أخطأ المركب سَمْتَها لم يمكنه دخولها ، وحملته الريح إلى المَعْبَر أو سَيَلان . وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح . وهى منقسمة أقاليم ، على كل إقليم وال . وهذه الجزائر كلها لا

(١) أى عند الغزوة كما سبق . (٢) جزائر مالديف كما تقدم فى الحواشى .

زرع بها ، إلا أن فى إقليم السُّوَيْد منها زرعا ، ويجلب منه إلى المَهَل . وإنما أكل أهلها سمك يسمونه قُلْب الماس ، ولحمه أحمر ولا ذَفَر له ، وإنما ريحه كريح لحم الأنعام . وإذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوه يسيرا ، ثم جعلوه فى مَكَاتل[1] من سعف النخل، وعلقوه للدخان. فإذا استحكم يُبْسه أكلوه . ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن .

ذكر أشجارها

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارَجيل ، وهو من أقواتهم مع السمك ، وقد تقدم ذكره . وأشجار النارجيل شأنها عجيب . وتثمر النخلة منها اثنى عشر عِذْقا[2] فى السنة ، يخرج فى كل شهر عِذْق . فيكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا ، وبعضها يابسا وبعضها أخضر ، هكذا أبدا. ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل ، على ما ذكرنا لك فى السفر الأول . ويصنعون من عسله الحلواء ، فيأكلونها مع الجوز اليابس منه . وأقمت بها سنة ونصف أخرى . ومن أشجارها الأُتْرُجّ والليمون والقلقاس .

ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عاداتهم وذكر مساكنهم

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة . وإذا رأى الإنسان أحدهم قال له : الله ربى ومحمد نبيى . وأبدانهم ضعيفة ، ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة . ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها ،

(١) جمع مِكْتَل وهو الزنبيل .

(٢) العذق : الكِبَاسة . وهو من التمر كالعنقود من العنب .

فَغُشِيَ على جماعة منهم كانوا بالمجلس . ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذْعَرهم.
وإذا أتت (أجفان) العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم ، ولم
يتعرضوا لأحد منهم بسوء . وإن أخذ أحد الكفار ولو ليمونة ، عاقبه أمير
الكفار، وضربه الضرب المبرّح .

وفى كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة . وأكثر عمارتهم بالخشب .
وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار ، وأكثرهم يغتسلون مرتين فى اليوم ،
تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق . ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية
وغيرها . ويتلطخون بالغالية[1] المجلوبة من مَقْدَشُو . ومن عادتهم أنهم إذا
صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمُكْحلة ، وبماء الورد
ودهن الغالية ، فيكْحَل عينيه ، ويدّهن بماء الورد ودهن الغالية ، فتصقل
بشرته ، وتزيل الشحوب عن وجهه . ولباسهم فُوَط ، يشدون الفوطة منها
على أوساطهم عوض السراويل ، ويجعلون على ظهورهم ثيابا كالمحرمين ،
وبعضهم يجعل عمامة، وبعضهم منديلا صغيرا عوضا عنها . وإذا لقى أحدهم
القاضى أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه ، وكشف ظهره ، ومضى معه
كذلك حتى يصل إلى منزله . ومن عاداتهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى
الى دار زوجته ، بُسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت ،
وجُعِل عليها غَرَفات من الوَدَع عن يمين طريقه إلى البيت وشِماله .
وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره . فإذا وصل إليها رمت على
رجليه ثوبا يأخذه خدّامه . وإن كانت المرأة هى التى تأتى إلى منزل الرجل
بُسِطت[2] داره وجُعل فيها الودع ، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب
على رجليه . وكذلك عادتهم فى السلام على السلطان عندهم ، لا بد من ثوب

(١) نوع من الطيب .
(٢) أى بسطت فيها الثياب ونحوها . وفى التعبير تجوز .

يرمى عند ذلك ، وسنذكره . وبنيانهم بالخشب ، ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقيا من الرطوبات ، لأن أرضهم ندية .

وكيفية ذلك أنهم ينحتون حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ، ويجعلونها صفوفا ويعرضون عليها خشب النارجيل ، ثم يصنعون الحيطان من الخشب ، ولهم صناعة عجيبة فى ذلك . ويبنون فى (أسطوان)[1] الدار بيتا يسمونه (المالم) ، يجلس الرجل به مع أصحابه ، ويكون له بابان أحدهما إلى جهة (الأسطوان) يدخل منه الناس ، والآخر إلى جهة الدار ، يدخل منه صاحبها . ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ، ولها مُسْتَق من قشر جوز النارجيل ، وله نصاب طوله ذراعان .

وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع . وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار ، فالماشى بها كأنه فى بستان . ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار ان يغسل رجليه بالماء الذى فى الخابية ، ويمسحهما بحصير غليظ من الليف هنالك ، ثم يدخل بيته . وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد . ومن عاداتهم إذا قدم عليهم مركب أن تخرج إليه القوارب الصغار ، وفيها أهل الجزيرة ومعهم التانبول وجوز النارجيل الأخضر ، فيعطى الإنسان منهم ذلك من شاء من أهل المركب ، ويكون نزيله ، ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض أقربائه . ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج ، فإذا حان سفره طلق المرأة ، لأنهن لا يخرجن عن بلادهن ، ومن لم يتزوج فالمرأة التى ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه ، وتزوده إذا سافر ، وترضى منه فى مقابلة ذلك بأيسر شىء من الإحسان . وفائدة المخزن[2] (ويسمونه البندر) أن يشترى من كل سلعة بالمركب حظا بسَوْم معلوم ، سواء أكانت السلعة تساوى ذلك أم كانت

---

(١) تقدم شرحه ، وأنه غير عربى بهذا المعنى .

(٢) بيت المال . وقد ورد كثيرا بهذا المعنى فى الرحلة .

تساوى أكثر منه . ويكون للبندر بيت فى كل جزيرة من الخشب ، يجمع به الوالى جميع سلعه ويبيع ويشترى . وهم يشترون الفَخّار إذا جاء إليهم بالدجاج ، فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست .

وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذى ذكرناه ، وجوز النّارَجيل والفُوَط والعمائم ، وهى من القطن . ويحملون منها أوانى النحاس فإنها عندهم كثيرة . ويحملون الودع ، ويحملون القَنْبَر[1] وهو ليف جوز النارجيل. وهم يدْبغُونه ثم تغزله النساء ، وتُصْنع منه الحبال لخياطة المراكب ، وتحمل إلى الصين والهند واليمن . وهو خير من القِنَّب . وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن ، لأن ذلك البحر كثير الحجارة. فإن كان المركب مسمرًا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر . وإذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر .

وصَرْف أهل هذه الجزائر الودع ، وهو حيوان يلتقطونه من البحر ويضعونه فى حُفَر هنالك ، فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض . ويبيعونه من أهل بَنْجالة بالأرز . وهو أيضا صرف أهل بلاد بنجالة . ويبيعونه من أهل اليمن ، فيجعلونه عوض الرمل فى مراكبهم . وهذا الودع أيضا صرف السودان فى بلادهم . رأيته يباع بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبى .

---

(١) ضبطه المؤلف بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء . ولم نجد هذا اللفظ لهذا المعنى فيما بين أيدينا من كتب اللغة .

ذكر نسائها

ونساؤها لا يغطين رءوسهن ، ولا سلطانتهم تغطى رأسها . ويمشطن شعورهن ، ويجمعنها إلى جهة واحدة ، ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة . وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها . ولقد جَهَدْتُ لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك . فكنت لا تدخل إلىّ منهن امرأة فى خصومة إلا مستترة الجسد . وما عدا ذلك لم تكن لى عليه قدرة . ولباس بعضهن قُمُص زائدة على الفوطة. وقُمُصهن قصار الأكمام عراضها . وكان لى جوار كسوتهن لباس أهل دهلى ، يغطين رءوسهن ، فعابهن ذلك أكثر مما زانهن ، إذ لم يتعودنه . وحَلْيهن الأساور ، تجعل المرأة منها جملة فى ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق . وهى من الفضة . ولا يجعل أساور الذهب إلا نساء السلطان وأقاربه . ولهن الخلاخيل وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن. ومن عجيب أفعالهن أنهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار ، على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها . وعلى مستأجرهن نفقتهن ، ولا يَرَيْن ذلك عيبا . ويفعله أكثر بناتهم ، فتجد فى دار الإنسان الغنىّ منهن العشر والعشرين . وكل ما تكسره من الأوانى يحسب عليها قيمته . وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التى تخرج إليها العدد الذى هى مُرْتَهَنة فيه ، فتدفعه لأهل الدار التى خرجت منها ، ويبقى عليها للآخرين . وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل (القنبر). والتزوج بهذه الجزائر سهل لنَزارة الصَّداق ، وحسن معاشرة النساء. وأكثر الناس لا يسمى صداقا ، وإنما تقع الشهادة ، ويُعْطَى صداقُ مثلها . وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن ، وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا . ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن .

ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها ، بل هى تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء . ومن عاداتهن ألا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة .

ذكر السبب فى إسلام أهل هذه الجزائر
وذكر العفاريت من الجن التى تضربها فى كل شهر

حدثنى الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمنى والفقيه المعلم على والقاضى عبد الله وجماعة سواهم ، أن أهل هذه الجزائر كانوا كفارا ، وكان يظهر لهم فى كل شهر عفريت[1] من الجن ، يأتى من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل . وكانت عادتهم أنهم إذا رأوه أخذوا جارية بكرا فزينوها ، وأدخلوها (بُدْخانة) وهى بيت الأصنام ، وكان مبنيا على ضفة البحر ، وله طاق ينظر إليه منه ، ويتركونها هنالك ليلة ، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها ميتة . ولا يزالون فى كل شهر يقترعون بينهم ، فمن أصابته القرعة أعطى بنته . ثم إنه قدم عليهم مغربى يسمى بأبى البركات البربرىّ ، وكان حافظا للقرآن العظيم . فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المَهَل ، فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنهن فى مأتم ، فاستفهمهن عن شأنهن ، فلم يُفْهِمنه . فأتى تُرجمان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها ، وليس لها إلا بنت واحدة يقتلها العفريت . فقال لها أبو البركات : أنا أتوجه عوضا عن بنتك بالليل . وكان لا لحية له . فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه (بدخانة) وهو متوضئ ، وأقام يتلو القرآن ، ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة . فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص فى البحر ، وأصبح المغربى وهو يتلو على حاله .

(١) حكاية هذا العفريت ظاهرة البطلان .

فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ، ليستخرجوا (البنت) على عادتهم فيحرقوها ، فوجدوا المغربى يتلو ، فمضوا به إلى ملكهم ، وأعلموه بخبره ، فعجب منه . وعرض المغربى عليه الإسلام ورغبه فيه . فقال له : أقم عندنا إلى الشهر الآخر ، فإن فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت . فأقام عندهم ، وشرح الله صدر الملك للإسلام فأسلم قبل تمام الشهر ، وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته . ثم حُمل المغربى لما دخل الشهر إلى (بدخانة) ، ولم يأت العفريت ، فجعل يتلو حتى الصباح . وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة ، فكسروا الأصنام وهدموا (بدخانة) . وأسلم أهل الجزيرة ، وبعثوا إلى سائر الجزائر فأسلم أهلها . وأقام المغربى عندهم معظما ، وتمذهبوا بمذهبه ، مذهب الإمام مالك رضى الله عنه . وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه . وبنى مسجدا معروفا باسمه . وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا فى الخشب : أسلم السلطان أحمد شُنُورازة على يد أبى البركات البربرى المغربى . وجعل ذلك السلطان ثلث مجابى الجزائر صدقة على أبناء السبيل ، إذ كان إسلامه بسببهم .

ذكر سلطانة هذه الجزائر

ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة ، وهى خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر ابن السلطان صلاح الدين صالح البَنْجالى . وكان الملك لجدها ثم لأبيها . فلما مات أبوها ولى أخوها شهاب الدين ، وهو صغير السن ، فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحَضْرَمى أمه وغلب عليه . وهو الذى تزوج أيضا هذه السلطانة خديجة ، بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين ، كما سنذكره . فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال ، أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه إلى جزائر

السُّوَيْد، واستقلّ بالملك واستوزر أحد مواليه ، ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه إلى السويد . وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين هذا (أمور شائنة) ، فخلعوه لذلك ونفوه ، وبعثوا من قتله . ولم يكن بقى من بيت الملك إلا أخواته : خديجة الكبرى ومريم وفاطمة . فقدّموا خديجة سلطانة ، وكانت متزوجة بخطيبهم جمال الدين ، فصار وزيرا وغالبا على الأمر . وقدّم ولده محمدا للخطابة عوضا عنه ، ولكن الأوامر إنما تنفذ باسم خديجة .

وهم يكتبون الأوامر فى سَعَف النخل بحديدة معوجة شبه السكين . ولا يكتبون فى الكاغد إلا المصاحف وكتب العلم. ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيره . فيقول : اللهم انصر أمَتَك التى اخترتها على عِلْم على العالمين ، وجعلتها رحمة لكافة[1] المسلمين ، ألا وهى السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين . ومن عادتهم إذا قدم الغريب عليهم ، ومضى إلى (المشور) ، وهم يسمونه الدار ، أنه يستصحب ثوبين ، فيخدُم لجهة هذه السلطانة ، ويرمى بأحدهما ، ثم يخدم لوزيرها ، وهو زوجها جمال الدين ، ويرمى بالثانى . وعسكرها نحو ألف إنسان من الغرباء ، وبعضهم بلديّون . ويأتون كل يوم إلى الدار فيخدمون وينصرفون . ومرتبهم الأرز يعطاهم من البندر فى كل شهر . فإذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا ، وقالوا للوزير : بلّغ عنا الخدمة ، واعلم بأنا أتينا نطلب مرتبنا ، فيؤمر لهم به عند ذلك . ويأتى أيضا إلى الدار كل يوم القاضى والوزراء ، فيخدمون ، ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون .

---

(١) استعمال كلمة (كافة) على هذا النحو غلط . والصواب أن يقال : وجعلتها رحمة للسلمين كافّة .

ذكر وصولى إلى هذه الجزائر وتنقُّل حالى بها

ولما وصلت إليها نزلت منها بجزيرة كَنَلُوس ، وهى جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة . ونزلت بدار رجل من صلحائها . وأضافنى بها الفقيه علىّ ، وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم . ولقيت بها رجلا اسمه محمد من أهل ظَفار (١) الحُمُوض ، فأضافنى وقال لى : إن دخلت جزيرة المَهَل أمسكك الوزير بها ، فإنهم لاقاضى عندهم . وكان غرضى أن أسافر منها إلى المَعْبَر وسَرَنْديب وبَنْجالة ، ثم إلى الصين . وكان قدومى عليها فى مركب (الناخُذَاة) عمر الهِنَوْرِى . وهو من الحجاج الفضلاء . ولما وصلنا كَنَلُوس أقام بها عشرا . ثم اكترى (كُنْدُرة) يسافر فيها إلى المَهَل بهدية للسلطانة وزوجها ، فأردت السفر معه . فقال : لاتسعك الكندرة أنت وأصحابك ، فإن شئت السفر منفردا عنهم فدونك . فأبيت ذلك . وسافر فلعبت به الريح ، وعاد إلينا بعد أربعة أيام . وقد لقى شدائد ، فاعتذر لى . وعزم علىّ فى السفر معه بأصحابى ، فكنا نرحل غُدْوة فننزل فى وسط النهار بعض الجزائر ، ونرحل فنبيت بأخرى . ووصلنا بعد أربعة أيام إلى إقليم التِّيم . وكان الكَرْدوِى (٢) بها يسمى هلالا . فسلم علىّ وأضافنى ، وجاء إلىّ ومعه أربعة رجال ، وقد جعل اثنان عودا على أكتافهما ، وعلقا منه أربع دجاجات ، وجعل الآخران عودا مثله ، وعلقا منه نحو عشر من جوز النَّارَجيل . فعجبت من تعظيمهم لهذا الشئ الحقير ، فأخبرت أنهم صنعوه على جهة الكرامة والإجلال .

---

(١) ظفار بلدان باليمن . ولم نجدها مضافة إلى (الحموض) فى الكتب التى بأيدينا .

(٢) الحاكم أو المحافظ ، بلسانهم .

ورحلنا عنهم ، فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان . وهو رجل فاضل من خيار الناس ، فأكرمنا وأضافنا . وفي اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التَلَمْدى . وفي اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المَهَل ، حيث السلطانة وزوجها . وأرسينا بمرساها . وعادتهم ألا ينزل أحد عن المرسى إلا بإذنهم . فأذنوا لنا بالنزول . وأردت التوجه إلى بعض المساجد ، فمنعني الخدام الذين بالساحل ، وقالوا : لا بدّ من الدخول على الوزير . وكنت أوصيت (الناخُذَاة) أن يقول ، إذا سئل عني : لا أعرفه ، خوفاً من إمساكهم إياي ، ولم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتب إليهم معرفاً بخبري ، وأني كنت قاضياً بدهلى .

فلما وصلنا إلى الدار ، نزلنا في سقائف على الباب الثالث منها . وجاء القاضي عيسى اليمنيّ فسلم عليّ ، وسلمت على الوزير . وجاء (الناخُذَاة) إبراهيم بعشرة أثواب ، فخدم لجهة السلطانة ، ورمى بثوب منها ، ثم خدم للوزير ، ورمى بثوب آخر كذلك ، ورمى بجميعها . وسئل عني فقال : لا أعرفه . ثم أخرجوا التانَبُول وماء الورد ، وذلك هو الكرامة عندهم . وأُنزلنا بدار ، وبُعث إلينا الطعام ، وهو قصعة كبيرة فيها الأرز . وتدور بها صحاف فيها اللحم والدجاج والسمن والسمك . ولما كان بالغد مضيت مع (الناخُذَاة) والقاضي عيسى اليمنيّ ، لزيارة زاوية في طرف الجزيرة ، عمرها الشيخ الصالح نجيب ، وعدنا ليلاً . وبعث الوزير إليّ صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة فيها الأرز والسمن وجوز النارجيل والعسل المصنوع منه . وأتوا بمائة ألف وَدَعة للنفقة .

وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفونني . فعرّفوا خدام الوزير بأمري ، فزاد اغتباطاً بي . وأرسل إلى عند

استهلال رمضان ، فوجدت الأمراء والوزراء . وأحضر الطعام فى موائد ، يجتمع على المائدة طائفة . فأجلسنى الوزير إلى جانبه ومعه القاضى عيسى والوزير الفامَلْدارى [١] ، والوزير عمر دِهِرْد ، ومعناه مقدم العسكر . وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمك والموز المطبوخ . ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطا بالأفاويه . وهو يهضم الطعام .

وفى التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته . فردها أبوها لداره وأعطانى دارها . وهى من أجمل الدور . واستأذنته فى ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم[٢] ، فأذن لى فى ذلك ، وبعث إلىّ خمسا من الغنم ، وهى عزيزة عندهم ، وبعث الأرز والدجاج والسمن والأبازير[٣] . فبعثت ذلك كله إلى دار الوزير فطبخ لى بها . وبعث الفرش وأوانى النحاس . وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير . واستأذنته فى حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة ، فقال لى : وأنا أحضر أيضا ، فشكرته وانصرفت إلى دارى ، فإذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة ، فجلس فى قبة خشب مرتفعة . وكان كل من يأتى من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ، ويرمى بثوب غير مَخِيط ، حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها ، فأخذها الفقراء . وقدّم الطعام فأكلوا ، ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان . ثم أخذوا فى السماع والرقص وأعدت النار ، فكان الفقراء يدخلونها ويطئونها بالأقدام . ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء إلى أن خَمَدَتْ .

---

(١) وزير المالية ، بلسانهم .

(٢) قدم آدم عليه السلام ، كما سيأتى .

(٣) التوابل .

ذكر بعض إحسان الوزير إلىّ

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه فمررنا ببستان للمخزن . فقال لى الوزير: هذا البستان لك ، وسأعمر لك فيه دارا لسكناك ، فشكرت فعله ودعوت له . ولما كانت الليلة بعدها ، جاء الوزير إلىّ بعد العشاء الأخيرة فى نَفَر من أصحابه ، فدخل الدار ومعه غلامان صغيران فسلمت عليه ، وسألنى عن حالى فدعوت له وشكرته. فألقى أحد الغلامين بين يديه (بُقْشَة)[١] ، أخرج منها ثياب حرير وحُقّا فيه جوهر ، فأعطانى ذلك . فدعوت له وشكرته . وكان أهلا للشكر ، رحمه الله .

ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامى بعد ذلك

وكان الوزير سليمان قد بعث إلىّ أن أتزوج بنته ، فبعثت إلى الوزير جمال الدين مستأذنا فى ذلك . فعاد إلى الرسول وقال : لم يعجبه ذلك ، وهو يحب أن يزوجك بنته إذا انقضت عِدتها ، فأبيت أنا ذلك وخفت من شؤمها ، لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول . وأصابتنى فى أثناء ذلك حمى مرضت بها . ولا بد لكل من يدخل تلك الجزيرة أن يُحم . فقوى عزمى على الرحلة عنها ، فبعت بعض الحلىّ بالودع . واكتريت مركبا أسافر فيه إلى بَنْجالة . فلما ذهبت لوداع الوزير ، خرج إلى القاضى فقال الوزير يقول لك : إن شئت السفر فأعطنا ما أعطيناك وسافر . فقلت له : إن بعض الحلىّ اشتريت به الودع ، فشأنكم وإياه . فعاد إلىّ فقال يقول : إنما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع ، فقلت له : أنا أبيعه وآتيكم بالذهب . فبعثت إلى التجار ليشتروه منى ، فأمرهم الوزير ألا يفعلوا . وقصده بذلك كله ألا أسافر عنه . ثم بعث إلى

---

(١) يظهر أن هذه الكلمة مأخوذة من البقط وهو حزم المتاع . ويراد بالبقشة قطعة من النسيج تصان فيها الثياب . واللفظة غير عربية .

أحد خواصه، فقال: الوزير يقول لك: أقم عندنا، ولك كل ما أحببت. فقلت في نفسي: أنا تحت حكمهم. وإن لم أقم مختاراً أقمت مضطراً. فالإقامة باختياري أولى. فقلت لرسوله: نعم أنا أقيم معه. فعاد إليه ففرح بذلك واستدعاني. فلما دخلت عليه قام إليّ وعانقني. وقال: نحن نريد قربك وأنت تريد البعد عنا؟ فاعتذرت له، فقبل عذري. وقلت له: إن أردتم مُقامي فأنا أشترط عليكم شروطاً. فقال: نقبلها فاشترط. فقلت له: أنا لا أستطيع المشي على قدمي. ومن عادتهم ألا يركب أحد هنالك إلا الوزير. ولقد كنت لما أعطوني الفرس فركبته، يتبعني الناس رجالاً وصبياناً، يعجبون مني حتى شكوت له. فضربت الدُّنْقُرة [1] وبرح [2] في الناس ألا يتبعني أحد. والدنقرة شبه الطَّسْت من النحاس، تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد. فإذا ضربوها حينئذ (يبرح) في الناس بما يراد. فقال لي الوزير: إن أردت أن تركب (الدولة)، وإلا فعندنا حصان ورَمَكَة [3] فاختر أيهما شئت. فاخترت الرمكة، فأتوني بها في تلك الساعة، وأتوني بكسوة. فقلت له: وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته؟ فقال: ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببَنْجالة. فقلت له: على أن تبعث أنت من يعينه على ذلك. فقال نعم. فبعث حينئذ رفيق أبا محمد بن فرحان، وبعثوا معه رجلاً يسمى الحاج علياً، فاتفق أن هال [4] البحر، فرموا بكل ما عندهم، حتى الزاد والماء والصاري والقِرْبة، وأقاموا ست عشرة ليلة لا قِلْع لهم ولا سُكّان [5] ولا غيرهما. ثم خرجوا إلى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد. وقدِم عليّ صاحبي أبو محمد بعد سنة.

---

(١) غير عربية. والضبط لابن بطوطة.

(٢) يقصد نودي في الناس. ولم نجد هذا المعنى في الكتب التي بأيدينا.

(٣) الرمكة: الفرس تتخذ للنسل لكمال خلقها.

(٤) لعله محرف عن هاج. (٥) ذنب السفينة الذي تُوجَّه به.

ذكر العيد الذى شاهدته معهم

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير إلىّ بكسوة وخرجنا إلى المصلّى ، وقد زينت الطريق التى يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى ، وفرشت الثياب فيها . وكل من له على طريقه دار من الأمراء والكبار ، قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار الفَوْفَل والموز . ومُدّ من شجرة إلى أخرى شرائط ، وعُلّق منها الجوز الأخضر . ويقف صاحب الدار عند بابها ، فإذا مر الوزير رمى على رجليه ثوبا من الحرير أو القطن ، فيأخذه عبيده مع الودع الذى يُجعل على طريقه أيضا ، والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المِرعِزّ وعمامة كبيرة ، وهو متقلد فوطة حرير ، وفوق رأسه أربعة (شطور) ، وفى رجليه النعل ، وجميع الناس سواه حفاة ، والأبواق (والأنفار) والأطبال بين يديه ، والعساكر أمامه وخلفه . وجميعهم يكبرون ، حتى أتوا المصلى ، فخطب ولده بعد الصلاة . ثم أتى بِمِحفَّة فركبها الوزير . وخدم له الأمراء والوزراء ، ورموا بالثياب على العادة . ولم يكن ركب المحفة قبل ذلك ، لأن ذلك لا يفعله إلا الملوك . ثم رفعه الرجال . وركبت فرسى ودخلنا القصر ، فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والأمراء . ووقف العبيد بالتِّرَسة والسيوف والعصى . ثم أتى بالطعام ثم الفَوْفَل والتَّانبُول . ثم أتى بصحفة صغيرة فيها الصندل . فإذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل . ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتا من (السردين) مملوحا غير مطبوخ ، أهدى لهم من كَوْلَم ، وهو فى بلاد المُلَيْبار كثير . فأخذ الوزير (سردينة) وجعل يأكلها ، وقال لى : كل منه فإنه ليس ببلادنا . فقلت : كيف آكله وهو غير مطبوخ؟ فقال : إنه مطبوخ . فقلت : أنا أعرف به فإنه ببلادى كثير .

ذكر تزوجى وولايتى القضاء

وفى الثانى من شوال اتفقت مع الوزير سليمان على تزوج بنته ، فبعثت إلى الوزير جمال الدين أن يكون العقد بين يديه بالقصر . فأجاب إلى ذلك ، وأحضر التَّانْبُول على العادة والصندل . وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان ، فاستُدْعِى فلم يأت ، ثم استدعى ثانية فاعتذر بمرض البنت . فقال لى الوزير سِرًّا : إن بنته امتنعت وهى مالكة أمر نفسها ، والناس قد اجتمعوا . فهل لك أن تتزوج ربيبة السلطانة زوجة أبيها ، وهى التى ولده متزوج بنتها ؟ فقلت له نعم . فاستدعى القاضى والشهود ووقعت الشهادة . ودفع الوزير الصداق .

ولما تزوجتها أكرهنى الوزير على القضاء ، وسبب ذلك اعتراضى على القاضى لكونه كان يأخذ العشر من التركات ، إذا قسمها على أربابها . فقلت له : إنما لك أجرة تتفق بها مع الورثة . ولم يكن يحسن شيئا . فلما وليتُ اجتهدت جهدى فى إقامة رسوم الشرع . وليست هنالك خصومات كما هى ببلادنا . فأول ما غيرت من عادات السوء مكث المطلَّقات فى ديار المطلِّقين . وكانت إحداهن لا تزال فى دار المطلِّق حتى تتزوج غيره . فحسمت علة ذلك . وأتى إلىّ بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعلوا ذلك ، فضربتهم وشهَّرتهم بالأسواق ، وأخرجت النساء عنهم . ثم اشتددت فى إقامة الصلوات . وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق إثر صلاة الجمعة ، فمن وجدوه لم يصل ضربتُه وشهَّرته . وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله . وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك .

ذكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحَضْرَمى الذى نفاه السلطان شهاب الدين إلى السُّوَيْد

وما وقع بينى وبينه

وكنت قد تزوجت ربيبته بنت زوجته . ولما بعث إليه الوزير وردّه إلى جزيرة المَهَل، بعثت له التُّحَف، وتلقيته ومضيت معه إلى القصر، فسلم على الوزير، وأنزله فى دار جيدة، فكنت أزوره بها . واتفق أن اعتكفت فى رمضان فزارنى جميع الناس إلا إيّاه . وزارنى الوزير جمال الدين، فدخل هو معه بحكم الموافقة . فوقعت بيننا الوحشة . فلما خرجت من الاعتكاف شكا إلىّ أخوال زوجتى ربيبته، أولادُ الوزير جمال الدين السِنْجَرى : فإن أباهم أوصى عليهم الوزير عبد الله، وإن مالهم باق بيده، وقد خرجوا عن حَجْره بحكم الشرع . وطلبوا إحضاره بمجلس الحكم . وكانت عادتى إذا بعثت إلى خصم من الخصوم أن أبعث له قطعة كاغَد مكتوبة، فعند ما يقف عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعى، وإلا عاقبته . فبعثت إليه على العادة فأغضبه ذلك، وحقد علىّ وأضمر عداوتى، ووكّل من يتكلم عنه . وكانت عادة الناس من صغير وكبير أن يَخْدُموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين . وخدمتهم أن يوصلوا السبابة إلى الأرض، ثم يقبلوها ويضعوها على رءوسهم . فأمرت المنادى فنادى بدار السلطان على رءوس الأشهاد، أنه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير، لزمه العقاب الشديد، فزادت عداوته .

ذكر انفصالى عنهم

ثم سافرت (بعد حوادث جرت[١]) ووصلت إلى جزيرة الوزير على ، وسرنا فى تلك الجزائر من إقليم إلى إقليم .

ووصلنا إلى جزيرة من تلك الجزائر صغيرة ليس بها إلا دار واحدة ، فيها رجل حائك له زوجة وأولاد ونُخَيْلات نارَجيل ، وقارب صغير يصطاد فيه السمك ، ويسير به إلى حيث أراد من الجزائر . وفى جزيرته أيضا شجيرات موز . ولم نر فيها من طيور البر غير غرابين ، خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا. فَغَبَطْتُ والله ذلك الرجل ، وَوَدِدْتُ لو كانت تلك الجزيرة لى ، فانقطعت فيها إلى أن يأتينى اليقين .

ثم وصلت إلى جزيرة ملوك ، حيث المركب الذى للناخُذَاة إبراهيم ، وهو الذى عزمت على السفر فيه إلى المَعْبَر . فجاء إلىّ ومعه أصحابه وأضافونى ضيافة حسنة . وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما . وهى من أحسن الجزائر خضرة نضرة . رأيت من عجائبها أن الغصن يُقْتطع من شجرها ويركز فى الأرض أو الحائط ، فيورق ويصير شجرة . ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر طول السنة . وخاف أهل الجزيرة (الناخُذَاة) إبراهيم أن يَنْهَبهم عند سفره ، فأرادوا إمساك مافى مركبه من السلاح حتى يوم سفره . فوقعت المشاجرة بسبب ذلك . وعدنا إلى المهل ولم ندخلها . وعدنا إلى ملوك ، وسافرنا منها فى نصف ربيع الثانى عام خمسة وأربعين. وفى شعبان من هذه السنة توفى الوزير جمال الدين رحمه الله . وسافرنا ولم يكن معنا رئيس عارف . ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام ، فسرنا نحو تسعة أيام .

وفى التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سيلان ، ورأينا جبل سَرَنْدِيب فيها ذاهبا فى السماء ، كأنه عمود دخان . ولما وصلناها قال البَحْرية : إن هذا

---

(١) ما بين القوسين ليس من كلام ابن بطوطة

المرسى ليس فى بلاد السلطان الذى يدخل التجار إلى بلاده آمنين ، و إنما هذا مَرْسى لعُتاةِ المفسدين، ولهم مراكب تقطع فى البحر. فخفنا أن تنزل بمرساه. ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق. فقلت (للناخُذَاة): أنزلنى إلى الساحل وأنا آخذ لك الأمان من السلطان. ففعل ذلك، وأنزلنى بالساحل، فأتانا الكفار فقالوا: ما أنتم ؟ فأخبرتهم أنى سِلف[1] سلطان المعبر وصاحبه ، وقد جئت لزيارته ، وأن الذى فى المركب هدية له. فذهبوا إلى سلطانهم فأعلموه بذلك، فاستدعانى فذهبت له إلى مدينة (بَطَّالة) وهى حضرته، مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج خشب. وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القِرْفة ، تأتى بها السيول فتجتمع بالساحل كأنها الروابى. ويحملها أهل المعبر، والمليبار دون ثمن، إلا أنهم يُهْدون للسلطان فى مقابلة ذلك الثوب ونحوه . وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة . وبها أيضا من خشب البَقَّم كثير، ومن العود الهندى المعروف بالكَلَخْى .

ذكر سلطان سَيلان

واسمه شَكَرْوَتى، وهو سلطان قوىّ فى البحر. رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار ، وصلت إلى هنالك، وكان بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان للسفر إلى اليمن . فأمر السلطان بالاستعداد وحَشَد الناس لحماية (أجفانه) . فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا : إنما جئنا فى حماية مراكب لنا تسير أيضا إلى اليمن .

ولما دخلت على هذا السلطان الكافر ، قام إلى وأجلسنى إلى جانبه ، وكلمنى بأحسن كلام . وقال: ينزل أصحابك على الأمان و يكونون فى ضيافتى

(١) السلف من الرجل زوج أخت امرأته

إلى أن يسافروا ، فإن سلطان المعبر بيني و بينه الصحبة . ثم أمر بإنزالى، فأقمت عنده ثلاثة أيام فى إكرام عظيم متزايد فى كل يوم. وكان يفهم اللسان الفارسى. و يعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد. ودخلت عليه يوما وعنده جواهر كثيرة ، أتى بها من مغاص الجوهر الذى ببلاده ، وأصحابه يميزون منها النفيس من غيره ، فقال لى : هل رأيت مغاص الجوهر فى البلاد التى جئت منها ؟ فقلت له : نعم رأيته بجزيرة قَيْس . ثم أخذ حبات منه فقال : أيكون فى تلك الجزيرة مثل هذه ؟ فقلت له : رأيت ما هو دونها . فأعجبه ذلك . وقال : هى لك ، وقال لى : لا تَسْتَحْىِ واطلب منى ما شئت . فقلت له : ليس مرادى منذ وصلت هذه الجزيرة ، إلا زيارة القدم الكريمة ، قدم آدم عليه السلام . وهم يسمونه (بابا) و يسمون حواء (ماما) . فقال : هذا هيّن ، نبعث معك من يوصلك ، فقلت : ذلك أريد. ثم قلت له : وهذا المركب الذى جئت فيه يسافر آمنا إلى المَعْبَر ، و إذا عدت أنا بعثتنى فى مراكبك ؟ فقال نعم. فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب، قال لى : لا أسافر حتى تعود ، ولو أقمت سنة بسببك . فأخبرت السلطان بذلك ، فقال : يقيم فى ضيافتى حتى تعود . فأعطانى (دولة) يحملها عبيده على أعناقهم ، و بعث معى أربعة من الجُوكية الذين عادتهم السفر كل عام لزيارة القدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة من سائر أصحابه ، وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد . وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير .

ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه فى (معدية)[1] مصنوعة من قصب الخَيْزُران . ثم رحلنا من هنالك إلى مَنَارْ مَنْدَلِى ، مدينة حسنة هى آخر عمالة السلطان . أضافنا أهلها ضيافه حسنة . وضيافتهم عجول الجواميس ، يصطادونها بغابة هنالك ، ويأتون بها أحياء . و يأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج

---

(١) يريد المَعْبَر. وقد استعمل المؤلف لفظ (المعدية) كثيرا للدلالة على هذا المعنى ، وهو خطأ .

واللبن . ولم أر فى المدينة مسلما غير رجل خُرَاسانى انقطع بسبب مرضه فسافر معنا .

ورحلنا إلى (بَنْدَرْ سَلَاوات) ، بلدة صغيرة . وسافرنا منها فى أَوْعَار كثيرة المياه . وبها الفِيلة الكثيرة ، إلا أنها لا تؤذى الزوار والغرباء . ثم وصلنا بعد ذلك إلى مدينة كُنَكَار ، وهى حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد . وبناؤها فى خندق بين جبلين على خُور كبير ، يسمى خور الياقوت ، لأن الياقوت يوجد به . وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازى . وَسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه ، وقد كان الدليل إلى القدم . فلما قطعت يده ورجله صار الأدِلّاء أولاده وغلمانه . وسبب قطعه أنه ذبح بقرة ، وحكم كفار الهنود أنه من ذبح بقرة ذبح كمثلها ، أو جعل فى جلدها وأحرق . وكان الشيخ عثمان معظما فقطعوا يده ورجله . وأعطوه مَجْبَى بعض الأسواق .

ذكر سلطانها

وهو يعرف بالكُنَار . وعنده الفيل الأبيض، ولم أر فى الدنيا فيلا أبيض سواه ، يركبه فى الأعياد ، ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة. واتفق له أن قام عليه أهل دولته وسَمَلُوا عينيه ، وولوا ولده . وهو هنالك أعمى .

ذكر الياقوت

والياقوت العجيب البَهْرَمَان[1] إنما يكون بهذه البلدة . فمنه مايخرج من الخور، وهو عزيز عندهم. ومنه مايحفر عنه . وجزيرة سيلان يوجد الياقوت فى جميع مواضعها . وهى متملّكة ، فيشترى الإنسان القطعة منها ويحفر عن

(١) البهرمان العُصْفُر . ولعله سمى بذلك لشبهه به فى اللون .

الياقوت، فيجد أحجارا بيضاء مُشَعَّبة، وهي التي يتكوّن الياقوت في أجوافها، فيعطيها الحكاكين فيحُكّونها، حتى تنفلق عن أحجار الياقوت. فمنه الأحمر ومنه الأصفر ومنه الأزرق. وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت مائة (فَنَم) فهو للسلطان، يعطى ثمنه و يأخذه. وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه. وصَرْف مائة فنم ستة دنانير من الذهب. و جميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من الياقوت الملوّن، يجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضا عن الأَسْوِرَة والخلاخيل. وجوارى السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رءوسهن. ولقد رأيت على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه، كل حجر أعظم من بيضة الدجاج، ورأيت عند السلطان شَكَرْوَتِي سُكُرُّجَة[1] على مقدار الكف من الياقوت، فيها دهن العود. فجعلت أعجب منها، فقال: إن عندنا ما هو أضخم من ذلك. ثم سافرنا من كُنَكَار، فنزلنا بمغارة تعرف باسم أُسْطَا محمود اللُّورِى، وكان من الصالحين، واحتفر تلك المغارة في سَفْح جبل عند خور صغير هنالك. ثم رحلنا عنها، ونزلنا بالخور المعروف بخور بُوزْنَة. و بوزنة هي القرود.

ذكر القرود

والقرود بتلك البلاد كثيرة جدا. وهي سود الألوان، لها أذناب طِوال. ولذكورها لِحى كما هي للآدميين. وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما أن هذه القرود لها مُقَدَّم تتبعه كأنه سلطان، يَشُدّ على رأسه عِصابة من أوراق الأشجار، و يتوكأ على عصا، و يكون عن يمينه ويساره اربعة من القرود لها

(١) الصحفة تكفى الرجل.

عِصِيّ بأيديها ، وأنه إذا جلس القرد المقدّم تقف القرود الأربعة على رأسه ، وتأتى أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم . وتأتى القرود فتقعد على بعد منه . ثم يكلمها أحد القرود الأربعة فتنصرف القرود كلها . ثم يأتى كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبهِ ذلك ، فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الأربعة . وأخبرنى بعض الجوكية أنه رأى القرود الأربعة بين يدى مُقَدَّمها ، وهى تضرب بعض القرود بالعِصِيّ ، ثم نتفت وبره بعد ضربه .

ثم كان رحيلنا إلى خُور الخَيْزُران . ثم رحلنا إلى موضع يعرف ببيت العجوز ، وهو آخر العمارة . ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر ، وكان من الصالحين . ثم رحلنا إلى مغارة السَّبيك . وكان السبيك من سلاطين الكفار ، وانقطع للعبادة هنالك .

ذكر العَلَق الطيّار

وبهذا الموضع رأينا العَلَق الطيار . ويكون بالأشجار والحشائش التى تقرب من الماء . فإذا قَرُب الإنسان منه وثب عليه ، فحيثما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير . والناس يُعِدُّون له الليمون ، يَعصِرونه عليه فيسقط عنهم . ويجردون الموضع الذى يقع عليه بسكين خشب معد لذلك . ويذكر أن بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق ، فأظهر الجلَد ولم يعصِر عليها الليمون ، فنَزِف دمه ومات .

ذكر جبل سَرَندِيب

وهو من أعلى جبال الدنيا . رأيناه من البحر ، بيننا و بينه مسيرة تسع . ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا ، قد حال بيننا و بين رؤية أسفله . وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق ، والأزاهير الملونة ، والورد الأحمر على قدر الكف . وفى الجبل طريقان إلى القدم أحدهما يعرف بطريق (بابا) والآخر بطريق (ماما) ، يعنون آدم وحواء عليهما السلام . فأما طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار إذا رجعوا . ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر . وأما طريق بابا فصعب وَعْر المرتقى . وفى أسفل الجبل مغارة تنسب للإسكندر ، وعين ماء . ونحت الأولون فى الجبل شِبه دَرَج يُصْعَد عليها ، وغرزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلقوا منها السلاسل ، ليتمسك بها من يَصْعَده . وهى عشر سلاسل ، ثنتان فى أسفل الجبل وسبع متوالية بعدها . والعاشرة هى سلسلة الشهادة ، لأن الإنسان إذا وصل إليها ونظر إلى أسفل الجبل أدركه الخوف ، فيتشهد خوف السقوط . ثم إذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملا . ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة الخَضِر[1] سبعة أميال . وهى فى موضع فسيح عندها عين ماء تنسب إليه أيضا ، ملأى بالحيتان ، ولا يصطادها أحد . وبالقرب منها حوضان منحوتان فى الحجارة عن جَنْبَتَى الطريق . وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم ، ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيث القدم .

---

(١) ككَبِد وكِبْد ، أبو العباس النبي عليه السلام . قاموس .

ذكر القَدَم (١)

وأثر القدم الكريمة قدمِ أبينا آدم صلى الله عليه وسلم فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضا . وطولها أحد عشر شِبرًا . وأتى إليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه ، وجعلوه فى كنيسة بمدينة الزيتون ، يقصدونه من أقصى البلاد . وفى الصخرة حيث القدم تِسع حُفَر منحوتة ، يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر . فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخَضِر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر . ولم نجد نحن بها إلا يسير حُجَيْرات وذهب أعطيناها الدليل .

والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخَضِر ثلاثة أيام ، يأتون فيها إلى القدم غُدْوة وعشيا . وكذلك فعلنا . ولما تمت الأيام الثلاثة ، عدنا على طريق (ماما) فنزلنا بمغارة (شيم) . وهو شِيث بن آدم عليهما السلام ، ثم ذهبنا إلى خُور السمك ثم إلى قرية كُرْمُلة . وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذى يخرج منه الياقوت . وماؤه يظهر فى رأى العين شديد الزرقة .

ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دِينَوَر ، مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار ، وبها الصنم المعروف بدينور فى كنيسة عظيمة ، فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ، ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود . ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن . والمدينة ومجابيها وقف على الصنم . وكل من بالكنيسة ومن يردها يأكلون من ذلك . والصنم من ذهب على

---

(١) هذه القدم خرافة من الخرافات التى صدقها ابن بطوطة .

قدر الآدمى ، وفى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان ، اخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين .

ثم رحلنا إلى مدينة قالِى . وهى صغيرة على ستة فراسخ من دِينَوَر . وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخُذَاة إبراهيم ، أضافنا بموضعه . ورحلنا إلى مدينة كَلَنْبُو[1] ، وهى من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها ، وبها يسكن الوزير حاكم البحر جالَسْتى ، ومعه نحو خمسمائة من الحُبْشَان . ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى بطَّالَة ، وقد تقدم ذكرها . ودخلنا على سلطانها الذى تقدم ذكره ، ووجدت الناخُذَاة إبراهيم فى انتظارى ، فسافرنا بقصد بلاد المَعْبَر . وقويت الريح وكاد الماء يدخل فى المركب . ولم يكن لنا رئيس عارف . ثم وصلنا إلى حجارة كاد المركب ينكسر فيها . ثم دخلنا بحرا قصيرا فيجلس المركب[2] ورأينا الموت عِيانا ، ورمى الناس بما معهم ، وقطعنا صارى المركب فرمينا به . وصنع البَحْرية (معدية) من الخشب . وكان بيننا وبين البر فرسخان . فأردت أن أنزل (فى المعدية) . وكان لى جاريتان وصاحبان من أصحابى ، فقالا : أتنزل وتتركنا؟ فآثرتهما على نفسى . وقلت : انزلا أنتما . فنزل رفيقاى ، وأحدهما محمد بن فرحان التَّوْزَرِى ، والآخر رجل مصرى ، وجارية معهما . والأخرى تَسْبَح . وربط البحرية فى (المعدية) حبالا وسبحوا بها . وجعلت معهم ماعزَّ علىَّ من المتاع والجواهر والعنبر . فوصلوا إلى البر سالمين ، لأن الريح كانت تساعدهم . وأقمت بالمركب . ونزل صاحبه إلى البر . وشرع البحرية فى عمل أربع من (المعادى) فجاء الليل قبل تمامها ، ودخل معنا الماء . فصعدت إلى المؤخر ، وأقمت به حتى الصباح .

---

(١) هى مدينة كُلُمْبُو .

(٢) فيجلس المركب أى يستقر على الأرض ، وهو تعبير غريب . وقد آثرنا أن نتركه كما هو .

وحينئذ جاء إلينا نفر من الكفار فى قارِب لهم ، ونزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المعبر ، فأعلمناهم أنا من أصحاب سلطانهم . وهم تحت ذمته . فكتبوا إليه بذلك وهو على مسيرة يومين فى الغَزْو . وكتبت أنا إليه أعلمه بما اتفق لى . وأدخلنا أولئك الكفار إلى غَيْضَة عظيمة ، فأتونا بفاكهة تشبه البطيخ يُثْمِرها شجر المُقْل[1] ، وفى داخلها شِبه قطن فيه عَسَلِيّة يستخرجونها ، ويصنعون منها حلواء . تشبه السكر . وأتوا بسمك طيب . وأقمنا ثلاثة أيام .

ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقمر الدين ، معه جماعة فرسان ورجال ، وجاءوا (بالدولة) وبعشرة أفراس ، فركبت وركب أصحابى وصاحب المركب وإحدى الجاريتين ، وحملت الأخرى فى (الدولة) . ووصلنا إلى حصن هَرْكَاتُو وبتنا به . وتركت فيه الجاريتين وبعض الغلمان والأصحاب ، ووصلنا فى اليوم الثانى مَحَلَّة السلطان .

ذكر سلطان بلاد المَعْبَر

هو غياث الدين الدَّامَغانى[2] . وكان فى أول أمره فارسا من فُرْسان الملك مجير ابن أبى الرَّجا ، أحد خدام السلطان محمد . ثم خدم الأمير حاجى ابن السيد السلطان جلال الدين . ثم ولى الملك . وكان يدعى سراج الدين قبله ، فلما ولى تسمى غياث الدين . وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دِهلى . ثم ثار بها صهرى الشريف جلال الدين أحسن شاه ، وملك بها خمسة أعوام . ثم قتل وولى أحد أمرائه وهو علاء الدين أُدَيْجِى ، فملك سنة . ثم خرج إلى غزو الكفار فأخذ منهم أموالا كثيرة وغنائم واسعة . وعاد إلى بلاده وغزاهم فى السنة الثانية فهزمهم ، وقتل منهم مَقْتَلة عظيمة . واتفق يوم قتله لهم أن رفع

(١) المقل صمغ شجرة كما فى القاموس .

(٢) نسبة إلى دامَغان ، بلد كبير بين الرى ونيسابور ، وهو قصبة قومس . ياقوت .

المِغْفَر[1] عن رأسه ليشرب ، فأصابه سهم فمات من حينه . فولوا صهره قطب الدين. ثم لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوما. وولى بعده السلطان غياث الدين ، وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين ، التي كنت متزوجا أختها بدهلى .

ذكر وصولى إلى السلطان غياث الدين

ولما وصلنا إلى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقّينا ، وكان قاعدا فى برج خشب. وعادتهم بالهند كلها ألا يدخل أحد على السلطان دون خُفّ. ولم يكن عندى خف ، فأعطانى بعض الكفار خفا . ودخلت على السلطان فأمرنى بالجلوس . ودعا القاضى الحاج صدر الزمان بهاء الدين ، وأنزلنى فى جواره فى ثلاثة أخبية ، وهم يسمونها الخيام ، وبعث بالفرش وبطعامهم ، وهو الأرز واللحم. وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا. ثم اجتمعت به بعد ذلك ، وألقيت[2] إليه أمر جزائر ذيبة المَهَل ، وأن يبعث الجيش إليها . فأخذ فى ذلك بالعزم ، وعيّن المراكب لذلك ، وعيّن الهدية لسلطانتها ، والخِلَع للوزراء والأمراء والعطايا لهم. وأمر بإيساق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر. وقال لى : يكون رجوعك بعد خمسة أيام. فقال له قائد البحر خواجة سَرْلَك : لا يمكن السفر إلى الجزائر إلا بعد ثلاثة أشهر من الآن. فقال لى السلطان : أما إذ كان الأمر هكذا فامض إلى فَتَّن ، حتى تقضى هذه الحركة[3] ونعود إلى حضرتنا مُتْرة ، ومنها تكون الحركة[4].

فأقمت معه بخلال[5] ما بعثُ إلى الجاريتين والأصحاب .

---

(١) حلق يتقنع بها المتسلح .

(٢) أى أخبرته بما عليه كثير من أهلها من الفقر والحاجة .

(٣) أى حركة الغزو المسطورة فيما يلى .

(٤) أى سفر الجيش بالهدايا والصدقات إلى جزائر ذيبة المهل . وفى العبارة من أول قوله : (وألقيت) شىء من الإبهام والاضطراب .

(٥) يقصد ريثما بعثت ، وهو تعبير غريب .

ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله فى قتل النساء والولدان

وكانت الأرض التى نسلكها غَيْضة واحدة من الأشجار والقصب، بحيث لا يسلكها أحد. فأمر السلطان أن يكون مع كل واحد ممن فى الجيش من كبير وصغير قَدُوم لقطع ذلك. فإذا نَزَلت المحلّة(١)، ركب إلى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الأشجار من غُدْوة النهار إلى الزوال. ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس، طائفة بعد أخرى. ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشىّ. وكل من وجدوه من الكفار فى الغيضة أسروه، وصنعوا خشبة محدّدة الطرفين فجعلوها على كتفيه، يحملها ومعه امرأته وأولاده، ويؤتى بهم، إلى المحلة. وعادتهم أن يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له أربعة أبواب ويسمونه الكَتْكَر، ويصنعون على دار السلطان كتكرا ثانيا، ويصنعون خارج الكتكر الأكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة، ويوقدون عليها النار بالليل. ويبيت عندها العبيد والمشّاءون، ومع كل واحد منهم حُزْمة من رقيق القصب. فإذا أتى الكفار ليضربوا على المحلة ليلا، أوقد كل واحد منهم الحزمة التى بيده، فعاد الليل شِبه النهار لكثرة الضياء، وخرجت الفرسان فى اتباع الكفار. فإذا كان عند الصباح قُسم الكفار المأسورون بالأمس أربعة أقسام، وأُتى إلى كل باب من أبواب الكَتْكَر بقسم منهم، فركزت الُخشُبُ التى كانوا يحملونها بالأمس، ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم. ثم تذبح نساؤهم ويربطن بشعورهن إلى تلك الخشبات، ويذبح الأولاد

(١) يقصد المعسكر، كما تقدم مثل ذلك الاستعمال.

الصغار فى حجورهن ، ويتركون هنالك . ثم يشتغلون بقطع غَيْضَة أخرى ، ويصنعون بمن أسروه كذلك . وذلك أمر شنيع ما علمته لأحد من الملوك .

ولقد رأيته يوما والقاضى عن يمينه وأنا عن شماله ، وهو يأكل معنا ، وقد أُتى بكافر معه امرأته وولد سنه سبع ، فأشار إلى السيافين بيده ان يقطعوا رأسه ، ثم قال لهم : وابنه وزوجته . فقطعت رقابهم . وصرفت بصرى عنهم . فلما قمت وجدت رءوسهم مطروحة بالأرض . وحضرت عنده يوما وقد أُتى برجل من الكفار ، فتكلم بما لم أفهمه ، فإذا بجماعة من الزبانية[1] قد استلوا سكاكينهم ، فبادرت إلى القيام ، فقال لى : إلى أين ؟ فقلت : أصلى العصر . ففهم عنّى وضحك ، وأمر بقطع يديه ورجليه . فلما عدت وجدته مُتَشَحِّطا[2] فى دمائه .

ذكر هزيمته للكفار
وهى من اعظم فتوحات الإسلام

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بَلَال دِيوْ ، وهو من كبار سلاطين الكفار ، يزيد عسكره على مائة ألف ، ومعه نحو عشرين ألفا من المسلمين أهل الدعارة وذوى الجنايات ، والعبيد الفارين . فطمع فى الاستيلاء على بلاد المَعْبَر ، وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف منهم النصف من الجياد ، والنصف الثانى لا خير فيهم ولا غَنَاء عندهم . فلقوه بظاهر مدينة كُبَّان فهزمهم ، وحاصرها عشرة أشهر ، ولم يبق لهم من الطعام إلا قوت أربعة

---

(١) أَلزِّبْنِيَةُ ممرد الجن والانس والشديد والشُّرَطِى ، جمعه زبانية . قاموس .

(٢) مضطربا .

عشرة يوما . فبعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمان و يتركوا له البلد . فقالوا له : لابد من مطالعة سلطاننا بذلك ، فوعدهم إلى تمام أربعة عشر يوما . فكتبوا إلى السلطان غياث الدين بأمرهم فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة فبكوا ، وقالوا : نبيع أنفسنا من الله ، فإن الكافر إن أخذ تلك المدينة انتقل إلى حصارنا ، فالموت تحت السيوف أولى بنا .

فتعاهدوا على الموت ، وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رءوسهم ، وجعلوها فى أعناق الخيل ، وهى علامة من يريد الموت ، وجعلوا ذوى النَّجْدة والأبطال منهم فى المقدّمة . وكانوا ثلاثمائة . وجعلوا على الميمنة سيف الدين بَهَادُور ، وكان فقيها ورِعا شجاعا ، وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار . وركب السلطان فى القلب ومعه ثلاثة آلاف . وجعل الثلاثة الآلاف الباقين ساقَة(١) لهم ، وعليهم أسد الدين كِيخُسْرُو الفارسى . وقصدوا محلة الكافر عند القائلة ، وأهلها على غِرّة وخيلهم فى المرعى ، فأغاروا عليها . وظن الكفار أنهم سُرّاق ، فخرجوا إليهم على غير تعبئة وقاتلوهم ، فانهزم الكفار شر هزيمة .

وأراد سلطانهم أن يركب ، وكان ابن ثمانين سنة ، فأدركه ناصر الدين ، ابن أخى السلطان الذى ولِى الملك بعده ، فأراد قتله ولم يعرفه ، فقال له أحد غلمانه : هو السلطان ، فأسره وحمله إلى عمه فأكرمه فى الظاهر ، حتى جَبَى منه الأموال والفِيلة والخيل ، وكان يَعِده السَّراح . فلما استصفى ما عنده ذبحه وسلخه وملأ جلده بالتبن . فعلق على سور مُتْرَة ، ورأيته بها معلقا .

ولنعد إلى كلامنا فنقول : ورحلت عن المحلة فوصلت إلى مدينة فَتَّن ، وهى كبيرة حسنة على الساحل . ومرساها عجيب ، قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة ، قائمة على الخُشُب الضخام ، يصعد إليها على طريق خشب

---

(١) ساقة الجيش مؤخره .

مسقوف . فإذا جاء العدو ضموا إليها (الأجفان) التى تكون بالمرسى، وصعدها الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة . وبهذه المدينة مسجد حسن مبنى بالحجارة . وبها العنب الكثير والرمان الطيب . ولقيت الشيخ الصالح محمدا النَّيْسابُورى . أحد الفقراء المتولهين[1] الذين يَسْدُلُون شعورهم على أكتافهم، ومعه سَبُع رباه ، يأكل مع الفقراء ويقعد معهم . وكان معه نحو ثلاثين فقيرا ، لأحدهم غزالة تكون مع الأسد فى موضع واحد فلا يَعْرِض لها .

ثم وصل السلطان إلى مدينة فَتّن، فخرجت للقائه . ولما استقر بها أرسل إلى قائد البحر خواجه سرور ، فقال له : لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر إلى الجزائر . وأقام بفتّن نصف شهر ، ثم رحل إلى حضرته مُتْرة . وأقمت بعده نصف شهر .

ثم رحلت إلى مدينة مُتْرَة ، مدينة كبيرة متسعة الشوارع . وأول من اتخذها حضرةً صهرى السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه، وجعلها شبيهة بدِهْلِى وأحسن بناءها . ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتا ذريعا : فمن مرض مات من ثانى يوم مرضه أو ثالثه . وإن أبطأ موته فإلى الرابع . فكنت إذا خرجت لا أرى إلا مريضا أو ميتا . واشتريت بها جارية على أنها صحيحة فماتت فى يوم آخر . ولقد جاءت إلىّ فى بعض الأيام امرأة ، كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ، ومعها ابن لها ، سنه ثمانية أعوام ، نبيل كيِّس فَطِن . فشكت ضعف حالها فأعطيتهما نفقة ، وهما صحيحان سَوِيّان . فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها هذا كفنا ، وإذا به قد توفى من حينه . وكنت أرى (بمشور) السلطان حين مات، المِئين من الخادمات اللاتى أُتِىَ بهن لدقّ الأرز المعمول منه الطعام لغير السلطان ، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن فى الشمس . ولما دخل السلطان مُتْرة وجد أمه وامرأته وولده مَرْضى ، فأقام بالمدينة

---

(١) الذاهبي العقل .

ثلاثة أيام ، ثم خرج إلى نهر على فرسخ منها ، كانت عليه كنيسة للكفار . وخرجت إليه فى يوم خميس، فأمر بإنزالى إلى جانب القاضى . فلما ضربت لى الأخبية ، رأيت الناس يسرعون ويموج بعضهم فى بعض ، فمن قائل إن السلطان مات ، ومن قائل إن ولده هو الميت . ثم تحقق ذلك، فكان الولد هو الميت ، ولم يكن له سواه ، فكان موته مما زاد فى مرضه . وفى الخميس بعده توفيت أم السلطان .

ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافى عنه

وفى الخميس الثالث توفى السلطان غياث الدين. وشعرت بذلك، فبادرت إلى الدخول إلى المدينة خوف الفتنة . ولقيت ناصر الدين ابن أخيه، الوالى بعده ، خارجا إلى المَحَلَّة (١) ، وقد وُجِّه (٢) عنه ، إذ ليس للسلطان ولد . فطلب إلىّ الرجوع معه فأبيت . وأثر ذلك فى قلبه . وكان ناصر الدين هذا خادما بدهلى قبل أن يملك عمه . فلما ملك عمه هرب فى زىّ الفقراء إليه ، فكان من القَدَر ملكه بعده . ولما بويع مدحته الشعراء فأجزل لهم العطاء . وأول من قام منشدا القاضى صدر الزمان ، فأعطاه خمسمائة دينار وخِلْعة ، ثم الوزير المسمى بالقاضى ، فأعطاه ألفى دينار دراهم ، وأعطانى أنا ثلاثمائة دينار وخِلْعة . وبثّ الصدقات فى الفقراء والمساكين .

ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه ، نثرت عليه الدنانير والدراهم فى صِحاف الذهب والفضة . وعمل عزاء السلطان غياث الدين ، فكانوا يختمون القرآن على قبره كل يوم ، ثم يقرأ العشّارون (٣) ، ثم يؤتى

(١) يقصد المعسكر ، كما تقدم .

(٢) يريد طلب للحضور إلى المعسكر . والتعبير غريب غير معهود .

(٣) يريد بالعشار من يقرأ عشر القرآن . والتعبير غير عربى .

بالطعام فيأكل الناس ، ثم يعطون الدراهم ، كل إنسان على قدره . وأقاموا على ذلك أربعين يوما . ثم يفعلون ذلك فى مثل يوم وفاته من كل سنة .

وأول ما بدأ به السلطان ناصر الدين أن عزل وزير عمه وطالبه بالأموال. وولّى الوزارة الملك بدر الدين الذى بعثه عمه إلىّ وأنا بِفَتَّن ليتلقانى ، فتوفى سريعا . فولى الوزارة خواجة سُرور قائد البحر . وأمر أن يخاطب بخواجة جهان كما يخاطب الوزير بِدِهْلِى . ومن خاطبه بغير ذلك غُرِّم دنانير معلومة . ثم إن السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين ، وتزوجها بعده . وبلغه أن الملك مسعودا زاره فى مَحْبِسه قبل موته فقتله أيضا ، وقتل الملك بَهَادُور ، وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء . وأمر لى بجميع ما كان عيّنه عمه من المراكب برسم الجزائر .

ثم أصابتنى الحمى القاتلة هنالك فظننت أنها القاضية . وألهمنى الله استعمال التمر الهندىّ ، وهو هنالك كثير ، فأخذت نحو رطل منه وجعلته فى الماء ثم شربته . وعافانى الله من مرضى . فكرهت تلك المدينة وطلبت الإذن فى السفر ، فقال لى السلطان : كيف تسافر ولم يبق لأيام السفر إلى الجزائر غير شهر واحد ؟ أقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خَوَنْد عَالَم . فأبيت . وكتب لى إلى فَتَّن لأسافر فى أى مركب أردت . وعدت إلى فَتَّن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر إلى اليمن ، فسافرت فى أحدها . ولقينا أربعة (أجفان) فقاتلتنا يسيرا ، ثم انصرفت . ووصلنا إلى كَوْلَم وكان فىّ بقية مرض ، فأقمت بها ثلاثة أشهر . ثم ركبت فى مركب بقصد السلطان جمال الدين الهِنَوْرِى . فخرج علينا الكفار بين هنَوْر وفاكَنُور .

ذكر سلب الكفار لنا

ولما وصلنا إلى الجزيرة الصغرى بين هِنَوْر وفاكَنَوْر، خرج علينا الكفار في اثنى عشر مركبا حربيا، وقاتلونا قتالا شديدا وتغلبوا علينا. فأخذوا جميع ماعندى مما كنت أدخره للشدائد، وأخذوا الجواهر واليواقيت التي أعطانيها ملك سيلان، وأخذوا ثيابي والزَّوادات[1] التي كانت عندى مما أعطانيه الصالحون والأولياء. ولم يتركوا لى ساترا خلا السراويل. وأخذوا ما كان لجميع الناس وأنزلونا بالساحل.

فرجعت إلى قَالِقُوط، فدخلت بعض المساجد، فبعث إلىّ أحد الفقهاء بثوب، وبعث القاضى بعمامة، وبعث بعض التجار بثوب آخر. وسافرت فوصلت بعد عشرة أيام إلى جزائر ذِيبَة المَهَل. ونزلت منها بِكَنَّلُوس، فأكرمني واليها عبد العزيز المَقْدَشَاوِى، وأضافنى وجهّز لى (كُنْدُرة)، ووصلت بعد ذلك إلى هُلُلِى، وهى الجزيرة التى تخرج السلطانة وإخوتها إليها للتفرج والسياحة، ويلعبون فى المراكب، ويبعث لها الوزراء والأمراء بالهدايا والتحف متى كانت بها. ووجدت بها أخت السلطانة، وزوجها الخطيب محمد ابن الوزير جمال الدين، وأمها التى كانت زوجتى. فجاء الخطيب إلىّ وأتوا بالطعام. ومرّ بعض أهل الجزيرة على الوزير عبد الله فأعلموه بقدومى، فسأل عن حالى وعمن قدم معى، وأخبر أنى جئت لحمل ولدى، وكانت سنه نحو عامين. وأتته أمه تشكو ذلك فقال لها: أنا لا أمنعه من حمل ولده. وصادرنى فى دخول الجزيرة، وأنزلنى بدار تقابل برج قصره ليطّلع على حالى، وبعث إلىّ بكسوة كاملة، وبالتَّانْبُول وماء الورد على عادتهم.

(١) جمع زوادة وهى ما يحمله المسافر من الزاد أو غيره — ولم تر هذا فى كتب اللغة.

وجئت بثو بى حرير للرمى عند السلام ، فأخذوهما ، ولم يخرج الوزير إلى ذلك اليوم . وأُتى إلىّ بولدى فظهر لى أن إقامته معهم خير له ، فرددته إليهم .

وأقمت خمسة أيام ، وظهر لى أن تعجيل السفر أولى . فطلبت الإذن فى ذلك . فاستدعانى الوزير ودخلت عليه ، وأتونى بالثوبين اللذين أخذوهما منى ، فرميتهما عند السلام على العادة . وأجلسنى إلى جانبه وسألنى عن حالى ، وأكلت معه الطعام ، وغسلت يدى معه فى الطَّسْت . وذلك شىء لا يفعله مع أحد . وأتوا بالتَّانَبُول وانصرفت . وبعث إلى بأثواب ، وأحسن أفعاله وأجمل .

وسافرت فأقمنا على ظهر البحر ثلاثا وأربعين ليلة . ثم وصلنا إلى بلاد بَنْجالة ، وهى بلاد متسعة كثيرة الأرز . ولم أر فى الدنيا أرخص أسعارا منها . لكنها مظلمة . رأيت الأرز يباع فى أسواقها خمسة وعشرين رطلا دِهْلية بدينار فِضّى ، والدينار الفضى هو ثمانية دراهم ، والرطل الدِّهْلى عشرون رطلا مغربيا . وسمعتهم يقولون إن ذلك غلاء عندهم . وحدثنى محمد المَصْمُودى المغربىّ ، وكان من الصالحين ، وسكن هذا البلد قديما ، ومات عندى بدهلى ، أنه كانت له زوجة وخادم ، فكان يشترى قوت ثلاثتهم فى السنة بثمانية دراهم ، وأنه كان يشترى الأرز فى قِشره بحساب ثمانين رطلا دهلية بثمانية دراهم . فإذا دقّه خرج منه خمسون رطلا صافية ، وهى عشرة قناطير . ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة . وبقرهم الجواميس . ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد ، وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم . ورأيت الكَبْش السمين يباع بدرهمين ، ورطل السكر بأربعة دراهم ، وهو رطل دهلى ،

ورطل السمن بأربعة دراهم . ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذى ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين . ورأيت الجارية تباع بدينار من الذهب واحد ، وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربىّ . واشتريت بنحو هذه القيمة جارية . واشترى بعض أصحابى غلاما صغير السن حسنا اسمه لؤلؤ ، بدينارين من الذهب .

وأول مدينة دخلنا من بلاد بنجالة مدينة سُدْكاوان. وهى مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم . ويجتمع بها نهر الكنْك الذى يحج إليه الهنود ، ونهر الجُون . ويصبان فى البحر . ولهم فى النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللَّكْنَوَتِى .

ذكر سلطان بَنْجالة

وهو السلطان فخر الدين ، سلطان فاضل محب للغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوِّفة . وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَبَن ، وهو الذى ولى ولده معز الدين الملك بدِهْلى ، فتوجه لقتاله والتقيا بالنهر ، وسمى لقاؤهما لقاء السَّعْدين . وقد ذكرنا ذلك ، وأنه ترك الملك لولده وعاد إلى بَنْجالة ، فأقام بها إلى أن توفى ، وولِى ابنه شمس الدين إلى أن توفى ، فولِى ابنه شهاب الدين إلى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بَهَا دُوربُور ، فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياثِ الدين تُغْلُق فنصره ، وأخذ بَهَا دُوربُور أسيرا . ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك ، على أن يقاسمه ملكه ، فنكث عليه فقاتله حتى قتله ، وولّى على هذه البلاد صِهرا له ، فقتله العسكر ، واستولى على ملكها على شاه وهو إذ ذاك ببلاد اللَّكْنَوَتِى .

فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين

وهو مولى لهم ، خالف بسُدْكَاوان و بلاد بَنْجالة ، واستقل بالملك . واشتدت الفتنة بينه و بين على شـاه . فإذا كانت أيام الشتاء والوَحَل أغار فخر الدين على بلاد اللَّكْنَوْتِى فى البحر لقوته فيه ، و إذا عادت الأيام التى لا مطر فيها ، أغار على شاه على بَنْجالة فى البر لقوته فيه .

حكاية

وانتهى حب الفقراء بالسلطان فخر الدين ، إلى أن جعل أحدهم نائبا عنه فى الملك بسُدْكَاوان ، وكان يسمى شَيْدا . وخرج إلى قتال عدوّ له ، فخالف عليه شَيْدا ، وأراد الاستبداد بالملك ، وقتل ولد السلطان فخـر الدين ، ولم يكن له ولد غيره . فعلم بذلك فكرّ عائدا إلى حضرته ، ففر شَيْدا ومن اتبعه إلى مدينة سُنُرْكاوان وهى منيعة . فبعث السلطان بالعساكر إلى حِصاره ، فخاف أهلها على أنفسهم ، فقبضوا على شَـيْدا وبعثوه إلى عسكر السلطان ، فكتبوا إليه بأمره ، فأمرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه ، وقتل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء .

ولمـا دخلت سُدْكاوان لم أر سلطانها ولا لقيته ، لأنه مخالف على ملك الهند . فخفت عاقبة ذلك ، وسافرت من سُدْكاوان بقصد جبال كَامْرُو . و بينهـا و بين سُدْكاوان مسيرة شهر . وهى جبال متسعة متصـلة بالصين ، وتتصل أيضا ببلاد التُّبَّت ، حيث غزلان المسك . وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ، ولهم قوة على الخدمة . والغلام منهم يساوى أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم . وهم مشهورون بمعاناة السحر والاشـتغال به . وكان قصــدى بالمسير إلى هـذه الجبال لقاء ولىّ من الأولياء بها ، وهو الشيخ جلال الدين التَّبْرِيزى .

ذكر الشيخ جلال الدين

وهذا الشيخ من كبار الأولياء ، له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة . وهو من المُعَمَّرين . أخبرني رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد . وكان بها حين قَتْله . وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات وهو ابن مائة وخمسين ، وأنه كان له نحو أربعين سنة يَسْرُد الصوم[١] ولا يفطر إلا بعد مواصلة عشر . وكانت له بقرة يفطر على حليبها ، ويقوم الليل كله . وكان نحيف الجسم طُوَالا ، خفيف العارضين . وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ، ولذلك أقام بينهم .

كرامة له

أخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد ، وأوصاهم بتقوى الله وقال لهم : إني أسافر عنكم غدا إن شاء الله ، وخليفتي عليكم الله الذي لا إله إلا هو . فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سَجْدة منها . ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبرا محفورا ، عليه الكفن والحَنُوط . فغسلوه وكفنوه ، وصلوا عليه ودفنوه به . رحمه الله .

كرامة له أيضا

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه ، فأخبروني أن الشيخ قال للفقراء الذين معه : قد جاءكم

---

(١) يسرد الصوم : يواصله .

سائح المغرب فاستقبلوه ، وأنهم أتوا لذلك بأمر الشيخ ، ولم يكن عنده علم بشيء من أمرى ، وإنما كوشف به(١). وسرت معهم إلى الشيخ ، فوصلت إلى زاويته خارج الغار . ولا عمارة عندها . وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ، ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون . وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر ، كما قدمناه . ولما دخلت عليه قام إلىّ وعانقنى ، وسألنى عن بلادى وأسفارى فأخبرته . فقال لى : أنت مسافر العرب . فقال له من حضر من أصحابه : والعجم ياسيدنا . فقال : والعجم ، فأكْرِموه . فاحتملونى إلى الزاوية وأضافونى ثلاثة أيام .

حكاية عجيبة فى ضمنها كرامات له

ولما كان يوم دخولى على الشيخ رأيت عليه فرجيـة مِرْعِزّ فأعجبتنى ، وقلت فى نفسى : ليت الشيخ يعطينيها . فلما دخلت عليه للوَداع قام إلى جانب الغار ، وجرّد الفرجية وألبسنيها مع طاقية(٢) من رأسه ، ولبس مرقعة . فأخبرنى الفقراء أن الشيخ لم تكن عادته أن يلبس تلك الفرجية ، وإنما لبسها عند قدومى ، وأنه قال لهم : هـذه الفرجية يطلبها المغربىّ ويأخذها منه سلطان كافر ، ويعطيها أخانا برهان الدين الصّاغَرْجى ، وهى له وبرسْمه كانت . فلما أخبرنى الفقراء بذلك ، قلت لهم : قد حصلت لى بركة الشيخ بأن كسانى لباسه . وانصرفت عن الشيخ . فاتفق لى بعد مدة طويلة أنى دخلت بلاد الصين ، وانتهيت إلى مدينة الخَنْسَا ، فافترق منى أصحابى لكثرة الزحام ،

(١) أطلعه الله عليه . وقد سبق فى الحواشى بيان نظر الإسلام إلى مثل هذا .

(٢) يراد بها نوع من القلانس . ولا نعرف أنها عربية بهذ المعنى .

وكانت الفرجية عليّ . فبينا أنا فى بعض الطرق إذ بالوزير فى مَوْكب عظيم ، فوقع بصره عليّ فاستدعانى وأخذ بيدى ، وسألنى عن مَقْدَمى ولم يفارقنى حتى وصلت إلى دار السلطان معه. فأردت الانفصال ، فمنعنى وأدخلنى على السلطان ، فسألنى عن سلاطين الإسلام فأجبته . ونظر إلى الفرجية فاستحسنها . فقال لى الوزير : جَرِّدها ، فلم يمكنى خلاف ذلك . فأخذها وأمر لى بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة . وتغير خاطرى لذلك . ثم تذكرت قول الشيخ : إنه يأخذها سلطان كافر ، فطال عجبى من ذلك .

ولما كان فى السنة الأخرى ، دخلت دار ملك الصين بخَانْ بالِق (١) فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصَّاغَرْجى ، فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها . فعجبت من ذلك وقلبتها بيدى . فقال لى : لم تقلبها وأنت تعرفها ؟ فقلت له : نعم هى التى أخذها منى سلطان الخَنْسَا ، فقال لى : هذه الفرجية صنعها أخى جلال الدين برسمى ، وكتب إلىّ أن الفرجية تصلك على يد فلان. ثم أخرج لى الكتاب فقرأته ، وعجبت من صدق يقين الشيخ ، وأعلمته بأول الحكاية . فقال لى : أخى جلال الدين أكبر من ذلك كله ، وقد انتقل إلى رحمة الله. ثم قال لى: (بلغنى أنه كان يصلى الصبح كل يوم بمكة ، وأنه يحج كل عام ، لأنه كان يغيب عن الناس يومى عرفة والعيد ، فلا يُعْرف أين ذهب) (٢). ولما ودّعت الشيخ جلال الدين سافرت إلى مدينة حَبْنَق ، وهى من أكبر المدن وأحسنها ، يشقها النهر الذى ينزل من جبال كَامَرُو . ويسمى النهر الأزرق . ويسافر فيه إلى بَنْجالة وبلاد اللَّكْنَوتى. وعليه النواعير

(١) بكين .

(٢) ما بين القوسين من الخرافات التى لا يمكن أن يتصورها العقل ، كما هو واضح . وكل ما أخبر به ابن بطوطة مما رآه من كرامات الشيخ جلال الدين إنما هو على عهدته .

والبساتين والقرى يَمْنَة ويَسْرَة ، كما هي على نيل مصر . وأهلها كفار تحت الذمة . يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ، ووظائف[1] سوى ذلك .

وسافرنا فى هذا النهر خمسة عشر يوما بين القرى والبساتين . فكأنا نمشى فى سوق من الأسواق . وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة ، وفى كل مركب منها طبل . فإذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله ، وسلّم بعضهم على بعض . وأمر السلطان فخر الدين أن يُعْطَى مَنْ لا زاد له زادا . وإذا وصل الفقير إلى مدينة أعطى نصف دينار .

وبعد خمسة عشر يوما من سفرنا فى النهر كما ذكرناه ، وصلنا إلى مدينة سُنُرْكاوان ، فوجدنا بها (جُنكا) يريد السفر إلى بلاد الجاوة . وبينهما أربعون يوما . فركبنا فيه ووصلنا بعد خمسة عشر يوما إلى بلاد البَرَهْنَكار الذين أفواههم كأفواه الكلاب . وهذه الطائفة من الهمَج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره . وسكناهم فى بيوت قصب مسقوفة بحشيش الأرض على شاطىء البحر . وعندهم من أشجار الموز والفَوْفَل والتَّانَبُول كثير . ورجالهم على مثل صورتنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب . وأما نساؤهم فلسن كذلك ، ولهن جمال بارع . ورجالهم لا يستترون ، وتستتر نساؤهم بأوراق الشجر . ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بَنْجالة والجاوة ، ساكنون فى حارة على حِدَة . وإنما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ، ويسوقون إليهم الماء على الفيلة لأنه بعيد من الساحل .

والفيلة كثيرة عندهم . ولهم كلام غريب لا يفقهه إلا من ساكنهم وأكثر التردد إليهم . ولما وصلنا إلى ساحلهم أتوا إلينا فى قوارب صغار ، كل قارب من خشبة واحدة منحوتة . وجاءوا بالموز والأرز والتَّانَبُول والفَوْفَل والسمك .

---

(١) مكوس

ذكر سلطانهم

وأتى إلينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شِبْه بَرْدعة من الجلود . ولباس السلطان ثوب من جلود المَعَز ، وقد جعل الوبر إلى خارج . وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات . وفى يده حَرْبة من القصب . ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة . فبعثنا إليه هدية من الفلفل والزَّنجبيل والقِرْفة والحيتان التى تكون بجزائر ذِيبة المَهَل ، وأثوابا بَنْجالية . وهم لا يلبسونها ، وإنما يكسونها الفيلة فى أيام عيدهم .

ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك ، وثياب لكسوة الفيل ، وَحَلْى ذهب تجعله زوجته فى مَحْزِمها وأصابع رجليها . ثم سافرنا عن هؤلاء . وبعد خمسة وعشرين يوما وصلنا إلى جزيرة الجاوة ، وهى التى ينسب اليها اللُّبان الجاوىّ . رأيناها على مسيرة نصف يوم . وهى خَضِرَة نَضْرة . وأكثر أشجارها النارَجيل والفَوْفَل والقَرَنْفُل والعود الهندى والنارَنْج الحلو (١) وقصب الكافور والعنْبة . وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قَصْدير ، وبالذهب الصينى التبر غير المسبوك .

والكثير من أفاويه الطيب التى ببلاد الكفار إنما هو منها . وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك . ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها فى مراكب صغار ، ومعهم جوز النّارَجيل والموز والسمك . وعادتهم أن يُهْدوا ذلك للتجار ، فيكافئهم كل إنسان على قدره . وصعد إلينا نائب صاحب البحر ، وشاهد من معنا من التجار ، وأذِن لنا فى النزول إلى البر ، فنزلنا إلى البَنْدَر ، وهى قرية كبيرة على ساحل البحر . وبينها وبين البلد أربعة أميال . ثم كتب بَهْرُوز نائب صاحب البحر إلى السلطان ، فعرفه بقدومى ، فأمر الأمير

---

(١) البرتقال .

دَوْلَسَة بلقابى ، والقاضى الشريف أميرسيد الشِيرازىّ وتاج الدين الأَصْبَهانىّ ، وســواهم من الفقهاء ، فخرجوا لذلك وجاءوا بفرس من مراكب السلطان وأفراس سواه ، فركبت وركب أصحابى ودخلنا حضرة السلطان ، وهى مدينة سُمُطْرة ، مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وأبراج خشب .

ذكر سلطان الجاوة

وهو السلطان الملك الظاهر ، من فضلاء الملوك وكرمائهم ، شافعىّ المذهب ، محب للفقهاء ، يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة . وهو كثير الجهاد والغزو متواضع ، يأتى إلى صلاة الجمعــة ماشيا على قدميه . وأهل بلاده شافعية محبون للجهاد ، يخرجون معه طوعا . وهم غالبون على من يليهم من الكفار . والكفار يعطونهم الجزية على الصلح .

ذكر دخولنا داره وإحسانه إلينا

ولمـا قصدنا إلى دار السلطان وجدنا بالقـرب منها رِماحا مركوزة عن جانبى الطريق ، وهى علامة على نزول الناس ، فلا يتجاوزها من كان راكبا . فنزلنا عندها ودخلنا (المشور) ، فوجدنا نائب السلطان ، وهو يسمى عمــدة الملك . فقام إلينا وسلم علينا . وسلامهم بالمصافحة . وقعدنا معه ، وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك ، وختمها ودفعهـا لبعض الفتيان ، فأتاه الجواب على ظهرها . ثم جاء رجل (ببُقْشَة) فأخذها النائب بيده ، وأخذ بيدى وأدخلنى إلى دُوَيرة ، وهى موضع راحته بالنهار ، فإن العادة أن يأتى السلطان إلى (المشور) بعد الصبح ، ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخرة .

وكذلك الوزراء والأمراء الكبار . وأخرج من (البُقْشَة) ثلاث فُوَط ، إحداها من خالص الحرير ، والأخرى حرير وقطن ، وأخرى حرير وكَتّان . وأخرج ثلاثة أثواب من جنس الفوط . وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس ، وأخرج ثلاثة أثواب من (الأرمك[1]) أحدها أبيض. وأخرج ثلاث عمائم. فلبست فوطة منها وثوبا من كل جنس . وأخذ أصحابى ما بقى منها .

ثم جاءوا بالطعام وأكثره الأرز . ثم أتوا بنوع من الفُقَّاع ، ثم أتوا بالتَّانَبُول ، وهو علامة الانصراف . فأخذناه وقمنا ، وقام النائب لقيامنا . وخرجنا عن (المشور) ، فركبنا وركب النائب معنا ، وأتوا بنا إلى بستان عليه حائط خشب ، وفى وسطه دار بناؤها بالخشب ، مفروشة بقطائف قطن ، منها مصبوغ وغير مصبوغ . وفى البيت أَسِرَّة من الخَيزُران ، فوقها مُضَرَّبات [2] من الحرير ، ولُحُف خِفاف ، ومَخَادّ . فجلسنا بالدار ومعنا النائب . ثم جاء الأمير دَوْلَسة بجاريتين وخادمين . وقال لى : يقول لك السلطان : هذه على قدرنا لا على قدر السلطان محمد . ثم خرج النائب ، وبقى الأمير دولسة عندى ، وكانت بينى وبينه معرفة ، لأنه كان ورد رسولا على السلطان بدهلى . فقلت له : متى تكون رؤية السلطان ؟ فقال لى : إن العادة عندنا ألا يسلم القادم على السلطان إلا بعد ثلاثة ، ليذهب عنه تعب السفر ويثوب إليه ذهنه .

فأقمنا ثلاثة أيام يأتى إلينا الطعام ثلاث مرات فى اليوم ، وتأتينا الفواكه والطُّرَف مساء وصباحا . فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتانى الأمير دَوْلَسة فقال لى : يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع

(١) الكتان بلغتهم .

(٢) يظهر أنه يريد بها الحشايا ، جمع حَشِيّة للفراش المحشو . أما كلمة (المضربات) لهذا المعنى فغير عربية فيما نعلم . وقد سبق فى الحواشى مثل هذا التعليق .

بعد الصلاة . فأتيت المسجد وصليت به الجمعة مع حاجبه . ثم دخلت على السلطان ، فوجدت القاضى أمير سيد ، والطلبة عن يمينه وشماله . فصافحنى وسلمت عليه ، وأجلسنى عن يساره ، وسألنى عن السلطان محمد وعن أسفارى ، فأجبته . وعاد إلى المذاكرة فى الفقه على مذهب الشافعى . ولم يزل كذلك إلى صلاة العصر . فلما صلاها دخل بيتا هنالك ، فنزع الثياب التى كانت عليه وهى ثياب الفقهاء . وبها يأتى المسجد يوم الجمعة ماشيا . ثم لبس ثياب الملك ، وهى الأقبية من الحرير والقطن .

ذكر انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه

ولما خرج من المسجد وجد الفيلة والخيل على بابه . والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل ركب من معه الخيل . وإذا ركب الفرس ركبوا الفيلة ، ويكون أهل العلم عن يمينه . فركب ذلك اليوم على الفيل ، وركبنا الخيل ، وسرنا معه إلى (المشور) ، فنزلنا حيث العادة ، ودخل السلطان راكبا ، وقد اصطف فى (المشور) الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفا . فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب . ووزراؤه أربعة . فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ، ثم صف الأمراء ، فسلموا ومضوا إلى مواقفهم . وكذلك تفعل كل طائفة . ثم صف الشرفاء والفقهاء ، ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ، ثم صف وجوه العسكر ، ثم صف الفتيان والمماليك . ووقف السلطان على فيله إزاء قبة الجلوس ، ورفع فوق رأسه (شَطْر) مرصع . وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة ، وعن شماله مثلها ، وعن يمينه أيضا مائة فرس ، وعن شماله مثلها . ووقف بين يديه خواص الحجاب . ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه . وأتى بخيل مجللة بالحرير ، لها خلاخيل ذهب وأَرْسان حرير مزركشة ، فرقصت الخيل بين يديه ، فعجبت من شأنها . وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند . ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره ، وانصرف الناس إلى منازلهم .

وكانت إقامتى عنده بِسُمُطْرة خمسة عشر يوما . ثم طلبت منه السفر ، إذ كان أوانه ، ولا يتهيَّأ السفر إلى الصين فى كل وقت . فجهّز لنا (جُنْكا) وزوّدنا وأحْسنَ وأجمل . جزاه الله خيرا . وسافرنا بطول بلاه إحدى وعشرين ليلة ، ثم وصلنا إلى مُلْ جَاوة ، وهى من بلاد الكفار . وطولها مسيرة شهرين . وبها الأفاويه العَطِرة . ولنذكر ماشاهدناه منها ، ووقفنا على أعيانه وحققناه .

ذكر اللُّبان

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى مادون ذلك ، وأغصانها كأغصان (الخرشف)[1] ، وأوراقها صغار رقاق . وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة . واللبان صمغية تكون فى أغصانها .

ذكر الكافور

وأما شجر الكافور فهى قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ . ويكون الكافور فى داخل الأنابيب . فإذا كسرت القصبة وجد فى داخل الأُنْبوب مثل شكله من الكافور .

ذكر العود الهندى

وأما العود الهندى فشجره يشبه شجر البَلُّوط ، إلا أن قشره رقيق . وأوراقه كاوراق البلوط سواء . ولا ثمر له ، وشجرته لاتعظم كلّ العظم . وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العَطِرة . وأما عيدان شجرته وورقها فلا عِطْريّة فيها . وكل مابلاد المسلمين من شجره فهو متملك . وأما الذى فى بلاد الكفار فأكثره غير متملك . والمتملك منه ما كان بقَاقُلّة[2] ، وهو أطيب العود . وكذلك القَمَارِى[3] وهو أطيب أنواع العود . ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب .

(١) لعله مايسمى (بالخرشوف) الآن . ولم نقف على كلمة (الخرشف) فيما لدينا من المراجع .

(٢) قال فى القاموس : القاقُلّة ثمر نبات هندىّ من العطر والأفاويه اهـ ولعله سمى باسم البلد .

(٣) نسبة الى قَمَار بلد بالهند مشهور به .

ذكر القَرَنْفُل

وأما أشجـار القرنفل فهى ضخمة ، وهى ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام . وليست بمتملكة لكثرتها . والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان . والذى يسميه أهل بلادنا نَوْر القرنفل هو الذى يسـقط من زهره ، وهو شبيه بزهر النَّارَنْج . وثمر القرنفل هو المعروف فى بلادنا بجوز الطيب ، رأيت ذلك كله وشاهدته .

ووصلنا إلى مرسى قاقُلَّة ، فوجدنا به جملة من (الجُنُوك) معدَّة للسرقة ، لمن يستعصى عليهم من (الجنوك)، فإن لهم على كل (جُنْك) وظيفة . ثم نزلنا من (الجنك) إلى مدينة قاقُلَّة ، وهى مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة ، عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة . وأول ما رأيت بخارجها والفيلة عليها الأحمال من العود الهنـدى ، يُوقِدُونه فى بيوتهم . وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنا . هـذا إذا ابتاعوه فيما بينهم . وأما للتجار فيبيعون الحمل منـه بثوب من ثيـاب القطن ، وهى أغلى عندهم من ثياب الحرير . والفِيَلة بها كثيرة جدا ، عليهـا يركبون ويحملون . وكل إنسان يربط فِيلته على بابه . وكل صاحب حانوت يَرْبِط فيله عنده ، ويركبه إلى داره . وكذلك جميع أهل الصين والخِطا على مثل هذا الترتيب .

ذكر سلطان مُلْ جاوة

وهو كافر رأيته خارج قصره جالسا على قبة، وليس بينه وبين الأرض بساط . ومعه ارباب دولته . والعساكر يعرضون عليه مشاة . ولا خيل هنالك إلا عند السلطان . وإنمـا يركبون الفيلة وعليها يقاتلون . فعرف شأنى فاستدعانى ، فجئت وقلت : السلام على من اتبع الهدى . فلم يفقهوا إلا لفظ السلام .

فرحَّب بى، وأمر أن يفرش لى ثوب أقعد عليه . فقلت للتُّرجمان : كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض؟ فقال : هكذا عادته يقعد على الأرض تواضعا ، وأنت ضيف وجئت من سلطان كبير ، فيجب إكرامك . فجلست ، وسألنى عن السلطان فأوجز فى سؤاله . وقال لى : تقيم عندنا فى الضيافة ثلاثة أيام ، وحينئذ يكون انصرافك .

ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه

ورأيت فى مجلس هـذا السلطان رجلا بيده سكين ، قد وضعه على رقبة نفسه، وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ، ثم أمسك السكين بيديه معا ، وقطع عنق نفسه ، فوقع رأسه لحدة السكين ، وشدة إمساكه بالأرض . فعجبت من شأنه . وقال لى السلطان : أيفعل أحد هذا عندكم ؟ فقلت له : ما رأيت هذا قط . فضحك وقال : هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم فى محبتنا . وأمر به فرفع وأحرق . وخرج لإحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا ! وأُجْرِى الرزق الواسع على أولاده وأهله وإخوانه ، وعُظِّموا لأجل فعله . وأخبرنى من كان حاضرا فى ذلك المجلس أن الكلام الذى تكلم به كان تقريرا لمحبته للسلطان ، وأنه يقتل نفسه فى حبه ، كما قتل أبوه نفسه فى حب أبيه ، وجدُّه نفسه فى حب جده . ثم انصرفت عن المجلس ، وبعث إلى بضيافة ثلاثة أيام .

وسافرنا فى البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوما إلى البحر الكاهل [1] وهو الراكد . ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع اتساعه . ولأجل هـذا البحر تتبع كل (جنك) من (جنوك) الصين ثلاثة مراكب كما ذكرناه، تجْذف

(١) ليس فى كتب اللغة التى بين أيدينا أن الكاهل يكون بمعنى الراكد .

به فتجره. ويكون فى (الجنك) مع ذلك نحو عشرين مِجذافا كِبارا كالصوارى، يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلا أو نحوهم، ويقومون قياما صفين، كل صف يقابل الآخر. وفى المجذاف حبلان عظيمان، فتجذف إحدى الطائفتين الحبل ثم تتركه، وتجذف الطائفة الأخرى، وهم يغنون عند ذلك بأصواتهم الحسان.

وأقمنا على ظهر هـذا البحر سبعة وثلاثين يوما، وعجبت البحْرِية من التسهيل فيه، فإنهم يقيمون فيه خمسين يوما إلى أربعين، وهى أنْهَى ما يكون من التيسير عليهم. ثم وصلنا إلى بلاد طَوَالِسِى [1]، وهى بلاد عريضة، وملكها يضاهى مَلِك الصين، وله الجنوك الكثيرة، يقاتل بها أهـل الصين، حتى يصالحوه على شىء. وأهل هـذه البلاد عبدة أوثان، حسان الصور، أشبه الناس بالترك فى صورهم. والغالب على ألوانهم الحمرة، ولهم شجاعة ونجدة. ونساؤهم يركبن الخيل، ويحسنَّ الرِّماية، ويقاتلن كالرجال سواء. وأرسينا من مراسيهم بمدينة كَيْلُوكَرِى، وهى من أحسن مدنهم وأكبرها. وكان يسكن بها ابن ملكهم. فلما أرسينا بالمرسى جاءت عساكرهم، ونزل (الناخُذاة) إليهم ومعه هدية لابن الملك، فسألهم عنه فأخبروه أن أباه ولاه بلدا غيرهم، وولى بنته بتلك المدينة واسمها أُرْدُجَا.

ذكر هذه الملكة

ولمـا كان اليوم الثانى من حلولنا بمرسى كَيْلُوكَرِى، استدعت هذه الملكة (الناخُذاة) صاحب المركب، والكاتب والتجار والرؤساء، ومقدّم الرجال ومقدّم الرُّماة، لضيافة صنعتها لهم على عادتهـا. ورغب (الناخُذاة) منى أن أحضر

---

(١) طوالسى هو اسم ملك هذه البلاد.

معهم ، فأبيت لأنهم كفار لا يجوز أكل طعامهم . فلما حضروا عندها قالت لهم : هل بقى أحد منكم لم يحضر ؟ فقال لها (الناخُذَاة) : لم يبق إلا رجل واحد وهو القـاضى ، وهو لا يأكل طعامكم . فقـالت ادعوه ، بجاء جنادرتها(١) وأصحاب (الناخداة) ، فقالوا : أجب الملكة . فأتيتها وهى بمجلسها الأعظم ، وبين يديها نسوة ، وحولها النساء القواعد ، وهن وزيراتها . وقد جلسن تحت السرير على كراسىّ الصندل ، وبين يديهما الرجال .

ومجلسها مفروش بالحرير ، وعليه ستور حرير ، وخشبه من الصندل ، وعليه صفائح الذهب . وبالمجلس مصاطب خشب منقوش ، عليها أوانى ذهب كثيرة ، من كبار وصغار كالخوابى والقِلال ، أخبرنى (الناخُذَاة) أنها مملوءة بشراب مصنوع من السكر ، مخلوط بالأفاويه ، يشربونه بعد الطعام ، وأنه عَطِر الرائحة ، حلو المطعم ، يفرح ويَهْضِم . فلما سلمت على الملكة قالت لى بالتركية : كيف حالك ، كيف أنت ؟ وأجلستنى على قرب منهـا ، وكانت تحسن الكتاب العربىّ . فقالت لبعض خدامها : الدواة والكاغَد . فأتى بذلك ، فكتبت فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . فقالت : ماهذا ؟ فقلت لهـا : اسم الله . فقالت : جيد . ثم سألتنى من أى البلاد قدمت ؟ فقلت لها : من بلاد الهند ، فقالت : بلاد الفلفل ؟ فقلت نعم . فسألتنى عن تلك البلاد وأخبارها ، فأجبتها . فقالت : لا بد أن أغزوها وآخذها لنفسى ، فإنى يعجبنى كثرة مالها وعساكرها . فقلت لها : افعلى . وأمرت لى بأثواب وحمل فيلين من الأرز ، وبجاموستين وعشرة من الضأن ، وأربعة أرطال جُلَّاب ، وأربعـة (مَرْطَبَانات) ، وهى أوان ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعَنْبا(٢) ، كل ذلك مملوح مما يُعَدّ للبحر .

---

(١) يريد أعوانها . والكلمة غير عربية .

(٢) المنجو ، كما سبق . والعنبا غير عربية . وقد رسمها ابن بطوطة تارة بالألف وتارة بالهاء . راجع ص ١٥ .

وأخبرنى (الناخُذَاة) أن هذه الملكة لها فى عسكرها نسوة وخوادم وجوار يقاتلن كالرجال، وأنها تخرج فى العساكر من رجال ونساء، فتغير على عدوها، وتشاهد القتال وتبارز الأبطال. وأخبرنى أنها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد، وقُتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون، فدفعت بنفسها، وخرقت الجيوش، حتى وصلت إلى الملك الذى كانت تقاتله، فطعنته طعنة كان فيها حَتْفه، فمات وانهزمت عساكره، وجاءت برأسه على رمح، فافتكَّه أهله منها بمال كثير. فلما عادت إلى أبيها ملَّكها تلك المدينـة التى كانت بيد أخيها. وأخبرنى أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول: لا أتزوج إلا من يبارزنى فيغلبنى، فيتحامون مبارزتها خوف المعرَّة إن غلبتهم.

ثم سافرنا عن بلاد طَوَالِسِى فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والريح مساعدة لنا، ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه، إلى بلاد الصين.

وإقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة، لا يضاهيه فى ذلك إقليم من أقاليم الأرض. ويخترقه النهر المعروف (بآب حياة) ومعنى ذلك ماء الحياة. ومنبعه من جبال تسمى (كُوه بُوزْنَة)، ومعناه جبل القرود. ويمر فى وسط الصين مسيرة ستة أشهر، إلى أن ينتهى إلى صين الصين. وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر، إلا أن هـذا أكثر عمارة. وعليه النواعير الكثيرة. وببلاد الصين السكر الكثير، مما يضاهى المصرى بل يَفْضُله، والأعناب والإجّاص. وكنت أظن أن الإجاص العثمانى الذى بدمشق لا نظير له، حتى رأيت الإجاص الذى بالصين. وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خُوَارَزْم وأصْفَهان. وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بهـا ما هو مثله وأحسن منه. والقمح بها كثير جدا. ولم أر قمحا أطيب منه. وكذلك العَدَس والحِمَّص.

ذكر الفَخَّار الصينى

وأما الفخار الصينىّ فلا يصنع منها إلا بمدينة الزيتون، وبصين كلان . وهو من تراب جبال هنالك، تَقِد فيه النار كالفحم . وسنذكر ذلك . ويضيفون إليه حجارة عندهم ، ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ، ثم يصبون عليها المـاء، فيعود الجميع ترابا ، ثم يُخَمِّرونه . فالجيد منه ما خُمِّر شهرا كاملا . ولا يزاد على ذلك . والدون ما خمر عشرة أيام . وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمنا . ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم ، حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب ، وهو أبدع أنواع الفخار .

ذكر دَجاج الصين

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جدا ، أضخم من الإوَزّ عندنا . وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الإوز عندنا . وأما الإوز عندهم فلا ضخامة لها . ولقد اشترينا دجاجة فأردنا طبخها ، فلم يسع لحمَها بُرْمةٌ واحدة ، فجعلناها فى برمتين . ويكون الديك بها على قدر النعامة . وأول ما رأيت الديك الصينى بمدينة كَوْلَم فظننته نعامة ، وعجبت منه : فقال لى صاحبه : إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه . فلمـا وصلت إلى الصين رأيت مصْداق ما أخبرنى به من ذلك .

ذكر بعض من أحوال أهل الصين

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ، ويُحرِقون موتاهم كما تفعل الهنود . وملك الصين تَتَرِىّ من ذرية تَنكِيزخان . وفى كل مدينـة من مدن الصين

مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم . ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها . وهم معظمون محترمون . وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ، ويبيعونها فى أسواقهم . وهم أهل رفاهية وسعة عيش ، إلا أنهم لا يحتفلون بمطعم ولا ملبس . وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة . وجميع أهل الصين إنما يحتفلون بأوانى الذهب والفضة . ولكل واحد منهم عُكّاز يعتمد عليه فى المشى . والحرير عندهم كثير جدا ، لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها ، فلا تحتاج إلى كثير مُؤْنة . ولذلك كثر . وهو لباس الفقراء والمساكين بها . ولولا التجار لما كانت له قيمة . ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير . وعادتهم أن يَسْبِك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قِطعا ، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه . ويجعل ذلك على باب داره . ومن كان له خمس قطع منها جعل فى أصبعه خاتما ، ومن كانت له عشر جعل خاتمين ، ومن كان له خمس عشرة سموه (السَّتى) ، وهو بمعنى الكارِمى[1] بمصر .

ذكر دراهم الكاغَد[2] التى بها يبيعون ويشترون

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم . وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يَسْبِكونه قطعا كما ذكرناه . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغَد ، كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بِطابَع السلطان . وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان حملها إلى دار كدار السِكّة عندنا ، فأخذ عوضها جُدُدا ودفع تلك .

(١) فئة من أغنياء التجار فى ذلك العهد ، والكلمة غير عربية .

(٢) من ذلك يظهر أن الصينيين أول من استعمل ورق النقد فى العالم .

ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها . لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قِبَل السلطان. وقد وُكِّل بتلك الدار أميرٌ من كبار الأمراء. وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شىء ، لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه .

ذكر التراب الذى يوقدونه مكان الفحم

وجميع أهل الصين والخطا إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطَّفْل عندنا . ولونه لون الطفل ، تأتى الفيلة بالأحمال منه ، فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا ، ويشعلون النار فيه فيَتّقد كالفحم . وهو أشد حرارة من نار الفحم . وإذا صار رَمادا عجنوه بالماء ويبّسوه وطبخوا به ثانية . ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتنهى . ومن هـذا التراب يصنعون أوانى الفخار الصينى ، ويضيفون إليه حجارة سواه كما ذكرناه .

ذكر ما خُصُّوا به من إحكام الصناعات

وأهل الصين أعظم الأمم إحكاما للصناعات وأشدهم إتقانا لها ، وذلك مشهور من حالهم ، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه . وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه من الروم ولا من سِواهم ، فإن لهم فيه اقتدارا عظيما . ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك ، أنى ما دخلت قط مدينـة من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغِد ، موضوعة فى الأسواق . ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابى ، ونحن على زىّ العِراقيين ، فلمـا عدت من القصر عَشِيّا مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت

صورتى وصــور أصحابى منقوشة فى كاغَد قد ألصقوه بالحائط ، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئا من شَبَهه . وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ، ونحن لم نشعر بذلك . وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمــر بهم . وتنتهى حالهم فى ذلك إلى أن الغريب إذا فعل مايوجب فــراره عنهم ، بعثوا صورته إلى البلاد وبُحث عنه ، فحيثما وُجِد شِبْه تلك الصورة أخذ(١) . قال ابن جُزَىّ : هذا مثل ماحكاه أهل التاريخ من قصة سابور ذى الأكتاف ملك الفُرْس ، حين دخل بلاد الروم متنكرا ، وحضر وليمــة صنعها ملكهم ، وكانت صورته على بعض الأوانى ، فنظر إليها بعض خدّام قيصر ، فانطبقت على صورة سابور . فقــال للملك : إن هذه الصورة تخبرنى أن كسرى معنا فى هذا المجلس . فكان الأمر على ماقاله . وجرى فيه ماهو مسطور فى الكتب .

ذكر عادتهم فى تقييد مافى المراكب

وعادة أهل الصين إذا أراد (جُنْك) من (جنوكهم) السفر، أن يصعد إليه صاحب البحر وكتّابه ، ويكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحْرية . وحينئذ يباح لهم السفر . فإذا عاد (الجنك) إلى الصين صعدوا إليه أيضا ، وقابلوا ماكتبوه بأشخاص الناس. فإن فقدوا أحدا ممن قيدوه طالبوا صاحب (الجنك) به ، فإما أن يأتى ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له ، وإلا أخذ فيــه . فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملى عليهم

(١) هذا مثل ما يعمل فى أرقى البلاد تمدينا الآن .

تفصيلا بجميع ما فيه من السِلَع قليلها وكثيرها . ثم ينزل من فيه ، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ماعندهم . فإن عثروا على سِلْعة قد كُتِمت عنهم عاد (الجنك) بجميع مافيه مالا للمخزن . وذلك نوع من الظلم مارأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين . اللهم إلا أنه كان بالهند مايقرب منه : وهو أن من عُثِر على سِلْعة له قد غاب [1] على مَغْرَمِها أغْرِم أحد عشر مَغْرَما . ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم .

ذكر عادتهم فى منع التجار عن الفساد

وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين ، خُيِّر فى النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين مُعَيَّن ، أو فى الفُنْدُق . فإن أحب النزول عند التاجر ، حُصِر ماله وضَمِنه التاجر المستوطن ، وأنفق عليه منه بالمعروف . فإذا أراد السفر بُحِث عن ماله ، فإن وجد شىء منه قد ضاع أُغْرِمه التاجر المستوطِن الذى ضمنه . وإن أراد النزول بالفندق سلّم ماله لصاحب الفندق وضمنه . وهو يشترى له ما أحب ويحاسبه . وأما إنفاق ماله فى الفساد فشىء لا سبيل له إليه . ويقولون : لا نريد أن يسمع فى بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم فى بلادنا .

---

(١) يريد : تسبب فى ألا يؤخذ عليها مغرم . وهو تعبير غريب .

ذكر حفظهم للمسافرين فى الطريق

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين ، فان الإنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر ، وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها. وترتيب ذلك أن لهم فى كل منزل ببلادهم فُنْدُقا ، عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفُرْسان والرجال . فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة ، جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه ، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين ، وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم . فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه ، فدعا كل إنسان باسمه ، وكتب بها تفسيرا ، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل التالى له ، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا اليه . وإن لم يفعل طالبه بهم . وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم ، من صين الصين إلى خَانْ بَالِق [1] . وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد ، وخصوصا الدجاج والأوز . أما الغنم فهى قليلة عندهم .

ولنعد إلى ذكر سفرنا فنقول : لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون . وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد الصين والهند . ولكنه اسم وضع عليها . وهى مدينة عظيمة كبيرة ، تصنع بها ثياب الكَمْخا [2] والأطلس ، وتعرف بالنسبة إليها . ومرساها من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها ، رأيت به نحو مائة (جُنْك) كبار . وأما الصغار فلا تحصى كثرة . وهو خُور كبير من البحر يدخل فى البر حتى يختلط بالنهر الأعظم . وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض ، وداره فى وسطها ، كمثل ما فى بلدة سِجِلْماسة [3] ببلادنا . وبهذا عظمت بلادهم .

---

(١) بكين كما سبق .

(٢) سبق تفسيرها فى الحواشى .

(٣) مدينة فى جنوب المغرب فى طرف بلاد السودان اه ياقوت ، وستمر بك فيما بعد .

والمسلمون ساكنون بمدينة على حِدَة . وفى يوم وصولى إليها رأيت بها الأمير الذى توجه إلى الهند رسولا بالهدية ، ومضى فى صحبتنا وغرق به (الجُنْك) . فسلّم علىّ وعرّف صاحب الديوان بى ، فأنزلنى فى منزل حسن ، وجاء إلى قاضى المسلمين تاج الدين الأَرْدَوِيلىّ ، وهو من الأفاضل الكرماء ، وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفَهانىّ . وهو من الصلحاء . وجاء إلىّ كبار التجار، وفيهم شرف الدين التَّبريزىّ ، أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومى على الهند ، وأحسنهم معاملة ، حافظ القرآن مكثر للتلاوة . وهؤلاء التجار لسكناهم فى بلاد الكفار إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح ، وقالوا : جاء من أرض الإسلام . وهم يعطونه زكاة أموالهم ، فيعود غنيا كواحد منهم .

وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازَرُونى ، وله زاوية فى خارج البلد ، وإليه يدفع التجار النذور التى يَنْذُرونها[1] للشيخ أبى اسحق الكازَرُونى . ولما عرف صاحب الديوان أخبارى ، كتب إلى (القان) وهو ملكهم الأعظم ، يخبره بقدومى من جهة ملك الهند . فطلبت منه أن يبعث معى من يوصلنى إلى بلاد الصين (صين الصين) . وهم يسمونها صين كَلَان ، لأشاهد تلك البلاد . وهى فى عمالته ، بخلال[2] مايعود جواب القان ، فأجاب إلى ذلك . وبعث معى من أصحابه من يوصلنى . وركبت النهر فى مركب يشبه (أجفان) بلادنا الغَزْوية ، إلا أن الجذافين يَجْذفون فيه قياما ، وجميعهم فى وسط المركب ، والركاب فى المقدم والمؤخر . ويظللون على المركب ثيابا تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكَتَّان وليس به . وهو أرق من القِنَّب . وسافرنا فى هذا النهر سبعة وعشرين يوما . وفى كل يوم نرسو عند الزوال بقرية

(١) النذر لغير الله حرام . وقد ورد مثل هذا فى هذا الكتاب فى غير ما موضع ، ونبهنا عليه .

(٢) يقصد ريثما يعود ، كما سبق مثل هذا التعبير ، وهو غريب .

نشترى بها مانحتاج إليــه ونصلى الظهر. ثم ننزل بالعشىّ إلى أخرى هكذا ، إلى أن وصلنا إلى مدينــة صين كَلان ، وهى مدينة صين الصين . وبها يصنع الفَخّار ، وبالزيتون أيضا. وهنالك يصب نهر (آب حياة) فى البحر. ويسمونه مجمع البحرين . وهى من أكبر المدن وأحسنها أسواقا . ومن أعظم أسواقها سوق الفَخّار ، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين وإلى الهند واليمن . وفى وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لهـا تسعة أبواب ، فى داخل كل باب (أسطوان) ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها. وبين البابين الثانى والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزّمانات[١]. ولكل واحد منهم نفقته وكُسْوته من أوقاف الكنيسة . وكذلك فيما بين الأبواب كلها . وفى داخلها المـارَسْتان[٢] للمرضى، والمَطْبَخة[٣] لطبخ الأغذية. وفيها الأطباء والخـدام . وذُكر لى أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة، وكذلك الأيتام والأرامل ممن لا حال[٤] لهم . وعَمَر هذه الكنيسة بعض ملوكهم ، وجعل هـذه المدينـة وما وليها من القرى والبساتين وقفا عليها . وصورة ذلك الملك مصوّرة بالكنيسة . وهم يعبدونها . وفى بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين ، ولهم بهـا المسجد الجامع والزاوية والسوق . ولهم قاض وشـيخ . ولا بد فى كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام ، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه ، وقاض

(١) جمع زمانة وهى العاهة .

(٢) دار المرضى ، معرب .

(٣) سبق التنبيه على أن الصحيح مطبخ لا مطبخة .

(٤) يعنى الفقراء . وهو تعبير غريب .

يقضى بينهم . وكان نزولى عند أوحد الدين السِنْجارى [١] ، وهو أحد الفضلاء الأكابر ، ذو الأموال الطائلة . وأقمت عنده أربعة عشر يوما ، وتُحَفُ القاضى وسائر المسلمين تتوالى علىّ . وكل يوم يصنعون دعوة جديدة و يأتون إليها بالمغنين . وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين .

حكاية عجيبة [٢]

ولما كنت بصين كَلاَن سمعت أن بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتى سنة ، وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يُحْدِث ، مع قوته التامة ، وأنه ساكن فى غار بخارجها يتعبد فيه . فتوجهت إلى الغار فرأيته على بابه . وهو نحيف شديد الحمرة ، عليه أثر العبادة ، ولا لحية له . فسلمت عليه ، فأمسك يدى وشمها . وقال للتَّرْجُمان : هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر . ثم قال لى : لقد رأيت عجبا ، أتذكر يوم قدومك الجزيرة التى فيها الكنيسة والرجل الذى كان جالسا بين الأصنام ، وقد أعطاك عشرة دنانير من الذهب ؟ فقلت نعم . فقال : أنا هو ! فقبلت يده . وفكر ساعة . ثم دخل الغار فلم يخرج إلينا . وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به ، فَتَهَجَّمْنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ، ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت [٣] من الكاغَد فقال : هذه ضيافتكم فانصرفوا . فقلنا له : ننتظر الرجل . فقال : لو أقمتم عشر سنين لم تروه . فإن عادته إذا اطلع أحد على سر من أسراره ألا يراه بعده . ولا تحسب أنه غاب عنك ، بل هو حاضر معك . فعجبت من ذلك وانصرفت ، فأعلمت القاضى وشيخ الإسلام وأوحد الدين السِنْجارى بقضيته . فقالوا : كذلك عادته مع من يأتى إليه من الغرباء . ولا يعلم أحد ما ينتحله من الأديان .

---

(١) نسبة إلى سِنْجار ، بلد مشهور على ثلاثة أيام من الموصل . قاموس .

(٢) فى هذه الحكاية أخبار لا يسهل تصديقها .

(٣) رُقَع من الكاغد يتعامل بها كالنقد ، غير عربية .

والذى ظننتموه أحد أصحابه هو هو . وأخبرونى انه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ، ثم قدم عليها منذ سنة . وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التُّحَف على أقدارهم . و يأتيه الفقراء كل يوم ، فيعطى كل أحد على قدره . وليس فى الغار الذى هو به ما يقع عليه البصر . و إنه يحدِّث عن السنين الماضية . و يذكر النبى صلى الله عليه وسلم و يقول : لو كنت معه لنصرته ، و يذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب بأحسن الذكر ، و يثنى عليهما . و يلعن يزيد بن معاوية . و يقع[1] فى معاوية . وحدثونى عنه بأمور كثيرة . وأخبرنى أوحد الدين السِنْجارى قال : دخلت عليه بالغار فأخذ بيدى ، فخيل لى أنى فى قصر عظيم ، وأنه قاعد فيه على سرير وفوق رأسه تاج ، وعن جانبيه الوصائف الحسان ، والفواكه تتساقط فى أنهار هنالك . وتخيلت أنى أخذت تفاحة لآكلها ، فإذا أنا بالغار بين يديه وهو يضحك منى . وأصابنى مرض شديد لازمنى شهورا فلم أعد إليه . وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم ، لكن لم يره أحد يصلى . وأما الصيام فهو صائم أبدا . وقال لى القاضى : ذكرت له الصلاة فى بعض الأيام فقال لى : أتدرى أنت ما أصنع؟ إن صلاتى غير صلاتك . وأخباره كلها غريبة .

وفى اليوم الثانى من لقائه سافرت راجعا إلى مدينة الزيتون . و بعد وصولى إليها بأيام جاء أمر القان بوصولى إلى حضرته ، على البر والكرامة ، إن شئت فى النهر و إلا ففى البر . فاخترت السفر فى النهر ، فجهزوا لى مركبا حسنا من المراكب المعدة لركوب الأمراء . و بعث الأمير معنا أصحابه . ووجه لنا الأمير والقاضى والتجار المسلمون أزوادا كثيرة . وسرنا فى الضيافة نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى . فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قَنْجَنْفُو ، مدينة كبيرة حسنة فى بسيط أَفْيح ، والبساتين محدقة بها . فكأنها غُوطة[2] دمشق .

(١) يذمه .

(٢) إحدى جنان الدنيا الأربع . وكانت من أنزه بلاد الله وأحسنها منظرا .

وعند وصولنا خرج إلينا القاضى وشيخ الإسلام والتجار ، ومعهم الأعلام والطبول والأبواق و(الأنفار) وأهل الطرب. وأتوا بالخيل فركبنا، ومشوا بين أيدينا ، ولم يركب معنا غير القاضى والشيخ . وخرج أمير البلد وخدامه . وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم . ودخلنا المدينة ، ولها أربعة أسوار . يسكن ما بين السور الأول والثانى عبيد السلطان من حراس المدينة وسُمَّارها(١) . ويسكن ما بين السور الثانى والثالث الجنود المُرْكَبون(٢) والأمير الحاكم على البلد . ويسكن فى داخل السور الثالث المسلمون . وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القُرْلانى . ويسكن فى داخل السور الرابع الصينيون . وهو أعظم المدن الأربع . ومقدار ما بين كل باب منها والذى يليه ثلاثة أميال وأربعة . ولكل إنسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه .

حكاية

وبينا أنا يوما فى دار ظهير الدين القُرْلانِى ، إذْ بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم ، فاستؤذن له علىّ ، وقالوا : مولانا قِوام الدين السَّبْتِى ، فعجبت من اسمه ، ودخل علىّ . فلما حصلت المؤانسة بعد السلام ، سنح لى أنى أعرفه . فأطلت النظر إليه . فقال : أراك تنظر إلىّ نظر من يعرفنى. فقلت له : من أى البلاد أنت ؟ فقال : من سَبْتة . فقلت له : وأنا من طَنْجة . فجدد السلام علىّ ، وبكى حتى بكيت لبكائه . فقلت له : هل دخلت بلاد الهند؟ فقال لى : نعم دخلت حضرة دِهْلى . فلما قال لى ذلك تذكرته ، وقلت : أأنت البُشْرىّ ؟ قال نعم . وكان وصل إلى دهلى مع خاله أبى قاسم المُرْسِىّ . وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه ، من حذاق الطلبة ، يحفظ المُوَطَّأ(٣) .

(١) حُرَّاس الليل ، تسمية اصطلاحية .

(٢) يظهر أنه يريد الركبان .

(٣) كتاب الإمام مالك فى الفقه .

وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره فأعطاه ثلاثة آلاف دينار . وطلب منه الإقامة عنده فأبى . وكان قصده بلاد الصين . فعظم شأنه بها واكتسب الأموال الطائلة . أخبرنى أن له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجوارى . ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان . وكانت إقامتى بِقَنْجَنْفُو خمسة عشر يوما . وسافرت منها .

وبلاد الصين على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبنى ، بل كان خاطرى شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها ، فمتى خرجت عن منزلى رأيت المناكير[1] الكثيرة . فأقلقنى ذلك ، حتى كنت ألازم المنزل فلا أخرج إلا لضرورة . وكنت إذا رأيت المسلمين بها فكأنى لقيت أهلى وأقاربى . ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البُشْرى أَنْ سافر معى لما رحلت عن قَنْجَنْفُو أربعة أيام ، حتى وصلت إلى مدينة بَيْوَمْ قُطْلُو ، مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جُنْد وسوقة . وليس بها للمسلمين إلا أربع من الدور ، أهلها من جهة هذا الفقيه ، نزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام .

ثم ودّعت الفقيه وانصرفت ، فركبت النهر على العادة ، نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى ، إلى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوما منها إلى الخَنْسا . واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة . ولا أدرى أعربى هو أم وافق العربى . وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض . طولها مسيرة ثلاثة أيام . يرحل المسافر فيها وينزل ، وهى على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين : كل أحد له بستانه وداره . وهى منقسمة ست مدن سنذكرها . وعند وصولنا إليها خرج إلينا قاضيها فخر الدين ، وشيخ الإسلام بها ، وأولاد عثمان بن عفان المصرى . وهم كبراء المسلمين بها . ومعهم علم أبيض والأطبال (والأنقار) والأبواق .

---

(١) المعاصى والمفاسد .

وخرج أميرها فى موكبه . ودخلنا المدينة. وهى ست مدن على كل مدينة سور، ويُحْدِق بالجميع سور واحد .

فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم . حدثنى القاضى وسواه أنهم اثنا عشر ألفا فى زمام العسكرية . وبتنا ليلة دخولنا فى دار أميرهم . وفى اليوم الثانى دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود . ويسكن بها اليهود والنصارى ، والترك عبدة الشمس ، وهم كثير . وأمير هذه المدينة من أهل الصين . وبتنا عنده الليلة الثانية . وفى اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ، ويسكنها المسلمون . ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها فى بلاد الإسلام. وبها المساجد والمؤذنون ، سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا . ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصرىّ ، وكان أحد التجار الكبار . وقد استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعُرِفت بالنسبة إليه . وأورث عَقِبه بها الجاه والحُرْمة . وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار للفقراء والإعانة للمحتاجين . ولهم زاوية تعرف بالعثمانية ، حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة ، وبها طائفة من الصوفية . وبنى عثمان المسجد الجامع بهذه المدينة ، ، وقف عليه وعلى الزاوية أوقافا عظيمة . وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير . وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوما . فكنا كل يوم وليلة فى دعوة جديدة ، ولا يزالون يحتفلون فى أطعمتهم ، ويركبون معنا كل يوم للنزهة فى أقطار المدينة . وركبوا معى يوما ، فدخلنا المدينة الرابعة ، وهى دار الإمارة . وبها سكنى الأمير الكبير قُرْطَىْ . ولما دخلنا من بابها ذهب عنى أصحابى ولقينى الوزير ، وذهب بى إلى دار الأمير الكبير قَرْطى، فكان مِن أَخْذه الفرجية التى أعطانيها ولىّ الله جلال الدين الشِيرازى ما قد ذكرته .

وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه . وهى من أحسن المدن الست . ويشقها أنهار ثلاثة : أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم. وتأتى فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوَقْد. وفيه السفن للنزهة . (والمشور)[1] فى وسط هذه المدينة ، وهو كبير جدا ، ودار الإمارة فى وسطه ، وهو يحف بها من جميع الجهات. وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلاتِ الحرب . أخبرنى الأمير قُرْطَىْ أن عددهم ألف وستمائة معلم ، كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين. وهم أجمعون عبيد القان ، وفى أرجلهم القيود. ومساكنهم فى خارج القصر. ويباح لها الخروج إلى أسواق المدينة دون الخروج من بابها . ويعرضون كل يوم على الأمير ، مائة مائة . فإن نقص أحدهم طولب به أميره . وعادتهم أنه إذا خدم أحدهم عشر سنين فُكَّ عنه قيده . وكان يخير فى النظرين : إما أن يقيم فى الخدمة غير مقيد ، وإما أن يسير حيث شاء من بلاد القان ، ولا يخرج عنها . وإذا بلغت سنه خمسين عاما أعتق من الأشغال وأنفق عليه . وكذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها مِن سواهم . ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبى ، فلم تجر عليه الأحكام . والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيرا . ويسمى أحدهم (آطا) ومعناه الوالد .

ذكر الأمير الكبير قُرْطَىْ

وهو أمير أمراء الصين . أضافنا بداره وصنع الدعوة ، وحضرها كبار المدينة ، وأتى بالطباخين المسلمين ، فذبحوا وطبخوا الطعام . وكان هذا الأمير على عظمته يناولنا الطعام بيده ، ويقطع اللحم بيده . وأقمنا فى ضيافته ثلاثة

(١) سبق أن عرفناه . والمراد به غالبا فى هذا الكتاب مجلس السلطان للناس . ولا ندرى كيف تضبط الكلمة ، إذ لم نجد لها أصلا بهذا المعنى فى كتب اللغة كما قدمنا .

أيام . وبعث ولده معنا إلى الخليج ، فركبنا فى سفينة تشبه الحَراقة ، وركب ابن الأمير فى أخرى ، ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقا . وكانوا يغنون بالصينى وبالعربىّ وبالفارسىّ . وكان ابن الأمير معجبا بالغناء الفارسىّ . فغنوا شعرا منه ، وأمرهم بتكريره مرارا ، حتى حفظته من أفواههم . وله تلحين عجيب .

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لها القِلاع الملونة ومظلات الحرير . وسفنهم منقوشة أبدع نقش . وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنَّارَنْج والليمون . وعدنا بالعشىّ إلى دار الأمير فبتنا بها ، وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب .

حكاية المُشَعْوِذ

وفى تلك الليلة حضر أحد المُشَعْوِذَة ، وهو من عبيد القان . فقال له الأمير : أرنا من عجائبك . فأخذ كرة خشبٍ لها ثَقْب فيها سُيُور طِوال ، فرمى بها إلى الهواء ، فارتفعت حتى غابت عن الأبصار ، ونحن فى وسط (المشور) أيام الحر الشديد . فلما لم يبق من السير فى يده إلا يسير ، أمر متعلما له فتعلق به ، وصعد فى الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا ، فدعاه ثلاثا فلم يجبه ، فأخذ سكينا بيده كالمغتاظ ، وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضا ، ثم رمى بيد الصبى إلى الأرض ، ثم رمى برجله ، ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم بجسده ، ثم برأسه . ثم هبط وهو يَنْفُخ وثيابه ملطخة بالدم . فقبّل الأرض بين يدى الأمير وكلمه بالصينى . وأمر له الأمير بشىء . ثم إنه أخذ أعضاء الصبى فألصق بعضها ببعض ، وركضه برجله فقام سَوِيّا . فعجبت منه وأصابنى خفقان القلب ، كمثل ما كان أصابنى عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك .

فسقونى دواء اذهب عنى ما وجدت . وكان القاضى فخر الدين إلى جانبى ، فقال لى : والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو ، وإنما ذلك شَعْوَذة .

وفى غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهى من أكبر المدن . يسكنها عامة الناس ، وأسواقها حسان وبها الحُذَّاق فى الصناعات . وبها تصنع الثياب الخَنْساوية . ومن عجيب ما يصنعون بها صِحاف من القصب ، وقد ألصقت قطعه أبدع إلصاق ، ودُهِنت بِصِبْغ أحمر مُشْرِق . وتكون هذه الصحاف عشرا ، واحدة فى جوف أخرى ، تظهر لرائيها كأنها صحفة واحدة ، ويصنعون غطاء يغطى جميعها . ويصنعون من هذا القصب صِحافا من عجائبها أن تقع من العُلُوّ فلا تنكسر . ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صِبْغُها ولا يَحُول . وتجلب من هنالك إلى الهند وخُراسان وسواها .

ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة فى ضيافة أميرها . وبالغد دخلنا من باب إلى المدينة السادسة ، ويسكنها البحْرِية والصيادون والنجارون والرماة والرجّالة . وجميعهم عبيد السلطان . ولا يسكن معهم سواهم . وعددهم كثير . وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم ، بتنا بها ليلة فى ضيافة أميرها . وجهّز لنا الأمير قُرْطَى مركبا بما يحتاج إليه من زاد وسواه .

وسافرنا من هذه المدينة وهى آخر أعمال الصين ، ودخلنا إلى بلاد الخطا . وهى أحسن بلاد الدنيا عمارة . ولا يكون فى جميعها موضع غير معمور ، فإنه إن بقى موضع غير معمور ، طُولب أهله أو من يواليهم بخَراجه . والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبى هذا النهر ، من مدينة الخَنْسا إلى مدينة خَانْ بَالِق ، وذلك مسيرة أربعة وستين يوما . وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان حاضرا غير مقيم ، لأنها ليست بدار مُقام ، وليس بها

مدينة مجتمعة ، و إنما هي قرى و بسائط فيها الزرع والفواكه والسكر. ولم أر في الدنيا مثلها ، غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار إلى عانة . وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لأجل الضيافة ، حتى وصلنا إلى مدينة خَانْ بَالِق[1] .وهي حضرة القان . والقان هو سلطانهم الأعظم الذي مملكته بلاد الصين والخِطا .

ولما وصلنا إليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم . وكُتِب إلى أمراء البحر بخبرنا ، فأذنوا لنا في دخول مرساها ، فدخلناه . ثم نزلنا إلى المدينة وهي من أعظم مدن الدنيا . وليست على ترتيب بلاد الصين في كون البساتين في داخلها ، و إنما هي كسائر البلاد والبساتين بخارجها . ومدينة السلطان في وسطها كالقَصَبة ، على ما نذكره . ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصَاغَرْجِي ، وهو الذي بعث إليه ملك الهند بأربعين ألف دينار واستدعاه ، فأخذ الدنانير وقضى بها دينه ، وأبى أن يسير إليه . وقدِم على بلاد الصين ، فقدّمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده ، وخاطبه بِصَدْر الجهان .

ذكر سلطان الصين والخِطَا الملقب بالقان

والقان عندهم سِمة لكل من يلي الملك ، مُلْك الأقطار . وليس للكفار على وجه الأرض مملكة أعظم من مملكته .

ذكر قصره

وقصره في وسط المدينة المختصة بسكناه. وأكثر عمارته بالخشب المنقوش ، وله ترتيب عجيب . وله سبعة أبواب : فالباب الأول منها يجلس به الكُتُوال ، وهو أمير البوابين. وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره ، فيها المماليك حفاظ باب القصر ، وعددهم خمسمائة رجل . وأُخبرت أنهم كانوا فيما تقدم الف رجل . والباب الثاني يجلس عليه الرماة . وعددهم خمسمائة . والباب

(١) بكين ، كما سبق في الحواشي .

الثالث يجلس عليه أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة. والباب الرابع يجلس عليه أصحاب السيوف والترسة. والباب الخامس فيه ديوان الوزارة، وبه سقائف كثيرة: فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة، وبين يديه دواة عظيمة من الذهب. وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر. وعن يمينها سقيفة كتّاب الرسائل. وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كُتّاب الأشغال. وتقابل هذه السقائف سقائف أربع: إحداها تسمى ديوان الإشراف، يقعد بها المُشْرِف. والثانية سقيفة ديوان المستخرَج. وأميرها من كبار الأمراء. والمستخرج هو ما يبقى قِبَل العمال وقِبَل الأمراء من إقطاعاتهم. والثالثة ديوان الغَوْث، ويجلس فيها أحد الأمراء الكبار ومعه الفقهاء والكتّاب، فمن لحقه مَظْلَمَة استغاث بهم. والرابعة ديوان البريد، يجلس فيها أمير الإخباريين. والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجَنْدَارِيّة(١) وأميرهم الأعظم. والباب السابع يجلس عليه الفِتْيان، ولهم ثلاث سقائف: إحداها سقيفة الحُبْشان(٢) منهم، والثانية سقيفة الهنود، والثالثة سقيفة الصينيين. ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين.

ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله

ولما وصلنا حضرة خَانْ بَالِق، وجدنا القان غائبا عنها إذ ذاك. وقد خرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قَرَاقُرُم وبِشْ بالِغ من بلاد الخطا، وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة. وأخبرني صدر الجهان برهان الدين الصَاغَرْجِي، أن القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود، اجتمع عليه من الفرسان مائة فَوْج، كل فوج منها من عشرة آلاف فارس. وكان خواص

(١) حرس السلطان، غير عربي.

(٢) قال في القاموس: والأَحْبُش بضم الباء جنس من السودان، جمعه حُبْشان وأحابش.

السلطان وأهل دُخْلته[١] خمسين ألفا ، زائدا إلى ذلك[٢] . وكانت الرجالة خمسمائة ألف . ولما خرج خالف عليه أكثر الأمراء واتفقوا على خلعه ، لأنه كان قد غير الأحكام التى وضعها تَنْكِيز خان[٣] ، جدهم الذى خرب بلاد الاسلام . فمضوا إلى ابن عمه القائم ، وكتبوا إلى القان أن يخلع نفسه ، وتكون مدينة الخَنْسا إقطاعا له . فأبى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل .

وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك ، فزينت المدينة وضربت الطبول والأبواق (والأنقار) ، وعكفوا على اللعب والطرب مدة شهر . ثم جىء بالقان المقتول ، و بنحو مائة من المقتولين بنى عمه وأقاربه وخواصه ، فحفر للقان ناوُوس عظيم ، وهو بيت تحت الأرض ، وفرش بأحسن الفرش ، وجعل فيه القان بسلاحه ، وجعل معه ما كان فى داره من أوانى الذهب والفضة ، وجعل معه أربع من الجوارى وستة من خواص المماليك ، ومعهم أوانى الشراب . وبنى باب البيت وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم . ثم جاءوا بأربعة أفراس فأجروها عند قبره حتى وقفت ، ونصبوا خشبا على القبر وعلقوها عليه . وجعل أقارب القان المذكورون فى نواويس ، ومعهم سلاحهم وأوانى دورهم . وصَلّبوا على قبور كبارهم — وكانوا عشرة — ثلاثة من الخيل على كل قبر ، وعلى قبور الباقين فرسا فرسا .

وكان هذا اليوم يوما مشهودا ، لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء ، المسلمين والكفار . وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء ، وهى الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض للسلمين . وأقامت خواتين القان وخواصه فى الأخبية

(١) بطانته .

(٢) يعنى أن ذلك مضاف إلى الفرسان وهو تعبير غريب .

(٣) جنكيز خان .

على قبره أربعين يوما ، و بعضهم يزيد على ذلك إلى سنة . وصنعت هنالك سوق يباع فيه ما يحتاجون إليه من طعام وسواه. وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم فى هذا العصر . فأما الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم، وسواهم من الأمم يدفنون الميت، ولا يجعلون معه أحدا . لكن أخبرنى الثقات ببلاد السودان ، أن الكفار منهم إذا مات ملكهم صنعوا له ناووسا وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه ، وثلاثين من أبناء كبارهم و بناتهم ، بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم . و يجعلون معهم أوانى الشراب . ولما قتل القان كما ذكرناه واستولى ابن عمه فيروز على الملك ، اختار أن تكون حضرته مدينة قَرَاقُرُم ، لقربها من بلاد بنى عمه ، ملوك تُرْكستان وما وراء النهر . ثم خالفتْ عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان ، وقطعوا الطرق وعظمت الفتن .

ذكر رجوعى إلى الصين ثم إلى الهند

ولما وقع الخلاف وتسعَّرت الفتن ، أشار علىَّ الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن، ووقفوا(١) معى إلى نائب السلطان فيروز، فبعث لى ثلاثة من أصحابه، وكتب لى بالضيافة . وسرنا منحدرين فى النهر إلى الخنْسا ثم إلى قَنْجَنْفُو ثم إلى الزيتون. فلما وصلتها وجدت (الجنوك) على أُهْبة السفر إلى الهند. وفى جملتها (جنك) للملك الظاهر صاحب الجاوة أهله مسلمون.

---

(١) لعله يريد : والتمسوا لى الإذن منه فى السفر .

وعرفني وكيله وسُرَّ بقدومي . وصادفْنا الريح الطيبة عشرة أيام . فلما قاربنا بلاد طَوَالِسِي تغـيرت الريح ، وأظلم الجو وكثر المطر . وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس. ثم دخلنا بحرا لا نعرفه، وخاف أهل (الجنك)، فأرادوا الرجوع إلى الصين ، فلم يمكن ذلك . وأقمنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف في أيّ البحار نحن .

ذكر الرُّخّ

ولما كان اليوم الثالث والأربعون ، ظهر لنا بعـد طلوع الفجر جبل في البحر ، بيننا وبينه نحو عشرين ميلا ، والريح تحملنا إلى صَوْبه . فَعَجِب البحْرية وقالوا : لسنا بقرب من البر، ولا يُعْهد في البحر جبل . وإن اضطرتنا الريح إليـه هلكنا . فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة . وابتهلنا إلى الله بالدعاء . ونذر التجار التصدقات الكثيرة . وكتبتهـا لهم في زمام(١) بخطي . وسكنت الريح بعض سكون . ثم رأينا ذلك الجبل عنـد طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء ، وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر ، فعجبنا من ذلك . ورأيت البحْرية يبكون ويودع بعضهم بعضـا . فقلت : ما شأنكم ؟ فقالوا : إن الذي تخيلناه جبلا هو الرخ . وإن رآنا أهلكنا. وبيننا إذ ذاك وبينه أقل من عشرة أميال . ثم إن الله تعالى منّ علينا بريح طيبـة صرفتنا عن صَوْبه ، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته(٢) . وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا إلى الجاوة ، ونزلنا إلى سُمُطْرَة ، فوجدنا سلطانهـا الملك الظاهر قدم من غَزَاة له ، وجاء بِسَبْي كثير ، فبعث لي جاريتين وغلامين ، وأنزلني على العـادة . وحضرت أعراس ولده مع بنت أخيه .

(١) دفتر أو كناشة ، والكلام على التشبيه .

(٢) حكاية الرخ هذه لا يكاد العقل يصدقها . ولا نظن أن ما رآه ابن بطوطة ومن معه كان طائرا كالجبل . وإنما خيل إليهم أنه كذلك . وقد يكون ما رأوه سحابة .
ونعتقد أن الرخ طائر خرافي ، فقد جاء في القاموس أنه طائر كبير يحمل الكركدن .

ذكر أعراس ولد الملك الظاهر

وشاهدت يوم الجَلْوة ، فرأيتهم قد نصبوا فى وسط (المشور) منبرا كبيرا، وكسوه بثياب الحرير . وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ، ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها ، من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه ، وكلهن باديات الوجوه ، ينظر إليهن كل من حضر ، من رفيع أو وضيع . وليست تلك بعادة لهن إلا فى الأعراس خاصة .

وصعدت العروس المنبر ، وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء ، يلعبون ويغنون . ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير ، وفوقه قبة ، والتاج على رأسه ، وعن يمينه ويساره نحومائة من أبناء الملوك ، وأمراء قدلبسوا البياض ، وركبوا الخيل المزينة ، وعلى رءوسهم (الشَّواشى) (١) المرصَّعة . وهم أتراب العروس ، وليس فيهم ذو لحية . ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله . وقعد السلطان بمَنْظَرة له يشاهد ذلك . ونزل ابنه فقبل رجله . وصعد المنبر إلى العروس ، فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها . والخواتين يُرَوّحن عليها . وجاءوا بالفَوْفَل والتَّانْبُول ، فأخذه الزوج بيده وجعل منه فى فمها . ثم أخذت هى بيدها وجعلت فى فمه . ثم وضع عليها الستر ، ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر . وأكل الناس وانصرفوا . ثم لما كان من الغد ، جُمِع الناس ، وأجرى له أبوه ولاية العهد ، وبايعه الناس ، وأعطاهم العطاء الجَزْل من الثياب والذهب .

---

(١) سبق تفسيرها .

وأقمت بهذه الجزيرة شهرين . ثم ركبت فى بعض (الجنوك) ، وأعطانى السلطان كثيرا من العود والكافور والقَرَنْفُل والصَّنْدل . وسافرت عنه . فوصلت بعد أربعين يوما إلى كَوْلَم ، فنزلت بها فى جوار القَزْوِينى قاضى المسلمين . وذلك فى رمضان . وحضرت بها صلاة العيد فى مسجدها الجامع. وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلا ، فلا يزالون يذكرون الله إلى الصبح ، ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد. ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون. ثم سافرنا من كَوْلَم إلى قَالِقُوط وأقمنا بها أياما . وأردت العودة إلى دِهْلى ، ثم خفت ذلك . فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظَفَار . وذلك فى المحرم سنة ثمان وأربعين . ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طاطا .

ذكر سلطانها

ووجدت سلطانها فى هذه الكَرَّة الملك الناصر ابن الملك المغيث ، الذى كان ملكا بها حين وصولى إليها فيما تقدم . ونائبه سيف الدين عمر التركى الأصل . وأنزلنى هذا السلطان وأكرمنى . ثم ركبت البحر فوصلت إلى مَسْقَط وهى بلدة صغيرة ، بها السمك الكثير المعروف بِقُلْب المـاس . ثم سافرنا إلى مرسى القُرَيَّات . ثم سافرنا إلى مرسى شَبَّة . ثم إلى مرسى كَلْبة . ثم إلى قَلْهات ، وقد تقدم ذكرها . وهذه البلاد كلها من عمالة هُرْمُز . وهى محسوبة من بلاد عمان .

ثم سافرنا إلى هُرْمُز وأقمنا بها ثلاثا . وسافرنا فى البر إلى كَوْرَسْتان . ثم إلى اللار . ثم إلى خُنْجُ بال . وقد تقدم ذكر جميعها . ثم سافرنا إلى كَارْزِى وأقمنا بها ثلاثا . ثم سافرنا إلى جَمْكَان. ثم سافرنا منها إلى مَيْمَن. ثم سافرنا إلى بَسَّا ، ثم إلى مدينة شِيراز . فوجدنا سلطانها أبا إسحاق على ملكه ، إلا أنه كان

غائبا عنها . ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضى القضاة ، وقد كُفَّ بصره . ثم سافرت إلى مايَين[1] ثم إلى بَزْدُخاص ، ثم إلى كَليل ، ثم إلى كُشْك زَر ، ثم إلى أصْبَهان ، ثم إلى تُسْتَر ، ثم إلى الحُوَيْز ، ثم إلى البصرة . وقد تقدم ذكر جميعها .

وزرت بالبصرة القبور الكريمة التى بها : وهى قبر الزُّبَيْر بن العوَّام ، وطَلْحة ابن عبيد الله ، وحَليمة السَّعْدية ، وأبى بكر ، وأَنَس بن مالك ، والحسن البصرىّ ، وثابت البُنَانىّ ، ومحمد بن سِيرِين ، ومالك بن دينار ، ومحمد ابن واسع ، وحَبِيب العجمىّ ، وسهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ . رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

ثم سافرنا من البصرة ، فوصلنا إلى مَشْهَد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وزرناه . ثم توجهنا إلى الكوفة ، فزرنا مسجدها المبارك . ثم إلى الحلّة ، حيث مشهد صاحب الزمان . ثم سافرت إلى صَرْصَر ، ثم إلى مدينة بغداد ، ووصلتها فى شوّال سنة ثمان وأربعين .

ذكر سلطانها

وكان سلطان بغداد والعراق فى عهد دخولى إليها فى هذا التاريخ ، الشيخ حسن ابن عمة السلطان أبى سعيد رحمه الله . ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق وتزوج بزوجته . وكان السلطان حسن غائبا عن بغداد فى هذه المدة ، متوجها لقتال السلطان أتَابِك أَفْراسْياب ، صاحب بلاد اللُّور[2] . ثم رحلت من بغداد فوصلت إلى مدينة الأَنْبار ، ثم إلى هِيت[3] ،

(١) بلد من أعمال فارس من نواحى شيراز . ياقوت . وضبطها ابن بطوطة هكذا : (مَايين) .

(٢) قال ياقوت : اللور كورة واسعة بين خوزستان وأصبهان .

(٣) بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار .

ثم إلى الحديثة ، ثم إلى عانة . وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها ، والطريق فيما بينها كثير العمارة ، كأن الماشي في سوق من الأسواق . وقد ذكرنا أنا لم نر مايشبه البلاد التي على نهر الصين إلا هذه البلاد . ثم وصلت إلى مدينة الرَّحْبَة ، وهي التي تنسب إلى مالك بن طَوْق . ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام . ثم سافرنا منها إلى السُّخْنة ، وهي بلدة حسنة أكثر سكانها من النصارى . وإنما سميت السخنة لحرارة مائها . وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء ، يستحمون فيها ، ويستقون الماء ليلا ويجعلونه في السطوح ليبرد . ثم سافرنا إلى تدمُر ، مدينة نبي الله سليمان عليه السلام .

ثم سافرنا منها إلى مدينة دِمَشْق الشام . وكانت مدة مغيبي عنها عشرين سنة كاملة . وأقمت بها بقية السنة ، والغلاء شديد . وكان قاضي قضاة المالكية إذ ذاك جمال الدين المِسْلاتي[1] ، وقاضي قضاة الشافعية تقي الدين ابن السُّبكي ، وأمير دمشق ملك الأمراء أَرْغُون شاه .

حكاية

ومات في تلك الأيام بعض كبراء دمشق وأوصى بمال للمساكين . فكان المتولِّي لإنفاذ الوصية يشتري الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر . فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحموا ، واختطفوا الخبز الذي يفرق عليهم ، ومدوا أيديهم إلى خبز الخبازين . وبلغ ذلك الأمير أَرْغُون شاه ، فأخرج زَبانيته ، فكانوا حيثما لقوا أحدا من المساكين ، قالوا له : تعال تأخذ الخبز . فاجتمع منهم عدد كثير فحبسهم تلك الليلة ، وركب من الغد ، وأحضرهم تحت

(١) نسبة إلى مِسْلاتة ، مدينة ساحلية بين طرابُلُس الغرب وسُرْت

القلعة . وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم . وكان أكثرهم برآء من ذلك . وأخرج طائفة الحرافيش[١] عن دِمَشْق ، فانتقلوا إلى حِمْص وحَمَاة وحَلَب . وذُكر لى أنه لم يعش بعد ذلك إلا قليلا وقتل .

ثم سافرت من دمشق إلى حِمْص ثم حَمَاة ثم المعَرَّة ثم سَرْمين ثم إلى حَلَب . وكان أمير حلب فى هذا العهد الحاج رُغْطَىْ . وفى أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين ، بلغنى الخبر فى حلب أن الوباء وقع بِغَزَّة ، وأنه انتهى عدد الموتى فيها إلى زائد على الألف فى يوم واحد . فسافرت إلى حِمْص فوجدت الوباء قد وقع بها . ومات يوم دخولى إليها نحو ثلاثمائة إنسان. ثم سافرت إلى دِمَشْق ووصلتها يوم الخميس. وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام، وخرجوا يوم الجمعة إلى مسجد الأقدام[٢] على ما ذكرناه فى السفر الأول ، فخفف الله الوباء عنهم . فقد انتهى عدد الموتى عندهم إلى ألفين وأربعمائة فى اليوم . ثم سافرت إلى عَجْلُون ثم إلى بيت المَقْدِس ، ووجدت الوباء قد ارتفع عنه . ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة بن عز الدين قاضى القضاة بمصر . وهو من الفضلاء الكرماء . ومرتبه على الخطابة ألف درهم فى الشهر .

حكاية

وصنع الخطيب عز الدين يوما دعوة ، ودعانى فيمن دعاه إليها ، فسألته عن سببها ، فأخبرنى أنه نذر أيام الوباء أنه إن ارتفع ذلك ومرّ عليه يوم لا يصلى فيه على ميت ، صنع الدعوة . ثم قال لى : ولما كان بالأمس لم أصلّ على ميت ، فصنعت الدعوة التى نذرت .

---

(١) يقصد الرعاع والسفلة . ولم نر هذا اللفظ فيما بأيدينا من كتب اللغة .

(٢) سبق أنها أقدام مصورة فى حجر هناك يقال إنها أثر قدم موسى عليه السلام .

ووجدت من كنت أعهـدهم من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى . رحمهم الله . فلم يبق منهم إلا القليل : مثل المحدّث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن كَيْكَلْدِى العَلَائى ، ومثل الصالح شرف الدين الخُشّىّ ، شيخ زاوية المسجد الأقصى . ولقيت الشيخ سليمان الشيرازىّ فأضافنى .

ثم سافرت عن القدس . ورافقنى الواعظ المحدّث شرف الدين سليمان المِلْيانىّ(١) ، وشيخ المغاربة بالقدس الصوفىّ الفاضل طَلْحَة العبد الوادى ، فوصلنا إلى مدينة الخليل عليه السلام ، وزرناه ومن معه من الأنبياء عليهم السلام . ثم سرنا إلى غَزّة ، فوجدنا معظمها خاليا من كثرة من مات بها فى الوباء . وأخبرنا قاضيها أن العُدُول بها كانوا ثمانين فبقى منهم الربع ، وأن عدد الموتى بها انتهى إلى ألف ومائة فى اليوم . ثم سافرنا فى البر فوصلت إلى دِمْياط . ولقيت بها قطب الدين النَّقْشُوانى ، وهو صائم الدهر . ورافقنى منها إلى فارِسْكُور وسَمَنُّود ثم إلى أبى صير . ونزلنا فى زاوية لبعض المصريين بها .

حكاية

وبينما نحن بتلك الزاوية إذ دخل علينا أحد الفقراء فسلّم ، وعرضنا عليه الطعام فأبى . وقال : إنما قصدت زيارتكم . ولم يزل ليلته تلك ساجدا وراكعا . ثم صلينا الصبح واشتغلنا بالذكر ، والفقير بركن الزاوية . فجاء الشيخ بالطعام ودعاه فلم يجبه ، فمضى إليه فوجده ميتا ، فصلينا عليه ودفناه . رحمة الله عليه .

---

(١) نسبة إلى مِلْيانة ، مدينة فى آخر إفريقية ، بينها وبين تَنَس أربعة أيام اهـ ياقوت .

ثم سافرت إلى المَحَلّة الكبيرة ، ثم إلى نَحْرَارِيَّة ، ثم إلى أَبْيار ، ثم إلى دَمَنْهور ، ثم إلى الإسكندرية. فوجدت الوباء قد خفّ بها بعد أن بلغ عدد الموتى ألفا وثمانين فى اليوم. ثم سافرت إلى القاهرة. وبلغنى أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها إلى أحد وعشرين ألفا فى اليوم. ووجدت جميع من كانوا بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا. رحمهم الله.

ذكر سلطانها

وكان ملك ديار مصر فى هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قَلَاوُون. وبعد ذلك خُلِع عن الملك ووَلِىَ أخوه الملك الصالح. ولما وصلت القاهرة وجدت قاضى القضاة عز الدين ابن قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، قد توجه إلى مكة فى ركب عظيم يسمونه الرَّجَبى ، لسفرهم فى شهر رجب ، وأخبرت أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا عَقَبة أَيْلة[1] فارتفع عنهم.

ثم سافرت من القاهرة على بلاد الصعيد ، وقد تقدم ذكرها ، إلى عَيْذاب ، وركبت منها البحر فوصلت إلى جُدَّة. ثم سافرت منها إلى مكة شرفها الله تعالى وكرمها ، فوصلتها فى الثانى والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين. ونزلت فى جوار إمام المالكية الصالح الولىّ الفاضل ، أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل. فصمت شهر رمضان بمكة ، وكنت أعتمر كل يوم على مذهب الشافعىّ. ولقيت ممن أعهده من أشياخها شهاب الدين الحنفىّ ، وشهاب الدين الطَّبَرىّ ، وأبا محمد اليافعىّ ، ونجم الدين الأَصْفُونىّ[2]. وحججت فى تلك السنة. ثم سافرت مع الركب الشامىّ إلى طَيْبَة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وزرت قبره المكرم الطيب ، زاده الله طيبا

(١) بلد بين ينبع ومصر. قاموس.
(٢) أصفون ، بضم الفاء وسكون الواو ونون. قرية بالصعيد الأعلى على شاطئ غربى النيل. ياقوت.

وتشريفا . وصليت فى المسجد الكريم ، طَهَّره الله وزاده تعظيما . وزرت من بالبَقيع من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم . ولقيت من الأشياخ أبا محمد بن فَرْحُون .

ثم سافرنا من المدينة الشريفة إلى العَلاء وتَبُوك ، ثم إلى بيت المقدس ، ثم إلى مدينة الخليل صلى الله عليه وسلم ، ثم إلى غَزَّة ثم إلى منازل الرمل . وقد تقدم ذكر ذلك كله . ثم إلى القاهرة . وهنالك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، المتوكل على رب العالمين ، أبا عِنان ، أيده الله تعالى ، قد ضَمَّ الله به نشر الدولة المَرِينيَّة ، وشفى ببركته ، بعد إشفائها ، البلادَ المغربية ، وأفاض الإحسان على الخاص والعام ، وغمر جميع الناس بسابغ الإنعام . فتشوفتِ النفوس إلى المُثول ببابه ، وأمَّلت لثم رِكابه . فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية ، مع ما شَفَّنى من تذكار الأوطان ، والحنين إلى الأهل والخُلَّان ، والمحبة لبلادى التى لها الفضل عندى على البُلْدان .

بلاد بها نيطت علىَّ تمائمى ﴿﴾ وأول أرض مَسَّ جلدى ترابها

فركبت البحر فى قُرْقُور[1] لبعض التونسيين صغير . وذلك فى صفر سنة خمسين . وسرت حتى نزلت بجَرْبة . وسافر المركب إلى تونس ، فاستولى العدو عليه . ثم سافرت فى مركب صغيرة إلى قابس ، فنزلت فى ضيافة الأخوين الفاضلين أبى مَرْوان وأبى العباس ابنى مكىّ ، أميرى جَرْبة وقابس . وحضرت عندهما مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ركبت فى مركب إلى صَفَاقُس . ثم توجهت فى البحر إلى بُلْيانة ، ومنها سرت فى البر مع العرب ، فوصلت بعد مشقات إلى مدينة تونس ، والعرب محاصرون لها .

---

(١) السفينة ، أو الطويلة ، أو العظيمة . قاموس .

ذكر سلطانها

وكانت تونس فى إيالة مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، علم الأعلام، وأوحد الملوك الكرام، أسد الآساد، وجواد الأجواد، القانت الأوّاب، الخاشع العادل، أبى الحسن ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ناصر دين الإسلام، الذى سارت الأمثال بجوده، وشاع فى الأقطار أثر كرمه وفضله، ذى المناقب والمفاخر، والفضائل والمآثر، الملك العادل الفاضل، أبى سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ناصر الإيمان، الشديد السطوة فى ذات الرحمن، العابد الزاهد، الراكع الساجد، الخاشع الصالح، أبى يوسف بن عبد الحق، رضى الله عنهم أجمعين، وأبقى الملك فى عَقِبهم إلى يوم الدين.

ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن النامِيسىّ، لما بينى وبينه من مَوَدَّات القرابة والبلدية. فأنزلنى بداره، وتوجه معى إلى (المشور). فدخلت (المشور) الكريم، وقبلت يد مولانا أبى الحسن رضى الله عنه. وأمرنى بالقعود فقعدت. وسألنى عن الحجاز الشريف وسلطان مصر، فأجبته. وسألنى عن ابن سيفَرَاجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه، وإرادتهم قتله بالاسكندرية، وما لقى من أذيتهم، انتصارا منهم لمولانا أبى الحسن رضى الله عنه. وكان فى مجلسه من الفقهاء الإمام أبو عبد الله السَّطِّى (1)، والإمام أبو عبدالله محمد بن الصباغ، ومن أهل تونس قاضيها أبو على عمر بن عبد الرفيع، وأبو عبد الله بن هرون. وانصرفت عن المجلس الكريم. فلما كان بعد العصر استدعانى مولانا أبو الحسن وهو ببرج يشرف على موضع

(1) نسبة إلى (سطّة)، مدينة ساحلية بالمغرب الأقصى. اهـ من المغرب فى تاريخ إفريقية والمغرب.

القتال ، ومعه الشيوخ الجِلَّة . فسألنى عن ملك الهند فأجبته عما سأل . ولم أزل اتردد إلى مجلسه الكريم أيام إقامتى بتونس ، وكانت ستة وثلاثين يوما . ولقيت بتونس إذ ذاك الشيخ الإمام خاتمة العلماء وكبيرهم ، أبا عبد الله الأَبُلِّى ، وكان فى فراش المرض . وباحثنى فى كثير من أمور رحلتى .

ثم سافرت من تونس فى البحر ، فوصلنا إلى جزيرة سَرْدَانِيَة من جزر الروم ، ولها مرسى عجيب عليه خُشب كبار دائرة به . وله مدخل كأنه باب لا يفتح إلا بإذن منهم . وفيها حصون دخلنا أحدها ، وبه أسواق كثيرة . ونذرت لله تعالى ، إن خلّصنا الله منها ، صوم شهرين متتابعين ، لأننا عرفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا إذا خرجنا عنها ليأسرونا . ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تَنَس ثم إلى مازُونَة ثم إلى مُسْتَغانم ثم إلى تِلِمسان . ثم سافرنا منها . فبينا نحن بقرب أَزْغَنغان ، إذ خرج علينا خمسون راجلا وفارسان ، وكان معى الحاج ابن قَرِيعات الطَّنْجى ، وأخوه محمد المستَشْهَد بعد ذلك فى البحر . فعزمنا على قتالهم ورفعنا علما . ثم سالمونا وسالمناهم والحمد لله . ووصلت إلى مدينة تَازَا ، وبها تعرفت خبر موت والدتى بالوباء رحمها الله تعالى .

ثم سافرت عن تازا ، فوصلت يوم الجمعة فى أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة إلى حضرة فاس ، فَمَثَلْت بين يدى مولانا الأعظم ، الإمام الأكرم ، أمير المؤمنين ، المتوكل على رب العالمين ، أبى عنان ، وصل الله عُلُوّه ، وكَبَت عدوه . فأنستنى هيبته هيبة سلطان العراق ، وحسنه حسن ملك الهند ، وحسن أخلاقه حسن خلق ملك اليمن ، وشجاعته شجاعة ملك الترك ، وحِلمه حِلم ملك الروم ، ودينه دين ملك تُرْكستان ، وعلمه علم ملك الجاوة .

وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة ، والمآثر الكثيرة ، أبو زيّان بن وَدْرَار . فسألنى عن الديار المصرية ، إذ كان قد وصل إليها ، فأجبته عما سأل . وغمرنى من إحسان مولانا أيده الله تعالى ما أعجزنى شكره ، والله ولىّ مكافأته . وألقيت عصا التسيار ببلاده الشريفة ، بعد أن تحققت بفضل الإنصاف أنها أحسن البُلْدان : لأن الفواكه بها متيسرة ، والمياه والأقوات غير متعذرة . وقلّ إقليم يجمع ذلك . ولقد أحسن من قال :

الغرب أحسن أرض ولى دليل عليه
البدر يُرْقَب منه والشمس تسعى إليه

ودراهم الغرب صغيرة ، وفوائدها كثيرة . وإذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام ، ظهر لك الحق فى ذلك ، ولاح فضل بلاد المغرب . فأقول : إن لحوم الأغنام بديار مصر تباع بحساب ثمانى عشرة أوقية بدرهم نُقْرة (١) . والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب . وبالمغرب يباع اللحم إذا غلا سعره ، ثمانى عشرة أوقية بدرهمين . وهما ثلث النقرة . وأما السمن فلا يوجد بمصر فى أكثر الأوقات . والذى يستعمله أهل مصر من أنواع الإدام لا يلتفت إليه بالمغرب ، ولأن أكثر ذلك العَدَس والحِمَّص ، يطبخونه فى قُدور راسيات (٢) ، ويجعلون عليه الشَّيْرج (٣) والبِسِلّا (٤) ، وهو صنف من الجُلُبَّان ، يطبخونه ويجعلون عليه الزيت . والقرع يطبُخونه ويخْلِطونه باللبن . والبقْلة الحمقاء (٥) يطبخونها كذلك . وأعلى أغصان اللوز يطبخونها

---

(١) النقرة القطعة المذابة من الذهب أو الفضة . فالمراد درهم من الفضة ذو قيمة خاصة .

(٢) فى القاموس : قدر راسية لا تبرح مكانها لعظمها .

(٣) قال فى شرح القاموس : الشَّيْرَج كصَيْقَل بمعنى السليط وهو دهن السمسم ، معرب .

(٤) البِسِلّا كالترمس أو أقل منه ، لغة مصرية . شرح القاموس .

(٥) هى الرجلة . ويقال لها أيضا : بقلة الحمقاء .

ويجعلون عليها اللبن . والقُلْقَاس يطبخونه . وهذا كله متيسر بالمغرب . لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزُّبْد والعسل وسوى ذلك .

وأما الخُضَر فهى أقل الأشياء ببلاد مصر . وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام . وأما العنب فإذا كان رخيصا بيع عندهم ثلاثة أرطال من أرطالهم بدرهم نُقْرة . ورطلهم ثِنْتا عشرة أُوقِيَّة . وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة ، إلا أنها ببلاد الغرب أرخص منها ثمنا : فإن العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة . ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية . وإذا رَخُصَ ثمنه بيع بحساب رطلين بدرهم نقرة . وأما الرمان والسَّفَرْجَل فتباع الحبة منه بثمانية فُلوس ، وهى درهم من دراهم المغرب . وأما الخَضَر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع فى بلادنا بالدرهم الصغير . وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة .

فإذا تأملت ذلك كله تبين لك أن بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا ، وأكثرها خيرات ، وأعظمها مرافق وفوائد . ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفا إلى شرفها ، وفضلا إلى فضلها ، بإمامة مولانا أمير المؤمنين ، الذى مدَّ ظلال الأمن فى أقطارها ، وأطلع شمس العدل فى أرجائها ، وأفاض سحاب الإحسان فى باديتها وحاضرتها ، وطهرها من المفسدين ، وأقام بها رسوم الدنيا والدين . وأنا أذكر ما عاينته وتحقَّقته من عدله وحلمه وشجاعته ، واشتغاله بالعلم وتفقُّهه ، وصدقته الجارية ، ورفع المظالم .

ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله

أما عدله فأشهر من أن يُسْطر فى كتاب . فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته، وتخصيصه يوم الجمعة بالمساكين منهم، وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء، وتقديمه النساء لضعفهن، فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر، ومن وصلت نَوْبتها نودى باسمها، ووقفت بين يديه الكريمتين، يكلمها دون وَسَاطة . فإن كانت متظلمة عجّل إنصافها، أو طالبة إحسان وقع إسعافها . ثم إذا صُلّيت العصر قرئت قصص الرجال، وفَعَل مثل ذلك فيها . ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة، فيردّ إليهم ما تعلق بالأحكام الشرعية . وهذا شىء لم أر فى الملوك من يفعله على هذا التمام، ويظهر فيه مثل هذا العدل : فإن ملك الهند عيّن بعض أمرائه لأخذ القصص من الناس، وتلخيصها ورفعها إليه، دون حضور أربابها بين يديه .

وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب : فإنه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه، وعن أهل الجرائم الكبار الذين لا يعفو عن جرائمهم إلا من وَثِق بربه، وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى (والعافين عن الناس) . قال ابن جُزَىّ : من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا أيده الله، أنى منذ قدومى على بابه الكريم فى آخر عام ثلاثة وخمسين إلى هذا العهد، وهو أوائل عام سبعة وخمسين، لم أشاهد أحدا أمر بقتله إلا من قتله الشرع فى حد من حدود الله تعالى، قصاص أو حرب، هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف . ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الأعصار، ولا فيما تباعد من الأقطار .

وأما شجاعته فقد عُلِم ما كان منه فى المواطن الكريمة من الثبات والإقدام ، مثل يوم قتال بنى عبد الوادى وغيرهم . ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد السودان . وذكر ذلك عند سلطانهم ، فقال : هكذا وإلا فلا . قال ابن جُزَىّ : لم يزل الملوك الأقدمون يتفاخرون بقتل الآساد وهزائم الأعادى . ومولانا أيده الله كان قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد ، فإنه لما خرج الأسد على الجيش بوادى النجارين من المعمورة بحَوْز سلا[1] ، وتحامته الأبطال ، وفرت أمامه الفُرْسان والرجال ، برز إليه مولانا أيده الله ، غير مُحْتَفِل به ، ولا متهيِّب له ، فطعنه بالرمح بين عينيه طعنة خرَّ بها صريعا لليدين وللفم .

وأما هزائم الأعادى فإنها اتفقت للملوك بثُبوت جيوشهم ، وإقدام فُرْسانهم ، فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال . وأما مولانا أيده الله فإنه أقدم على عدوه منفردا بنفسه الكريمة ، بعد علمه بفرار الناس ، وتحققه أنه لم يبق معه من يقاتل . فعند ذلك وقع الرعب فى قلوب الأعداء ، وانهزموا أمامه . فكان من العجائب فرار الأمم أمام واحد . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والعاقبة للمتقين .

وأما اشتغاله بالعلم فها هو أيده الله تعالى يَعْقِد مجالس العلم فى كل يوم بعد صلاة الصبح . ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم . فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم ، وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفروع مذهب مالك رضى الله عنه ، وكتب المتصوِّفة . وفى كل علم منها له القِدْح المُعَلَّى ، يجلو مشكلاته بنور فهمه ، ويلقى نُكَته الرائقة من حفظه . وهذا شأن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين .

---

(١) سلا : مدينة بأقصى المغرب ، وحوزها ما يجاورها .

ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم هـذه النهاية : فقد رأيت ملك الهند يُتَذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح فى العلوم المعقولات خاصة ، ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة فى الفروع على مذهب الشافعى خاصة . وكنت أعجب من ملازمة ملك تُرْكستان لصلاتى العشاء الآخرة والصبح فى الجماعة ، حتى رأيت ملازمة مولانا أيده الله للصـلوات كلها فى الجماعة ، ولقيام رمضان . والله يختص برحمته من يشاء .

قال ابن جُزَىّ : لو أن عالمـا ليس له شغل إلا بالعلم ليلا ونهارا ، لم يكن يصل إلى أدنى مراتب مولانا أيده الله فى العلوم ، مع اشتغاله بأمور الأمة ، وتدبيره لسياسة الأقاليم النائية ، ومباشرته من حال ملكه مالم يباشره أحد من الملوك ، ونظره بنفسه فى شكايات المظلومين . ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم فى أى علم كان ، إلا جلاَ مُشْكِلَها ، وباحث فى دقائقها ، واستخرج غوامضها ، واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مُغْلَقاتها .

ثم سما أيده الله إلى العلم الشريف التَّصَوُّفى ، ففهم إشارات القوم[(١)] وتخلق بأخلاقهم ، وظهرت آثار ذلك فى تواضعه مع رفعته ، وشفقته على رعيته ، ورفقه فى أمره كله . وأعطى الآداب حظا جزيلا من نفسه ، فاستعمل أحسنها منزعا ، وأعظمها موقعا . وصارت[(٢)] عنه الرسالة الكريمة والقصيدة ، اللتان بعثهما إلى الروضة الشريفة المقدسـة الطاهرة ، روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتبهما بخط يده الذى يخجل الروض حسنا . وذلك شيء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان إنشاءه ، ولا رام إدراكه .

---

(١) هم الصوفيون .

(٢) يظهر أنه محرف عن (صدرت) .

ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه أيده الله تعالى ، وأحاط علما بمحصولها ، لاح له فضل ما وهب الله لمولانا من البلاغة التى فطره عليها ، وجمع له بين الطبيعي والمكتسب منها. وأما صدقاته الجارية وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده ، لإطعام الطعام للوارد والصادر ، فذلك مالم يفعله أحد من الملوك ، غير السلطان أتابك أحمد . وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم ، والتصدق بالزرع على المتسترين من أهل البيوت .

قال ابن جزى : اخترع مولانا أيده الله فى الكرم والصدقات أمورا لم تخطر فى الأوهام، ولااهتدت إليها السلاطين. فمنها إجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام . ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين فى جميع البلاد أيضا . ومنها كون تلك الصدقات خبزا مخبوزا متيسرا للانتفاع به . ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده . ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء فى عيد الأضحى . ومنها التصدق بما يجتمع فى مجابى أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان، إكراما لذلك اليوم الكريم وقياما بحقه . ومنها إطعام الناس فى جميع البلاد ليلة المولد الكريم ، واجتماعهم لإقامة رسمه. ومنها صدقته على الزَّمْنَى (١) والضعفاء يقيمون بها أَوَدَهم. ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطَّنافس (٢) الوثيرة والقطائف (٣) الجياد . وتلك مَكْرُمة لايعلم لها نظير. ومنها بناء المارستانات فى كل بلد من بلاده ، وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤَن المرضى ، وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف فى طبِّهم . إلى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم وضروب المآثر. كافأ الله أياديه وشكر نعمه .

---

(١) جمع زمين وهو ذو العاهة . (٢) جمع طِنفِسه وهى البساط .

(٣) جمع قطيفه : دثار مخمل .

وأما رفعه للظالم عن الرعية، فمنها الرُّتَب(١) التى كانت تؤخذ بالطرقات : أمر أيده الله بمحو رسمها وكان لها مَجْبيٌّ عظيم ، فلم يلتفت إليه . وماعند الله خير وأبقى . وأما كفه أيدى الظُّلّام فأمر مشهور . وقدسمعته أيده الله يقول لعماله : لاتظلموا الرعية . ويؤكدعليهم فى تلك الوصية . قال ابن جُزَىّ : ولو لم يكن من رفق مولانا أيده الله برعيته إلا رفعه التضييف(٢) ، الذى كان عمال الزكاة وولاة البلاد يأخذونه من الرعايا ، لكفى ذلك أثرا فى العدل ظاهرا ، ونورا فى الرفق باهرا . فكيف وقد رفع من المظالم ، وبسط من المرافق مالايحيط به الحصر .

وقد صدر فى أيام تصنيف هذا من أمره الكريم من الرفق بالمسجونين ، ورفع الوظائف الثقيلة التى كانت تؤخذ منهم ، ما هو اللائق بإحسانه ، والمعهود من رأفته . وشمل الأمر بذلك جميع الأقطار . وكذلك صدر من التنكيل بمن ثبت جَوْره من القضاة والحكام مافيه زجر الظلمة وردع المعتدين . وما فعله فى معاونة أهل الأندلس على الجهاد ، ومحافظته على إمداد الثغور بالأموال والأقوات والسلاح ، وفَتّه فى عَضُد العدو ، بإعداد العُدَد وإظهار القوة ، فذلك أمر شهير لم يغب علمه عن أهل المغرب والمشرق ، ولا سبق إليه أحد من الملوك .

قال ابن جزى : حسب المتشوّف إلى علم ماعند مولانا أيده الله من سِدّاد(٣) القطر للسلمين ، ودفاع القوم الكافرين ، مافعله فى فداء مدينة طَرابُلُس إفْرِيقية : فإنها لما استولى العدو عليها ، ومدّ يد العدوان إليها ، ورأى أيده

---

(١) يريد المكوس . والتسمية غير عربية .

(٢) مصدر ضيفه أى أنزله عليه ضيفا . والمراد بالتضييف هنا ما يأخذه العامل لنفسه زيادة على ما يأخذه للحكومة ، تسمية اصطلاحية .

(٣) إعداد العُدّة لحماية البلاد من الأعداء ، بكسر السين .

الله أن بعث الجيوش لِنُصْرتها لايتأتى لبعد الأقطار ، كتب إلى خدامه ببلاد إفريقية أن يَفْدوها بالمال ، فَفُدِيت بخمسين ألف دينار من الذهب العين. فلما بلغه خبر ذلك قال : الحمد لله الذى استرجعها من أيدى الكفار بهذا النزر اليسير . وأمر للحين ببعث ذلك العدد إلى إفريقية ، وعادت المدينة إلى الإسلام على يده . ولم يخطر فى الأوهام أن أحدا تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزرا يسيرا ، حتى جاء بها مولانا أيده الله مَكْرُمة بعيدة ، ومأْثَرَة فائقة ، قلّ فى الملوك أمثالها ، وعزّ عليهم مِثالها . ومما شاع من أفعال مولانا أيده الله فى الجهاد إنشاؤه الأجفان [1] بجميع السواحل ، واستكثاره من عُدَد البحر . وهذا فى زمان الصلح والمهادنة ، إعدادا لأيام الغَزَاة ، وأخذا بالحزم فى قطع أطماع الكفار . وأكد ذلك بتوجهه أيده الله بنفسه إلى جبال جاناتة فى العام الفارط ، ليباشر قطع الخشب للإنشاء ، ويظهر قدر ما له بذلك من الاعتناء ، ويتولّى بذاته أعمال الجهاد ، مترجيا ثواب الله تعالى ، وموقنا بحسن الجزاء .

(رجع) ومن أعظم حسناته أيده الله عِمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء ، دار ملكه العلىّ . وهو الذى امتاز بالحسن و إتقان البناء ، و إشراق النور وبديع الترتيب ، وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر ، مما يجاور قَصَبة فاس . ولا نظير لها فى المعمورة اتساعا وحسنا و إبداعا وكثرة ماء وحسن وضع . ولم أر فى مدارس الشام ومصر والعراق وخُراسان ما يشبهها ، وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحِمّص خارج المدينة البيضاء ، فلا مثل لها أيضا فى عجيب وضعها ، وبديع صنعها . وأبدع زاوية رأيتها بالشرق زاوية

(١) المراكب الكبار للحرب كما تقدم . وكان ينبغى أن يقول : الجفنات أو الجفان ، لأن المفرد جفنة على التشبيه فيما يظهر . وقد سبق فى الحواشى كلام كهذا . و يظهر من كلام المؤلف أنه يعتبر أن المفرد (جفن) ولا وجه له فيما نرى .

(سَرْياقُوس) التى بناها الملك الناصر. وهذه أبدع منها وأشد إحكاما و إتقانا. والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة، و يكافئ فضائله المُنيفة، ويديم للإسلام والمسلمين أيامه، و ينصر ألويته المُظَفَّرة وأعلامه.

ولنعد إلى ذكر الرحلة فنقول: ولما حصلت لى مشاهدة هذا المقام الكريم، وعمنى فضل إحسانه العميم، قصدت زيارة قبر الوالدة، فوصلت إلى بلدة طَنجة وزرتها، وتوجهت إلى مدينة سَبْتَة، فأقمت بها أشهرا. وأصابنى بها المرض ثلاثة أشهر ثم عافانى الله. فأردت أن يكون لى حظ من الجهاد والرباط. فركبت البحر من سَبْتة، فوصلت إلى بلاد الأندلس، حرسها الله تعالى، حيث الأجر موفور للساكن، والثواب مذخور للمقيم والظاعن. وكان ذلك إثرَ موت طاغية الروم ألفُونْس، وحصاره الجبل عشرة أشهر، وظنه أنه يستولى على ما بقى من بلاد الأندلس للمسلمين. فأخذه الله من حيث لم يحتسب. ومات بالوباء الذى كان أشدَّ الناس خوفا منه.

وأول بلد شاهدته من البلاد الأندلسية جبل الفتح. فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السِراج الرُّنْدىّ، وقاضيه عيسى البربرىّ. وعنده نزلت. وتطوَّفت معه على الجبل، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضى الله عنه، وأعدَّ فيه من العُدَد، وما زاد على ذلك مولانا أيده الله. ووددت لو كنت ممن رابط به إلى نهاية العمر.

قال ابن جُزَىّ: جبل الفتح هو مَعْقِل الإسلام، المعترض شَجًا فى حُلوق عبدة الأصنام، حسنة مولانا أبى الحسن رضى الله عنه المنسوبة إليه، وقُرْبته التى قدّمها نورا بين يديه. محل عُدَد الجهاد، ومقر آساد الأجناد، والثغر الذى افْتَرَّ عن نصر الإيمان، وأذاق أهل الأندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان. ومنه كان مبدأ الفتح الأكبر. و به نزل طارق بن زياد مولى

موسى بن نُصَيْر عند جَوازه . فنسب إليه ، فيقال له : جبل طارق ، وجبل الفتح ، لأن مبداه كان منـه . وبقايا السور الذى بناه ومن معه باقية إلى الآن ، تسمى بسور العرب . شاهدتها أيام إقامتى به عند حصار الجزيرة ، أعادها الله .

ثم فتحه مولانا أبو الحسن ، رضوان الله عليه ، واسترجعه من أيدى الروم ، بعـد تملكهم له عشرين سنة ونَيِّفا . وبعث إلى حصـاره ولده الأمير الجليـل أبا مالك ، وأيده بالأموال الطـائلة والعساكر الجرَّارة . وكان فتحه بعد حصار سـتة أشهر . وذلك فى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة . ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه . فبنى به مولانا أبو الحسن رحمه الله تعالى عليـه المأثُرة العظمى بأعلى الحصن ، وكانت قبل ذلك برجا صغيرا ، تهدّم بأحجار المجانيق ، فبناها مكانه . وبنى به دار الصناعة ، ولم يكن به دار صـنعة . وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء ، الآخذ من دار الصنعة الى القَرْمَدَة[1] . ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيده الله عهد تحصينه وتحسينه ، وزاد بهـا بناء السور بطرف الفتح . وهو أعظم أسواره غَناء وأعمها نفعا . وبعث إليه العُدد الوافرة ، والأقوات والمرافق العامة . وعامل الله تعالى فيه بحسن النية وصدق الإخلاص . ولمـا كان فى الأشهر الأخيرة من عام ستة وخمسين ، وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا أيده الله ، وثمرة توكله فى أموره على الله ، وبان مِصداق ما اطَّرد له من السعادة الكافية . وذلك أنّ عامل الجبل الخائن ، الذى خُتم له بالشقاء ، عيسى بن الحسن بن أبى مِنْديل ، نزع يده المغلولة عن الطاعة ، وفارق عصْمة الجماعة ، وأظهر النفاق ، وجمح فى الغـدر والشقاق ، وتعاطى ما ليس من رجاله ، وعَمِىَ عن مبدأ حاله السيئ ومآله . وتوهم الناس أن ذلك مبدأ فتنة تنفق على

(١) المراد بالقرمدة ، صنع القرميد .

إطفائها كرائم الأموال ، ويستعد لاتقائها بالفُرْسان والرجال . فحكمت سعادة مولانا أيده الله ببطلان هـذا التوهم ، وقضى صدق يقينه بانخراق العـادة فى هذه الفتنة . فلم تكن إلا أيام يسيرة حتى راجع أهل الجبل بصائرهم ، وثاروا على الثائر ، وخالفوا الشقىّ المخالف ، وقاموا بالواجب من الطاعة ، وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له فى النفاق ، وأُتى بهما مصفَّدين إلى الحضرة العالية ، فنفذ فيهما حكم الله فى المحاربين ، وأراح الله من شرهما .

ولما خَمَدت نار الفتنة أظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الأندلس ما لم يكن فى حساب أهلها ، و بعث إلى جبل الفتح ولده الأسعد ، المبارك الأرشد ، أبا بكر المدعو من السمات السلطانية بالسعيد ، أسعده الله تعالى . وبعث معه أنجاد الفُرْسان ، ووجوه القبائل وكُفاة الرجال ، وأدرَّ عليهم الأرزاق ، ووسّـع لهم الإقطاع ، وحرّر بلادهم من المغارم ، وبذل لهم جزيل الإحسان .

وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكله ، فمثّل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصْنه وأبوابه ، ودار صنعته ومساجده ، ومخازن عُدده وأَهْرَاء[1] زرعه ، وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء . فصنع ذلك ، فكان شكلا عجيبا ، أتقنه الصناع إتقانا ، يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المِثَال . وما ذلك إلا لتشوُّقه أيده إلى استطلاع أحواله ، وتهمُّمه بتحصينه وإعداده . والله تعالى يجعل نصر الإسلام بالجزيرة الغربية على يديه ، ويحقق ما يؤمله فى الفتح .

وتذكرت حين هذا التقييد قول الأديب البليغ المُـفْلِق ، أبى عبد الله محمد ابن غالب الرُّصافى البَلَنْسى رحمه الله ، فى وصف هذا الجبل المبارك ، من قصيدته الشهيرة فى مدح عبد المؤمن بن على التى أولها :

---

(١) جمع هُرْى — وهو البيت العظيم تجمع فيه غلات السلطان .

لو جئت نار الهدى من جانب الطُّور قَبَسْتَ ما شئت من علم ومن نور

وفيها يقول فى وصف الجبـال وهو من البديع الذى لم يُسْبَق إليه ، بعد وصفه السفن وجَوازها :

حتى رمتْ جبل الفتحين مِنْ جبلٍ معظَّم القـدر فى الأجبال مذكورِ
من شامخ الأنف فى سَحْنائه(١) طَلَسٌ(٢) له من الغَـيْم جَيْبٌ غير مَزْرُورِ
تُمْسِى النجوم على تكليل(٣) مَفْرِقهِ فى الجـو حائمةً مثـل الدنانير
فربمـا مسحتْه من ذوائبهـا بكل فَضْـلٍ على فَوْدَيه(٤) مجرورِ
وأَدْرَدٍ من ثنـاياه بمـا أخذت منه معاجم أعواد الدهـاريرِ(٥)
مُحَنَّك حَلَب الأيام أَشْطُرَها(٦) وساقها سَوْق حادى العِير للعِيرِ(٧)
مُقَيَّـد الخَطْو جوَّال الخواطر فى عجيب أمريْه من ماض ومنظورِ(٨)
قد واصل الصمت والإطراق مُفْتكِرا بادِى السكينة مُغْفَرَّ الأساريرِ(٩)

---

(١) السحناء هنا اللون .

(٢) الغبرة إلى السواد .

(٣) إلباسه الإكليل وهو التاج .

(٤) الفود معظم شعر الرأس مما يلى الأذن .

(٥) الأدرد ذاهب الأسنان . والثنية الطريق فى الجبل . وهى أيضا إحدى الثنايا الأربع فى مقدم الفم . والمعاجم جمع معجم ، من عجم العود إذا عضه بأسنانه ليرى مقدار صلابته . والدهارير الأزمان الماضية ، لا واحد له .

(٦) مر به خيرها وشرها .

(٧) حادى العير سائقها . والعير الإبل التى تحمل الميرة .

(٨) المنظور المنتظر .

(٩) أسارير جمع أسرار وأسرار جمع سَرَر ، وأسارير الجبهة خطوطها .

كأنه مُكْمَدٌ مما تَعبَّده خوفُ الوعيدين من دكّ وتسييرِ (١)
أخلِقْ به وجبالُ الأرض راجفةٌ أن يطمئن غدا من كل محذور

ثم استمر فى قصيدته على مدح عبد المؤمن بن علىّ .

قال ابن جُزَىّ : ولنعد إلى كلام الشيخ أبى عبد الله ، قال : ثم خرجت من جبل الفتح إلى مدينة رُنْدَة ، وهى من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وضعا . وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داود العسكرىّ ، وقاضيها ابن عمى الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة . ولقيت بها الفقيه القاضى الأديب أبا الحجاج يوسف بن موسى المُنْتَشاقِرىّ . وأضافنى بمنزله . ولقيت بها أيضا خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا إسحاق إبراهيم المعروف بالشَّنْدَرُخ ، المتوفى بعد ذلك بمدينة سَلَا من بلاد المغرب . ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عبد الله الصَفّار وسواه . وأقمت بها خمسة أيام .

ثم سافرت منها إلى مدينة مَرْبَلَة ، والطريق فيما بينهما صعب شديد الوُعُورَة . ومربلة بُلَيْدَة حسنة خِصْبة . ووجدت بها جماعة من الفرسان متوجهين إلى مَالَقَة ، فأردت التوجه فى صحبتهم . ثم إن الله تعالى عصمنى بفضله ، فتوجهوا قبلى فأُسروا فى الطريق ، كما سنذكره . وخرجت فى إثرهم ، فلما جاوزت حَوْزَ مربلة ودخلت فى حَوْزِ سُهَيْل ، مررت بفرس ميت فى بعض الخنادق . ثم مررت بقُفَّة سمك مطروحة بالأرض ، فرابنى ذلك وكان أمامى بُرْج الناظور (٢) ،

---

(١) الكمدة تغير اللون . يعنى كأن هذا الجبل تغير لونه من خوفه أن يدك أو يسير ، وذلك يوم القيامة .

(٢) الناظور هو حافظ الكرم والنخل ، وكذا الناطور . ولكن المراد هنا من يشرف من مكان عال لينظر عن بعد . وهو بهذا المعنى غير عربى .

فقلت فى نفسى : لو ظهر ها هنا عدو لأنذر به صاحب البرج . ثم تقدمت إلى دار هنالك فوجدت عليها فرسا مقتولا . فبينما أنا هنالك إذ سمعت الصياح من خلفى ، وكنت قد تقدمت أصحابى ، فعدت إليهم فوجدت معهم قائد حصن سُهَيْل ، فأعلمنى أن أربعة (أجفان) للعدو ظهرت هنالك ، ونزل بعض عمارتها إلى البر . ولم يكن (الناظور) بالبرج ، فمر بهم الفرسان الخارجون من مَرْبَلَة ، وكانوا اثنى عشر . فقتل النصارى أحدهم ، وفر واحد وأسر العشرة ، وقتل معهم رجل حَوَّات ، وهو الذى وجدت قفته مطروحة بالأرض .

وأشار على ذلك القائد بالمبيت معه فى موضعه ، ليوصلنى منه إلى مَالَقَة . فبت عنده بحصن الرابطة ، والأجفان المذكورة مُرْساة عليه . وركب معى بالغد فوصلنا إلى مدينة مالقة ، إحدى قواعد الأندلس و بلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه . رأيت العنب يباع فى أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير . ورمانها الياقوتى لا نظير له فى الدنيا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحْوازها إلى بلاد المشرق والمغرب . قال ابن جُزَىّ : وإلى ذلك أشار الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن على المالَقى فى قوله ، وهو من مليح التجنيس :

مالقة حييتَ يا تينها ... فالفلك من أجلكَ يأتينها

نهى طبيبى عنكَ فى علةٍ ... ما لطبيبى عن حياتى نهى

(رجع) وبمالقة يصنع الفَخار المذهَّب العجيب ، ويجلب منها إلى أقاصى البلاد . ومسجدها كبير الساحة شهير البركة ، وصحنه لا نظير له فى الحسن ، فيه أشجار النَّارَنج البعيدة[1] . ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها الخطيب الفاضل أبا عبد الله ابن خطيبها الفاضل أبى جعفر ابن خطيبها ولىّ

---

(١) العالية .

الله تعالى ابى عبد الله الطَّنْجالى ، قاعدا بالجامع الأعظم ، ومعه الفقهاء ووجوه الناس ، يجمعون مالا برسم فِداء الأُسارى الذين تقدم ذكرهم . فقلت له : الحمد لله الذى عافانى ولم يجعلنى منهم . وأخبرته بما اتفق لى بعدهم ، فعجب من ذلك ، وبعث إلىّ بالضيافة ، رحمه الله .

ثم سافرت منها إلى مدينة بَلِّش ، وبينهما أربعة وعشرون ميلا . وهى مدينة حسنة بها مسجد عجيب ، وفيها الأعناب والفواكه والتين ، كمثل ما بمالقة . ثم سافرنا منها إلى الحَمَّة[1] وهى بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء ، وبها العين الحارة على ضِفَّة واد بها . وبينها وبين البلد ميل أو نحوه . وهنالك بيت لاستحمام الرجال ، وبيت لاستحمام النساء .

ثم سافرت منها إلى مدينة غَرْناطة ، قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها . وخارجها لا نظير له فى بلاد الدنيا ، وهو مسيرة أربعين ميلا ، يخترقه نهر شَنِّيل المشهور ، وسواه من الأنهار الكثيرة . والبساتين والجنان والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة . ومن عجيب مواضعها عين الدمع ، وهو جبل فيه الرياض والبساتين ، لا مثل لها بسواها . قال ابن جزىّ : لولا خشيتى أن أنسب إلى العَصَبِيَّة لأطلت القول فى وصف غرناطة ، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه . ولله در شيخنا أبى بكر محمد ابن أحمد بن شِيرين البُسْتىّ نزيل غرناطة ، حيث يقول :

رَعَى الله من غرناطة مُتبوَّأً ... يسر حزينا او يُجير طَرِيدا
تبرَّمَ منها صاحبى عند ما رأى ... مسارحها بالثلج عُدْنَ جَليدا
هى الثغر صان الله من أَهَلَّتْ به[2] ... وما خَيْرُ ثغر لا يكون بَرُودا

(١) الحمة : العين الحارة يستشفى بها الأعلاء والمرضى اه ياقوت . سميت به البلدة للعين الحارة التى بها .

(٢) أهلت به : قالت له : أهلا .

ذكر سلطانها

وكان ملك غَرْناطة فى عهد دخولى إليها السلطان أبو الحجاج يوسف ابن السلطان أبى الوليد إسماعيل بن فَرَج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر . ولم ألقه بسبب مرض كان به . وبعثت إلىّ والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفقتُ بها . ولقيت بغرناطة جملة من فضلائها ، منهم قاضى الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسينى السَّبْتى ، ومنهم فقيهها المدرس الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البَيَّانى ، ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لُبّ . ومنهم قاضى الجماعة ، نادرة العصر وطُرْفة الدهر ، أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السَّلَمى البَلَفْيقى ، قدم عليها من المَرِيّة فى تلك الأيام ، فلقيته فى بستان الفقيه أبى القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل أبى عبد الله بن عاصم . وأقمنا هنالك يومين وليلة .

قال ابن جُزَىّ : كنت معهم فى ذلك البستان ، ومتّعنا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته ، وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها ، واستفدنا منه الفوائد العجيبة . وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة . منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن ، أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجُذَامىّ . وهذا الفتى أمره عجيب ، فإنه نشأ بالبادية ، ولم يطلب العلم . ثم إنه نبغ فى الشعر الجيد ، الذى يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة ، مثل قوله :

يا من اختار فؤادى منزلا ... بابه العين التى تَرْمُقُهْ
فتح البابَ سهادى بعدكم ... فابعثوا طَيْفَكُمو يُغلقُهْ

(رجع) ولقيت بغَرْناطة شيخ الشيوخ والمتصوفين بها ، الفقيه أبا علىّ عمر ابن الشيخ الصالح الولىّ ، أبى عبد الله محمد بن المحروق. وأقمت أياما بزاويته التى بخارج غرناطة، وأكرمنى أشد الإكرام . وتوجهت معه إلى زيارة الزاوية الشهيرة البركة ، المعروفة برابطة العُقاب . والعقاب جبـل مُطِلّ على خارج غرناطة ، وبينهما نحو ثمـانية أميال . وبغرناطة جمـلة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم .

ثم رحلت من غرناطة إلى الحَمَّة، ثم إلى بَلَّش ، ثم إلى مَالَقَة، ثم إلى حصن ذَكْوان، وهو حصن حسن كثير المياه والأشجار والفواكه. ثم سافرت منه إلى رُنْدَة، ثم إلى قرية بنى رِيَاح، فأنزلنى شيخنا أبو الحسن علىّ بن سليمان الرِيَاحى، وهو أحد كرماء الرجال وفضلاء الأعيان ، يطعم الصادر والوارد . وأضافنى ضيافة حسنة . ثم سافرت إلى جبل الفتح . وركبت البحر فى الجفن[1] الذى جُزْت فيه أولا . فوصلت إلى سَبْتَة. ثم سافرت منها إلى أصيلا ، وأقمت بها شهورا . ثم سافرت منها إلى مدينة سَلَا . ثم سافرت من سَلَا فوصلت إلى مدينة مَرَّاكُش، وهى من أجمل المدن، فسيحة الأرجاء، متسعة الأقطار ، كثيرة الخيرات ، بها المساجد الضخمة ، كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكُتُبِيِّين . وبه الصَّوْمَعة الهائلة العجيبة، صعدتها وظهر لى جميع البلد منها ، وقد استولى عليه الخراب، فما شبهته إلا ببغداد، إلا أن أسواق بغداد أحسن. وبمَرَّاكش المدرسة العجيبة، التى تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة. وهى من بناء الإمام مولانا أمير المسلمين أبى الحسن ،رضوان الله عليه. قال ابن جُزَىّ: فى مَرَّاكُش يقول قاضيها التاريخى، أبوعبد الله محمد بن عبد الملك الأَوْسى:

لله مراكش الغرّاء مِنْ بلدٍ ... وحبذا أهلها السادات من سَكَنِ
إن حلَّها نازح الأوطان مغتربٌ ... أسلَوْه بالأنس عن أهل وعن وطنِ
بين الحديث بها أو العِيان لها ... يَنْشا التحاسدُ بين العين والأذْنِ

(١) تقدم الكلام على هذا اللفظ فى الحواشى .

(رجع) ثم سافرنا من مرّاكُش فى صحبة الركاب العلىّ، ركاب مولانا أيده الله، فوصلنا إلى مدينة سَلا، ثم إلى مدينة مِكْناسة العجيبة الخضِرة النَّضْرة، ذات البساتين والجنات، المحيطة بها من جميع نواحيها. ثم وصلنا إلى حضرة فاس حرسها الله تعالى، فودعت بها مولانا أيده الله. وتوجهت للسفر إلى بلاد السودان، فوصلت إلى مدينة سِجِلْماسة، وهى من أحسن المدن، وبها التمر الكثير الطيب. وتشبهها مدينة البصرة فى كثرة التمر، لكن تمر سجلماسة أطيب. ونزلت منها عند الفقيه أبى محمد البُشْرىّ، وهو الذى لقيت أخاه بمدينة قَنْجَنْفُو من بلاد الصين، فأكرمنى غاية الإكرام، واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر. ثم سافرت فى غُرّة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين، فى رُفْقة مقدَّمها أبى محمد يَنْدَكان المَسُّوفِى رحمه الله. وفيها جماعة من تجار سِجِلْماسة وغيرهم. فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تَغازا، وهى قرية لاخير فيها. ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسُقُفها من جلود الجمال. ولاشجر بها، وإنما هى رمل فيه معدن الملح، يحفر عليه فى الأرض، فيوجد منه ألواح ضِخام متراكبة، كأنها قد نُحتت ووضعت تحت الأرض، يحمل الجمل منها لوحين. ولا يسكنها إلا عبيد مَسُّوفة الذين يَحْفِرون على الملح. ويتعيشون بما يُجْلب إليهم من تمر دَرْعة وسِجِلْماسة، ومن لحوم الجمال. ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح. وبالملح يتصارف السودان كما يُتَصارف بالذهب والفضة، يقطعونه قطعا ويتبايعون به. وقرية تَغازا على حقارتها يُتَعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التِبْر. وأقمنا بها عشرة أيام فى جَهْد، لأن ماءها زُعاق(١)، وهى أكثر المواضع ذبابا. ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التى بعدها، وهى مسيرة عشرة لا ماء فيها إلا فى النادر. ووجدنا نحن بها ماء كثيرا فى غُدْران أبقاها المطر. ولقد وجدنا فى بعض الأيام غديرا بين تلين من

(١) ملح .

حجارة ماؤه عذب ، فَرَوِينا منه وغسلنا ثيابنا . وكنا فى تلك الأيام نتقدم أمام القافلة ، فإذا وجدنا مكانا يصلح للرَّعْى رعينا الدواب به . ولقد لقينا قافلة فى طريقنا ، فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم ، فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل ، وعليه ثيابه وفى يده سوط . وكان الماء على نحو ميل منه . ثم وصلنا إلى تاسَرَهْلا ، وهى أَحْساء[1] ماء تنزل القوافل عليها ، ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ، ويصلحون أسقيتهم ويملئونها بالماء ، ويخيطون عليها التلاليس[2] خوف الريح ، ومن هنالك يُبعث التكشيف .

ذكر (التكشيف)

والتكشيف اسم لكل رجل من مَسُّوفة يكتريه أهل القافلة ، فيتقدم إلى (إيوالاتن) بكتب الناس إلى أصحابهم بها ، ليكتروا لهم الدور ، ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة أربع . ومن لم يكن له صاحب بإيوالاتن ، كَتَب إلى من شُهِرَ بالفضل من التجار بها ، فيشاركه فى ذلك . وربما هلك التكشيف فى هذه الصحراء ، فلا يعلم أهل إيوالاتن بالقافلة ، فيهلك أهلها أو الكثير منهم . وتلك الصحراء كثيرة الشياطين ، فإن كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته ، حتى يضل عن قصده فيهلك[3] ، إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر، وإنما هى رمال تَسْفيها الريح ، فترى جبالا من الرمل فى مكان ، ثم تراها قد انتقلت إلى سواه . والدليل هنالك مَنْ كثر تردده وكان له قلب ذكىّ . ورأيت من العجائب أن الدليل الذى كان لنا أعور العين الواحدة ، مريض الثانية . وهو أعرف الناس بالطريق .

---

(١) جمع حَسْى وهو سهل من الأرض يستنقع فيه الماء .

(٢) جمع تِلِّيسة ، وعاء يسوى من الخوص .

(٣) هكذا اعتقادهم . ويظهر أنه نشأ عندهم من كثرة ما فى هذه الصحراء من المخاوف .

واكترينا التكشيف فى هـذه السفرة بمائة مثقال من الذهب . وهو من مَسُّوفة . وفى ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا ، فاستبشرنا بذلك . وهذه الصحراء منيرة مُشْرِقة ، ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس . وهى آمنة من السُّراق . والبقر الوحشية بها كثيرة ، يأتى القطيع منها حتى يقرب من الناس ، فيصطادونه بالكلاب والنُّشَّاب . لكن لحمها يولّد أكله العطش ، فيتحاماه كثير من الناس لذلك . ومن العجائب أن هذه البقر إذا قتلت وجد فى كروشها المـاء . ولقـد رأيت أهل مَسُّوفة يعصرون الكَرِش منها ، ويشربون المـاء الذى فيه . والحيّات أيضا بهذه الصحراء كثيرة .

حكاية

وكان فى القافلة تاجر تِلِمْسَانى يعرف بالحـاج زيّان ، ومن عادته أن يقبض على الحيات ويَعْبَث بها ، وكنت أنهاه عن ذلك فلا ينتهى . فلما كان ذات يوم ، أدخل يده فى جُحْر ضبٍّ ليخرجه فوجد مكانه حية ، فأخذها بيده ، وأراد الركوب ، فلسعته فى سَبابته اليمنى ، وأصابه وجع شديد . فكُويت يده ، وزاد ألمـه عشيّ النهار . فنحر جملا وأدخل يده فى كَرِشه ، وتركها كذلك ليـلة ، ثم تناثر لحم إصبعه ، فقطعها من الأصل . وأخبرنا أهل مَسّوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه . ولو لم تكن شربت لقتلته .

ولمـا وصل إلينا الذين استقبلونا بالمـاء شربت خيلنا . ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتى عَهِدْنا . وكنا نرحل بعد صلاة العصر ، ونَسْرى الليل كله ،

وننزل عند الصباح. وتأتى الرجال من مَسُّوفة و بَرْدامة وغيرهما بأحمال الماء للبيع.
ثم وصلنا إلى مدينة (إيوالاتن) فى غرة شهر ربيع الأول، بعد سفر شهرين كاملين من سِجِلْماسة. وهى أول عِمالة السودان، ونائب السلطان بها فَرْبا حسين. وفَرْبا معناه النائب. ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم فى رَحَبة، وتكفَّل السودان بحفظها. وتوجهوا إلى الفَرْبا، وهو جالس على بساط فى سَقِيف، وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقِسِىّ، وكبراء مَسُّوفة من ورائه. ووقف التجار بين يديه، وهو يكلمهم بِتُرجمان على قربهم منه احتقارا لهم. فعند ذلك ندِمتُ على قدومى بلادهم، لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض. وقصدت دار ابن بَدَّاء، وهو رجل فاضل من أهل سَلاَ، كنت كتبت له أن يكترى لى دارا ففعل ذلك.

ثم إن مُشْرِف إيوالاتِن، ويسمى مَنْشَاجُو، استدعى من جاء فى القافلة إلى ضيافته، فأبيت حضور ذلك. فعزم الأصحاب علىّ أشد العزم، فتوجهت فيمن توجه. ثم أُتِى بالضيافة، وهى جَرِيش مخلوط بيسير عسل ولبن، قد وضعوه فى نصف قرعة صيَّروه شِبه الجفنة. فشرب الحاضرون وانصرفوا. فقلت لهم: ألهذا دعانا الأسود؟ قالوا: نعم، وهو الضيافة الكبيرة عندهم. فأيقنت حينئذ أن لاخير يُرتجى منهم. وأردت أن أسافر مع حُجَّاج إيوالاتن. ثم ظهر لى أن أتوجه لمشاهدة حضرةِ ملكهم. وكانت إقامتى بإيوالاتِن نحو خمسين يوما. وأكرمنى أهلها وأضافونى. وبلدة إيوالاتن شديدة الحر. وفيها يسير نُخَيلات يزدرعون فى ظلالها البِطيخ. وماؤهم من أحساء بها. ولحم الضأن كثير بها. وثياب أهلها حِسان مِصْرية. وأكثر السكان بها من مَسُّوفة. ولنسائها الجمال الفائق. وهنّ أعظم شأنا من الرجال.

ذكر مَسُّوفة الساكنين بإيوالاتن

وشأن هؤلاء عجيب ، وأمرهم غريب . فأما رجالهم فلا غَيْرة لديهم . ولا يُنْسب أحدهم إلى أبيه، بل ينتسب لخاله . ولا يرث الرجلَ إلا أبناء أخته دون بنيه . وذلك شيء ما رأيته فى الدنيا، إلا عند كفار بلاد المُلَيْبار من الهنود . وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات، وتعلم الفقة وحفظ القرآن . وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن، مع مواظبتهن على الصلوات . ومن أراد التزوج منهن تزوج ، لكنهن لا يسافرن مع الزوج . ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها .

ولما عزمت على السفر إلى (مالّى) و بينها و بين إيوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوما للمُجِدّ ، اكتريت دليلا من مَسُّوفة ، وخرجت فى ثلاثة من أصحابى . وتلك الطريق كثيرة الأشجار . وأشجارها عاديّة ضخمة، تستظل القافلة بظل الشجرة منها . و بعضها لا أغصان لها ولا ورق ، ولكن ظل جَسَدها بحيث يستظل به الإنسان. و بعض تلك الأشجار قد استأسن داخلها، واستنقع فيه ماء المطر ، فكأنها بئر . و يشرب الناس من الماء الذى فيها . و يكون فى بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس منها . ولقد مررت بشجرة منها فوجدت فى داخلها رجلا حائكا وهو ينْسُج ، فعجبت منه . وفى أشجار هذه الغابة التى بين إيوالاتن ومالّى مايشبه ثمرة الإجّاص والتفاح والخوخ والمِشْمِش ، وليست بها . وفيها أشجار تثمر شبه الفَقُّوص(١)، فإذا طاب انفلق عن شىء شِبْهِ الدقيق، فيطبخونه و يأكلونه ، و يباع بالأسواق . و يستخرجون من هذه الأرض حباتٍ كالفول، فيقلونها و يأكلونها. وطعمها كطعم الحِمِّص(٢)

---

(١) انظر صفحة ٣١٨

(٢) يقال فيه : حِمَّص وحِمِّص .

المقلو. وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الإسْفَنْج وقلوه (بالغَرْتي)، وهو ثمر كالإجّاص شديد الحلاوة . ويُدَقّ عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع : فمنها أنهم يطبخون به ويُسْرجون السُّرُج ، ويقلون به هذا الإسْفَنْج ، ويدّهنون به ، ويخلطونه بتراب عندهم ويسطّحون به الدور كما تُسَطَّح بالجير. وهو عندهم كثير متيسر ، ويحمل من بلد إلى بلد في قَرْع كبار ، تسع القرعة منها قدر ما تسعه القُلَّة ببلادنا . والقرع ببلاد السودان يعظم . ومنه يصنعون الجفان ، يقطعون القرعة نصفين ، فيصنعون منها جفنتين ، ويَنْقُشونها نقشا حسنا . وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه ، يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها . وهي من القرع .

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا إداما ولا دينارا ولا درهما ، وإنما يحمل قطع الملح وحَلْي الزجاج ، وبعض السِّلَع العِطْرية . وأكثر ما يعجبهم منها القَرَنْفُل والمَصْطَكا . فإذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج ودقيق النَّبْق ، والأرز (والفُوني) ، وهو كحب الخردل يصنع منه العصيدة ، ودقيق اللُّوبياء. فيشترى منهن ما أحب من ذلك . وبعد مسيرة عشرة أيام من إيوالاتن ، وصلنا إلى قرية زاغَرِي ، وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ، ويسكن معهم جماعة من البيض .

ثم سرنا من زَاغَرِي ، فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل ، وعليه بلدة كارْسَخُو . والنيل يحدر منها إلى كَابَرَة، ثم إلى زاغة. ولكابرة و زاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالّي . وأهل زَاغَة قدماء في الإسلام، ولهم ديانة وطلب للعلم . ثم يحدر النيل من زاغة إلى تُنْبُكْتُو ، ثم إلى كَوْكَوْ ، وسنذكرهما ، ثم إلى بلدة مُولِي من بلاد اليميّين ، وهي آخر عمالة مالّي ، ثم إلى يُوفِي ، وهي من أكبر بلاد السودان ، وسلطانها من أعظم سلاطينهم ، ولا يدخلها

الأبيض من الناس ، لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها . ثم ينحدر إلى بلاد النُّوبة ، وهم على دين النصرانية . ثم إلى دُنْقُلة وهى أكبر بلادهم ، وسلطانها يدعى بابن كنز الدين ، أسلم على أيام الملك الناصر . ثم ينحدر إلى جنادل ، وهى آخر عمالة السودان ، وأول عمالة أسْوان من صعيد مصر . ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير . ولقد نزلت يوما إلى النيل لقضاء حاجة ، فإذا بأحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني وبين النهر ، فعجبت من سوء أدبه وقلة حيائه ، وذكرت ذلك لبعض الناس . فقال : إنما فعل ذلك خوفا عليك من التمساح ، فحال بينك وبينه .

ثم سرنا من كارْسَخُو ، فوصلنا إلى نهر صَنْصَرة ، وهو على نحو عشرة أميال من مالّى . وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بالإذن . وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البِيض ، ليكتروا لى دارا . فلما وصلت إلى هذا النهر جُزْت فى (المعدية) ولم يمنعنى أحد ، فوصلت إلى مدينة مالّى حضرة ملك السودان ، فنزلت عند مقبرتها . ووصلت إلى مَحَلّة البيض ، وقصدت محمد ابن الفقيه الجُزُولى ، فوجدته قد اكترى لى دارا إزاء داره ، فتوجهت إليها . وجاء صهره الفقيه المقرئ عبد الواحد بشمعة وطعام ، ثم جاء ابن الفقيه إلىّ من الغد . ولقيت القاضى بمالّى عبد الرحمن ، جاءنى . وهو من السودان ، حاج فاضل له مكارم أخلاق . بعث إلى بقرة فى ضيافته . ولقيت الترجمان دُوغَا ، وهو من أفاضل السودان وكبارهم . وبعث إلى بثور . وبعث إلىّ الفقيه عبد الواحد غرارتين من (الفُونِى) وقرعة من (الغَرْتى) . وبعث إلىّ ابن الفقيه الأرز والفونى . وقاموا بحق أتم قيام . شكر الله حسن أفعالهم .

وكان ابن الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان . فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره . وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شىء يشبه القلقاس ،

يسمى القافِى. وهى عندهم مفضَّلة على سائر الطعام. فأصبحنا جميعا مرضى، وكنا ستة، فمات أحدنا . وذهبت أنا لصلاة الصبح فَغُشِىَ علىّ فيها . وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلا، فأتى بشىء يسمى (بَيْدَرا)، وهو عروق نبات، وخلطه بالأَنِيسُون والسكر، ولتّه بالماء، فشربته وتقيأت ما أكلته، مع صَفْراء كثيرة . وعافانى الله من الهلاك، ولكنى مرضت شهرين .

ذكر سلطان مالِّى

وهو السلطان مَنْسَا سليمان، ومنسا معناه السلطان، وسليمان اسمه . وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء . واتفق أنى أقمت هذه المدّة ولم أره بسبب مرضى. ثم صنع طعاما برسم عزاء مولانا أبى الحسن رضى الله عنه، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضى والخطيب . وحضرت معهم، فأتوا بالربعات[1]، وختم القرآن. ودعوا لمولانا أبى الحسن رحمه الله، ودعوا لمنسا سليمان . ولما فُرِغ من ذلك، تقدمت فسلمت على مَنْسَا سليمان، وأعلمه القاضى والخطيب وابن الفقيه بحالى، فأجابهم بلسانهم . فقالوا لى: يقول لك السلطان: اشكر الله . فقلت : الحمد لله والشكر على كل حال .

ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها

ولما انصرفت بعث إلى الضيافة، فَوُجِّهتْ إلى دار القاضى، وبعث القاضى بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه، فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافى القدمين، فدخل علىّ وقال : قم، قد جاءك (قُماش) السلطان وهديته .

---

(١) الربعة أجزاء المصحف الشريف مجموعة فى وعاء أو صندوق، وهى تسمية عرفية - وأصل الربعة جونة العطار، وهى سلة صغيرة مغشاة بالجلد يوضع فيها العطر .

فقمت، وظننت أنها الخلع والأموال، فإذا هى ثلاثة أقراص من الخبز، وقطعة لحم بقرى مقلوة بالغرتى، وقرعة فيها لبن رائب. فعند ما رأيتها ضحكت، وطال تعجبى من ضعف عقولهم، وتعظيمهم للشىء الحقير.

ذكر كلامى للسلطان بعد ذلك وإحسانه إلىّ

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل إلىّ فيهما شئ من قِبَل السلطان. ودخل شهر رمضان. وكنت فى خلال ذلك أتردد إلى (المشور)، وأسلم عليه، وأقعد مع القاضى والخطيب. فتكلمت مع دُوغا التُرجمان، فقال: تكلم عنده، وأنا أعبر عنك بما يجب. فجلس فى أوائل رمضان، وقمت بين يديه، وقلت له: إنى سافرت فى بلاد الدنيا ولقيت ملوكها، ولى ببلادك أربعة أشهر، ولم تُضِفْنى ولا أعطيتنى شيئا. فماذا أقول عنك عند السلاطين؟ فقال: إنى لم أرك ولا علمت بك. فقام القاضى وابن الفقيه فردّا عليه، وقالا: إنه قد سلّم عليك، وبعثت إليه الطعام. فأمر لى عند ذلك بدار أنزل بها، ونفقة تجْرِى علىّ. ثم أعطى القاضى والخطيب والفقهاء مالا، ليلة سبع وعشرين من رمضان، يسمونه الزكاة. وأعطانى معهم ثلاثة وثلاثين مِثقالا وثلثا، وأحسن إلىّ عند سفرى بمائة مثقال ذهبا.

ذكر جلوسه بقبته

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره، يقعد فيها أكثر الأوقات. ولها من جهة (المشور) طِيقان[١] ثلاثة من الخشب، مُغَشّاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب، أو هى فضة مذهبة، وعليها ستور (مِلَف)[٢].

(١) جمع طاق، وهو ما عطف من الأبنية. قاموس.

(٢) سبق فى الحواشى أنه نسيج يشبه ما يسمى (الجوخ) عندنا واللفظ بهذا المعنى غير عربى.

فإذا كان يوم جلوسه بالقبة ، رُفعت الستور فعَلِم أنه يجلس. فإذا جلس أخْرج من شُبّاك أحد الطيقان (شرابة) حرير ، قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم . فإذا رأى الناس المنديل ضُربت الأطبال والأبواق . ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد ، فى أيدى بعضهم القِسىّ ، وفى أيدى بعضهم الرماح الصغار والدَّرَق . فيقف أصحاب الرماح منهم مَيْمَنَة ومَيْسَرَة . و يجلس أصحاب القِسىّ كذلك ، ثم يؤتى بفرسين مُسْرَجين مُلْجَمين ومعهما كَبْشان ، يذكرون أنهما ينفعان من العين . وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين ، فيدعون نائبه قَنْجا موسى. وتأتى (الفَرارِيّة) ، وهم الأمراء. و يأتى الخطيب والفقهاء، فيقعدون أمام (السِّلحدارِيّة) يَمْنةو يَسْرةفى(المشور). و يقف دُوغا الترجمان على باب (المشور)،وعليه الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه عمامة ذات حَوَاش ، لهم فى تعميمها صنعة بديعة ، وهو متقلد سيفا غِمْده من الذهب ، وفى رجليه الخُف والمهاميز . ولا يلبس أحد ذلك اليوم خُفًا غيره، و يكون فى يده رمحان صغيران، أحدهما من ذهب والآخر من فضة ، وسِنَاناهما من الحديد .

و يجلس الأجناد والولاة والفِتْيان وغيرهم فى خارج(المشور)،فى شارع هنالك متسع فيه أشجار . وكل (فَرارِىّ) بين يديه أصحابه بالرماح والقِسىّ والأطبال والأبواق ، وأبواقهم من أنياب الفيلة ، وآلات[1] الطرب المصنوعة من القصب والقرع ، ولها صوت عجيب . وكل فَرارِىّ له كِنانة قد علقها بين كتفيه ، وقوسه بيده ، وهو راكب فرسه ، وأصحابه بين مُشاة وركبان . و يكون بداخل(المشور)تحت الطيقان رجل واقف : فمن أراد أن يكلم السلطان كلّم دُوغا ، و يكلم دوغا ذلك الواقف ، و يكلم الواقف السلطان .

(١) معطوف على قوله : بالرماح

ذكر جلوسه بالمشور

ويجلس أيضا فى بعض الأيام (بالمشور). وهنالك مِصْطَبَة تحت شجرة، لها ثلاث درجات يسمونها (البَنْبِي)، تفرش بالحرير وتجعل المخادّ عليها، ويرفع (الشطر) وهو شبه قبة من الحرير، وعليه طائر من ذهب على قدر البازى. ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر، وقوسه بيده، وكِنانته بين كتفيه. وعلى رأسه (شاشيّة) ذهب، مشدودة بعصابة ذهب، لها أطراف مثل السكاكين رِقاق، طولها أزيد من شبر. وأكثر لباسه جُبّة حمراء مُوَبَّرة[1] من الثياب الروميّة التى تسمى المُطَنْفَس. ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر[2] الذهب والفضة. وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح. ويمشى مشيا رويدا، ويكثر التأنى. وربما وقف ينظر إلى الناس. ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر. وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنقار[3]. ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين، فيدعون النائب (والفراريّة)، فيدخلون ويجلسون. ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما. ويقف دُوغا على الباب، وسائر الناس فى الشارع تحت الأشجار.

ذكر تذلل السودان لملكهم وتَتْرِيبهم له وغير ذلك من أحوالهم

والسودان أعظم الناس تواضعا لملكهم، وأشدهم تذللا له. ويحلفون باسمه. فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التى ذكرناها، نزع المدعو ثيابه

---

(١) ذات وَبَر

(٢) المراد من قنابر الذهب هنا غير ظاهر — ويحتمل أن يكون المراد صورا من الذهب على شكل هذا الطائر المعروف وهو القُبَّرة. ويسمى أيضا القُنْبُراء. والجمع قنابر.

(٣) سبق الكلام على هذا اللفظ فى الحواشى.

ولبس ثيابا أخلاقا ، ونزع عمامته وجعل (شاشية) وسخة ، ودخل رافعا ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه ، وتقدم بذلّة ومَسْكَنة ، وضرب الأرض بِمِرْفَقيه ضربا شديدا ، ووقف كالراكع يسمع كلامه .

وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه ، كشف ثيابه عن ظهره ، ورمى بالتراب على رأسه وظهره ، كما يفعل المغتسل بالماء . وكنت أعجب منهم كيف لا تَعْمَى أعينهم . وإذا تكلم السلطان فى مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رءوسهم وأنصتوا للكلام . وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله فى خدمته ، ويقول : فعلت كذا يوم كذا ، وقتلت كذا يوم كذا ، فيصدقه من علم ذلك . وتصديقهم أن يَنْزِع [1] أحدهم فى قوسه ، ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى . فإذا قال له السلطان : صدقت ، أو شكره ، نزع ثيابه وترّب . وذلك عندهم من الأدب . قال ابن جُزَىّ : وأخبرنى الصاحب العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان ، أعزه الله ، أنه لما قدم الحاج موسى الوَنْجَراتى رسولا عن مَنْسَا سليمان ، إلى مولانا أبى الحسن رضى الله عنه ، كان إذا دخل المجلس الكريم ، حمل بعض ناسه معه قُفّة تراب ، فيترّب إذا قال له مولانا كلاما حسنا ، كما يفعل ببلاده .

ذكر فعله فى صلاة العيد وأيامه

وحضرت بمالّى عيدى الأضحى والفطر ، فخرج الناس إلى المصلّى ، وهو قريب من قصر السلطان ، وعليهم الثياب البيض الحسان . وركب السلطان وعلى رأسه الطَّيْلَسان . والسودان لا يلبسون الطيلسان إلا فى العيد ، ما عدا القاضى والخطيب والفقهاء ، فإنهم يلبسونه فى سائر الأيام . وكانوا يوم العيد

---

(١) نزع فى قوسه مدها استعدادا للرمى .

بين يدى السلطان ، وهم يهللون ويكبرون ، وبين يديه العلامات الحمر من الحرير . ونُصب عند المصلى خِباء ، فدخله السلطان وأصلح من شأنه . ثم خرج إلى المصلى ، فقُضيت الصلاة والخطبة . ثم نزل الخطيب ، وقعد بين يدى السلطان ، وتكلم بكلام كثير . وهنالك رجل بيده رمح ، يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب : وذلك وعظ وتذكير ، وثناء على السلطان ، وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه .

ويجلس السلطان فى أيام العيدين بعد العصر على (البَنْبِى) ، وتأتى (السلحدارية) بالسلاح العجيب ، من تراكش [١] الذهب والفضة ، والسيوف المحلاة بالذهب ، وأغمادها منه ، ورماح الذهب والفضة ، ودبابيس البلّور . ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشرِّدون الذباب ، وفى أيديهم حِلْية من الفضة تشبه رِكاب السَّرْج . ويجلس (الفرارية) والقاضى والخطيب على العادة . ويأتى دُوغا التَّرجمان بنسائه الأربع وجواريه وهن نحو مائة ، وعليهن الملابس الحسان ، وعلى رءوسهن عصائب الذهب والفضة ، وفيها تفافيح ذهب وفضة . وينصب لدُوغَا كرسى يجلس عليه ، ويضرب آلة من قَصَب وتحتها قُرَيْعات . ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ، ويذكر غزواته وأفعاله . وتغنى النساء والجوارى معه ، ويلعبن بالقسىّ ، ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه ، عليهم جِباب [٢] (المِلَفّ) الحمر ، وفى رءوسهم (الشَّواشى) البيض . وكل واحد منهم متقلد طبله يضرب به . ثم يأتى أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون فى الهواء . ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة . ويلعبون بالسيوف أجمل لعب . ويلعب دُوغا بالسيف لعبا بديعا . وعند ذلك يأمر السلطان له

---

(١) سبق تفسير هذه الكلمة ، وأنها جمع تركش ، جعبة السهام ، غير عربية .

(٢) جمع جبة .

بالإحسان ، فيؤتى بصُرَّة فيهـا مائتا مثقال من التبر . ويذكر له ما فيها على رءوس الناس ، ويقوم (الفرارية) فيتزعون فى قِسِيّهم شكرا للسلطان . وبالغد يعطى كلُّ واحد منهم دُوغا عطاء على قدره . وفى كل يوم جمعة بعد العصر، يفعل دُوغا مثل هذا الذى ذكرناه .

ذكر الأُضْحُوكة فى إنشاد الشعراء للسلطان

وإذا كان يوم العيد وقد أتم دُوغا لعبه ، جاء الشعراء وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش ، تشبه الشِقْشاق[1] ، وجُعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر ، كأنه رأس الشقشاق . ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة ، فينشدون أشعارهم . وذكر لى أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان : إن هذا (البَنْبى) الذى تجلس عليه ، جلس فوقه من الملوك فلان ، وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان ، وكان من أفعاله كذا . فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك . ثم يصعد كبير الشعراء على دَرَج (البنبى) ، ويضع رأسه فى حِجْر السلطان ، ثم يصعد إلى أعلى (البنبى) ، فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ، وهو يتكلم بلسانهم . ثم ينزل . وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الإسلام ، فاستمروا عليه .

---

(١) لم نجد الشقشاق فيما بأيدينا من الكتب . ولعله يريد الشِّقِرّاق ، طائر مرقط بحمرة وخضرة وبياض .

حكاية

وحضرت مجلس السلطان فى بعض الأيام، فأتى أحد فقهائهم، وكان قدم من بلاد بعيدة، وقام بين يدى السلطان وتكلم كلاما كثيرا، فقام القاضى فصدّقه، ثم صدّقهما السلطان. فوضع كل واحد منهما عمامته عن رأسه، وترّب بين يديه. وكان إلى جانبى رجل من البيض فقال لى: أتعرف ما قالوه؟ فقلت: لا أعرف. فقال: إن الفقيه أخبر أن الجراد وقع ببلادهم، فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد، فهاله أمره. فقال: هذا جراد كثير. فأجابته جرادة منها وقالت: إن البلاد التى يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها. فصدّقه القاضى والسلطان، وقال عند ذلك للأمراء: إنى برىء من الظلم، ومن ظلم منكم عاقبته، ومن علم بظالم ولم يعلمنى به، فذنوب ذلك الظالم فى عنقه، والله حسيبه وسائله. ولما قال هذا الكلام، وضع (الفراريّة) عمائمهم عن رءوسهم، وتبرءوا من الظلم.

حكاية

وحضرت الجمعة يوما، فقام أحد التجار من طلبة مسّوفة، ويسمى بأبى حفص، فقال: يأهل المسجد، أشهدكم أن منسّا سليمان فى دعوتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]. فلما قال ذلك، خرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان، فقالوا له: من ظلمك؟ من أخذ لك شيئا؟

(١) يريد أنه يحتكم معه إلى النبى عليه السلام

فقال : مَنْشاجو إبوالاتن ، يعنى مُشْرِفها ، أخذ منى ما قيمته ستمائة مثقال ، وأراد أن يعطينى فى مقابلتــه مائة مثقال . فبعث السلطان إليــه للحين ، فحضر بعد أيام ، وصرفهما للقاضى ، فثبت للتــاجر حقه فأخذه . وبعد ذلك عُزِل المشرف عن عمله .

حكاية

واتفق فى أيام إقامتى بمالىّ أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة قاسا . ومعنى قاسا عندهم الملكة ، وهى شريكته فى الملك ، على عادة السودان ، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر . وسجنها عنــد بعض (الفرارية) ، وولّى فى مكانها زوجته الأخرى بَنْجُو ، ولم تكن من بنــات الملوك . فأكثر الناس الكلام فى ذلك ، وأنكروا فعله . ودخلت بنات عمه على بَنْجُو يهنئنها بالمملكة ، فجعلن الرماد على أذرعهن ، ولم يُتَرِّبْنَ رءوسهن .

ثم إن السلطان سَرَّح قاسا . فدخلت عليهــا بنات عمه يهنئنها بالسَراح ، وتَرَّبْنَ على العادة . فشكت بَنْجُو إلى السلطان . فغضب على بنات عمه ، فخفن منه واستجرن بالجامع . فعفا عنهن واستدعاهن ، ورضى عنهن ، وصرن يأتين باب السلطان غُدُوّا وعَشِيّا مدة سبعة أيام . وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان . وصارت قاسا تركب كل يوم فى جواريها وعبيدها وعلى رءوسهم التراب ، وتقف عند (المشور) متنقِّبة لا يرى وجهها . وأكثر الأمراء الكلام فى شأنها . فجمعهم السلطان فى (المشور) ، وقال لهم دُوغا على لسانه : إنكم قد أكثرتم الكلام فى أمر قاسا ، وأنهــا أذنبت ذنبا كبيرا . ثم أتى بجارية من جواريها مقيَّدة مغلولة ، فقيل لها : تكلمى بما عندك . فأخبرت أن قاسا بعثتها

إلى جَاطَل ابن عم السلطان ، الهارب عنه إلى كَنْبُرْنِي ، واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه ، وقالت له : أنا وجميع العساكر طوع أمرك . فلما سمع الأمراء ذلك قالوا : إن هذا ذنب كبير وهي تستحق القتل عليه . فخافت قاسا ذلك ، واستجارت بدار الخطيب . وعادتهم أن يستجيروا هنالك بالمسجد ، وإن لم يمكن فبدار الخطيب .

وكان السودان يكرهون مَنْسَا سليمان لبخله . وكان قبله مَنْسَا مَغَا ، وقبل مَنْسَا مَغَا مَنْسَا موسى ، وكان كريما فاضلا يحب البيض ويحسن إليهم . وهو الذي أعطى أبا إسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال . وأخبرني بعض الثقات أنه أعطى مُدْرِك بن فَقُّوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد .

حكاية

وأخبرني الفقيه مُدْرِك هذا أن رجلا من أهل تِلِمْسان يعرف بابن شيخ اللَّبَن ، كان قد أحسن إلى السلطان مَنْسَا موسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلث ، وهو يومئذ صبي . ثم اتفق أن جاء إليه في خصومة وهو سلطان ، فعرفه وأدناه منه ، حتى جلس معه على (البَنْبي) ، ثم قرَّره على فعله معه . وقال للأمراء : ما جزاء من فعل ما فعله من الخير ؟ فقالوا له : الحسنة بعشرة أمثالها ، فأعطه سبعين مثقالا . فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكُسْوة وعبيدا وخدما ، وأمره ألا ينقطع عنه . وأخبرني بهذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ اللبن . وهو من الطلبة ، يعلم القرآن بمالّي .

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها

فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه . وسلطانهم لا يسامح أحدا فى شىء منه . ومنها شمول الأمن فى بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقا ولا غاصبا . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ، ولو كان القناطير المقنطرة ، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه . ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها فى الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد ، لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام . ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته ، فيبسطها له بموضع يستحقه به ، حتى يذهب إلى المسجد . وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ، ولا ثمر له . ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة . ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة .

ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، وهم يجعلون لأولادهم القيود ، إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه . ولقد دخلت على القاضى يوم العيد ، وأولاده مقيدون ، فقلت له : ألا تسرحهم ؟ فقال : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن . ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفى رجله قيد ثقيل ، فقلت لمن كان معى : ما فعل هذا ، أقتل ؟ ففهم عنى الشاب وضحك . وقيل لى : إنما قيد حتى يحفظ القرآن .

ومن مساوئ أفعالهم أنّ الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا ، ولقد كنت أرى فى رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة فإن عادة (الفَرَارِيّة) أن يُفطروا بدار السلطان، ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فمن فوقهن من جواريه ، وهنّ عرايا . ومنها جعلهم التراب والرماد على رءوسهم تأدبا . ومنها ما ذكرته من الأضحوكة فى إنشاد الشعراء . ومنها أن كثيرا منهم يأكلون الجِيَف والكلاب والحمير .

ذكر سفرى عن مالِّى

وكان دخولى إياها فى الرابع عشر لجُمادَى الأولى سنة ثلاث وخمسين ، وخروجى عنها فى الثانى والعشرين لمحرم سنة أربع وخمسين . ورافقنى تاجر يعرف بأبى بكر بن يعقوب . وقصدنا طريق مِيمة . وكان لى جمل أركبه ، لأن الخيل غالية الأثمان ، يساوى أحدها مائة مثقال . فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل ، لا يُجاز إلا فى المراكب . وذلك الموضع كثير البعوض ، فلا يمر أحد به إلا بالليل . ووصلنا الخليج ثلث الليل ، والليل مُقْمِر .

ذكر الخيل التى تكون بالنيل

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضِفّته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة ، فعجبت منها وظننتها فيلة، لكثرتها هنالك . ثم إنى رأيتها دخلت فى النهر ، فقلت لأبى بكر بن يعقوب : ما هذه الدواب ؟ فقال : هى خيل البحر ، خرجت ترعى فى البر . وهى أغلظ من الخيل ، ولها أعراف وأذناب ،

ورءوسها كرءوس الخيل ، وأرجلها كأرجل الفيلة . ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تُنْبُكْتُو إلى كَوْكَوْ ، وهي تعوم في الماء وترفع رأسها وتنفخ . وخافها أهل المركب ، فقَرُبوا من البر لئلا تُغرقهم . ولهم حيلة في صيدها حسنة : وذلك أن لهم رماحا مثقوبة ، قد جعل في ثَقْبها شرائط وثيقة ، فيضربون الفرس منها ، فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه انفذته ، وجذبوه بالحبل حتى يصل إلى الساحل . فيقتلونه ويأكلون لحمه . ومن عظامها بالساحل كثير . وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة ، عليها حاكم من السودان ، حاج فاضل يسمى فَرْبَامَغَا . وهو ممن حج مع السلطان مَنْسَا موسى لما حج .

حكاية

أخبرني فَرْبَامَغَا أن مَنْسَا موسى لما وصل إلى هذا الخليج ، كان معه قاض من البيض يُكْنَى بأبي العباس ، فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته . فلما وصلوا إلى مِيمة شكا إلى السلطان أن أربعة آلاف المثقال سرقت من داره . فاستحضر السلطان أمير مِيمة ، وتوعّده بالقتل إن لم يُحضر من سرقها . وطلب الأمير السارق فلم يجد أحدا . ولا سارق بتلك البلاد . فدخل دار القاضي واشتد على خدامه وهدّدهم . فقالت له إحدى جواريه : ماضاع له شيء ، وإنما دفنها بيده في ذلك الموضع . وأشارت له إلى الموضع ، فأخرجها الأمير وأتى بها السلطان ، وعرفه الخبر . فغضب على القاضي ، ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم . فأقام عندهم أربع سنين . ثم ردّه إلى بلده . وإنما لم يأكله الكفار لبياضه ، لأنهم يقولون : إن أكل الأبيض مضر ، لأنه لم يَنْضَج ، والأسود هو النضيج بزعمهم .

حكاية

قدمتُ على السلطان مَنْسا سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بنى آدم ، ومعهم أميرهم. وعادتهم أن يجعلوا فى آذانهم أقراطا كبارا، وتكون فتحة(١) القُرْط منها نصف شِبْر . ويلتحفون بملاحف الحرير . وفى بلادهم معدن الذهب . فأكرمهم السلطان وأعطاهم فى الضيافة خادما ، فذبحوها وأكلوها ، ولطَّخوا وجوههم وأيديهم بدمها ، وأتوا السلطان شاكرين . وأُخْبِرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك .

ثم رحلنا من هذه القرية التى عند الخليج ، فوصلنا إلى بلدة قُرِى مَنْسَا . ومات لى بها الجمل الذى كنت أركبه ، فأخبرنى راعيه بذلك، فخرجت لأنظر إليه ، فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم فى أكل الجِيَف . فبعثت غلامين كنت استأجرتهما لخدمتى ، ليشتريا لى جملا بزاغَرِى ، وهى على مسيرة يومين . وأقام معى بعض أصحاب أبى بكر بن يعقوب ، وتوجّه هو لينتظرنا بمِيمة، فأقمت سبعة أيام، أضافنى فيها بعض الحجاج بهذه البلدة، حتى وصل الغلامان بالجمل .

حكاية

وفى أيام إقامتى بهذه البلدة، رأيت ليلة فيما يرى النائم كأن إنسانا يقول لى : محمد بن بطوطة لماذا لا يقرأ سورة يس فى كل يوم ؟ فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم فى سفر ولا حَضَر . ثم رحلت إلى بلدة مِيمة ، فنزلنا على آبار

(١) الظاهر أنه يقصد بفتحة القرط قطره .

بخارجها . ثم سافرنا منها إلى مدينة تُنْبُكْتُو . وبينها وبين النيل أربعة أميال . وأكثر سكانها مَسُّوفَة أهل اللثام . وحاكمها يسمى فَرْبَا موسى . حضرت عنده يوما وقد قدم أحد أهل مَسُّوفة أميرا على جماعة ، فجعل عليه ثوبا وعمامة وسراويل كلها مصبوغة ، وأجلسه على دَرَقة[1] ، ورفعه كبراء قبيلته على رءوسهم . وبهذه البلدة قبر الشاعر المُفْلِق أبى إسحاق الساحلى الغَرْناطى . وبها قبر سراج الدين بن الكُوَيْك ، أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية .

حكاية

كان السلطان مَنْسَا موسى لما حج ، نزل بِرَوْض لسراج الدين هذا بِبركة الحَبَش خارج مصر ، وبها ينزل السلطان . واحتاج إلى مال فتسلّفه من سراج الدين . وتسلّف منه أمراؤه أيضا . وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضى المال ، فأقام بمالّى . فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له . فلما وصل تُنْبُكْتُو أضافه أبو إسحق الساحلى ، فكان من القَدَر موته تلك الليلة ، فتكلم الناس فى ذلك ، واتهموا أنه سُمّ . فقال لهم ولده : إنى أكلت معه ذلك الطعام بعينه ، فلو كان فيه سم لقتلنا جميعا ، لكنه انقضى أجله . ووصل الولد إلى مالّى واقتضى ماله ، وانصرف إلى ديار مصر .

ومن تُنْبُكْتُو ركبت النيل فى مركب صغير منحوت من خشبة واحدة . وكنا ننزل كل ليلة بالقُرى ، فنشترى مانحتاج إليه من الطعام والسمن ، بالملح وبالعِطْرِيّات وبحَلْى الزجاج . ثم وصلت إلى بلد أُنْسِيتُ اسمه ، له أمير فاضل حاج يسمى فَرْبَا سليمان ، مشهور بالشجاعة والشدة ، لا يتعاطى أحد النزْع

---

(١) الدرقة : الترس .

فى قوسه[1] . ولم أر فى السودان أطول منه ولا أضخم جسما . واحتجت بهذه البلدة إلى شىء من الذرة فجئت إليه ، وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلمت عليه وسألنى عن مَقْدَمى ، وكان معه فقيه يكتب له ، فأخذت لوحا كان بين يديه وكتبت فيه : يا فقيه ، قل لهذا الأمير : إنا نحتاج إلى شىء من الذرة للزاد ، والسلام . وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرا ، ويكلم الأمير فى ذلك بلسانه . فقرأه جهرا ، وفهمه الأمير ، فأخذ بيدى وأدخلنى إلى (مشوره) ، وبه سلاح كثير من الدَّرَق والقِسىّ والرماح . ووجدت عنده كتاب (المُدْهِش لابن الجَوْزىّ) ، فجعلت أقرأ فيه . ثم أُتِى بمشروب لهم يسمى الدَّقْنُو ، وهو ماء فيه جَرِيش الذرة مخلوطا بيسير عسل أولبن . وهم يشربونه عِوض الماء . لأنهم إن شربوا الماء خالصا أضرَّ بهم . وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن . ثم أُتِى ببطيخ أخضر فأكلنا منه . ودخل غلام ، فدعاه وقال لى : هذا ضيافتك ، فاحفظه لئلا يفر . فأخذته وأردت الانصراف ، فقال : أقم حتى يأتِى الطعام . وجاءت إلينا جارية له دِمَشْقِيّة عربيّة ، فكلمتنى بالعربىّ . فبينما نحن فى ذلك ، إذ سمعنا صُراخا بداره ، فوجّه الجارية لتعرف خبر ذلك ، فعادت إليه ، فأعلمته أن بنتا له قد توفيت ، فقال : إنى لا أحب البكاء ، فتعال نَمْش إلى البحر ، يعنى النيل ، وله على ساحله ديار . فأتى بالفرس فقال لى : اركب ، فقلت : لا أركبه وأنت ماش . فمشينا جميعا ، ووصلنا إلى دياره على النيل ، وأُتِى بالطعام فأكلنا ، وودّعته وانصرفت . ولم أر فى السودان أكرم منه ولا أفضل . والغلام الذى أعطانيه باق عندى إلى الآن .

---

(1) ماهر فى الرماية ، فائق فيها .

ثم سرت إلى مدينة كَوْكَوْ ، وهى مدينة كبيرة على النيل ، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها ، فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك . وبها الفَقُّوص(١) العنَانِى الذى لا نظير له . وتعامُل أهلها فى البيع والشراء بالوَدَع ، وكذلك أهل مالّى . وأقمت بها نحو شهر . وأضافنى بها محمد بن عمر من أهل مِكْناسة . وكان ظريفا مَزَّاحا فاضلا . وتوفى بها بعد خروجى عنه . وأضافنى بها الحاج محمد الوَجْدِى التازِى ، وهو ممن دخل اليمن .

ثم سافرت منها إلى تَكَدَّا فى البر مع قافلة كبيرة للغُدامِسِيِّين (٢) ، ودليلهم ومقدَّمهم الحاج وُجِّين ، ومعناه الذئب بلسان السودان . وكان لى جمل لركوبى وناقة لحمل الزاد . فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة ، فأخذ الحاج وُجِّين ما كان عليها وقسمه على أصحابه ، فتوزَّعوا حَمْله . وكان فى الرُّفقة مغربىّ من أهل تادَلاَ ، فأبى أن يرفع من ذلك شيئا ، كما فعل غيره . وعطش غلامى يوما ، فطلبت منه الماء فلم يسمح به .

ثم وصلنا إلى بلاد بَرْدامة ، وهى قبيلة من البربر ، ولا تسير القوافل إلا فى خَفَارتهم . والمرأة عندهم فى ذلك أعظم شأنا من الرجل . وهم رحّالة لايقيمون . وبيوتهم غريبة الشكل ، يقيمون أعوادا من الخشب ويضعون عليها الحُصُر . وفوق ذلك أعواد مشتبكة ، وفوقها الجلود أو ثياب القطن . ونساؤهم أتم النساء جمالا وأبدعهن صُوَرا ، مع البياض الناصع ، ولم أر فى البلاد من يبلغ مبلغهن فى السِمَن . وطعامهن حليب البقر وجَرِيش الذرة ، يشربْنَه مخلوطا بالماء غير مطبوخ ، عند المساء والصباح . وأصابنى المرض فى هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء . واجتهدنا فى السير إلى أن وصلنا إلى

(١) الفقوص البطيخة قبل النُضج ، مصرية اهـ قاموس . ولكن الذى يظهر أن هذا نوع آخر غير البطيخ .

(٢) غُدامس بلدة بالمغرب ضاربة فى بلاد السودان اهـ قاموس .

مدينة تَكَدَّا . ونزلت بهـا فى جوار شيخ المغاربة سـعيد بن على الجزولى . واضافنى قاضيها أبو إبراهيم إسحق الجاناتىّ . وهو من الأفاضـل . وأضافنى جعفر بن محمد المَسُّوفى .

وديار تَكَدَّا مبنية بالحجارة الحمر . وماؤها يجرى على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك . ولا زرع بها إلايسيرا من القمح يأكله التجار والغرباء . ويباع بحساب عشرين مُدًّا[1] من أمدادهم بمثقال ذهب . ومُدّهم ثلث المد ببلادنا . وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مُدّا بمثقال ذهب . وهى كثيرة العقارِب . وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ . وأما الرجال فقلما تقتلهم . ولقد لدغتْ يوما وأنا بها ولدا للشيخ سعيد بن على عنـد الصبح ، فمات لحينه وحضرت جنازته . ولا شغل لأهل تَكَدَّا غير التجارة . يسافرون كل عام إلى مصر، ويجلِبون من كل مابها من حِسان الثياب وسواها . ولأهلها رفاهِيَة وسَـعة حال . ويتفاخرون بكثرة العبيد والخادمات . وكذلك أهل مالّى و إيوالآتن . ولا يبيعون المعلَّماتِ منهن إلا نادرا و بالثمن الكثير .

حكاية

أردت لمـا دخلت تَكَدَّا شراء خادم مُعَلَّمة فـلم أجدها . ثم بعث إلى القاضى أبو إبراهيم بخادم لبعض أصحابه ، فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا . ثم إن صاحبها ندِم ورغِب فى الإقالة ، فقلت له : إن دللتنى على سواها أقلتك . فدلنى على خادم لعلىّ أَغْيُول ، وهوالمغربىّ التَّادَلىّ ، الذى أبى أن يرفع شيئا من أسبابى[2] ، حين وقعت ناقتى ، وأبى أن يسق غلامى المـاء حين عطش .

---

(١) المد مكيال ، وهو ملء كفى الانسان المعتدل اه قاموس .

(٢) متاعى .

فاشتريتها منه وكانت خيرا من الأولى . وأَقَلْتُ صاحبي الأول . ثم نَدِم هذا المغربيّ على بيع الخادم ، ورغب فى الإقالة وألحّ فى ذلك ، فأبيت إلا أن أجازيه بسوء فعله ، فكاد أن يجن أو يهلك أسفا . ثم أقلته بعد .

ذكر معدن النحاس

ومعدن النحاس بخارج تَكَدّا يحفرون عليه الأرض ، و يأتون به إلى البلد ، فيسْبِكونه فى دورهم ، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم . فإذا سبكوه نحاسا أحمر ، صنعوا منــه قُضْبانا فى طول شبر ونصف ، بعضها رِقاق و بعضها غِلاظ ، فيباع الغِلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب ، وتبـاع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال . وهى صَرْفهم ، يشترون برقاقها اللحم والحطب ، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح . ويحملون النحاس منها إلى مدينة كُوبَر ، من بلاد الكفار ، وإلى زَغَاى ، وإلى بلاد بَرْنُو ، وهى على مسيرة أربعين يوما من تَكَدّا . وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه إدريس ، لا يظهر للناس ، ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب . ومن هذه البلاد يؤتى بالجوارى الحسان والفِتْيان ، وبالثياب المُجَسَّدَة[١] .

ذكر سلطان تَكَدّا

وفى أيام إقامتى بها توجه القاضى أبو إبراهيم ، والخطيب محمد ، والمدرس أبو حفص ، والشيخ سعيد بن علىّ ، إلى سلطان تكدا ، وهو بربرىّ يسمى إزار . وكان على مسيرة يوم منها . ووقعت بينه وبين التكْرَكْرِىّ ، وهو من

---

(١) مصبوغة بالجَسَد وهو الزعفران .

سلاطين البربر أيضا منازعة ، فذهبوا للإصلاح بينهما . فأردت أن ألقاه . فاكتريت دليلا وتوجهت إليه . وأعلمه هؤلاء بقدومى ، فجاء إلىّ راكبا فرسا دون سرج ، وتلك عادتهم . وقد جعل عوض السرج طِنْفِسة (١) حمراء بديعة . وعليه مِلْحفة وسراويل وعمامة ، كلها زُرْق . ومعه أولاد أخته ، وهم الذين يرثون ملكه . فقمنا إليه وصافحناه . وسأل عن حالى ومَقْدَمى ، فأعلم بذلك .

وانزلنى ببيت من بيوت اليناطِيِّين ، وهم كالوُصْفَان (٢) عندنا ، وبعث برأس شاة مشوىّ فى السَّفُّود ، وقَعْب (٣) من حليب البقر . وكان فى جوارنا بيت أمه وأخته ، فجاءتا إلينا وسلمتا علينا . وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعد العَتَمة ، وهو وقت حَلْبهم . ويشربونه ذلك الوقت وبالغُدُوّ . وأما الطعام (٤) فلا يأكلونه ولا يعرفونه . وأقمت عندهم ستة أيام . وفى كل يوم يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء . وأحسن إلىّ بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب . وانصرفت عنه . وعدت إلى تَكَدَّا .

ذكر وصول الأمر الكريم إلىّ

ولما عدت إلى تَكَدَّا ، وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السِّجِلْماسىّ ، بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، المتوكل على رب العالمين ، آمرا لى بالوصول إلى حضرته العلية ، فقبلته وامتثلته على الفور . واشتريت جملين لركوبى بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث . وقصدت السفر إلى تَوَات ، ورفعت زاد سبعين ليلة .

(١) هى البساط .

(٢) جمع وصيف وهو الخادم . ولكن الجمع المعول عليه (وُصَفاء) .

(٣) القعب : القدح الضخم الجافى .

(٤) المقصود بالطعام هنا القمح .

إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكَدّا وتوَات ، وإنما يوجد اللحم واللبن والسمن ، يشترى بالأثواب . وخرجت من تكَدّا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان ، سنة أربع وخمسين فى رُفْقة كبيرة ، فيهم جعفر التوَاتىّ ، وهو من الفضلاء ، ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضى تَكَدّا . وفى الرُفْقَـة نحو ستمـائة خادم . فوصلنا إلى كَاهُر ، من بلاد السلطان التَكَرْكَرِىّ . وهى أرض كثيرة الأعشاب ، يشترى بها الناس من برابرها الغنم ويقدّدون لحمها ، ويحمله أهل توَات إلى بلادهم .

ودخلنا منهـا فى بَرِّيَّة لا عمارة بها ولا ماء ، وهى مسيرة ثلاثة أيام . ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما فى برية لا عمارة بها ، إلا أن بها المـاء . ووصلنا إلى الموضع الذى يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر ، وطريق توَات . وهنالك أحْسَاء ماء يجرى على الحديد ، فإذا غسل به الثوب الأبيض اسود لونه . وسرنا من هنالك عشرة أيام ، ووصلنا إلى بلاد هكّار ، وهم طائفة من البربر مُلَثَّمون ، لا خير عندهم . ولقينا أحد كبرائهم ، فحبس القافلة حتى غَرِموا له أثوابا وسواها . وكان وصولنا إلى بلاهم فى شهر رمضان ، وهم لا يُغِيرون فيه ولا يعترضون القوافل . وإذا وَجَدَ سراقها المتاع بالطريق فى رمضان ، لم يعْرِضوا له . وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر .

وسرنا فى بلاد هكّار شهرا ، وهى قليلة النبات ، كثيرة الحجارة ، طريقها وَعْر . ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر أهل لِثَام كهؤلاء ، فأخبرونا بأخبار بلادنا ، وأعلمونا أن أولاد خَرَاج وابن يَغْمُـور خالفوا ، وسكنوا تَسَابيت ، من توَات . فخاف أهل القافلة ذلك . ثم وصلنا إلى بُودا وهى من أكبر قرى توَات ، وأرضها رمال وسِبَاخ (١) ، وتمرها كثير ليس بطيب ،

---

(١) جمع سَبَخة ، وهى أرض ذات نَزّ وملح .

لكن أهلها يفضلونه على تمر سِجِلْمَاسة . ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت . وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب . وأكل أهلها التمر والجراد ، وهو كثير عندهم يختزنونه كما يُخْتَزَن التمر ، ويقتاتون به ، ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس ، فإنه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد . وأقمنا بِبُودَا أياما . ثم سافرنا فى قافلة ، ووصلنا فى أوسط ذى القعدة إلى مدينة سِجِلْمَاسة ، وخرجت منها فى ثانى ذى الحجة ، وذلك أوان البرد الشديد . ونزل بالطريق ثلج كثير . ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير بِبُخَارى وسَمَرْقَنْد وخُراسان وبلاد الأتراك ، فلم أر أصعب من طريق أم جُنَيْبَة .

ووصلنا ليلة عيد الأضحى إلى دار الطَّمَع ، فأقمت هنالك يوم الأضحى . ثم خرجت فوصلت إلى حضرة فاس ، حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله . فقبّلت يده الكريمة ، وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك . وأقمت فى كَنَف إحسانه بعد طول الرِحْلة . والله تعالى يشكر ما أولانيه من جزيل إحسانه ، وسابغ امتنانه ، ويديم أيامه ، ويمتع المسلمين بطول بقائه .

وها هنا انتهت الرحلة المسماة (تحفة النظّار ، فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار) . وكان الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة ، عام ستة وخمسين وسبعمائة . والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

قال ابن جُزَىّ

انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بطوطة ، أكرمه الله . ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحّال العصر . ومن قال : رحال هذه الملة ، لم يبعد . ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة واتخذ حضرة فاس قرارا ومستوطَنا ،

بعد طول جولانه ، إلا لما تحقق أن مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأنا ، وأعمهم فضائل ، وأكثرهم إحسانا ، وأشدّهم بالواردين عليه عناية ، وأتمهم لمن ينتمى إلى طلب العلم حماية .

فيجب على مِثلى أن يحمد الله تعالى ، لأن وفقه فى أول حَلّه وتَرْحاله ، لاستيطان هذه الحضرة، التى اختارها هذا الشيخ ، بعد رِحْلة خمسة وعشرين عاما . إنها لنعمة لا يُقْدر قدرها ، ولا يُوَفَّى شكرها . والله تعالى يرزقنا الإعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين ، ويبقى علينا ظِل حُرْمته ورحمته ، ويَجْزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين إليه أفضل جزاء المحسنين .

اللهم وكما فضلته على الملوك بفضيلتى العلم والدين ، وخصصته بالحلم والعقل الرصين ، فمدّ لملكه أسباب التأييد والتمكين ، وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين ، واجعل الملك فى عَقِبه إلى يوم الدين ، وأرِه قُرّة العين فى نفسه وبنيه ومُلْكه ورعيته ، يا أرحم الراحمين . وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من تأليفها فى شهر صفر ، عام سبعة وخمسين وسبعمائة .

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى ١٨ من المحرم سنة ١٣٥٣ (٢ من مايو
سنة ١٩٣٤) .

مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين بهجت